

إميليا إدواردز

رحلة الألف ميل

ترجمة : إبراهيم سلامة إبراهيم

مراجعة : د. محمود ماهر طه

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

إهـــــداء ٢٠٠٦
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

رحلة الألف ميل

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

رحلة الألف ميل

تأليف
إميليا إدواردز

ترجمة
إبراهيم سلامة ابراهيم

مراجعة
د. محمود ماهر طه



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

A THOUSAND MILES UP THE NILE

By : Amelia B. Edwards

Pub : Oxford, Clarendon Press, London.

First ed : 1877. Second ed : 1888.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل العاشر	
أسوان والفنتين	٢٠٠
الفصل الحادى عشر	
الشلال والصحراء	٢٢١
الفصل الثانى عشر	
فيلة	٢٣٣
الفصل الثالث عشر	
من فيله الى كوروسكو	٢٥٩
الفصل الرابع عشر	
من كوروسكو الى أبى سنبل	٢٧٠
الفصل الخامس عشر	
رمسيس الأكبر	٢٨٨
الفصل السادس عشر	
أبو سنبل	٣١١
الفصل السابع عشر	
الشلال الثانى	٣٤٠
الفصل الثامن عشر	
الاكتشافات فى (أبو سنبل)	٣٥٤
الفصل التاسع عشر	
العودة من خلال أراضى النوبة	٣٨٤
الفصل العشرون	
السلسلة وادفو	٤٢٣
الفصل الحادى والعشرون	
طيبة	٤٤٢
الفصل الثانى والعشرون	
أبيدوس والقاهرة	٥٠٠
الملاحق	٥٢٨

تصـــــدير

كم أدهشتني هذه السيدة الانجليزية المتوسطة العمر اميليا ب • ادواردز ، تلك التي جاءت الى مصر بهدف السياحة ، ولكن ما شاهدته أغراها منذ البداية بتحويل الرحلة من مجرد السياحة العابرة الى الدراسة المتعمقة •.

ان هذه السيدة نموذج مضى عليه مائة وعشرون عاما ، ولكننا نرى فيه حداثة ماثلة تجعلنا نقدمه للمرأة المصرية التى تعيش السنوات الأخيرة من القرن العشرين وتبحث لنفسها عن دور أكبر تقوم به فى خدمة بلدها مصر • لقد خاطرت هذه السيدة بالقيام بالرحلة عبر النيل ذهابا وعودة فى مركب ، وعرضت نفسها للكثير من مخاطر الملاحة النهرية والتعامل مع العديد من النماذج الانسانية الغريبة عنها أصلا ولغة ، ولكنها فى جميع الأحوال اجتازت الرحلة بسلام ، وقد حرصت على الاستفادة من كل لحظة زمن بتدوين كل صغيرة وكبيرة عن النيل والأرض والانسان المصرى الذى عاش فى أيام الخديو اسماعيل ذلك الحاكم الطموح الذى حاول أن يجعل مصر قطعة من أوربا •

ان صورة مصر عند هذه السيدة عينة عظيمة لدراسة عميقة قدمتها المؤلفة بالانجليزية للأوربيين وها نحن ننقلها بالعربية لأصحاب البلد من المصريين ولكل قارىء بالعربية ليتعرف أكثر الى تاريخ هذا الجزء من الوطن العربى الذى يقود الأمة العربية •

ان الحضارة التى أقامها أجدادنا منذ خمسة آلاف عام تشهد بتقدمهم العجيب فى علوم الطب والهندسة والعمارة وكيمياء الألوان ، ووسائل قطع الصخور ونقلهـا دون توفر وسائل النقل القادرة على تحمل ثقل عشرات الأطنان • ثم استخدام هذه الصخور فى اقامة المعابد والصروح الضخمة دون توفر الروافع أو الأوناش ، ثم نقش عمائرهم بنقوش بارزة أو غائرة زاهية الألوان تعيش لامعة حتى اليوم فوق الحوائط والسقوف

الصلبة التى قاومت عوادى الأيام ... أليست هذه هى بواكير التاريخ المصرى وبداياته الزاهية التى نفاخر بها الآن وسنظل نفاخر بها على مدى الأيام ؟ ان التكنولوجيا الحديثة تقف عاجزة أمام التقدم العلمى المذهل الذى حققه أجدادنا العظام ، فلا هى بقادرة على مجاراته ، ولا تستطيع حتى فهم أسراره ، رغم المحاولات المستمرة لاكتشاف النظريات الخفية أو الامكانات السرية التى حقق بها أجدادنا هذه المعجزات .

وليس هذا هو كل ما يتضمنه الكتاب لأنه يقدم للقارىء صـــورة صادقة وأمينة لمصر التى شاهدتها المؤلفة على الطبيعة وعايشت أهلهـــا وتعاملت معهم ببساطة وحب واعجاب ، متضمنة التفاصيل الدقيقة عن الحياة اليومية خاصة فى قلب القاهرة القديمة (الموسكى) وما حوله من أحياء ... وجعلتنا نتذكر احتفالات سفر المحمل الى مكة ... وما كانت تجرى به الاحتفالات فى الأعياد والمناسبات والأفراح .

وفى النهاية لا يسعنا الا احترام هذه السيدة النبيلة وامتداح جهدها المشكور . ولا يفوتنا أن ننوه هنا بالجهد الكبير الذى بذله الأستاذ الدكتور محمود ماهر فى مراجعة هذه الترجمة وضبط عباراتها واضافة العديد من الملحوظات التى جعلتها تظهر بهذه الصورة المشرفة .

ابراهيم سلامة ابراهيم
القاهرة فى ١٥ يناير ١٩٩٦ .

مقدمة الطبعة الانجليزية الثانية

طبع هذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٨٧٧ ونفدت طبعته منذ سنوات عديدة . ولذلك راجعته وأعدت طبعه من جديد بثمن أرخص . وأثناء مراجعته قمت بتصحيح بعض التعليقات التاريخية فى ضوء الاكتشافات الأخيرة ، ولكننى تركت الأسلوب الروائى دون المساس به . ولم أدون أية ملحوظة عن التغييرات السياسية التى جرت على أرض مصر (*) منذ كتابة هذا الكتاب . ونظرا لأننى لا أقدم نفسى كمرشدة للآخرين فاننى لا أورد شيئا عن الأحوال المتغيرة التى يخضع لها غالبية الرحالة الذين يقومون بهذه الرحلة الآن عبر نهر النيل . وستكون هذه الأشياء أكثر امتاعا وأكثر عملية عند دراستها من خلال الصفحات التى دونها بيديكر وموراى .

أميليا ب . ادواردز
وستبرى ــ أون ــ تريم
أكتوبر ١٨٨٨

(*) تقصد بذلك الاحتلال البريطانى لمصر ــ (المترجم)

مقـدمة الطبعة الانجليزية الأولى

يتم جزء من الرحلة فى مصر على ظهر حمار ، ثم يقوم المسافر بنزهة بحرية فى مركب بين خرائب الآثار ٠

(أمبير) ٠

عندما أوجز أمبير الحديث عن مصر فى عبارة ساخرة « ركوب حمار ورحلة فى قارب خلال الخرائب » ، فانه فى الحقيقة قد أوجز فى سطر واحد التجربة الكاملة للرحلة عبر نهر النيل ٠ أما بخصوص هذه الأشياء الثلاثة ـ الحمير ، والقارب ، والخرائب ـ فيمكن القول بأن الحصول على سرج انجليزى جيد الصنع ، وباخرة نيلية مريحة (ذهبية) يضيفان الكثير الى بهجة الرحلة ، وأنه كلما عرف المرء الكثير عن التاريخ الماضى لهذا البلد فانه يستمتع أكثر بهذه الخرائب ٠

ولا أتعرض للحديث عن المميزات النسبية للمراكب الخشــبية ، والمراكب الحديدية ، والسفن البخارية ، ولكننـا على أية حال شـاهدنا ذهبية مصنوعة من الحديد راسية على ضفة رملية ، حيث علمنا فيما بعد أنها بقيت هناك لمدة ثلاثة أسابيع ٠ ورأينا أيضا حطام ثلاث سفن بخارية ما بين القاهرة والشلال الأول ٠ ومن المؤكد أنه بدا لنا أن الذهبية الخشبية عتيقة الطراز ، عريضة القــاع ، تسحب القليل من المــاء ، وهى خفيفة الوزن بحيث يسهل جذبها عند جنوحها ، وهى أفضل ما صنع من المراكب للملاحة فى النيل ٠ وبالطبع فان هناك اعتبارات أخرى تدخل فى هذه المسألة مثل الزمن والتكلفة ٠ ويعتبر الاختيار بين الذهبية والســفينة البخارية ، شبيها بالاختيار بين السفر على خيول البريد ، والسفر بالسكة الحديد ، لأن أحدهما مرتفع التكلفة ، ويمضى على مهل ، ويثير البهجة ، بينما الآخر رخيص وسريع وغير مريح نسبيا ٠ وبدون شك فان هؤلاء الذين يرتضون القاء نظرة خاطفة على النيل سيفضلون السفينة البخارية ٠ ويجدر بى أن أضيف أن التكلفة الكلية للرحلة من فيلة الى فندق كتراكت

بما فيها الطعام وأجرة الترجمان وايجار المركب متضمنة كل شيء فيما عدا الخمور — تبلغ حوالى عشرة جنيهات استرلينية فى اليوم ·

أما بخصوص حرارة الجو فقد وجدناه باردا — وشـــديد البرودة أحيانا — خلال شهرى يناير وديسمبر ، ومعتدلا فى فبراير ، ودافئا جدا فى شهرى مارس وأبريل · أما مناخ النوبة فهو ببساطة لا تشوبه شائبة ، حيث لا تمطر السماء أبدا · وعندما تعبر حدود المدار ، لا يحمل الهواء قشـــعريرة الصـــباح أو المســـاء · الا أنه حتى فى بلاد النوبة وخاصـــة طوال الأربعين ميلا التى تفصل (أبو سمبل) عن وادى حلفا ، فان الجو يكون باردا عندما تهب الريح من الشمال بشدة (١) ·

واذا عدنا الى عنوان هذا الكتاب فقد يعترض البعض عليه لأن المسافة من ميناء الاسكندرية الى الشلال الثانى تقل قليلا عن ألف ميل ، وهى تقدر فى الحقيقة بحوالى ٩٦٤ر٥ ميل · ولكن المسافر عند صخرة (أبو صير) التى تبعد عن وادى حلفا بمسافة خمسة أميال ، يرى أن الأرض التى تمتد مسافات ومسافات تتجاوز الثلاثين أو الخمسة والثلاثين ميلا ضرورية لاستكمال رحلة الألف ميل · وقد رأينا من هذه النقطة بوضوح قمم الجبال التى تقع على بعد حوالى ١٤٥ ميلا جنوب وادى حلفا والتى تشرف على الشلال الثالث ·

وربما وجب على أن أقول شيئا ردا على التساؤلات المتكررة من هؤلاء الذين انتظروا طبع هذا الكتاب منذ عام مضى · أستطيع أن أجيب فقط بأن عملية الطبع قد استغرقت عامين وليس عاما واحدا ، فمن المستحيل أن تكتب عن مصر بسرعة ، فالموضوع يتسع مع الكتابة ، ومع المعرفة التى يتحصل عليها المسافر خلال الطريق ·

والأهم من ذلك هو أن الموضوع محاط بعوائق لابد وأن تعرقل أسرع الأقلام ، ولن أدعى أن فى حوزتى أسرع الأقلام · وعلاوة على ذلك فان الكاتب الذى يطمح لأن يكون دقيقـــا عليه أن يتجول كثيرا للبحث عن الحقائق ، اذا لم يذهب أصلا الى المصادر الأصلية (التى قد تكون هى

---

(١) لفائدة من يريد معلومات أكثر دقة ، أضيف أن هناك قائمة بمتوسط درجات الحرارة مسجلة يوما بيوم ، وأسبوعا بأسبوع ، وهى موجودة فى نهاية كتاب مستر هـ· ويليرز ستيوارت Mr. H. Williers Stewart وعنوان الكتاب : قطرات من النيل : Nile Gleanings ·

النصوص ذاتها) ، وفى معظم الأحوال يلجأ الى الترجمات والتعليقات المخزونة فى الصفحات الغالية الثمن ، أو المتفرقة بين صفحات الدوريات العلمية ومحاضر جلسات الجمعيات المتخصصة • وهنا سيكتشف أن كل تاريخ أو اسم أو مرجع عابر ، قد يحتاج الى ساعات من البحث ، وأن مراجعة هذا العدد الضخم من الرسوم الخطية والتوضيحية التى يجب نقلها عن ملحوظات الصفحات التى تتناثر هنا وهناك فى كراسات الرسم التى فى حجم الجيب وهى الرفيق الدائم للرسام ، تستغرق زمنا ليس بقليل • وقد خطر فى بالى أن أورد ذلك على سبيل الاعتذار •

ويسعدنى أكثر أن أتذكر خفة العمل دون اعتبار للوقت الذى انقضى • ويجب أن أشكر الأصدقاء الذين لم يألوا جهدا فى بذل العون لاصدار هذا الكتاب • ونخص بالذكر المحترم س • بيرش (دكتور فى القانون) والذى يدعى بحق « الأب فى هذا القطر لمدرسة كبيرة فى فقه اللغة المصرية » • والذى قام أيضا بترجمة النصوص الهيراطيقية والهيروغليفية المتضمنة فى الفصل الثامن عشر ، والذى اطلع بعطف غير محدود على ذلك الفصل برمته فى المطبعة ، والى المحترم ريجنالد ستيوارت بول والبروفسير ر• أوين وس• ب• وغيرهم • والى السير ج• و• كوكس • الى هؤلاء جميعا أود أن أقدم امتنانى القلبى مع الاقرار بأفضالهم • ومن المؤكد أن يحسب من بين أمجاد العلم أن هؤلاء الذين يجملونه ويعملون فى ذلك باجتهاد ، هم أكثر الناس استعدادا للمشاركة فى مخزون المعرفة التى لديهم •

وكم أشتاق كذلك للتعبير عن امتنانى القلبى للمستر ج• بيرسون الذى تم حفر كافة الرسومات تحت اشرافه ، فالقول بأن صبره ولطفه كانا غير محدودين ، وأنه لم يبال بالوقت أو التكلفة فى توضيب كليشيهات الطباعة ، ليس الا مجرد ذكر للحقائق ، ولا ينقل أية فكرة عن ماهية العمل الذى تم انجازه • وخاصة أن أعمال الحفر التى نفذت على الخشب مباشرة تنتمى الى هذا النوع ، كما نفذت أيضا عن الرسومات المرسومة بالألوان المائية التى كان مطلوبا ليس فقط تصغير حجمها بل أيضا تنفيذها كما هى بالأسود والأبيض مما زاد من صعوبة تنفيذ العمل • ولمواجهة هذه الصعوبات وتأكيدا للدقة فان مستر بيرسون لم يطلب فقط معاونة الرسامين المنفذين ولكنه قام فى أحيان كثيرة بتصوير الموضوعات على الخشب مباشرة • أما فيما يخص عمل الزنكوغراف الذى يتحدث عن نفسه ـ فسأقول فقط اننى لا أعرف طريقة أخرى للتفوق عليه • ويبدو

لى أن بعض هذه الكليشيهات تعتبر نموذجا لما وصل اليه فن الحفر على الخشب من دقة فى التنفيذ ٠

أما الرسوم الرئيسية فقد رسمت جميعا على الخشب بمعرفة مستر بيرسيفال سكيلتون ولا يستطيع أحد سواى أن يمتدح مدى براعة هذه الرسوم لرقة قلمه الرصاص والأحاسيس الفنية التى نفذ بها الرسومات الأصلية ٠

أما عن سحر الرحلة المصرية ، وروعة النيل ، وجمال الصحراء غير المتوقع والفائق ، والخرائب التى تعتبر من عجائب الدنيا ، فقد أوفيت ذلك حقه فى مكان آخر ٠ ولابد أن أضيف أننى حملت معى الى وطنى احساسا بأن الأشياء والناس فى مصر ، لم تتغير كثيرا عما تعودنا أن نفترضه فى وقتنا الحالى ٠ وأعتقد أن بنية وحياة الفلاح الحديث تتطابق كثيرا مع بنية وحياة ذلك العامل المصرى القديم الذى نعرفه جيدا من خلال الرسوم الجدارية فى المقابر : أكتافه مربعة ، وأطرافه دقيقة ولكنها قوية ، وممتلىء الشفتين ، وبشرته بنية اللون ، ونراه مرتديا نفس المئزر على الخصر ، ويجذب نفس الشادوف ، ويحرث بنفس المحراث ، ويعد نفس الطعام بنفس الطريقة ، ويتناول طعامه بأصابعه من نفس السلطانية ؛ تماما كما كان يفعل أجداده منذ ستة آلاف عام مضت ٠

أما الحياة العائلية والأساليب الاجتماعية حتى تلك الخاصة بالنبلاء فى عواصم الأقاليم فلم تتغير كثيرا ٠ ويصب الماء على يدى الفرد من ابريق قبل تناول الطعـام ثم ينزل الى حوض مثلما نراه مرسوما فى منـاظر الاحتفالات فى طيبة ٠ وبالرغم من أن زهرة اللوتس قد اختفت الا أن باقة الزهور ما زالت تقدم الى كل ضيف عندما يأخـذ مكانه على المائدة ٠ وما زالت رأس الخروف المذبوح تعطى للفقراء كوليمة ٠ أما هؤلاء الذين يدعون الى تناول اللحم أو الشراب فانهم يلمسون الرأس والصدر عرفانا بالجميل كما كان الأمر قديما ٠ وما زال الموسيقيون يجلسون عند الطرف المنخفض من القاعة ، كما أن المطربين ما زالوا يصفقون بأيديهم تجاوبا مع أصواتهم ٠ وما زالت الفتيات الراقصات ترقصن ، كما أن المهرج ما زال يقدم هزلياته الشاذة وهو يرتدى قبعته المرتفعة الحواف لتسلية الضيوف ٠ ويتم احضار الماء الى المائدة فى دوارق من نفس الطراز الذى يصنع فى المدينة كما كان فى أيام خوفو وخفرع ٠ وكذلك فان فوهات القوارير تسد تماما بأوراق النباتات الطازجة والأزهار بنفس الطريقة ٠ وكانت الكوسة المحشوة باللحم المفروم هى الطبق المفضل فى عصر القدماء ، وأستطيع أن

أشهد بجودتها سنة ١٨٧٤ ، وما زال الأولاد الصغار فى النوبة يلبسون الطاقية المقفلة الجانب التى كانت تزين رأس رمسيس فى شبابه · ويمكن مشاهدة الفتيات الصغيرات فى ثيـــاب تشبه تماما الحزام الذى كانت ترتديه الأميرات الصغيرات فى عصر تحتمس الأول · وما زال الشيخ يمشى حاملا عكازا طويلا ، كما أن المرأة النوبية ما زالت تجدل خصلات شعرها فى شكل جدائل تتدلى كالذيول الصغيرة · أما مركب الترفيه الخاصة بالحاكم حاليا ، اى المدير ، فما زالت مثل الذهبية التى يستأجرها السائح الأوربى ، تمثلان هما كلتاهما فى جميع الملامح الضرورية صورة طبق الأصل من المركب ذات المجاديف والملونة بالطلاء المرسومة فى مقابر الملوك ·

فى هذه وفى مئات من اللحظات الأخرى التى وقعت كلهـــا تحت ملاحظاتى الشخصية ، واتخذت لها مكانا فى الصفحات التالية ، بدا لى أن أى غموض يتأرجح حول مشكلة الحياة والفكر فى مصر القديمة يصدر تقريبا من داخلنا · ان عاداتنا فى الحياة والفكر شديدة التعقيد لدرجة أنها تجعلنا بمنأى عن بساطة ذلك العالم القـــديم · وكان ذلك يرتبط بمشكلة الكتابة الهيروغليفية · كان واضحا أن أحدا لا يستطيع حلها ، وطالما أصر العالم على الاعتقاد بأن كل حرف هيروغليفى يمثل رمزا مبهما ، وأن كل نقش يمثل لغزا فلسفيا عميق المعنى ، فقد ظل سر الأدب المصرى عويص الحل · وأخيرا جاء شامبليون الشهير الى داسيبيه موضـــحا أن العلامات الهيروغليفية كانت تمثل حروفا أبجدية ومقاطع لفظية وأن اللغة التى استخدمت حروفها كانت هى القبطية فقط ·

ولو لم يوجد الآلاف من الذين ما زالوا يظنون أن الشمس والقمر مخلوقان يدوران ليس لغرض آخر سوى تبديد ظلام كوكبنا الصغير ، ولولا أن أحد النبلاء المحترمين قد هب فيما مضى لكتابة مقالة جادة متكاملة لبيان أن الأرض مسطحة ، لما صدق أحد أن هناك أناسا ما زالوا يشكون الآن فى امكانية قراءة وترجمة ما خلفه قدماء المصريين بنفس طلاقة اليونانية القديمة · لقد قابلت فى مصر رجلا انجليزيا أقام فى القاهرة لفترة طويلة وكان على معرفة تامة بعلماء الدراسات المصرية القديمة الذين كانوا فى خدمة الخديو ـ أكد لى عدم اعتقاده الراسخ فيما اكتشفه شامبليون ؛ وقال : « فى رأيى أنه لا أحد من هؤلاء السادة يستطيع أن يقرأ سطرا واحدا من الهيروغليفية » ·

ولما كنت حينذاك لا أعرف شيئا عن اللغة المصرية ، فاننى لم أجادل فى هذا الحديث · وعلى كل حال فاننى منذ ذلك الحين وأثناء كتابتى لهذا

الكتاب تقدمت خطوة خطوة في دراسة الكتابة الهيروغليفية وأنا الآن أعرف امكانية قراءة اللغة المصرية لسبب بسيط هو أنني استطعت قراءة جملة بها • وقد لا تكون شهادتي ذات قيمة كبيرة ولكنني أقدمها بسبب القليل الذي تساويه •

ان دراسة الأدب المصري قد تقدمت بخطى سريعة خلال السنوات الأخيرة • وبالرغم من أن العثور على أوراق البردي أصبح الآن أكثر ندرة مما كان عليه منذ ثلاثين أو أربعين عاما مضت الا أن ترجمة الموجود منها في المتاحف الأوربية تسير الآن باجتهاد أكثر مما كان يحدث في الماضي • لقد جرى القاء الأضواء على الكتب الدينية ، وأشكال الطقوس ، والمواعظ الأخلاقية ، والأقوال المأثورة ، والرسائل الشخصية ، والترانيم ، والملاحم الشعرية ، والمدونات التاريخية ، والحكايات ، وصكوك البيع ، والبحوث الطبية والسحرية والفلكية ، والسجلات الجغرافية ، واخبار الأسفار والمغامرات والروايات ، كما تم تصويرها ونسخها باستخدام قوالب الحفر الملونة ، وطبعها حسب النمط الهيروغليفي وترجمتها بأساليب تناسب كلا من الدارس والقارىء العادي •

ولم يكن كل هذا الانتاج بالضرورة مدونا على البرديات ، لأن القسم الأكبر منه كان محفورا في الحجر • والبعض منه مرسوم على الخشب أو مكتوب على قماش الكتان أو الجلد أو الشقافات الخزفية وغير ذلك من المواد • وبذلك نجد أن السر القديم الخاص بمصر ونعني به الانتاج المكتوب قد انكشف • وأصبح مفتاح الهيروغليفية هو المفتاح الرئيسي الذي يفتح جميع الأبواب • ونرى الآن حلا لبعض المشاكل التي تقابلنا في كل عام يمر علينا • وكل يوم يلقى الضوء على بعض الحقائق التي طال زمن دفنها •

ومنذ حوالي ثلاثة عشر عاما (١) رسم فنان أمريكي مشهور صورة جميلة أسماها « سر أبي الهول » وأنا أفترض أن سر أبي الهول يعني في مفهومه الواسع كل ماضي مصر الذي كان يستعصي تأويله واستكشافه • أما في مفهومه الضيق فانه كان يعني منذ وقت قليل ، المعنى المخفي للأسد الذي يحمل رأس انسان والذي يمثل أحد الموضوعات النموذجية للفن المصري • وعندما نرجع بالنظر الى فترة الثلاثة عشر عاما نجدها فترة

---

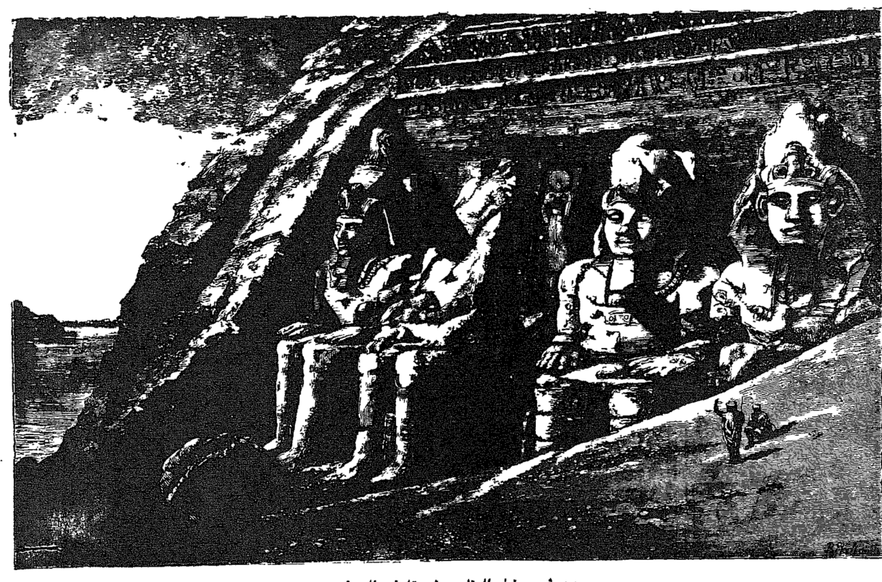
(١) يمكن تذكر هذه التواريخ بالعودة الى عام ١٨٧٧ عندما ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب •

قصيرة ، ولكن أنجزت خلالها أعمال عظيمة في مصر وفي علم المصريات . لقد انكشفت ادفو بثروتها غير العادية من النقوش ، كما استعيدت كافة محتويات متحف بولاق من بين غياهب القبور . وتم كذلك كشف سر أبي الهول . وحتى خلال الثمانية عشر شهرا الأخيرة أعلن مستر شاباس أنه اكتشف تاريخ هرم منكاو رع ، وهكذا تم لأول مرة معرفة التسلسل الزمني لتاريخ مصر القديمة على أساس ثابت . وعلى ذلك فالعمل مستمر : الدارسون في مكتباتهم ، والقائمون بالحفائر تحت سماوات مصر ، يكدحون خلال مسالك مختلفة في اتجاه هدف واحد . وتعني هذه الصورة الكثير اليوم بالنسبة لما كانت تعنيه منذ ثلاثة عشر عاما مضت . بل انها تعني أكثر مما كان يقصده الفنان . ولا يوجد الآن غموض في أبي الهول إلا للجاهل فقط .

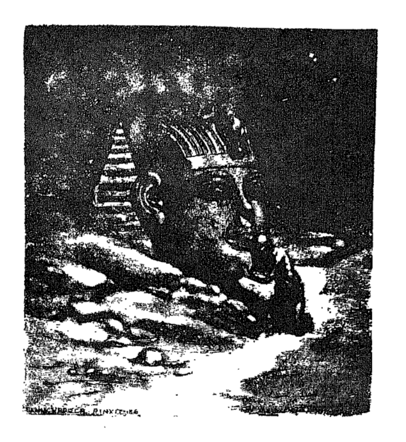
وترى في الصورة فلاحا بني اللون ، نصف عار ، يبدو عليه الانهاك ، واضعا أذنه ملاصقة للشفاه الحجرية لأبي الهول الضخم ، والمدفون في الرمال حتى عنقه . وتقول له غريزة الدماء المصرية القديمة ان الانسان يشبه الاله . وهو متنبه للأسرار العظيمة التي تكمن في الماضي . وربما كانت لديه فكرة عامة غامضة تعني أن الرأس الضخم للتمثال تعرفها كلها مهما كانت ماهيتها . انه لم يسمع عن أغنية الصباح لدى ممنون ، ولكنه على أية حال يتخيل أن تلك الشفاه المغلقة لابد أن تتكلم اذا سئلت . ان الفلاح وأبا الهول يقفان بمفردهما في الصحراء . الوقت ليل ، والنجوم تلمع . فهل اختار اللحظة المناسبة فعلا ؟ ما الذي يريد أن يعرفه ؟ وما الذي يأمل أن يسمعه ؟

لقد سمح لي مستر فيدر بأن أثري هذا الكتاب بهذه الصورة الزنكوغرافية من عنده . انها تحكي قصتها ، أو انها تحكي الكثير من قصتها حسبما اختار الفنان .

أميليا ب. ادواردز
وستبري – أون – تريم
جلو شستر شاير
ديسمبر ١٨٧٧



معبد أبو سنبل العظيم منحوتا فى الصخر



على كل شخص أن يفسر لنفسه
سر أبي الهول .

المقـــــــــدمة

منذ أن غامر هيرودوت بالابحار جنوبا فى النيل فى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، ألقى هذا النهر ، الذى هو أكثر أنهار الدنيا جاذبية ، بسحره على الأوربيين ٠

ولم يتم حل سر منبعه حتى عـاد ستانلى سنة ١٨٧٧ من رحلته جنـوبا الى لوالابا والكونغو ، وفى القرن التاسع عشر تأثرت الحركة الرومانتيكية كثيرا بآثار مصر التى انصب اهتمامها على الموت ٠ وقد عرف نابليون مصر بوصفها حلقة اتصال حيوية للتجارة مع الشرق ، ولذلك قام بغزوها سنة ١٧٨٩ ٠ أما أميليا ب٠ ادواردز فانها بالرغم من أنها باتت من أشد الكتاب ارتباطا بالنيل ، الا أنها كانت قد جاءت الى مصر ووصلت الى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٨٧٣ بالصدفة فقد جاءت هربا من المطر فى أوربا مع صديقة لها ، وبقيت بمصر لتصبح عالمة رائدة فى علم المصريات ٠

وكانت أميليا واحدة من سيدات العصر الفيكتورى الجريئات والتى على الرغم من أن القارىء قد يسعد بالقراءة عنها الا أنه قد يجد صعوبة فى معرفتها مباشرة ٠ ذلك على الأقل هو الانطباع الأول الذى يخلقه هذا الكتاب ، ولكنه حينما يقرأ لها ويعيد القراءة ، تصبح فى الوقت المناسب صديقا حقيقيا بلا مبالغة ٠ أما اهتمامها العظيم بالناس ، وتفهمها للثقافات الغريبة ، وعدم تحيزها لبنى وطنها ، كل ذلك يجعلها بالتدريج أكثر وأكثر تعاطفا ٠

وكان واضحا منذ صغرها أن لديها موهبة نادرة ٠ كان أبوهـــا ضابطا بالجيش ، حارب مع ولنجتون فى حرب شبه الجزيرة ٠ وكانت أمها تنحدر من أسرة والبول ٠ ويبدو أن هذا التزاوج أعطاها شجاعة واستعدادا فطريا للأداء الفنى ٠ وفى سن السابعة نظمت أميليا قصيدة نشرت فى جريدة أسـبوعية ٠ وعنـدما بلغت سن الســادسة عشرة كان من الممكن

اختيارها لتكون مغنية أوبرا أو فنانة أو كاتبة . وآخيرا استقر اختيارها على الصحافة والكتابة .

وفيما بين عامي ١٨٥٥ و ١٨٨٠ كتبت ثماني روايات ، وان كانت لا تتميز بشيء جديد . وساهمت في مجموعة واسعة من الجرائد والمجلات . وألفت أيضا كتبا ذات شعبية في التاريخ والفن .

ولكنها حتى بلوغها سن الثانية والأربعين لم تكن قد قامت بعد بالمغامرة التي جعلت لها رسالة في الحياة وأعطتنا نحن تذكارا عزيزا لها في شكل رحلة الألف ميل في صعيد مصر. أما بالنسبة لنا فان ما يدهشنا هو قدرة السيدتين على القيام سنة ١٨٧٣ بالرحلة عبر نهر النيل في مركب خشبية عريضة القاع . لقد مات لفنجستون في شهر مايو من ذلك العام ، كما أن جوردون كان متبقيا له ثلاثة أشهر لاستكمال رحلته الأولى الى الخرطوم . أما قناة السويس فكانت قد افتتحت منذ أربعة أعوام . وكذلك لم تكن مسلة كليوباترا قد أقيمت بعد بمعرفة البريطانيين .

ويصح القول بأن توماس كوك كان قد بدأ لتوه بتسيير رحلاته بالمركب البخارية عبر النيل (ذكرت أميليا أن مركبيهما قد انغرزتا في بعض الضفاف الرملية) وما زالت هذه الرحلة تمثل مغامرة كبرى . أما وصف أميليا ادواردز لهذه الرحلة فهو رائع لأنها تعرضه في عبارات واضحة تملأ القارىء بالسعادة وسعة الأفق التي تشد الانتباه ، وبالرغبة في الاستزادة من التفاصيل مما يجعلها وثيقة تاريخية لا تقدر بثمن .

ولا يستطيع سوى الكاتب المتمرس أن يصوغ عبارة مثل « الاغريق الذين يرتدون نقبا بيضاء مشدودة كما لو كانوا مماحي تمشي على الأرض(*) . ولا يستطيع أحد سوى أميليا أن يهتم أو يسعى الى معرفة خاصية التبغ الرخيص الذي كان ملاحو مركبها يتقبلونه شاكرين عندما تقدم لهم بعضا منه في شكل اكرامية : « هذا الخليط الفظيع الذي يباع الرطل منه في السوق بستة بنسات . ان النبات الذي جمع منه قد استنبت من بذرة ذات رتبة أدنى ، في تربة غير صـــالحة كيميائيا لأنها خالية تماما من البوتاسيوم » . ولم يحدثني كاتب آخر عن بغل له « أرجل وأفخاذ حليقة

(*) كانت الممحاة (الاستيكة) في السابق تصنع من عود البوص أو الخشب ويلف على الجزء السفلى منها قماش أبيض ، والكاتبة هنا تشبه تماثيل المصاريين الاغريق الأولى بهيئتها المشدودة المتصلبة بتلك المماحي ـ (المترجم) .

الشعر ... ملون بخطوط زرقاء وبيضاء فى شكل متعرج ، ومزين بأشرطة ذات لون أصفر فاتح » .

ومن الطبيعى أن يخصص الجزء الأكبر من الكتاب للحديث عن خرائب وآثار مصر القديمة . وقد قامت أميليا بقياس ورسم ووصف كل التفصيلات التى يمكن تصورها . انها تمر بعروسين شابين يقضيان شهر العسل ويزوران معا بعض المعابد ، بينما تركب أميليا حمارا لمدة ثلاث ساعات فى درجة حرارة تتجاوز ١٠٠ فهرنهيت لكى تزور معبدا للمرة الثانية .

وتتمتع أميليا بالمشاعر الانسانية بما يكفي للقلق خشية أن تكون الحياة قد تغيرت كثيرا مما يجعلها تتوقع أن تكون قد فاتها أفضلها . والحق أنها خصصت صفحتين من مقدمتها لشرح كيف أن مصر لم تتغير كثيرا منذ عصر الفراعنة ، وكذلك فانها نجحت فى تدوين ملاحظات قليلة عن السائح الحديث الذى يركب مركب توماس كوك البخارية ، وهى نفس المراكب التى استولى عليها كتشنر بعد ذلك بحوالى خمسة وعشرين عاما للابحار الى الخرطوم انتقاما لمقتل غوردون . أما بالنسبة لنا اليوم فلابد من وجود نفس هذا القلق . كيف يحسد الانسان أميليا لأنها تتجول حول خرائب الكرنك بنفسها بينما نغوص نحن بين السياح الذين يتكدسون فى المركبات المزركشة ؟

كم يكون غريبا ومدهشا أن يكتشف أحد أفراد جماعة أميليا فى أبى سمبل مقبرة غير معروفة ، ونقول بطريقة أخرى انه كان غريبا أنها جعلت طاقم مركبها فى أبى سمبل ينظفون أحد تماثيل رمسيس الثانى الضخمة . وكانت التماثيل قد « تشوهت بسبب الجص الذى ترك عليها عندما أزال مستر هاى الطبقة الخارجية منذ أكثر من نصف قرن مضى » . لقد أزالوا الجص بفرح عظيم وصبغوا البقع الباهتة المتبقية بلون القهوة .

وخلاف ذلك كله رأينا كثيرا مما لم تره أميليا . مركب الشمس الرائعة المحفورة من كتلة خشبية مجوفة قريبا من الهرم الأكبر ـ وتعتبر أجمل قارب فى العالم . ولم يكن قد اكتشف بعد معبد كوم أمبو الذى أثار اهتمام اميليا حتى سنة ١٨٩٣ لتتحقق آمالها الى حد كبير . وكان معبد اسنا مكشوفا بالرغم من أنه لم يكن ذا ميزة كبيرة .

ومما يزيد الغرابة من منطلق ذوق أميليا التى كانت شديدة الاهتمام بالدراسة ، أننا تمتعنا بهذه الاكتشافات بينما تبدو الخرائب الواسعة

أكثر اثارة لدى غير المتخصصين (*) • اما من جهتى أنا فاننى بينما اشعر بالامتنان نحو أميليا من أجل معلوماتها الأثرية الغزيرة ، فاننى أكثر امتنانا بسبب تلك الومضـــات الخفيفـــة للطبيعـــة الانسانية التى تملأ صفحات كتابها بالحياة • لقد أحببت سخريتها من الذات ، وأتعجب من التمثال الحزين الذى نحتته هى ورفيقتها « مستخدمتين القبعتين الغريبتين المصـــنوعتين من سعف النخيل ، والبرقعين الخضراوين والشـــمسيتين المصنوعتين من القماش الأبيض » •

واننى أعجب لاهتمامها بمعيشة بحارتهـــا العشرين الذين عرفت أسماءهم خلال أيام ، والذين كان اسعادهم شغلها الشاغل دائما • اننى أحب فهمها للعادات المصرية ، وحكاويها التى دونتها عن الولائم التى ملأت الأفواه ، والقداس القبطى الذى لاحظته بكافة تفاصيله • وأستمتع كثيرا بحكايتها عن المرة الأولى التى ركبت فيها الجمل والتى لم يتفوق عليها أحد آخر فى وصفها ، ورباطة جأشها عندما أطلق أحد مرافقيها الرصاص على طفل •• ولكنك ستقرأ هذه الحكاية •

واستمرت اميليا فى العمل والتنقيب بعد رحلتها حتى تشبعت بعلم المصريات • وأنشأت صندوق استكشاف مصر Egypt Exploration Fund ، وقامت بحملات للحفاظ على الآثار • وتوفيت سنة ١٨٩٢ ، وتركت مكتبتها لكلية الجامعة فى لندن ، مع مبلغ من المال لتأسيس كرسى لعلم المصريات فى انجلترا • وتركت لنـا كتابا يعد من أعظـم المؤلفات فى الدراسات القديمة الخاصة بنهر النيل •

كوينتين كريوى
١٩٨٢

(*) اننى أعجب لكاتب هذه المقدمة الذى أشار الى تمتعه بما لم تشاهده اميليـا من اكتشافات ، ونسى أن يشير الى آثار توت عنخ آمون رغم أنه كتب مقدمته هذه سنة ١٩٨٢ ـ (المترجم) •

الفصـــل الأول

القـــاهرة والهرم الأكبر

ان قدر السائح هو أن يتناول وجباته فى أماكن كثيرة أثناء جولاته العديدة ، ولكنه نادرا ما يشارك فى تجمع متعدد الأفراد كمثل هذا الذى يملأ قاعة الطعام الضـخمة بفندق شبرد فى القاهرة خـلال بداية وقمة انشغال الموسم السياحى المصرى المعتاد · فهنا يجتمع يوميا حوالى مائتى أو ثلاثمائة شخص من كافة المقامات والجنســـيات والمهن ، نصفهم من البريطانيين الذين ولدوا أو عاشـــوا فى الهند وهم فى طريق عودتهم للوطن أو قادمين منه ، والأوربيين المقيمين أو الزائرين الذين يقضـــون الشتاء بالقاهرة · أما النصف الآخر فقد يكون مدعوا للذهاب فى رحلة عبر النيل · وبالرغم من أن هذا التجمع من المسافرين فى النيل متنوع ومتنافر ، فهو يتضمن صغار السن والكهول ، والذين يرتدون الملابس الراقية وغير الراقية ، والمتعلمين وغير المتعلمين ، ذلك لأن الدافع الأول للقادم الجديد هو الاستفسار عن السبب الذى يجعل أشخاصا عديدين ذوى أذواق وخبرات متباينة ، يتجهون للابحار فى رحلة استكشافية أقل ما يقـال عنهـــا انها مثيرة للملل وغالية التكلفة وتولد اهتماما خارقا للعـــادة ·

وسرعان ما يتم اشباع فضوله · قبل مضى يومين يعرف اسم كل شخص وعمله ، ويميز من أول نظرة ما بين السائح التابع لتوماس كوك والسائح المستقل · ويكتشف أن تسعة أعشار هؤلاء الذين يتوجهون للنيل هم من البريطانيين أو الأمريكيين · أما الباقون فانهم فى الغالب من الألمان مع قلة من البلجيكيين والفرنسيين · وبالرغم من وجودهم مجتمعين الا أن التفاصيل ما زالت غير متجانسة الى حد بعيد · هنا مرضى يبحثون عن الصحة ، وفنانون يبحثون عن موضوعات ، ورياضيون مشتاقون للاقاة التماسيح ، وسياسيون يقضون الاجازات ، ومراسلون صحفيون متأهبون للدردشة ، وجامعو تحف يبحثون عن البرديات والمومياوات ، وعلماء لهم

أهداف علمية من وجهة نظرهم ، والفائض المعتاد من الكســالى الذين يسافرون لمجرد حب السفر ، أو ارضــاء لحب الاستطلاع الذى يمضى بلا هدف .

والآن فانه فى مكان مثل قاعة فندق شبرد حيث ينال كل قادم جديد شرف المشاركة فى التسلية العامة ولو لعدة دقائق ، فان الظهور الأول للكاتبة وصديقتها ، وهما متعبتان ويغطيهما التراب ، وقد ظهرت عليهما آثار لفحة الشمس ، قد يثير بعض التعليقات داخل حلقات هذه الموائد المزدحمة . كان الناس يســألون بعضهم بعضا : من أين أتت هاتان السيدتان الانجليزيتان الجوالتان ، ولماذا لم ترتديا الملابس المناسبة لتناول الغداء ، وما الذى أتى بهما الى مصر ، وهل ستبحران أيضا عبر النيل ؟ وهى أسئلة تسهل الاجابة عليها .

لقد جئنا من الاسكندرية ، وكنا قد واجهنا رحلة صعبة من برنديزى تبعتها ثمان وأربعون ساعة فى الحجر الصحى . ولم نرتد الملابس المناسبة للغداء لأننا وصلنا لتونا من المحطة قبل وصول الترجمان والعفش ، واستطعنا أن نلحق بمقاعدنا للغداء مع غيرنا فى الوقت المناسب . وبالطبع فاننا ننوى الابحار عبر النيل . وعندما يجازف أى شخص بالاستفسار فى كلمات عديدة عما جاء بنا الى مصر فاننا نجيب « ضغوط الطقس » .

والحقيقة أننا قد جئنا الى هنا بالصدفة ، ليس بســبب الصحة أو العمل أو أى شىء جاد ، واتخذنا من مصر ملجأ مثلما ينتحى الانسان جانبا فى ممر بيرلنجتون أركاد المسقوف بالبواكى أو ممر باســاج دى بانوراما ، للهرب من المطر .

ولسبب معقول ، رحلنا عن موطننا مبكرا فى سبتمبر لقضاء أسابيع قليلة لممارسة الرسم الكروكى فى وسط فرنسا حيث تبعنا أكثر مواسم الشتاء ازدحاما بالمطر .

أما وقد اغتسلنا من آثار المطر فى الريف الغنى بالتلال ، فان الأمر لم يكن أفضل حالا فى السهول ، ففى نيمز ظلت الدنيا تمطر بلا توقف لمدة شهر . وفى النهاية ناقشنا أفضلية حمل شمسياتنا المبللة عائدتين حالا الى انجلترا ، أو المضى قدما بحثا عن سطوع الشمس . ودار الحديث عن الجزائر ومالطة والقاهرة فوقع الاختيار على القاهرة .

ولم يحدث أبدا أن جاءت حملة استكشافية دون التفكير مليا قبل الاقدام على السفر · ولم نكد نستقر على هذا الأمر حتى سارعنا بالرحيل · وانتقلنا عبر نيس وجنوة وبولونيا وأنكونا فيما يشبه الحلم · وعندما استيقظ بدر الدين حسن عند بوابات دمشق لم يكن أكثر اندهاشا من كاتبة هذه الصفحات عندما وجدت نفسها على ظهر السفينة سيملا خارجة من ميناء برنديزى ·

وهنا وبدون تخطيط مسبق أو أية تجربة فى زيارة الشرق ، وصلنا الى القاهرة فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٧٣ للبحث عن طقس أفضل هكذا حسب الألفاظ المستخدمة وبدون تزويق ·

ولكن ماذا تستطيع الذاكرة أن تفعل حيال الأمطار على الأرض ، أو العواصف فى البحر ، أو الساعات المتعجلة فى الحجر الصحى ، أو أى شىء موحش أو غير مقبول ، عندما يستيقظ الانسان عند شروق الشمس ليرى تلك النخلات ذات اللون الأخضر المائل للرمادى خارج النافذة وهى تحنى هاماتها المثمرة فى رزانة بعضها نحو البعض الآخر ، فى مواجهة الفجر الملون بلون الورد ؟

كانت الليلة الماضية مظلمة ولم تكن لدى أية فكرة عن أن حجرتى تطل على حديقة غناء ، بعيدة ومنعزلة ، يسكن تحتها عمالقة ذوو أبهة وجلال ، وقد علقت فى تيجانهم المزودة بالشراريب سباطات غنية بالبلح ذى اللونين القرمزى المائل للسمرة والعنبرى · وكان صباحا هادئا ودافئا ، وطارت الغربان ذات اللونين الرمادى والأسمر من شجرة الى أخرى بشدة ، أو جثمت فى تأمل عميق ، فوق الأفرع العليا تنعق على مهل ·

وهناك بين الدعائم التى تحيط بالأعمدة ، ارتفعت مئذنة مسجد بعيد ، وهنا حيث أحيطت الحديقة بحائط مرتفع ومنزل بلا نوافذ ، رأيت سيدة محجبة تتمشى على سطح الشرفة وسط سحابة من الحمائم ولا يوجد شىء أبسط من هذا المنظر وملحقاته ، وفى نفس الوقت ، أكثر تعبيرا عن الروح الشرقية والغرابة والخيال ·

ولكن الانسان وهو يتوق للاستمتاع بأول انطباع ساحق لا يمحى عن الحياة الشرقية الخلوية لابد له أن يبدأ بالقاهرة فى يوم يزور فيه الأسواق المحلية ، ليس للشراء أو الرسم الكروكى ، ولا للبحث عن

المعلومات ، ولكن فقط للاستمتاع بالمناظر واحدا تلو الآخر مع ما فيها من مجموعات متشعبة من تفاصيل الضوء والظل واللون والملابس والعمارة . ان كل واجهة محل وكل زاوية شارع وكل فريق من الناس الذين يرتدون العمامة ، يمثل صورة حية . ان التركى العجوز الذى يقيم كشك الفطائر الخاص به فى تجويف مدخل منحوت ، والولد الذى يقود حماره ذا السرج المزركش فى انتظار الزبائن ، والشحاذ النائم على سلالم المسجد ، والمرأة المحجبة التى تملأ جرتها من السبيل العمومى — انهم يبدون جميعا كما لو كانوا قد استعدوا لكى يقوم رسام برسم صور لهم .

ولم تكن خلفية الصورة أقل روعة عن الأشخاص . أما المنازل فانها عالية وضيقة ، وتبرز الأدوار العليا الى الخارج ، كما تبرز منها مرة أخرى النوافذ الناتئة مع أشغال المشربيات الرقيقة المصنوعة من الخشب العتيق البنى اللون ، مثل أقفاص الطيور الضخمة . أما الشارع فانه مسقوف فى أعلاه بعوارض خشبية طويلة ، وقطع من الحصير ، يطل من بينها شعاع الشمس متلكئا هنا وهناك ، مع مساحات صغيرة من الضوء تسقط على الجمع السائر .



الحمار المستخدم فى القاهرة

أما الشارع العام غير الممهد – وهو حارة ضيقة مليئة بالأخاديد ، والذى يرش بالماء الغزير مرتين أو ثلاث مرات يوميا – فانه يشمل صفوفا من واجهات المحلات الخشبية الصغيرة التى تشبه الكبائن المفتوحة المزدحمة بالأرفف حيث يجلس التجار واضعين ساقا على ساق بين بضائعهم وهم ينظرون خارج المحلات نحو المارة ويدخنون فى صمت · وفى نفس الوقت فان الزحام لا يتوقف عن حركة المد والجزر فى شكل موج صاخب ومتغير ومضطرب ومتعدد الألوان ، نصفه من الأوربيين والنصف الآخر من الشرقيين مشاة على الأقدام أو ممتطين ظهور الخيل أو فى الحناطير · وتجد هنا التراجمة السوريين فى سراويلهم الفضفاضة ، وصديرياتهم المزينة بالقصب ، والفلاحين المصريين حفاة الأقدام مرتدين جلابيب رثة زرقاء وطواقى من اللباد ، واليونانيين الذين يرتدون تقبا بيضاء مشدودة كما لو كانوا مماحى تمشى على الأرض ، والايرانيين فى طواقيهم العالية مثل تاج الأسقف والمنسوجة من القماش الداكن ، والبدو ذوى البشرة السمراء فى عباءاتهم الفضفاضة ونعالهم ذات الشرائط البنية اللون والشيلان التى من نفس القماش تلتف حول الجبهة مع شريط من وبر الجمل المجدول ، والانجليز فى قبعات من الخوص وبنطلوناتهم القصيرة التى تصل الى الركبتين ، وهم يدلون سيقانهم الطويلة فوق الحمير التى تكاد تختفى عن الأنظار ، ونساء وطنيات من أفقر الطبقات يرتدين البراقع السوداء ، التى لا تظهر سوى العينين ، والعباءات الطويلة ذات اللون الأزرق الداكن ، والتى تنسدل أذيالها وتجر خلفهن مع الشرائط القطنية السوداء ، والدراويش فى ملابسهم ذات الرقع ، وشعرهم الأشعث الذى ينسدل من تحت أغطية الرأس الغريبة الشكل ، والأحباش ذوى اللون الأسود الداكن بسيقانهم الرفيعة المقوسة مثل الدرابزين المصنوع من خشب الأبنوس الرفيع · والقساوسة الأرمن الذين يشبهون الأطباء فى عباءاتهم السوداء الطويلة وقبعاتهم المربعة المرتفعة ، والشخصيات المهيبة للعرب الجزائريين وهم يرتدون ملابسهم البيضاء ، وعساكر الانكشارية الذين يركبون الخيول ، بسيوفهم ذات الصليل ، وبذلاتهم المزركشة بالذهب ، والتجار ، والشحاذين ، والجنود ، والبحارة ، والعمال الزراعيين ، والشغالين ، فى جميع تشكيلات الأزياء ، ومن كل الألوان من الفاتح الى الداكن ، ومن اللون الأصفر المائل للسمرة الى النحاسى ، ومن البرونزى الغامق الى الأسود الداكن ·

ويمر الآن السقا ، منحنيا تحت حمل قربته المصنوعة من جلد الماعز ، والتى ملأها مجددا ، وقد ربطت أقدامها ، أما العنق فقد ركبت فيه حنفية

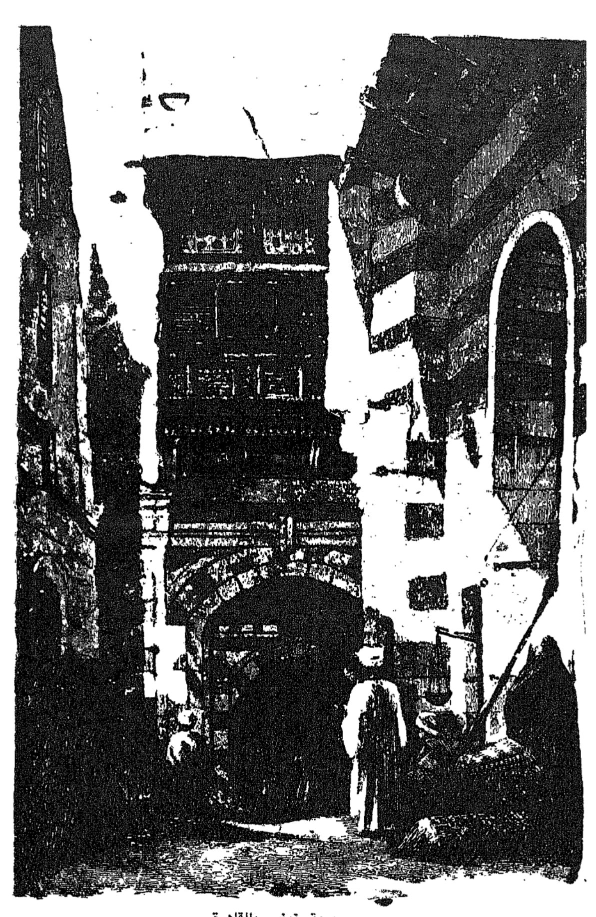
نحاسية ، وقد ترك شعر الماعز دون ازالة ، مما جعل شكلها المرعب مترهلا فبدت كما لو كانت عنزا حية . والآن يأتي بائع الحلوى وهو يحمل صينية من الخليط اللزج الذى يعرفه الأطفال الانجليز باسم (مكعبات البهجة — Lumps of delight) . وتمر الآن سيدة مصرية تركب بغلا رمادى اللون يقوده خادم يحمل على جانبه سيفا مقوسا لامعا ، وترتدى السيدة ثوبا حريريا بلون الورد ، وبرقعا أبيض اللون ، بالاضافة الى عباءة خارجية من الحرير الأسود ، بحيث تبدو العباءة والقلنسوة والبرقع جميعا شيئا واحدا على شكل بالون قد امتلأ بالهواء بينما تركب هى البغل . انها تجلس منفرجة الساقين وتريح قدميها العاريتين اللتين يزينهما شبشب من القطيفة البنفسجية اللون على الركاب المربوط فى السرج ، وتحرص على وضع ذراعها البنية المتلئة والمحملة بالأساور الذهبية الكبيرة ظاهرة للعرض ، وتنظر الى الطريق من خلال عينين سوداوين صافيتين دون أن تشعر بالأسف للكشف عن وجهها . ولم يكن البغل أقل من سيدته زينة فان أرجله الحليقة الشعر وأفخاذه الملونة باللونين الأزرق والأبيض فى خطوط متعرجة ، تميزها شرائط ذات لون أصفر فاتح . أما سرجه الذى ترتفع حافته الأمامية فانه يزدان بالقطيفة وأشغال الابرة ، أما غطاء رأسه فمصنوع من الدلايات المعدنية والشراريب والأهداب المتدلية .

ولابد أن بغلا بهذا الشكل يساوى ما بين ستين الى مائة جنيه استرلينى . ويمر بعد ذلك حنطور مرفوع الغطاء وقد امتلأ بنساء انجليزيات ضاحكات ، أو يمر شيخ ريفى وقور فى ملابس سوداء راكبا حصانا عربيا وسيما . ويمر وجيه مصرى متفرنج يرتدى الملابس الأوربية والطربوش التركى فى مركبة يجرها حصانان ويقودها سائس انجليزى ، ويجرى أمامه سائس مصرى حاملا عصا فى يده وحافى القدمين وعيناه متلهفتان ، مرتديا برنيطة يونانية وصديريا بديعا مطرزا بخيوط الذهب وقميصا أبيض يتطاير فى الهواء ، ولا يوجد شخص من ذوى المراكز يركب مركبته فى القاهرة دون أن يسبقه واحد أو اثنان من هؤلاء الخدم . أما هذا السائس (القوى ، والخفيف ، والوسيم ، مثل الزئبق الذى يصنعه جون البولونى) فيقال انه يموت صغير السن ، لأن سرعة الجرى تقتله .

ويمر بعد ذلك بائع الليمونادة حاملا جرته المعدنية باحدى يديه ، ودورقه وأكوابه النحاسية باليد الأخرى . ويمر بائع الشباشب المتجول حاملا حزمة من النعال المغربية الحمراء والصفراء وهى تتأرجح على طرف

عمود طويل ، وتمر عربة مصنوعة فى لندن يجرها حصان تحمل سيدتين ترتديان برقعين تركيين شفافين ، ويسبق العربة فارس نوبى فى زى نصف عسكرى ، أو يمر طابور من الابل خشنة الطباع ، وشـــديدة الاستخفاف وهى تمد أعناقها الطويلة فوق الزحام ، بينما تحمل بالات الأقمشة التى نقشت عليها العناوين باللغة العربية ٠

ويمثل التجار المصريون والعرب والأتراك ــ سواء أكانوا مختلطين فى التيار العام ، أم جالسين على منصات البيع ــ أهم أبرز الشخصيات روعة فى هذا المنظر المزدحم ٠ انهم يرتدون عمائم ضخمة ، بيضاء فى معظمها ، وقفاطين طويلة تصل الى القدمين ، مصنوعة من الحرير السورى المخطط ، وأردية خارجية من القماش المزين بالقصب أو الكشمير ٠ والقفطان محاط عند الوسط بوشاح ثمين ، أما الرداء الخارجى أو الجبة فألوانه متدرجة بوجه عام ما بين لون الذرة ، والزيتون الأســود ، والخوخ ، والسلمون الوردى ، والبنى ، وما شابه ذلك ٠ ومما يتناقض مع التناسب الدائم للأشياء أن هؤلاء الرجال ذوى الأبهة يشترون ويبيعون بشكل مبتذل ، بدلا من اضاعة كل حياتهم جالسين على أرائك فخمة حيث تنتظرهم النساء الجركسيات الجميلات ٠ وهنا تشاهد لأول وهلة وزيرا كبيرا يرتدى قفطانا بديعا من الساتان الأبيض والعنبرى ، يتنازل لكى يشترى ويبيع بالجملة دوايات للغليون مختلفة الأحجام والأسعار مصنوعة من الصلصال الأحمر القاتم ٠ وهو لا يبيع شيئا آخر ، وليست عنده فقط كومة من هذه الدوايات بل أيضا ملء صندوق فى ظهر الدكان ، وهى مصنوعة فى أسيوط بمصر العليا ٠ ويمكن شراؤها من المحلات الجزائرية فى لندن بسعر رخيص يماثل سعرها فى القاهرة ٠



سوق تونس بالقاهرة

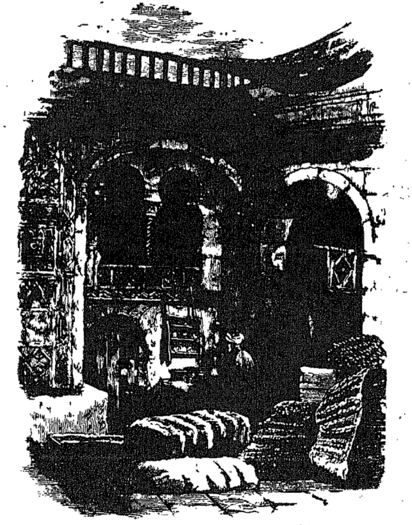
وهناك باشا مهيب آخر يتعامل فى الأوانى النحاسية الصفراء والحمراء ، وأكواب الشرب ، والأحواض والأباريق والصوانى والمباخر والمواقد ، وما شابه ذلك من الأشياء التى حفر على البعض منها أبيات من نظم الشعراء العرب فى شكل زخارف من أوراق الشجر المتشابكة . وهناك ثالث يبيع الأقمشة الحريرية المنسوجة بخيوط الذهب والفضة الواردة من دمشق . وآخرون يبيعون مرة أخرى النوعيات القديمة من الأسلحة والخزف وأشغال الابرة وسجاجيد الصلاة المستعملة والكراسى الغريبة التى بدون مسند للظهر ، والدواليب المصنوعة من خشب الأبنوس والمطعمة بعرق اللؤلؤ . وهنا أيضا يجلس بائع الدخان خلف كومة ضخمة من الدخان الوارد من اللاذقية تماثل جسمه فى الحجم . ويدخن تاجر الاسفنج غليونه الطويل فى عريش من الاسفنج .

ويظهر أكثر هؤلاء امتاعا فى دكاكين العاديات حيث يحتل كل صنف من البضائع ركنه المنفصل ، وتمر بعد ذلك من خلال بوابة حجرية قديمة ، أو تهبط خلال منعطف ضيق ، فتجد نفسك داخل مستعمرة من السروجية يخيطون ويدقون ويثقبون ويبرشمون . وتسير فى حارة وتهبط فى أخرى محاطا بواجهات الدكاكين المعلق حولها (الطرابيش) والسروج مقوسة الظهر من كافة الأنواع والألوان . هنا سروج نسائية ، وسروج عسكرية ، وسروج للحمير ، وسروج لكبار رجال الدولة ، وسروج مغطاة بالجلد الأحمر ، وبالقطيفة ذات الألوان القرمزية والبنفسجية ، ومن القماش المائل للسمرة ، والرمادى والأرجوانى ، والسروج المطرزة بخيوط الذهب والفضة المرصعة بالمسامير ذات الرؤوس النحاسية أو المزركشة بالقصب .

وبعد دورة أو اثنتين تجد نفسك فى سوق النعال تمر عبر حارات تمتلىء بالنعال المغربية الحمراء والصفراء ، أولها مصنوع محليا ، وآخرها من تونس . هنا نعال ذات أطراف مدببة ، وأطراف مرتفعة الى أعلى ، وأطراف مستديرة ومسطحة مثل حدوة الفرس ، ونعال للسير باطنها مجوف ، ونعال صفراء ناعمة تستخدم مثل الجوارب الداخلية وليس لها باطن نهائيا . أما تلك الصنادل الصغيرة ذات اللون القرمزى والتى فى أطرافها شراريب فهى للأولاد الصغار . أما الأحذية المغربية ذات اللون البنى فهى مخصصة لسائسى الخيول . أما نعال القطيفة المشغولة بخيوط الذهب والخرز وحبات اللؤلؤ فهى لأثرياء الحريم ، ويباع الزوج الواحد منها بأسعار تتراوح ما بين خمسة شلنات الى خمسة جنيهات .

أما سوق السجاد فهى كبيرة المساحة وتتكون من شبكة من الحارات الفرعية تنفتح على يمين شارع الموسكى الذى يماثل فى القاهرة شارع ريجنت فى لندن (١) ٠

وتجد المنازل فى معظم هذه الحارات غنية بالنوافذ القديمة ذات المشربيات والأبواب الاسلامية ٠ هنا تجد ميدانا صغيرا محاطا بالسجاد الفارسى والسورى وحقائب السروج الدمشقية وسجاجيد الصلاة التركية٠ ويجلس التجار فى وسط بضائعهم وهم يدخنون ، بينما يقوم قهوجى عجوز فى أحد الأركان بممارسة تجارته المتواضعة حيث أقام موقده الصغير ، والرف المعلق بجانب مدخل الخان المتداعى ، الذى تواجه حوائطه ألواحا



سوق السجاد بالقاهرة

(١) ربما كان شارع ريجنت المتقاطع مع شارع أكسفورد فى قلب مدينة لندن يتشابه منذ ١٢٠ عاما مع شارع الموسكى قلب القاهرة حينذاك من حيث الأهمية التجارية ٠ أما شارع ريجنت الآن فهو شارع فخم لا يقل عرضه عن ٥٠ مترا يفاخر به الانجليز غيرهم من الأمم ـ (المترجم) ٠

خشبية من الأرابيسك مشغولة فى حجر قديم منحوت · وهو منظر من أشد المناظر ابداعا فى القاهرة ·

أما السجاجيد المخططة الواردة من تونس ذات اللونين الرمادى الغامق والأزرق الغامق ، أو الجزائرية ذات اللون الرمادى أو الأحمر ، والسجاجيد الكثيفة الوبر الواردة من لاودكيا وأزمير ، والسجاجيد الزرقاء والخضراء الفخمة ، والحمراء الناعمة الواردة من تركيا ، والنوعيات الفارسية المنسجمة ـ رغم اختلافها العجيب ـ فتمتاز بأنها تباع فى دكاكين محلية داخل الحارات المجاورة ·

ولا يشعر الانسان بالتعب أثناء تجواله فى هذه الحارات نصف المضاءة ، والتى تتوهج كلها باللون الخلاب ، وتزدحم بالناس السائرين فى كلا الاتجاهين مثل الممثلين فى احدى مسرحيات عيد الميلاد المجيد التى تمتاز بمظاهر الأبهة والعظمة الشرقية ·

أما فى خان الخليلى وهو سوق تصنيع الذهب والفضة ، فانك على العكس ، نادرا ما تجد أية بضائع معروضة للبيع · والحارات فى هذا الجانب ضيقة جدا بحيث يلقى الاثنان من الناس صعوبة فى السير متجاورين · أما المحلات ، فهى ضيقة جدا لأنها مجرد نوافذ لها واجهات لا يتجاوز عرض الواحدة منها ثلاثة أقدام · وقد ثبت فى ظهر كل نافذة منها درجة سلم من الحجر المصقول تسمى المصطبة تستخدم للجلوس ، وتقوم مقام المنصة التى تستخدم للبيع ، حيث يجلس المشترى على طرف المصطبة ، بينما يجلس البائع القرفصاء متقاطع الساقين فى الداخل · ومن هذا الموقع يستطيع سحب الأدراج واحدا بعد الآخر دون الحاجة للوقوف ·

وعلى ذلك فان الفراغ الموجود بين الاثنين يزدحم بأكوام الحلى الذهبية والفضية ، وهى تختلف عند كل تاجر من حيث المعدن والنماذج المتماثلة · وتباع بالوزن مع اضافة هامش مناسب للربح · وأثناء التعامل مع الغرباء الذين لا يعرفون نظام الموازين المصرى توزن المصوغات الفضية فى العادة مقابل قطع الروبيات أو خمسة الفرنكات · أما المصوغات الذهبية فتوزن مقابل فرنكات نابليون أو الجنيه الذهب الانجليزى · أما الحلى المصنوعة فى القاهرة فانها تتكون أساسا من السلاسل والحلقان والخلاخيل والأساور والعقود المعلق فيها قطع العملات أو القلائد التى على شكل ناب الفيل ، وعلب الأحجبة المزركشة بالثقوب أو النحاس المضغوط ، والأساور البدائية التنفيذ ولكنها من طرازات ثمينة وقديمة · أما بخصوص التجار فان أدبهم وصبرهم ليس لهما حدود ، فقد يقلب المشترى كل مخزونهم ،

ويجرب جميع أساورهم ، ويذهب مرة أخرى دون أن يشترى ، ولكنه يلقى الترحيب دائما ويشيع بالابتسامات ولقد أمضت الكاتبة ورفيقتها عدة ساعات تتحدثان العربية فى خان الخليلى دون أن تكون هناك أية درجة من الفائدة المماثلة للتجار ٠

وهناك أسواق خاصة أخرى كثيرة فى القاهرة مثل سوق الحلويات، وسوق الأدوات المعدنية ، وسوق الدخان ، وقلائد السيوف ، وأسواق النحاس ، وسوق المصنوعات الأندلسية حيث تباع الطرابيش والبرانس ومصنوعات البربر ٠ وهنــــاك بعض الأســـواق المزدحمة لبيع الموسلين الانجليزى والفرنسى والبضائع المصنوعة من القطن فى مانشستر ، ولكن هذه البضاعة الأخيرة ذات أهمية ثانوية فى معظمها ٠ ورأينا بين المصنوعات الانجليزية التى صنعت بالذات للسوق الشرقية نوعا من الموسلين المطبوع القبيح الشكل يمثل جنيات صغيرة سوداء تتقافز فوق أرضية صفراء ، وعلمنا أنه يجد اقبالا لصنع فساتين الأطفال ٠

وبالرغم مما تمثله الأسواق من مناظر جميلة الا أنها ليست المعالم الوحيدة الجديرة بالمشاهدة فى القاهرة ، بل توجد المساجد الكثيرة والبوابات الشرقية القديمة الفخمة ، والكنائس القبطية القديمة ، ومتحف الآثار المصرية ، وعلى مسيرة قليلة توجد مقابر الخلفاء ، وهليوبوليس ، والأهرام، وأبو الهول ٠ ويصعب على الســـياح الآن أن يتذكروا الترتيب الذى يشاهدون به هذه الأماكن لأنهم كانوا يعيشون فى حلم ، وكانوا فى البداية يرتبكون كثيرا لدى محاولة ترتيب مشاعرهم بشكل منظم فكانوا يضطرون الى أن يمروا على بعض الأماكن بنظرة خاطفة ، بينما كان عليهم تأجيل زيارة أماكن أخرى حتى عودتهم للقاهرة ٠

وفى نفس الوقت كان شـــاغلنا الأول هو النظر الى العائمـــات (الذهبيات) ٠ وقد أجبرنا ذلك على تحويل خطواتنا وأفكارنا فى اتجاه بولاق بصفة مستمرة ٠ وهى موقع غير مأهول على ضفة النيل ترسو فيه حوالى مائتين أو ثلاثمائة قارب نيلى معدة للايجار ٠ والآن فلعل غالبية الناس تعرف شيئا عن مشقات تأجير منزل ، ولكن أصحاب التجارب فقط هم الذين يعرفون كم هى حادة مشقات تأجير ذهبية ٠ انها أكثر ارباكا وأكثر اجهادا ، كما أنها محفوفة بمتاعبها الخاصــــة وغير المألوفة ٠ أما القوارب فى المقام الأول فانها متشابهة البناء بخلاف المنازل ، كما أن منها الأكبر أو الأصغر ، والأنظف أو الأقذر ، ومع ذلك تتشابه مثل المحارات التوأم ٠ ونفس الكلام يقال عن قباطنتها مع نفس الاختلافات ، لأن الشخص الذى وصل الى مصر منذ أيام قليلة لا يفرق بين رجل أسود أو نحاسى اللون ، وبين رجل آخر أسود أو نحاسى اللون ٠ وعلى ذلك

فان كل ريس أو كابتن يحمل الشهادات التي أعطيت له من السياح السابقين ، وهذه الشهادات موضوعة ومتداولة بشكل ظاهر بحيث تنتقل بطريقة سرية على أسطح المراكب المختلفة وبين أيدى الأدعياء المختلفين . والأكثر من ذلك فان الذهبيات تغير مواقعها وهو أمر لا يحدث بالنسبة للمنازل ، وعلى ذلك فان المركب الذى كان راسيا بالأمس بجوار الضفة الشرقية قد يكون راسيا اليوم بجوار الضفة الغربية ، أو مختفيا بين دستة من المراكب الأخرى على بعد نصف ميل جنوب النهر . وكل ذلك يعقد الموضوع بشدة ، ولكنه لا يساوى شيئا اذا قورن بحالة الارتباك التى يدخل فيها الانسان عندما يحاول تقييم مميزات ومساوىء المراكب ذات القمرات الست بالنسبة للمراكب ذات الثمانى ، أو المراكب التى بها بوفيه والمراكب التى لم تزود به ، أو المراكب التى تستطيع عبور الشلال والأخرى التى لا تستطيع ، أو المراكب التى تتضاعف أجرتها مرتين والمراكب التى تعانى من هذا العيب خمسة أو ستة أضعاف . وأسماؤها هى : الغزالة ، والثروة ، والفسطاط ، ودنقلة ، وهى أسماء تختلف عن أسماء قباطنتها لأنهم جميعا يحملون أسماء محمد أو حسن . أما أجورها فليست كذلك لأنها تختلف من يوم لآخر حسب حالة السوق كما هو واضح من عودة المسافرين بالفنادق الرئيسية .

أضف الى كل ذلك حقيقة أنك لا تجد قبطانا يتحدث أية لغة سوى العربية وأن أية كلمة للاستفسار أو التفاوض تتعرض للتحريف عن معناها لأنها تصل عن طريق الترجمان . وربما يستطيع هؤلاء الذين لم يجربوا بعد هذه التشكيلة من مسرات المطاردة ، أن يكونوا فكرة عامة عن العملية المرهقة واليائسة والمربكة التى تكتنف استئجار ذهبية فى القاهرة .

وتصادف أنه خلال عشرة الأيام الأولى تقريبا كان لابد من تخصيص ثلاث أو أربع ساعات كل صباح للمأمورية المراكب ، وفى نهايتها لم نكن نصل الى نتيجة تختلف عما بدأناه . أما المراكب الصغيرة فكانت صغيرة بحيث لا توفر عنصرى الراحة أو السلامة خاصة خلال ما يطلق عليه المسافرون فى النيل اسم « الريح الكبيرة » ، أما المراكب المتوسطة الحجم (التى ترسو تحت حجة استخدامها فى الصيف لغرض «نقل البضائع») فاننا نشك فى نظافتها . أما المراكب الأكبر التى لا غبار عليها والتى كانت تتضمن ما بين ثمانى الى عشر قمرات بالاضافة الى صالونين ، فقد كانت كبيرة جدا بالنسبة للكاتبة ورفيقتها واحدى الخادمات . وكانت هذه

المراكب جميعها باهظة الأجرة . أما وقد حوصرنا بهذه المصاعب المتنوعة ، مع الاصغاء حينا الى رأى هذا الشخص وحينا آخر الى رأى غيره . ومع التروى والمساومة والمقارنة والتراجع ، كنا نتردد يوميا بين بولاق والقاهرة مما جعلنا نعيش في تعاسة . وفي نفس الوقت تقابلنا مع بعض المعارف القدامى ، كما تعرفنا بأصدقاء جدد . وعند عدم الشعور بالتعب الشديد أو الاحباط ، كنا نشاهد ما نستطيع مشاهدته من مناظر القاهرة . وقد ساعد ذلك فى التخفيف من معاناتنا كثيرا . وبالطبع كانت ضمن جولاتنا الأولى مشاهدة الأهرام التى تقع على مدى ساعة ونصف من باب الفندق باستخدام الحنطور . وقد بدأناها مبكرين بعد تناول غداء مبكر . واستغرقنا المسافة كلها فى طريق ممتاز ، وعدنا لتناول العشاء فى وقته المناسب وهو الساعة السادسة والنصف . وليكن معلوما أننا لم نذهب لزيارة الأهرام ولكن لمجرد النظر اليها فقط . وفيما بعد (بعد أن قمنا برحلتنا عبر النيل وعدنا منها ومع قضاء عدة شهور في التدريب) عدنا مرة أخرى ومعنا — ليس فقط — فراغ كبير بل وأيضا بعض الفهم العملى للمراحل العديدة التى مرت بها الفنون والعمارة المصرية منذ الأيام البعيدة التى يمثلها عصر خوفو وخفرع . وعلى ذلك يمكن القول بأننا رأينا الأهرام . وعندما وصلنا الى هذه المرحلة من رحلتنا المقدسة يصبح من الأفضل تأجيل كل شىء مثل تفاصيل قصة الأهرام أو البيئة المحيطة بها . أما عن هذه الرحلة المختصرة فيكفى هذا التقرير الموجز .

يلقى معظم السياح أثناء قدومهم من الاسكندرية أول نظرة على الأهرام من شباك عربة قطار السكة الحديد ، وهى نظرة ذات تأثير لأنها لا تذهب بأنفاس المشاهد ، ولكنها لأول وهلة تشبه رؤية جبال الألب لأول مرة من المستوى المرتفع لخط نيوفشاتيل ، أو المعالم الخارجية لقلعة الأكروبوليس فى أثينا عندما يتعرف اليها الشخص لأول مرة من ناحية البحر . ان الأشكال المثلثة المعروفة جيدا ، تبدو صغيرة وغارقة فى الظلال ، بينما من المعتاد رؤيتها وهى تلمع بصرف النظر عن طريقة الرؤية ، وأظن أن ذلك صحيح بصرف النظر عن المسافة ، فهى بعيدة من أية جهة مما يصعب وسيلة قياس حجمها بالنسبة لغيرها من الأشياء . ولا يستطيع الانسان أن يبدأ في الاحساس بغرابتها الا عندما يقترب منها ويلاحظ كيفية تزايد حجمها مع كل قدم يقطعه من الطريق .

. . . .

وأخيرا عندما تصل الى حافة الصحراء وتصعد المنحدر الرملى وتقف فوق الساحة الصخرية ، ويرتفع الهرم الأكبر بكل ضخامته وعظمته غير

المتوقعة فوق رأس المشاهد ، يكون التأثير مفاجئا مثلما هو رائع • انه يحول دون رؤية الأفق ، كما يحول دون رؤية كافة الأهرام الاخرى - انه يحول دون كل شيء فيما عدا الاحساس بالروعة والغرابة •

والآن يكتشف الانسان أيضا أنه من خلال شكل الأهرام فقط يتعرف الى كافة هذه السنوات التى مضت • أما عن سطحها ولونها وموقعها النسبى وعددها (ولا تتحدث عن حجمها) فلا يستطيع الانسان أن يستمتع بأى نوع من الأفكار المحددة • أما أكثر الدراسات دقة للمساقط والمقاييس ، وأكثر الصور وضوحا ، وأكثر الأوصاف اسهابا ، فانها لم تقدم الا القليل ، ان لم تكن تقدم شيئا بالمرة ، لتمكن المرء من أن يعرف المكان سلفا • ان هذه الهضبة من الرمال المتموجة ، والصخور التى تمتلىء بالقبور المفتوحة مثل الثقوب ، وتربكها روابى البنايات الحجرية التى ليس لها شكل محدد ، لا تشبه الصحارى التى نشاهدها فى أحلامنا • ان هرمى خوفو وخفرع أكبر مما كنا نتوقع • أما هرم منكاورع فهو أصغر حجما • وهنا أيضا توجد تسعة أهرام بدلا من ثلاثة ، وجميعها موجودة على الخرائط ومذكورة فى كتب الدليل السياحى ، ولكن الانسان غير مستعد لاكتشاف أنهـا ثلاثة ، ولا يستطيع أن يستمر فى النظر اليها كأهرام دخيلة • ان هذه الأهرام الستة الزائدة صغيرة ومتداعية • والحقيقة أن أحدها صغير بما لا يتجاوز حجم رجمة كبيرة من الحجارة •

وحتى الهرم الأكبر فانه يربكنا بما يضفيه من احساس غير متوقع بالتناقض • اننا جميعا نعرف وقد عرفنا منذ الصغر أنه قد نزعت منه طبقة الأحجار الخارجية منذ حوالى خمسمائة عام لبناء المساجد والقصور العربية (*) ، ولكن على الرغم من ذلك فان الجسم الصلب الذى يتميز بالمظهر الصخرى لهذا الهرم العملاق يصيبنا بالدهشة • ولا يبدو عليه ما حدث من تخريب جزئى • انه يبدو كما لو كان قد ترك دون استكمال ، وأن العمال سيعودون فى صباح اليوم التالى •

ومرة أخرى نجد اللون مدهشا • هناك القليل من الناس الذين يعرفون مسبقا اللون الأصفر المائل للسمرة الذى يتحول اليه الحجر الجيرى المصرى بعد قرون من التعرض لأشعة سماء مصر الملتهبة • واذا

(*) لم يثبت هذا الافتراء علميا والثابت أن سقوط الكسوة كان من عوامل الزمن عبر التاريخ — (المراجع) •

نظرت الى الأهرام فى ضـــوء أشعة معينة فانها ستبدو كصروح ذهبية ضخمة ٠

ولما لم نقض سوى ساعة وأربعين دقيقة فى هذه البقعة ، فقد رفضنا فى هذه المرة الأولى بحزم أن نرى أو نسمع شيئا أو ننتقل الى أى مكان ــ فيما عدا عدة دقائق قضيناها عند حافة التجويف الرملى الذى يرقد فيه أبو الهول جاثما مرفوع الرأس ٠ لقد وددنا أن نكرس كل انتباهنا وكل وقتنا القصير للهرم الأكبر فقط ، دون أن نحظى ببعض الانطباعات عن مظهر هذا البناء الضخم الخارجى وحجمه ، ودون أن نركز عقولنا فى شىء مثل فهم عصره ، لأن ذلك كان كافيا وأكثر من كاف فى مثل هذه الزيارة القصيرة .

وذلك أنه ليس من السهل أن تستوعب حتى ولو بشكل سطحى فترة ستة أو سبعة آلاف عام ، فالهرم الأكبر الذى كان عمره أربعة آلاف ومائتى عام وبعض الأعوام عند ميلاد السيد المسيح (*) ، وهو يعيش الآن الألف السابعة، ولذلك فان الوقوف هناك بجوار قاعدته وملامستها وقياس ارتفاعها بالنسبة لبعض أحجارها السفلية والتأمل فى كافة أطوار التدهور الضخم لهذا الحائط غير المستوى الذى يقود الى أعلى مثل دعامة شاهقة تبدو كما لو كانت تلامس السماء ، يجعل الكاتبة تدرك فجاة أن هذه التواريخ البعيدة لم ترد على فكرها حتى هذه اللحظة الا فى شكل أرقام مجردة ٠ والآن وللمرة الأولى أظهرت نفسها فى شكل شىء مادى محسوس ومحدد وحقيقى ٠ انها لم تعد مجرد أرقام ، بل سنوات بفصولها المتغيرة وفيضـــان نيلهـــا العالى أو المنخفض ، ومواعيد بذرها وحصادهـــا ٠ أما الاحساس بهذه اللحظة فلن يضمحل ٠ انها تبدو كما لو أن أحدا قد اختطف لحظة الى ارتفاع كبير أطل منه على سهول الزمن ورأى القرون ترتسم خريطتها تحت أقدامه ٠

ان الاعجاب بضخامة الهرم الأكبر أقل صعوبة من ادراك عمره ٠ ولا يستطيع أحد سار بطول أحد جوانب الهرم ، وتسلق قمته ، ودرس أبعاده عن العالم موراى ، أن يخطىء فى تكوين فكرة واضحة وسهلة عن ضخامته وحدها ٠ ان المقاييس التى أعطاها لنا سير جاردنر ويلكنسون هى كما يلى : طول كل جانب ٧٣٢ قدما ، الارتفاع الرأسى ٤٨٠ قدما

(*) بنى الهرم الاكبر فى الفترة من ٢٥٣٨ ــ ٢٥١٦ قبل الميلاد ــ (المراجع) ٠

و ٩ بوصات ، ومساحته ٥٣٥ر٨٤٢ قدما مربعا (١) • وعلى ذلك نقول ان الارتفاع يزيد ١١٥ قدما و٩ بوصات عن ارتفاع الصليب الموجود فى قمة كنيسة القديس بطرس (فى روما) وحوالى ٢٠ قدما أقل من تل بوكس فى سوراى • واذا انتقلنا الى لندن فانه سيكون أكبر قليلا من أن يغطى المساحة الكليــة لحقول فندق لنكولن • وهذه البيانات الحقيقية كافية وسهلة الفهم ولكنها مثل سائر الحسابات التى من هذا النوع تعجز عن بيان حقيقة عظمة الهرم الأكبر •

أما ما يتجاوز تأثيره وصــف الأرقام ذات الأهمية أو المقارنات المدهشة ، فهو الظل الذى يلقيه الهرم الأكبر عند غروب الشمس ، حيث يمتد هذا الظل العجيب والحاد والواضح ، عبر هضبة الصحراء الحجرية مغطيا ثلاثة أرباع الميل من السهل الأخضر الذى تحته • انه يقسم ضوء الشمس حيث يقع ، مثلما تقسم بدايته العظيمة ضوء الشمس فى الهواء

(١) منذ نشر الطبعة الأولى لهذا الكتاب فان طبع العمل النموذجى الذى قام به سير و• م• فلندرز بترى – وعنوانه أهرام ومعابد الجيزة The Pyramids and Temples of Gizeh ، وضعت للمرة الأولى – تحت تصرف الدارسين – وصفا شاملا ودقيقا وعلميا للهرم الأكبر حيث حسب من التجاويف المحفورة فى الصخر فى الأركان الاربعة ومن المستوى الحقيقى للسطح المرصوف ، ما جعله يكتشف أن مربع القاعدة الأصلية للبنــاء مقدرا بالبوصات يعطى هذه الأبعاد :

الاتجاه	الطول	الاختلاف عن المتوسط	زاوية السمت	الاختلاف عن المتوسط
شمال	٩٠٦٩ر٤	+ ٦ر٠	– ٢٠ ثانية ٣ دقائق	+ ٢٣ ثانية
شرق	٩٠٦٧ر٧	– ١ر١	– ٥٧ ثانية ٣ دقائق	– ١٤ ثانية
جنوب	٩٠٦٩ر٥	+ ٧ر٠	– ٤١ ثانية ٣ دقائق	+ ٢ ثانية
غرب	٩٠٦٨ر٦	– ٢ر٠	– ٥٤ ثانية ٣ دقائق	– ١١ ثانية
المتوسط	٩٠٦٨ر٨	٦٥ر٠	– ٤٢ ثانية ٣ دقائق	١٢ ثانية

أما عن الارتفاع فانه بعد دراسة كل البيانات مثل سمك الأحجــار الثــلاثة التى تمثل الغلاف ، والسمك المفترض للأحجار التى واجهت من قبل الأدوار العليا من البناء ، أعطى حسب ملاحظاته الزاوية المتوسطة للهرم ، كما أعطى الارتفاع من القاعدة الى القمة حيث يلغ ٧ – ٥ر + ٥٧٧٦ بوصة • انظر كتاب بترى المذكور – الفصل السادس – صريص ٣٧ – ٤٢ •

العلوي فتغطى الفضاء الذى تشغله بظلام يشبه كسوف الشمس . ومن أكثر الأشياء اثارة للمشاعر الرائعة أن يتذكر الانسان كيف يضمحل نفس هذا الظل عند تسجيله ، ليس فقط ارتفاع أضخم ساعة شمسية أقامتها أيدى البشر ، بل أيضا المسار البطىء يوما بعد يوم على مدى أكثر من ستين قرنا من تاريخ الدنيا . وكان الظل ما يزال ممتدا فوق المنظر الطبيعى كلما هبطنا المنحدر الرملى الطويل حتى وصولنا الى الحنطور . وقد أسرع حوالى ستة أو ثمانية أعراب فى عباءاتهم المرفرفة لكى يودعونا الوداع الأخير ، وكأن ركوبنا من القاهرة ـ لكى نجلس فى هدوء وننظر الى الهرم الأكبر ـ قد ملأهم بالدهشة الخالصة .

ومع مثل هذه الطاقة والانجاز اللذين يستخدمهما السائح الحديث لابد أن نكون قد وصلنا الى القمة ، ورأينا معبد أبى الهول ، وشاهدنا فى نفس الوقت مقبرتين أو ثلاثة من المقابر الرئيسية .

وقال لنـــا الأعـــراب : « عـــودوا مرة ثانية .. ان الأعـــراب الطيبين سيجعلونكم ترون كل شىء .. انكم لم تروا شيئا فى هذه المرة » .

ومضى بنا الحنطور مع وعودنا بالعودة عما قريب وعلى الرغم من ذلك كنا نشعر بالرضا عن الطريقة التى قضينا بها الوقت .

ان بدو الهرم قد لقوا الكثير من الاساءة من السياح وكتب الأدلة السياحية ، ولكننا لم نجد سببا يدعونا للشكوى منهم الآن أو فيما بعد . انهم لم يتزاحموا حولنا أو يسيروا خلفنا ، ولم يلاحقونا بالطلب على أية حال . انهم يتدفقون حيوية وثرثارون بطبعهم ، ولكن أصدقاءنا الظرفاء كانوا يتحولون الى حالة الصمت مثل المصابين بالخرس ، عندما يجدوننا نريد الصمت . وكانوا يرضون بالبقشيش المتوسط عند الانصراف .

وتمثلت النتيجة المناسبة لهذه الجولة القصيرة التى قضيناها فى أننا فكرنا فى اليوم التالى أن نشاهد مسجد السلطان حسن أحد معالم العصـــور الوســـطى ، فقد قيل انه بنى بأحجار الطبقة الخارجية للهرم الأكبر (*) .

(*) ادعاء كاذب علميا ـ (المراجع) .

الفصـــل الثاني

القـاهرة والحج الى مكة

الحقيقة أن مسجد السلطان حسن يعتبر أجمـل مساجد القاهرة ، وربما أيضا أجمل مسجد في العالم الاسلامي ، لقد بني أثناء تلك اللحظة السعيدة التي بدأ فيها الفن الاســلامي في مصر يتوقف عن الاحتــواء أو التقليد ، ويستنبط لنفسه طرازا معماريا أصيلا من بين العناصر غير المتجانسة للصروح الرومانية والقبطية المبكرة · لقــد كانت مســاجد القرون القليلة السابقة (التي شهدت على سبيل المثال جامع ابن طولون الذي يمثل أول انطلاق من النموذج البيزنطي القديم) (*) تتكون مما يزيد قليلا عن فناء به أبواب تقود الى قاعة تدعمها غابة من الأعمدة· وبعد أقل من قرن كان الطراز الوطني قد عبر بدايات ذلك الانقطـاع الطويل عن استخدام الطراز البيزنطي الى نهضة جديدة طورت هذا الطراز ، ممثلة في مسجد محمد علي ، ولكن مسجد السلطان حسن الذي بني قبل سقوط القسطنطينية بسبع وتسعين سنة ، يعتبر ممثلا لأعلى نقطة ميل وصل اليها الفن العــربي في مصر بعــد استخدامه للمواد اليونانية والرومانية التي كانت في منف،وقد تم تعديله قبل تحقيق أصالته الوليدة بادخال تأثيرات قادمة من وراء البسفور ، ولا يرجع سبب تفوقه الى ضخامة أبعاده ولا الى فخامة المواد المستخدمة في البناء · انه لا يماثل المسجد الكبير في دمشق من حيث الضخامة ، ولا جامع أيا صوفيا في القسطنطينية من حيث غناه بالرخام الثمين ، ولكنه يتفوق في التصميم ، والتناسب ، وفي جاذبيته الشامخة التي لا يمكن وصفها·انه يتفوق على هذين المسجدين وعلى غيرهما من المساجد سواء منها الأصيلة أو المعدلة التي تعرفت عليها الكاتبــة ، لأن البناء كله وطني خالص ، كل خط أو حنية منه ، وكل بوصـــة من

(★) خطأ علمي ، والصواب أنه على طراز المســاجد التي أنشئت في عهد المعتصم بالله الخليفة العباسي والذي أنشئت في عهده مدينة سامراء — (المراجع) ·

التفاصيل تمثل أفضل طراز لأفضل فترة في تاريخ المدرسة العربية • وهو قبل كل شيء خير معبر عن الغرض الذى صمم من أجله • وعلى العكس فان المسجدين الشهيرين في دمشق وفي القسطنطينية كانا في الأصل كنيستين مسيحيتين ، وهو ما تكشف عنه البراهين الدالة على التعديل • ففى جامع أيا صوفيا يمكن تتبع الفراغ الذى كان يحتله من قبل تمثال الفادى ، فى أعمال الموزاييك التى فى محراب المسجد والتى غطيت بأشغال الفسيفساء فى تاريخ لاحق • وكذلك فان البوابات العظيمة بالمسجد الكبير فى دمشق قد زينت ضمن رموز مسيحية أخرى برموز العشاء الربانى • أما مسجد السلطان حسن الذى بناه الناصر حسن فى الأيام العظيمة المزدهرة من حكم المماليك ، فلم تعكر صفوه أية تناقضات • لقد صمم ليكون مسجدا ، وظل هكذا مسجدا ، وسرعان ما تحول الى أثر جميل •

وقد هدم عدد من الشوارع الصغيرة فى هذا الحى مؤخرا بحيث أصبح طريق الوصول واقعا عبر فضاء واسع مهجور بعثرت فى أرجائه بعض الأنقاض ولكنه سيصبح ميدانا عاما • ولتحقيق هذا الهدف المقبول نظريا شاهدنا حوالى ستة عمال يعملون متكاسلين فى تحميل عدد من الابل بالأنقاض • وهذه هى الطريقة العربية لنقل النفايات • واذا استمر هؤلاء العمال فى عملهم ، واستمر وزير الأشغال العامة فى دفع أجورهم فى مواعيدها المضبوطة ، فربما يتم اخلاء الأرض خلال فترة ثمانى أو عشر سنوات ! •

وعندما أوصلنا الحنطور بصعوبة الى أسفل درجات السلم العظيمة والتى كانت مزدحمة بالمعوزين الذين يدخنون وينامون ، رأينا شقا طويلا ظاهر الاتساع يصل تقريبا من قمة الى أسفل الحائط الرئيسى للبناء ، بجوار المئذنة • وبدا كما لو كان شقا ناتجا عن وقوع زلزال • ونظرا لأنه مازال جديدا فى الشرق ، فقد تعجبنا لأن الحكومة لم تبدأ العمل فى اصلاحه ، وكأنه قد كتب على القاهرة ألا يتم أبدا اصلاح شيء فيها !! • اننا نجد هنا كما فى القسطنطينية مبانى جديدة ترتفع بسرعة ، ولكن المبانى القديمة بصرف النظر عن مدى جلالها ، قد جرى التغاضى عن تآكلها بوصة بعد بوصة حتى لايتبقى منها سوى كومة من الأنقاض •

وبعد صعود السلالم ، ومن خلال بهو شاهق الارتفاع ثم صعود بعض الدرجات الاضافية ، ثم المرور عبر ممر مظلم ، وصلنا الى القاعة

الكبرى والتى كان علينا أن نخلع أحذيتنا قبل دخولها ، وارتداء شباشب مخصصة لهذا الغرض · وتمثل رؤية هذه القاعة لأول مرة قمة الاثارة · انها لا تشبه شيئا سبق لنا رؤيته من قبـــل ، ويتســاوى جمالهـــا مع حداثتها · تخيل شكلا هندسيا ذا أربعة أضلاع ، يغلفه الرخام الثمين ، مفتوحا نحو السماء ومحاطا بحوائط مرتفعة ، وفى كل جانب من جوانبه حنيـــة واسعة يحيط بها عقد مرتفع · أما مساحة الشكل الرباعى فهى تزيد على مائة قدم مربع ، كما يزيد ارتفاع الحوائط عن مائة قدم أيضا · وتشكل كل حنية قاعة فسيحة للراحة والصلاة · وجميع الحنيات مفروشة بالحصـــير ، ولكنها فى طرفها الشرقى أرحب وأعمق بخـلاف الأطراف الثلاثة الأخرى · أما العقد الفخم الذى يحيط بها فهو يشبه الجزء الأمامى من خشبة مسرح كبير ، وتبلغ المسافة بين ضلعيه ٦٩ قدما و ٥ بوصات حسب ما ذكره فرجسون ، وان كانت تبدو أكبر من ذلك كثيرا · وهذه القاعة الرئيسية التى ترتفع أرضيتها بمقدار درجة سلم واحدة عند نهايتها العـلوية يبلغ عرضها ٩٠ قدما ، وارتفاعها ٩٠ قدما · والمنصـة مغطاة بسجاجيد الصلاة الصغيرة ، وهى تتضمن المحراب ومنبر الخطيب · وقد لاحظنا أن هؤلاء الذين حضروا هنا قد جاءوا للصلاة فقط · وبعد الانتهاء من الصلاة اما أن يمضوا الى الخارج ، أو ينتحوا جانبـــا داخل احدى الحنيات للراحة · وتوجد فى الساحة فسقية رائعة لها سقف تعلوه قبة فتبدو مثل فقاعة كبيرة من حيث الشفافية والقابلية للكسر ، ويتوضأ فيها كل عابد عند دخوله المسجد · وبعد الوضوء يترك شبشبه على الحصير ، ويدوس على سجاد المنصة بقدميه العاريتين ·

وكانت هذه هى المرة الأولى التى نشاهد فيها المسلمين أثناء الصلاة وتأثرنا كثيرا لاستغراقهم العميق وغير المتكلف · كان بعضهم ساجدا بحيث تلمس جبهته الأرض ، والبعض الآخر راكعا ، والبعض الأخير منحنيا فى الوضع المحدد للصلاة · وكانوا هم جميعهم شديدى الاستغراق حتى بدا أن وجودنا الغريب قد ضايقهم · ولم نكن نعـــــرف حينذاك أن المســـلم الصالح يتصف بالتقوى خارج المسجد مثلما هو داخله · أو أن تلك هى عادته فى أداء الصلاة فى أوقاتها المحددة بصرف النظر عن مكان أو كيفية انشغاله · وسرعان ما تعودنا على هــذه الخاصية الواضحة فى الحيــاة الاسلامية بحيث صارت أمرا لا جدال فيه ، حتى ان راكب الجمل يتحتم عليه أن ينزل عنه ويسجد واضــعا جبهته على الأرض بجانب الطريق ، كما أن التاجر ينشر سجادة الصلاة الخاصة به على الأرض متجها بوجهه نحو الشرق عند غروب الشمس خلف تلال الصحراء الغربية ·

وبينما كنا معجبين بارتفاع السقف وزخـــارف المنبر المصنوعة من زخارف أوراق الشجر (أشغال الأرابيسك) المعقدة ، جاء الحارس ومعه مفتاح كبير ودعانا لزيارة قبر مؤسس المسجد ، فتبعناه الى قاعة ضـخمة تعلوها قبة مساحتها ١٠٠ قدم مربع ، أقيم في وسطها قبر منبسط يحوطه سور وقد وضع في أسفله صندوق مربوط بالحديد • وعرفنا فيما بعد أن ذلك الوضع مضى عليه خمسمائة عام منذ وفاة ودفن السلطـان حسن • وهذا الصندوق كانت به نسخة فاخرة من المصحف قيل ان السلطان حسن قد كتبهـــا بخط يده ، ولكن الخـــديو الذى يجمع المخطوطات العربية المختارة والأثرية أرسل فى اليوم السابق فقط أمرا برفعها •

ولم أر شيئا أشد أو أفخم من تناسق أبعاد قاعة الضريح هذه ، التى غطيت حوائطها بالزخرفة الدقيقة ، المحفورة على الخشب مع ملء الفجوات بقطع الخزف وأشغال الفسيفساء ذات اللون الفيروزى • أما الارتفـــاع فالغرض منه حمل عقود السقف • وتتحقق استدارة الأركان بواسطة عناقيد مجوفة من أشغال الأرابيسك الرائعة مثل الدلايات ، ولكن أشغال الفسيفساء تسقط بسرعة ، ولذلك فان معظم فجواتها فارغة•وقد علقت أشغال الخشب الجميلة على شكل شـــظيات مهلهلة ومحـــاطة بنسـيج العنكبوت مثل الرايات القديمة التى تمزقها أول لمســـة من الفرشـاة •

ومع عودتنا من الضريح الى الفناء لاحظنا آثار الانهيار فى كل مكان • ذلك أن الفسقية التى كانت يوما ما معجزة من معجزات الزخرفة العربية ، توشك على الانهيار ، وقد تشقق الرخام الموجـــود فى قاعدتهـا وبهتت ألوانه • أما قبتها المزخرفة بالجص فقـــد تساقطت قشرتهـــا فى أجزاء متفرقة ، كما تساقطت طبقة الميتـــاء ، وتمزقت زخرفتها الخشبية التى تشبه الأربطة فى كل بوصة •

ونرى الآن طائرا صغيرا بلون بنى وذهبى يجثم فى ثقـة على حافة الحوض • وبعد أن نثر الماء وشرب منه ورتب ريشه مثل العابد الصالح أثناء الوضوء ، طار الى قمـة القبة وغنى فرحـــا ، بينما خيـم الصمت على ما عــداه • وقد شقت الشكل الهندسى ذا الأضلاع الأربعة مساحات كبيرة من الأنوار والظلال • وظهرت الســـماء فوقنا مثل فتحة مربعة من الزرقة الشديدة ، بينما الناس هنا وهنـــاك ما بين منحن ، ومصـــل ، أو مستغرق فى الهدوء ، وقد تناثر عدد من لابسى العمائم فى شكل بديع فوق أرض القاعات المكشوفة المغطاة بالحصير • وهنـــالك جلس تـرزى متقاطع الساقين يصنع صديرية ، وبالقرب منه استلقى صـانع سلال مع

سلسلته نصف المجدولة الممتدة بطولها على وجهه،وبجانبه حزمة من السمار، وهنا رقد بالقرب منه أعمى ومعه كلبه ، فكان السيد نائمـا وكلبـه يحرسه • ولما كان ذلك كما سبق أن قلت هو أول مسجد نقوم بزيارته . فانني أتذكـر جيـدا المفاجأة التي أدهشتنا لدى رؤية ذلك الترزى وهو يخيط أزراره بينما يرقد النائمون حوله في الظل • ولم نعرف حينذاك أن مسجد المسلمين مكان للراحة والحماية مثلما هو للصلاة ، أو أن العربى الذى لا مأوى له قد يجد المأوى هناك سواء في الليل أو أثناء النهار بنفس الحرية التي تبنى بها الطيـور أعشاشها في افريزه العلوى ، أو مثلمـا يشارك كلب الرجل الأعمى سيده النائم في الظل البارد •

وبعد عدة دقائق من الصعود بالحنطور من عند هذا المسجد الذى ينتمى لحكم المماليك ، نصل الى مسجد محمد على الذى بناء على أوامـره نفذت مذبحة قتل فيها آخر سـلالة هذا الجنس السلطانى منذ ٦٤ عاما مضت (*) وقد بنى هذا المسجد داخل حرم القلعة على حافة بارزة من تلال المقطم ، تطل على مدينة القاهرة ، وهى من أكثر مناطق القاهرة روعة • وتظهر مآذنه الرقيقة وقبابه المتجمعة من كل جهة وعلى مدى عدة أميال • وتظل ظاهرة للناظر مدة طويلة أثناء رحيله أو عودته للقاهرة أكثر من كافة المعالم الأخرى • وهو مبنى عام فسيح وثمين ومزدهر ، ولا يحيط به شىء جميل فيما عدا الفناء الرخامى العظيم والفسقية • أما داخل المسجد الذى بنى بكامله من المرمر الشرقى ، فقد كان مفروشا بالسجاد التركى الفخم ، وعلقت في سقفه ثريات عـديدة مصنوعة من الزجاج البلورى المصقول •

وتظهر فخامة المنظر من الهضبة الخارجيـة • وقد رأيناه خلال يوم ملبد بالضباب،ولذلك لم نستطع التعرف على ملتقى الدلتا الذى كان من المفروض أن يظهر فى اتجـاه الشـمال • ولكننا استطعنا أن نرى المنظر جنوبا حتى هرم سقارة في سهولة ويسر • وظهـرت أهرام الجيزة على منصة الصخرة الصحراوية على بعد حوالى اثنى عشر ميلا ، صغيرة وغير ذات تأثير ، كما تظهر دائمـا على البعد • ولكن الوادى الخصب العظيم كان يتميز بالقرى الطينيـة التى تظهر كالبقع وقد تقاطعت فيه القنوات ومسارات غابة النخيـل • وقد ازدان النهـر العظيم بأشرعة القوارب النيلية • أما مدينة القاهرة المدهشة فقد ازدانت كلها بالأسقف المسطحة

(★) مضى عليها حينذاك سبعة وسبعون عاما بالاضافة الى أن الطبعـة الأولى لهذا الكتاب قد مضى عليها ١٢٠ عاما – (المترجم) •

للمنازل ، والقباب الصغيرة والمآذن ، التي تنتشر مثل نموذج معقد التفاصيل لدى قدمي المشاهد ، ملء بالزوايا الرائعة والتي سيطرت على كل انتباهنا • وعندما تنظر اليها من هذا الارتفاع يسهل علينا تصديق أن القاهرة تتضمن أربعمائة مسجد ، وهي تقف على حافة التل على مثال مدينة روما الحديثة التي تتضمن ثلاثمائة وخمسا وستين كنيسة (*) •

وعند نزولنا شاهدنا المكان الذى قتل فيه كبار المماليك وعددهم ٤٧٠ مملوكا (١) ، وقد حدثت هذه المذبحة في شهر مارس سنة ١٨١١ للميلاد • ورأينا البوابة العلوية التى أغلقت أمام المماليك لمنع خروجهم ، ويقال ان حوائط المر الضيق الذى ارتكبت فيه المذبحة تظهر فيه الثقوب التى أحدثها الرصاص ولكننا لم نبحث عنها •

وقد ذكرت منذ قليل أننى لم أتذكر بالضبط الترتيب الذى تمت به جولتنا فى القاهرة لسبب أننا رأينا بعض الأماكن قبل رحلتنا فى النهر ، وبعضها الآخر بعد عودتنا ، والبعض الآخر (مثل متحف بولاق) مرتين قبل وبعد الرحلة ، على قدر استطاعتنا • ولكننى على الأقل متأكدة أننا شاهدنا عرضا للدراويش وهم يتصايحون ، ورحيل قافلة الحج الى مكة قبل بداية السفر •

ومن بين الأشياء التى يؤديها الناس وهم يشعرون بالسعادة ، متابعة موكب القافلة ، فهى بالتأكيد تعتبر من أكثر المتابعات ارهاقا ، فهم يسيرون مسافة طويلة لمشاهدتها ، كما ينتظرونها فترة طويلة مرهقة ، لأنها تصل دائما متأخرة • وبمجرد وصولها تنتهى بعد عدة دقائق • لقد تناولنا الافطار مبكرا وبدأنا الخروج سريعا بعد الساعة السابعة والنصف وأخذنا مواقعنا خارج باب النصر فى الطريق الى الصحراء فى تمام الساعة الثامنة والنصف • وهنا جلسنا حوالى ثلاث ساعات معرضين

(★) يوجد بالقاهرة الآن ألف مسجد من المساجد الكبيرة وليس أربعمائة ، هذا بخلاف الاف الزوايا والمساجد الصغيرة التى لا يكاد يخلو منها شارع واحد — (المترجم) •

(١) قيل ان مملوكا واحدا فقط هو الذى هرب واسمه أمين بك الذى قفز بحصانه من فتحة فى الحائط ووصل سالما الى الميدان ثم هرب الى الصحراء • واستمر موضع قفزته المشهورة يعرض على الزوار لعدة سنوات ولكن لا توجد الآن أية فتحات فى الحائط • وتعتبر القلعة هى الأثر الوحيد فى القاهرة الذى تجرى فيه الاصلاحات الكاملة •

لسحب التراب ولهيب الشمس دون أن نعمل شيئا سوى مراقبة الزحام والانتظار فى صبر · وكان هناك كل نزلاء فندق شبرد وكل غريب فى القاهرة ، وقد ركبنا جميعا فى حناطير رشيقة مفتوحة يجرها رجال بؤساء يسبوقهم عرب حفاة الأقدام · وبالمناسبة فان هؤلاء العرب يحملون سياطا جيدة والرجال يجرون ببراعة ، وقد يبدو غريبا ومزريا فى البداية أن نركب خلف حوذى لا يملك من الملابس الا خرقة يلفها كعمامة بيضاء قذرة ، وقميص متواضع يصل بالكاد الى ركبتيه وحذاء طويل الرقبة منحته اياه الطبيعة (تقصد الساقين العاريتين) ·

أما هنا خارج الحوائط فقد أخذ الزحام يتزايد فى كل لحظة ، وظهر المكان مثل معرض به أكشاك لبيع الأطعمة ، ومراجيح ، ورواة للقصص ، وحواة يداعبون الثعابين ، وبائعو الفطائر ، وبائعو الحلوى والشربات ، والماء ، والليمونادة ، والمكسرات المسكرة ، والبلح الطازج والبيض المسلوق ، والبرتقال ، وشرائح البطيخ · وهناك النساء المحجبات يحملن أطفالا لونهم برونزى ، يشبهون تماثيل كيوبيد ، وهم منفرجو السيقان على أكتافهن اليمنى · ومن بين الحاضرين مصريون ذوو بشرة سمراء ، وأحباش بلون الفحم الأسود ، وعرب ، ونوبيون من كافة درجات اللون من البنى الذهبى الى لون الشيكولاته ، وفلاحون ، ودراويش ، وأولاد يقودون الحمير ، ومتسولون ، وشحاذون بهم شتى أنواع العاهات التى يمكن تصورها ، رائحون وغادون وهم يحشرون أنفسهم بين الحناطير ذهابا وايابا ، أو يفترشون جانبى طريق البوابة التى يعلوها برج عظيم فى كلا الاتجاهين · وآخرون يعتلون قمة كل حائط ، ويملأون الجو بالضحكات · وتشكيلة من اللهجات المحلية ، مع تلك العطور العربية التى لاتنفصل عن الجموع الشرقية · انه حشد غير مؤذ ، ولكنه ليس له طعم ، ورحب الصدر ، وغير عدوانى · وتكفى نظرة واحدة اليه حتى تهرب كافة التصورات السابقة عن تزمت السلوك الشرقى ، فالحقيقة هى أن هذا التزمت ليس خاصية شرقية · انظر الى المسلم أثناء صلاته ، فستجده نموذجا للتجرد الدينى ، ثم ساومه على شراء سجادة فستجده مثل القاضى لا يمكن كشف أسراره·ولكن انظر اليه فى ساعات الاسترخاء ، أو فى مناسبة يوم عطلة فستجده مثل طفل كبير فى مرحه وضحكه · وهو مثل الطفل أيضا يحب الضجيج والحركة لمجرد اثارة الضجيج والحركة ، وهو ينظر الى المراجيح والألعاب النارية بوصفهما قمة السعادة الانسانية · والآن نجد أن المراجيح والألعاب النارية تمثل وسائل رزق عربية وتحل محل السيرك ، وتشتد رغبة الشخص العامى لمشاهدتها ، حيث لايندمج فيها فقط فى مناسبات الاحتفالات العامة ، ولكنه يلجأ اليها أيضا لاحياء

أقدس الأعياد الدينيــة · وقد حدث فيما بعــد أن صادفنا أعيادا اسلامية عديدة سواء فى مصر أو سوريا فوجدنا المراجيح تعمل طوال النهار والألعاب النارية كل مساء · واليوم فان المراجيح لم تكن وحدها خارج باب النصر ، فقد كان معها مراجيح روسية تصدر أصواتا وهى معلقة فى مركبات ملونة لركوب الأطفال ، ومراجيح مربوطة بحبال يصل ارتفاع بعضها الى مثل ارتفاع مشانق هامان (*) ويركبها الرجال · أما عن نفسى فاننى لا أعرف منظــرا أكثر اثارة من منظر الاستمتاع الهادىء الذى يشعر به الرجــل المصرى المتوسط العمر ، الملتحى ، والمعمم ، وهو يجلس القرفصاء على كعبيه فوق المقعد الخشبى الصغير فى واحدة من هذه المراجيح الهائلة ويمسك بالحبال الجانبية للمحافظة على حياته ، ويصل ارتفاعه فى الهواء الى ٤٠ قدما فى كل مرة ·

وقبل منتصف النهار بقليل عندما تصل الحرارة وسطوع الشمس الى درجة لا تحتمل ، تتوقف المراجيح عن الحركة ، ويندفع الزحــام فى اتجاه البوابة ، وتعلن دقات الطبول من بعيد عن اقتراب الموكــب · فى البداية وصلت سلسلة من الجمال تحمل الأثاث الخاص بالخيام ، ثم حوالى مائتى حاج ســائرين على الأقدام وهم يرتلون بعض الآيات القرآنيــة ، ثم تصل كتيبة من المشاة المصريين يلبس رجالها زيا عسكريا مصنوعا من التيــل الأبيض الخشن مكونا من معطف ، وسروال فضفاض ، وطزلق فوق الحذاء ، مع أحزمة متقاطعة بها صـــناديق الخرطوش المصنوعة من الجلد الأسود السادة ، وعلى رأس كل منهم طربوش أحمر · ويتبع هؤلاء عدد آخر من الحجاج وراءهم مجموعة من الدراويش يحملون بيارق خضراء مطرزا عليها عبارات عربية باللونين الأبيض والأصفر ، وتلى ذلك فرقة من الفرسان الوطنيين يرأسها لواء وأربعة ضباط برتبة البكباشى فى حللهم الفخمة المطرزة بالذهب ، تسبقهم فرقة للموسيقات العسكرية ، ثم فرقة أخرى ، تليها كتيبة أخرى من المشاة ، ويلى ذلك عدد آخــر من الضباط فى رتبة البكباشى تتبعهم كتيبة من الفرسان حاملى الرماح يمتطون جيادا رمادية ويحملون الرماح التى فى قمتها رايــات صغيرة حمراء وخضراء · وبعد مرور هؤلاء حدثت وقفة طويلة · وبعد عدد من الوقفات والمقاطعات وصل جمع غير منتظم من الحجاج ، غالبيتهم من طبقة الفلاحين وهم يدقون

(*) الخشبة التى ارتفاعها خمسون ذراعا أعدها هامان وزير الملك الفـارسى احشويرش (ارتحشستا) لكى يصلب عليها مردخاى ، ولكن المصلوب عليها صار من نصيبه هو بدلا من مردخاى · (الكتاب المقدس ـ سفر أستير ـ الاصحاحات من ٥ ـ ٧) · (المترجم) ·

الطبول الصغيرة ، ويقدر عددهم بحوالى ألفين · والآن يصل الينا صوت المنشدين قبل وصولهم بوقت طويل حيث نرى الدراويش وهم جماعة مشاكسة يلبسون الملابس القديمة ذات المظهر البالى ، وكانوا يديرون رؤوسهم من جانب الى جانب ويصدرون جلبة متواصلة وهم يصيحون قائلين « الله ! الله ! الله ! » ويصل عددهم الى مائتين · وجاء بعدهم مشايخ الطرق التى يتبعونها وهم يرتدون عباءات زاهية الألوان مطرزة بخيوط الذهب ويركبون خيولا عربية · أما أكثر المناظر طرافة فهو منظر شيخ الحسينيين يركب حصانه وعلى رأسه عمامة خضراء ، ويلبس عباءة قرمزية اللون وهو من أحفاد النبى · أما أهم شخصيات الموكب فهو الشيخ البكرى الذى يشبه عند المصريين رئيس أساقفة كانتربرى (*) ، وهو يرأس جميع الدراويش ، وقد وصل أخيرا راكبا حصانا عربيا أبيض اللون تكسوه كسوة مشغولة بخيوط الذهب · وكان رجلا مسنا ذا طلعة وديعة ، وقد ارتدى عباءة بنفسجية اللون ، وعمامة ضخمة باللونين الأحمر والأخضر · وقد تبع هذا الشخص المكرم رئيس رابطة صناع الكسوة ، وهو رجل وسيم يجلس مستعرضا على جمل · وحدثت وقفة أخرى فى الموكب ، وقفة مشوقة ، ووصل جمع يتمتم ، ثم ظهر شخص نصف عار مترهل الجسم ، وشعره فى شكل خصلات سوداء طويلة ، وله ذقن ثلاثية ، ولا يلبس شيئا سوى سروال أبيض قصير ، وشبشب أحمر ، راكبا على جمل نحيف يجرى بسرعة جعلت جنبى الراكب السمين يترجرجان ، ورأسه يدور مع كل خطوة ، كما لو كان فى حالة سكر · وقد سرت رعشة من السرور بين الجماهير لدى رؤيتها لهذا الرجل المبروك المشهور باسم (شيخ الجمل) معبود الجماهير ، وقد علمنا فيما بعد أن تلك كانت حجته العشرين ، وكان المفروض أن يسرع ، محركا رأسه ولا يرتدى شيئا سوى هذا السروال الواسع طوال الطريق ذهابا الى مكة وايابا منها ·

وبعد ذلك تحدث قمة الاثارة ، حتى ان الفرحة التى استقبلت بها الجماهير شيخ الجمل لا تعتبر شيئا اذا قورنت بنشوتها عندما ظهر المحمل محمولا على جمل ضخم ، داخلا من البوابة تسبقه مجموعة أخرى من الضباط الفرسان · ورفعت النساء أطفالهن ، ورفع الرجال سقالات المراجيح وخلفها الحناطير · وصاحوا ، ولوحوا بالمناديل والعمائم · وكانوا جميعا فى حالة من السعادة بجوار بعضهم البعض · وفى نفس الوقت وجدنا أن الجمل الذى أحس برفعة مكانته ، وعظمة الكسوة التى

(*) كانتربرى من مدن انجلترا التى يقصدها الحجيج المسيحيون لوجود ضريح القديس توماس بيكيت بها ـ (المترجم) ·

يتحلى بها ، يتقدم ببطء وتثاقل وأنفه شامخ فى الهواء ، وقد مر قريبا من رؤوس خيولنا • ولم نكن قد شاهدنا مشهدا أجمل من مشهد المحمل ، وهو نوع من الصناديق المزينة بزخارف مطلية بالذهب • وفى أيام المماليك كان المحمل يمثل المحفة التى يركبها السلطان ويمضى فارغا مثل السيارة الملكية التى تسير فى جنازة عامة (١) •

وقيل لنا انه الآن يحمل الكسوة الشريفة التى ترسل سنويا بمعرفة صناع السجاد بالقاهرة الى قبر الرسول • وكانت هذه هى خاتمة الموكب • وبعد مرور الجمل تفرق الزحام وانتهى كل شئ • واندفعت كل الحناطير نحو البوابة لمواجهة المد الكاسح من الجماهير المتدفقة ، مما ترتب عليه حدوث ربكة لايمكن تخيلها • وقد انغرزت بعض الحناطير فى الرمال عند منتصف الطريق ، وكان من بينها الحنطور الذى نعتليه • ودخلت جميعها فى مأزق لا فكاك منه فى داخل الجزء الضيق بمدخل البوابة • وهنا سب السائقون بعضهم بعضا وفرغ صبر الجماهير ، وجرى بعض الأوربيين مسرعين •

وأثناء عودتنا قابلنا كتيبتين أو ثلاثة ، وكان الجنود من المشاة والخيالة يبدون كأشخاص عاديين ومنضبطين الى حد كبير • أما ركوبهم الخيل فكان أفضل من سيرهم على الأقدام ، وهذا هو المتوقع • أما الزى فهو موحد بالنسبة للفرسان والمشاة أثناء الخدمة ، ويتمثل الاختلاف الوحيد فى أن الفرسان يرتدون أحذية سوداء قصيرة مخصصة للركوب ، وأن المشاة يرتدون فوق الحذاء طزلق من التيل الأبيض مثل أبناء قبيلة

---

(١) ورد أن ملك مصر السلطان الظاهر بيبرس كان هو أول من أرسل المحمل مع قافلة الحجاج الى مكة فى سنة ٦٧٠ أو ٦٧٥ هجرية (١٢٧٢ للميلاد) ولكن كما قيل فان هذه العادة لها أصلها الذى يعود الى عدة سنوات قبل جلوسه على العرش ، عندما نصبت شجرة الدر ملكة وهى جارية تركية جميلة كانت قد أصبحت الزوجة المفضلة للسلطان الصالح نجم الدين ، وعند وفاة ابنه (الذى انتهت اليه الاسرة الأيوبية) نادت بنفسها ملكة على مصر • هذه السيدة أنت الحج فى (هودج) أو صندوق مغطى محمول على جمل ، وظل هودجها الفارغ لعدة سنوات تالية يرسل مع القافلة رمزا لسلطة الدولة • ومنذئذ صارت عادة عند أمراء مصر المتعاقبين أن يرسلوا مع قافلة الحج فى كل عام نوعا من الهودج (الذى أصبح يسمى المحمل) كرمز للولاء • انظر فى ذلك كتاب ابوارد وليم لين عن المصريين المحدثين The Modern Egyptians, by E. W. Lane المنشور فى لندن سنة ١٨٦٠ الفصل الرابع والعشرين •

(اضافة من المترجم) :

هذا الكتاب مترجم الى العربية منذ سنوات طويلة تحت عنوان « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » •

زواوة المغربية الذين كانوا يشكلون فرقة مشاة فرنسية . لقد وصل المصريون في الترقي الى بعض رتب الضباط ، ولكن كبار الضباط وهيئة القيادة (وبينهم عدد كبير من رتب البكباشي واللواء الذين يشكلون كتيبة عادية) هم من الأوربيين والأمريكيين .

وقد ظهر لى أثناء الموكب أن النسبة العددية للحجاج صغيرة اذا ما قورنت بالمشتركين في العرض العسكرى ، ولكن هذا العرض الذى يسمى : رحيل القافلة ـ هو فى الحقيقة الموكب الوحيد للكسوة الشريفة من القاهرة الى المعسكر خارج الأسوار ، وأن الكتائب العسكرية قد حضرت فقط كجزء من الموكب التاريخى . أما الرحيل الحقيقى فانه يتم بعد ذلك بيومين ، وحينذاك ينضم الحجاج فى أعداد كبيرة ، بينما تنخفض أعداد العسكريين حتى تصل الى مجرد حامية صغيرة . وقد قيل ان عدد الذين رحلوا للحج هذا العام قد بلغ سبعة آلاف من القاهرة والمدن المجاورة .

وقد جرى عرض الموكب في يوم الخميس الموافق الحادى والعشرين من شهر شوال الهجرى الموافق الحادى عشر من ديسمبر . وفى اليوم التالى أى الجمعة وهو يوم العطلة لدى المسلمين ذهبنا الى مقر الدراويش الذى يقع خلف الأسوار فى ركن هادىء يقع ما بين ضفة النهر والجزء المسمى بمصر القديمة .

وقد وصلنا بعد الساعة الثانية بقليل ، وتوجهنا الى ميدان كبير ، وعبرنا خلال فناء تظلله جميزة ضخمة ، ودخلنا قاعة مطلية بالجير فوقها قبة ، ولها أرضية مفروشة بالحصير النظيف . أما ترتيب المكان فانه يختلف عن كافة المساجد التى شاهدناها حتى تلك الزيارة ، فالحقيقة أنه لم يكن هناك شىء للترتيب ، فلا يوجد منبر ، ولا محراب ، ولا مصابيح ، ولا سجاجيد للصلاة ، ولا شىء سوى صف من الكراسى ذات القاع المصنوع من الخيزران مصفوفة فى أحد الأطراف . وكان يجلس على بعضها عدد من زملائنا من نزلاء فندق شبرد . واذا بفريق من الدراويش يتراوح عددهم ما بين أربعين الى خمسين يجلسون القرفصاء على شكل دائرة فى الجانب المقابل من القاعة وقد تكومت قفاطينهم وأغطية رؤوسهم ذات الشكل الهرمى غير المألوف فى كومة قريبة منهم .

وبعد أن جلسنا على الكراسى بين المشاهدين الآخرين انتظرنا ما سيحدث . وصارت تتدفق أعداد أخرى من الدراويش ومن المشاهدين

الانجليز من وقت لآخر . وكان الدراويش القادمون يخلعون أغطية رؤوسهم ويجلسون بين الباقين يضحكون ويتحدثون معا بدون حرج . أما المشاهدون الانجليز فقد جلسوا فى صف واحد خجولين وغير مرتاحين وصامتين ، يتعجبون مما اذا كان مطلوبا منهم أن يسلكوا كما لو كانوا فى كنيسة أم لا ، وقد أحسوا بالخجل حتى الموت من أقدامهم ، حيث أجبرونا جميعا على خلع أحذيتنا قبل الدخول . أما هؤلاء الذين نسوا أن يحضروا معهم شباشب فقد اضطروا الى ربط أقدامهم بالمناديل التى يحملونها فى جيوبهم .

وبعد مضى وقت طويل أصبح عدد الدراويش حوالى السبعين ، كما أحس الجميع بالتعب لطول الانتظار ، ثم حضر ثمانية موسيقيين ، اثنان منهم يحملان طبلتين كبيرتين ، واثنان يحملان عودين ، وعازف كمنجة ، وناقر الرق ، ثم اثنان يحملان طبلتين صغيرتين . ثم وزع الدراويش أنفسهم وكان من بينهم من هو عجوز أشيب الشعر ، وبعض الأولاد ، فى شكل دائرة كبيرة وكتف كل منهم الى كتف جاره . وأطلقت الفرقة الموسيقية أصوات بعض النغمات الحزينة غير المتوافقة . ثم دخل رجل وقور متوسط العمر وتوسط الحلقة ، وأدار رأسه مع كل تكرار ، وانطلق يردد اسم الله .

فى البداية كان صوته رقيقا ، وبالتدريج أخذ الدراويش يرددون الكلمة « الله ! الله ! الله ! » ثم أخذت رؤوسهم وأصواتهم ترتفع وتهبط فى توافق تام . أما القبة فكانت تردد الصدى . وكان هناك احساس بشىء غريب ورصين فى هذا الاحتفال .

وسرعان ما أخذت الطبلتان الكبيرتان تدقان بصوت أعلى ، كما تحولت أصوات الدراويش الى هدير ، وزادت انحناءة الرؤوس ، وصار اسم الله يرن أسرع وأسرع وأشد حماسا . أما القائد نفسه فقد بدأ فى هدوء يزيد من سرعة المنشدين ، وأصبح واضحا أن الفنانين قد انتابهم اهتياج شديد . وسرعان ما أخذت الحلقة كلها تتأرجح الى الأمام والى الخلف فى اندفاع رهيب . وتحولت الأصوات الى صرخات خشنة . وأصبحت الطبلتان الكبيرتان فقط هما اللتين يرتفع صوتهما على صوت الضجيج . وبين كل حين وآخر يقفز أحد الدراويش فى عصبية لمسافة ثلاثة أو أربعة أقدام أعلى من رؤوس الآخرين . ولكنهم فى الغالب وقفوا متشبثين بسواقهم فى بقعة واحدة ، وهم يحنون رؤوسهم حتى تكاد تقترب من أقدامهم ، ثم يطرحون أنفسهم الى الخلف بعنف لدرجة أننا نحن الذين

نقف خلفهم ، كنا نرى وجوههم شبه مقلوبة • ومع هذه السرعة الرهيبة لم يكن هناك وقت تستغرقه شعورهم في الارتفاع أو الهبوط فظلت معلقة في وسط الهواء • واستمر الاهتياج ومعدل السرعة في التزايد ، صرخ بعضهم ، وتأوه البعض الآخر ، ولم يستطع البعض الأخير أن يسند نفسه أكثر من ذلك • فامسك بهم المتفرجون حتى يظلوا في أماكنهم • وكانوا جميعا قد أصبحوا حينذاك شبه مجانين • وأخيرا احسسنا بأن رؤوسنا تدور ، ونظرت أكثر من سيدة نحو الباب تحدوهن الرغبة في الخروج • لقد كان المنظر مريعا ، ولم يكن يحتاج الا الى الظلام وضوء المشاعل حتى يصبح مسرحية كاملة • ولما وصلت الغضبة الى ذروتها وبدا أن المبتى يتمايل للأمام والخلف فوق رؤوسنا ، ترنح أحد البائسين خارجا من الحلقة وسقط وهو يتلوى ويصرخ بالقرب من أقدامنا • وفي نفس اللحظة صفق القائد بيديه فتهاوى الفنانون متخذين وضع الجلوس لاهثين ومنهوكي القوى • وانتهى فجأة أول ذكر كما يطلقون عليه • ولم يستطع القليل منهم التوقف فورا ، فاستمروا يتطوحون ويتحدثون مع بعضهم بصوت خفيض ، بينما توقف الرجل الذى انتابته النوبة العصبية عن الصراخ ، وظل ممددا بطوله في الخارج وهو متصلب ، ويبدو أنه دخل في حالة غيبوبة •

وفي نفس الوقت حدثت بين المشاهدين همهمة تعبر عن الرضا • وقد أعلن أن ذكرا آخر سوف يبدأ حالا مدعما بدراويش جدد ، ولكن الأوربيين نالوا كفايتهم من المشاهدة بينما بقى القليل منهم لمشاهدة العرض التالي •

وعند خروجنا توقفنا عند المسكين الملقى على الأرض ، وسألنا عما اذا كان من الممكن عمل شيء له ، فقال أحد الموظفين المصريين الذى كان واقفا : « لقد مسه الرسول » •

وفي هذه اللحظة خرج القائد وركع بجانبه ولمس رأسه وصدره في رقة وهمس بشيء في أذنه ، ومن ثم تصلب جسم الرجل وصار أبيض اللون كالميت • وانتظرنا حتى رأيناه بعد دقائق قليلة يصارع ليعود في حالة من الذهول وعدم الانتباه ، وحينئذ ساعده أصدقاؤه على الوقوف واقتادوه خارجا •

وعند خروجنا كان الفناء مزدحما بالدراويش الجالسين في الظل يشربون القهوة على دكك من الخيزران • وقد خفقت الأوراق الخضراء فوق

الرؤوس ، وبينها لمحات عميقة من زرقة السماء ومساحات لامعة من ضوء الشمس ، تتساقط على مجموعات من الأشخاص ذوى المظاهـــر الخشنة ، فى عباءات ملونة بلونين • ان هذا المنظر يمثل موضوعا جاهزا للرسم يمر بجانبه الرسام وهو يتنهد ولكنه يعيش فى ذاكرته الى الأبد •

ومن تلك اللحظة وقد أصبحنا على بعد دقائق قليلة من مصر القديمة مضينا الى جامع عمرو ، وهو مجموعة من الخرائب عديمـــة الأهمية تقف وحيدة بين التلال الخارجة من أول عاصمة اسلامية لمصر • وهو مقام على مربع منعزل مساحتـــه ٢٢٥ قدما مربعـا ويحوطه رواق مغطى مكون من صف واحد من الأعمدة فى الناحية الغربيـــة (التى تمثـــل جانب المدخل) ، وأربعة أعمدة فى الشمال وثلاثة أعمدة فى الجنوب ، وستة أعمدة فى الشرق الذى فيه مكان الصلاة • والمســـجد يتضمن ثلاثة محاريب مقدسة والمنبر • أما الأعمدة وعددها ٢٤٥ عمودا فقد انتزعت من المبانى الرومانية والبيزنطية القديمة • وجميعها من نوعيـات مختلفة من الرخام ، ولها تيجان متنوعة الأشكال • وبعضها قصيرة جدا ، ولذلك وضعت على قواعد مرتفعة وغير متناسبة • أما الارتفاع المطلوب فقد تم التوصل اليه باضافة عمود ثان فوق قمة العمود الأول • وقد رأينا عمودا نادرا من هذا النوع مصنوعا من الرخام الأسود والأبيض النادر والذى نجد مثيلا له فى منبر كنيسـة القـديس مرقس فى البندقية ،ويتضمن أحـــد المحاريب بعض القطع الصغيرة من الموزاييك البيزنطى • ويبدو أن المبنى بكامله قد تم تجميعه بطريقة عشوائية ، كمـا يبدو أنه يدين بحالته المتداعية الحالية الى رداءة تنفيذ البناء وليس عنصر الزمن • ان العديد من الأعمدة خاصة فى الناحية الغربية متساقطـة ومحطمة • أما الفسقية الثمانيـــة الأضلاع التى فى الوسط فانها خربة وبدون سقف • وكذلك فان المئذنة التى فى الجنوب الشرقى لم تسلم من التخريب •

وبالرغم من افتقار جامع عمرو الى وحدة التصميم وكثرة التفاصيل فان أهميته تعود الى أنه نقطـة انطلاق فى تاريخ العمارة الاســلامية • وقد بناه عمرو بن العاص الفاتح العربى لمصر فى الســـنة الحادية والعشرين للهجرة (٦٤٢ للميلاد) بعد عشر سنوات من وفاة الرسول ، وهو أقدم عمارة اسلامية فى مصر ، ولهذا السبب سعدنا بمشاهدته بصرف النظر عن الأسباب الأخرى • والمكان مكشوف وموحش ، وكان الوهج المنعكس

من كل جوانب المربع شديد الكثافة حتى اننا تنفسنا الصعداء عندما عدنا ثانية الى الشوارع الضيقة بجوار النهر (*) ·

وهنا صادفنا موكب عرس مكونا من حشد من الرجال ، وفرقة موسيقية وثلاثة او أربعة من الحناطير المؤجرة التي تمتلىء بالنساء المحجبات ، وقد أمكن تمييز العروس من بينهن · أما العريس فكان يسير بين الرجال الذين كانوا يداعبونه وهو محاط بالطبول الضخمة التي تعوق تقدمه ، بينما ترتفع جلجلة الدفوف ونقرات الطبول الصغيرة على أصوات الضحك والصياح · وقد سمعنا جلبة مرتفعة تصدر عن آلة تعطي أصواتا تشبه موسيقى القرب ·

وكان بعد ظهر ذلك اليوم مشرقا ، واتذكر أننا أنهينا مهمتنا بركوب الحنطور في شارع شبرا حيث ألقينا نظرة على حدائق القصر الصيفي للخديو · ويعتبر شارع شبرا بمثابة شانزليزيه القاهرة ، ويزدحم بالناس يوميا ما بين الساعة الرابعة الى السادسة والنصف · وهنا تجد على جانب الشارع سقائف لتقديم المشروبات أقيمت بالتبادل مع الفيلات الحديثة الأنيقة · ويركب الفلاحون ذوو الملابس المتواضعة حميرهم المنهوكة القوى جنبا الى جنب الملحق الدبلوماسي الأنيق الذي يركب جوادا عربيا مطهما ، بينما يركب السائحون الحناطير المؤجرة ، ويركب رجال المال اليهود عربات ممتازة يجر كلا منها حصانان ، وتركب الحريم المحجبات عربات بريطانية الصنع يجر كلا منها حصان واحد ، ويرتدي أصحاب المحلات الايطاليون ملابس متبرجة خارجة عن الأدب · ويركب الشيوخ الموقرون الحمير الفخمة التي تشتهر بها القاهرة · ويمر الضباط مرتدين حلل الردنجوت ذات الجدائل والعراوي المطرزة · وتمر البنات الانجليزيات وهن يرتدين القبعات العالية والبنطلونات الضيقة المخصصة لركوب الخيل ، ويتبعهن السائس الانجليزي الصغير ذو الهيئة الرزينة · ويسير الناس يسبق بعضهم الآخر أو يتبعه في تيار غير متجانس لايهدأ ، ودائم التغيير ، ولا يمكن رؤية مثيل له في أية عاصمة أخرى من عواصم العالم · ويركب أبناء الخديو مركباتهم هنا يوميا ، انهم دائما في مركبات منفصلة يسبقها أربعة من السائسين وأربعة من الحراس ، وهم من كافة الأعمار والأحجام ، ابتداء من ولي العهد وهو شاب شاحب اللون

(*) اهتمت هيئة الآثار منذ عدة سنوات بترميم هذا الأثر الذى رغم تواضع قيمته الفنية الا انه يتمتع بقيمة تاريخية لا تقدر بثمن وقد اعيد تخطيط الميدان أمامه ورصفه وتم تزويده بالمقاعد والاشجار ـ (المترجم) ·

يتمتع بمظهر السادة يبلغ من العمر الرابعة أو الخامسة والعشرين ، حتى الطفل المتصلف الصغير الحجم الذى يبلغ حوالى السادسة من العمر · وقد ارتدى ملابس رجل صغير ، وهو يطل باستمرار من نافذة مركبته الى الخارج ويسيء معاملة حوذى المركبة بصوت مرتفع (١) ·

وبصرف النظر عن هؤلاء المترددين على شارع شبرا كثيرا ، فانه شارع يصلح حقا لسير المركبات ، عريض ، ومنبسط ، ويرتفع حوالى ستة أو ثمانية أقدام فوق السهل المزروع ، وعلى جانبى الشارع زرعت أشجار السنط والتين التى تمتد لمسافة أربعة أميال خارج القاهرة اعتبارا من المحطة النهائية للسكك الحديدية حتى القصر الصيفى · ويصل عرض طريق سير المركبات الى عرض الطريق الذى يعبر حديقة الهايدبارك والذى يربط حى بايزووتر بحى كنسنجتون فى لندن · ويجرى الطريق بالقرب من النيل حتى نهاية حى شبرا · والكثير من أشجار الجميز ضخمة الحجم ومستديرة الجذع ، تلتقى فروعهما فى أعلاها تقريبا ناسجة ظلا رقيقا وصانعة نفقا أخضر رطبا من المنظور الطويل ·

ولم نبق فى حدائق الخديو فترة طويلة لأن الوقت كان قد بدأ يتأخر عندما وصلنا الى البوابات · ولكننا توغلنا بما يكفى لمعرفة أنها كانت تلقى الرعاية المتكاملة بشكل مقبول ، وليس فوق العادة ، وقد أعدت بحيث تبرز منظر تجمعات الخضرة ، والممرات الظليلة ، وفراغات الأرض المزروعة بالحشائش والمزخرفة بأحواض الأزهار على مثال حدائق سارنتيم ومؤسر فى بوتزين باقليم التيرول (*) · وتوجد هنا أشجار السنط فى حجم غير عادى ، وقد تناثرت على سطحها حزم متفرقة من الأزهار الصفراء ، وتوفرت أشجار البرتقال والليمون ، وأكوام من أشجار المواد الصمغية الخضراء ، وشجيرات الموز التى تحمل سباطات ثقيلة منحنية بالثمار الناضجة ، والآجام الملتفة من أشجار الرمان وأشجار الدفلى المزهرة ، وأشجار السالفيا التى تزرع للزينة وأحواض ضخمة ، وضفاف وممرات وتكعيبات من الأزهار لم ألاحظ بينها أية تشكيلات نادرة · أما عن أشجار البوتسنية (نبات مكسيكى) فهى تنمو فى مصر ويصل ارتفاعها الى عشرين قدما ، وتحمل أزهارا تصل فى حجمها ولونها الى مدى

---

(١) ولى العهد المذكور ، أصبح الآن الخديو توفيق باشا · (أضيفت هذه الحاشية الى الطبعة الثانية) ·

(*) اقليم يقع فى شمال ايطاليا وقرب النمسا كان محل نزاع بين الدولتين فى معظم فترات التاريخ الحديث ــ (المترجم) ·

لانيستطيع أن نتخيله في انجلترا . ورأينا أشجارا ضخمة سواء هنا في القاهرة أو في الاسكندرية تبدو كما لو كانت تنحني تحت عباءة من النجوم القرمزية ، وكان محيط بعضها لا يقل عن اثنتين وعشرين بوصة عند القياس .

ويتمثل أعظم مناظر القصر في النافورة الايطالية الفخمة التي من طراز الروكوكو المعماري المزخرف . وقد لمحناها من خلال الأشجار . وأدهشنا أن البستاني الذي كان يصحبنا كان يتفحصها عن قرب . ولم يفهم لماذا فضلنا أن نصرف وقتنا بين الشجيرات وأحواض الأزهار .

وعندما كنا نركب الحنطور عائدين في اتجاه القاهرة ومع كل منا باقة كبيرة من الورد ، رأينا الشمس وهي تغرب داخل هالة وردية ناعمة والسحب الذهبية ، والنيل يتدفق مثل غدير من النور السائل ، وأسطولا من القوارب الشراعية متجها الى بولاق ، تسوقه نسمة من ريح الشمال ، وقد أصبحت هذه الأشرعة الانسيابية ذات أهمية بالغة بالنسبة لنا حيث أثارت مشاعرنا بالفعل ، اذ أنني أخرت هذا الاكتشاف الخطير حتى آخر لحظة — لأننا كنا سنبدأ في اليوم التالي رحلتنا النيلية .

وهذا هو السبب في أنني استطعت في وسط زحام هذه المناظر الجديدة والمذهلة أن أتذكر تماما التواريخ وكافة الأحداث المرتبطة بهذين اليومين الأخيرين ، وقد كانا آخر يومين نقضيهما بالقاهرة . وكان علينا أن نرحل صباح اليوم التالي وهو السبت الموافق ١٣ من ديسمبر على ظهر ذهبية ترسو الآن عند البوابة الحديدية في بولاق . وسنبدأ هذه الحياة المائية الغريبة التي كنا ننتظرها متشبعين بالكثير من الآمال والمخاوف ، والتي كنا نتطلع اليها من خلال العديد من المتاعب التمهيدية .

ولكن المتاعب انتهت الآن واستقرت كل الأمور ، بالرغم من أن ذلك لم يتم بالطريقة التي أردناها في البداية ، لأنه بدلا من قارب صغير ، استأجرنا واحدة من أكبر المراكب العاملة على صفحة النهر . وبدلا من الذهاب بمفردنا قررنا أن نلتقي في مركبنا بثلاثة سائحين آخرين ، كان أحدهم قد تعرف بالكاتبة حديثا . والأخيرتان صديقتان للأول ، وكانوا جميعا في طريقهم خارج أوربا ولم يتوقعوا أن يقضوا في القاهرة أسبوعا آخر . ولم نعرف عنهم شيئا سوى أسمائهم .

وفى نفس الوقت كانت الكاتبة وصديقتها ترغبان فى تأجير الذهبية بمفردهما · وكانتا على وشك الابحار منذ عشرة أيام سابقة · ولم تقصدا الابحار الى أبعد من الروضة (وهى المحطة النهائية التى تصل اليها سكة حديد النيل) وهناك تنتظران وصول بقية الفريق · والآن فان الروضة تقع جنوب القاهرة بمسافة مائة وثمانية عشر ميلا · وقد حسبنا هذه الحسبة لتقدير المسافة اللازمة لمشاهدة أهرام سقارة ومحاجر طرة ومقابر بنى حسن وكهف التمثال العملاق · وذلك قبل وصول السياح المرافقين ·

وقال الترجمان : « تعرفان أن ذلك يتوقف على الريح » · قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة رزينة · لقد عرفنـا أن الأمـر يتوقف على الريح · ولكن ماذا بعد ذلك ؟ انهم يفترضون فى مصر أن الريح تهب دائما من الشمال فى هذا الوقت من السنة وبذلك يصبح أمامنا عشرة أيام كاملة نتصرف فيها كمـا نشـاء · وكان من الواضح أن الملحوظة خارجة عن الموضوع ·

الفصل الثالث

من القاهرة الى البدرشين

بادرنا بالرحيل بأسرع ما يستطيع الجوادان الأشهبان الهزيلان أن يحملانا ـ بعد زيارة سريعة قمنا بها الى بعض المحلات القريبة ، لشراء الأشياء التى تذكرناها فى آخر لحظة ـ وجمعنا ونحن مقطوعو الأنفاس طرودا عديدة . وبعد أن أدينا بعض تحيات الوداع المتعجلة على سلالم الفندق ـ ذلك أن كل لحظة لها قيمة فى ذلك الصباح ـ كنا متأخرين حيث اننا ننتظر حضور بعض الزوار وقت الظهيرة للغداء على ظهر الذهبية .

وكان يجب علينا الاسراع بالذهبية فى الساعة الثانية بعد الظهر حتى يتحقق أملنا فى الوصول الى بولاق قبل فتح الكوبرى الذى نعبر خلاله الى الضفة الغربية حيث ترسو ذهبيتنا قبالة البدرشين التى نقصدها ، وحتى لا نشعر بالخيبة اذا وصلنا فى تمام الوقت المحدد لفتح الكوبرى ومشاهدة أول صار طويل يعبر خلاله .

وعلى كل حال فانه عندما لاحظ أولئك الذين يراقبوننا علامات طلب المساعدة التى أطلقناها ، أسرع الينا صندل رشيق أو فلوكة زاهية اللون كما يسمونها ، كان محملا بالبطاطين والوسائد ، يقوده خمسة من العرب الباسمين رافعين علما بريطانيا صغيرا لامعا . وكان الصندل يشق طريقه بين الصنادل المتزاحمة فى مدخل الكوبري . وبعد عدة دقائق سارت ذهبيتنا لأن هذا الصندل كان ملحقا بنا وهؤلاء الخمسة من بحارتنا . ومن بين الذهبيات الثلاث التى تربض هناك فى ظل أشجار النخيل، كانت ذهبيتنا العزيزة التى لا تنسي واسمها « فيلة Philae » هى الأكبر والأحسن استعدادا .

وكانت ترسو خلف فيلة ذهبية أخرى تسمى باجستونز وهى ذهبية صغيرة لطيفة لسيدتين انجليزيتين تصادف أن كانتا تعبران معنا فى المركب « سيملا » من برنديزى ، وقد رأيناهما مرات عديدة مما جعلنا

نعتبرهما حينذاك بمثابة صديقتين قديمتين فى أرض غريبة · وسأطلق عليهما اسم م ، ب · أما الذهبية الأخرى التى ترسو أمامنا على بعد عدة ياردات فهى تحمل العلم الفرنسي ومؤجرة لعدد من الوجهاء الفرنسيين · وكان من المقرر أن تبحر الذهبيات الثلاث اليوم · نحن الآن على سطح السفينة وقد سلمنا على القبطان وانشغلنا مثل النحل،فقد كانت الكبائن فى حاجة الى الترتيب ، والأزهار فى حاجة الى التنسيق · كما كانت هناك مئات الأشياء الصغيرة التى يجب النظر فيها قبل وصول الضيوف · ومن المدهش تصور مدى ما يمكن أن تفعله بعض الكتب والورد والبيانو المفتوح مع لوحة أو اثنتين من اللوحات المرسومة باليد ، وخلال دقائق قليلة زالت النظرة المكدودة المرهقة وبدت الذهبية فيلة ذات الطلعة البهية دافئة مثل البيت ، كما لو كانت مشغولة بسكانها منذ شهر وذلك قبل الاعلان عن وصول أول القادمين ·

أما عن الغذاء فمن المؤكد أنه قد أدهش مقدمى التسلية مثلما أدهش ضيوفهم حيث كان يتمثل فى عرض ســابق الترتيب ، يثير الاعجاب بالترجمان والطباخ ، كان يشبه كثيرا غذاء عيد الميلاد (الكريسماس) باهظ التكلفة أكثر منه وجبة متوسطة وسط النهار · وجلسنا حوله بلا تردد لمدة ساعة وثلاثة أرباع الساعة عندما صفقت أسماعنا طلقات نارية جعلتنا نجرى على سطح الذهبية ، وأشاعت تحولا شاملا لصالحنا · كانت الذهبية الفرنسية تعلن عن ابحارها وقد بسطت شراعهــا الكبير وخرجت فى شكل يعبر عن الانتصار ·

وأخشى أن نكون نحن ركاب الباجستونز وفيلة ـ وقد كنا مجـرد سيدات انجليزيات ـ قد عجزنا عن مواجهة الاحساس بالقليل من الحقد عندما وجدنا أن الذهبية الفرنسية قد رحلت فى البداية ، ولكننا شعرنا بالارتياح عندما عرفنا أن الفرنسيين كانوا فى طريقهم الى أسوان فقط · وهذه هى روح النيل · ان ركاب الذهبيات يحتقرون سياح توماس كوك هؤلاء الذين يقصدون الشلال الثانى،بينما ينظرون بعطف عميق نحو هؤلاء الذين لايمتد طموحهم الا الى الشلال الأول فقط ، أما السـياح الذين استأجروا مركبهم لمدة شهر فانهم يتطاولون بأعناقهم أعلى من هؤلاء الذين تعاقدوا على الرحلة فقط · أما نحن الذين تعاقدنا على المضى الى المسافة التى نريدها والمدة التى نرغبها ، فقد كنا فى موضع الافتخار ، ولذلك سامحنا الفرنسيين ، ونزلنا مرة أخرى الى الصالون وتناولنا القهوة على أنغام الموسيقى ·

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة تقريبا عندما ودعنا أصدقاؤنا الذين أتوا من القاهرة ، ثم عادت السيدتان م ، ب وابن أختهما ، وكانوا ضمن الزائرين ، الى مركبهما واستعد كل من القبطانين للابحار عند صدور الاشارة لأن السيدتين م ، ب قد اتفقتا معنا على الابحار معا ، والرسو معا ، والبقاء معا على مدى الرحلة عبر النهر بقدر الاستطاعة . ونحن الآن نشعر بالسعادة عندما نتذكر هذا الاتفاق الودى ، الذى تم تنفيذه حرفيا حتى وصولنا الى أبى سمبل،ولم نخرج عليه مثلما يحدث دائما فى مثل هذه الاتفاقات ، أى أنه قد استمر معمولا به لفترة سبعة أسابيع شاقة ، ولمسافة تتجاوز ثمانمائة ميل .

وأخيرا تم اعداد كل شيء ، وأنزلت المظلة التى ظلت تغطى السطح العلوى طوال النهار ، ووقف القبطان على رأس الدرج ، كما وقف موجه الدفة أمام دفته ، وحمل الترجمان بندقيته المحشوة ، ولوحنا بمنديل لمعرفة ما اذا كانت المركب باجستونز قد استعدت من عدمه . وجاء الرد بالايجاب . فقد تم حل حبال المرساة ، كما دفع البحارة المركب بعيدا عن الضفة ، وأطلقت البنادق طلقاتها ، ست طلقات من فيلة ، وستا أخرى من باجستونز ثم مضينا وقد امتلأ شراعنا الضخم بالهواء .

ما أسعد المسافرين فى النيل الذين يبدءون رحلتهم مع النسيم العليل بعد ظهر يوم وضاء ! وشقت المركب السعيدة طريقها فى سرعة وثبات . وأخذت القصور والحدائق التى على جانبى النيل تتلألأ ثم تتوارى خلفنا ، كما أخذت قباب ومآذن القاهرة تتباعد بسرعة عن الأنظار ، وأخذ جامع القلعة وخرائب الحصن التى يطل عليها من فوق الحافة الجبلية تضمحل كلما ابتعدنا ، بينما ظلت الأهرام تقف حادة وظاهرة .

أما نحن فقد جلسنا على السطح العلوى المؤثث بالكراسى المريحة والمناضد والبطاطين الأجنبية مثل مقصورة فى الهواء الطلق ، وأخذنا نستمتع بالمنظر الطبيعى ونحن فى حالة الاسترخاء . ومن هنا يبدو الوادى متسعا والضفتان مسطحتين تكشفان عن حافة شديدة الانحدار من الطمى المنهار بجوار مجرى النهر . وظهر حزام طويل من أشجار النخيل ، وزراعات واسعة من القمح الحديث الانبات ، ترتفع سيقانه عن سطح الأرض بوصة أو بوصتين ، ومجموعات من البيوت المبنية بالطوب اللبن يفصل بينها أحيانا قبة صغيرة مطلية بالجير أو مئذنة عالية تتبع احداهما الأخرى على جانبى النهر ، بينما تحد الأفق من اليمين والشمال صفوف

طويلة من تلال الحجر الجيرى التى يرقد بين طياتها ظلال رقيقة يندمج فيها اللونان البنفسجي الشاحب والأزرق بشكل لا يمكن التعبير عنه ٠

وهكذا تمضي الأميال ونقترب شيئا فشيئا من طرة ٠ وهي قرية طينية كبيرة ذات شكل جديد ، كما أنها أول ما نراه على هذا البعد ٠ ان بعض المنازل مطلية بالجير ، والقليل منها له نوافذ زجاجية ٠ ويبدو أن الكثير من هذه المنازل لم يتم بناؤه بعد ٠ وهناك فضاء واسع من الحجر الأبيض يفصل القرية عن الجبال التى تزخر بالمحاجر خلفها ، والجوانب التى تكشف عن كافة الأطراف والشقوق ٠ وهناك صخرة عظيمة يبدو أنها قد شقت طوليا لمسافة تصل الى نصف ميل ٠ وعندما نصادف شقوقا جديدة نرى الحجر الجيرى يبرز منها لامع البياض ، وقد تكومت المنحدرات الطويلة من الأنقاض أسفل الصخور اللامعة مثل أكوام الثلج التى تلمع تحت أشعة الشمس ٠ ولكن السطح الخارجى للجبـال يميل الى اللون الأصفر المشرب بالسمرة مثل الأهرام ٠ أما أكوام الكتل الحجرية المقطوعة التى ترقد مكدسة بطول الضفة والمجهزة للنقل فانها تبدو كما لو كانت من الملح وليست من الحجر ٠ وهنا يرسو أسطول كامل من قوارب نقل البضائع ، محملة أو جار تحميلها ٠ ونرى سلسلة طويلة من العربات التى تجرها البغال وهى تمضى ذهابا وايابا بطول الطريق الممتد من جانب النهر الى المحاجر ٠

أن المادة المستخدمة فى بناء كافة المبانى الجديدة بالقاهرة وهى قصور الخديو ، والمبانى الحكومية ، والفيلات الحديثة الجميلة ، والشوارع الجديدة اللامعة ، والمسارح والأرضيات المبلطة للمشاة ، والمقاهى ، كلها تأتى من هذه الجبال — تماما كما حدث بالنسبة للأهرام منذ أكثر من ستة آلاف عام مضت ٠ وكان من الممكن أن نشـاهد مناضد فرعونيـة ومغارات منحوتة فى أقدم أجزاء المحاجر ، اذا توقفنا هناك خلال هذه المرحلة المبكرة من الرحلة ٠ ويتحدث شامبليون عن خطين خارجيين عظيمين مرسومين بالحبر الأحمر على الصخرة الكبرى بيد أحد المسئولين عن البناء أيام الفراعنة ، وهى صخرة لم يكن قد بدأ تقطيعها بعد ٠ ونصل الى نهاية القرية حيث توجد ثكنة عسكرية جديدة ضخمة المساحة وميدان فسيح مخاط بأشجار الجميز والتين ٠

والآن ، ومع انقضاء فترة بعد الظهر نصل الى غابة متسعة من أشجار النخيل العظيمة على الضفة الغربية ونعلم أن خلفها روابى منف وكافة عجائب سقارة ، بالرغم من انها لا تبدو ظاهرة للعين ٠ ثم تغرب الشمس

خلف تلال الصحراء الغربية ، وتقف أشجار النخيل بلونيها الأسمر والبرونزى مقابل السماء الذهبية • أما الأهرام فتظهر رمادية على البعد خلفنا • والآن وقد حل الغسق وظهرت النجوم، فقد رسونا لقضاء الليل عند البدرشين وهى أقرب نقطة لزيارة سقارة • وتوجد هنا محطة للسكك الحديدية ، وقرية كبيرة ، تقعان هما كلتاهما خلف النهر بمسافة تقرب من نصف الميل • أما المسافة الى القاهرة والتى تقاس بخمسة عشر ميلا على الأرض فمن المحتمل أن تصل الى ثمانية عشر ميلا فى النهر • وكان ذلك هو أول أيامنا على صفحة النيل • وربما وجب علينا قبل أن نمضى فى رحلتنا الى أبعد من ذلك أن نصف الذهبية فيلة ونتعرف على الريس حسن وطاقمه •

انها ذهبية تبدو للوهلة الأولى مثل لنش مدنى أو خاص بجامعة أكسفورد أكثر منها شبها بالمراكب التى تعودنا عليها فى انجلترا • انها ضحلة العمق عريضة القاع ، وقد جهزت اما للابحار بالشراع أو بالتجديف ، وبها صاريان ، الأكبر منهما بالقرب من المقدمة ، والأصغر عند المؤخرة • أما القمرات فهى على السطح وتحتل القسم الخلفى من السفينة • ويشكل سطح القمرات السطح العلوى للسفينة أو المقصورة التى فى الهواء الطلق والتى أشرنا اليها من قبل • ونصل الى هذا السطح العلوى من السطح السفلى بواسطة سلم من درجتين ، وهذه هى المنطقة المخصصة للمسافرين • أما السطح السفلى فهو المنطقة المخصصة لطاقم السفينة • وهى فى الحقيقة لا تشبه سفينة نوح التى نتذكرها منذ الطفولة نظرا لوجود فارق ، هو أن الجزء المأهول يقع كله فى طرف السفينة وليس فى وسطها ، وهو مرتفع ومزود أيضا بالنوافذ ، بينما السطح الأمامى لا يتجاوز ارتفاعه ستة أقدام فوق سطح الماء • أما غرفة القيادة فتقع تحت السطح السفلى وبذلك يحدث التوازن فى الطرف الآخر • وليست هناك ضرورة لذكر مقارنات أخرى ، ولكننى أقول ان الذهبية الكبيرة تذكرنى بالصورة القديمة لسفينة القراصنة خاصة عندما يجلس الرجال الى مجاديفهم •

أما المطبخ الذى هو مجرد سقيفة فانه يشبه الفرن الألمانى من حيث الشكل ويشتمل على فرن يعمل بالفحم النباتى وصف من أوعية المطبخ ذات الأغطية ويقع بين الصارى الكبير ومقدمة السفينة بعيداً عن قمرات الركاب بقدر الاستطاعة • وفى هذا الموقع يحتمى الطباخ من الرياح المواتية داخل سقيفته • أما فى حالة الرياح العكسية فان هناك مظلة تحجبه عنها • أما كيف يستطيع هؤلاء الرجال حتى فى أحسن الظروف

الموانية أن يقدموا الوجبات الفاخرة التى تعتبر مفخـرة المطبخ الذى فى قلب النيل ، فان هذا مثير للعجب بما فيه الكفاية • ولكن كيف يحققون نفس النتائج عند هبوب العواصف العادية أو الرملية عندما تكون كل نسمه محملة بحبات الرمل الدقيقة فهذه فعلا هى المعجزة • وتتشابه جميع الذهبيات . فى حين يختلف ترتيب القمرات حسب حجم المركب • وعلى القارىء أن يتذكر أننى وأنا أصف فيلة انما أصف ذهبية من الحجم الكبير حيث يصل طولها من المقدمة الى المؤخرة الى حوالى مائة قدم ، كما يصل عرض سطحها العلوى فى أعرض أجزائه الى حوالى العشرين قدما • أما قمرتنا التى تنخفض قليلا عن سطح الرجال ، فانها تجعلنا نهبط ثلاث درجات الى باب الدخول الذى كان يتضمن دولابا خارجيا على كل من جانبيه ، يستخدم أحد الدولابين كمخزن بينما يستخدم الآخر لحفظ أدوات المائدة • ويقود هذا الباب الى ممر تنفتح عليه أربع قمرات للنوم بمعدل اثنتين على كل جانب ، تبلغ مساحة كل من هذه القمرات ثمانية أقدام طولا وأربعـة أقدام ونصفا عرضـا • وتحتوى على سرير وكرسى وحوض ثابت للاغتسال ، ومرآة معلقة على الحائط ، ورف ، وصف من الخطاطيف • ويوجد تحت كل سرير درجان كبيران لحفظ الملابس • وعند نهاية هذا الممر ينفتح باب آخر يقود الى قاعة الطعام التى تتكون من حجرة بهيجة واسعة يبلغ طولها حوالى ثلاثة وعشرين أو أربعة وعشرين قدما ، وتقع فى أعرض جزء من جسم المركب • ويدخل اليها الضوء من أربع نوافذ فى كل جانب وطاقة علوية • أما الحوائط المغطـاة بالألواح الخشـبية والسقف فقد كانت جميعهـــا مطليــة باللون الأبيض المحاط باللون الذهبى • ووضعت بطول كل جانب منهـا أريكة منجدة مغطاة بقماش من الصوف المتين على كل من الجانبين • أما الأرضـية فتغطيها سجادة جميلة من بروكسل • أما مائدة الطعام فقد وضعت فى وسـط الغرفة • وكان هناك أيضا فراغ فسيح للبيانو وخزانتان صـــغيرتان للكتب مع العديد من الكراسى • أما ستائر النوافذ والأبواب فقد كانت من نفس النسيج المغطاة به الأريكة • أما الألوان الغالبة فهى القرمزى والبرتقالى • هذا بالاضافة الى اثنتين من المرايا داخل اطارين مطليين بماء الذهب • وعلى المائدة زهرية تحمل الأزهار (لأنه نادرا ما افتقدنا الأزهار من أى نوع حتى فى النوبة حيث كانت الباقة اليومية تقدم الينا مع بعض أزهار الفول الأخضر وحبات الخروع) وقد وضعت فى أحـد الأركان كمية كبيرة من الكتب والبنادق والعصى • وقد علقت قبعـات المجموعة كلها فى الفراغات التى بين النوافذ فكان من السهل أن تتعرف الى المظهر المنزلى الذى تميزت به حجرة المعيشة •

وهناك باب وممر آخران مفتوحان من مؤخرة الصالون يقودان الى ثلاث قمرات اضافية للنوم منهما اثنتان بسرير واحد في كل منهما والثالثة بها سريران . وهناك حمام ودرج صغير يقود الى السطح العلوى وصالون القمرة التى فى مؤخرة السفينة . وهذه الأخيرة تشبه المؤخرة من حيث الشكل نصف الدائرى ، ويدخل اليها الضوء من ثمانى نوافذ وتكتنفها أريكة . ويوجد تحت هذه الأريكة والأرائك الأخرى التى فى الصالون صف من الأدراج العميقة التى قسمت بالتساوى لوضع ملابسنا ونبيذنا وكتبنا . ولما كان طول الذهبية يبلغ مائة قدم بالتمام فان الجزء المشغول بالقمرات يصل طوله الى حوالى ستة وخمسين أو سبعة وخمسين قدما (أى أنه يزيد عن النصف بحوالى ستة أو سبعة أقدام) أما السطح السفلى فان طوله يصل الى الثلاثة والأربعين قدما الباقية ، ولكن هذه الأبعاد تقريبية لأنها مقدرة من الذاكرة .

وكان الطاقم يتكون من الريس أو القبطان ومدير الدفة والاثنى عشر بحارا والترجمان ورئيس الطباخين ومساعده واثنين من الجرسونات ، والولد الذى كان يطبخ طعام البحارة . وكان الريس حسن قصير القامة وصارم النظرات ومتســـلط الهيئة وهو من العرب الذى يعيشون فى القاهرة .

أما الترجمان الياس تلحمى فكان سوريا من بيروت . أما الجرسونان ميشيل وحبيب ورئيس الطباخين (كان عجوزا مجعد الوجه ويلبس وشاحا أزرق واسمه حسن بدوى) فهم أيضا سوريون . أما موجه الدفة ومعه خمسة من البحارة فقد كانوا من الأقصر ، أربعة منهم ينتمون الى مكان قريب من فيلة والآخر من قرية مواجهة لمدينة كوم أمبو ، وبحار من القاهرة ، واثنان نوبيان من أسوان . وكانوا ذوى أجسام مختلفة الألوان ، تتراوح ما بين البرونزى الأزرق ، الى لون يقترب من الأسود ، ولا أجد لأول وهلة ما أقوله عن كل منهم سوى أنه بحار يلبس صديريا وعمامة ، ولكن هؤلاء الرجال وهم يرتدون عباءاتهم الزرقاء المفتوحة ، حفاة الأقدام ، وعمائمهم المصنوعة من قماش الموسلين الأبيض لم يكن منظرهم جديرا بالتصوير فقط ، ولكنهم كانوا يرتدون الملابس التى يجب أن يرتدوها . وكانوا فى الغالب شبانا ذوى أشكال وسيمة ، أجسامهم نحيفة ، ولكنها

قويه ، وأكتافهم مربعة مثل تماثيل قدماء المصريين ، ولهم نفس السيقان الرفيعه والأقدام الطويله المفلطحه · وكانوا ذوى طباع لينة ، نشيطين ، وسلوكهم حسن ، يشعرونك بأنهم أصدقاء · لم يجذب احد منهم مجدافا · وكانوا جديرين بالثقة مثل الأطفال ، وقنوعين مثل النساك ، وكانوا يعملون بفرح من شروق الشمس الى مغربها · انهم يجذبون الذهبية أحيانا بحبل طوال النهار مثل خيول الجر · وأحيانا أخرى يدفعون المركب بعصا طويلة عدة ساعات · وهذا أصعب الأعمال ، ولكنهم في جميع الأحوال يغنون أثناء العمل ، وهم دائمو الابتسام كلما تحدثت اليهم ، ويظهرون بمظهر الأمير السعيد عندما يتالون حفنة من الدخان المصرى الخشن ، أو حزمة من أعواد القصب التى تباع بقروش قليلة على جانب النهر · وسرعان ما عرفت أسماءهم جميعا وهم محمد على ، وسلامة ، وخليفة ، ورزق على ، وحسن ، وموسى · وهكذا · لم ينزل أحد منا الى الشاطىء دون أن يصحبه واحد أو اثنان منهم للحراسة وتلبية الطلبات ، وكانوا مثل سائر الفقراء أيديهم وأرجلهم زرقاء بسبب كثرة الاســـتعمال ، ويحضرون الينا فى السطح العلوى لعلاجها · وسرعان ما نشأ احساس بالصداقة بيننا وبينهم ·

والأجر المعتاد للبحار الذى يعمل فى النيل هو جنيهان شهريا مع بدل اضافى يبلغ ثلاثة جنيهات وستة بنسات لشراء الدقيق · والخبز هو غذاؤهم الرئيسى ، وهم يصنعونه بأنفسهم فى أماكن معينة بطول النهر حيث توجد لهذا الغرض أفران عامة ضخمة · وهذا الخبز الذى يقطع الى شرائح ويجفف فى الشمس لونه بنى مثل كعكة الزنجبيل وصلابته مثل صلابة البسكويت · وهم يأكلونه منقوعا فى الماء الساخن مضافا اليه شوربة العدس الكثيفة · وفيما عدا المناسبات الكبرى مثل عيد الميلاد (الكريسماس) أو هجرة الرسول ، وهى المناسبات التى يقدم لهم فيها المسافرون لحم الخراف ، فانهم يتناولون هذه الخلطة المكونة من الخبز والعدس ويشربون معها القليل من القهوة مرتين يوميا · ويتناولون بين حين وآخر حفنة من البلح · وهذه هى مكونات طعامهم طوال الرحلة · ان موسم فيضان النيل هو فصل الحصاد بالنسبة للبحارة الذين يعملون فى النيل حيث يبدأ المناخ الحار ويرحل السياح مع عصفور السنونو المهاجر ، حينئذ يتشتت هؤلاء البسطاء فى كافة الاتجاهات ، بعضهم يبحث عن رزقه فى القاهرة كحمال ، والآخرون ينزحون الى مواطنهم فى مصر الوسطى والعليا حيث يتم استئجارهم كعمال بحوالى أربعة بنسات يوميا · أو يعملون فى تشغيل الشادوف للرى حتى يعود النيل فيغرق الأرض مرة أخرى · أما تشغيل الشادوف فهو عمل شاق وعلى العامل أن يستمر

فيه على مدى تسع ساعات كل ٢٤ ساعة ، ولكنه يفضله عن العمل فى مصانع السكر الحكومية حيث يصل متوسط الأجر الى نفس النسبة ولكن العامل يقبضه فى شكل خبز متواضع يقدمونه له كصدقة دون مراعاة لصوت ضمائرهم ، لأنه خفيف الوزن ردىء الصنف • أما البحارة الذين يجدون عملا فى مراكب نقل البضائع مدة الصيف فهم أوفرهم حظا •

وكان القبطان وبحارة الذهبية جميعا مسلمين • أما الطباخ ومساعده فكانا مسلمين من سوريا ، أما الترجمان والجرسونان فكانوا مسيحيين تابعين للكنيسة اللاتينية السورية • وكان هناك واحد فقط من هؤلاء المواطنين الخمسة عشر هو الذى يستطيع القراءة والكتابة وهو بحار اسمه الجندى كان يعمل مساعدا للقبطان • وقد تعود أن يكتب أحيانا خطابات زملائه الآخرين فيمسك قصاصة من الورق يلفها حول ابهام يده اليسرى ويشخبط حروفا عربية بدائية بقلم من البوص صنعه بنفسه • وبالرغم من أن هذا الشخص المسمى الجندى هو أقل البحارة أهمية الا أنه كان رجل انجازات ، فهو ممثل كوميدى جيد ، وله دراية باصلاح الأحذية وحلاق من الدرجة الأولى • وقد حدث أكثر من مرة عندما نرسو بعيدا عن أية قرية أنه كان يحلق رؤوس زملائه فتصبح ناعمة مثل كرات البلياردو •

ويوجد بالطبع مسلمون طيبون ومسلمون خبثاء ، مثلما يوجد مسيحيون طيبون ومسيحيون خبثاء فى كل طبقة • وكان لدينا كلا النوعين على ظهر المركب ، فقد كان بعض الرجال شديدى التقوى لا ينسون القيام بالوضوء وأداء الصلوات عند الشروق والغروب • أما الآخرون فلم يحلموا بانجاز ذلك مطلقا • وكان البعض منهم لا يلمسون الخمر أو يتذوقونها طوال حياتهم وكانوا مستعدين لمواجهة كافة الشدائد والحرص على عدم مخالفة شريعة نبيهم • وكان آخرون يستطعمون مذاق النبيذ الخفيف ، ويمتدحون مزايا كأس من الروم أو الويسكى • ولكن من العدل أن نضيف أننا لم نقدم لهم هذه الأشياء فيما عدا بعض المناسبات الخاصة مثل الكريسماس أو عندما كانوا يخوضون فى النهر ، أو عندما ينالهم التعب فى خدمتنا • ولا أعتقد أن رجلا واحدا ممن يعملون على المركب كان مستعدا لصرف مليم واحد من ايراده الضئيل على أى مشروب بخلاف القهوة • ان القهوة والدخان هما فى الحقيقة المتعة الوحيدة التى يتلذذ بها الفلاح المصرى • ولم يكن أصدقاؤنا البسطاء هؤلاء أكثر امتنانا مما هم عليه حينما نوزع عليهم أرطالا قليلة من الدخان المحلى الرخيص • هذا الخليط الفظيع الذى يباع الرطل منه فى السوق بستة بنسات • ان النبات الذى جمع

منه قد استنبت من بذرة ذات رتبة أدنى ، فى تربة غير صالحة كيميائيا لأنها خالية تماما من البوتاسيوم ٠

وكذلك فان هذا الدخان قد نما طبقا لأساليب زراعية غير سليمة ، وبدلا من قطعه وهو أخضر ثم تجفيفه في الظل ، تركت الأوراق لكى تذوى على الساق قبل جمعها ٠ والنتيجة هى ظهور نوع من القش المتعفن بدون قوة أو نكهة ٠ ولا يدخنه سوى أفقر الطبقات ، بينما يتجنبه كل من يستطيع شراء الدخان التركى أو السورى ٠

وكان بحارتنا يجلسون على شكل دائرة مرتين يوميا بعد الغداء والعشاء ويدخنون فى وقار شيشة من النوع المعروف باسم النرجيلة ٠ وهذه النرجيلة (التى كانت بدائية الصنع ومكونة من ثمرة جوز الهند المجوفة وعودين من البوص) كانت تعتبر ملكية عامة ٠ وبعد أن يقوم القبطان بملئها تدور من يد الى يد ومن فم الى فم طوال فترة استخدامها ٠

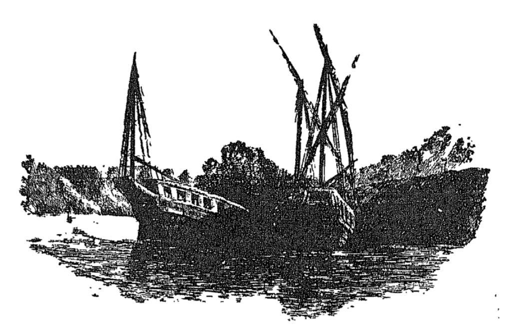
وكانوا فى أحيان أخرى يدخنون السجاير ونادرا ما نزلوا الى الشاطىء بدون جراب الدخان ودفتر صغير من ورق البفرة ٠ هل تتصور أن هذا العربى البسيط يصنع السجاير ! ولا أظن أن أى رجل فرنسى يستطيع أن يلف السيجارة بمهارة أكثر أو يدخنها بهذا الأسلوب الأنيق ٠

وتنتهى خدمة البحار الذى يعمل فى النيل مع انتهاء الفصل ٠ وبذلك فهو يعمل بالملاحة لفترة تبلغ نصف السنة ، أما وظيفة القبطان فهى دائمة ، ولذلك فمن المتوقع أن يعيش فى القاهرة ويتحمل مسئولية الذهبية خلال شهور الصيف عندما تكون راسية فى بولاق ٠ وكان للريس حسن زوجة وبيت صغير مريح فى أطراف مصر القديمة فكان ينظر اليه بوصفه شخصية موسرة بين رفاقه ٠ كان يتقاضى أربعة جنيهات كل شهر طوال العام من صاحب فيلة وهو رجل عربى عريض المنكبين طوله حوالى ستة أقدام وتسع بوصات ، له ابتسامة منشرحة ، وكان يتصرف تصرفات النبلاء ، بينما فى داخله جشع شيلوك ٠

وفى هذه الليلة الأولى دعانا رجالنا الى حفلة موسيقية عندما كنا راسين على الضفة بالقرب من البدرشين ، ولما عرفنا أنه من المعتاد احضار الآلات الموسيقية ، سمحنا لهم بالانصراف لاحضار الطار والدربكة قبل بدء الحفلة ، ولما كان الطار أو الرق فاخرا جدا مصنوعا من خشب الورد ومطعما بعرق اللؤلؤ ، فاننى لا أظن أن هناك شيئا تم صنعه بطريقة أكثر

بربرية من الدربكة . فهذه الطبله البدائية يبلغ طولهـا قدما ونصف القـدم ، وهي تتخذ شكل القمع ، وقد صنعت من الفخـار المجفف في الشمس مثل القلة ، وغطيت فوهتها الواسعة بجلد الرق المقوى . وتوضع تحت الذراع اليسرى بينما يجرى النقر عليها بأصابع اليد اليمنى . ويبلغ وزنها حوالى أربعة أرطال . وكنا نرغب في اضافة مزمار مزدوج أو كمنجة لتقوية عزف الفرقة ، ولكننا لم نجد بين رجالنا من يعزف على أى منهما . وعلى كل حال فان الطار والدربكة قد أوفيا بالغرض تماما . وربما كانا أكثر ملاءمة لغنائهم الغريب دون الآلات الأخرى المتآلفة النغمات .

وعندما بدأت الحفلة كنا قد انتهينا لتونا من تناول الغداء . في البداية جاءت نغمة طويلة نائحة ارتفعت وهبطت ثم ارتفعت مرة أخرى ، واضمحلت في النهاية . وكان ذلك هو صوت المغني الرئيسى الذى يقود الفرقة متوافقا مع النغمة الافتتاحية . أما النغمة الثانية فكانت متناسبة مع المفتاح الثالث . وأخيرا توحد الجميع في صيحة طويلة حادة تشبه التثاؤب أو النواح أو مزيجا من الاثنين . وتكررت هذه الصيحة مرتين كمقدمة للعرض قادتهم بوضوح الى التحول الضرورى للحماس الموسيقى .



مراكب محلية الصنع

ثم انطلق المغنى الأول صاحب الصـوت التينور ليقود التتابع الصوتي المرتعش الذى انزلق بعده الى الغناء الحزين ، بينما تحول الآخرون الى كورس . وعند خاتمة كل فقرة كانوا يتثاءبون وينوحون مرة أخرى . وكلما انطلق المغني مع أحاسيسه ، توقف بين حين وآخر مرددا نفس

التأوه الصوتى الذى لا يمكن وصفه والذى يدأ به الغناء · وعندما كان يفعل ذلك ، كان الآخرون يمسكون أنفاسهم باعجاب مشبوب بالاحترام · ويتمتمون بكلمة الاستحسان قائلين « آه ! » وهى التعبير المعتـــاد عن الإستحسان ·

وأتذكر أننا فى هذه الليلة الأولى حسبنا موسيقاهم فظيعة رغم أننا عند انتهائها أحسسنا مثل كل المســـافرين بأننـا قد أحببناها · وقد شكرناهم على كل حال لحضورهم الى سطح السفينة واتاحة الفرصة لنا للاستماع الى العرض الذى قدموه · أما من جهة جمـال المنظر ليلا ، فلا شك فى أنه لا يوجد منظر يستحق التصوير أفضل من منظر هذه الفرقة من العرب المعممين الذين يجلسون القرفصاء على شكل دائرة ، واضعين مصباحا فى وسطهم · بينما المغنى يرتعش صوته ، والموسيقيون ينقرون بأصابعهم ، والباقون يصفقون من حين لآخر منتظرين دورهم للدخول مع الكورس · وفى نفس الوقت أضاء المصباح وجوههم السمراء ، وأسنانهم المتألقة · وكان الصارى الكبير يرتفع فى الظلام كالبرج · ولمع النهر من أسفل · وبرقت النجوم من أعلى · لقد أحسسنا بالفعل أننا غرباء فى أرض غريبة ·

الفصـل الرابـع

ســـقارة ومنف

عند وصولنا الى البدرشين بعد حلول الظلام والرسو هناك لقضاء الليل ، استيقظنا صباح اليوم التالى مبكرين على صوت شجار وثرثرة غريبة صادرة من حوالى خمسين أو ستين رجلا وولدا ، كانوا متجمهرين على الضفة المرتفعة مع عشرين أو أربعين حمارا فى أردية خشنة وأشكال كئيبة • لقد رأيناهم وثيـــابهم البالية تتطاير مع الريح بينما تتحرك أذرعهم وسيقانهم البنية اللون فى حركة مهتاجة كما لو كانوا فصيلة من الحمير الثـائرة وقد انطلقت من عقالها • وكان زئيرهم يرتفع مع كل حركة بينما يتزايد فى كل لحظة عدد الرجال ، والأولاد ، والحمير حتى بدا لنا أن بعض محطات الارسال الجديدة تبث الأولاد والحمير الذين برزوا مرة واحدة لخدمتنا •

ثم ظهر أن تلحمى الذى كان يعرف أن قواتنا المسلحة تحتاج لثمانية حمير ، أرسل الى القرية طالبا خمسة وعشرين حمارا وفى نيته أن يختار أفضلها ويصرف الباقى من منطلق الحكمة وليس العدل ، فكانت النتيجة عاصفة • لقد خرج كل رجل وولد وحمار فى البدرشين والقرية المجاورة الى النهر وقد ضللتهم جسامة الأمر فاستنتجوا أن جماعة السياح التابعة لتوماس كوك قد وصلت • وعلى ذلك فانه عند الانتهاء من الافطار كان لدينا حمير كافية وعلى استعداد لنقل جميع الانجليز الموجودين بالقاهرة • وسأتجاهل الضوضاء التى نشبت عندما ركبت مجموعتنا فى النهاية أحسن ثمانية حمير ومضت تاركة الزحام الخانق لكى ينفض على مهل •

والآن ، فان طريقنا يقع على مسطح مترب عبر خط السكة الحديدية خلال القرية غير المنتظمة الشكل طوليا ، وخلال المزارع المشهورة المعروفة باسم نخيل منف • وكان هناك على المحطة الصغيرة المطلية بالجير الأبيض

حشد من الفلاحين المكدودين بسبب طول انتظارهم للقطار ، ومن الباعة الغوغاء المعتادين الذين يبيعون الماء والخبز ، وباعة الفاكهة · وتبدو البدرشين وديعة مستكينة فى وسط أشجار النخيل المهيبة بالرغم من أنها مجرد مجموعة من الأكواخ المبنية بالطين · وتنتشر على مسافات بين الأكواخ أبراج الحمام المربعة التى تحيط بقمتها طبقات من القدور ذات الفوهات الواسعة وقد استندت اليها صفوف من أغصان أشجار الأثل غير المورقة مثل صوارى الأعلام الممزقة ، بينما الحمام يدخل ويخرج من القدور أو يربض على الأغصان ويسوى ريشه بمناقيره · وعند مرورنا كانت الكلاب تندفع نحونا وهى تنبح بجنون ، بينما يسير خلفنا الأطفال الصغار ذوو الوجوه البنية اللون وهم يصيحون « بقشيش ! » · وكانت الأوعية الفخارية والقلل (١) المصنوعة حديثا من الصلصال الرمادى الناعم والمصفوفة فى صفوف تنتظر أن يتم حرقها فى الشمس وقد وقف صانعها فاغر الفم يحملق فينا كما لو كان لم يشاهد أوربيا حتى هذه اللحظة وكانت زوجته تتمسك بطفلها وتجذب حجابها على وجهها خوفا من العين الشريرة ·

وبعد أن تركنا القرية خلفنا جسنا خلال غابة بعد أخرى من أشجار النخيل · والآن نحن نسير محاذين لحدود مساحة كبيرة من بركة هادئة بمحاذاة النهر · أما وقد رأينا لمحة خاطفة من أهرام الجيزة البعيدة بينما نحن نمر بين الروابى غير المنتظمة من الطين المتداعى الذى يحدد منطقة منف ، فقد وصلنا بعد كل ذلك الى طريق مرتفع بما يقرب من عشرين قدما فوق السهل ، يحصر الماء فى شكل جسر وينتشر مثل بحيرة واسعة ويصرف آخر موجة من الطمى ذى اللون البنى الغامق مقابل الصخور الصفراء التى تحدد طرف الصحراء · وتقف مجموعة من الأهرام مرتفعة فوق الهضبة الجرداء ، وتظهر للمرة الأولى فى شكل خط علوى متصل · انها أهرام سقارة التى تقع أمامنا مباشرة · أما أهرام دهشور فهى الى يسارنا وأهرام أبى صير الى اليمين · أما أهرام الجيزة العظيمة فهى تظهر دائما على أقصى البعد ·

---

(١) القلة هى دورق للماء مصنوع من طمى النيل المجفف فى الشمس ، وهى تصنع من كافة الأحجام فى مجموعة رائعة من الأشكال المختلفة ويتراوح ثمن الواحدة منها ما بين ربع بنس الى اثنين من البنسات ·

وقد يظن القارىء أنه بينما يحتوى المنظر على الكثير من الرتابه فانه يوجد به القليل فقط من الجمال ، ولكن على العكس فهناك جمال من نوع رفيع المعنى والروعة ــ انه جمال فائق يظهر في الألوان والجو والوجدان ، وليست هناك أية رتابة سواء في المنظر الطبيعي أو في أشكال الأهرام ٠ ونقترب الآن من أحد هذه الأهرام الذى بنى على شكل مصاطب تقل مساحة كل مصطبة منها عن المصطبة التي تحتها بمعنى أن مساحة كل مصطبة تقل كلما اتجهنا نحو القمة (*) وهناك هرم آخر عند منحنيات دهشور يقع خارج الزوايا على شكل قبة نصف دائرية ونصف هرمية مثل سقف قصر العدالة في باريس ٠ ولا يوجد هرمان متساويان في الحجم ، أو مبنيان على نفس الزاوية ، وكل مجموعة تختلف في تجميعها الى حد ما ٠

ونعود مرة أخرى الى الألوان٠لا يمكن منافسة هذه الألوان بأية مادة ملونة اخترعت حتى الآن ٠ ان صخور الصحراء الغربية التى تشبه الذهب الضارب الى الحمرة ، والألوان الشاحبة للمنحدرات الرملية ، والصفرة الدافئة للأهرام القريبة التى تراها من هذا البعد تتخذ خيمة رقيقة فى لون الورد مثل زهرة المشمش الحمراء ، أما الجو العـام الرقيق لهذه الأهرام مقابل السماء ، مع الامتداد اللانهائى لهذه السماء فى نعومة لؤلؤية نحو الأفق ، وهى تتجه بلونها الأزرق المشتعل نحو الذروة ، والظلال البراقة ذات اللونين الأزرق الشاحب والبنفسجى ، واللون الرمادى الذى يميل الى الخضرة ، تلك الظلال التى تستكين فى أحضان تجاويف الصخور ومنحنيات التلال الرملية ٠ كل ذلك جميل بصورة لا يمكن وصفها ٠ ولكن واأسفاه ! انه من المستحيل نقل صورة منها ٠ كما أن السهل الذى يشبه البحيرة ، مع غابات النخيل ، وحقول القمح ، لا يشكل خلفية عادية ٠ وكان ذلك هو المطلوب تماما للتخفيف من وحشة هذه المسافة المتوهجة ٠

والآن ونحن نتبع الخط المتعرج للطريق ومع الاقتراب التدريجى تزداد الأهرام الجديدة ضخامة ، ويزداد سطوع الشمس ، ويزداد ارتفاع درجة الحرارة ٠ ونلتقى بطابور من الابل والجاموس والخراف البنية اللون الغزيرة الصوف ، مع النساء والرجال والأطفال من كافة الأعمار ٠ كانت الجمال محملة بمفروشات الأسرة مع المخدات وأقفاص الطيـور الداجنة ، وتحمل بالاضافة الى ذلك سيدتين مع أطفالهما وكهلا عجوزا جدا ٠ أما الرجال الأصغر سنا فهم يقودون الابل المجهدة ويسير الباقون خلفهم ، ويرتفع التراب خلفهم فى شكل سحابة ، ومن الواضح أن هذه

(*) تشير الكاتبة هنا الى هرم زوسر المدرج ــ (المترجم) ٠

هجرة عائلة بأجيالها الثلاثة ان لم يكن الاربعة • ولا يستطيع المشاهد أن يقاوم تأثره بهذه البساطة العائلية التى يمثلها المشهد ، فهكذا خرج ابراهيم مع الأسراب والقطعان وجميع أفراد عشيرته الى أرض كنعان منذ أربعة آلاف عام مضت • وهناك واحد على الأقل من أهرام سقارة هذه الذى يعتبر أقدم مبنى فى العالم •

انه موكب مؤثر ويستحق التصوير أكثر من موكبنا نحن • وأكثر عددا من قواتنا المتحدة بما فيها الأولاد الذين يقودون الحمير ، والحمالون ومختلف المتطفلين • وهذا العدد من الأشخاص يقترب من الثلاثين ويتجاوز العشرين،وكانت هناك السيدتان م ، ب وابن أختهما ، والكاتبة وصديقتها، وخادمة صديقتها ، وتلحمي ، وهم جميعا يركبون الحمير ، ثم أصحاب الحمير يركبون أيضا حميرا أخرى ، بالاضافة الى ولد يسوق كل حمار مع وجود ولد آخر احتياطى لكل ولد منهم • وبالرغم من أن طرازات ملابسنا كانت مناسبة الا أنها لم تكن متناسقة مع المنظر المحيط بنا • ولا يستطيع الانسـان الا أن يشعر بنفس شعور هؤلاء الحجاج الملتحفين بالملابس الفضفاضة والمتربة الذين يمرون بنا فى الطريق • وكنا نجسد تمثالا حزينا بقبعاتنا الشنيعة المصنوعة من خوص النخيل ، وأحجبتنا الخضراء ، ومظلاتنا البيضاء •

وكان جورج هو بلا منازع أكثر الشخصيات المسلية والغريبة فى موكبنا • وجورج سائس انجليزى من الريف الشمالى أحضرته السيدتان م ، ب معهما من غابات لانكشير — أولا لأنه رام ماهر وسيكون مفيدا للسيد (ألفريد) فى متابعة الطيور والتماسيح • وثانيا عن اعتقاد راسخ فى مهاراته العامة • وكان جورج شخصا يثير الضحك بلا انقطاع ، وواسع الحيلة بلا حدود ، يغوص فى الحياة الشرقية كما يغوص فرخ البط فى الماء • ويلتقط العربية كما لو كانت لغته الأم • ويسلخ الطيور كما لو كان محنطا مدربا ، ويستطيع أيضا أن يغسل الملابس ويكويها عند اللزوم • انه باختصار سائس وخادم ومديرة منزل وغسالة ، ومراكبى أصيل ، وحارس للحيوانات التى تصيدها ، وخادم يؤدى جميع الأعمال المنزلية ، كل ذلك فى آن واحد • وعلاوة على كل ذلك فان لديه طلعة مثيرة للضحك لا تستطيع أية مفاجأة أو نكبات أن تؤثر فيها ولو للحظة واحدة • وتستطيع أن تلاحظ هذه المفارقة الجديرة بالاهتمام فى بدلة السائس التى يرتديها ، والطزلق ، والأزرار ، والقماش الذى يلفه حول رقبته ، والقبعة الطويلة وكل ما يتعلق بها ، وساقيه الطويلتين اللتين تتأرجحان فى حدود بوصة

واحدة من الأرض على كلا جانبي أصغر الحمير حجما · ويستطيع الانسان بالنظر الى بندقية الصيد ذات الماسورتين التى يحملها تحت ذراعه ، وهيئة وجهه التى تدل على هدوء الأعصاب ، أن يقسم بأنه هو ومصر كانا صديقين منذ القديم ، وأنه نشأ بجانب الأهرام منذ طفولته ·

وكانت المسيرة من مزارع النخيل الى الصحراء طويلة ومكشوفة ولكننا أخيرا وصلنا الى نهايتها · وارتقينا ذلك المنحدر الرملى الآخر وهو يشبه ذلك الذى يقودك من شارع الجيزة الى ساحة الهرم الأكبر · وترتفع حافة الهضبة هنا عن السهل بشدة فى شكل صف طويل من الصخور العمودية المنخفضة التى تخترقها فوهات المقابر المنحوتة فى الصخر بينما يتزلق المنحدر الجبلى الذى نتسلقه خلال ثغرة فى الصخرة مثلما تنهمر أكوام الثلج التى فوق جبال الألب خلال ثغرة جبلية نازلة من المستويات الثلجية العلوية ·

والآن وقد نزلنا من باب الشفقة عن حميرنا الصغيرة التعيسة الحظ فان أول شىء لاحظناه هو الخليط الغريب من الأطلال التى تحت أقدامنا · ان الزائر فى الجيزة يدوس على الرمل والزلط فقط ، أما هنا فى سقارة فان الهضبة كلها مكدسة بقطع صغيرة من كسر الفخار ، والحجر الجيرى والرخام والمرمر · وشظايا الزجاج الأخضر والأزرق ، والعظام البيضاء ، وخرق الكتان الأصفر ومكعبات غير منتظمة الشكل من مادة غريبة الشكل ذات لون بنى غامق تشبه الاسفنج المجفف · وسرعان ما يلتقط أحدنا رأس تمثال جنائزى صغير بدون أنف ذا لون أزرق · ولنحنى جميعا فى سرعة تنبش الأرض بحثا عن الكنز مبددين الوقت الثمين لأنه رغم أن الرمل ملىء بالأنقاض الا أن الأعراب قد غربلوه كثيرا وبحرص شديد بحيث أصبح لا يحتوى على شىء يستحق البحث · وفى نفس الوقت يجد أحدنا شظية من زجاج بألوان قوس قزح ، ويجد آخر كسرة من زهرية مهشمة ، بينما يجد ثالث قطعة معتمة مصنوعة من بعض أنواع العجائن الصفراء اللون · ثم اكتشفنا فجأة وفى هزة لن تنساها الكاتبة بأية حال أن هذه العظام المتناثرة هى عظام آدمية ، وأن هذه الخرق الكتانية هى أجزاء من أكفان وأن هذه المكعبات البنية الغريبة غير المنتظمة الشكل هى قطع صغيرة مما كان يوما ما لحما حيا ! والآن عرفنا للمرة الأولى أن كل بوصة من هذه الأرض التى نقف عليهـا وأن كافة هذه الروابى والتجاويف والمداخل الرملية هى قبور انتهكت حرمتها ·

« هذه بداية لا تستحق التعب » ولكننـــا سرعان ما تجلدنا لدى مشاهدة مثل هذه المناظر وتعلمنا أن ننقب بين المقابر المتربة دون الاحساس بتأنيب الضمير أكثر من احساس عصابة مدربة من محترفي سرقة الجثث ٠ وعندما كنا نتذكر هذه التجارب التي مررنا بها فيما بعد ، كنا نشعر بالدهشـــة وبشيء من الندم ٠ وكم كانت القسوة شاملة والرغبة في اقتناص الرفات جامحة لدرجة أنني لا أشك في أننا لن نتراجع عن عمل نفس ما عملناه لو عادت نفس الظروف ٠ ان غالبية المسافرين سيدلون بنفس هذا الاعتراف لو طلبنا اليهم ٠ انهم يشعرون بصدمة في البداية ، ثم يستنكرون في فزع الأسلوب الذى تجرى به الحفائر ، فهو على الرغم من التصريح به الا أنه أسلوب وحشي٠ان الذوق الذى يرحب بالجعارين والتماثيل الجنازية الصغيرة ، سرعان ما يتطور الى شراء أسلاب الموتى ، وفي النهاية ينسون تأنيب الضمير السابق ، ولا يتمنون حظا أفضل من أن يكتشفوا مقبرة ويصادروها لأنفسهم ٠

وعلى الرغم من أنني رأيت أولا أهرام الجيزة ، الا أن حجم مجموعة أهرام سقارة ــ خاصة الهرم الذى على المنصة ــ قد أصابني بالدهشة ٠ انهم جميعا أصغر من هرمي خوفو وخفرع ، ولا أشك فى أنهم سيبدون أيضا بلا أهمية اذا ما قورنوا بهرمى خوفو وخفرع ٠ ولكن بالنظر اليهم وحدهم فان ضخامتهم كافية لبيان مدى روعتهم ٠ أما الهرم الذى على المنصة (وهو أكبر أهرام سقارة ويلي هرم خفرع من حيث الضخامة) فان موقعه فريد ٠ وطرازه المعمـــارى نادر ٠ وعمره قديم جدا بحيث ينسى الانسان الأسئلة المتعلقة بالضخامة النسبية ٠ واذا كان علماء المصريات صادقين فى نسبة اللقب الملكى المدون بالهيروغليفية على الباب الداخلي لهذا الهرم الى ونيفيس (*) الملك الرابع من الأسرة الأولى فانه بذلك يكون أقدم بناء فى العالم ٠ لقد كان موجودا لمدة تتراوح ما بين خمسمائة الى سبعمائة سنة عندما بدأ الملك خوفو فى بناء هرمه الأكبر بالجيزة ٠ وكان عمره يتجاوز الألفى عام عندما ولد ابراهيم ٠ وعمره الآن حوالى ستة آلاف وثمانمائة عام حسب ما أورده مانيتون وماريت ٠ أو حوالى أربعة آلاف وثمانمائة عام طبقا للحسبة التى أجراها بونسين٠وبالطبع فان خيال الانسان يتراجع عند حافة مثل هذه الحقبة الزمنية ٠

(*) خطأ والصواب أن الملك زوسر ثانى ملوك الأسرة الثالثـة هو صاحب هذا الهرم ــ (المراجع) ٠

لقد انتزع باب هذا الهرم مع الأســـلاب الثمينة الأخرى بمعرفة ليبسيوس والآن هو بمتحف برلين • أما الدليل الذى يفسر النقش ، وطبقا لما أورده مانيتون وهــو مؤرخ مصرى كتب باليونانية وعاش فى عصر بطليموس فيلادلفوس ، فهو أن الملك ونيفيس بنى لنفسه هرما فى مكان يدعى كوخوم • وقد اكتشف ماريبت مؤخرا لوحا يعطى لمقبرة سقارة اسم كاكيم • ولم يكن الهرم المدرج هو أكبر الآثار الموجودة على هــذه المنصة ، ولكنه الأثر الوحيد الذى وجد خرطوش ملكى منقوشا عليه • ويبدو هذا الاستنتاج معقولا •

وعندما يظل بناء قائما لمدة خمسة أو ستة آلاف عام فى مناخ يساعد على نمو الطحالب الصخرية والنباتات الطفيلية وكافة العلامات الطبيعية الدالة على البعد الزمنى والتى تعودنا عليها فى أوربا ولكنها غير موجودة ، فليس المفروض أن يكون لعدة مئات من السنين ، أكثر أو أقل ، تأثير على مظهره الخارجى • ولكننى من وجهة نظرى الشخصية أرى أن هرم ونيفيس يبدو أقدم من أهرام الجيزة • واذا أمكننا أن نتخيل ذلك فانه سيعطينا فى جميع الأحوال الاحساس بالانتماء المعمارى الى حقبة معمارية أكثر بدائية • ان فكرة اقامة أثر يتكون من مصاطب متدرجة الحجم هى بطبعها أكثر بدائية بالنســـبة للهرم الأملس ذى الجوانب الأربعة • وقد لاحظنا أن البناء الحجرى فى جانب واحد ـ أظن أنه الجانب المقابل لاتجاه الشرق ـ كان مستكملا تماما بالنسبة للجوانب الثلاثة الأخرى •

ويصف ويلكنسون داخل الهرم بأنه « قبة مجوفة حملت هنا وهناك على عوارض خشبية » • ويذكر أن غرفة الدفن قد تحددت أبعـــادها ببلاطات من الخزف الأزرق (١) وكنا نحب أن نذهب للداخل ولكن هذا لم يعد ممكنا ، لأن المدخل قد سد بسبب انهيار حجرى حديث •

والآن ونحن نعمل على تعويض الوقت الذى ضاع فقد ركبنا حتى المنزل الذى كان قد بنى ســـنة ١٨٥٠ م لاقامة ماريبت أثنــاء حفائر السرابيوم ـ وهو عمل استغرق أكثر من أربع سنوات •

---

(١) تشاهد بعض هذه البلاطات فى القسم المصرى من المتحف البريطانى • وهى ليست ذات لون أزرق ولكنه أخضر يميل للزرقة • اما عن شكل غرفة الدفن فانظر كتاب ماسبيرو : Archeologie Egyptienne شكل ٢٣٠ ص ٢٥٦ • (هذه الملحوظة مضافة الى الطبعــة الثانية) •

ومن الصعوبة القول بأن السرابيوم هو أشهر معبد جنازى للعجول المقدسة • وكانت هذه العجول (التى قدسها المصريون بوصفها تجسدا متتابعا للاله أوزوريس) تسكن أثناء حياتها فى معبد أبيس فى منف (ميت رهينة) • وبعد موتها يجرى تحنيطها ودفنها فى سراديب جهزت لها فى الصحراء • وفى سنة ١٨٥٠ عندما كان مارييت مسافرا فى مأمورية تخص الحكومة الفرنسية ، اكتشف المعبد والسرداب ، ويعود مفتاح هذا الاكتشاف حسب روايته الى فقرة معينة أوردها استرابون فى وصف معبد سرابيس بأنه يقع فى منطقة تتجرف فيها الرمال بواسطة الرياح بحيث يتهدد كل من يدنو منها بالغوص فيها • وبينما كانت الكباش على كلا جانبى الطريق قد دفنت كليا أو جزئيا فان رؤوس بعضها كانت بارزة على السطح • ويقول مارييت : « لو لم يكتب استرابون هذه الفقرة » فانه « كان من المحتمل أن يظل السرابيوم ضائعا تحت رمال مقابر سقارة » • وفى أحد أيام سنة ١٨٥٠ اتجهت نحو سقارة مدفوعا بنتائج دراساتى فى علم المصريات ، فشاهدت رأس كبش بارزة فوق السطح • ومن الواضح أنها كانت تحتل مكانها الأصلى • وقد وضعت بالقرب منها مائدة قرابين حفر عليها نقش هيروغليفى عن أبيس وأوزوريس • وحينئذ تذكرت هذه الفقرة التى كتبها استرابون وعرفت أن الطريق الذى يقود الى السرابيوم الذى فكرت فيه طويلا بلا طائل ، يقع تحت قدمى • وبدون أن أقول كلمة واحدة لأى شخص أحضرت بعض العمال وبدأنا فى الحفر • كانت البداية صعبة ولكن سرعان ما برزت من بين الرمال تماثيل الأسود والطواويس والتماثيل الاغريقية للجمل على جانبى الطريق ولوحات معبد نختانبو الغنية بالنقوش (١) وهكذا جرى اكتشاف السرابيوم •

أما المنزل — وهو مبنى بسيط من دور واحد على منصة حجرية — فهو يشرف على منخفض رملى يحتفظ الآن بنفس المظهر الذى ظهر به عندما تذكر مارييت لأول مرة الفقرة السعيدة التى أوردها استرابون ، وتبرز رأس أو اثنتان للكباش فوق الرمال هنا وهناك بشكل مرعب ، محددة مسار الطريق العظيم ، ويظهر كذلك النصف العلوى من تمثال ردىء التنفيذ لولد راكب على ظهر طاووس • أما الباقى فهو مطمور بكامله فى الرمل كما لو كان لم ينكشف من قبل • ويصعب على الانسان الاعتقاد بأن المكان كله قد كشف عنه تماما بتكلفة ضخمة فى الوقت والعمل ،

(١) كان نختانبو الأول ونختانبو الثانى آخر ملكين من الأصل المصرى • ازدهر عصرهما ما بين عامى ٣٧٨ — ٣٤٠ ق•م ولابد أنه كان هناك معبد بناه نختانبو الأول قبل بناء معبد السرابيوم •

منذ عشرين عاما مضت · لقد استغرق استكمال العمل كما ذكرت منذ قليل أربع سنوات · ويبلغ طول هذا الطريق وحده ستمائة قدم ويتسع عرضه لجيش من الكباش حيث وجدنا واحدا وأربعين كبشا لم تنقل من مكانها الأصلي · وعندما اقتربت الحفائر من نهاية هذا الطريق اتضح أن الجسر الذى يليها مع الهبوط التدريجي بين الحوائط الضخمة ، يقع تحت السطح بمسافة سبعين قدما · لقد كان العمل ضخما والعقبات تفوق الحصر · وكان من الضرورى فحص الأرض بوصة بوصة ، ويقول مارييت انه « في أماكن معينة كان الرمل متموجا وأتعبنا كالماء الذى ينزاح دائما الى الخلف في محاولة لاستعادة مستوى ارتفاعه » (١) ·

وعلى كل حال فانه بقدر ضخامة الجهد المبذول ، تكون ضخامة الجزاء المأمول · وكان الجزاء هو اكتشاف الطريق الرئيسى الذى ينتهى الى منصة دائرية أحاطت بها تماثيل لمشاهير الفلاسفة والشعراء الاغريق · واكتشفت أيضا في طريق ثان يتقاطع مع الأول بزاوية قائمة بقايا معبد السرابيوم العظيم وثلاثة معابد صغيرة وثلاث مجموعات متميزة لسراديب دفن العجل أبيس · وكانت هناك فتحة ممر هابط من غرفة في المعبد العظيم تقود الى السراديب · وقد شقت متاهات ضخمة من العقود والممرات في الصخر الصلد الذى بنيت عليه المعابد · وتبين هذه المجموعات الثلاث من الحفائر ثلاث حقب من التاريخ المصرى · وتتكون السلسلة الأولى · وهى الأكثر قدما ، من عقود يرجع تاريخها للفترة من الأسرة الثامنة عشرة الى الأسرة الثانية والعشرين أى ابتداء من حوالى سنة ١٧٠٣ ق·م · الى سنة ٩٨٠ ق·م · أما المجموعة الثانية فانها تنتسب الى حكم شيشنق الأول (الأسرة الثانية والعشرين أى سنة ٩٨٠ ق·م) وحتى حكم طهرقا آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين وقد جرى التخطيط لها بأسلوب منهجي ، وهى تتكون من نفق واحد طويل يحده على كلا الجانبين صف من حجرات الدفن · أما المجموعة الثالثة فانها تنتمى الى العصر الاغريقى مبتدئة بحكم بسماتيك الأول (الأسرة السادسة والعشرين) أى سنة ٦٦٥ ق·م · وتنتهى مع أواخر عصر البطالمة ، ومن بين هذه العصور الثلاثة نجد أن الأولى هى التى تخنقها الرمال ؛ أما الثانية فتعتبر غير آمنة ، أما الثالثة فهى المتاحة للسياح ·

---

(١) لمتابعة القصة الجيدة والدقيقة للسرابيوم والآثار التى اكتشفت هناك ، انظر كتاب مسيو آرثر رونيه L'Egypte en petites Journées الذى تعد منه الآن طبعة جديدة في المطبعة ـ (ملحوظة مضافة على الطبعة الثانية) ·

وبعد مسيرة مسافة قصيرة وان كانت منهكة ، ومع بعض التأخير أمام باب يشبه أبواب السجون يقع عند قاع المنحدر ، سمح الحارس لنا بالدخول ، وهو كهل اعرابي في يده مصباح . ولم يكن المنظر في الداخل جذابا . كان الضوء القادم من الخارج يسقط على درجة أو درجتين من درجات السلم الخشنة ، وبعدهما يخيم الظلام التام . ودخلنا فتلقفنا على العتبة مناخ ثقيل حار ، وقد سقط الباب بصليل مزعج ترددت أصداؤه كما لو كنا في تجاويف الأرض المركزية . وانطلق الأعرابي يتحدث مستخدما الحركات والاشارات . كان يقول اننا الآن في البهو العظيم الذي يمتد لمسافة طويلة في هذا الاتجاه وفي الاتجاه الآخر . ولكننا لم نستطع أن نرى شيئا ـ لا السقف المقبب ، ولا الحوائط على أي جانب ، ولا حتى الأرض التي تحت أقدامنا . كان الظلام شبيها بالظلام الذي يغطي الفراغ اللانهائي .

وأعطيت لكل منا شمعة مشتعلة وسار الأعرابي في المقدمة بسرعة مخيفة ، وبدا لنا في كل خطوة أننا على شفا هاوية سحيقة . وبالتدريج تعودت عيوننا على الظلمة فوجدنا أننا قد عبرنا البهو الى الممر الأول الكبير . كان كل شيء غامضا ومفعما بالأسرار ومغطى بالظلال . ولاح أمامنا في الظلام منظور داكن . كانت الأضواء تتراقص وتتمايل مثل ومضات النجوم السيارة . وقرب الأعرابي مصباحه من الحوائط هنا وهناك وأرانا بعض أقراص القربان التي سجلت في سجلات الزيارات المقدسة التي قام بها المصريون الأتقياء الى المقابر المقدسة . وقد وجد من هذه القرابين عند فتح السراديب لأول مرة خمسمائة قرص ، ولكن مارييت أرسلها كلها تقريبا الى متحف اللوفر .

وبعد خطوات قليلة وصلنا الى المقابر ـ وهي سلسلة من الحجرات المقببة الضخمة منحوتة على مسافات غير متساوية على كلا جانبي الممر الأوسط ، وتغوص تحت السطح لمسافة تقرب من ستة أو ثمانية أقدام . وقد أقيم في وسط كل حجرة تابوت ضخم من الجرانيت اللامع وهنا انسحب الأعرابي للأمام مثل شبح أسود ، وكان يتوقف لحظة أمام كل فتحة عميقة ، ويسلط ضوء مصباحه على التابوت ثم يسرع مرة أخرى تاركا ايانا لكي نتبعه بقدر استطاعتنا .

ومضينا خلفه ونحن نتقدم كل لحظة في عمق الصخر الصلد مبتعدين عن الهواء الطلق وضوء الشمس . ولما ظننا أن الجو قد يكون باردا تحت الأرض فقد أحضرنا كمية كبيرة من اللفائف الدافئة ، ولكن على العكس

كانت الحرارة شديدة والجو خانقا · ولم نضع فى الحسبان جفاف المكان ، وكذلك لم نتذكر أن المناجم العادية والأنفاق باردة لأنها رطبة · أما هنا وعلى مدى عصور لا تحصى وربما آلاف السنين قبل أن يشق النيل مجراه خلال صخور السلسلة ، كانت شمس أفريقيا التى لا تعوقها السحب ، تصب فيضها اليومى من الضوء والحرارة على الصحراء غير الرطبة · ولابد أن جو المكان كان لا يحتمل · فقد كان مثل فرن ضخم يختزن الحرارة المتراكمة ببطء خلال الدورات المتكررة والكثيرة بحيث يظن الانسان أن العصور المبكرة للتاريخ المصرى بالمقارنة اليها ، تنتمى الى الأمس فقط ·

وعلى ذلك فاننا بعد أن اجتزنا مسافة تقترب من مائتى ياردة وصلنا الى حجرة تحتوى على أول تابوت عليه نقوش لأن بقية التوابيت كانت ملساء بدون نقوش · وهنا توقف الأعرابى حيث وجدنا ممرا فاستطعنا من خلاله بمساعدة بعض درجات سلم خشبى أن نهبط الى الحجرة · وسرنا حول التابوت واختلسنا النظر الى داخله بمساعدة سلم وفحصنا النقـوش الهيروغليفيـة التى تغطيـه وهى ضخمة كمـا تبدو من أعلى ، ولا يستطيع الانسان تكوين فكرة عن مدى ضخامة هذه الكتل الصخرية الا من المستوى الذى أقيمت فوقه · وهذا التابوت الذى يعود تاريخه الى عصر الملك أمازيس من الأسرة السادسة والعشرين ، كان طوله أربعة عشر قدما وارتفاعه أحد عشر قدما وهو مكون من كتلة واحدة من الجرانيت الأسود دقيق ومتقن الصنعة ، ويمكن أن يجلس بداخله أربعة أفراد حول مائدة صغيرة للعب الورق فيلعبون عشرة كوتشينة وهم مرتاحون· وينقسم الممر من هذه النقطة الى فرعين لمسافة مائتى ياردة أخرى متجها نحو حجرات أكثر وتوابيت أكثر حتى يبلغ عددها أربعة وعشرين ، منها ثلاثة فقط عليها نقوش ، ولا يقل طول أى منها عن ثلاثة عشر الى أربعة عشر قدما ، وجميعها فارغة · وقد أزيحت الأغطية الى الخلف قليلا وبعضها مكسور ولكن المغيرين لم ينجحوا فى ازاحتها تماما · وحسب ما أورده ماربيت فان المكان قد سلب بمعرفة المسيحيين الأوائل الذين يبدو أنهم بجانب ما استطاعوا حمله من الذهب والمجوهرات التى وجدوها فى طريقهم ، قد دمروا مومياوات العجول ودمروا المعبد العظيم وسووه بالأرض تقريبا · وعلى أية حال ، فانهم لحسن الحظ قد تجاهلوا أو تركوا عدة مئـات من السبائك البرونزية الرائعة ربما لأنهم اعتبروها غير ذات قيمة وأقراص القربان الخمسمائة التى ذكرناها من قبل لأنها تسجل ليس فقط اسم ووظيفة الزائر ، بل أيضا ــ مع بعض الاستثناءات ــ الاسم والسنة الدالين على الفرعون المعاصر ، وهى بذلك تعطينا بيانات تاريخية لا تقدر بثمن ،

وتعمل أكثر من أية وثيقة سبق اكتشافها على توضيح النقاط التى تثير الجدل فى التسلسل الزمنى للتاريخ المصرى ٠

ومن أغرب الحقائق أن أحد التوابيت الحجرية يحمل علامة قمبيز حيث ورد عن قمبيز أنه وقد طلب الى كهنة منف أن يحضروا أمامه الاله أبيس ، استل خنجره فى ثورة غضبه وسخريته وطعن العجل فى الفخذ ٠ وحسب ما ذكره بلوتارخ فانه ذبح العجل وألقى لحمه للكلاب ٠ أما هيرودوت فقد ذكر أن « أبيس رقد فى المعبد لبعض الوقت وقد نحل جسمه ، ولكنه فى النهاية مات متأثرا بجرحه ، وقام الكهنة بدفنه سرا » ٠ ولكن حسب ما ورد على احدى هذه الموائد الثمينة فان العجل الجريح لم يمت حتى العام الرابع من حكم الملك دارا ٠ وهكذا نجد أن هذا الكشف الحديث قد صحح وصور التقليد الموروث بطريقة عجيبة ٠

ونصل الآن الى نتيجة هذه القصة القديمة فى شكل حكاية ذكرها مسيو أبوت الذى يحكى كيف أن ماريت وقد استدعى فجأة الى باريس بعد عدة شهور من افتتاح السرابيوم ، وجد نفسه يفتقد وسائل نقل الآثار التى اكتشفها حديثا ، ولذلك دفن أربع عشرة حالة فى الصحراء انتظارا لعودته ٠ ومن ضمن هذه الحالات تابوت حجرى احتوى على مومياء أحد عجول أبيس وقد نجا من اكتشاف المسيحيين الأوائل له ٠ واتضح أن هذه المومياء تنطبق عليها أوصاف العجل الذى طعنه قمبيز ٠ ويعنى ذلك أن العجل قد عاش وعولج جرحه ، كما هو ظاهر على عظمة الفخذ التى تظهر عليها علامات الاصابة والالتئام وهى علامات لا يمكن تجاهلها ٠

والقصة لا تنتهى عند هذا الحد ، فان ماريت وقد رحل حاملا معه كل ما يمكن حمله من الكنوز ، جاء الى منف شخص وصفه مسيو أبوت بأنه « شاب غريب ومبجل » وهو أرشيدوق جاء الى مصر للاستمتاع ، وتحت اغراء البقشيش كشف له الأعراب سر الحالات المخفية فاكتسح الأرشيدوق مخابىء الحالات الأربع عشرة وحملها الى الاسكندرية ٠ ومن هناك نقلها بحرا الى تريستا (١) ٠

---

(١) عرفت هذه المجموعة باسم « مجموعة ميرامار » وقد ضمنها البروفيسور راينيش فى الكتالوج الذى نشره ، وقد نقلت حاليا الى فينا ـ (ملحوظة مضافة على الطبعة الثانية) ٠

ويقول مستر أبوت الذى يذكر أنه قد عرف القصة من ماريت مباشرة : « أما بخصوص المجرم فانه قد انتهى بصورة مؤلمة فى نصف الكرة الآخر بعد أن تنازل عن جميع الثروة نظير عدم نشر اسمه » • ولكن ليس من الصعب التعرف على بطل هذه الحكاية الغريبة رغم هذا التنكر الواضح •

أما التابوت الذى وجد فيه العجل أبيس فقد بقى فى قبو السرابيوم ولكننا لم نره • ولما كنا قد تقدمنا حاليا الى أكثر من مائتى ياردة ، وأصبحنا حتى ذلك الحين على وشك الاختناق ، فلم نهتم بأن نجعل مائتى ياردة تحول بيننا وبين الخروج الى ضوء النهار ، ولذلك عدنا من منتصف المسافة وقد أحرقنا أول وعاء من بودرة الماغنسيوم التى توهجت بشدة لعدة ثوان فأضاءت الشرفة الضخمة وكافة قبابها المنخفضة ووجوه الأعراب المندهشة ، ثم خرجنا فى اندفاع تاركين الظلام أشد كثافة مما كان •

ومن هنا مضينا عبر فضاء رملى بعيد فى وهج الظهيرة الشديد الى مقبرة « تى » وهو كاهن من عامة الناس من الأسرة الخامسة كان متزوجا من سيدة تسمى نفرحتب وهى الابنة الكبرى لأحد الفراعنة ، وقد بنى لنفسه مقبرة عظيمة هنا فى الصحراء •

أما عن واجهة هذه المقبرة التى كانت فى الأصل تشبه معبدا صغيرا ، فلم يتبق منها سوى عمودين كبيرين ويلى ذلك فناء مربع الشكل يحيط به سور بدون سقف • ويبرز من أحد الأركان ممر مغطى يقود الى حجرتين ، كما تبرز فى وسط الفناء فوهة حفرة يبلغ عمقها حوالى خمسة وعشرين قدما ، بها تابوت محطم ظاهر فى ظلمة القبة السفلية • وكل شىء هنا مصنوع من الحجر الجيرى ـ الحوائط ، والأعمدة ، ورصف الأرضية ، وحتى الأطلال المنحوتة التى امتلأت بها الحفرة عندما أغلقت القبة السفلية الى الأبد • أما عن خصائص هذا الحجر الجيرى فتنحصر فى قرب المكان الذى جلب منه ، علاوة على صفائه مثل الرخام ، وشدة بياض لونه لدرجة أنه على الرغم من تغطية حوائط وأعمدة الفناء بالنقوش التى تم تنفيذها بمهارة فائقة واهتمام بالغ ، فان الضوء المنعكس عليها شديد التوهج مما صعب علينا فحصها بالاهتمام الذى تستحقه • أما فى الحجرة الكبرى الشديدة الظلام والتى لم نستطع رؤية شىء فيها الا على ضوء الشموع ، فقد وجدنا سلسلة من النقوش البارزة الكثيرة والمتقاربة والتى تحتاج رؤيتها المفصلة الى نصف يوم • وهى مرتبة فى خطوط أفقية متوازية

ويبلغ عمقها حوالى قدم ونصف القدم ، بحيث ان هذه المناظر غير العادية والمرتبة رأسيا صفا فوق صف ، تغطى كل بوصة فى فراغ الحائط من الأرضية الى السقف ، وبروزها منخفض العمق مما يجعلنى أشك فى أنه يتجاوز ربع البوصة فى أى من المساحات المنقوشة · أما السطح المغطى بطبقة رقيقة من الاسمنت فانه يمتاز بخاصية اللمعان مثل العاج · ويبلغ متوسط ارتفاع الأشكال حوالى اثنتى عشرة بوصة وجميعها ملونة ·

وهنا نجد قصة « تى » كما لو كانت مدونة فى كتاب مفتوح · كل حياته ، ومسراته ، وعمله ، وعلاقاته العائلية ، تظهر جميعها أمامنا ببساطة شديدة الجاذبية ، حتى ان الطفل يستطيع قراءة سجل الأحداث المصورة التى أضاءت الحائط ، ويجد فيها متعة مثل أكثر علماء الآثار خبرة ·

كان « تى » رجلا غنيا وكانت ثروته من النوع الاقطاعى ، فقد كان يملك أسرابا وقطعانا وأراضى كثيرة · وكان يحتفظ بأنواع كثيرة من الطيور والحيوانات ــ أوز وبط وحمام وكراكى وثيران وماعز وحمير وظباء وغزلان · وكان مغرما بصيد السمك وطيور الزينة ، واعتاد أن يمضى أحيانا فى أثر التماسيح وأفراس النهر التى كانت تصل فى هذا الوقت الى منف · وكان زوجا رحيما وأبا حانيا ، وكان يحب أن يتقاسم مسراته مع أسرته · ونراه هنا جالسا فى هدوء مع زوجته وأطفاله ، بينما يقوم مغنون وراقصـــون محترفون بتقديم عرض أمامهم · وفى ناحية أخرى يتنزهون معا،ويراقبون خدم المزرعة أثناء عملهم،ويلاحظون دخول القوارب التى تأتى بانتاج أراضى « تى » البعيدة · وفى موضع آخر نرى الاوز أثناء سوقها الى المنزل ، والأبقـار وهى تعبر مخاضة ، والثيران وهى تحرث ، والزارع يبذر البذور ، والحاصد وهو يعمل بمنجله ، والثيران تدوس الحبوب بأقدامها ، ويخزن القمح فى الشونة · ومن الواضح أنه لم يكن هناك تجار مستقلون فى هذه الحقبة المبكرة من تاريخ البشرية · وكان لدى «تى» عماله الذين يعملون فى ضيعته ، كما أن كافة بضائعه وأمتعته المنقولة صناعة منزلية · وهنا نرى النجارين يصنعون أثاثا جديدا للمنزل ، وصانعى المراكب منشغلين بصنع قوارب جديدة ، والفخاريين يصبون فى القوالب الصلصال الذى تصنع منه القدور · أما عمال المعادن فانهم يصهرون سبائك الذهب الأحمر · ومن الواضح أن « تى » يعيش مثل ملك داخل حدود ضيعته · وهو يتمتع بوضعه المميز المحترم فى كافة هذه المناظر · وكان مرسوما فى حجم يماثل ثمانية أضعاف حجم خدامه فيجلس أو يقف عملاقا بين الأقزام · أما زوجته (ولا ننسى أنها كانت

تنتمى الى الأسرة المالكة) فقد رسمت بنفس حجمه · أما الأطفال فكانوا فى نصف حجم والديهم · ومما يثير العجب أن الفن المصرى لم يتجاوز هذه السذاجة المبكرة · فالرجل العظيم يظل يرسم ضخم الحجم حتى الأيام الأخيرة من حكم البطالمة ، بينما ظل الفلاح يرسم دائما فى شكل القزم (١) ·

الحيوانات : ان معظم الحركات الصعبة والانتقالية قد جرى التعبير عنهـــا باقناع ينم عن مهارة فائقة ، فالحمار يرفس برجليه الخلفيتين وينهق – والتمساح يغطس فى الماء – وترتفع البطة البرية ناشرة جناحيها ، ذلك مع مراعاة أبعاد الحركة العابرة فى كل لحظة بصدق لا يستطيع أن يتخيله أى رسام · أما الأشكال التى تخلو من الصرامة التقليدية التى اشتهرت بها الأعمال المصرية التالية ، فقد رسمت بوضوح وبروز ، ولكنها استكملت بدقة ونعومة · أما الألوان فهى صافية وقد وضعت فى شكل طبقات خفيفة منفصلة بدون أية محاولة لتكثيفها فى درجات لونية أو ظلال فتخفى جمال النقوش وتزيد من قيمتها ·

وهذه فى حقيقتها هى أفضل ما يمكن مشاهدته حيث تم كحت اللون نهائيا · ولـــكن الألوان الخفيفة مازالت لامعة فى بعض أجزاء الحجرة الكبيرة · أما فى الممر والفناء اللذين تم التنقيب عنهما منذ عدة سنوات فقط ، وتجرى المحافظة عليهما بصعوبة يوما بعد يوم ، أما هنا فاننا لا نجد أثرا باقيا للألوان – وهذا هو تأثير الرمال – التى تتعب العامل الذى لا يقتصر عمله على الحراسة فقط بل أيضا ازالة الرمال · ان الرمال تخبىء وتحفظ عمل النحات ولكنها تمحو عمل المصور · أما فى الأماكن المحمية حيث تتراكم الرمال بلا فائدة مثل الانهيار الثلجى ، فانها لا تبلى فقط التفاصيل اللونيـــة السطحية ، بل انهـــا أيضـــا تترك الألوان السفلية ممسوحة ومعتمة ·

---

(١) هنـــاك دراسة اكثر شمولا عن هذه النصوص الجنازية تمثل ثورة قديمة وهى تؤيد تفسيرنا لهذه النقوش ومثيلتها من المشاهد الجنازية · ان المناظر التى تتضمنها ليست كما افترضنا عند كتابة هذا الكتاب ، مجرد حكايات عن الحياة اليومية للمتوفى ، ولكنها حلقات فى القصة المفصلة الخاصة بدفنه وبقائه الروحى بعد الموت ، فنجد أن بذر ونمو وحصد القمح يقصد به طحنه وتحويل دقيقه الى فطائر جنازية · أما الثيران والماعز والغزلان والأوز وغيرها من المخزون الحى فالمقصود بها الاضحية التى تقدم كقرابين · أما الأوانى والأثاث وكافة البضائع المنزلية ، فانها تدفن مع جثة المتوفى فى مقبرته · أما التى تظهر فى كافة المناظر فهى قرينه (الكا) وليس الرجـــل ذاته · (ملحـــوظة مضافة الى الطبعـــة الثانية) ·

وكما ذكرت دائما خلال مسار الرحلة ، فانه لا شيء يمحو الألوان بفاعلية مثل الرمال التى تعود الى فعل الرياح • وتتكون هذه المقبرة كما رأينا من رواق وفناء وحجرتين وسرداب للدفن ، وتتضمن أيضا ممرا سريا من النوع المعروف باسم « السرداب » وتبدو هذه السراديب التى تبنى بنفس سمك الحوائط ، دون أن يكون لها مداخل مختلفة عن مقابر الامبراطورية القديمة (أى عصر ملوك الأهرام) وهى تحتوى على تماثيل الراحلين من جميع الأحجام مصنوعة من الخشب والحجر الجيرى والجرانيت • وقد وجد هنا عشرون تمثالا للوجيه « تى » حبيسة فى سرداب مقبرته ، وكلها محطمة فيما عدا تمثالا واحدا وهو تمثال مصنوع من الحجر الجيرى فى وضع الوقوف وارتفاعه حوالى سبعة أقدام وهو موجود بمتحف بولاق (*) •

ويمثل هذا التمثال شابا يرتدى زيا أبيض ، ومن الواضح أنه تمثال شخصى لبيان تفاصيل الوجه ، فنجد أن الملامح عادية ، والتعبير طبيعى • أما الشكل العام للرأس فهو يكاد أن يكون اغريقيا أكثر منه مصريا • وتم تلوين البشرة بلون أصفر فاقع • ويقف التمثال فى الموقف التقليدى المعتاد،فالساق اليسرى متقدمة وقبضة كل يد مقفلة،والذراعان مستقيمتان وملتصقتان بالجانبين • ويستطيع الانسان أن يتعرف جيدا على « تى » بعد رؤية النقوش العجيبة التى فى مقبرته ، مما يجعل هذا التمثال الجميل يثير الاهتمام كما لو كان يمثل صديقا معروفا (١) •

وما أجمل أن نعود الى منزل ماربيت المهجور بعد الاختناق فى السرابيوم وحرارة مقبرة « تى » ، لكى نتناول غداءنا على أرضية الممر الحجرية الباردة • وهو الممر الذى يظهر فى اتجاه الشمال فى الصحراء ، لقد تركت هنا بعض المناضد والدكك الخشبية للاحتفاء بالضيوف واقامة السياح ، وقد زودت بالماء العذب عن طريق القلل التى جلبها الأعرابى الكهل الذى يقوم بالحراسة • أما الأحواش والمرافق التى فى الخلف فانها تمتلىء بالتماثيل المهشمة وشظايا الجرانيت الملونة بالأحمر والأسود• وهناك تمثالان للكبش من الطريق المشهور يزينان الممر ، ويطلان على زملائهما المدفونين حتى المنتصف فى الحفرة الرملية السفلية • وعلى مسافة

(*) حاليا فى المتحف المصرى بميدان التحرير ـ (المراجع) •

(١) ليست هذه التماثيل مجرد تماثيل شخصية ولكنها صممت بحيث تكون مسكنا للقرين « الكا » وهو المفروض أنه عندما يعود يحتاج الى جسد وطعام وشراب وانه سيهلك تدريجيا اذا لم يزود بهذه الضروريات • وكان هذا هو النظام الكلى الخاص بدفن القرابين والأثاث والمواد الأخرى المحفوظة فى مقابر قدماء المصريين ـ (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •



رأس « تى »

بعيدة تظهر الصحراء مصفرة قاحلة متموجة ، مع خط من القمم الأرجوانية على مدى الأفق ٠ وعلى اليمين وتحت حافة بارزة من الهضبة الصخرية التى لا يتجاوز بعدها عن المنزل مائتى ياردة ، تنفتح فوهة كهف أسود اللون تحوطه أشعة كثيفة ، ويقترب منه منحدر من الأطلال ٠ وهذا هو المدخل الاضطرارى للقباب القديمة للسرابيوم والتى اكتشفت فى واحدة منها المومياء التى وصفها مارييت كمقبرة للاله أبيس ولكن العالم بروجش يذكر أنها مومياء الأمير « خع ام واس » حاكم منف والابن المفضل للملك رمسيس الأكبر ٠

وهذه المومياء المهمة التى بدت كانسان وثور فى آن واحد ، وجدت مغطاة بالجواهر والسلاسل الذهبية والتمائم الثمينة المحفور عليها اسم « خع ام واس » وقد وضع على وجهها قناع ذهبى ، ويمكن مشاهدة جميع كنوز هذه المومياء فى متحف اللوفر ٠ ولو كانت المومياء تخص ثورا فلابد وأن تكون المجوهرات التى تزينها مهداة من الأمير الذى كان يحكم منف فى ذلك الوقت بوصفها قرابين ٠

وعلى العكس فلو كانت المومياء تخص رجلا وتم دفنها فى مثل هذا المكان ذى القدسية العجيبة ، فمن المحتمل أن يكون قد اغتصب أحد الأقبية المعدة للاله ٠ وهو سؤال غريب ظل بدون اجابة حتى اليوم ، ولكن لا شك فى امكانية تسويته فى لحظة بمعرفة البروفيسور أوين (١) ٠

وما أثار العجب أكثر من اكتشاف أبيس أو المجوهرات كان هو المنظر الذى شاهده مارييت عند دخول هذه الحجرة الطويلة المخصصة للدفن ٠

(١) تم اكتشاف المقبرة الرسمية للامير « خع ام واس » فى منف بمعرفة ماسبيرو خلال السنوات الثلاث أى الأربع الأخيرة ٠ (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) ٠

(٢) هذا التاريخ حسب تقدير مارييت ٠

لقد تم القفز فوق المنجم وأزيلت الفتحة ثم دخل بمفرده ، وهناك وجد على طبقة الرمل الرقيقة التى غطت الأرضية آثار أقدام العمال الذين وضعوا ـ منذ ٣٧٠٠ سنة مضت (٢) ـ تلك المومياء التى ليس لها شكل ، فى قبرها وأغلقوا الأبواب عليها الى الأبد كما اعتقدوا حينذاك ٠

والآن والنصف الثانى من النهار يمضى سريعا ـ أحضرت الحمير وقيل لنا ان هذا هو وقت الرحيل ٠ وكان علينا أن نشاهد موقع منف والتمثال الضخم المنطرح على الأرض ، والطريق الطويل الذى يقع أمامنا بكامل طوله ، ولذلك عدنا راكبين الحمير عبر الرمال المقفرة ٠ ونزلنا من مملكة الأموات الى أرض الأحياء بعد القاء نظرة متلهفة طويلة وأخيرة على الهرم الذى فى المنصة ٠

وهناك سحر عجيب يحيط بهذا الهرم بحيث ان الانسان لا يكل من النظر اليه وهو يردد بينه وبين نفســـه أنه فعلا أقدم بناء على وجـــه المسكونة كلها ٠

أما الملك الذى أقامه فقد جاء الى العرش بعد موت الملك مينا مؤسس الملكية المصرية بحوالى ثمانين عاما حسب ما ذكره مانيتون ٠ ولم يترك لنا سوى هرمه هذا ، كما أننا لا نعرف عنه سوى اسمه ٠ وهذه الفترة كلها تنتمى كما هى الى طفولة الجنس البشرى ٠ وعلى الانسان فى تعامله مع التواريخ المصرية أن يفكر بهدوء فى الحقب التى تعد بالقرون ، ولكن عادة العقل هى التى تقود الى الخطأ ٠ لقد وجدت الكاتبة أنه من المفيد أن تقارن بين الفترات الزمنية باستمرار ، وعلى سبيل المثال فان معرفة الزمن السحيق الذى انقضى على بناء هرم سقارة ستساعدنا على أن نتذكر ذلك ابتداء من عصر بنائه على يد الملك وينيفيس Ouenephes الى العصر الذى أقام فيه الملك خوفو الهرم الأكبر فى الجيزة ، ولابد أن بينهما فترة زمنية تساوى تلك الفترة فى تاريخ انجلترا التى تمتد من عصر الغزو الى عصر الملك جورج الثانى (١) ولكن خوفو نفسه المعروف لدى مؤرخى الاغريق باسم كيوبس Cheops ـ ليس الا ظلا يرفرف على عتبة التاريخ المصرى ٠

---

(١) لم تكن عبادة أبيس قائمة فى أيام الملك ونيفيس ولا حتى فى عصر كايشوس Kaiechos الذى جاء بعده بأكثر من مائة وعشرين عاما ، ولكنها ظهرت فى فترة تالية أيام الامبراطورية المصرية ٠ وقد قام كهنة منف بتخصيص هرمه لمومياوات العجل المقدس ٠ وقد حدث ذلك بالطبع قبل حفر أى من السراديب المعروفة للعجل أبيس ٠ ولا شك فى أن هناك العديد من هذه السراديب التى لم تكشف بعد ٠ وكذلك لم يجد العلماء أيا من هذه السراديب يعود الى ما قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة ٠

والآن تركنا الصحراء خلفنا ونقترب من النخيل الذى يقود الى منف ــ ولا شك أننا كنا بالطبع نميل نحو هيرودوت ــ كان كل واحد منا يحذو حذو هيرودوت فى رحلته عبر النيل ، كما كانت رؤوسنا تمتلىء بالأمجاد القديمة لهذه المدينة الشهيرة • اننا نعلم أن الملك مينا قد حول مجرى النهر لكى يبنى منف فى هذه البقعة بالذات ، وأن غالبية الفراعنة العظماء قد زينوها بالمعابد والقصور والأبراج والتماثيل الثمينة • لقد قــرأنا عن معبــد بتاح العظيـــم الذى رصعه رمسيس الأكبر بتماثيله الشخصية • وعن المكان المقدس الذى عاش فيه أبيس بهدوء ، وهو يتمشى فى بهو الأعمدة حيث كان كل عمود منها تمثالا ، وعن البحيرة الصناعية والطرق المقدسة والمسلات وكافة عجائب هذه المدينة التى كانت حتى آخر أيامها من أكثر المدن المصرية ازدحاما بالسكان •

ومع التفكير العارض فى هذه الأشياء اتفقنا على أنه كان من الأفضل أن نترك منف لنعود اليها فى نهاية الرحلة ، وحينذاك نستطيع أن نقدر المدينة حق قدرها بعد أن نكون قد شاهدنا أولا تلك المدينة الأخرى التى على حافة الصحراء ، والتى دأب سكان منف على الهجرة اليها جيلا بعد جيل على مدى ستة آلاف عام تقريبا • ونحن نعرف الآن كيف كان يعمل فقراء الناس ، وكيف كان العظماء يسلون أنفسهم فى تلك الأيام البعيدة ونعنى بهم وجهاء الريف من أمثال « تى » الذين يعيشون فى منازل حضرية بمدينة منف وفيلات على ضفة النيل • أما بخصوص السرابيوم ، ما دفن منه وما جرى تخريبه ، **فان الانسان لا يستطيع الا أن يمضى ولديه انطباع عميق عن عظمة وقوة تلك الديانة التى تسخر لخدمة أساطيرها الخرافية مثل تلك العقيدة وذلك الولاء وتلك الأشغال العامة •**

والآن ها نحن نعود مرة أخرى لنصبح وسط غابات النخيل ، نشق طريقنا وسط نفس الروابى التى عبرناها فى الصباح • وسرعان ما اجتازت مقدمة الركب الطريق المطروق عبر سهل مغطى بالحشائش الى اليمين ، وفى اللحظة التالية تجمعنا على شفا بركة طينية تقع فى وسطها كتلة غير منتظمة الشكل من الحجر الجيرى المعتم والمتآكل • ويبدو أنها هى التمثال المنبطح المشهور لرمسيس الأكبر الذى يخص الأمة البريطانية ، ولكن الحكومة الانجليزية شديدة الاقتصاد بحيث لا تعمل على تحريكه (١) ولذلك فهــو يرقد هنا مقلوبا على وجهــه ويغرقه الفيضـــان مرة كل عام ، ولا يظهر فقط الا عندما تتبخر البرك المتخلفة عن الفيضـــان ، وتجف

---

(١) هذا التمثال مقام الآن على قاعدة من القرميد ــ (ملحوظة مضافة الى الطبعـة الثانيـة) •

كافة التجاويف الطينية ٠ وهو أحد تمثالين كانا يقعان على مدخل معبد بتاح العظيم ، وقد أخطرنا هؤلاء الذين جاءوا الى التجويف وشاهدوه من أسفل أثناء فصل الجفاف بأنه نموذج نبيل ورائع لفترة من أفضل فترات الفن المصرى ٠

ولكن أين التمثال الآخر ؟ بل أين المعبد نفسه ؟ وأين البوابات والمسلات وطرق الكباش ؟ وباختصار — أين منف ؟ ان الترجمان يهز كتفيه ويشير الى الروابى الخاوية بين أشجار النخيل ٠ انها تبدو مثل أكوام ترابية ضخمة ، وترتفع فوق سطح السهل من ثلاثين الى أربعين قدما ٠ ولا يرتفع شيء عن مستواها اللهم الا بعض مجموعات النخيل الناقص النمو المتناثرة هنا وهناك ٠ ويبدو أن مادتها تتكون أساسا من القرميد المتناثر ، والخزف المكسور ، وشظيات من الحجر الجيرى ٠ ويمكن رؤية بعض آثار قليلة لقواعد من القرميد ، وكتلة أو اثنتين من الحجر في أماكن منخفضة مقابل قاعدة رابية أو اثنتين٠ونبحث دون جدوى عن أية علامة تبين حدود حائط فاصل أو مكان مبنى عام ضخم ٠

هل هذا هو كل شيء ؟ لا ٠ ليس تماما ٠ هناك بعض الأكواخ الطينية بين الأشجار ، ونجد أمام كوخ منها عددا من الشظايا المنحوتة ، والكباش المهشـــمة ، والتماثيل التى بدون سيقان ، والتماثيل الجالسة بدون رؤوس ٠ وكلها مصنوعة من الجرانيت الأخضر والأسود والأحمر ٠ وقد رتبت على هيئـــة نصف دائرة غير منتظمة على الأرض المعشبة ، وتبدو كما لو كانت جالسة فى اجتماع فى بيت مهجور ، نصف رزينة ، ونصف سخيفة ، مع الماعز التى ترعى حولها ، وأطفال الأعراب الذين يختبئون خلفهـــا ٠

ويرقد تمثال من الجرانيت الأحمر بالقرب من هذه البقعة فى بركة أخرى — وليس هو النسخة الثانية من تمثال رمسيس الذى رأيناه من قبل ، ولكنه تمثال أصغر حجما ومنكفىء على وجهه أيضا ٠

وهذا هو كل ما تبقى من منف أقدم المدن ، عدد قليل من أكوام القمامة الضخمة ، دستة من التماثيل المهشمة ، والاسم ! وينظر الانسان حوله ، ويحاول بلا جدوى أن يعرف الأمجاد الضائعة لهذا المكان ٠ أين منف التى جاء الملك مينا من تانيس لكى ينشئها — منف يونيفيس ، وخوفو ، وخفرع ، وكافة الملوك الأوائل الذين بنوا مقابرهم الهرمية الشـــكل فى الصحراء المجـــاورة ؟ أين منف هيرودوت واســـترابون

وعبد اللطيف ؟ أين تلك الخرائب المعروفة حتى فى العصور الوسطى والتى تمتد على مساحة مقدارها « رحلة طولها نصف يوم فى كل اتجاه » ؟

يصعب على الانسان أن يتذكر أنه كانت هنا مدينة عظيمة ازدهرت فى هذه البقعة ، أو أن يفهم كيف طمست معالمها تماما ٠ ولكنها تقف هنا ــ حيث يزدهر العشب الأخضر ، وتنمو أشجار النخيل ، ويبنى الأعراب أكواخهم على حافة الغمر ٠ ان التمثال العظيم يحدد موقع المدخل الرئيسى الى معبد بتاح ٠ انه يرقد حيث وقع ولم يحركه أحد ٠ وهذه الصفحة الهادئة للبركة التى بمحاذاة النهر ، والتى تنمو أشجار النخيل فى أطرافها ، نرى وراءها قرية ميت رهينة ، ونلمح ومضة من أهرام الجيزة التى تحتل حوض بحيرة صناعية ضخمة حفرها الملك مينا ٠ ومازال اسم منف يعيش فى لهجة الفلاح الذى يطلق على الروابى اسم : تل منف (١) مثلما أن سقارة تخلد اسم سوكر أحد الأسماء الخاصة بالاله أوزوريس ٠

وليست هناك عاصمة فى العالم يعود تاريخها الى هذه الفترة السحيقة ٠ أو تحتفظ بمكانها فى التاريخ مثل هذه المدة الطويلة ، فقد أنشئت قبل عصرنا هذا بستة آلاف عام ٠ لقد شاهدت قيام وسقوط احدى وثلاثين أسرة ، وعاشت عصور حكم الفرس والاغريق والرومان ، وكانت حتى بعد انحلالها هى المدينة الثانية بعد الاسكندرية من حيث عدد السكان والاتساع ٠ وظلت عامرة بالناس حتى الفتح العربى ٠ وحينذاك أصبحت هى المحجر الذى بنيت بأحجاره الفسطاط (مصر القديمة) ٠ ومع قيام المدينة الجديدة على الضفة الشرقية سارع أهالى منف الى اخلاء عاصمتهم القديمة وتركوها لتصير نهبا للخراب والدمار ٠

ومازال باقيا منها حقل واسع من الخرائب ٠ ويكتب المؤرخ عبد اللطيف عند بداية القرن الثالث عشر فيتحدث بحماس عن التماثيل العملاقة والأسود والقواعد الضخمة للأعمدة والتماثيل وبوابات الصروح المكونة من ثلاثة أحجار فقط،والنقوش البارزة والعجائب الأخرى التى كانت

---

(١) كلمة تل العربية تعنى رابية وتحفظ العديد من هذه الروابى الأسماء القديمة للمدن التى بها مقابر مثل تل بسطة (بوباستس) ، وكوم أمبو (أمبوس) الخ ٠٠ وذلك لأن كلمتى تل وكوم مترادفتان ٠

موجودة حينذاك فى هذه البقعة،ولو كانت رحلات ماركو بولو قادته الى نهر النيل ، لكان قد وجد بعض الأماكن والمعابد التى تخص مدينة منف قائمة • أما سانديس Sandys الذى ذهب فى سنة ١٦١٠ للميلاد حتى كفر الآيات جنوب القاهرة فيقول انه « لا يوجد على بعد ٢٠ ميلا جنوب القاهرة سوى الخرائب » وقد زالت نفس هذه الخرائب بعد هذا التاريخ ، ووجدت أشجار النخيل زمنا يسمح لها بالنمو ، وامتصت القاهرة الحديثة كل مادة البناء التى تخلفت عن العصور الوسطى •

ان منف مكان يسعدك أن تقرأ عنه وتفكر فيه وتتذكر • ولكنه يشعرك بالاحباط عندما تراه • أما اذا افتقدته فانك تفتقد أول حلقة فى سلسلة التاريخ الأثرى الذى يربط مصر القديمة بعالم اليوم • ان هذه الروابى المقبضة وتلك البحيرة التى يسكنها مالك الحزين (طائر البلشون) لابد من رؤيتها اذا كان لابد لها أن تتخذ موضعها فى معرض الصور المحفوظة فى ذاكرة الانسان •

لقد كانت هذه الزيارة نتاج يوم عمل طويل ، ولكنها وصلت أخيرا الى نهايتها • وسقنا حميرنا عائدين نحو النهر • وكان منظر الغروب العظيم يصبغ أشجار النخيل وأبراج الحمام فى البدرشين باللون القرمزى ، ويبدو كل شىء الآن فى حالة استرخاء • فهذه جاموسة تجتر طعامها متأنية بينما ترقد فى جانب بجوار الممر وتنظر الينا دون أن تتحرك • أما الأطفال والحمام فقد ذهبوا جميعا للنوم • أما القدور فقد جفت فى الشمس بعد أن استغرقت وقتا طويلا • وقد ارتفع عمود رفيع من الدخان هنا وهناك منبعثا من الأكواخ المتلاصقة • ولكن من النادر أن ترى مخلوقا يتحرك • وسرعان ما صـــادفنا امرأة فلاحة جميلة وطويلة تقف فى أبهة بجانب الطريق ، وقد أزاحت حجابها الى الخلف فانسدل على قدميها فى طيات مستطيلة • وابتســـمت ومدت يدها وهى تهمس « بقشيش ! » كانت أصابعها مغطاة بالخواتم وذراعها بالأساور الفضية • وكانت تستجدى ، فليس فى ذلك عيب لأنه أصبح مألوفا ، ومجرد عادة متأصلة ، وكان من الواضح أنها لم تتوقع أو تحتاج البقشيش الذى تنازلت وطلبته •

وغربت الشمس بعد لحظات قليلة ، وتركنا القرية خلفنا ، وقطعنا آخر نصف ميل من السهل . والآن ونحن نعانى من الجوع والعطش ، والتراب يغطينا ، بالاضافة الى الاجهاد ، وقد تشبعنا بالمعلومات الجديدة ، والانفعالات الجديدة ، والأفكار الجديدة ، فقد عدنا مرة أخرى الى المنزل حيث نجد الراحة .



قرية ميت رهينة

الفصل الخامس

من البدرشين الى المنيا

من المعتاد فى الرحلات عبر النيل أن يسرع السائح أثناء ابحاره جنوبا بقدر الامكان ، تاركا الأطلال ليراها فى رحلة العودة مع التيار • ولكن هذه القاعدة مثلها مثل قواعد كثيرة غيرها لا يتم تطبيقها فى جميع الأحوال • ان السائح الذى يبدأ رحلته فى أواخر الموسم ليس أمامه خيار آخر ، وعليه أن يسرع فى الوصول الى نهاية رحلته اذا أراد العودة مع انخفاض النيل دون أن تنغرز سفينته فى ضفة رملية يصعب الخروج منها حتى يتولى الفيضان التالى تعويمها مرة ثانية • أما بالنسبة لهؤلاء الذين يريدون ليس فقط مشاهدة الآثار ، بل أيضا متابعة مسار التاريخ المصرى كما يكشف عنه الفن المصرى بصرف النظر عن سطحية هذه المتابعة ، فمن الضرورى أن يبدءوا رحلتهم فى بداية الموسم حتى يمكنهم مشاهدة العديد من الآثار أثناء الابحار •

ونظرا لأن تاريخ مصر القديمة يسير عكس التيار فاننا نجد الآثار الأقدم زمنا تقع بين القاهرة وأسيوط ، بينما تقع معابد الآلهة القديمة الأحدث زمنا فى النوبة • ولذلك فان هؤلاء السياح الذين يسرعون فى الابحار جنوبا مع الريح أو بدونها ، بحيث يبحرون حينا ، ويتوقفون حينا ، ويدفعون المركب بعصا طويلة تمس قاع النهر حينا ، عابرين هذا المكان ليلا ، وذلك المكان نهارا ، ولا يستريحون حتى يصلوا الى أبعد نقطة فى رحلتهم ، انما يبدءون من الاتجاه الخاطىء ، ويشاهدون جميع المناظر بترتيب مقلوب تماما • ولا شك فى أن زيارة منف وسقارة ومقابر بنى حسن لابد أن تتم أثناء الابحار جنوبا • وكذلك الكاب وتل العمارنة وأقدم أجزاء الكرنك والأقصر • وليس من الضرورى التوقف طويلا عند بعض هذه الأماكن ، فمن الممكن مشاهدتها أثناء الذهاب ثم دراستها بعناية أثناء العودة • ولكن لابد من مشاهدتها عند المرور بها ، بصرف النظر عما يكلفه

التأخير من تكلفة طفيفة ، مع ضرورة تجاهل أى نوع من المعارضة • لأنه بهذه الطريقة وحدها يمكن تتبع تقدم وتدهور الفنون من عصر بناة الأهرام حتى عصر القياصرة ، أو فهم ترتيب هذه المسيرة الضخمة والموقرة للأسرات التى توالت على مسرح التاريخ فى الوقت المناسب والمكان المناسب •

أما عن رحلتنا ، كما سنرى سريعا ، فاننا قد استطعنا أن ننفذ جزءا من البرنامج ، ولكن ذلك الجزء كان لحسن الحظ هو أهم الأجزاء • ولم نتوقف عن تهنئة أنفسنا لأننا استطعنا التعرف على أهرام الجيزة وسقارة قبل أن نشاهد مقابر الملوك فى طيبة • واننى أحس بعدم امكانية تقدير ميزة دراسة نقوش مقبرة « تى » قبل أن نتأثر بالانطباع الذى يداخلنا لدى مشاهدة طراز معبدى دندرة واسنا الأقل روعة • لقد بدأنا قراءة الكتاب الكبير باختصار كما يجب أن تكون البداية دائما • وتعرفنا فى صفحته الأولى الى هذه الرؤية الضرورية التى بدونها تفقد الفصول التالية أكثر من نصف أهميتها •

وقد صممت على التركيز على هذه النقطة لأن الأشياء تحتاج قدرا معينا من الاصرار على غير العـــادة • وأنا متـــأكدة من أنها ستواجه بالمعارضة • وعلى سبيل المثال فانه لا يوجد ترجمان واحد متفهم لأهمية **التدرج التاريخى فى مثل هذا الموضوع خاصة فى حالة الرحلات المؤجرة بعقد • فان خوفو والرعاسسة والبطالمة هم شىء واحد بالنسبة له • أما عن الآثار فانه يعتبرها كلها آثارا مصرية ، وكلا منها يماثل الآخر من حيث الغرابة وصعوبة الادراك • انه لا يفهم تماما لماذا يبحر الســـياح هذه المسافات البعيدة ، ويصرفون مثل هذا القدر من المال لمشاهدة الآثار ، ولكنه ينسبها الى عادة حب الاستطلاع التى لا تؤدى الى أية أضرار مادام يحقق أرباحه عن طريقها •**

والحقيقة هى أن مجرد مشاهدة النيل تتطلب بعض القراءة والتنظيم اذا كان الغرض منها هو المتعة • ولا يمكن أن نكون جميعا مثقفين متعمقين ، ولكننا نستطيع على الأقل أن نبذل أقصى جهدنا لنتفهم ما نراه ، ونتخلص من العقبات ، وأن نضع الشىء الصحيح فى مكانه الصحيح ، **لأن أرض مصر هى كما سبق أن قلت كتاب عظيم مفتوح ربما كان من الصعب قراءته تحت أية ظروف ، ولكنه فى جميع الأحوال شديد الصعوبة ، ناهيك عن الارتباك الناتج عن قراءته من الخلف الى الأمام •**

والآن ، فأن النقطة التالية في رحلتنا عبر النهر وهى نفسها الحلقة التالية في سلسلة الآثار الأكثر قدما ـ هى قرية بنى حسن بمقابرها الشهيرة المحفورة في الصخر ، والتى تعود الى الأسرة الثانية عشرة • ومازالت قرية بنى حسن تقع على بعد يزيد عن خمسة وأربعين ومائة ميل• وكان علينا أن نتجه اليها مباشرة ، ولذلك قمنا بتقييم عملية رسو المراكب وما سنحتاجه من أميال قليلة للعودة اليها بالقوارب فى هذا المساء ، ولكننا عزمنا على قضـــاء يوم آخر فى نفس المكان بالرغم من استمرار هبوب الرياح المواتية ، على عكس كافة القواعد والسوابق•وهز القبطان رأسه بالموافقة ، بينما استنكر الترجمان ذلك ، ولكنه وافق على مضض • قال الأخير فى نغمة تشوبها روح الاذعان الحزين التى تعود أن يبديها دائما عندما لا يسمح له بالسير كما يريد : « سنعرف قيمة الريح عندما نقضى وقتنا طويلا على صفحة النيل » • لقد كان رجلا كسولا ، حسن الطباع ، يتحدث الانجليزية جيدا ، كما كان سهل الانقياد ، ولكن روح الاذعان هذه أصبحت مزعجة فى حينها •

وكان للسيدتين م • وب • نفس الطباع • وعلى كل حال فاننا دخلنا يومنا الثانى الذى قضيناه فى منف • وكان لابد لنا من العبور الى طرة • وشاهدنا المناجم الضخمة التى جاءت منها الأحجار التى أقيمت بها الطبقة التى كست الأهرام ، وكافة أنواع الحجر الجيرى الفاخر التى بنيت بها قصور ومعابد منف • ولكن هذه الناحية الجبلية بدت كما لو كانت فى أوجها على الجانب المقابل من النهر • وقررنا أن نترك طرة حتى عودتنا ، ولذلك مضينا فى طريقنا • وأخذ ألفريد يصيد الحمام ، بينما كانت الكاتبة ترسم منطقة ميت رهينة والنخيل وبحيرة مينا المقدسة • وأخذ الآخرون ينبشون الأرض بين الروابى بحثا عن الكنز ، فوجدوا شظايا عديدة من الزجاج والفخار ، وجزءا من تمثال منحوت من البرونز للعجل أبيس • وقضينا يوما هادئا سعيدا خاليا من الوقائع ، ولكنه جدير بأن نتذكره فى سعادة •

واستمرت الرياح المواتية فى الهبوب طوال تلك الليلة ، ولكنها انتهت مع شروق الشمس عندما كنا على وشك الاقلاع • وقال الريس حسن : « النهر الآن يمتد أمامنا ناعما كالزجاج ، ولا نملك أن نفعل له شيئا اللهم الا السحب » • لقد سمعنا عن كلمة السحب هذه كثيرا منذ حضورنا الى مصر ؛ ولكن دون أن تكون لدينـــا فكرة محددة عن هذه العملية • ولما صعدنا على سطح المركب ، وقبل الافطار وجدنا تسعة من

أصدقائنا المساكين مربوطين في حبل مثل خيول الجر ، وهم يجرون المركب الضخمة ضد التيار · وكذلك قام سبعة من بحارة السيدتين م· وب· بجر المركب الأخرى وهم يتبعوننا على بعد عدة ياردات · وتقابل الحبلان ، وتقاطعا ، وغطسا في الماء معا · وسرعان ما غاب المكان الذي رسونا فيه الليلة الماضية · وانتصب هرم ونيفيس على حافة الصحراء وسط اخوته الأصغر حجما كما لو كان يحيينا تحية الوداع · ولكن منظر عمال السحب تنافر مع جمال الصورة الهادئ · وتعودنا عليه مثلما يتعود المرء على كل شيء في حينه · ولكن هذه المهمة بدت لنا عملا من أعمال السخرة وأصابت مفاهيمنا الانجليزية بصدمة شديدة ·

ومع استمرار السحب في هذا الصباح تجاوزنا أهرام دهشور · وشاهدنا هرما متداعيا مشيدا من القرميد قائما في وسطها مثل صخرة سوداء تبرز بنفسها خلال منطقة الحجر الجيري وسط الصحراء · وكانت أشجار النخيل تحدد خط الضفة وتتخلل المنظر · ولكننا ألقينا بعض النظرات هنا وهناك باحثين باعيننا عن ذلك الهرم الذي يتخذ شكل القبة، وكنا قد لاحظناه من سقارة بالأمس · وبالنظر اليه في ضوء الشمس ظهر لنا أكبر حجما وانصع بياضا وأكثر شبها بسقف قصر العدالة القديم الذي يقع في باريس على هذا البعد السحيق ·

ومع مرور فترة الصباح ، جلسنا على سطح المركب نكتب الخطابات ، أو نقرأ ، أو نشاهد مناظر الشاطئ التي يقع عليها ضوء الشمس وتمر في بطء بحيث تظل على مدى النظر فترة طويلة · وكانت تتتابع أمامنا غابات النخيل والضفاف الرملية وزراعات الذرة ذات الرؤوس المجعدة ، والحقول التي تنمو بها بعض الأعشاب ذات الرؤوس التي تكللها أزهار صفراء اللون · وهناك صبي يمشي متثاقلا بطول الضفة ساحبا جملا · وكلاهما يمضي ببطء ، لكنهما سرعان ما تجاوزانا ، والتقينا بقارب محلي يسبح مع التيار · وجاءت فتاة الى حافة الماء بيدها جرة فارغة ، وانتظرت حتى تملأها بعد مرور عمال السحب · وكانت أبراج الحمام الخاصة باحدى القرى الطينية تلوح وراء مجموعة من الأشجار الضخمة على مدى ربع ميل نحو الداخل · وهنا شاهدنا رجلا وحيدا بني اللون يضع على رأسه طاقية ويرتدي ازارا قصيرا ويقوم بتشغيل الشادوف (١) فيتحنى

---

(١) قام ف· ب· زنك بوصف الشادوف وصفا دقيقا لا يسعنى إلا أن أنقله حرفيا كما هو : « من الجانب الميكانيكي نجد أن الشادوف تطبيق لنظرية الروافع · ففي الآلات التي اخترعها الانسان بمساعدة تراكم العلم نجد أن الشادوف يعود استخدامه =

ثم ينتصب ، وينحنى ثم ينتصب مثل بندول الساعة · انها نفس الآلة التى سنشاهدها مرارا وتكرارا مرسومة فى مقابر طيبة · ومن الواضح أن الرجل الذى يقوم بتشغيلها ينتمى الى قدماء المصريين، بحيث نشعر بالغرابة لأنه استطاع أن يهرب بعد تحنيطه فى شكل مومياء ودفنه منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة مضت ·



الشـــادوف

= الى درجة القوة المستخدمة · ان جسم الشـــادوف يتكون من عمود متين طويل يرتكز على دعامة وقد وضع العمود بزاوية عمودية على النهر · أما طرفه الذى ناحية الأرض فقـد وضعت عليه كتلة ضخمة من الصلصال · وقد علق جردل من جلد الماعز على الطرف الذى بناحية النهر · هذا هو وصف الجهاز · أما الرجل الذى يقوم بالتشغيل فانه يقف على حافة النهر وأمامه حفرة مملوءة بالماء القادم من مجرى النيـل · وعنـدما يقوم بتشـغيل الشادوف فانه يمسك بالحبل المعلق فيه الجردل الفارغ ثم ينحنى ويغمر الجردل فى الماء مستخدما كل قوة كتفيه · أما الجهد الذى يبذله فى الاعتدال مرة أخرى فانه يعطى الدلو المملوء بالماء دفعـة الى أعلى ، بحيث ان كتلة الصلصال التى تحقق التوازن بين القوتين تعمل على رفع الدلو الى الحوض الذى تفرغ فيه ماء الجردل ، بينمـا تميل على جانب واحد · أما ما فعله فيتلخص فى أنه رفع الماء ستة أو سبعة اقدام أعلى من مستوى سطح النهر · أما اذا كان مستوى سطح النهر منخفضا بمقدار اثنى عشر أو أربعـة عشر

ورويدا رويدا بدأ النسيم العليل يهب فأطلق الرجال الحبل وقفزوا الى سطح المركب ، وارتفع الصارى الكبير ونشط النسيم وعدنا للابحار مرة أخرى بنفس بهجة اليوم الذى بارحنا فيه القاهرة · وعند غروب الشمس شاهدنا شيئا غريبا يشبه مسلة عملاقة تم نحت نصفها ، وهى تقف على الضفة الغربية مقابل السماء ذات اللون البرتقالى الذهبى · انه هرم ميدوم الذى يطلق عليه فى العادة اسم : الهرم الكذاب · انه يبدو قريبا تماما من الضفة ، ولكن ذلك من تأثير الضوء الشديد والظل لأنه فى الحقيقة يقع الى الداخل بمسافة تبعد عن النهر بأربعة أميال على الأقل · وفى هذا المساء وبعد أن واصلنا الابحار فى النهر حتى الساعة التاسعة ، رسونا على بعد حوالى ميل من بنى سويف ، واندهشنا عندما علمنا أنه لابد من ارسال رجل الى المحافظ لطلب الحراس · ويقول نلحمى ان شيئا لايحدث لأحد فى بنى سويف،ولكن المكان لايتمتع بسمعة من الدرجة الأولى · واذا كان لدينــا الحراس فاننا فى جميع الأحوال نجعل المحافظ مسئولا عن سلامتنا وسلامة ممتلكاتنا · ولذلك أرسلنا فى طلب الحراس · ومع رسونا على الضفة ظللنا طوال الليل نصدر شخيرا مسموعا خارج نوافذنا ·

وفى نفس الوقت أخذ اتجاه الريح فى التحول الى الجنوب ، ولكنها فى الصباح التالى صارت تهب فى وجوهنا·وعلى أية حال،فقد ظل الرجال يسحبون السفينة نحو بنى سويف الى نقطة تصل فيها حدود المبانى الى حد النهر وينتهى الفراغ الذى يمثل مسار سحب السفينة · وهناك توقفنا لحظة بين أسطول من المراكب المحلية القذرة الملاصقة لموقع النزول من السفينة · أما مدخل بنى سويف فهو بديع ، ويمتلك الخديو هنا فيلا من الطراز الايطالى بيضاء اللون تلمع فى وسط حديقة كثيفة الأشجار · وتقع المدينة خلف مجرى النهر قليلا · ويواجه النازل من السفينة عدد قليل من المقاهى ونوع من المتنزهات التى تقع على ضفة النهر ، ومسجد بديع الشكل مبنى على طرف الضفة مقابل انحناءة النهر ·

ونريد الآن أن ندور مع هذا الركن لنصل الى موقع أفضل للابحار عند هبوب الريح ، أما عن التيار هنا فانه يجرى بعمق وشدة ولكن الريح

قدما فانه سيحتاج الى شادوف اخر يعمل بحيث يصل الى حوض جديد ينقل اليه الماء من الحوض الأول · واذا كان مستوى سطح النهر اقل من ذلك فان الأمر يحتاج الى شادوف ثالث لرفع الماء حتى قمة الضفة بحيث يمكنه من الطفو حتى الحقول التى تحتاج للرى · انظـر كتـاب زئة Egypt of the Pharaohs and the khedive ص ٤٤٥ وما بعدها ·

والماء أمامنا في حالة سكون · لقد التف عدد من رجالنا حول الركن مثل القطط وهم يحملون الحبل معهم ، بينما عمل الآخرون على ابقاء الذهبية بعيدا عن الضفة باستخدام زانات ترتكز على قاع النهر · ومع انقطاع الحبل وانكسار احدى الزانات ناضلنا لكي نتقدم عدة أقدام ، ولكنه تقدم ضعيف · وبعد أن استراح الرجال قليلا ، كرروا المحاولة ولكنهم فشلوا مرة أخرى · واستمرت المعركة ، وسرعان ما ازدحم المتنزه ونوافذ المسجد تدريجيا بالمشاهدين · وتم احضار عدد من الكراسى لجلوس ثلاثة أو أربعة من الرجال الملتحين الذين يرتدون العباءات ، فجلسوا في وقار وهم يدخنون النرجيلة على الضفة ويستمتعون بالمشاهدة · وفي نفس الوقت ظل السقاءون في غدو ورواح في منطقة النزول ، وهم يملأون القرب المصنوعة من جلد الماعز · كما أتى البعض بالحمير والجمال لكي تشرب · بينما أتت الفتيات اللائى يرتدين فساتين زرقاء داكنة وأحجبة سوداء خشبنة ويحملن جرارا ضخمة تميل على رؤوسهن · وبعد ملئها ووضعها معتدلة يمشين في خطوات مهيبة كما لو كانت الجرار الثقيلة أكاليل فوق رؤوسهن ·

وهكذا انقضى اليوم في تكرار محاولات ازاحة المركب ولكنها ظلت ثابتة · واخيرا استطاع بحارتنا باصرار عنيد أن يدوروا بنا حول الركن الصعب · وبعد ذلك بقليل تبعتنا الذهبية باجستونز ، ورست كلتا الذهبيتين على بعد حوالى ربع ميل أعلى المدينة · وتلت ذلك ليلة مليئة بالمغامرات · لقد نام حراسنا بعمق مرة أخرى بينما كان أشرار بنى سويف مستيقظين تماما ·

وقد حاول أحد الوجهاء الذى أثارته دوافع الود العميق القيام بزيارة ليلية للذهبية باجستونز ؛ ولكنه هرب بالقفز من الذهبية بعد أن تم اكتشافه وملاحقته واطلاق النار تجاهه · وبعد ذلك بساعتين حل دورنا عندما تصادف أن كانت الكاتبة مستيقظة فسمعت صوت رجل يسبح بهدوء حول فيلة · وجاء التصرف السريع في شكل اشعال نور مفاجىء وتحذير كل فرد بحركة فجائية · وسرعان ما أثارت الذهبية كلها ضجيجا يصم الآذان · وأضيئت المشاعل فوق السطح ، واستعدت فصيلة البحارة ، وشحن تلحمى بندقيته ، فانفلت اللص في الظلام هاربا كالسمكة ·

وبالطبع كان الحراس نائمين خلال كل تلك الأحداث · يا لهم من أمناء ! لقد دفعنا لكل منهم شلنا في الليلة نظير الحراسة ولكنهم لم يهتموا بشيء ·

وفي صباح اليوم التالى أودعنا شكوى ضد أهل المدينة فحضر لزيارتنا شخص شاحب اللون ، مرتديا رداء أسود طويلا ، وقميصا أبيض كبير الحجم · كان هو كبير الحراس · فقام بتدخين الغليون مرات عديدة ، وشرب أكوابا عديدة من القهوة ، وأنصت الى كل ما قلناه ، وهو يبدو شديد التعقل · وأخيرا اقترح ضرورة مضاعفة عدد الحراس ·

وغامرت بالقول انه اذا كان النوم طبيعتهم،فان أربعين حارسا منهم لن يكونوا على مستوى المسئولية ، وعند ذلك هب الرجل واقفا وشد نفسه ، ولمس لحيته ، وقال بصوت مسرحي جهورى : « اذا ناموا فانهم سوف يعلقون فى الفلقة ، ويضربون حتى الموت ! » ·

ويبدو أن حظنا السعيد قد فارقنا ، لأن الريح المضادة استمرت على مدى ثلاثة أيام بلياليها ، وهى تهب بقوة حتى عجز الرجال عن السحب ضدها · ومع رسونا عند تلك الضفة الموحشة وجدنا أن بداية رحلتنا منذ عشرة أيام قد طارت فائدتها فى الهواء ، وأننا نمر بأتعس الظروف · ولكن أسعدنا اكتشاف أن الجزيرة الطويلة المجاورة والضفتين اللتين على جانبى النهر ، كانت جميعها مزدحمة بالكثبان الرملية ولذلك كان ألفريد يخرج يوميا بصحبة المخلص جورج ومعه بندقيته التى لا تخطىء ، ويعودان بصيد وفير · وبينما نحن نمضى فى نزهات طويلة كنا نرسم القوارب والابل ، ونساوم النساء الوطنيات فى شراء العقود والأساور الفضية · وهذه العقود (يسمى الواحد منها بالعربية طوقا) أسطوانية الشكل ولكنها ثقيلة الوزن · وهى فى سمك الاصبع الخنصر وتنتهى بخطاف فى أحد طرفيها وحلقة مستديرة فى الطرف الآخر · وقد تخلع البنات أحجبتهن جانبا ويظهرن العقد الذى يلبسنه كجزء من المساومة · ولكنهن فى الغالب وبعد أن يقفن لحظة وهن ينظرن الينا بعيونهن السوداء فى خجل ، كن يشعرن بالخوف مثل قطيع من الغزلان المذهولة ، ثم يذهبن مع صرخات حادة نصف ضاحكة ونصف خائفة ·

وفى بنى سويف واجهتنا أولى العواصف الرملية التى وصلت النهر قرب الظهيرة ، وقد بدت فى الأفق مثل سحابة صفراء تدور حول نفسها بسرعة أمام الريح ، وعند وصولها مزقت النهر الى موجات غاضبة ولطخت المنظر الطبيعى · وفى البداية اختفت التلال البعيدة ، ثم أشجار النخيل التى خلف الجزيرة ، ثم القوارب المجاورة لنا ، ثم امتلأ الجو بالرمال ، وظهر سطح السهل متحركا ، وتموجت الضفتان بخرير الماء المترقرق ،

وتسلل التراب الأصفر من خلال كل شق وكل صدع فى شكل مئات من الشلالات الصغيرة ، وكان منظرا لا يمكن تجاهله • وسرعان ما امتلأ الشعر والعينان والفم والأذنان بالتراب الدقيق ، وتقهقرنا للاحتماء فى الصالون • أما هنا فانه على الرغم من أن جميع النوافذ والأبواب كانت قد أغلقت قبل وصول العاصمة الا أن الرمل شق طريقه كالســـحاب ، فغطى جميع الكتب والأوراق والسجاجيد • ثم هدأت العاصفة بمثل سرعة هبوبها • واستغرق ذلك كله ساعة واحدة ثم تلاه تدفق المطر الغزير • وبعد ذلك صفت السماء وكانت فترة بعد الظهر صافية جدا • وبعد هذه المرة لم نصادف أمطارا فى مصر مرة أخرى •

وفى صباح اليوم كان أول ظهور لنا فى بنى سويف ، وهو اليوم السابع منذ بارحنا القاهرة ، تحولت الرياح الى الشمال مرة أخرى ، وللمرة الثانية أصبحنا فى طريقها • وكانت رؤية الشراع الكبير وهو يرتفع مرة ثانية فوق رؤوسنا وسماع صفير الماء تحت نوافذ القمرة مبعث سرور عظيم لنا • ولكننا كنا لم نزل على بعد تسعة أميال ومائة ميل من الروضة • وكنا نعلم أنه لا شىء يستطيع أن ينقلنا الى هنا عند حلول اليوم الثالث والعشرين من الشهر سوى خبطة حظ غير عادية ، مع توفر الوقت اللازم لمشاهدة بنى حسن خلال الطريق • وفى نفس الوقت كنا نتقدم بمعدل معقول ، وفى المساء رسونا على بعد حوالى ثلاثة أميال شمال مدينة ببا عند هدوء الرياح • وفى اليوم التالى استطعنا بمعاونة النسيم الخفيف الذى تحرك مرة أخرى بعد الفجر أن نمضى مسافة معقولة بين الضفتين المنبسطتين واللتين تنشغل أطرافهما بأشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك ، وترصعهما القرى التى تجعل المنظر صالحا للتصـــوير • ولكن لا يوجد هنا الكثير الذى ينبغى أن نراه ، كما أننى لم أكن راغبة فى التسلية • والآن نحن نمر على جزيرة ذات ضفة رملية مغطاة بطيور بيضاء مثل الثلج سرعان ما طارت فى صخب عند اقترابنا • وبعد ذلك ظهرت مدينة ببا قابعة على حافة الضفة الشديدة الانحدار • وظهر الدير القبطى الغريب الشكل الذى يتكون سقفه كله من قباب طينية صغيرة مثل عنقود من الفقاعات الأرضية • ثم مررنا بمصنع السكر المهجور بنوافذه المهشمة ومدخنته السوداء الضخمة التى تصلح لمدينة برمنجهام أو شفيلد ، ونلمح الآن خط السكة الحديد ، ونستمع الى آخر صفارة لقطار يغادر المحطة • وفى المساء رسونا ونحن نرى مداخن المصنع والقنوات المائية لمدينة مغاغة • وفى اليوم التالى وصلنا الى قلوصنا وهى آخر محطة قبل المنيا •

واتضحت لنا الآن ضرورة التخلص من فكرة الذهاب الى بنى حسن قبل وصول بقية المرافقين على المراكب الأخرى . وقد وصلنا الآن الى مساء يومنا التاسع . ومازلنا على بعد ثمانية وأربعين ميلا من الروضة ، ولابد وأن هبوب رياح مضادة أخرى سيعطلنا أثناء الطريق . لقد حسبنا جميع المخاطرات ، ورغبنا فى أن نفض اجتماعنا حتى اليوم الرابع والعشرين من الشهر ، وأن نغير الموعد المتفق عليه للوصول الى المنيا ، وسيتيح لنا ذلك وقتا كافيا لسحب المركب عند الحاجة . وعلى ذلك تمت صياغة برقية باللغة العربية ، وبدأ عداؤنا السريع فى العدو للوصول الى قلوصنا قبل أن يغلق مكتب التلغراف أبوابه طوال الليل .

وعموما ، فان النسيم لم يخفق بل عاد فى صباح اليوم التالى عند الفجر . وبعد عبور قلوصنا وصلنا الى جزء منبسط فى النهر حيث تشرفنا عنده بزيارة شيخ مسلم ، له قدسية غريبة يدعى «الشيخ قطن المبروك» . والآن ، فان الشيخ قطن وهو شاب فى حوالى الثلاثين من العمر ، يتمتع بالصحة ، ويبدو عليه أنه يتغذى جيدا ، يظهر لأول مرة وقد جمع ملابسه على رأسه فى شكل عمامة ضخمة وكان يسبح فى الماء بحيث لم يظهر منه الا ذقنه . وقدم لنا نفسه على سطح السفينة ولقى ترحيبا حماسيا ، فاحتضنه الريس حسن وقبله المرشد ، وحضر البحارة واحدا واحدا وهم يقدمون كميات من التبغ وبعض القروش التى كان يتقبلها كما يتقبل بابا الفاتيكان التبرعات الخاصة بالقديس بطرس .



الشيخ قطن المبروك

وكان الجميع يقدمون اليه عطاياهم وهو يبتسم مثل عروس البحر المستأنسة · وبعد ذلك أخذ يلمس دفة المركب والحبال وأطراف العوارض الأفقية التى تثبت الشراع · ويقول تلحمى عن ذلك انه « يباركها » وأخيرا يبدى نوعا من الدعوات الوداعية ويتمتم بالتعاويذ ، ثم يرتمى فى النهر مرة أخرى ويسبح الى السفينة باجستونز ليؤدى نفس العرض على سطحها ·

ومن تلك اللحظة تأكد ازدهار رحلتنا ، وأخذ القبطان يتجول وقد رسم ابتسامة على وجهه الصارم ، وظهر البحارة سعداء كما لو كنا قد أعطيناهم جنيها ذهبيا · ذلك أنه لا يمكن أن يحدث مكروه للذهبية التى يباركها الشيخ قطن المبروك · وأصبحنا متأكدين الآن من أننا سنقابل رياحا مواتية ، وأن نعبر الشلال بدون حوادث وأن نعود فى صحة وسلامة، كما بدأنا رحلتنا · وكيف نسأل عما فعله الشيخ قطن المبروك حتى يجعل بركته شديدة الفعالية ؟ انه يحصل على كميات وافرة من المال ، ولا يصوم أكثر من سائر المسلمين ، وله زوجتان ، ولا يؤدى أى عمل ، ويجسده صورة الرخاء الناعم · ولكنه شيخ الماء ، وعندما يموت ستحدث معجزات عند قبره ، وسيخلفه ابنه الأكبر فى هذا العمل ·

وقد نلنا السعادة بالتعرف الى العديد من المشايخ (*) على مدار رحلاتنا فى الشرق ، ولكننى لا أعلم أنهم فعلوا شيئا يستحقون عليه التكريم · لقد شاهدنا شيخا عجوزا رهيبا أسمه الشيخ سليم كان يجلس على كومة من التراب قرب فرشوط لا يرتدى ملابس ، ولا يستحم ، ولا يحلق ذقنه · وقد مضى عليه نصف القرن الأخير دون أن يفعل شيئا ولا حتى يرفع يده الى فمه ليتناول الطعام · ولكن الشيخ قطن لم يصل بعد الى هذا المدى من التقوى كما أنه كان نظيف البدن ·

وحتى ذلك الوقت كنا نتجه نحو سلسلة من الصخور الصفراء . كانت واضحة فى الأفق منذ فترة طويلة ، وهى التى تظهر على الخرائط تحت اسم : جبل الطير · وكانت الصحراء العربية (الشرقية) تقترب من الضفة الشرقية حتى فترة قصيرة مضت وهى الآن تمضى فى انحرافات متموجة الى حافة الماء · وتظهر الصخور الصفراء بغتة هنا وهناك فوق الرمال العالية التى تبدو كما لو كانت تغطى العديد من المعابد المجهولة ·

(*) الكلمة فى النص تشير الى القديس أو الولى — (المترجم) ·

وسرعان ما انقضت الضفة الطينية وحل محلها حاجز منخفض من الحجر الجيرى فى شكل صخرة سوداء لامعة خلف خط الماء · والآن وعلى المدى البعيد أمامنا حيث ينحنى النهر وتظهر الصخور المرتفعة من مسافة بعيدة ، تبرز بقعة صغيرة هى دير البكرة · ويظهر الدير فى حجم عش النمل جاثما على حافة جرف مرتفع · وكنا قد سمعنا كثيرا عن المنظر الجميل الذى يظهر من الربوة التى بنى عليهـا الدير وهو داخل ضمن برنامج رحلتنا بوصفه أحد الأماكن المطلوب زيارتها أثناء الطريق · وكان لابد لنا الآن من زيارة المنيا مهما كلفنا الأمر ، ولذلك كان لابد من تجاهل هذا الموضوع مع الأسف ·

والآن يرتفع الحاجز الصخرى الى أعلى ، وبه العديد من المناجم هنا وهناك فى شكل ثغرات لامعة من الأنفاق التى تبدو بيضاء كالثلج · ويظهر الدير أكثر وضوحا ، وتصبح الصخور أكثر ارتفاعا · ونصل الى انحناءة النهر ، حيث يمتد صف طويل من الصخور المسطحة القمة مبتعدة لمسافة طويلة ·

انه يوم القديسين والسباحين ، لأنه عندما كانت الذهبية تقترب ، ظهر رأس بنى اللون وهو يرتفع ويهبط فى الماء على بعد حوالى مائة ياردة أمامنا · ثم اندفع شخص واحد ، وصار اثنان فثلاثة من صخرة شديدة الانحدار أسفل حوائط الدير وغطسوا فى النهر · وارتفعت الأصوات الحادة التى ترنم فى شكل جوقة سمعنا صوتها بالرغم من الرياح · وفى دقائق معدودة أحاط بالقارب سرب من الرهبان الذين يطلبون العطاء وهم يصيحون بكل قوتهم « أنا كريســتيان يا خواجة ! أنا كريســتيان يا خواجة » ! أى (أنا مسيحى أيها الرحالة) · ولما كان هؤلاء رهبانا من الأقباط فقط وليسوا مشايخ من المسلمين فقد سارع البحارة وهم نصف غاضبين ونصف جادين فى ابعادهم عنا بالعصى الطويلة التى يغرزونها فى النهر لتثبيت السفينة · وسمح لواحد منهم فقط كان يرتجف وهو ملفوف فى بطانية بأن يصعد الى سطح الذهبية ، كان رجلا مليح الشكل يبلغ من العمر حوالى الأربعين عاما ، له عينان بديعتان ورأس مستدير ، وجسمه فى لون خشب الزان النحاسى ، ووجهه يعبر عن الجهل والخجل والانتباه الشديد بحيث يجعل قلب الانسان يشعر بالألم ·

اذن فهذا رجل قبطى سليل الشجرة المصرية الحقيقية·انه واحد من هؤلاء الذين بدل أجدادهم عبادة الآلهة القديمة وحولوها الى المسيحية تحت

حكم الامبراطور ثيئودوسيوس منذ حوالى ألف وخمسمائة عام مضت ، والمفروض أن يكون دمهم مصريا خالصا لم يختلط بأى دماء أخرى بخلاف المسلمين الذين اختلطت دماؤهم أكثر من غيرهم من المصريين ٠ وعندما تذكرت هذه الأمور كان من المستحيل أن أنظر اليه دون أن أحس بالاهتمام العميق٠ قد يكون ذلك محض خيال ، الا أننى أرى فيه طرازا مختلفا عن ذلك الذى ينتمى اليه العرب ، فهناك شىء بسيط يوقظ المناظر المحفورة فى مقبرة تى ٠

وبينما كنا نتفكر فى نسبه العظيم ، كانت أسنان القبطى المسكين تصطك بشكل يثير الشفقة ٠ ولذلك أعطيناه شلنا أو اثنين لأجل خاطر كل ما يمثله فى تاريخ العالم ٠ وبعد أن أخذ الشلنين مع زجاجة فارغة وهبناها له ، سبح مبتعدا فى رضا وهو يصيح مرات عديدة قائلا : « كتر خيركم يا ستات ! كتر خيركم كتير ! » أى (أشكركن يا سيدات ، أشكركن كثيرا) ٠

والآن مضى الدير بقبابه العنقودية وتركناه خلفنا ٠ والصخرة هنا تنتمى لنفس اللون الأصفر المائل للسمرة مثل صخور طرة٠ومن الواضح أن الطبقة الأفقية التى تتكون منها قد رسبت بفعل الماء فمن الواضح أن النيل قد فاض هنا ووصل الى مستوى شديد الارتفاع منذ زمن بعيد ، لأن وجه الطبقة كلها مخرم على شكل خلايا النحل،وقد غمره الماء بالتتابع على مدى عدة أميال ٠ وعندما رأيت كيفية تكوين هذه الصخور الغريبة التى تتخذ شكل العنقود ومتشابكة مثله ، وتنحنى كنموذج لزخرفة المبانى الاسلامية البارزة ، لم أتمالك نفسى عن التعجب حول ما اذا كان بعض المعماريين العرب القدامى قد استعار يوما ما لمحة خفية من مثل هذه الصخور ٠

وبدأ النهار يميل ، بينما استمر سطح الصخور يصحبنا طوال الطريق ٠ والآن ونحن نقتحم بعض الوديان الصغيرة المستعرضة ، ونفتح الحقيبة التى تعشش فيها مجموعات من الأكواخ الصغيرة والبقع الخضراء من زراعات الترمس التى تنغمر فى النهر حينا ، ثم تتراجع الى الأرض تاركة فراغا يشغل حزاما من التربة المزروعة وحافة تعج بأشجار النخيل٠ ويقترب غروب الشمس رويدا رويدا عندما يتحول كل ظل ساقط فى حنيات الصخور الى اللون البنفسجى ، وتلمع صفحة الصخرة كالذهب المتوهج ، وتقف النخلات التى على الضفة الغربية بلونها البرونزى الغامق فى مواجهة الأفق القرمزى ٠ ثم تنحدر الشمس ، وسرعان ما يتحول

النطاق كله الى لون السكون الأخضر الرمادى ، بينما تتضرج السماء فوقها وخلفها باللون الوردى فى شكل فجائى . وقد استغرق هذا التحول حوالى ثمانى دقائق ، وأخذ قوس ضخم من الظل الأزرق الغامق يصل قطره الى قطر قوس قزح يزحف ببطء على الأفق الشرقى ، ويظل ظاهرا ، بينما تتمدد مساحة الاحمرار الوردى المواجه له ، ولكنه يتباطأ ويبقى قليلا فى السماء . وأخيرا يضمحل الاحمرار الوردى وتصبح الزرقة شاملة ، وتبدأ النجوم فى الظهور ، ولا يتبقى الا وميض عريض فى الغرب محددا الاتجاه الذى غربت منه الشمس . وبعد ذلك بحوالى ربع الساعة يحل ما بعد الوميض عندما تمتلىء السماء لعدة دقائق بضوء ناعم سحرى ، ويهبط ظلام الغسق دافئا على سطح الأرض . وعندما ينتهى ذلك يبدأ الليل ، ولكن مازال هناك شعاع طويل من النور يجرى فى مسار الشمس ويظل ظاهرا لمدة تتجاوز الساعتين بعد حلول الظلام .

كان هذا الذى شاهدناه فى هذا المساء ونحن نقترب من المنيا هو الغروب . وقد تصادف أن شاهدناه مع فارق طفيف فى نفس التوقيت وتحت نفس الظروف لعدة شهور قادمة . انه شـديد الجمال وشـديد الهدوء ، ومشبع بالنور العجيب ، ومعظم درجات اللون الدقيقة ، ومصحوبا بظاهرة معينة سرعان ما سأتحدث عنها كثيرا ، ولكنه يفتقد تنوع وبهاء سمائنا الشمالية ، ولا يحمل سوى جو مصر الجاف . وهؤلاء الذين يبحرون جنوبا مع النيل يتوقعون مثلما توقعت أنا ، رؤية مواكب التحول الى اللون القرمزى مع لون اللهب والذهب ، ولكنهم سيصابون بالاحباط كما حدث لى ، لأن مواكب التحول هذه لا يمكن تحقيقها بدون اضافات السحاب والبخار وهى غير معروفة فى النوبة ، ونادرة الحدوث فى مصر . ولكننا صادفنا حظا سعيدا مرة واحدة أثناء اقامتنا الطويلة غير المعتادة على سطح النهر فشاهدنا عرضا ضخما من هذا النوع ، وكنا حينذاك قد قضينا حوالى ثلاثة شهور فى الذهبية .

وفى نفس الوقت لم نكل من رؤية هذه السموات التى لا تشوبها شائبة واكتشفنا فيها ليلة بعد ليلة أعماقا جديدة للجمال والراحة . أما عن هذا التغيير الغريب للألوان من الجبال الى السماء فقد شاهدناه مرارا أثناء سفرنا خلال العام الماضى فى الجزء الشرقى من جبال الألب فى شمال شرق ايطاليا . ووجدناه يحدث دائما كما هو الآن فى لحظة أول اختفاء للشمس ، ولكن ماذا عن هذا الظل الضخم الذى يصعد الى منتصف السماء ويأتى معه بالليل ؟ هل يمكن أن يكون هو ظل العالم الصاعد خلال

الأفق بينما تغرب الشمس فى الإتجاه الآخر ؟ وأترك هذه المشكلة للرحالة الأكثر حكمة لعلهم يجدون لها حلا فليس بيننا من لديه العلم الكافى حتى يتحدث عنها ٠

وفى نفس هذا المساء وبمجرد ظهور الغسق رأينا معجزة أخرى - القمر الجديد فى الليلة الأولى لربعه الأول ٠ دائرة كاملة ، قاتم اللون ، وواضح ، ومحدد المحيط ، ولكن ضوءه عبارة عن خط رفيع لا يزيد سمكه عن سمك الشعرة ٠ ولا يمكن أن يكون هناك شىء ألمع من هذه الهالة الدقيقة من الفضة اللامعة ، وكانت جميع تفاصيل الكرة تلمع برقة وهى ظاهرة بوضوح داخل دائرته ٠ وبدت مثل بركان بفوهته الواسعة على حريطة بارزة ٠ وعند حافة السطح حيث يتقابل النور والظل كلاهما ، ظهرت للعين المجردة ومضات حادة لقمم جبلية فى دائرة الضوء ، وخففت من حدتها عند الغسق ، وبعد ليلتين أو ثلاثة عندما تحولت الحلقة الذهبية الى هلال واسع ، صار الجزء غير المضىء كما لو كان قد أطفىء ولم يعد من الممكن تمييزه حتى بمساعدة النظارة المكبرة ٠

أما الريح وقد سكنت كعادتها عند غروب الشمس ، فقد بدأ البحارة العمل بحماس واستخدموا العصى الطويلة التى تدفع فى قاع النهر لدفع المركب للأمام طوال الجزء المتبقى من الطريق حتى وصلنا المنيا فى هذا المساء حوالى الساعة التاسعة ٠ وفى صباح اليوم التالى وجدنا أنفسنا وقد رسونا بالقرب من القصر الصيفى للخديو،وكانت المسافة قريبة جدا حتى ان الانسان كان يستطيع أن يلقى حصاة صغيرة فى الشبابيك ذات المشربية لغرفة الحريم ٠ وقد جلس حارس البوابة الضـــخم فى الشمس خارج القصر ، وهو يدخن نرجيلة الصباح ويثرثر مع المارة ٠ وقد امتدت حديقة ضيقة زرعت فيها بعض أشجار الجميز بين القصر والنهر ٠ وقد رست على الضفة باخرة أو اثنتان مع زحام من القوارب المحلية ٠ وهناك فى الطرف البعيد من الحديقة ظهرت منارة ومجموعة من المنازل المطلية بالجير كدليل يبين لنا الطريق الواجب الدوران خلاله فى الذهاب الى المدينة ٠

وتصادف أن كان اليوم هو يوم انعقاد السوق ولذلك شاهدنا المنيا فى أبهى صورة لها ، فلم يكن هناك شىء يمكن أن يتفوق عليها فى القذارة والكآبة والانقباض ٠ لقد كانت مثل مدينة سقطت بدون توقع فى وسط حقل محروث ٠ الشوارع عبارة عن حوار من الطين والتراب ، أما المنازل فهى سلسلة من السجون المبنية من الطين بدون نوافذ وظهورها تتجه نحو

الشارع العام . أما الحانوت الذي يتكون من حارتين أو ثلاثة أوسع قليلا من باقي الحوارى ، فقد كان مسقوفا هنا وهناك بسعف النخيل المتعفن وقطع من الحصير المهلهل ، بينما انعقدت السوق في قطعة من الفضاء الخرب خارج المدينة . وكان الحانوت يتكون من دكاكين تشبه الدواليب يجلس فيها التجار القرفصاء مثل تماثيل قديمة متداعية في مقابر قديمة متداعية ، والرفوف رديئة الأثاث ، بها بضائع مانشستر المعتادة ، والخامات المحلية ذات الألوان الصارخة ، والسروج الحمراء القديمة ، والبطاطين باهتة الألوان معلقة للبيع ، وهناك المحلات اليونانية الأنيقة حيث يمكن أن تشترى في آن واحد الأسماك والبيرة والنبيذ الخفيف ، ومنتجات جزر الأنتيل وقبرص ، والنبيذ الأبيض والجبن والمخللات والسردين وصلصة ورشستر ، وورنيش الأحذية والبسكويت واللحوم المحفوظة والشموع والسيجار والكبريت والسكر والملح والأدوات المكتبية وصواريخ الألعاب النارية والمربات والأدوية المركبة .

أما المطعم المحلي فتتصاعد منه الروائح الشهية المنبعثة من الكباب وشوربة العدس ، وتتصدره سيدة حبشية أشد سوادا من كافة اللوحات الموسومة لأشخاص سود البشرة . وهناك الجماهير المتدفقة كالسيل ، والمتدافعة بمناكبها لتشق طريقها ، وما تثيره من صخب . وأيضا الحمير والابل ، وصرخات في الطريق ، والثرثرة والتراب والذباب والبراغيث والكلاب ، كل ذلك جعلنا نتذكر أفقر أحياء القاهرة . وكانت أسوأ هذه المناظر تلك الموجودة في السوق حيث مئات من القرويين جالسين على الأرض خلف سلال الفاكهة والخضروات . وكان بعضهم يبيع البيض والزبد والقشدة ، بينما يبيع آخرون قصب السكر والصمغ والكرنب والتبغ والشعير والعدس المجفف والفول المدشوش والذرة والقمح والذرة الصفراء ، بينما تتنقل النساء ذهابا وإيابا وهن يحملن مجموعات من الدجاج الحى ، بينما تصيح الكتاكيت ، والباعة يمتدحون سلعهم ، والمشترون يساومون بأصوات مرتفعة ، ويتطاير التراب كالسحاب ، وتصب الشمس طوفانا من الضوء والحرارة ، حتى انك لا تستطيع أن تسمع صوتك أثناء الكلام . وكان الزحام في مثل كثافة ذلك الزحام الذي كان يجرى في ليلة عيد ميلاد السيد المسيح داخل حوارى سوق ليدنهول فى لنــدن .

وكانت الأشياء رخيصة جدا فالمائة بيضة تساوى اربعة عشر بنسا بالعملة الانجليزية . ويباع الدجاج بسعر خمسة بنسات للدجاجة الواحدة . أما سعر الحمام فيتراوح بين بنسين وبنسين ونصف . أما الاوزة الحية

الممتازة فتباع باثنين من الشلنات · أما الديك الرومى مهما كان ضخما وممتازا فان ثمنه جنيهان وستة بنسات وهو ما يعادل نصف ثمن الحمل في مصر الوسطى والعليا · أما الخروف الممتاز فيقدر ثمنه بستة عشر شلنا أو جنيه واحد · لقد كانت السيدتان م· وب · اللتان ليس لديهما ترجمان مشغولتين جدا هنا ، حيث تقومان بتخزين المؤن الطازجة وهما تساومان باللغة العربية تحت حراسة اثنين من البحارة ·

وقد وجدنا مجموعة منفصلة من نخيل الدوم من النوع الذى ينمو فى أقصى الشمال وهى العينة الأولى التى نلقاها على نهر النيل ، وجدناها تنمو فى حديقة مجاورة لموضع هذه السوق · ولكننا رأيناها بصعوبة من خلال التراب الذى يعمى العينين · أما شجرة نخيل الدوم فهى نوع من الأشجار التى كان يجب أن يرسمها دى ونت فهى غريبة الشكل ، ونحيلة ، ولها سيقان متشعبة تنتهى كل منها بتاج أشعث مكون من أوراق صلبة تشبه الأصابع وهى تظللها عناقيد ثقيلة من الثمار اللامعة الكبيرة التى فى حجم خرشوف القدس · وأظن أنها هى الشجرة الوحيدة فى العالم التى يلقى الانسان قلب ثمرتها بعيدا ويأكل الغلاف القشرى علما بأن القلب فى مثل صلابة الرخام بينما الغلاف ليفى الشـــكل ومذاقه مثل كعكة الزنجبيل غير الطازجة · ولابد لشجرة نخيل الدوم أن تنقسم الى شعبتين لأن الانقسام هو قانون بقائها ، ولكننى لم أستطع أن أكتشف ما اذا كان هناك حد ثابت لعدد السيقان التى تتفرع اليها · وفى نفس الوقت لا أتذكر أننى رأيت نخلة منهـــا لها أقل من رأسين أو أكثر من ستة رؤوس ·

وعند عودتنا من خلال المدينة اعترضتنا عجوز شمطاء ذابلة بعين واحدة مثل المومياء التى بعثت من قبرها وقد عرضت علينا أن تقرأ طالعنا · ووضعت أمامها خرقة قذرة من منديل ، مليئة بالقواقع والحصباء وشظايا من الزجاج المكسور والفخار · وقد جلست القرفصاء مثل الضفدع تحت بقعة مشمسة من الحائط · وكان الجزء السفلى من وجهها مغطى بالحجاب، بينما غطت الغوايش الزجاجية الزرقاء والخضراء ذراعيها النحيلتين · كما غطت أصابعها الخواتم الفضية المشوهة · وألقت بهذه الكنوز فى الهواء وهزتها وخلطتها ببعضها البعض ، وسألتها بكل حماس الرجم بالغيب ، وذكرت لنا سلسلة من التنبؤات المعدة مسبقا لمثل هذه الظروف ·

« لك صديق بعيد ، وصديقك يفكر فيك · هناك حظ سعيد محفوظ لك ، وستأتيك نقود ، كما أن هناك أخبارا سارة آتية فى الطريق ،

وستصلك خطابات بها شيء يغضبك ، ولكن معظمها يبعث فيك السرور -
وفي خلال ثلاثين يوما سيلقاك بالصدفة انسان محبوب لديك » -
الخ ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

انها نفس القصة القديمة المعتادة ، ولكنها تتكرر هنا باللغة العربية حتى بدون الاختلافات المتوقعة من فم فلاحة عجوز ولدت ونشأت في مدينة بأحد أقاليم مصر الوسطى ٠

وربما كانت أمراض العيون تخيم على هذا الجزء من الريف ، أو أنها انتشرت دون توقع وسط جمهور ضخم ٠ وقد لاحظنا أن الناس هنا مزدحمون ، ولكنني بالتأكيد لم أشاهد الكثيرين من العور مثل الذين شاهدتهم هذا الصباح في المنيا ٠ ولابد أنه كان موجودا بالشوارع ومكان السوق عدد يتراوح ما بين عشرة الى اثنى عشر ألف مواطن من جميع الأعمار ، ولست أبالغ عندما أقول ان واحدا من بين كل عشرين شخصا بما فيهم الأطفال من سن ثلاث أو أربع سنوات ، كان أعور ٠

واذا علمنا أن هؤلاء الناس ينتمون الى نوعية من ذوى المظهر الحسن، فان هذا النقص يمثل اللمسة الأخيرة في مظهر وجوههم التى تبعث على الاشمئزاز ، والتى هى في الأصل متجهمة ، وجاهلة ، وعدوانية ٠ ولم أرغب في رؤية المزيد من هؤلاء السكان ذوى المظهر المنفر ٠ فالرجال نصف هادئين ونصف سفهاء ٠ أما النساء فجريئات ومتوحشات ٠ أما الأطفال فانهم قذرون وسقماء ، وناقصو النمو ، ومتبلدو الشعور ٠ ولا يوجد شيء في الأقاليم المصرية يثير الألم مثل حالة الاهمال التى يلقاها الأطفال الصغار حتى ان هؤلاء الذين ينتمون الى الطبقة الأرقى ، يرتدى معظمهم ملابس رثة ٠ ونظافتهم مشكوك فيها ، بينما تترسب على أجسام أطفال الفقراء القذارة والالتهابات ، وتغطيها الطفيليات ٠ ومن الصعب أن تصدق للوهلة الأولى ، أن والدى هؤلاء الأطفال التعساء قد تجاوزوا الحدود ليس من ناحية القسوة ، بل أيضا من ناحية الجهل الشديد والاستسلام للخرافات ٠ ومازال الزمن الذى يحتاجه هؤلاء الناس حتى يتعلموا المبادىء الأساسية للوقاية الصحية بعيد المنال جدا ٠ ان استحمام الأطفال الصغار يضر بصحتهم ولذلك فان الأمهات يتركنهم ليعانوا من حالة القذارة الذاتية وهي وحدها كفيلة باستجلاب المرض ٠ أما طرد الذباب الذى يحيط بعيونهم فهو أمر شنيع ٠ ومن هنا تأتى التهابات العيون وسائر الأنواع المختلفة من العمى ٠ لقد رأيت أطفالا يرقدون على أذرع أمهاتهم وقد التصقت بكل عين من عيونهم ستة أو ثمانية من حشرة الذباب ٠

وقد رأيت الأيدى الصغيرة الضعيفة وهى تنخفض فى مواجهة التأنيب اذا اقتربت من مركز الازعاج . وقد رأيت أطفالا فى سن الرابعة أو الخامسة وقد انطمست احدى عيونهم أو كلتا العينين - وكانت لدى بعضهم كتلة لحمية كبيرة برزت مكان انسان العين الذى أصيب بالدمار . **ومع أخذ هذه الأمور فى الحسبان فان الانسان يتعجب اذا علم أن ثلاثة من بين كل خمسة أطفال مولودين فى مصر يموتون . بالاضافة الى أن واحدا من بين كل عشرين فردا فى بعض المحافظات يصاب بالعمى كليا أو جزئيا . وكذلك فان أربعين فى المائة من المواليد يعيشون حتى يكبروا ، وأن خمسة وتسعين فى المائة منهم يتمتعون بنعمة الابصار** . أما من جهتى أنا فلم أستغرق أسابيع كثيرة على صفحة النيل قبل أن أبدأ تلقائيا فى تحاشى التجول فى مدن الأقاليم عندما يكون ذلك متاحا . وهكذا فقدت فرصة رؤية الكثير من حياة الشارع التى يحياها الناس فى هذه المدن . ولكن مثل هذه اللمحات الخارجية كانت ذات قيمة حقيقية ، وبذلك تجاوزت عن رؤية مظاهر الفقر الشديد والمرض والقذارة . وربما لم تكن حالة السكان فى القرية المصرية أسوأ من حياة أمثالهم فى القرية الأيرلندية . ولكن حالة الأطفال أكثر خطورة لدرجة أن الانسان قد يرغب فى الإبتعاد عدة أميال عن الطريق حتى لا يشاهد معاناتهم مع عدم القدرة على تخفيف هذه المعاناة (١) .

واذا لم تكن هناك جاذبية فى التعرف الى أحوال السكان فى مدينة المنيا وحولها ، فان مظهرهم الذى يشبه مظهر جيرانهم يزيد كثيرا عما سمعناه عنهم من كافة الوجوه . أما عن أساليب وعادات بنى سويف فقد كانت لنا بعض التجارب . وعرفنا أن الرأى العام يتهم المنيا والروضة ومعظم المدن والقرى الواقعة شمال أسيوط بأنها تتشابه من حيث الميل الفطرى للسرقة . أما عن القرى التى تقع جنوب بنى حسن فان بها أوكارا للصوص منذ عدة أجيال . وبالرغم من تسويتها بالأرض منذ عدة سنوات كعقاب

---

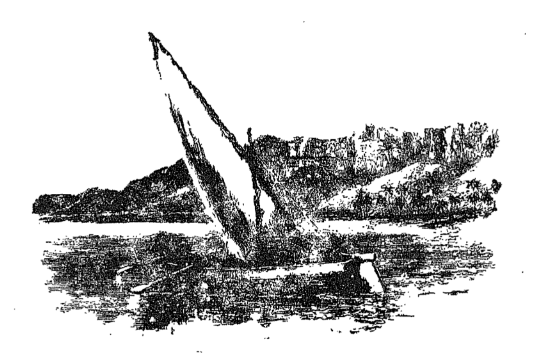
(١) تنكر ميس هويتلى التى نعتبر كتابها فى هذا الموضوع مفيد جدا ، أن غالبية اطفال الأقاليم يموتون فى حوالى سن الثانية من العمر (انظر كتابها المسمى : بين الأكواخ Among the huts ص ٢٩) ، بينما يقول مستر أبوت الذى انتهز العديد من الفرص لدراسة الحقائق المتعلقة بالسكان والموارد الريفية - ان هذه الأمة تفقد ثلاثة اطفال عن بين كل خمسة . « ان عوامل الجهل الشامل ونسيان القواعد الصحية وسوء التغذية والغياب شبه الكامل للعناية الطبية جعلت الأمة تصل الى هذه الحالة . ان الشخص الذى يضيع منه بانتظام ثلاثة اطفال من بين كل خمسة لا يستطيع ان يحيا الا بحدوث معجزة » .

(انظر كتابه المسمى : الفلاح Le Fellah ص ١٦٥) .

لسكانها ، الا أنه قد أعيد بناؤها حاليا وعادت الى سيرتها الأولى كما كانت دائما • ولذلك فمن الضرورى ليس فقط استئجار حراس لمرافقتنا ليلا فى كل هذا الجزء من النهر ، بل أيضا أثناء رسو الذهبية مع الحذر الشديد من اقتراب اللصوص أثناء النهار • أما فى مصر العليا فالأمر يختلف ، حيث نجد المواطنين ذوى مظاهر حســـنة ، وطبائع طيبة ، ولطفاء ، ورحمـــاء •

وبالرغم من أنهم أذكياء ومهرة فى أعمال صناعة وبيع التحف الحديثة الا أنهم شرفاء فى المعاملة •

ونفس هذا المساء (كان عشية عيد ميلاد السيد المسيح) وصلت الى المنيا بقية أفراد مجموعتنا مبكرة عن موعد وصـــولها بحـــوالى ســـاعتين •



قارب لتسويق البضائع فى المنيـا

الفصـــل السادس

من المنيـــا الى أســـيوط

اليوم هو عيد ميلاد السيد المسيح ، وستحضر السيدتان م · و ب · لتناول الغداء · لقـد انهمك الطباخون فى اعداد الطبق الرئيسى ، وقام البحـــارة بذبح خروف احتفـــاء بالمناسبة · وبينما كان الضـــيوف يخرجون الأمتعة من الحقائب ، أخذنا نستقر تدريجيا فى أماكن الجلوس · أما الضيوف فهم أربعة أشخاص : رسام ، وزوجان سعيدان ، وشابة عذراء · وكان الرسام قد قام بالرحلة عبر النيل ثلاث مرات ، وهو يضيف رصيدا من الخبرة الى الحاضرين · انه يعرف كل شيء عن الضفاف الرملية والرياح وأماكن رسو المراكب ، وقد تعرف الى معظم الحكام المحليين والقناصل على طول نهر النيل · وهو خبير فى موضـــوع ما يصـــلح وما لا يصلح كطعام وشراب · لقد أعطيناه القمرة التى فى مؤخرة السفينة ليستخدمها كاستوديو ويضع فيها البراويز وقماش اللوحـــات وأوراق الرسم والحوامل الخشبية بما يكفى لانشاء مدرسة اقليمية للفنون · انه فى طريقه لرسم صـــورة ضـــخمة لأبى سنبل · أما الزوجـــان السعيدان فلا داعى للقول بأنهما يقضيان رحلة شهر العسل · والحقيقة هى أنه لم يمض شهر على زواجهما · أما العريس فهو الشخص الذى ينتخبه العالم للفوز بلقب العاطل · انه حاصل على منحة دراســية ، وصــحة مكتملة ، ووقت فراغ · أما العروس فسنطلق عليها لقب السيدة الصغيرة تسهيلا للحديث · ان الناس الذين يتصارعون فى خضم هذه المرحلة المرهقة من الحياة الانسانية يطلقون عليها اسم شهر العسل · وليس من الانصاف فى شيء أن نقول على اللذين يخوضان مثل هذه المرحلة أكثر من أنهما صغيران بما يكفى لأن يجعل الموقف مشوقا ·

وفى نفس الوقت يجب اخلاء سطح السفينة من الأثاث الجديد الذى وصل الى ظهر المركب · ومضى اليوم فى ارتباكة اخراج الأمتعة وترتيبها

ونقلها . ان مثل هذا الجرى من جانب الى جانب أسفل المركب ، ومثل هذا التفريغ للصـــناديق وتركيب الرفوف المؤقتة ، ومثل هذا الحديث والضحك والطرق بالمطرقة ، لا يدانيه الا النشاط الذى يجرى بالطابق السـفلى .

وكذلك كان تلحمى والجرسونات مشغولين بالطابق العلوى فى تزيين السطح العلوى بسعف النخيل . واحاطة المركب من جميع الجهات بصفوف من المصابيح الملونة . ويصعب على الانسان الاعتقاد بأن هذا هو يوم ميلاد السيد المسيح فاذا كانت النار فى الوطن (انجلترا) تلمع فى كل حجرة ، وحوش الكنيسة أبيض بفعل الثلج ، والأجراس المعتادة تدق بابتهاج عبر الهواء البـارد ، فان الوضع هنا مختلف حيث اننـا فى وسط النهار ، والحرارة شديدة على سطح المركب بدون المظلة . وعندما رسونا مع غروب الشمس بالقرب من قرية على جانب النهر فى وسط زراعات النخيل ، أحسسنا بالانتعاش الذى نتج عن هواء المساء الشديد البرودة .

وهناك طرافة حتى فى مثل هذا المكان العادى مثل تناول الغداء على النيل فى الهواء الطلق . وأنت تذهب وتعود فى الفلوكة كما لو كانت مركبة ، والمثلون الهزليون الذين سيرفهون عنك يستدعونك باطلاق الرصاص بدلا من دق الجونج . أما أصحاب الدار الذين يحترمون مشاعر طباخيهم فانهم يتجاوبون معهم باطـلاق الطلقات النارية ، لأن المناظر ستتبدل حالا بدون انذار نظرا لافتقادهم لساعة الكنيسة التى تضبط جلوسهم ، ومن الممكن دائما أن يظل المضيف والضيف جالسين بدون اندماج لمدة ساعة أو ساعتين . ولذلك أطلقت الطلقات المعتادة ، والتأم الشمل ، وجلسنا الى احدى الولائم البدوية المدهشة . ولم ينجح أى منا فى تصديق أن ذلك اليوم كان عيد ميلاد السيد المسيح حقيقة ، حتى ظهر فى المشهد طبق البودنج المصنوع من البرقوق وهو يلمع فى اغراء شـديد .

ولا يمكن أن يكون هناك شىء أكثر رقة أو اشراقا من العرض الذى كان فى انتظارنا عندما نهضنا عن المائدة . لقد أحاط بالقارب خمسون ومائة مصـباح ملون ، علقت ما بين طرفيه وفوق الصاريين ، وألقت بانعكاساتها المنكسرة على التيار المترقرق . وظهر السطح العلوى المزين بالرايات والمظلل بالمظلات مثل عريش من أشجار النخيل . وظهرت النجوم والهلال فوقنا . وكانت خطوط الأشجار المعتمة ، والامتداد الأرضى داخل

النهر ، والمنظور الغامض للنهر اللامع واضحة على البعـد · وفى نفس الوقت كان هناك ضوء يلمع بين الحين والآخر فى اتجاه القرية أو شريط قاتم اللون يهف بطول الضفة ·

وفى نفس الوقت كان هناك صوت حفل صاخب أثنـاء الليل لأن بحارتنا دعوا بحارة الباجستونز لتناول القهوة وتدخين التبغ ، وأقاموا حفلا كبيرا على السطح السفلى · كانوا يدقون الطبول ويغنون ويرقصون ويرتدون ملابس أنيقة ويرتجلون مشهدا كوميديا جعل مشاهديهم يزأرون بصوت عال · وكان الريس حسن يقوم بالتشريف ، بينما جلس جورج وتلحمى والبنات منفصلين على المنضدة الثانية وهم يحتسون قهوتهم على مثال ابناء الطبقة الراقية · ونظرنا اليهم وصفقنا بأيدينا · وانتهت حفلتنا الموسيقية باضاءة الأنوار مثلما يجرى فى العروض الخاصة بأعياد ميلاد السيد المسيح ·

وبالمناسبة ، فان الحفلات التى تقام فى مصر على أنغام الموسيقى والرقص والألعاب النارية تسمى فانتازيا ·

وأخذنا يوما بعد يوم نسرع بقدر ما نستطيع ، أحيانا بالابحار ، وأحيانا بسحب الذهبية ، وأحيانا بدفعها بالعصى الطويلة التى تصل الى قاع النهر · ولكن الأمور لا تمضى دائما كما يريدها الانســـان ، فغالبا ما كانت الريح تتوقف عندما نكون فى حاجة الى هبوبها،وتزيد شدتها عندما نريد أن نشاهد شيئا على الضفة ، وعلى ذلك فاننا بعد يوم كامل من السحب وصلنا الى بنى حسن فى اللحظة التى هبت فيها ريح طيبة وملأت أشرعتنا لأول مرة منذ يومين · وهكذا اضطررنا للمضى فى طريقنـا مع النظرات المشتاقة التى اتجهنا بها نحو مداخل الممرات التى تخترق الصخور وذلك بعد أن استسلمنا للنصائح التى أسفنا عليها فيما بعد · وعند الروضة التى تقع على نفس الطريق ، توقفنا لعدة دقائق لارسال البريد والسؤال عن الخطابات الواردة ، وأرجأنا لحين العودة زيارة دير النخل حيث يمكن مشاهدة النقش الشهير للتمثال الضـخم الذى على مركبـة الجليد · ولكن يبدو أنه قد كتب علينا ألا نشاهد المناظر المؤجلة وهو الأمر الذى سرعان ما اكتشفناه فزاد من احساسنا بالخسارة والندم ·

وفى نفس الوقت ظلت السماء صافية ، وساعات النهار دافئة ، والأمسيات رائعة · وقضينا أوقاتا طويلة فى الهواء الطلق · وعندما

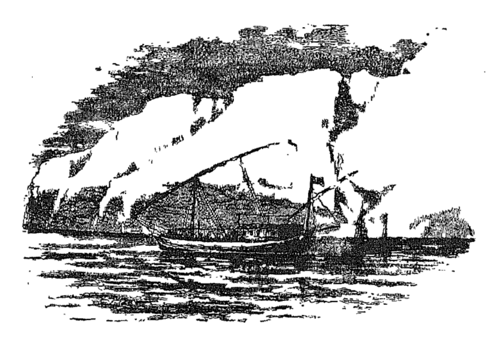
تتوقف الريح فاننا ننزل الى الارض ونقوم بنزهات طويلة على ضفة النهر. أما أثناء وجودنا على سطح الذهبية فاننا نرسم صورا تخطيطية ، ونكتب الخطابات ، ونقرأ لشامبليون وبانسين وسير جاردنر ويلكنسون ، ونعمل بجد في دراســـة الأسرات المصرية • وبينما كانت العصـــافير الدورية وأبو فصادة تجثم على المظلات وتقفز حول سطح السفينة ، كانت الديوك والدجاجات تشقشق ، والأوز يوقوق ، والديوك الرومية تصيح في أقفاصها القريبة • أما الخروف الذى سنضحى به والذى يعيش وحيدا فى الفلوكة ، فقد كان يثغـو فى المؤخرة • وفى بعض الأحيـان كان لدينـــا حوالى مائة دجاجة على سطح المركب (ولن نتحدث عن الحمام والأرانب) مع الاحتفاظ بخروفين أو ثلاثة فى الفلوكة • وكان هناك سور حول حوش الطيور الداجنة عند الطرف البعيد فى مؤخرة السفينة ، وبذلك تكون هذه المخلوقات بعيدة عن غرفة الاستقبال • وعندما كنا نرسو فى مكان مناسب، كانت تنطلق هذه الطيور عدة ساعات وتنقر حول الضـــفاف وتتمتع بحريتها ، أما صديقتى (ل) والسيدة الصغيرة فكانتا تطعمان هذه الطيور السمينة بقطع صغيرة من الافطار كل صباح • وكان عامل الدفة الذى اتخذ منها تسلية حقيقية لا يستطيع أن يتخيل أى سبب آخر يدفعنا الى اطعام هذه الطيور فيما عدا أننا نسمنها لكى نذبحها ونتناولها على مائدة الطعـــام •

ان هذه الحيـــاة التى نحياها على مثال حياة نوح فى الفلك تتميز بأنها سعيدة وآمنـــة وعائليـــة • وحتى الأيام التى لانشاهد فيها سوى القليل ولا نعمل شيئا بالمرة ، لم تكن أياما مقبضة • أما الوقائع التافهة التى تحمل لنا اثارة الجديد فقد كانت دائمـة الحدوث • أما الذهبيات الأخرى بأعلامها وسكانها فكانت مصدرا ثابتا للاهتمام • أما اللقـــاء فى أماكن الرسو خلال الليل فقد أتاح لنا تبادل الزيارات • وأثنــــاء مرور بعضنا على البعض الآخر خلال النهار ، كنا نخفض الأعلام ، ونطلق الرصاص للتحية ، ونراعى آداب السلوك فى البحر بدقة • وكانت بعض بواخـــر توماس كوك السياحية تسرع بجانبنا وهى مزدحمة بالســـياح • أو تمر بجوارنا احدى سفن السحب الحكومية وهى تجر ثلاثة أو أربعة صنادل ضخمة محملة بالفلاحين نصف العراة ذوى السحنات البائسة ، وقد جرى تجميعهم لأعمـــال الســـخرة فى انشاء خط جديد للسكة الحديد أو حفر قناة • وقد يتصادف مرورنا باحدى الذهبيات التى انغرزت فى ضـــفة رملية • وأحيانا كان يحـدث ذلك لذهبيتنا نحن أيضـــا فكان الرجال يهرعون الى عصيهم الطويلة أو يقفزون فى النهر وهم يتأوهون فى نبرات منقبضـــة ، لكى يدفعوا المركب بمناكبهم حتى تعـــوم مـــرة أخـــرى •

وكانت هناك طيور جديدة نراها لأول مرة وكنا نبحث عنها دائما . وربما رأينا بجعة ثقيلة الرأس تحاول موازنة منقارها الضخم على حـــافة مجرى النهر وتصيد السمك من أجل غذائها . أو نشاهد أوزة برية وهى تطير عبر السماء فى اتجاه مغرب الشمس ، أو سربا من النســـور تجثم جميعها فى صف واحد على حافة احدى الصخور فى شبه وقار الأساقفة الجالسين على المنصة . وهناك أيضا طيـــور مالك الحزين التى تقف على ساق واحدة وتحملق فى الشمس ، وطيور الهدهد المختـــالة بتيجـان رؤوسها التى حيكت حولها الأساطير الخرافية . وكانت آكلات النحـــل الزرقاء والخضراء تحوم فوق خلايا العسل الخام . كما كانت طيـــور الرفراف التى تصيد الأسماك من المياه العذبة بألوانها السوداء والبيضاء مثل الغربان تجلس بلا خوف على الضفة ولا تحرك ساكنا بالرغم من مرور المراجيح المربوطة بالحبلين فوق رؤوسها ، ومرور الذهبية على بعد أقدام قليلة من الضفة . أما الطيور التى تحفل بها حقول الأرز فقد كانت المئات منها ، بألوانها البيضاء ، تملأ الضفاف الرملية ثم ترتفع طائرة كالسحابة الضـــخمة عند اقترابنا منها . أما الصـــقر المقـــدس فكان يحوم فوق الرؤوس ويصيح نفس الصيحة الحلوة ويلقى بنظرته الثـــاقبة وصرخته الحزينة التى أنصت اليها الفراعنة منذ القدم .

وتمتد هذه المناظر مع الجزء الأكبر من مجرى النيل . وكنا نرى نفس الأشياء مرات عديدة على مدى أميال عديدة . وكان مستوى الضفة ينحدر بشدة نحو النهر ، وشريط الأرض المزروعة يتخذ لون عيدان الذرة الخضراء أو الذرة الصفراء . وتتوالى القرى الطينية وزراعات النخيل ، ومصنع السكر المهجور بمدخنته غير الرشيقة ونوافذه المهشمة . والساقية التى تدور بطيئة وهى تحمل عقد الجرار التى تنقل الماء ، والشادوف الذى يقوم على تشغيله اثنان من العمال الأقوياء ذوى اللون البنى . وطابور الابل المحملة بالأحمال ، والصحراء ، وكل التلال والسهول الرملية مع الجبال التى تشكل الخلفية ، والسهل المنبسط المستطيل والشراع التى تلمح امامنا .

وفى بعض الأحيان كنا نسير بحذاء تلال القراميد القديمة لمدينة غير معروفة مع بعض أطلال مبان كانت عليها عقود ، وأيضا حوائط ومداخل تصل الى حافة الماء . أو نبحر بجوار سلاسل صخور عمودية ضخمة مثل تلك التى عند جبل أبو فايدة . وكانت طيور الماء تجفل تاركة مرابضها . وتحملق فى الحنيات المظلمة للمقابر العديدة المحفورة فى الصخر فوق المستوى الذى يصل اليه الفيضان .



جبل أبو فايدة

ويتمتع جبل (أبو فايدة) هـذا بسمعة سيئة فيما يتعلق بالرياح الفجائية خاصـة عند بداية السلسلة ونهايتها حيث ينحنى النيل بحدة . وينفتح الوادى على النهـر بزوايا قائمـة . ومن المنـاظر التى تستحق المشاهدة أن ننظر الى الريس حسن ونحن نقترب من احدى هذه الزوايا الرديئة وهى نقطة ينقسم عندها اثنان من الوديان بسبب امتـداد رأس بحرى من الأرض يتحكم فى الممر المائى فيقسمه كما لو كان زوجـا من المدافع القـديمة الرهيبـة ، ويشقه مع صفير الرياح القـادمة من شمال الصحراء الشرقية . والتيار الذى يفيض هنا بعمق وشـدة يتقابل مع الرياح ويرتفع فى شكل أمواج عالية . مما جعـل القبطان يخلع حذاءه ويقفز لينشر الشراع ثم يقف يراقبها صامتا . ويستعد البحارة لزحزحة شراعنا الرئيسى عند صدور الأمر ، وقد تشبث بعضهم بالحبـل الذى يربط الشراع بينما وقف البعض الآخر فى نهاية العارضـة الأفقية . أما الباقون فقد اندفعوا أمام الرياح وظهر المنحدر العظيم أكثر ظـلاما وأشد قربا . ثم حانت لحظة كتم الأنفاس عندما صدر أمر فجائى حاد من الرجل الضئيل الحجم الذى يمسك بالحبل الرئيسى ، فصـاح البحارة وأمسـكوا بالأطواق وأمالوا الشراع المرفرف وأداروا السـفينة حـول الركن بسـلام .

ان الصخور هنا جيدة النوع ، وأكثر ارتفاعا ، وأقل اتساقا من تلك التى فى جبل الطير ، وتتخذ أشكالا غريبة مثل أشكال الكباش وأقراص

الجبن والأبراج والأكتاف الناتئة من الحصون ، وأقراص الشمع التى فى خلايا النحل مع سلاسل طويلة من القبور المنحوتة فى الصخر ، والمناجم التى تعلوها الكهوف المنحوتة بفعل التيارات المائية والتى يربض فيها بعض التماسيح الساكنة ، على عكس الصخور الموجودة فى جبـــل الطير التى تفتت الى شبه قطع أشغال الأرابيسك ، وتظهر هنـــا كمـا لو كانت قد نقشت كلها بكتابات سرية تعود الى عصور ما قبل التاريخ ، وسجلات عن انجازات نهر النيل حفرها اله النيـــل العظيم بنفســـه ــ منذ العصور القديمة ــ ولكن اللغة التى كتبت بها لم يتحدث بها انسان ٠

أما عن المقابر المحفورة فى الصخر عند جبل (أبو فايدة) فانها تعد بالمئات ٠ وهناك على بعد اثنى عشر ميلا تقع هذه السلسلة موازية للنهر ٠ ويبرز سطح الصخور طوال هذه المسافة مرصعا بالمداخل التى لا تحصى ٠ بعضها صغير ومربع ٠ وكل عشرين أو ثلاثين منها متجمعة مع بعضـــها البعض مثل بعض نوافذ السفن ، بينما يقع البعض الآخـــر منعزلا ٠ وبعضها منحوت بطريقة تجعل الاقتراب منها يحدث من أعلى ٠ والبعض الآخر يمضى قريبا من مستوى النهر ٠ وبعض المداخل متقابلة مما يجعلها تمثل احدى العارضتين الرأسيتين لأحد الأبواب أو الاطار الخشبى المحيط بالباب أو النافذة ٠ وبعضها يتخذ وضعا عرضيا يجعلها تظهر كما لو كانت تتكون من سلسلة من الحجرات التى تضيئها بعض النوافذ الصـــغيرة المحفورة فى الصخر ٠ ويمكن للانسان أن يصل اليها عن طريق سلم مكون من الدرجات الخشنة القادمة من عند حافة الماء ٠ والبعض الآخر منحوت فى أعلى مقدمة الصخرة أمام مدخل كهف صغير على شكل واجهة بسيطة ولكنها مهيبة ، ومحمولة على أربعة أعمدة منفصلة ٠ ويبدو أن أحـدا من الرحالة المحدثين لم يقم بزيارة هذه المقابر ، بينما الرحالة الذين ينتمون لمدرسة القديمة من أمثال ويلكنسون وشامبليون٠٠الخ تجاهلوها الا من بعض الاشارات القليلة ٠ وأعتقد أنه فيما عدا الجبـــال التى تقع خلف طيبـــة ، لا توجد أية بقعة فى مصر تحتوى على مثل هذا الخليط من حفائر المقابر ٠ ويظهر العديد منها كما لو كان ينتمى الى نفس الحقبـــة المبكرة والمثيرة التى تنتمى اليها مقابر بنى حسن ٠

ولقد لاحظت على مسافة تقترب من منتصف الطريق أو أقل من ذلك بطول السلسلة عمودين كبيرين عليهما نقوش هيروغليفية ، يقفان على قمة كتلة بارزة من صخرة مستديرة ربما على ارتفاع يعادل خمسين ومائة قدم فوق مستوى سطح النهر ٠ ويبدو أن هذين العمودين ليسا الا شاهدى مقابر ملكية تم نقشهما جنبا الى جنب كما جرت العادة ٠ ويتراوح ارتفاعهما

ما بين اثنى عشر الى خمسة عشر قدما ٠ ولكن بالنظر الى عدم وجود آشياء قريبة يمكن مقارنتها بها ، فاننى أخمن أبعادهما الحقيقية بشكل تقريبى ٠ وهنا أخذت المركب تسرع بحيث أصبح من المستحيل عمل أية رسوم تخطيطية أو تدوين أية ملحوظات عن النقوش الهيروغليفية ٠ وكنا قد تجاوزناهما قبل أن أضبط منظارى ، ثم اختفيا تماما عندما ناديت بقية المرافقين ٠

وعند عودتنا بعد عدة شهور بحثت عنهما مرة أخرى بدون جدوى لأن شمس منتصف النهار الشديدة كانت تصب لهيبها على الصخور حتى طمست تماما كل شيء حتى التفاصيل الضحلة ٠ وعندما كنت أبحث عن العمودين بلا أمل ، نلت العوض عن ذلك برؤية نقوش بارزة ضخمة على الوجه الشمالى من صخرة تقف طوليا عند ركن احدى الحنيات التى تقطع انتظام السلسلة هنا وهناك ٠ وكان بروز هذه النقوش منخفضا ، ولكن بالنظر الى الزاوية التى تستقبل بها الضوء كان الشكل الواحد الذى لا يقل ارتفاعه عن ثمانية عشر أو عشرين قدما واضحا تماما ٠ وسرعان ما وجهت انتباه السيدة (ل) الى الموقع ، ولكنها لم تميز الشكل دون أن تستعين بالمنظار فقط ، بل انها اعتقدت مثلى أنها تستطيع رؤية آثار أخرى ٠

وحيث ان العمودين أو النقش البارز لم يلحظها غيرنا من الرحالة السابقين ، فاننى أضيف الى معرفة الآخرين أن الصخرة المستديرة التى تشبه البرج والتى نقشت عليها النقوش ، تقع على مسافة تقرب من الميل فى الاتجاه الجنوبى من قبر الشيخ واحدى النخلات ٠ (وهى قطعة رائعة المنظر لايمكن لأحد أن يتجاهل رؤيتها) وهى تقع خلف بعض الحفائر قريبا من حافة الماء ، بينما توجد النقوش على مسافة قصيرة أسفل الدير القبطى والجبانة ٠ وبعد أن سرنا بمحاذاة طرف قاعدة جبل (أبو فايدة) بحوالى اثنى عشر ميلا تقريبا شاهدنا أروع امتداد لمنظر الصخرة على هذا الجانب من الشلال الثانى حيث يتخذ النيل انحناءة حادة فى اتجاه الشرق ومن ثم يفيض بين عدة أميال من الرقعة الزراعية ٠ ومع الوصول الى هذه الحنية الفجائية فان الرياح التى كانت تحملنا بطول شريط منخفض قليلا بالنسبة لما تحتاجه المركب ، هذه الرياح الآن تخبطنا على كمرة السفينة وتسوقها نحو الشاطىء بقوة بحيث انحصر كل الجهد الذى بذله عامل الدفة فى توجيه مقدمة فيلة نحو الضفة وتحاشى حوالى عشر أو اثنتى عشرة مركبا محليا كانت قد اندفعت قبلنا ، واندفعت الذهبية باجستونز بعدنا مباشرة ٠ وسرعان ما رأينا ذهبية مصنوعة من الحديد

قادمة بقوة تحت الصخور وشراعها منتشر بكامله ، رأيناها وهى تصارع فى الركن الخطر ثم تنغرز مقدمتها فى الضفة مثل سفينة الملك أجيب على جبل المغناطيس ٠

ولما وجدنا أنفسنا مسجونين هنا طوال فترة بعد الظهر ، تبادلنا زيارات المواساة مع جيراننا الذين صادفهم سوء الحظ ، وقد تعبت آذاننا من الرمال السافية ، وفشلنا فى مسعانا للقيام بالتنزه على الضفه ٠ ومع استمرار غضب العاصفة أخذت الرياح تعوى ، بينما تسابقت أمواج النيل فى الاندفاع ، وانتشرت الرمال كالسحاب ، وأظلم وجه السماء كما لو كنا داخلين فى ضباب لندن ٠ وفى نفس الوقت أخذت المراكب واحدا بعد الآخر ترتمى بشدة على الضفة ، وقبل هبوط الظلام وصل عددنا الى أسطول مكون من حوالى عشرين سفينة محلية وأجنبية ٠

وفى اليوم التالى استدعى الأمر توحيد جهود جميع البحارة لسحب فيلة وباجستونز عبر النهر بالحبل والهلب ، وهى وسيلة تستحق التنويه ، لا لحداثتها أو براعتها ولكن لأن رجالنا قالوا انها غير قابلة للتنفيذ ، وقالوا ان آباءهم لم يستخدموها ، وكذلك أجدادهم أيضا . ولذلك اعتبروها مستحيلة ٠ واذا كانت مستحيلة فلماذا يتعبون أنفسهم بمحاولة تنفيذها ؟

ولكنهم حاولوا تنفيذها ونجحوا فى ذلك مما أصابهم بالدهشة ٠

وعند اقتراب ظهر ذلك اليوم الثانى وأثناء السير على ضفة النهر تعرفنا لأول مرة بهذه الحشرة المشهورة ألا وهى حشرة الجعل المصرية ، كانت عينة رائعة من هذه النوعية ٠ سوداء اللون ويبلغ طولها حوالى نصف البوصة ٠ ويضرب لونها الى السواد واللمعان مثل الجعل المصنوع من حجر الفحم الذى تصنع منه المجوهرات الصناعية ٠ وكانت هذه الحشرة مشغولة فى اعداد قرص ضخم من الطين سرعان ما بدأت فى تحريكه فوق الضفة بمشقة شديدة ٠ ووقفنا نشاهدها بعض الوقت ، نصف معجبين ، ونصف مشفقين ٠ لقد كان حجم القرص الذى صنعته يبلغ أربعة أضعاف حجمها ، كما أن تحريكه للصعود به مع هذا الميل الشديد الى نقطة أعلى من فيضان الصيف القادم ، كان عملا يتطلب مجهود هرقل الجبار وليس مجهود هذه الحشرة الضئيلة ٠ وقد أردت القيام بدور الونش فأحمله عنها الى أعلى الضفة ، ولكن ذلك كان حلا فوق مستوى فهمها ٠

ونعرف جميعا القصة القديمة التى تدور حول كيفية وضع هذه الحشرة للبيض على حافة النهر وتغليفه داخل كرة من الصلصال الرطب ،

ثم دحرجة الكرة الى مكان آمن على حافة الصحراء ، تم دفنها فى الرمل · وعندما يحين أجلها تموت راضية لأنها أمنت سلامة سلالتها · ومن هنا جاءت شهرتها الأسطورية ، وكل الرمزية التى ارتبطت بهذا المخلوق الضئيل وانتهت باحاطته بقدسية خاصة تطورت الى عبادة فعلية · أما وقد وقفنا هنا نشاهد تحركات هذا المخلوق ، وطاقته التى لا تكل ، وقوته العضلية غير العادية ، وعمله الذى يصل الى درجة تكريس الذات للموضوع الذى بين يديه ، فاننا نستطيع أن نرى كيف أعطى هذا المخلوق درسا دقيقا يستحق تأمل المتخصصين فى تعليم الأخلاقيات للمصرى القديم · وكيف كان الجمع بين الحكمة والشعر سببا فى اعتبارهم لهذا الجعل الأسود الصغير ليس فقط رمزا للقوة الخلاقة والحافظة بل ربما أيضا لخلود الروح ، وبذلك فان هذا النوع من الحشرات قد نال تعظيما لم ينله غيره من الأنواع · لقد أصبح رمزا مبهما ، وصار كلمة معبرة عن الكينونة والتحول · لقد رسمت صور هذه الحشرة ملايين المرات ونقشت على أبواب المعابد مثبتة على أكتاف الاله · وحفرت على المجوهرات ، ووضعت كختم على الفخار ، ورسمت على النواويس وحوائط المعابد · ولبسها الأحياء ضمن عقودهم ، ودفنت مع الأموات · وقد اعتاد كل رحالة على النيل أن يحضر معه حفنة من حشرات الجعل الحجرية الصغيرة حقيقية أو غير حقيقية · والبعض لايهتم بامتلاكها ، ولكن لا أحد يتمالك نفسه عن شرائها ، اما لمجرد تقليد غيره ، أو للتخلص من تاجر مشاكس لحوح ، أو لاهدائها الى الأصدقاء فى الوطن · ومع ذلك فانى أشك فيما اذا كان أشد هواة الجعل تحمسا يؤمن بالقوة الرمزية التى تشده الى تلك الجواهر الصغيرة أو يقدر التلقائية الشديدة فى مهارتها حتى يشاهد الجعل الحى أثناء انهماكه فى عمله ·

وفى النوبة حيث تتكون الرقعة الزراعية من مجرد شريط عرضه عدة أقدام ــ فان عمل الجعل خفيف نسبيا وتتضاعف سلالته فى حرية · أما فى مصر فهناك سهل واسع يضطر لعبوره مثقلا بحمله ، ولذلك فان حصته نادرة بسبب الصعوبة التى يواجه بها معركة البقاء · ويبدو أن عدد حشرات الجعل فى مصر يتضاءل بقدر ملحوظ منذ أيام الفراعنة ولن يكون وقت انقراض حشرة الجعل الحقيقية بعيدا وحينذاك يجرى البحث عن عينات منها على هذا الجانب من الشلال الأول دون جدوى · وحسب خبرتى أستطيع القول اننى رأيت عشرات من هذه الحشرة خلال الجزء من الرحلة الذى قضيته فى النوبة · أما أفضل ما فى تذكاراتى هذه فهو المصادفة التى رأيت فيها جعلا حقيقيا فى مصر ·

ويمضى النيل خلال أربع أو خمس انحناءات كبيرة أخرى بين جبل

(أبو فايدة) وأسيوط ، مرورا بمنفلوط وهى مدينة تقع على مسافة قليلة خلف الضفة · وقد تحسبنا لكافة الاحتمالات - الريح المواتية التى كانت تأتى وتذهب باستمرار ، الانحناء المتعرج للنهر ، الهدوء القاتل الذى حدث ونحن على بعد ثمانية أميال فقط من أسيوط ، واليوم الطويل التالى له الذى قضيناه فى سحب المركب حتى حسبنا أنفسنا محظوظين لوصولنا مساء اليوم الثالث بعد العاصفة · أما تلك الأميال الثمانية الأخيرة فقد كانت أحلى ما صادفناه فى طريقنا شمال طيبة ، بسبب جمالها الهادىء المتحرر · والوادى هنا شديد الاتساع وخصيب ، وتظهر المدينة بمآذنها العديدة لأول وهلة على جانب واحد ، ثم نجد امتدادا لها على الجانب الآخر حسب انحناءات النهر · أما الجبال الوردية البعيدة فتبدو شفافة مثل الهواء أو سطوع الشمس ، بينما تنفرج الضفتان عن سلسلة لانهائية من الموضوعات الصغيرة البهيجة التى يبدو كل منها وكأنه يسألنا أن نتوقف لكى نرسمه أثناء عبورنا · هناك شادوف ومزرعة للنخيل ، وثلاث جاموسات سوداء ذات شعر أشعث · وعند أكتاف النهر ترتفع أشجار الجميز وهى تكاد تنام وهى واقفة ويغط فى النوم تحت ظلها رجل وجمل ·



المقابر التى على ضفة النهر بالقرب من أسيوط

وتأتى نخلة ساقطة اقتلعها الفيضان الأخير ولكنها مازالت ملتصقة بالضفة عن طريق جذرها المتشعب وهامتها التى فى الماء · وامتدت مجموعة من قبور المشايخ بقبابها البيضاء المتألقة بخلفية من الأشجار الداكنة الخضرة · وهناك أيضا ساقية قديمة بطل استعمالها ، ترقد على جانب

الضفة مثـل خذروف (*) ضخم ذى أربعـة وجوه · وقد تكللت بفروع يقطينة (**) برية متسلقة · وهناك القليل من الأشياء التى صادفناها فى الطريق ولكن ليس فيها جديد · وعلى كل حال فقد وجدنا الأشياء القديمة قد اتخذت معالم جديدة · أما ارتباط مثل هذا الضوء الأثيرى والظل مع مثل هذه الرقة البراقة ، فقـد جعلها تبدو مثل السراب الذى يظهر فى الهواء أكثر منها قطعة من العالم الذى نعيش فيه ·

وتبدو مثل السراب أيضا هذه المدينة الخرافية التى تدعى أسيوط فهى تظهر دائما كما لو كانت تحلق على نفس المسافة البعيدة التى لايمكن الوصول اليها · وبعد ساعات من سحب السفينة بالحبال لم تظهر المدينة أقرب مما كانت من قبل ·

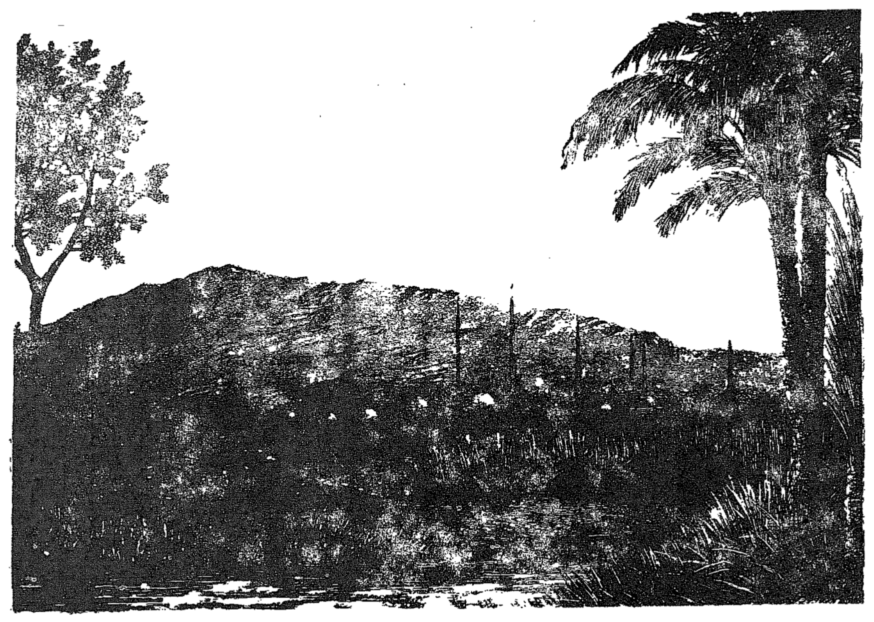
والحقيقة أننا كنا أحيانا ونحن نتبع الأطراف الطويلة للنهر ، نظن أننا قد تركناها خلفنا ، ورغم أننا كما سبق أن قلت ، كنا نتوقع ثمانية أميال من العمل الشاق حتى نصل الى أسيوط ، الا أننى أشك فى أنها كانت تتجاوز ثلاثة أميال وهى مسافة قدرنا بعدها حسب طيران الطيور · وفى نهاية فترة بعد الظهر درنا حول الركن الأخير · وكانت الشمس تتجه نحو المغيب عندما وصلت المركب الى قرية الحمراء ، وهى مكان رسو السفن عند أسيوط · أما أسيوط نفسها بقبابها المتعانقة ومآذنها الرفيعة فانها تقع فى السهل الى الوراء عند قاعدة جبل عظيم تتغلغل المقابر فى سفحه ·

وكنا قد قررنا السماح لبحارتنا بتجهيز خبز فى أسيوط واسنا وأسوان خلال أربعة وعشرين ساعة · فما أن أرسينا الذهبية حتى أسرع الريس حسن وعامل الدفة الى ركوب حمارين لشراء الدقيق بينما اندفع محمد على وهو من أنشط وأذكى البحارة لاستئجار الفرن · لأنه يوجد هنا كما فى اسنا وأسوان مخازن ضخمة للدقيق ، ومخابز عامة لاستخدام البحارة العاملين على النهر ، وذلك لعجن الدقيق وخبزه بكميات كبيرة ، وتقطيعه الى شرائح وتجفيفه فى الشمس ، ثم حفظه محمصا لعدة شهور · ولذلك فهو بعد اعداده يحل محل البسكويت الذى يستخدم على السفن ويتفوق على البسكويت من حيث انه لا يتفتت ولا يصيبه العفن ، والكنه يظل جيدا وصحيا حتى آخر كسرة ·

وأسيوط هى عاصمة مصر الوسطى ، وبها أحسن المتاجر التى يمكن أن تتوفر فى أية مدينة على النيل ، ويشتهر فخارها الأحمر والأسود فى

(★) الخذروف : الحيوان اذا استدارت قوائمه ـ (المترجم) ·

(★★) اليقطين : ما لا ساق له من النبات ، كالقثاء والبطيخ ، ويغلب اطلاقه على القرع ـ (المترجم) ·



مدينة أسيوط

كل أرجاء القطر المصرى • أما رؤوس الغليون التى تصنع فيها (المفروض أنها من أفضل النوعيات التى تصنع فى الشرق) والتى يتم تصديرها الى القاهرة بكميات كبيرة ، فانها تأخذ طريقها ليس فقط الى كافة مناطق البحر المتوسط ولكن الى كل محل جزائرى ويابانى فى لندن وباريس • ولا يستطيع أى عاشق للفخار الفلاحى أن ينسى الكشك المصرى الذى اقيم بقاعه عرض السيراميك فى المعرض الدولى سنة ١٨٧١ • ان كل هذه الزهريات الحمراء الجذابة والقدور السوداء اللامعة ، وكل هذه الفناجين الصغيرة الرائعة ، وثقالات الورق التى تشبه التمساح ، وهذه القوارير التى على شكل البرميل أو الطير ، جاءت جميعها من أسيوط • ويوجد بالمدينة هنا شارع بكامله لمنتجات الفخار • ونادرا ما تكتسب الذهبية سرعتها قبل أن يصعد أحد التجار الى سطحها ويصف آنية سهلة الكسر بطول الطابق العلوى • وهناك تجار آخرون يعرضون بضاعتهم على الضفة • ولكن أفضل المنتجات توجد فى المتاجر • وحتى فى القاهرة لا تستطيع أن تجد المنتج الأسيوطى الذى يتيح لك الاختيار من جهة اللون والتكوين والتصميم مثل تلك التى يخرجها التجار ويلفونها فى الورق الناعم عندما يظهر العميل الأوربى فى السوق •

وهناك شوارع أخرى بجانب شارع الفخار منها شارع للأحذية الحمراء وآخر للخامات المحلية والأجنبية ، والمحلات المعتادة لبيع السروج ، وأكشاك الكباب ، والمحلات اليونانية لبيع كافة البضائع الموجودة على الأرض ابتداء من كونياك الدرجة الثالثة حتى الكبريت المصنوع من الشمع • والمنازل مبنية من الطين المغطى بالجبس أو الطوب الأحمر كما هو الحال فى المنيا • أما الشوارع فانها متربة وضيقة وغير مرصوفة ومزدحمة كما هو الحال فى المنيا • كذلك فان عيون الأطفال محاطة بالذباب ، ورؤوسهم مغطاة بالالتهابات كما هو الحال فى المنيا • وباختصار فان المنيا تتكرر هنا ولكن على نطاق واسع مع الاختلاف فى نوعية السكان الذين ليس بينهم لصوص أو عدوانيون ، ولكنهم ودودون وطيبون • وتجد بينهم المتسولين الذين يتفوقون على نظرائهم من الأيرلنديين فى خاصية الالحاح • وهكذا تحول السراب الذى توقعناه الى حقيقة • أما أسيوط التى تظهر على البعد مثل عاصمة مدينة الأحلام فقد أظهرت نفسها فى شكل مدينة كبيرة مجنونة قبيحة الشكل وعادية جدا مثل سكانها • وحتى المآذن التى كانت تبدو رشيقة من على البعد خدعتنا فى معظمها فاذا هى عند النظر اليها من قريب ليست الا بنايات من الأحجار الخشنة ذات الزخرفة المقبضة • وهناك طريق مرتفع محصور بين صفين من أشجار الجميز يصل من الحمراء الى أسيوط ، وطريق آخر يصل

من أسيوط الى الجبل الذى به المقابر · أما عن المدينة الفرعونية القديمة فلم يتبق منها أية آثار ، أما المدينة الحديثة فقد أنشئت على التلال التى استقر عليها الناس من قبل · أما مدينة الموتى التى حفرت فى الصخر الصلد فما زال معظمها موجودا لتخليد عظمة هذا المكان التى ولت مع الزمان ·

وفى اليوم الثانى ركبنا الحمير الى حافة الصحراء ومضينا على أقدامنا الى المقابر فاذا بالجبل الذى يبدو رقيقا وردى اللون مثل السلمون من على البعد ، يظهر الآن باهتا وقاحلا وملونا باللون الأصفر المائل للسواد · وهو مكون من طبقات فوق بعضها فى أحواض شديدة الوضوح · ويرتفع فى شكل برج مدرج طبقة فوق طبقة · أما المقابر فكانت مفتحة الأبواب بطول حافة الجرف · والتقطت شظية من الصخر فوجدتها خفيفة ومسامية ومليئة بالثقوب الصغيرة مثل الأسد الأمريكى · وكانت الأحجار مبعثرة على المنحدرات ومعها شظيات من المومياوات ، وقطع من الأكفان وعظام بشرية ، وجميعها بيضاء وباهتة اللون بفعل الشمس ·

وكانت أول مقبرة وصلنا اليها تسمى اسطبل عنتر (*) ، وهو من الحفائر العظيمة ولكنه مشوه جدا ، وهو يتكون من مدخل كبير وممر مسقوف ، وقاعة ضـــخمة على كل جانب من جانبيهـــا غرفة وهيكل · أما سقف الممر الذى تحول الى اللون الأسود بسبب الدخان ، مع التشويه الشـــديد ، فقد كان مزخرفا بأشكال معقدة باللون الأخضر الفاتح ، والأبيض ، والأصفر الداكن ، على أرضية من أشغال الجص باللون الأخضر الغـــامق ، والحائط على يمين الداخل مغطى بنقش هيروغليفى طويل · أما فى الهيكل فتوجد آثار باهتة لأشخاص جالسين من ذكور واناث وفى أيديهم زهور اللوتس · وهناك تمثالان كبيران لاثنين من المحاربين محفورين على الهامش فوق الصخرة المسطحة · أحدهما كامل الصنع ، أما الآخر فمن الصعب التعرف عليه · والتمثالان يقفان على جانبى البوابة الضخمة · وهناك ثقب دائرى فى الطرف الذى يحدد البقعة التى كان الباب يدور فيها على محوره يوما ما وحفرة عميقة امتلأت حاليا بالمخلفات ، تمتد من وسط القاعة الى عقد مستطيل داخل فى عمق قلب الجبل ، وهناك دمار شديد واقع على كلا الجانبين · أما النقوش الحائطية فهى مهشمة ومشوهة · أما الأعمدة الضخمة التى حملت الصخرة الرئيسية يوما ما فقد اقتلعت

(*) معبد اسطبل عنتر (سبيوس ارتميدوس) الذى اقامته الملكة حتشبسوت ـ (المراجع) ·

من مكانها • أما المدخل فمسدود بأكوام الأنقاض ، وقد بقي من هذه الانقاض ما يكفي للشهادة على فخامة المقبرة الأثرية • ويبقى النقش الهيروغليفي سليما لكي يحكي لنا عمر المقبرة وتاريخها •

وهذا النقش (أدخل في دليل موراى خطأ بوصفه غير مدون ، ولكن شرحه العالم بروجش الذى نشر مقتطفات منه تعود الى سنة ١٨٦٢) يبين أن هذه المقبرة قد أقيمت من أجل من دعى باسم هيبوكيفا أو هابتيفا حاكم اقليم ليكوبوليس وهو كبير كهنة الاله أنوبيس (ابن آوى) معبود مدينة أسيوط (١) • وهى مشهورة أيضا بين طلاب الدراسات العلمية بسبب ممرات معينة تتضمن معلومات مهمة تختص بحساب الأيام التى تضاف الى التقويم المصرى (٢) • وقد لاحظنا أن كل العلامات التى على العارضة الرأسية للمدخل تبدو مشوهة وقد سدت بالجص ثم جرى تلوينها • وقد سقط الجص فى معظم أجزائها بالرغم من أنه قد بقى منه ما يكفى لبيان طراز هذا العمل (٣) •

وقد زحفنا من هذه المقبرة الى المقبرة التالية عن طريق ممر محفور فى الجبل ، ويبرز فى مغارة فسيحة ذات أربعة أضلاع أكثر تداعيا من الأولى • وقد حملت المقبرة على أعمدة مربعة مقامة فى جسم الصخرة ، ولكنها مثل الأعمدة النازلة فى التكوينات الجيولوجية ، أما الباقى وهو حفرتان نصف مملوءتين ، وناووس مكسور ، وبعض الرموز الهيروغليفية المرسومة على حائط الجص فهى جميعها باقية •

وكنت أحب أن أرى المقصورة التى فك منها أمبير تلميذ شامبليون الألمعى والمتحمس رموز الاسم القديم لمدينة أسيوط ، ولكن نظرا لأنه لم يحدد الخرطوش الذى استطاع الفك عن طريقه ، أصبح من اللازم التجول فى الجبل لمدة أسبوع دون أن نتمكن من العثور عليه •

---

(١) ان النقوش المعروفة فى مقبرة هابتيفا قد نسخت مؤخرا كما نسخ نص آخر طويل لم يسبق نسخه وتمت ترجمته بمعرفة مستر ف• لويلين جريفيث F. Llewellyn Griffith ممثل صندوق استكشاف مصر E. E. F. • وقد حدد مستر جريفيث للمرة الأولى تاريخ هذه المقبرة المشهورة التى اقيمت فى عصر اوسر تيسين الأول من الأسرة الثانية عشرة •

(٢) انظر Recueil de Monuments Egyptiens للعالم Brugsch الجزء الأول الفصل الحادى عشر — مطبوع سنة ١٨٦٢ •

(٣) يمكن مشاهدة بعض المقابر القديمة الشهيرة مزخرفة بنفس هذا النوع من التطعيم، فى ميدوم عند قاعدة هرم ميدوم •

وقد قال عندما وصف اسطبل عنتر لأول مرة : « وفى الكهف وجدت الخرطوش منقوشا مرتين حول اسم المدينة المدون بالحروف الهيروغليفيه (أسيوط) ويشكل هذا الاسم جزءا من نقش يحتوى على خرطوش ملكى قديم وبذلك عرف أن الاسم الحالى للمدينة يعود الى أيام الفراعنة (كتاب العـــالم J. J. Ampére عنـــوانه Voyage en Egypt et en Nubie ويذكر فيه أن الخرطوش ربما كان باسم راكاميرى الذى ذكره بروجش فى الفصــــل الخامس من الطبعة الأولى لكتابه : (Histoire d'Egypte) وهنا أيضا نتتبع عملية حفظ مزدوجة ، فهذه المدينة التى كانت تكتب بالمصرية القديمـــة ssout أصـبحت تسمى ليكوبوليس Lycopolis خلال فترة الحكم الرومانى لمصر . وقد أعيد هذا الاسم الى أصله التاريخى القديم بمعرفة أقباط العصـور الوسطى الذين كتبوه ســيوط Siooût وبقى موجودا فى اسم أسيوط كما ينطقه الفلاحون العرب . وليست هذه حالة وحيدة ، فقد صار اسم كاميس يعرف بالاسم بانوبوليس وبنفس هذه الطريقة تحول الى الاسم القبطى خميم وما زال حتى اليوم موجودا بالشكل اخميم الذى يخلد أسطورة تأسيسها الأول . **وكما حدث فى هذه المقتطفات من اللغة القديمة حدث كذلك فى التنوع الجنسى الذى خضع له المصريون مع توالى الجيوش الغـــازية حيث اختلطت دماؤهم بدماء الفينيقيين والفرس واليونانيين والرومان والعرب ، واستطاعوا أن يصهروا هذه العناصر المختلفة فى قالب واحد ينتسب الى النوع القديم ويستمر مصريا الى الأبد . يا لغرابة طغيان القوى الطبيعية ! ان شمس مصر وتربتها تطالبان بجنس واحد من البشر ولا تجيز غيره . ولا يستطيع المستوطنون الغرباء أن يعقبوا نسلا فى هذا البلد .** لقد حاولت مجموعة أجنبية مكونة من عشرين ألف شخص أن تعيش فى منطقة السويس التى تعتبر أكثر مناطق مصر ملاءمة للصحة ، ولكنها فشلت على مدى عشر سنوات فى تربية طفل صغير واحد ممن ولدوا على التربة المصرية . وان الأطفـــال الذين ينجبهم أب أجنبى من أم مصرية يموتون بنفس الطريقة التى يموت بها الصغار فى المهد ، الا اذا تربوا بنفس الأسلوب المصرى البسيط . وقد تأكد بالنسبة للمولودين نتيجة للزواج المختلط أنه بعد الجيل الثالث يسقط الدم الأجنبى ويستعيد النسل الخصائص الجنسية فى ثوبهـا الأصلى النقى .

هذه بعض وليست كل حالات النقاء المصرى المذهل . انه نقاء لفت انتباهى خاصة وساعود اليه كثيرا بين الحين والآخر . ان كل محافظة من محافظات مصر القديمة لها حيوانها المقدس . وقد أطلق الاغريق على

أسيوط اسم ليكوبوليس (١) لأن الذئب (انقرض الآن من هذا البلد) كانت له هناك نفس نوعية التقديس التى للقطة فى بوباستس (تل بسطة) والتمساح فى امبوس (كوم امبو) والأسد فى ليونتوبوليس (الفيوم) (*)٠ ان مومياوات الذئاب وجدت فى المقابر الصغيرة حول الجبل ، وكذلك مومياوات ابن آوى ٠ ان الاله أنوبيس الذى يحمل رأس ابن آوى كان هو الاله المبجل فى هذه المقاطعة ٠ أما مومياوات ابن آوى التى تنتمى لهذه المنطقة والتى كانت تلف فى شرائط ملونة فمن الممكن مشاهدتها فى الغرفة المصرية الأولى بالمتحف البريطانى ٠ أما المنظر من الجبل فوق أسيوط فهو أروع من مقابرها وأقدم من مومياواتها ٠ وبالنظر من المدخل العظيم للمقبرة الثـانية تبدو الصورة وكأنها موضــوعة داخل اطار ٠ لأننا بالنظر الى المنظر الأمامى شاهدنا منحدرا متألقا من الأطلال التى كانت صروحا مبنية من الحجر الجيرى ٠ أما فى المساحة المتوسطة فقد شاهدنا سهلا واسعا مكتسيا باللون الأخضر الرقيق المنبعث من القمح الحديث الانبات ٠ وفى المساحة الأبعد ترتفع قباب ومآذن أسيوط فى وسط نطاق من زراعات النخيل ، وبعد ذلك يلمع الذهب المنصهر فى نهر النيل العظيم ، أما على البعد العميق فى الصحراء البعيدة طبقة بعد طبقة بامتداد الأفق ، فتظهر حافة الصحراء اللانهائية ٠ وتظهر هنا وهناك برك واسعة من الماء الهادىء المتخلف عن الفيضان الأخير مثل بحيرات وسط الزراعات الخضراء ٠ وهناك فريق من الرجال ذوى اللون البنى يخوضون فى المياه بشباكهم ٠ وتتقدم احدى الجنازات فى الطريق المحصور ، وترى النعش محمولا على أكتاف الرجال وهو مغطى بشال أحمر ٠ أما النساء فكن يملأن أيديهن بحفنات من التراب ويذرينها على رؤوسهن أثناء سير الجنازة ٠ وكنا نرى التراب يتطاير بينما يحمل الهواء صوت نواحهن الحاد ٠ وتقع المدافن التى يقصدونها على اليسار عند سفح الجبل ٠ وهى مكونة من عدد من القباب البيضاء فى وسط البيداء فيما عدا شجرة هنا أو هناك ، بينما تنتشر مساحات عريضة من الظل تحت أشجار الجميز التى تنتشر على جانبى الطــريق ، ويحــوم صقر على رؤوس السائرين ٠ أما مدينة أسيوط التى تستحم فى اشراقة شمس الصباح فتبدو كما هى دائما مثل الحورية ٠

---

(١) قام الاغريق بترجمة الأسماء المقدسة للأماكن المصرية القديمة ، بينما عدل الاقباط الأسماء المدنية ٠

(*) ليونتوبوليس هى تل المقدام حاليا فى شرق الدلتا ــ (المراجع) ٠

وقد ورد ان لبسيوس قال ان المنظر من جانب هذا التل يعتبر من أروع المناظر فى مصر • ولكن مصر بلد مستطيل وتعتبر مسائل الأسبقية أمورا محرجة اذا حاولنا التعامل على أساسها • انه منظر جميل بالرغم من أن معظم الرحالة الذين يعرفون المنظر حول طيبة والمدخل الى أسوان قد يترددون فى الاعتراف بذلك ، ولابد أن أتخيل أن أعطى الأسبقية للمنظر الطبيعى الذى تستثنى منه الجبال القريبة بسبب موقع المشاهد •

وقد قيل ان المقابر هنا مثلها مثل غيرها من المقابر فى بقية أنحاء مصر قد سكنها المتوحدون المسيحيون الأوائل خلال حكم أواخر الأباطرة الرومان • وينسب الى هؤلاء النساك الأسطورة التى تجعل ليكوبوليس (أسيوط) مقرا لاقامة القديس يوسف النجار والعذراء مريم خلال سنوات الاقامة فى مصر • انها مجرد أسطورة بعيدة الاحتمال هذا اذا كانت العائلة المقدسة قد جاءت الى مصر مطلقا • وهذه قضية تشكك فيها الآن بعض الدراسات التى تهاجم الكتاب المقدس (*) • ولكن ربما كانت العائلة المقدسة قد استراحت من تجوالها فى احدى المدن التى لا تبعد كثيرا عن الحدود الشرقية مثل تانيس أو بيثوم أو تل بسطة • وعلى كل حال فان أسيوط تقع على بعد ٢٥٠ ميلا على الأقل جنوب أية نقطة يفترض منطقيا أن العائلة المقدسة قد توغلت اليها •

ويظل الانسان ميالا للاعتقاد فى صحة القصة التى وضعت منظر طفولة السيد المسيح فى وســـــط هذه المنطقة الريفية المصرية الجميلة والمتألقة • وياله من اهتمام عميق ومؤثر ذلك الذى تضفيه على المكان ! ولابد أن ننظر نظرة مختلفة الى المنظر الطبيعى الذى كان بكافة تفاصيله عزيزا عليه ومألوفا لديه ، والذى لابد أنه بقى دون أن يتغير منذ يومه وحتى يومنا هذا بسبب طبيعة الأرض ــ الجبل بمقابره ، ومساحات القمح الخضراء ، والنيل ، والصحراء ــ كانت جميعها تبدو حينذاك مثلما تبدو الآن • والجديد فقط هو مآذن المساجد الاسلامية ، والهياكل الفرعونية الخاصة بالعبادة القديمة التى بادت •

(★) هذه ليست أسطورة ولكنها حقيقة أشار اليها أنبياء العهد القديم بالوحى قبل حدوثها (اشعيا ١٩ : ١ ــ وايضا : هوشع ١١ : ١) •

كما أشار اليها وسجلها العهد الجديد بعد حدوثها (متى ٢ : ١٣ ــ ٢٣) ولا أدرى لماذا تجاهلت المؤلفة جبل قسقام والدير المحرق فوقه حافظا للمكان الذى عاشت فيه العائلة المقدسة لمدة ستة شهور مع كافة الآثار والمخطوطات التى تؤكد هذه الحقيقة • انظر : كتاب : الدير المحرق ــ تاريخه ووصفه وكل مشتملاته • من تأليف نيافة الدكتور الأنبا غريغوريوس وكتابا صغير الحجم عنوانه : التاريخ لأحداث الميلاد ــ من تأليف مترجم هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء وغيرهما ــ (المترجم) •

الفصل السابع

من أسيوط الى دندرة

استمرت رحلتنا من أسيوط ، ومعنا على سطح المركب ما وزنه طنان من الخبز البنى الطازج الذى تم تقطيعه الى شرائح ثم تجفيفه فى الشمس. وسرعان ما تحول الى بقسماط ووضع فى مخزنين ضخمين على السطح العلوى . وقد استمتعت العصافير الدورية وأبو فصادة بوقتها أثناء تجفيف الخبز ، ولكن أحدا لم يحقد على تلك الضريبة التى حصلتها الطيور .

وتهب علينا الآن رياح شديدة رغم أنها نادرا ما تهب قبل الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحا وتضمحل عامة عند الغروب . وعندما يتصادف استمرارها مع عدم وجود مناطق ضحلة فى مجرى النهر فاننا نمضى فى الابحار خلال الليل ، ولكن ذلك نادرا ما يحدث . وعند حدوثه يجعل النوم مستحيلا ، ولذلك فانه لا شىء يستطيع اغراءنا بالابحار سوى تأكيد السفر لأميال عديدة ما بين وقت النوم ووقت الافطار .

لقد مضى وقت طويل ونحن على متن المركب قبل أن نكتشف وجود شخص مريض ، ولذلك لم يكن هناك مفر من استمرار سير المركب ، فلم يكن هناك من شبيه لبحارتنا فى بذل ما فى طاقتهم من جهد مما جعلهم دائما يصيبون أقدامهم بالكدمات ، ويجرحون أيديهم ، ويتلقون ضربات الشمس ، والتهابات الأصابع ، والتواءات المفاصل ، فيسببون العجز لأنفسهم بطريقة ما . وكانت السيدة (ل) ومعها صندوق أدويتها الصغير ولفائفها من الضمادات والأربطة ، تقوم بمزاولة العلاج المحدود الذى كان ناجعا . وكنا نراها فى السطح السفلى معظم أوقات الصباح بعد الافطار وهى تعالج المصابين . ولقد كان من حسن حظهم وجود « جراح متمرس » معنا لأنهم كانوا يحسون بالضعف واليأس عندما يتعرضون للأذى مع جهلهم بالاسعافات الأولية . كما أن هذا العجز كان يقتصر على المواطنين من طبقة البحارة والفلاحين . ان أصحاب الأعمال والموظفين فى الأقاليم

يجهلون تماما ليس فقط استخدام الاشياء البسيطة مثل اللبخة أو المنديل المبلل بالماء ، بل أيضا يجهلون القواعد الأولية للصحة • ولا يوجد أطباء في اتجاه الجنوب من القاهرة ، مع عدم الثقة في العلاج الحكومي لأنه في حالة انتشار وباء ، ترسل الحكومة مفتش الصحة بأمر منها ، ويقال ان نصف الناس يخفون اصابتهم ، بينما يرفض النصف الآخر تطبيق العلاج الموصوف لهم • ومن الجهة الأخرى فان ثقتهم في مهارة الأوربيين العابرين ليس لها حدود • فكانوا يأتون الينا دائما سواء منهم الأغنياء أو الفقراء طالبين النصيحة والدواء • وهناك ما يثير العواطف في الاعتقاد الساذج الذي يتقبلون به أية مساعدة مهما كانت قليلة • وفي نفس الوقت تأكدت سمعة السيدة (ل) الطبية بين البحارة عن طريق بعض العلاجات البسيطة التي قدمتها • ولذلك أطلقوا عليهـا لقب : الست الحكيمة ، وأطاعوا توجيهاتها ، وابتلعوا أدويتها بثقة كما لو كانت خريجة كلية الجراحين • وعبروا عن شكرهم بكافة الأساليب الرقيقة التي تشبه أساليب الأطفال • وكانوا يغنون لها أحب الأغاني العربية وهم يجرون بجوار حمارهـا ، ويبحثون لها عن شظيات التماثيل عند زيارة الأطلال • وكانوا يقدمون لها باستمرار هدايا صغيرة من الحصباء والأزهار البرية •

وبعد أسيوط ينكشف منظر النهر عن أعظم أجزائه في الضفة الشرقية • لقد كانت سلسلة الجبال التي على جانب الصحراء العربية قريبة جدا • بينما كانت تبدو هناك سلسلة أكثر بعدا في الأفق الغربي ، ويأتي جبل شيخ الرياينة بعد جبل (أبو فايدة) ويليه بعد ذلك في تتابع متقارب صخور قاو ، وجبل الشيخ هريدى ، وجبل العسيرات ، وجبل طوخ — وجميعها تتشابه في الصلابة القائمة على قواعد شديدة الوضوح من طبقات الحجر الجيرى المستوية ، وقمم مسطحة تشبه خطوطا من الحواجز الضخمة ، يخترقها الكثير أو القليل من الفتحات التي نعرف أنها قبور ولكنها من على البعد تشبه المنافذ التي تستخدم في الهروب •

ومع ابحارنا في مواجهة الريح وقد نشرنا الشراعين ، رأينا المنظر العام السريع يكشف عن ذاته يوما بعد يوم ، وميلا بعد ميل ، وساعة بعد ساعة • وتركنا خلفنا القرى ، ومزارع النخيل ، والقبور المنحوتة في الصخر ، وندخل اليوم منطقة نخيل الدوم • وغدا سنعبر الحد المرسوم على الخريطة لمناطق التماسيح • وتتقدم الصخور ، وينحسر المد ، وينفتح المنظر على الوديان المهجورة ، وتظهر آثار باهتة للممرات التي تقود الى المقابر المنحوتة على ارتفاعات بعيدة • ووصلنا الى الرأس البحرى الذى ظهر على البعد مغلفا بالظلال منذ ساعتين ثم تجاوزناه • أما مركب البضائع

التى عملنا على اللحاق بها طوال فترة الصباح،فقد تخطيناها وأخذ منظرها يتضاءل خلفنا • والآن نحن نعبر منحدرا بارزا يظلل على قبر أحد المشايخ ، وشجرة منعزلة من نخيل الدوم • ونمر بمنجم قديم كان القدماء يقطعون منه الأحجار فى شكل كتل ملساء تاركين ثقوبا ضخمة وممرات ودرجات سلالم فى جانب الجبل • وعند قاو (١) التى تمثل معقل الفتنة التى ترأسها درويش معتوه منذ حوالى عشر سنوات ، وجدنا أن هذه القرية الضخمة المكتظة بالسكان لم يتبق منها الا منطقة فسيحة من حقول القمح الخصبة ، وبعض الأكواخ الخربة ، ومجموعة من النخلات المفصولة الرؤوس • ونحن الآن نسير محاذين لحافة جبل الشيخ هريدى والذى يحده هنا حد غنى بالأرض الزراعية،تاركا هناك فراغا يتمثل فى شريط من طريق بين حافة الجرف والنهر • ثم تأتى الريانية وهى قرية ضخمة مكونة من أبراج طينية مربعة ، عالية ومحاطة بالأسوار ، وخطوط تشبه السلاسل مكونة من الجرار المخصصة لمعيشة الحمام • وفيما بعد وصلنا الى جرجا التى كانت فى يوم ما عاصمة لمصر الوسطى • ورسونا هناك لمدة نصف ساعة لارسال البريد والسؤال عن الخطابات الواردة • والنهر هنا سريع الجريان حتى انه كان يطغى على الضفتين ويهاجم المدينة كالعاصفة • ويقع فوق مكان الرسوة مسجد مخرب ، له عقود مدببة وأروقة غير مسقوفة وعمود منحن لابد أنه كان قد وقع على الأرض فى تلك الفترة • ومنذ مائة عام مضت كانت تقع على بعد ربع ميل من النهر • كما كانت سليمة منذ عشر سنوات ، ولابد أنها ستمحى بعد مرور عدة فيضانات قادمة • وحتى يأتى ذلك الوقت ستظل جرجا واحدة من أجمل المدن المصرية •

وفى فرشوط ، نرى مصانع السكر أثناء العمل ، والدخان يتدفق من المداخن الطويلة ، والبخار يخرج من فتحات شبكية فى الطابق الذى

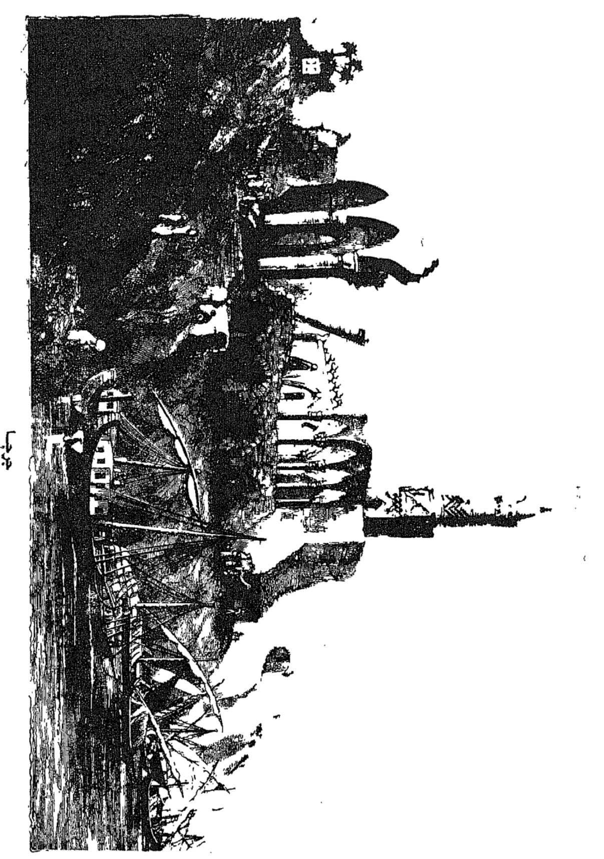
---

(١) ان هذا الشيخ حسب القصة التى أوردتها السيدة داف جوردون فى رسائلها ، قد اكتسب سمعة رفيعة من حيث القداسة غير العادية لانه كان يردد اسم الله ٣٠٠٠ مرة كل ليلة لمدة ثلاث سنوات ايمانا منه بانه بهذه الوسيلة قد جعل نفسه محصنا • وعلى ذلك أعلن نفسه بأنه المهدى الذى سيقتل المسيح الدجال • وقد نشر العصيان بين أهالى القرى المجاورة لجبل الشيخ هريدى ، وحرض على مهاجمة ذهبية انجليزية ، وجلب على نفسه وعلى أهالى كل تلك الناحية الانتقام السريع من جهة الحكومة • وقد أرسلت المراكب الحربية بقيادة فضل باشا فى النيل جنوبا ، وتم اطلاق الرصاص على الثائرين ، ونهبت القرى ، وصودرت المحاصيل والماشية • وتم توزيع نساء وأطفال المنطقة بين الكفور المجاورة • أما قاو التى كانت قرية ضخمة فى حجم مدينة الأقصر فقد دمرت • أما مصير الدرويش فمازال غير معروف • وقد قال البعض انه قتل رميا بالرصاص ، كما قال البعض الآخر انه هرب فى الصحراء ودخل فى حماية قبيلة من البدو •

أسفل الأرض (البدروم) ، وقوارب النقل تفرغ عيدان قصب السكر أمـام الضفة بينما ينقله أعراب أقوياء الأجسـام الى المصنع ، وتحمل العربات التى تجرها الثيران بقايا القصب لاستخدامها كوقود ، وهنـاك فى ساحل بهجورة المرتفع قليلا على الجانب المقابل للنهر ، نجـد الضفة وقد تناثرت عليها أكوام من أعواد قصب السكر تصل الى مسافة ربع ميل • وهناك المئات من الجمال التى تأتى محملة به أو تعود لتجلب المزيد منه • وتأتى العشرات من مراكب الشحن لاستقبالها • وتقوم حشود من الفلاحين بنقله الى سطحها لاعادة تفريغه فى فرشوط • وكانت الجمال ترغى وتزبد ، والرجال يتصايحون ، ورؤساء العمـال بملابسهم ذات الحواف الزرقاء وعمائمهم البيضاء يتمشون فى غطرسة ذهابا وايابا ، ويشرفون على العمل • وتتراجع الجبال هنا بعيدا حتى تختفى عن الأنظار ، بينما يتسع السهل الغنى بزراعات القصب وأشجار النخيل فيما بين الجبال وبين مجرى النيل •

ويظهر جمال الضفتين الغنيتين بثروة غير عادية من الخضرة • وينتشر القمح الحديث الانبات على صفحة السهل مثل السجادة ، بينما تنتشر نباتات الست المستحية (الخجول) ذات الشراريب الصفراء ، وأشجار الطرفاء أو العبل التى تنتشر أوراقها مثل الريش ، ونخيل الدوم والبلح وأشجار الجميز على حافة ممر سحب العربات مثل أشجار الحديقة المنزرعة على جوانب ممراتها •

وما زلنا نرى مع شدة الدهشة ما يبدو أنه قرد رمادى ضخم يجثم على قمة كوم ترابى على الضفة الغربية وذلك بعد أن تركنا خلفنا كل هذه الخضرة ، وبعد أن عادت الضفتان الى الاتساع والخلو من المزروعات ، وظهر هذا المخلوق هادئا ومستأنسا تماما وهو يجلس القرفصاء ، متخذا ذلك الوضع الذى يعبر عن الحزن والاحساس بالبرد ، والذى يتخذه الشمبانزى فى قفصه بحدائق الحيوان • وهناك ستة أو ثمانية من الأعراب، كان أحدهم قد نزل عن جمله ، وتجمعوا حوله وأخذوا يحملقون فيه مثلما يتوقف الجمهور البريطانى ويحملق فى النموذج الموجود فى حديقة ريجنت بارك • وفى نفس الوقت تنفجر دهشة غريبة بين بحارتنا • انهم يتزاحمون على هذا الجانب ، ويتصايحون ، ويستخدمون الحركات والاشارات باليدين للتعبير عن دهشتهم • ويرسل القبطان تحياته ، ويلوح عامل الدفة بيده ، وقد اتجهت عيون الجميع نحو الشاطىء •



ويصيح تلحمى وهو يندوع من اسفل مقطوع النفس : « هل ترين الشيخ سليم ؟ انه هناك ! انظرى اليه ! هذا هو الشيخ سليم ! » ٠

واكتشفنا أنه لم يكن قردا ولكنه رجل ، ليس فقط رجلا بل شيخا مبروكا ٠ يفيض بالقداسة ، وأيضا القذارة ، أبيض الرأس ، وأبيض اللحية ، وذابل الجسم ، ومنحنيا ، ومتكورا ٠ انه الشيخ سليم الذائع الصيت ٠ وكان ذلك العريان الذى لا يعرف الاستحمام يجلس فى نفس الموقع يوميا تحت حر الصيف وبرد الشتاء على مدى السنوات الخمسين الأخيرة ، ولا يزود نفسه بالغذاء أو الماء ، ولا حتى يرفع يده الى فمه ، معتمدا على الاحسان ليس فقط لغذائه ، بل أيضا لمناولته الغذاء ٠ وليس من المستحسن أن ننظر اليه حتى مع هذا الضـــوء الخافت ومن هذه المسافة ، ولكن البحارة يظنونه رائع الجمال ويطلبون بركاته بصـــوت مرتفع أثناء مرورنا بالقرب منه ٠

وكانوا يتصايحون : « معذرة يا أبانا ، اننا لم نتعمد بخاطرنا » ٠ ثم يضيفون : « كم نود أن نقبل يدك ، ولكن الريح تهب والمركب تسير وليس فى مقدورنا البقاء ! » ولكن الشيخ سليم لا يرفع يده ، ولا يبدى أية علامة تدل على أنه سمع أصواتهم ٠ وبعد دقائق قليلة ومع حلول الغسق ، تركنا خلفنا الكوم الترابى الذى يجلس عليه ٠

وعند المدينة الجديدة التى بنيت جزئيا على التلال القديمة التى أطلق عليها باللاتينية « ديوسبوليس بارفا Diospolis Parva» ، رأينا المواطنين فى اليوم التالى ينقلون أحمال قوارب صغيرة من قوالب الزبالة القديمة الى الجانب الآخر من النهر بغرض تسميد تلك الحقول التى جمع منها محصول الذرة المبكرة ٠ وبالاضافة الى ما أثاره ذلك من استغراب ، فان الطين المتخلف عن الفيضان منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة مضت ، يأتى فى النهـــاية لكى يستخدم فى الغرض الذى تحول من أجله لأنه أكثر خصوبة من الرواسب الجديدة ٠ وعند قصر الصياد الأبعد قليلا ، وصلنا الى أحد المواقع الرديئة المشهورة وهو موضـــع من مجرى النهر مكتظ بالصخور الغارقة مما يجعل الملاحة عنده مستحيلة ٠ وهنا قضى الرجال نصف يومهم فى دفع الذهبية فوق الجزء الخطير ، بينما مضينا بين التلال التى كانت فيما مضى تمثل المدينة القديمة التى أطلق عليها باللاتينية اسم « شينوبوسكيون Chenoboscion » ٠ وهذه البقـايا التى تغطى سطح منطقة واسعة وتتكون كلها من أساسات من الطوب الأحمر الخام ، ذات أهمية شديدة ومحفوظة فى حالة جيدة ٠ وقد تتبعنا الرســـوم

التخطيطية للعديد من المنازل والممرات التي تفصل بينها ، ولاحظنا العديد من العقود الصغيرة التي يبدو أن أبوابها .ونوافذهـا قد أقيمت حسب مقياس رسم صغير جدا ، ولكن كان من الصعب التصرف بأى أسلوب آخر • وكانت أشجار العوسج والأعشاب الضارة تنمو في هذه الأراضى المهجورة ، بينما شقت تلال القمامة ، ومخلفات الحفر ، وأكوام الفخار المكسور ، وسط الخرائب وصعبت من مهمة الاستكشاف • ونظرنا في يأس الى رصيف الشحن المتداعى ، والكتل المنحوتة التى ذكرها ويلكنسون في كتابه المسمى : منظر عام لمصر General View of Egypt • ولكن لو استطاعت أحجار أساسات مصنع السكر الجديد المجاورة لموقع المرسى أن تتكلم ، فانها كانت ستكشف السر بدون شك • ولم نر شيئا في الحقيقة لأن هذه المدينة القديمة لم تحتو على أية معالم حجرية ، ناهيـك عن العريش المكسور لأحد الأعمدة الجرانيتية الصغيرة •



قصر الصـياد

وكانت قرية قصر الصياد تتكون من مجموعة من الأكواخ الطينية ومصنع للسكر ، ولكن المصنع كان مغلقا فى ذلك اليوم ، وبدت القرية نصف مهجورة • والمنظر هنا جميل على وجه الخصوص • وعلى بعد حوالى ميلين فى اتجاه الجنوب ، تهبط الجبال نحو مجرى النهر بزوايا قائمة في تسلسل عظيم • ومن هناك تصـل فى تدريجات طويلة الى الرؤوس البحرية المنحدرة • أما السهل الذى ينتهى بحدة مقابل قاعدة هذا الحائل الضخم ، فانه ينفتح الى الخلف فى اتجاه الشرق حتى يصل الى الأفق البعيـد ، فى شـكل بحر فياض من الرمال المتوهجة محاطا فى فوضى بأكوام من الأطلال على مسافة متوسطة ، أقربها جميعا مقدمة ضيقة من

التربة المزروعة ، ذات اللون الأخضر بسبب المحاصيل الحديثة الانبات التي تروى بالشادوف ، والتي تمتد بطول ضفة النهر حتى قواعد الجبال. ويظهر على الضفة قبر لأحد المشايخ تظلله شجرة دوم منعزلة ، بينما نرى وسط الرمال على البعد دير، قبطيا له قباب عديدة ، ومقبرة مليئة بالقبور المسيحية ، وواحة صغيرة من أشجار النخيل التي تعلن عن حلول فصل الربيع .

ويتركز الاهتمام الرئيسي في هذا المنظر وسط هذه الأطلال ، التي تبدو من أعلى على مسافة قصيرة ، سوداء ومهجورة ونصف مدفونة ومعتمة بين حين وآخر عندما تهب عليها الرياح مثيرة سحبا دائرية من الرمال ، مما يجعلنا نتذكر القرى التي شاهدناها منذ أقل من عامين نصف مكتسحة ، ومدخنة في وسط سيل الحمم المتدفق من بركان فيزوف .

والآن يظهر القمر الكامل مرة أخرى فيجعل الليل أكثر اشراقا من النهار . واعتدنا ونحن جلوس على سطح المركب لعدة ساعات بعد مغيب الشمس ، ومع انزلاق المركب في رفق بشراع نصف ممتلىء بالهواء ، وانصراف قوة الريح ، أن نتعجب مما اذا كان يوجد في العالم كله مثل هذا المناخ الذي يجعل ضوء القمر في مثل هذا السحر ! ونقول ان كل شيء سواء أكان بعيدا أم قريبا ، واضح كما لو كنا في وقت النهار ، ولكنه أكثر رقة بحيث لا نجد ما يمكن أن يقال . ولم يكن شكل القمر هو الواضح فقط ، ولا الضوء والظل هما الظاهرين فقط ، بل أيضا اللون الذي كان حاضرا . لم يكن ضوءا خافتا ولا متغيرا ولكنه رقيق ولامع وروحاني . أما البريق العنبري للجزيرة الرملية في وســـط النهر ، والخضرة الهادئة لزراعات النخيل ، والقلنسوة ذات اللون الفيروزي التي ترتديها السيدة الصغيرة ، هذه كلها كانت ظاهرة للعيان ، وحقيقية في الايقاع بشكل نسبي . وظهر البرتقال من خلال قضبان صندوق الشحن مثل كرات من الذهب الخالص . ولمع شال السيدة (ل) القرمزي بصبغة أدفأ مما يبدو عليه أثناء النهار . وكانت الجبال محمرة كما في ضــوء الغروب . ولا أتذكر من كافة الظواهر الطبيعية التي صادفتناها على مدار

الرحلة شيئا أكثر اثارة من ذلك • ولم نستطع أن نصدق في البداية أن ذلك لم يكن بعض تأثير نور الغسق ، أو بعض ألوان الشفق المبهرة التي تظهر في الشرق ، ولكن الشمس لم يكن لها تأثير على ذلك الاحمرار الذى فوق الجبال • لقد كان اللمعان في الحجر ، بينما اقتصر دور ضوء القمر على كشف اللون المحلى فقط •

وكنا نبحث بشوق عن تلال طيبة قبل ظهورها بعدة أيام • والآن وبعد مرور ليلة من الابحار السريع ، استيقظنا ذات صباح لنجد الشمس تشرق على الجانب الآخر للمركب • وسكنت الريح المواجهة لنا بينما ظهرت سلسلة من مناظر القمم المتكسرة على يسارنا • ومن هذه العلامات عرفنا اننا وصلنا الى انحناءة النهر الكبيرة التي تقع ما بين هاو وقنا ، وأن هذه الجبال الجديدة الأكثر اختلافا في الشكل عن جبال مصر الوسطى ، لابد أن تكون هى الجبال التى تقف خلف دندرة • لقد ظهرت واقعة على الضفة الشرقية ولكن ذلك كان مجرد وهم لم تبرهن عليه الخريطة ، وانما استمر فقط حتى أكملنا الدوران حول الركن الكبير • ولم يكن الدوران حول هذا الركن فى مهب الرياح والتيارات المائية أمرا سهلا ، ولكنه كلفنا يومين كاملين من السحب الشاق للمركب •

وعند نقطة تقع على بعد عشرة أميال جنوب دندرة رأينا عدة آلاف من الفلاحين يعملون على ضفتى ترعة جديدة وسط سحب من الرمال • وكانوا محتشدين على التلال كالنمل ، ووصلت الينا همهمة أصواتهم عبر النهر مثل طنين جيش لا حصر له من النحل • وكان هناك آخرون يتدفقون على المسار بطول الضفة نحو موقع العمل فى فيض لا ينقطع • كان لابد أن يصل عرض النهر فى هذه البقعة الى نصف ميل تقريبا • وكان من الممكن باستخدام المنظار تمييز المهندسين بملابسهم الأوربية بسهولة ، وملاحظى العمال بالعصى الطويلة التى فى أيديهم • وبين النخلات التى على جانب النهر لمعت الخيام التى كان يعسكر فيها هؤلاء الموظفون أثناء مسار العمل باللون الأبيض • ولابد أن مثل هذه المناظر كانت عادية بما فيه الكفاية فى الأزمنة القديمة عندما كان الفرعون المنتصر عائدا من

ليبيا أو أرض كوش وقد أجبر أسراه على اقامة صرح ، أو حفر بحيرة ، أو عمل منجم فى الجبل • ولابد أن الاسرائيليين الذين بنوا حوائط بيثوم ورعمسيس بقوالب الطوب التى كانوا يصنعونها ، قد ظهروا حينذاك بمثل هذا المظهر تماما •

وهكذا كنا نشاهد حالة من السخرة لا يمكن الشك فيها • ولابد أن هؤلاء الذين يعدون بالآلاف قد سيقوا الى هناك فى جماعات تبلغ المئات من القرى البعيدة • ولم تكن حالتهم أفضل كثيرا من حالة الأسرى الذين ساقتهم جيوش الامبراطورية القديمة • ويبدو أن العامل فى جميع أحوال السخرة التى تجرى فى العهد الحالى ، ينال عن عمله الاجبارى الشاق أجرا ولكنه غير كاف ، وأن مدة تسخيره تستمر على مدى الفترة التى يستغرقها انجاز العمل الذى أجبر على أدائه • وفى بعض الحالات كانت فترة السخرة تقتصر على ثلاثة أو أربعة شهور يفترض أن يعود العمال فى نهايتها فوق صنادل تجرها سفينة سحب حكومية • وغالبا ما يحدث أن يترك هؤلاء التعساء ليعودوا حسبما يتيسر لهم ، مما دفع بالعديد من الأزواج والآباء الى قضاء نحبهم خلال الطريق ، أو دفعهم للخدمة فى احدى القرى البعيدة عن موطن اقامتهم • وفى نفس الوقت كانت زوجاتهم وأطفالهم الذين يحصلون على اعانة هزيلة من شيخ البلد ، يقعون فى براثن نوع من القنانة (عبودية الأرض) ، بينما تترك رقعة الأرض الصــــغيرة التى يمتلكهــا كل منهم دون حـــرث أثنـــاء وقت البذور والحصاد ، ويمر عليها موسم الفيضان التالى وهى فى يد شخص غريب • وهناك جانب آخر لهذه المسألة الخاصة بالسخرة يتمثل فى ضرورة حصول مصر على الماء بأى ثمن ، لأنه اذا لم ترو الأرض ريا كافيا فان المحاصيل تحترق ويجوع أفراد الشعب • والآن ، فان استمرار حفر الترع كان يحتسب ضمن أولويات واجبات الحاكم المصرى منذ أول العصور ، ولكنه واجب لا يمكن أداؤه بدون تعاون آلاف العمال سواء أرغبوا ذلك أم لم يرغبوا • وهؤلاء الذين يعرفون سلوك وطباع الفلاح يتصدون للمهمة اليائسة التى تدور حول البحث عنه للقيــام بالعمل التطوعى الذى من هذا النوع • ان القناعة والصبر يجعلانه راضيا بحالته الراهنة ، ولذلك لا تستطيع

الوعـود برفع أجره اغراءه بترك محل اقامته فى قريتــه ، ففيم تهمه احتياجات اقليم يبعد ستمائة أو سبعمائة ميل ؟ ان شادوفه يكفى متطلبات أرضه الصغيرة ، وما دام قادرا على زراعة محاصيله الثلاثة الصغيرة من الغلة كل عام فان عائلته لن تموت جوعا • اذن كيف يتم تنفيــذ هذه المشروعات العامة الضرورية بدون الالتجاء الى وسيلة السخرة ؟ لقد وضع مسيو آبوت ملخصا بارعا لحوار هذا « الجانب الآخر » على لسان فلاحه النموذجى • يقول أحمد للرجل الفرنسى : « ليس الامبراطور هو الذى يجعل المطر يسقط على أراضيك ولكنها الرياح الغربية • والنتيجة هى أن الفائدة التى تعود عليك تفوق أية مشقة تبذلها فى العمل اليدوى ، أما فى مصر حيث لا يتجاوز عدد مرات سقوط المطر فى السنة ثلاث مرات فان الأمير هو الذى يحل محلها فيمدنا بالماء عن طريق توزيع مياه النيل • ولا يمكن انجاز ذلك الا اذا عمل الرجال بأيديهم ، ولذلك فمن الضرورى للجميع أن تكون أيدى الجميع تحت تصرفه » •

لقد اعتبرنا الهدوء الذى توفر لنا فى اليوم التالى عندما صرنا على بعد ثلاثة أو أربعة أميال من دندرة لمحة من حسن الحظ • وظهرت أبيدوس أولا حسب ترتيب الخريطة ، ولكن المعابد تقع على بعد سبعة أو ثمانية أميال من مجرى النيل • ولما كنا فى ذلك الوقت نمضى بسرعة تقرب من عشرة أميال فى الساعة فقد أجلنا النزهة حتى عودتنا • وتقع الأطلال هنا فى موقع قريب نسبيا بحيث نستطيع الوصول اليها من الجنوب ، ونعود الى ذهبيتنا بعد الاتجاه نحو الشمال بأميال قليلة حتى نصل الى النهر • وعلى ذلك فقد تركنا الريس حسن يسحب الذهبية ضد التيار ونزلنا فى أول نقطة مناسبة • ولما لم نجد حميرا أو مرشدين ، تركنــا حرسا مكونا من ثلاثة أو أربعة بحارة ومضينا سيرا على الأقدام •



دندرة

وكان الطريق طويلا ، واليوم حارا ، ولم يكن لدينا وسيلة للاهتداء الى الطريق سوى الخريطة • وبعد أن تسلقنا الضفة المنحدرة وسرنا بمحاذاة مزرعة نخيل كثيفة وجدنا أنفسنا فى منطقة ريفية ليست بها ممرات أو شوارع من أى نوع • وكانت التربة تتخذ شكلا مربعا كما هى العادة فظهرت مثل رقعة شطرنج ضخمة تعبرها مئات من قنوات المياه الصغيرة التى كان علينا أن نشق طريقنا خلالها بقدر ما نستطيع • وسرعان ما عبرنا آخر حلقة من تجمعات النخيل • وكان أمامنا السهل أخضر اللون بفعل زراعات القمح الحديثة ، كما كان سطحه مستويا مثل سطح البحيرة ، ويتسع حتى يصل الى قواعد الجبال • أما المعبد الذى ظهر كجزيرة وسط هذا البحر من الزمرد المترقرق ، فقد انتصب أمامنا على منصة من التلال السوداء •

وكان لا يزال على بعد ميلين ، بادى الفخامة ، ظاهرا من على هذا البعد كبناية بيضاء ضخمة ، منخفضة البروز ، شديدة الوضوح • وكانت الحوائط مائلة الى الداخل قليلا فى اتجاه القمة ، كما ظهرت الواجهة محمولة على ثمانية أعمدة مربعة مع مدخل ضخم فى الوسط • ولو كانت هناك نقوش بارزة أو افريز أو أسطورة مصورة تثرى هذه الحوائط لما سمح لنا البعد عنها بالقدرة على تمييزها ، ولذلك ظهر المعبد كله عاريا ورزينا بشكل عجيب • لقد ظهر كمقبرة أكثر منه معبدا •

ولم يكن المنظر المحيط أقل سكونا فى موقعه المنعزل ، فلا توجد شجرة أو كوخ أو أى شكل من أشكال الحياة يكسر حدة اخضرار السهل الرتيب ، وتبرز الجبال خلفه وان كانت منفصلة عنه بمنطقة فراغ بعيد تشغله الأطلال التى ترتفع مثل التلال ، بلونها الوردى ، ورمالها اللامعة التى تتخذ شكل الأكوام فى جوف دعائمها المكشوفة وفراغات الظل الأزرق الناعم فى وهادها المغلفة بالسحاب ، حيث تنحسر السلسلة فينفتح المنظر عن الصحراء اللامعة التى تصل الى الأفق الليبى •

ولما اقتربنا تدريجيا ، وصلنا خطوة خطوة الى جسر مرتفع كان من الواضح أنه يربط التلال بنقطة منخفضة بجانب مجرى النهر ، وأخذت تفاصيل المعبد تظهر تدريجيا • ونستطيع الآن أن نرى منحنى الافريز ومنطقة الظل المحيطة به ، بالاضافة الى شىء صغير أمام الواجهة ظهر لأول وهلة مثل هيكل صخرى ضخم ، ثم كشف عن نفسه فاذا هو قائم فى مدخل ضخم من النوع المعروف بوصفه بوابة منفصلة • ومع اقترابنا أكثر ، أتينا الى أجزاء من أعمدة منحوتة ، وتماثيل مشوهة نصف مدفونة

فى الحشائش الغزيرة بين بعض التلال التى تقع فى الأطراف ، ثم ظهرت سلسلة من خزانات النترات الراكدة والمغـــامل المهجورة ، ثم أعمـــدة التلغراف والأسلاك التى تصل الى هنا على مسافات واسعة بطول حافة الصحراء ، وتنتهى فى اتجاه الجنوب حاملة الرسائل الى النوبة والسودان.

ومصر هى الأرض التى تنتج أملاح النترات التى توجد فى التلال التى بها الخام الأحمر ، أو أنقاض الابنية الحجرية القديمة ، بالاضافة الى أن طمى النيل متشبع بها • وقد تعودنا أن نجدها فى رقائق كثيفة تشبه بودرة التلك على سطح الصخور التى يتجاوز ارتفاعها المستوى الحالى للفيضان • وقد قيل لنا ان هذه الخزانات التى كانت موجودة فى دندرة ردمت عند الحفر حول المعبد أيام سعيد باشا منذ أكثر من عشرين عاما • أما النترات التى وجدوها فقد استعملت بعيدا حيث غسلت وتبلورت فى الخزانات وتحولت فى المعامل المجاورة الى ملح البارود • أما أســلاك التلغراف فهى دخيلة منذ فترة قليلة ، أقامها الخديو الذى أراد بهذا البعد أن يجعلها فى الخفاء حتى لا تجذب مخازن ملح البارود الأنظار • وحتى يملأ الخزانات بالأنقاض • ولكن ماذا تستطيع فنون الحرب الحديثة أو عجائب العلم الحديث أن تفعل مع حتحور ، ربة الجمال والظلال الغربية ، مربية حورس ، وأفروديت المصرية ، التى صار تقديس أحجار هذا الجبل وكافة هذه القفار من أجل تكريمها ؟

وفى هذا الوقت أصبحنا على مســافة قريبة تسمح لنا بمعرفة أن تلك الدعائم المربعة التى تحمل الواجهة لم تكن مربعة ولا كانت دعائم ، ولكنها أعمدة ضخمة تنتهى برؤوس بشرية الهيئة ، وأن الحوائط لم تكن مسطحة على شكل المقابر ولكنها مغطاة بخليط لا نهــائى من الأشــكال المنحوتة • وأن البوابة الغنية بالنقوش البارزة مشوهة بآلاف من أعشاش الدبابير مثل مجموعات الفقاعات الطينية • وهى ترتفع الآن فوق رؤوسنا وتقودنا الى شارع محاط بالحوائط ، محفور مباشرة خلال التلال ، ومنحدر الى المدخل الرئيسى للمعبد •

ولم نعرف النسب العظيمة للبناء ، حتى وقفنا تحت هذه الأعمدة الضخمة ، ناظرين الى الأرض الممهدة تحتنا والافريز الضخم الذى يبرز الى أعلى مثل قمة موجة قادمة • أما ما ظهر لنا شاهقا على البعد فلم يكن الا وسط المعبد الذى جرى حفره ، والذى لم يظهر منه فوق مستوى التلال سوى ثلثى ارتفاعه الحقيقى • أما سطح الشارع فقد وصل ارتفاعه فى الجزء المنخفض منه الى عشرين قدما أعلى من سطح البهو الأول الكبير •

وكان علينا أن نهبط مدرج سلالم شديد الانحدار قبل أن نصل الى الأرضية الأصلية .

ان تأثير الرواق على الانســان عندما يقف عند قمة السلم يجعله يشعر بالجلال الفياض ، كما أن العرض والارتفاع وضخامة الأجزاء ، كلها تفوق في عظمتها كافة التوقعات التي توقعناها خلال الميلين اللذين تقدمنــاهما عند الاقتراب من المعبد ، ذلك لأن محيط الأعمدة الضخم ، والشبكات الضخمة التي تربطها ، والافريز الثقيل البارز فوق رؤوسنا ، كل ذلك يحير الخيال . ويظهر مع مقاييس الأبعاد (١) ربما أضخم مما هو عليــه . وبالنظر الى أعلى نحو الاطــار الخشبي نرى نوعا من المواكب الاحتفالية المصرية التي تضم كهنــة ومحاربين ، بعضهم يحمل الرايات والبعض الآخر يحمل الآلات الموســيقية . وقــد رسمت الكرة المجنحة بمقياس رسم ضخم على انحناءة الافريز بحيث تظهر وكأنها تحوم فوق المدخل الرئيسي ، أما الكتابة الهيروغليفية والشعارات والأشكال الغريبة للملــوك والملكات فهي تغطي كل قدم على الحائط والافريز والعمــود ، ولا تنحو هذه الثروة من النقوش نحو الاقلال من الاحساس الشـــامل بالضخامة ، بل انها على العكس تبدو كما لو كانت الزخرفة المعقدة في تلك اللحظة هي المكمل الطبيعي للبساطة في الشكل ، حيث تظهر ضرورة وجود كل مجموعة ، وكل نقش ، وأنه قد وضع في مكانه الصحيح كجزء ضروري في البناء الذي يزينه . ومعظم هذه التفاصيل سليم ، كما كان يوم أن تركه آخر العمال الذين كانوا يعملون فيه بعد أن صرح المهندس المعماري بأن تصميمه قد تم تنفيذه . أما مرور الزمن فلم يشوه سطح الحجر ولم يخدش عمل الازميل .

أما تلك الاصابات التي شاهدناها فهي من عمل الانسان . ولا يوجد قطر آخر عملت به يد الانسان ما عملت ، سواء في البناء أو الهدم أكثر مما عملت بمصر . لقد ألقى الفرس بالتحف الفرعونية ، وشوه الأقباط معابد البطالمة والقيـــاصرة . أما العرب فقد نزعوا الطبقــة الخارجية للأهـــرام ، ونقلوا منف من موقعها على فترات غير منتظمة . وعندنا هنا في دندرة نموذج للعمل الاغريقي المصري المشترك ، والتعصب المسيحي

(١) يذكر سير ج. ويلكنسون أن الطول الاجمالي للمعبد هو ٩٣ خطوة أو ٢٢٠ قدما ، بينما يصل عرض الرواق الى ٥٠ خــطوة . أما موراى فلا يذكر اية أبعــاد . وكذلك ماريت بك في الدليل الصغير الممتع الذي نشره ، ولم يتعرض لذلك فرجسون أو شامبليون أو اي كاتب اخر من الذين رجعت الى كتاباتهم .

المبكر . لقد بدأ بناء هذا المعبد في أيام بطلميوس الحادى عشر (١) بينما يحمل على خراطيشه البيضية المتـــأخرة اسم وصفة نيرون . وقد كان الصرح الحالى جديدا نسبيا سنة ٣٧٩م عندما قضى مرسوم ثيؤودوسيوس على الديانة القديمة . وهكذا فان معبد دندرة هو أضخم وأقدم هذه المعابد الضخمة التي بنيت أثنـاء أكثر فترات الحكم الأجنبى ازدهارا خـلال السبعمائة عام الأخيرة ، وهو محاط بأشجار النخيل والأكاسيا فى حرم منطقة واسعة ما زالت واضحة المعالم ، يبلغ طول حوائطها ١٠٠٠ قدم وارتفاعها ٣٥ قدما وسمكها ١٥ قدما . وهناك مضمار مدفون حاليا تحت عشرين قدما من الأنقاض ، ويصل من البوابة الى الرواق . وما زالت البوابة هناك وقد خربت جزئيا . ولكن المعبد بسقفه ، مع مدرجات السلالم وسراديب الكنوز السرية ما زال كاملا من كافة الوجوه كما كان فى اليوم الذى تجاوزت فيه عظمته أفعال المخربين .

ويستطيع الانسان أن يتخيل بسهولة كيف أن هؤلاء المخربين سلبوا وخربوا كل ما قابلهم ، وكيف انتهكوا حرمة الأماكن التى قدسها المصريون القدماء وقلبوا تماثيل الآلهة وقسموا كنوز الهيكل . والحقيقة هى أنهم

---

(١) لقد وجدت أسماء الأباطرة أغسطس وكاليجولا وطيباريوس ودوميشيان وكلوديوس ونيرون فى الخراطيش الملكية . وكانت أقدمها خراطيش بطليموس الحادى عشر مؤسس هذا الصرح الذى أعيد بناؤه فى مكان سلسلة المبانى الأقدم التى يعود تاريخ أقدمها الى عصر الملك خوفو بانى الهرم الأكبر . وهذه الحقيقة التى مازالت أكثر الحقائق أهمية ، تبين أن البنـاء الأقدم فى الجميع ينتسب الى فترة أتبـاع حورس Horshesu الفترة التى لا يمكن تصديقها . (المقصود بأتباع حورس صغار الرؤساء أو الأمراء الذين حكموا أقاليم مصر قبل تأسيس الحكومة الملكية الأولى) وهى مدونة فى النقش المعروف التالى والذى اكتشفه مارييت فى أحد السراديب التى أنشئت داخل جسـم حوائط المعبد الحالى .

ويشير النص الأول الى بعض الأعياد التى كانت تقام للاحتفـال بالبقرة حتحور ، ويذكر أن كافة الطقوس المعتمدة قد أداها الملك تحوتمس الثالث (من الأسرة الثامنة عشرة) « احياء لذكرى والدته حتحور ربة دندرة ووضعوا القواعد الأساسية العظيمة لمعبد دندرة بالكتابة القديمة ، مدونة على جلد الماعز فى عصر أتباع حورس . وقد وجدت هذه الكتابة فى داخل حائط مبنى من الطوب الأحمر يعود الى عصر الملك بيبى (من الأسرة السادسة) » . ووجد فى نفس السرداب نقش آخر أكثر اختصارا يقول :

« القـاعدة الأساسية العظيمة لمعبد دندرة ، والتجديدات التى عملها تحوتمس الثالث حسب ما وجد فى الكتابة القديمة التى تعود الى عصر الملك خوفو » . وهنا يدون مارييت ملحوظة تقول : « اذن فليس معبد دندرة أحدث المبانى فى مصر الا فيما يختص باقامته على يد أحد الأمراء المتأخرين الذى ضاع أصله فى ليل الزمان » . انظر فى ذلك كتابه : Denderah description Générale الفصل الأول ، صص ٥٥ ـ ٥٦ .

لم يقترفوا مثل هذا التخريب الواسع النطاق الذى قام به الغزاة الفرس منذ تسعمائة عام ، ولكنهم كانوا محطمين للقيم المتوارثة بدون رحمة ، وأزالوا معالم وجه كل تمثال وقع فى متناول أيديهم سواء أكان داخل أم خارج المعبد ٠

ومن بين المناظر التى أفلتت من التشويه منظر كليوباترا البارز المشهور والمنقوش على ظهر المعبد ٠ وقد تكدست حوله النفايات التى حفظته ولكنها حرمت السياح من مشاهدته ٠ وكان قد تم تصويره منذ عدة سنوات بمعرفة السنيور بيتى وطبعت هذه الصورة فى الملحق الخاص بالبحث ٠



كليوباترا

وتظهر كليوباترة هنا وهى تضع غطاء للرأس يجمع بين صفات ثلاثة من الآلهة هى نسرموت (الذى صورت رأسه بطريقة بارعة) وقرص حتحور ذى القرنين ، وعرش ايزيس • أما الكتلة المتدلية تحت غطاء الرأس فهى تبين الشعر المستعار على الطريقة المصرية ممثلا فى عـدد لا يحصى من الضفائر الرفيعة التى تنتهى كل منها بطرف معدنى للزينة • وما زالت نســاء مصر والنوبة يرسلن شعورهن بمثل هذه الطريقة حتى اليوم ولا يجدلنه • وكم أشعر بالأسف وأنا أقول اننى رأيت أكثر من مرة كل ثمانية أو عشرة أسابيع ، أن الفتيات النوبيات يربطن كل جديلة منفصلة بقطعة من طمى النيل مطلية بصلصال أصفر (*) • ولكن من المحتمل أن جدائل كليوباترة الحريرية كانت تطلى أطرافها بشمع أو صمغ ذهبى اللون •

ومن الصعب معرفة أين تنتهى نقوش الزينة لكى يبدأ فن رسم الأشخاص فى عمل ينتمى الى هذه الحقبة • ونحن غير متأكدين من أن المقصود كان رسم شخص بالرغم من أن مقدمة الخرطوش الملكى الذى كتبت فيه كلمة كليوباترة بكل علامات النطق كاملة ، يشـير الى هذه النقطة • ولو كان الرسم يعنى شخصا لاحتاج الى مراعاة المساحة اللازمة للمعالجة التقليدية • ان ملامح الوجه المكتنز والابتسامة المغتصبة صفتان عاديتان فى كل رأس انسانى ينتمى الى العصر البطلمى • والأذن أيضا عمل نمطى ورسم الشكل سخيف • وبصرف النظر عن التكلف فان الوجه لا يحتاج الى الوجود المستقل ولا الى الجمال • واذا غطيت الفم فستجد أمامك رسما جانبيا للوجه خاليا من العيوب • أما الذقن والحلق فيمتاز كل منهما بالجمال التام ، بينما يعبر الوجه كله عن الايحاء بالقسوة ، والدهاء ، والاثارة الجنسية ، مع الاحساس الغامض ليس فقط بفن رسم الأشخاص بل أيضا بالتشابه •

ولابد أن يشعر الانسان بشىء يشبه الصدمة عندما يرى لأول مرة العمل التخريبى غير الظاهر على الأعمدة المزينة برأس الالهة حتحور تلك التى تحمل واجهة معبد دندرة • فهناك الثنيات الكثيفة لغطاء الرأس ، وهناك الأذنان المنتصبتان والمدببتان مثل أذنى البقرة ، ولكن لم تتبق أية واحدة من الملامح الرحيمة لوجه الالهة • ويصف أمبير هذه الأعمدة فى أحد خطاباته من مصر قائلا عنها انها ما زالت « تتألق بألوانها التى لم يقدر الزمن على طمسها » • ولابد أن الزمن كان مشغولا خلال الثلاثين

(*) المقصود هنا هو الحنة ــ (المراجع) •

عاما التى مضت منذ ذلك التاريخ لأنه رغم أننا حاليا نجد حالات عديدة من ألوان الرسوم المنحوتة فى الحجرات الداخلية الصغيرة فاننى لا أتذكر أننى لاحظت أية بقايا من الألوان (فيما عدا أثرا باهتا للصلصال الأصفر هنا وهناك) على الزخارف الخارجية ٠

وبدون كل هذا الضـــوء المشرق القادم من الشمس مع الفخامة والصمت وكل الأسرار ، قابلتنا عند العتبة رائحة ثقيلة تشبه رائحة الموت منبعثة من الغازات التى طال احتباسها ٠ واستطعنا بمساعدة الضوء الضعيف الذى ضل طريقه خلال الرواق أن نرى ملامح باهتة لغابة من الأعمدة التى ترتفع من الظلام السفلى وتضمحل فى الظلام العلوى ٠ وظهرت خلفها مرة أخرى مشاهد بعيدة لبعض القاعات المتوالية التى تمضى فى ظلام لا يمكن اختراقه ٠ ولم نكن نحتاج الى شجاعة عظيمة للنزول من هذه السلالم واكتشاف هذه الأعماق مع مجموعة من السياح المرافقين ، ولكن المكان كان مخيفا بالنسبة لمن يغامر بزيارته وحده ٠

ويكشف الرواق عند النظر من الداخل عن قاعة ضخمة يبلغ ارتفاعها خمسين قدما ، ومحمولة على أربعة وعشرين عمودا تحمل رؤوس الالهة حتحور ٠ وقد ربطت ستة من هذه الأعمدة بالحاجز عن طريق جزء من الواجهة ، وهى نفس الأعمدة التى نراها من الخارج ٠ وبعد أن تعودت أعيننا على ضوء الغسق تدريجيا رأينا عمودا هنا وعمودا هناك ما زالت جميعها تحفظ التشابه الغامض فى نقوش وجه نسائى ضخم ، بينما ظهرت على كل حائط أو عمود أو مدخل ، تشكيلة غريبة لأشـــخاص يظهرون برؤوس صقور أو عجول أو أبقار ، أو رؤوس متوجة أو ريش الطيور ، وقد رفعوا عاليا شعارات غريبة وهم جلوس على العروش ، يؤدون شعائر سرية ، ويظهرون كما لو كانوا يبعثون من أماكنهم مثل الأحياء ٠ وبالنظر الى السقف الذى صار أسود اللون ومشوها بفعل الدخان ، اكتشفنا رسوما مزخرفة لجعارين ، وكرات مجنحة ، وشعارات فلكية تفصل بينها حواجز تنتمى الى النوعيات الاغريقية المعقدة ، ملونة بألوان خضراء وبنية ٠ وتغطى عوارض الأعمدة الضخمة من القمـــة الى القـــاعدة مجاميع من النقوش الهيروغليفية التى تمثل خراطيش ملكية ، ورؤوس الالهة حتحور ، وصقور متوجة ، ووحوش خرافية (*) ، وآلهة ، وملوك وكلها بالنقش البارز ٠

(*) هذا الوحش الخرافى يطلق عليه الاغريق اسم شيمرا chimera ، وهو عبارة عن كائن له رأس اسد وجسم عنزة وذيل افعى ويطلق النار من فمه ــ (المترجم) ٠

وحتى هنا نجد أن كل رأس بشرية أمكن الوصول اليها مهما كانت صغيرة الحجم ، قد تعرضت للتشويه الشديد ٠

ومع الارتباك الذي اعترانا عند النظرة الأولى لهذه النقوش العديدة والسرية ، أخذنا نتجول ونمضى من القاعة الأولى الى الثانية ومن الثانية الى الثالثة ، وكل خطوة تقودنا الى ظلام أشد عمقا ٠ وكنا نقرأ عن هذه الآلهة والشعارات منذ عدة أسابيع مضت ، أما الآن ونحن هنا بالفعل فقد وجدنا أن المعلومات التى أخذناها من الكتب لا تساوى شيئا ، وشعرنا بجهلنا كما لو كنا قد هبطنا فجأة على عالم جديد ٠ ولم نفتح خريطة المعبد أو نبدأ في معرفة معانى النقوش التى تحيط بنا ، الا بعد أن أحطنا بهذا الانطباع الأول الذى أربكنا ، وبعد أن استرحنا قليلا على قاعدة أحد الأعمدة ٠

لقد كانت طقوس العبادة المصرية القديمة تتضمن بالضرورة المواكب الاحتفالية ٠ وهنا نجد الفكرة الأساسية لكل معبد ، ومفتاح بنائه ، فهو يتضمن حجرات مخازن تحفظ فيها الملابس والأدوات والشعارات المقدسة وما يشابه ذلك ، ومعامل لتحضير العطور والدهانات ، وخزائن لحفظ الأوانى المقدسة والتقدمات الثمينة وحجرات لاستلام وتنقية القرابين بأنواعها ، وصالات لتجميع وحشد الكهنة والموظفين وأغراض تكوين المواكب ، وممرات وسلالم وأحواش وأروقة مسقوفة وأفنية ضخمة مزروعة بالأشجار على الصفين ، ومحاطة بحوائط تحوطها السرية التى تصون خصوصية الكهنوت ٠

ولا يوجد فى هذا التصميم كما نراه ، مكان لأى شيء يتخذ شكل العبادة الجماعية ، ولذلك فان المعبد المصرى لم يكن مكانا للعبادة الجماعية ٠ لقد كان مخزنا للكنوز ، والأوانى ، وهيكلا ملكيا خصوصيا ، ومكانا للتحضير ، والتكريس ، والأسرار الكهنوتية ، ففيه تقيم التماثيل المقدسة على عروش ثمينة حيث يلبسونها الملابس أو يخلعونها عنها ، ويعطرونها بالبخور ، ويزورها الملك للعبادة فى أيام عظيمة محددة على مدار التقويم السنوى مثل مناسبة بداية العام الجديد أو تعظيم الآلهة المحلية حيث يتم اخراج هذه التماثيل وتجميعها فى ممرات المعبد ، ثم تحمل فى دورات حول القاعة بين تلويحات الرايات ، وانشاد التراتيل ، واحراق البخور خلال ممرات الفناء ٠ ومن المحتمل أنه لم يكن يسمح لأحد بحضور هذه الاحتفالات سوى الذين ينتسبون الى الأصول الملكية أو الكهنوتية ٠ أما بالنسبة لبقية الشعب فقد كان كل ذلك الذى يحدث

بين الجدران الشاهقة مغلفا بالسرية • ولابد من السؤال عما اذا كانت للجموع الغفيرة من الشعب أية عقيدة دينية ؟ من المحتمل أنهم لم يكونوا محرومين من دخول حرم المعبد ، ولكن يبدو أنه لم يسمح لهم بالمشاركة فى عبادة الآلهة • وان كان يسمح لهم بين الحين والآخر فى أيام الأعياد الكبيرة بمشاهدة الصيحات المقدسة حول الاله المحمول فى موكب يدور حول الفناء ، أو يلقون نظرة سريعة على الأشخاص الذين يتحركون والشعارات البراقة فى الظلام المحاط بالأعمدة فى القاعة السفلية • هذا هو كل ما كانوا يشاهدونه من العبادة الوقورة التى تتم فى معبدهم •

ويتكون معبد دندرة من رواق ، وصالة المدخل ، وصالة الاجتماع ، وصالة ثالثة يمكن أن يطلق عليها اسم صالة المراكب المقدسة ، وهيكل أرضى صغير • ويتضمن أعلى المعبد عشرين حجرة جانبية مختلفة الأحجام ومعظمها مظلم تماما • وتحمل كل واحدة من هذه الصالات والحجرات سجل استخداماتها المحفور • فهناك مئات من اللوحات البارزة ، والنقوش الهيروغليفية المعقدة التى تغطى كل قدم من الفراغ المتاح على الحوائط والأسقف الخارجية والداخلية والمدخل والأعمدة ، ومكعبات البطانة التى تبطن الممرات والسلالم • وتتضمن هذه النصوص الثمينة الكثير من القطع السحرية والمملة ، وهى ثروة غير عادية من التاريخ غير المباشر • فهنا نجد برامج الشعائر الاحتفالية ، وأساطير الآلهة التى لا تحصى ، وسير الملوك مع ألقابهم العديدة ، وسجلات الموازين والمقاييس ، وبيانات التقدمات ، ووصفات تجهيز الزيوت والروائح العطرية ، وسجلات بالاصلاحات والتجديدات التى أجريت للمعبد ، وقوائم جغرافية بالمدن والأقاليم ، وقوائم جرد الخزانة ، وما شابه ذلك • وتحتوى قاعة الأساطين على تقويم بالأعياد ، وتبين بدقة متناهية الاتاوات التى تقدم عن كل مناسبة تتكرر • ونجد على سقف الرواق خريطة البروج الفلكية ، كما نجد على حوائط معبد صغير فوق السقف ، التاريخ الكامل لبعث أوزوريس ، مع نظام الصلوات خلال ساعات الليل الاثنتى عشرة ، وتقويما بأعياد أوزوريس فى كافة المدن الرئيسية بمصر العليا ومصر السفلى • ومنذ سبعين عاما مضت كانت هذه النقوش تسبب الارتباك واليأس لدى العلماء ، ولكن منذ أن توصل العلم الحديث الى فهم أسرارها أصبح المعبد

مكشوفا أمامنا مثل كتاب مفتوح يفيض بالأمور الغريبة والطريفة وغير المتجانسة : انه كتاب يتضمن مجموعة الشرائع والتقاليد ولكنه مدون على الأحجار المنقوشة (١) ٠

ومع هذه المساعدة التى يقدمها دليل ماريبت يستطيع الانسان أن يستخرج معظم هذه الأشياء الغريبة ، ويحدد استخدامات كل صالة وكل غرفة فى المبنى كله ٠ والملك بدوره المزدوج كفرعون ورئيس للكهنة ، هو بطل كل منظر محفور ٠ وهو يرتدى أحيانا التاج المشطوف الطرف لمصر السفلى ، وأحيانا أخرى التاج الذى يشبه الخوذة الخاص بمصر العليا ٠ وأحيانا ثالثة يرتدى التاج المزدوج الذى يجمع بين التاجين ويسمى « بشنت Pschent » ٠ وهو يظهر فى كل لوحة ، ويرأس كل موكب٠ وابتداء من النقوش التى فى الرواق نراه قادما تتبعه الرايات الملكية الخمس ، مرتديا رداءه الطويل ، وصندلا فى قدميه ، وممسكا بعكازه فى يده ٠ وتستقبله عند الباب الهتان تقودانه الى حضرة الاله تحوت ، والاله أبيس الذى يحمل رأس العجل ، والاله حورس الذى يحمل رأس الصقر وهو الذى يصب عليه سيلا مزدوجا من مياه الحياة ٠ وبعد أن يتطهر ، تقوم الهات مصر العليا ومصر السفلى بتتويجه ثم يرسلنه الى الالهة المحلية التى تعبد فى طيبة وهليوبوليس وهى التى تقوده الى حضرة الالهة حتحور ٠ وحينئذ يقدم قرابين مختلفة ، ويتلو صلوات معينة ، وهنا تمنحه الالهة وعودا بطول العمر ودوام السمعة الطيبة وأشياء أخرى طيبة ٠ وبعد ذلك نراه دائما بنفس الابتسامة ، ودائما فى نفس الموقف يقدم الولاء لأوزوريس وحورس وغيرهما من الآلهة ٠ ويهدى اليهم الأزهار والنبيذ والخبز والبخور ، بينما هم يمنحونه الوعد بالحياة والسعادة والحصاد الوفير والنصر وحب الشعب ، وتتكرر هذه العبارات اللطيفة من رؤساء البعثات الدبلوماسية مع نماذج التملق الأنيقة ، مرات ومرات فى مجموعات من اللوحات الهيروغليفية ٠ وعلى كل حال فان ماريبت يرى فيها شيئا أكبر من لغة البلاط المطعمة بلغة السلطة ٠ انه يتوصل الى لغة التدريس ، ويكتشف فى التعبيرات التى تقدم الى الملك والآلهة انعكاسات

---

(١) انظر كتاب ماريبت وعنوانه دندرة Denderah الذى يحتوى على هذه النقوش التى لا تحصى فى ١٦٦ لوحة وأيضا مجموعة من النقوش التى فى كتاب بروجش ودوميش وعنوانه :

Recueil de Monuments Egyptiens ، Geographische Ins Chriften, 1862-3-5-6.

هذه العبادة القديمة التى تقدس الجمال والخير والصدق ، تلك الصفات التى تميز تعاليم المتحف الاسكندرى (١) ٠

وبعد المرور من الرواق الى صالة الاجتماع ، ندخل الى منطقة من الغروب الساكن ، وبعدها يصبح كل شيء مظلما ٠ ولا نستطيع أن نرى شيئا فى الحجرات حيث الحرارة الشديدة والجـو الخانق ، الا بمساعدة الشموع المشتعلة ، ويبلغ طول هذه الحجـرات حـوالى عشرين قدما وهى منعزلة مثل زنزانات السجون ومظلمة تماما ٠ أما النقوش التى تغطى حوائطها فهى عديدة مثل تلك التى فى الصالات الخارجية وتبين فى كل لحظة الغرض الذى صممت الحجرة لأجله ٠ وعلى ذلك فاننا نجد فى المعامل نقوشا بارزة لقوارير وزهريات ، وأشخاصا يحملون زجاجات العطور ذات الشكل المعتاد ، فى حجرات القرابين ، مع التقدمات التى تشمل أزهار اللوتس ، وحزم القمح ، وكيزان الذرة ، والرمان ، وفى هياكل ايزيس وآمون وسخمت ، نجد تماثيل لهذه الآلهة وهى متوجة وتتقبل من الملك فروض الطاعة والولاء ، بينما يظهر كل من الملك والملكة فى الخزانة وكل منهما يحمل هدايا مكونة من صناديق المجوهرات والعقود والصدريات والصنوج وما شابه ذلك ٠ ويبدو أن محطمى النقوش لم يجدوا وقتـــا يضـــيعونه فى هذه الزنزانات المظلمة ، لأن الوجـــوه والأشـــكال هنا غير مشوهة ، كما أن الألوان بقيت فى بعض الأماكن محفوظة بشكل ممتاز ٠ وعلى سبيل المثال نجد أن وجوه الالهات ملونة باللون الأصـــفر الخفيف ، أما جسم الملك فهو أحمر داكن وجسم آمون أزرق اللون ، بينما ترتدى ايزيس رداء ثمينا من طراز اللوز الهندى ، أما أشكال سخمت فهى ترتدى

---

(١) ان حتحور مسكن حورس لا تمثل فقط الهة الجمال (افروديت) التى عبدتها مصر القديمة ، ولكنها تلميذة عين الشمس ٠ انها الهة ذلك الكوكب الكريم الذى يبشر شروقــه بارسال مياه الفيضان ٠ وهى تمثل الشباب الدائم للطبيعــة ، والتجســيد المبــاشر للجمال ، وهى ايضا الهة الحقيقة ٠

ويقول الملك فى أحد النقوش التى فى الهيكل المخصص للصلاصل (الآلات التى تستخدم فى الموسيقى : « اننى أقدم لك الحقيقة يا الهة دندرة ، لأن الحقيقة هى عملك ، وأنت نفسك هى الحقيقة » ٠ وأخيرا فان شعارها هو الصلاصل ومن المفروض أن صوت الصلاصل كما ذكر بلوتارخ يزعج ويطرد تيفون (رمز الشر) كما كان رنين أجراس الكنائس فى العصور الوسطى يفزع بعلزبول وجنوده ٠ ومن وجهة النظر هذه تصبح الصلاصل رمزا لانتصار الخير على الشر ٠ ويشير مارييت فى تحليله لزخارف ونقوش هذا المعبد الى أن بناته قد تأثروا بفلسفة ذلك العصر وكيف أخفوا الأفلاطونية الاسكندرية تحت رمزية العبادة القديمة ٠ والحقيقة أن حتحور دندرة كانت تعبد بمفهوم غير معروف قبل العصر البطلمى ٠

ثوبا متعدد الألوان ملفوفا حول جسمها • أما آمون فهو متشح برداء أحمر وعدة حربية خضراء • أما الأجزاء السفلى من ملابس الالهات (النقب) فهى قصـــيرة بشكل لا يمكن اخفـاؤه ، ولكنها غنيـة بالمجوهرات ، أما أغطية رؤوسها وعقودها وأساورها فهى مغطاة بالتفاصيل الدقيقة ذات الأهمية • وترى فى أحد الهياكل الأربعة المخصصة للالهة سخمت ، الملك مرسوما وهو يقدم صدرية ثمينة وذات تصميم رشيق • ولو وجدت الكاتبة الوقت والضوء اللازمين لكانت قد قامت برسمها •

ويقع هيكل حتحور فى الحجرة الوسطى فى طرف المعبد في مواجهة المدخل الرئيسى تماما • وهذه الحجرة المظلمة التى لم يدخلها شـــعاع الشمس مطلقا ، تحتوى على المقصورة المقدسة ، وقدس الأقداس حيث كانت تحفظ الصلاصل الذهبية الخاصة بالالهة • وكان الملك هو الشخص الوحيد الذى يملك امتياز اخراج ذلك الشعار السرى • وبعد أن يقوم بذلك يضعه في ناووس ثمين يغطيه بستارة كثيفة ويضعه فى أحد القوارب المقدسة التى نجد صورها منقوشة على حوائط القاعة التى تحفظ بها • وكان المقصود أن ترفع هذه القوارب المصنوعة من خشب الأرز والذهب والفضـــة على أعمـدة مطروقة ثم تحمل على أكتاف الكهنـة فى المواكب الاحتفالية • وما زال الناووس هناك ، وهو عبارة عن فراغ فى الحائط يبلغ حجمه حوالى ثلاثة أقدام مربعة ويرتفع عن الأرض بحوالى ثمانية أقدام • وقمنا على ضوء الشموع بالدوران حول هذه الحجرات الخارجية • وكنا نجد فى كل مدخل ـ بالاضافة الى المكان المحفور لأجل المزلاج ـ ثقبا دائريا مجوفا من أعلى ومحفورا من أسفل على شكل ربع محيط الدائرة حيث كان البـــاب يدور على محوره فى ماضى الزمان • أما الأرضيات الممهدة والتى قلبها الباحثون عن الكنوز فهى مملوءة بثقوب الخيانة التى أحدثوها وكتل من الأحجار المحطمة • أما السقوف فهى مرتفعة جـــدا • ويهيمن الظلام على الممرات • وكل شيء خلف هذه الأعتاب غارق فى الظلام • وكان الشيء الوحيد الذى نستطيع أن نعمله ونحن نسرع خطانا فى ضـــوء الشموع هو الاحساس بالاحباط بسبب غرابة وهول المكان • كنا نتحدث بأنفاس مقطوعة ، كما أن الأعراب المرافقين لنـــا المعروفين بكثرة الكلام قد لاذوا بالصمت • أما الهواء المحيط فيبدو من رائحته أنه قد احتبس هنـــا على مدى عدة قرون •

وأخيرا فاننا نتسلق السلم الذى فى الجانب الشمالى للمعبد لكى نصل الى السقف • ولم نر شيئا يثير الدهشة والبهجة مثل هذا السلم •

وكنا نحـــاول هنـــا أن نتتبع بالترتيب كافة الاستعدادات التى تتخـذ لاقامة احتفال دينى عظيم • لقد رأينا الملك يدخل المعبـد ، ويمر باجراءات التطهير الرمزية ، ويتسلم التاج المزدوج ، ويتلو صـــلواته أمام كل معبود بالترتيب • وتبعناه الى داخـــل المعامل والهياكل وقدس الأقداس • وحتى هذه اللحظـة فان كل ما قام به ليس الا اجـــراءات أولية • ويأتى الآن دور الموكب وها هو قادم نحونا • ونرى هنا النقوش المحفورة على حوائط ذلك السلم وهى تمثل احتفال تتويج العبادة المصرية وهى تمر أمامنا بكافة تفاصيلها • وهنا نشاهد حاملى الرايات ، والكهنة حاملى القرابين ، ثم الكهنة الذين يؤدون الطقوس ، وكل الموكب الطويل العجيب والملك يسير فى مقدمته • وهم جميعا فى أحسن مظهر ودون أية خدوش كما لو كانوا قد خرجوا لتوهم من تحت يد النحات ــ كل فى الحالة التى تعود أن يعيشها ، وكل منهم قد وضع قدمه على السلم ، صـــاعدا معنا أثناء صعودنا وسائرا بجانبنا فى كل الطريق • أوضاعهم طبيعية ، وأشكالهم واضحة الملامح بحيث يتخيلهم المشاهد وكأنهم يتحركون أثناء تذبذب ضوء الشمعة فوقهم • ومن المؤكد أن هناك ليلة موحشة فى السنة يخرجون فيها من مواضعهم ويرددون البيت الثانى من ترنيمتهم ، ويتقدم السقف فى ترتيب روحى مع صوت الآلات الموسيقية الطويل السكون ، وصوت الانشاد الطويل الصمت !

وقد غربت الشمس الآن ، وبهت اللون القرمزى بينما كنـــا نتقدم على هذا الممر الكبير • أما أحجار السقف فهى ضـــخمة ، ونحن نمضى بخطوات واسعة ذهابا وجيئة فوق الحجارة الأضخم منها • وقد وجـــد رجلنا الكسول أن العديد منها يبلغ طوله سبع خطوات وعرضه أربعة • وهناك فى الركن البعيد يقف معبد صغير مرتكزا على أعمدة ذات رؤوس تمثل البقرة ، مثل بيت حجرى صغير فى فناء شديد الاتســـاع ، بينما يرتفع سقف القاعة فى الطرف الشرقى مكونا منصة ثانية أكثر ارتفاعا •

وفى نفس الوقت يضمحل نور الغسق فى الوقت الذى ظلت فيه الجبال متدثرة فى جو من الضـــوء الخافت الرقيق ، ولكن الظلال المغلفة بالأسرار تزحف سريعا فوق السهل ، وترقد تلال المدينة القديمة عنـــد أقدامنا مرتبكة ومتقلبة مثل أمواج بحـر مظلم • وكم هى مرتفعـة ومنعزلة وصامتة ! أنصت الى هذه الصيحة النائحة الرفيعة ! انها عويل ذئب يتجول فى الليل • انظر كم هى مظلمة هناك فى اتجاه النهر ! أسرع ، أسرع • لقد تباطأنا طويلا • لابد أن نمضى سريعا لأن الليل سيدركنا • وكان علينا أن نمضى عن طريق السلالم العكسية التى تحتوى على صفوف من

النقوش لكى نندفع الى خارج المعبد حيث يبدو الحائط الجانبى الضخم للرواق وهو يرتفع فوق رؤوسنا نحـو السماء مثل برج عظيم • ونلمح اثنين من التماثيل الضخمة أحدهما برأس أسد والآخـر بدون رأس ، وهما يجلسان خارجا وقد أعطى كل منهما ظهره للمعبد • ونتجـه نحو السهل بكل سرعتنـا ، ونتسلق الكتل المتناثرة لكى نمضى بين التـلال التى ليس لها شكل محدد • وسرعان ما يدركنا الليل ، وتختفى التلال ، ويبتعد المعبد ، ولا يتبقى لنا ما يقودنا الا ضوء النجوم الخافت • وعلى كل حال ، فقد أخذنا نتعثر ، فتقاربنا من بعضنا ، وأخذنا نطلق رصاصة بين حين وآخر على أمل أن يسمعنا هؤلاء الذين فى القوارب ، وضللنا تماما مثل الرضيع فى الغابة •



الشيخ سـليم

وأخيرا عندما بدأ بعضنا يرتعـد ، وبدأنا نشعر جميعـا باليأس ، وأخذ تلحمى يطلق آخر رصاصة باقية معه ، ردت علينا رصاصة انطلقت بالقرب منا • وظهر ضوء هائم وسرعان ما لمع بين زراعات القصب سرب كامل من المصابيح المتراقصة ، والوجوه البنية اللون لترحب بنا ، وتقودنا الى مقرنا • ان الريس حسن الضئيل الحجـم ، والمخلص ، والمفتـول العضلات ، والعزيز علينا ، وخليفة الرجل الشريف ، وسلام الضاحك ، ومحمد على الظريف ، وموسى الأسمر الوسيم ، كانوا جميعهم هنـاك ، ويالها من مصافحة تلك التى جرت معهم ! • وكم ظهر بياض الأسنان التى كشفت عنها الابتسامات ! ويا له من سيل متبادل من التهانى التى يصعب ادراكها ! أما من جهتى أنا فأقول بكل الصـدق ، اننى لم أشعر طوال حياتى بسعادة فى لقاء مثلما شعرت فى هذا اللقاء •

الفصل الثامن

طيبة والكرنك

وفى اليوم الثالث لرحيلنا عن دندرة ، وأثناء صعودنا الى سطح المركب، وجدناها قد زينت بسعف النخيل ، كما وجدنا بحارتنا يرتدون عمائمهم المخصصة للاجازات ، وظهر الريس حسن فى أحسن مظهر بمعنى أنه كان يلبس الحذاء والجوارب التى يرتديها فى المناسبات العظيمة ، وقال فى نفس واحد :

« نهارك سعيد • صباح الخير أيتها الأقصر ! » •

وكان صباحا حارا مشبعا بالضباب الخفيف الذى لمعت من خلاله أشكال غير واضحة للجبال ، مع هبوب الرياح الدافئة •

وأسرعنا الى جانب المركب ، ونظرنا الى الخارج باشتياق ، ولكننا لم نر شيئا • وكان القبطان ما زال يبتسم وينحنى ، بينما أخذ البحارة فى الجرى هنا وهناك ، يمسحون ويزخرفون أرض المركب ؛ قال الجندى الذى لايستطيع ألد أعدائه أن يلصق به تهمة الحياء : « الأقصر ، الخروف، طيب ! » وأخذ يردد ذلك فى كل مرة يقترب منا •

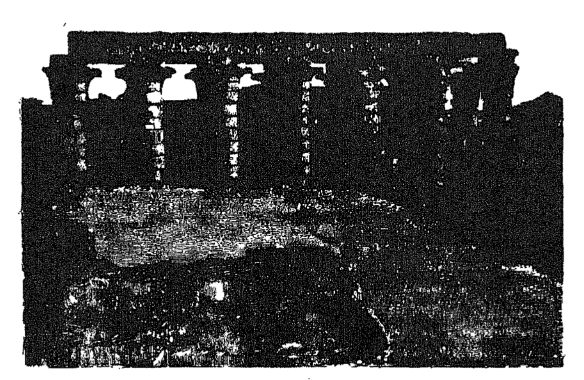
لقد قرأنا عن الأقصر الكثير ، كما راودتنا فى أحلامنا ولكنها ظهرت بعيدة دائما ، لدرجة أنه كان من الصعوبة بمكان أن نصدق أننا كنا نقترب من تلك الشواطىء الشهيرة لولا هذا التنويه اللطيف عن الخروف الموعود ، وحوالى الساعة العاشرة ارتفع الضباب مثلما ترتفع الستارة ، ورأينا الى يسارنا سهلا غنيا مرصعا بزراعات النخيل • أما عن اليمين فقد شاهدنا خطا عريضا من الأراضى المنزرعة التى تحدها سلسلة من جبال الحجر الجيرى ، كما ظهرت فى الأفق البعيد سلسلة أخرى ، وجميعها رمادية اللون ، مختلطة بالظلال • وكان الريس حسن فى نشوة الانتصار وهو يشير فى جميع الاتجاهات على الفور قائلا :

« الكرنك — القرنة — الأقصر » . وحاول تلحمى أن يطلعنا على مدينه هابو وتمثالى ممنون . وأقسم الرسام المرافق لنا على أنه يستطيع رؤية رأسى التمثالين الجالسين ومدخل وادى مقابر الملوك . وحملقنا ونحن مشدوهون ومتشككون فلم نر أيا من هذه الأشياء . ووجدنا أنه من الصعوبة بمكان أن نصدق أن غيرنا يراها . كان النهر يتسع أمامنا ، والمسطحات خضراء على كلا الجانبين ، وقد أفسحت الجبال عن الممرات التى تؤدى الى المقابر المحفورة فى الصخر ، بينما كنا نرى هنا بوضوح مجموعة من أشجار الجميز بعيدا داخل نطاق الأرض على حافة الصحراء . وهناك ربوة مظلمة فى منتصف المسافة بين كومة مختلطة من أشياء قد تكون صورا ساقطة أو بناية من الأحجار المتهدمة ، ولكننا لم نر شيئا يشبه المعبد ، أو شيئا يبين لنا أننا أصبحنا على مسافة معروفة من أعظم الأطلال فى العالم .

وسرعان ما رأينا أثناء سير المركب بناء صخريا خاليا من النوافذ (ليت السماء تحفظنا !) يشبه قلعة جديدة أو سجنا ، يعلو فوق زراعات النخيل التى على اليسار . وقد قيل لنا ان ذلك هو أحد بوابات الكرنك الأمامية . وفى نفس الوقت ظهرت بعض الألواح المطلية بالجير ، ومجموعة قليلة من الأعمدة على بعد حوالى ميل مشيرة الى موقع الأقصر . وقفز الجندى وهو يصيح بعبارته التى لا ينفك عن ترديدها : « الأقصر — الخروف — طيب ! » وصفق القبطان بيديه لاحضار الطار والدربكة . وتشكلت دائرة على السطح السفلى . وابتسم الرجال جميعا وشرعوا يغنون أحلى أغانيهم ، ومن ثم دخلنا الى الأقصر دخول الفاتحين مع الموسيقى الصاخبة ، والشراعين المتلئين بالرياح ، والرايات الخافقة ، والأغصان التى تموج فوق رؤوسنا .

وعندما مضينا قدما كانت أول المناظر التى شاهدناها من هذه القرية المشهورة هى قمة بوابة فرعونية أخرى، والنهاية الرفيعة لاحدى المسلات، وصف من الأعمدة الضخمة نصف المدفونة فى التربة ، والمنازل البيضاء التى يقيم فيها قناصل بريطانيا وأمريكا وبروسيا ، وفوق كل منزل علمه وشعاره ، ومنحدر من شاطىء رملى ، وخلفية من الحوائط الطينية وأبراج الحمام ، ومقدمة من القوارب المحلية والذهبيات المطلية بأسلوب سار وهى تقف فى مراسيها . وأثناء مرورنا وقفت لتحيتنا مجموعة من الموظفين المعممين الذين كانوا يجلسون فى ظل مدخل فوقه عقد . أما الذهبيات المتجمعة التى كانت راقدة بأشرعتها المطوية مثل طيور البحر النائمة فقد هبت من نومها فى نوبة من النشاط المتقطع . وأنزلت الأعلام ، وأطلقت

البنادق ، واستيقظت الأقصر كلها من قيلولة الظهر • وقبل أن ينقشع الدخان ، وصلت الذهبية باجستونز فى هيئتها الأنيقة ، بينما تألقت الذهبيات الأخرى كما حدث من قبل •



بهو الأساطين الخاص بالملك حور محب

عن صورة فى كتاب بروجش بك •

والآن ينـــدفع نحـــو الشاطىء زحـــام من الحمير والأولاد الذين يسوقونها ، والشحاذين ، والمرشـــدين ، وتجـــار العاديات ، بينما أخذ الأطفال يصيحون طالبين البقشيش • أما التجار فكانوا يعرضون قلائد من الجعـــارين المقلدة ، وكان الأولاد الذين يسوقون الحمير يهتفـــون بأسماء حميرهم ويمتدحونها ، واعتبر الجميـــع أننـــا فريستهم المباحة • وصاح أحدهم : « أهلا يا سيدتى ! هذا حمار أمريكى لكل الأغراض • جربى هذا الحمار الأمريكى » •

وصاح ولد آخر : « موسى السريع • انه حمار جيد ، حمار سريع ، انه أفضل حمار فى الأقصر ! » •

وجاء ثالث وهو يجر بالحبل حمارا عجوزا ضعيف الركبتين ، أكل عليه الدهر وشرب ، بينما هو حمار يماثل الحصان الخشبى الذى تجفف عليه المناشف وذلك من حيث الصلاحية للركوب ، وقال صائحا :

« هذا هو حمار أمير ويلز · انه حمار من الدرجة الأولى ! حمار عظيم ! حفظ الله الملكة ! حرة ! » ·

ولم تكن الحمير ولا الجعارين ذات أهمية فى نظرنا الآن بالمقارنة مع الخطابات التى نأمل أن نجدها فى انتظارنا على الشاطىء · وأسرعت بنا القوارب ، ثم انطلقنا منها مسرعين ، واتجه بعضنا نحو القنصلية البريطانية بينما انطلق آخرون الى شباك البريد · وعدنا منهما ونحن أغنياء وسعداء ·

وفى نفس الوقت عرضنا أن نقضى فى الأقصر أربعا وعشرين ساعة فقط · وكان علينا أن نذهب الى الكرنك بعد ظهر هذا اليوم الأول · وفى صباح الغد نعبر النيل الى مدينة هابو ومعبد الرمسيوم (١) ، ثم نعاود الابحار بعد منتصف النهار بقدر استطاعتنا · وعلى ذلك كنا نأمل أن نحيط بفكرة عامة عن طبوغرافية طيبة وأن نحمل معنا انطباعاً سطحيا عن الطراز المعمارى الذى اتبعه الفراعنة · انها لا تعدو أن تكون مجرد اطلالة ولكنها ضرورية ، لأن طيبة تمثل الفترة الوسطى العظيمة من تاريخ الفن المصرى · ان الطرز القديمة تقود الى هذه النقطة ، وتتفرع منها الطرز الحديثة ، ولكن كلا الطرازين القديم والحديث يصعب ادراكهما بدونها · وفى نفس الوقت فان السياح الذين يقصدون الشلال الثانى يتصرفون بحكمة عندما يتركون كل شىء مثل الدراسة المفصلة لمدينة طيبة حتى عودتهم · أما فى الوقت الحالى فيكفى عمل مسح سريع للمجموعات الثلاث من الأطلال ؛ لأنها تقدم الوصلة الضرورية ، وتساعد السائح على فهم معابد ادفو وفيلة و (أبو سنبل) ، وباختصار فهى تتيح للسائح أن يضع الأشياء فى موضعها الصحيح · ومع كل ذلك فان هذه عملية عقلية يجب على كل سائح أن يعرفها بنفسه ·

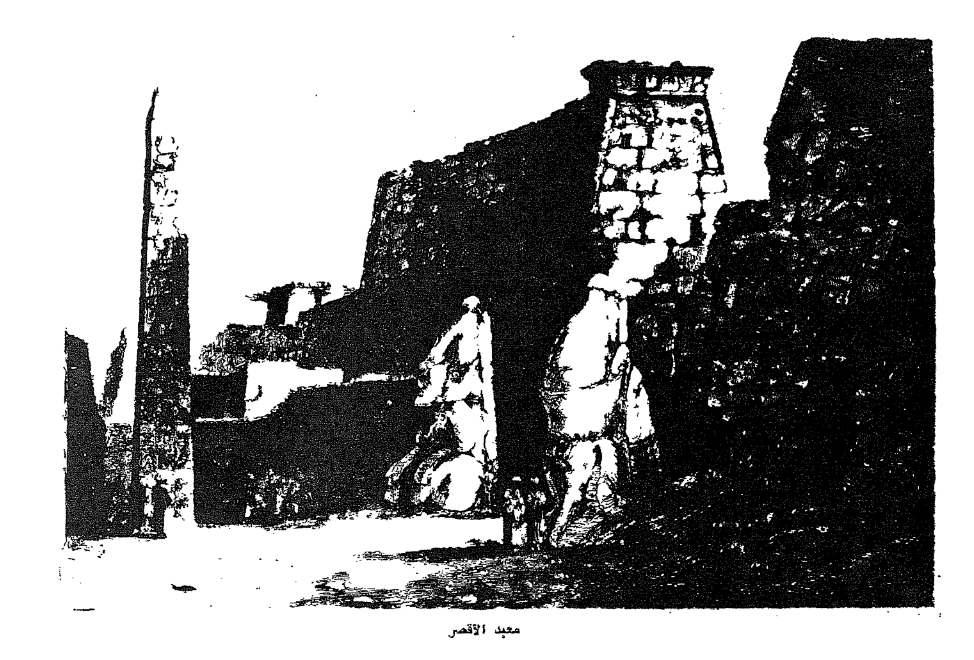
ولابد من القول بأن طيبة قد بنيت مثل لندن على كلا جانبى النهر ولا بد أن حدودها الأصلية كانت شديدة الاتساع ، ولكن مبانيها العامة ، وأرصفة الشحن ، والآلاف من المساكن الخاصة قد زالت ولم يبق منها سوى القليل من الآثار · أما المدينة التى عاش فيها المواطنون العاديون

---

(١) يفترض البعض أن هذا الصرح المشهور صورة طبق الاصل من مقبرة ممنون التى تذكرها استرابون ، ومقبرة أوسيماندييس التى وصفها ديودور الصقلى · أما شامبليون فانه حسب ما عرفه من الاساطير الهيروغليفية التى تطلق عليها اسم « منزل رمسيس (الثانى) فقد أطلق عليه الاسم المناسب وهو « معبد الرمسيوم » ·

والتى بنيت من القرميد فانها قائمة على بعض التلال ذات القيمة الضئيلة . بينما اشتمل الجانب الذى يحتوى على الصروح الدينية على خمس مجموعات ضخمة من الأطلال التى كانت مبنية بالحجر الجيرى · منها ثلاث مجموعات فى البر الغربى ، واثنتان فى البر الشرقى ، مع بقايا العديد من المعابد الصغيرة ، وتشكيلة ضخمة من المقابر * وهذا هو كل ما بقى دليــلا على عظمتها على الدوام · أما الأقصر فهى قرية عريقة حديثة ، تحتـل موقع أقدم هذه المجموعات الخمس ، وهى تقوم على البر الشرقى ملاصقة للنهر وعلى بعد حوالى ميلين جنوب الكرنك · وعلى الضفة المقابلة تقع القـــرنه والرمسيوم ومدينة هابو · ونظرة خاطفة الى الخريطة تغنى عن صفحات كاملة من الشرح لبيان العلاقة النسبية بين مواقع هذه الأطلال · أما مدينة هابو فهى تقع فى الجنوب البعيد بالنســـبة لاى صرح قائم على الجانب الشرقى للنهر · وتقع مقابر طيبة العظيمة خلف هذه المجموعات الثلاث حيث تمتد وتتسع بطول طرف سلسلة الجبال الليبية ، بينما نجد مقابر الملوك على البعد خلفها فى الأودية المتالقة على الجانب الآخر من الجبال · وتبلغ المسافة بين الكرنك والأقصر أقل من ميلين ، بينما تقدر المسافة بين مدينة هابو والقرنة بحوالى أربعة أميال · ولدينا هنا بيان بالاتساع رغم أنه لا يحد من المدينة القديمة ·

والأقصر قرية كبيرة يسكنها خليط من السكان الأقبـــاط والعرب الذين يمارسون تجارتهم المزدهرة فى العاديات ، ويشكل المعبد هنا مركز نشاط القرية التى بنى الجزء القديم منها داخل وحول الأطلال · ويواجه المدخل الكبير للقرية اتجاه الشمال ويطل على الكرنك · ومازال البرجان المزدوجان للصرح العظيم عظيمين رغم أنهما متداعيان فى مكانهما ، ومجردان من الأفاريز ، ومزدحمان بالأنقاض · ويجلس مقابلهما على كل جانب من البوابة الوسطى تمثال ضخم على رأسه تاج مهشم ، وبلا ملامح ، ومدفون حتى الذقن ، مثل اثنين من المتكبرين فى الدائرة الخامســـة الحزينة ؛ ومرة أخرى تقوم مسلة منعزلة أمامهما على بعد عدة ياردات ، وهى أيضا مدفونة الى نصفها · والتمثـــالان مصـــنوعان من الجرانيت الأســـود · أما المسلة فهى من الجرانيت الأحمر ومصقولة بأسلوب رفيع ، ومغطاة على كافة جوانبها الأربعة بنقوش هيروغليفية رائعة ، مصفوفة فى ثلاثة أعمدة رأسية ·وقد حفرت هذه النقوش بدقة متناهية · ويبلغ عمقهـــا داخل الصفين الخارجيين من النقوش حوالى بوصتين ، وخمس بوصات فى العمود الأوسط·ويزيد الارتفاع الحقيقى لهذه الكتلة الرائعة عن سبعين قدما ، يختفى منها ما بين ثلاثين وأربعين قدما تحت التربة المتراكمـــة منذ عدة قـــرون ·



معبد الأقصر

أما المسلة الأخرى التى فقدت طبقتها السطحية والتى لاتدركها العين بسبب تعرضها للسماء المكشوفة تحت ظروف المناخ الخارجى فانها تعانى من الكآبة بسبب الاهمال الناتج عن الثورات والثورات المضادة التافهة التى تجرى فى ميدان الكونكورد • وينتصب تمثال ثالث ذو رأس صغير من الحجر الجيرى على خط واحد مع التمثالين الأسودين ، ولكنــه يبتعد عنهما حوالى خمسين قدما الى الغرب • ونشك فى أن يكون هنــاك تمثال مماثل له مختفيا بين الأكواخ التى تتجاوز منتصف المسافة عبر واجهــة البرج الشرقى • أما السطح الخارجى لهذين البرجين فهو مغطى كله بنقوش منحوتة بدقة للآلهة والرجال والخيول والعربات الحربية ومواكب النصر ومعارك الحرب • فالملك فى مركبته يشد قوسه الرهيب ، أو يذبح أعداءه مترجلا على قدميه ، أو يجلس على عرشه وهو يتقبل الولاء من رجـــال البلاط • وهناك فرق عسكرية كاملة مسلحة بالرماح والتروس تسير فى الاستعراض ، بينما يهـرب الأعـداء فى فوضى • ويعود الملك الى مكانه وحوله حاملو المراوح بينما يحرق الكهنة البخور أمامه •

وهذا الملك هو رمسيس الثانى الذى أطلق عليه الكتاب القدماء اسم سيزوستريس وأوسيماندياس والمعروف فى التـــاريخ باسم رمسيس الأكبر • وأسماؤه وألقابه الحقيقية الموجودة على الآثار هى : رع ــ أوسر ــ ماعت ، ستب ــ ان ــ رع ، رع ــ ميسو ، مر ــ آمون (*) وهى تعنى : رع القوى فى الحق ، الذى يبرهن عليه رع ، ابن رع ، محبوب رع •

أما مناظر المعارك المنقوشة هنا فهى الحملة التى قام بها ضد الحيثيين موضوع بردية ساليبه الثالثة المشهورة (١) وقد سجلت للذكرى على حوائط كل معبد بناه هذا الملك • ويظهر الملك منعزلا عن جيشه ، محاطا بالأعداء ولا يرافقه سوى سائق عربته الحربية ، وهى تبين أنه قد أغار على أعدائه ست مرات،وقد قهرهم بسيف قوته وداسهم مثل القش تحت سنابك حصانه ، وبدد شملهم بيد واحدة كالاله • وقد كانت هناك خمسمائة وألفان من العربات الحربية فأطاح بهـا ، ومائة ألف محارب فشتت جمعهم • أما هؤلاء الذين لم يذبحهم بيده فقد طاردهم حتى حافة البحر • دافعا

---

(١) ترجمها الى الفرنسية المرحوم الفايكونت دى روجيه تحت عنوان Le poëme de Pentaour سنة ١٨٥٦ ، وترجمها الى الانجليزية مستر جودوين سنة ١٨٥٨ ، وتكررت مرة ثانية بمعرفة البروفيسور لاشنجتون سنة ١٨٧٤ • انظر : Records of the Past ـ المجلد الثانى •

(★) ينطق الاسم : أوسر ماعت رع ــ ستب ان رع ــ رعمسو ــ مرى آمون •

اياهم لكى يلقوا حتفهم قفزا فى الماء مثلما يقفز التمساح • وكان هذا هو الانتصار الذى أحرزه رمسيس ، وهو التاريخ الذى كتبه المؤرخ الملكى بنتاؤور •

واذا نحينا جانبا المبالغة الأسطورية التى تظهرها هذه القصة ، فلا شك أنها تسجل بعض الأعمال العسكرية التى أنجزها هذا الملك مع جيشه والذى يظهر أمامنا ، ولكنها ليست واضحة ، وتذكر النصوص الهيروغليفية المدونة على هذه اللوحات أن الأحداث المبينة قد حدثت فى اليوم الخامس من شهر أبيب فى السنة الخامسة من حكمه • ومن هذا نعرف أنها السنة الخامسة من حكمه المنفرد بمعنى أنها السنة الخامسة بعد موت أبيه سيتى الأول الذى اشترك معه فى الحكم عندما كان صغير السن • كان شابا قويا عندما جرت هذه المعركة الشهيرة التى خاضها تحت حوائط قادش على نهر الأورنت ، وتبين النقوش البارزة أنه كان يصحب معه العديد من أبنائه الذين رغم أنهم كانوا صغار السن الا أنهم ظهروا فى عجلاتهم الحربية مسلحين بأسلحتهم الكاملة ومشاركين فى المعركة (١) •

أما التماثيل المشوهة فهى تماثيل شخصية للملك الظافر • أما المسلة كطراز فاخر للتكريسات فى مصر فهى تعلن على الملأ أن « سيد العالم ، الشمس الحارسة للحقيقة ، المؤيد من رع ، قد بنى هذا الصرح تكريما لأبيه آمون رع ، وقد نصب له هاتين المسلتين العظيمتين المنحوتتين من الحجر فى مواجهة بيت رمسيس فى مدينة آمون » •

وكانت هذه هى الفاتحة التى افتتح بها رمسيس الأكبر المعبد الذى أقيم قبله بحوالى خمسين ومائة عام بمعرفة الملك أمنحوتب الثالث • وقد بنى أيضا الفناء الذى افتتح فيه هذه البوابة الضخمة ، وقد ربطها بالجزء الأقدم من المبنى بطريقة حكيمة جعلت البهو الأصلى الأول يتحول الآن الى البهو الثانى ، ويليه فى الترتيب بهو الأعمدة ، وصالة الاجتماع ، ثم قدس الأقداس • وبعد أن انتهت الفترة الطويلة التى حكمها الملك رمسيس ، وضع الملوك الآخرون الذين حكموا بعده ، بصماتهم على المعبد،

---

(١) حسب النقش الكبير الموجود فى أبيدوس ، الذى ترجمه ماسبيرو ، يبدو أن رمسيس الثانى كان ملكا منذ ولادته كما لو أن عرش مصر قد آل اليه عن أمه ، وأن أباه سيتى الأول قد حكم نيابة عنه أثناء طفولته بوصفه وصيا على العرش • وتبين بعض النقوش أنه قد تسلم البيعة قبل ولادته •

حيث تظهر فى النقوش المتأخرة أسماء شباكا Shabaca ، وبطلميوس فيلوباتور ، والاسكندر الصغير ، بينما توجد فى الأجزاء الأقدم من المبنى أسماء أمنحوتب الرابع (خو ــ ان ــ آتون) ، وحور محب ، وسيتى والد رمسيس الأكبر . وبهذه الطريقة تطور المعبد المصرى من عصر الى عصر فأقام هـذا الملك صفا من الأعمدة ، وأقام الآخر صرحا ، حتى أصبح المعبد فى الوقت المناسب معرضا لطرز البناء التى تنتمى الى عدة عصور . ومنذ ذلك التاريخ فان هذه الفوضى فى التخطيط التى يمكن أن ننسبها الى نزوات البناة المتعاقبين تمثل أحد الملامح العديدة فى العمارة المصرية . وفى الوقت الحالى فان صرح المعبد والفناء اللذين أقامهما رمسيس الثانى قد أقيما بزاوية قدرها خمس درجات من الفناء والهيكل اللذين أقامهما أمنحوتب الثالث . وقد حدث ذلك لكى يصير معبد الأقصر على خط واحد مع معبد الكرنك حتى يمكن الربط بينهما بواسطة طريق الكباش العظيم الذى تتناثر بقاياه فوق مسار الطريق القديم .

وكما قلت منذ قليل فان بوابة الصرح نصف المدفونة ، وهذه المسلة المنعزلة ، وهذه الرؤوس العملاقة التى تبرز أمام صرح المعبد ، تبدو مرعبة كما لو كانت لمبعوثين من الموت ، مازالت كلها تحمل دلائل العظمة . ولكنها عظمة تشبه عظمة فاتحة باهرة لقصيدة لم يتبق منها الا بقايا مشوهة . وتقع خلف هذا المدخل متاهة من الحوارى والممرات المدخنة والقذرة والمعقدة، وأكواخ طينية ، وأبراج حمام طينية ، وأحواش طينية ، ومسجد بنى من الطين ، وجميعها متشابكة مثل أعشاش الدبابير فى داخل وحول الأطلال . وكانت تحمل سقوف الأكواخ الحقيرة عوارض منقوش عليها الألقاب الملكية . وبرزت الأعمدة الفخمة من وسـط الحظائر التى يظهر داخلها الجاموس والجمال والحمير والكلاب والكائنات البشرية ، ترعى مع بعضها فى رفقة رديئة . وكانت الديوك تصيح ، والدجاجات توقوق ، والحمائم تهدل ، والديوك الرومية تصيح ، والأطفال تتجمهر ، والنساء يخبزن الأرغفـة ويثرثرن . وكانت كافة النوعيات المقوتة من روتين الحياة العربية تجرى بين الحوارى المتعرجة التى تغطى الأروقة وتشوه شكل نقوش الفراعنة ، ولذلك كان من الصعب دائما أن نتتبع تصميم هذا الجزء من المبنى . ولما كانت كافة أنواع الاتصالات مقطوعة بين القاعات وبهو الأعمدة ، فقد كان علينا أن ندور من الخارج وخلال باب فى الطرف البعيد للمعبد ، للوصول الى قدس الأقداس والحجرات الملاصقة له . وقد احتفظ الأعراب بالمفتاح بالاضافة الى بعض الشموع . وكان الظلام منتشرا هناك بينما ظل السقف سليما ، وقد بنى على قمته منزل حديث ضخم متعدد الحجرات .

ولذلك فان هذا الجزء من المعبد لو كان مضاء جزئيا مثل معبد دندرة وغيره عن طريق فتحات في السقف مثلثة الشكل ، فانه حتى تلك الومضات الباهتة من الضوء تكون قد استبعدت بسبب هذا المنزل ·

وتمثل كل ما بقى تحت غطاء أحجار السقف الأصلية فى المقصورة التى أعيد بناؤها أثناء حكم الاسكندر أيجوس ، وبعض الحجرات الجانبية الصـــغيرة ، وبهو ضخم ربما كان هو صالة الاجتمــاع · وقد أظهرت بعض الأساطين نصف المدفونة والمحطمة على الجـانب التالى للنهــر أن هذا الطرف كان محاطا بصف من الأساطين فى سالف الزمان · أما قدس الأقداس وهو حجرة مستطيلة من الجرانيت ذات سقف منفصل ، فقد كان قائما تحيط به قاعة أكبر مثل صندوق داخل صندوق ، وتغطيــه نقوش بارزة فى الداخل والخارج · وهذه النقوش (التى لاحظت بينها شكل الملك راكعا وهو يقدم لآمون رع تمثال شخص راكع) قد جرى تنفيذها حسب الطراز المتوسط الذى انتشر فى عصر البطالمة ، بمعنى أن الأشكال أكثر طبيعية ولكنها أقل جودة بالنسبة لأمثالها من نقوش العصر الفرعونى ، كانت الأطراف ممتلئة ، والمفاصل ضخمة ، والملامح غير معبرة · ولا يستطيع الانسان أن يجد أثرا لفن رسم الأشخاص فى شكلها الطبيعى ، لأن كل وجه يتخذ نفس الابتسامة الكريهة التى تشوه النقش النصفى البارز للملكة كليوباترة فى معبد دندرة ·

وفى البهــو الكبير الذى أطلق عليه اســـم قاعة الاجتماعات يعود الانسان الى زمن مؤسسه · يوجــد ما بين أمنحتب الثالث والاسكندر أيجوس فترة زمنية قدرها ١٢٠٠ سنة ، وبالطبع فان طراز المبانى عند كل منهما بعيد عن الآخر تماما مثل ابتعاد عصر كل منهما عن عصر الآخر · ولا يمكن حتى للمبتدىء أن يخطىء فينسب أيهما الى الآخر · ولا يوجد شىء عادى أكثر من تواجد الأعمال التى تنتمى الى مصر الفرعونية جنبا الى جنب مع الأعمال التى تنتمى الى مصر اليونانية فى نفس المعبد الواحد · ولكنك لا تجد فى أى مكان آخر خصائص كل منهما واضحة فى تناقض صارخ مثلما تجد فى هذه الحجرات المظلمة بمعبد الأقصر ، ففى النقوش التى تحتل بهو أمنحوتب نجد الخطوط الفاصلة والأشكال الحادة والرقيعة والرؤوس المحددة للشخصيات خلال فترة كان فيها الفن لم يكتسب أو يضيع بعد تحت ضغوط التأثيرات الأجنبية بل كان مصريا خالصا · وبينما تنتمى الموضوعات أساسا الى طفولة الملك الا أنه من الصعب أن نرى شيئا بوضوح فى ضوء الشمعة المربوطة فى نهاية عصا نحملها ،

وهنا حيث النقش ضئيل البروز ، ومع ارتفاع الحوائط فانه من المحال أن نميز تفاصيل اللوحات المرتفعة ٠

وقد اكتشفت أن الاله آمون والالهة موت وابنهما خنسو ، أى ثلاث الشخصيات التى يتكون منها ثالوث طيبة هم الآلهة التى تتصدر هذه المناظر، وأنهم لحسن الحظ مميزون بطريقة ما عن تحتمس الرابع والملكة زوجته وابنهما أمنحوتب الثالث ٠ والواضح أن أمنحوتب قد ولد تحت حماية الالهة موت الأم المقدسة ، وتربى مع الاله الشاب خنسو ، واستقبله آمون بوصفه الأخ المساوى لابنه المقدس ٠ وأظن أننى لاحظت فى هذه القاعة مجموعة منفصلة من النقوش تمثل آمون وموت فى موقف رمزى ربما يمثل الخطوبة أو الزواج لأنهما يجلسان وجها لوجه وتمسك الالهة بيدها اليمنى يد الاله اليسرى بينما تسند كوعه الأيمن بيدها اليسرى ٠ وفى نفس الوقت ظهر فوق رأسيهما عرشان ٠ واستندت أقدامهما على يدى اثنتين من الالهات الحارسات ٠ ومن الأمور ذات الدلالة أن نجد رمسيس الثالث مع احدى زوجاته قد ظهرا فى نفس الوضع فى أحد الموضوعات المحلية الشهيرة المنقوشة على الطوابق العليا للمبنى المقام فى مدينة هابو ٠

لقد ألقينا نظرة عابرة على هذا المعبد المثير للاهتمام ، الا أننا قضينا به وقتا أطول مما يحظى به معظم هؤلاء الذين ترسو مراكبهم لعدة أيام ، عاما بعد عام بالقرب من أعمدته الملكية ٠ ولو أمكن نقل المبنى بكامله الى نقطة ما بين منف وأسيوط ، وهى المنطقة التى لا يوجد بها أطلال تطل على النهر ، فلابد أن السائحين سيزورونه بحماس شديد ، اذ أنه فى موقعه هنا ضائع الذكر بين عجائب الكرنك والبر الغربى ، ولا ينال الا الاهمال الذى لا يستحقه ٠ وتلك الأجزاء من المبنى الأصلى التى ظلت باقية ، هى فى الحقيقة ثمينة بشكل غريب لأن أمنحوتب الثالث كان واحدا من ملوك مصر الذين اشتهروا بالبناء ، وما نراه هنا هو عينة من العينات القليلة التى لا تزال باقية من أعماله المعمارية (١) ٠

---

(١) ان خرائب معبد الاقصر العظيم قد عانت من التحول الكامل منذ كتابة هذا الوصف المذكور عاليه ، وقد قام البروفيسور ماسبيرو خلال العامين الأخيرين من خدمته الوظيفية كخلف للمرحوم مارييت باشا ، بعمل الكثير لهذا الاثر الفرعونى العظيم مثلما عمل سلفه لمعبد ادفو الاكثر حداثة ٠ وكانت الصعوبات التى اكتنفت تنفيذ هذا العمل العظيم تبدو شديدة لأول وهلة ٠ لقد رفض الفلاحون فى البداية أن يبيعوا منازلهم ، وطلب مصطفى آغا مبلغ ثلاثة آلاف جنيه استرلينى لمقره القنصلى الذى كان مبنيا بين أساطين حورمحب فى مواجهة النهر ٠ وكان من الصعب مناقشة شراء حق هدم المسجد القام =

ويقع الحى القبطى من الأقصر فى شمال البهو الكبير محاذيا للنهر . انه انظف وأوسع وطلق الهواء بالنسبة للحى الذى يقيم به بقية سكان الاقصر . وكان القنصل البروسى قبطيا ، وكذلك مدير مكتب البريد المهذب . ويعيش الأسقف القبطى فى بيت مفروش نصفه مجاور للكنيسة والنصف الآخر فوقها ، أما مدير مكتب البريد (شاب غير رشيق يلبس بذلة أوربية ضيقة أظهرت ذراعيه وساقيه من أطرافها القصيرة) فقد كان يعرض خدماته سريعا . وقد تعهد بأن يرسل الينا خطابات أثناء وجودنا فى أسوان وكوروسكو ووادى حلفا حيث أنشئت مكاتب البريد متأخرة ، وقد وفى بوعده والتزم بهذا بكل دقة . وكان يضيف دائما ملحوظة مجاملة غريبة على المظروف الخارجى يقول فيها « مع أطيب تمنياتى » أو « أتمنى لكم أخبارا طيبة ورحلة سعيدة » وقد نقلت عينة من أسلوبه الأدبى متضمنة فى الملحوظة التالية التى يبدو أنه كان فخورا بها :

= فى الفناء الأول للمعبد ، وبعد عام كامل من المفاوضات رضى الفلاحون بالبيع مقابل شروط عادلة حيث تسلم كل مالك ثمنا لمنزله مع قطعة ارض فى مكان آخر لكى يبنى عليها منزلا جديدا . وبذلك أمكن التخلص من حوالى ثلاثين عائلة بينما رفضت ثمانى أو عشر عائلات البيع لقاء أى ثمن . وقد بدأت أعمال الهدم فى سنة ١٨٨٥ . وفى سنة ١٨٨٦ تبعت العائلات القليلة الرافضة للبيع مسار العائلات الاخرى وتم اخلاء المعبد بكامله من الاشغالات خلال ذلك الموسم . ولم يبق سوى المسجد الذى ترك قائما داخل حرم المعبد ، وكذلك منزل مصطفى أغا على الجانب التالى للموقع الذى ترسو فيه المراكب . وتلا ذلك استقالة البروفيسور ماسبيرو سنة ١٨٨٧ ، ومن ذلك الحين قام خلفه مسيو جريبو M. Grebaut باستكمال العمل الذى نتج عنه ظهور معبد يلى معبد الكرنك من حيث فخامة التصميم وجمال التنسيق فى المكان الذى كان مزدحما وقذرا وغير ظاهر بسبب الاكواخ الطينية والأحواش والاسطبلات والازقة واكوام السماد العضوى . والآن فانه قد جرى تنظيم المسارات التى بين أعمدة المعبد ، وارتفعت العوارض المنحوتة بطول قمة سلسلة الجبال التى ترتفع هنا عالية فوق البر الشرقى للنيل . والآن تم اظهار بعض هذه الأساطين حتى مستوى الارضية الأصلية . ويبلغ ارتفاع هذه الاساطين ٥٧ قدما فى المدخل . وفى البهو الكبير الذى بناه رمسيس الثانى بلغت مساحة المنطقة التى جرى اظهارها ٩٠ قدما طولا ، ١٧٠ قدما عرضا واكتشفت مجموعة من التماثيل الضخمة الجميلة المصنوعة من الجرانيت الاحمر للفرعون رمسيس الثانى ، دون أن تنقل من مكانها الأصلى لأنها كانت مبنية بين حوائط من الطين ومتآصلة على مدى القرون (من يقدر أن يحدد هذا العدد غير المعروف من القرون ؟) داخل قبر من الصلصال الوضيع . وفى النهاية فان مصطفى أغا القنصل البريطانى العجوز الذى سيظل السائحون الانجليز يتذكرون كرمه لفترة طويلة ، قد مات بعد حوالى عام من ذلك التاريخ ، كما أن المنزل الذى أمتع فيه الكثيرين من الزوار الانجليز والذى أعطاه قيمة رفيعة ، تجرى الآن أعمال ازالته .

(ملحوظة : بالأمر • أمرنا كاتب البريد فى مصر السفلى من أسيوط الى الخرطوم ، تلك التى تتبع البوستة الخديوية المصرية المنتظمة ، أن تدفع الآن للرسائل المرسلة فى مصر السفلى ضعف ما يدفع عنها فى مصر العليا ، ويعنى ذلك أن الخطابات التى ترسل من هنا الى أبعد من أسيوط يدفع عنها قرشان عن كل عشرة جرامات من وزنها ، وكذلك تلك الرسائل المرسلة الى ما وراء الخرطوم • أما الخطابات المرسلة ما بين أسيوط والخرطوم فيدفع عنها قرش واحد مقابل كل عشرة جرامات من الوزن ويعنى ذلك شراء طوابع من البوستة ثم لصقها على الخطابات • وأيضا اذا أراد شخص ما أن يرسل خطابات مسجلة فيجب أن يدفع قرشين زيادة عن كل خطاب • وهناك تعليمات فى مكاتب البريد باستلام الخطابات المرسلة الى بلدان أوربا وأمريكا وآسيا مثل انجلترا وفرنسا وايطاليا وألمانيا وسوريا والقسطنطينية •• الخ • وكذلك ارسال الجرائد وغيرها من الأشياء • الأقصر فى أول يناير ١٨٧٤ المفتش م • عدى) •

. . . .

كان هذا الشاب عند الوداع يطلب بعض الأدوات الكتابية وبراية • وكنا بالطبع نجد سرورا فى اهدائه مثل هذه الهدايا التقديرية المتواضعة • وقد عرفنا فيما بعد أنه كان يفرض نفس هذه الضريبة على كل ذهبية تسافر فى النيل • وقد استنتجت أنه حتى ذلك الوقت قد امتلك مجموعة مثيرة من أدوات المائدة الصغيرة •

وعند نقطة انتهاء خط السكة الحديد كانت الرسائل المصرية والنوبية تحمل بمعرفة عدائين متمركزين على مسافات تبلغ كل منها أربعة أميال بطول الطريق•وكان كل عداء يجرى الأميال الأربعة المطلوبة وفى نهايتها يجد العداء التالى مستعدا لاختطاف حقيبته ثم الانصراف حالا بكامل سرعته • ويقوم العداء التالى بتسليمها الى الذى يليه بنفس الطريقة • ويمضى هذا الأسلوب ليلا ونهارا بدون توقف حتى تصل الحقيبة الى أول محطة للسكة الحديد • والمفروض أن ينهى كل عداء مسافة الأميال الأربعة الخاصة به فى مدة نصف ساعة وبذلك فان البريد الذى يخرج كل صباح من الأقصر يصل الى القاهرة فى ستة أيام باعتبار أن القاهرة تبعد ٥٤٠ ميلا وأن ٢٦٨ ميلا من هذه المسافة يتم قطعها عدوا على الأقدام ، وبما أن القطارات تسير مرة واحدة كل يوم سنعتقد أن هذه السرعة مشكورة •

وبعد الظهر ركبنا الحمير ومضينا الى الكرنك • وكان طريقنا يمر خلال السوق السياحية التى كانت من أفقر الأسواق التى رأيناها حتى

ذلك الحين. كانت تتكون من حظائر قليلة مفتوحة ، وفى واحدة منها شاهدنا بين يدى حلاق الأقصر خمسة من بحارتنا وهم يجلسون القرفصاء على مصـطبة مبنية من الطين ، وقد خلعوا عمائمهم مثل صف من اليوسـفى المتساقط من الشجر • وكان الحلاق قد انتهى لتوه من دهن رؤوسهم الخمسة برغاوى الصابون ، ووقف ينظر الى تأثير ما عمله فى اعجاب مثلما يفحص الطباخ الفنان طبقا مخصوصا من البودنج بالكريمة • وقد ظهر البودنج كما لو كان يشعر بالخجل عندما ضحكنا أثناء عبورنا •

وبعد ذلك وصلنا الى الضاحية غير المنتظمة الشكل التى تجتمع فيها الفتيات الراقصات • وكانت تلك الفتيات اللائى يرتدين الثياب المزركشة باللون الأخضر الزمردى ، والوردى الفاتح ، والأصفر الملتهب ، يجلسن القرفصاء خارج محال اقامتهن وهن حاسرات الوجوه على أعتـاب اثنتين أو ثلاث من الحجرات الموحشة التى تستخدم لتقديم القهوة فى السوق • لقد كشفن عن أسنانهن وهن يضحكن فى وجوهنا فى ألفة شديدة • وكانت حواجبهن مرسومة بحيث تلتقى فوق قصبة الأنف ، كما أن عيونهن قد تخضبت بالكحل • وتلونت خدودهن بالروج الأحمر بشكل مبالغ فيه • أما شعرهن فكان مثبتا وملمعا بزيت الشعر ومعقوصا فوق جباههن ، ومجدولا فى شكل دلايات عديدة • ولم نر من قبل فتيات بمثل هذه الغرابة • وكانت احدى هؤلاء الحوريات سوداء اللون وظهرت فائقة الجمال فى لونها الأسود بالمقارنة الى الدهانات والمسـاحيق التى تشـوه وجوه زميلاتهـا •

والآن تركنا القرية خلفنا وركبنا الحمير عبر سهل واسع ، بعض أجزائه قاحلة وجبلية ، بينما تنمو حشـائش الحلفاء الجافة فى بعض أجزائه الأخرى • وقد تناثرت مجموعات النخيل • هنا وهناك • وكان نهر النيل يجرى منخفضا وبعيدا عن الأنظار مما جعل الوادى يبدو ممتدا فى خط متصل بالجبال على كلا الجانبين • والآن نتجه يسارا نحو ضريح أحد المشايخ الذى تعلوه قبة صغيرة وتظلله مجموعة من أشجار الطرفاء • وبعد ذلك نمضى مع حوض ترعة جافة ، ثم نسير بمحاذاة تلال غير واضحة المعالم تحدد موقع أطلال لم تكتشف بعد • وندخل الى طريق غير مستو ولكنه مستقيم ويتجه مباشرة الى الكرنك • وعند كل ارتفاع فى مستوى الأرض كنا نرى البوابات الضخمة ترتفع فوق مستوى أشجار النخيل • ومرة واحدة لمدة لحظات قليلة ، ظهرت فى المنظر كتلة مختلطة ومتناثرة من الأطلال الكثيفة التى بدت كأطلال مدينة كبيرة • ثم انحدر طريقنا الى

أخـدود رملى محاط بحوائط من الطين وزراعـات من النخيل القزمى ، وسرعان ما اتسع ذلك الأخدود حتى أصبح شارعا كبيرا يحرسـه على الجانبين صفان من تماثيل الكباش المحطمة ويقودنا الى بوابة صرح مرتفع الى السماء ·

وارتفعت غابة صغيرة من أشجار الجميز والنخيل بجانب هذا الصرح كما لو كانت قد زرعت هنا عمدا ، وقد ظهر خلفها صرح المعبد ذو البرجين، وكانت الكباش ضـخمة ويبلغ طول الواحـد منها عشرة أقدام ، وكان بعضها يحمل رأس كبش · أما الباقى ويبلغ عدده حوالى أربعين أو خمسين فقد كان بعضه بدون رأس ، وقد انشق بعضه الآخر الى أجزاء متناثرة ، بينما انقلب البعض ، وتشوه البعض فظهر مثل الصخرة التى قذف بها السيل · لقد كان هذا الطريق يصل ما بين معبـدى الأقصر والكرنك فى يوم ما ، ومع مراعاة المسافة (تبلغ حوالى ميلين بدءا من أحد المعبدين الى المعبد الآخر) وأيضا مع حساب المسافات القصيرة بين مواقع تماثيل الكباش نجد أن عدد هذه التماثيل يصل الى حوالى خمسمائة ، أى أن عددها كان يبلغ خمسين ومائتين على كل جانب من جانبى الطريق · وبعد أن ترجلنا عن الحمير لعدة دقائق دخلنا الى المعبد · ونظرنا مشدوهين الى الفناء الواسع وصف الأساطين ، واختلسنا النظرات الى بعض الحجرات الجانبية الخربة ، ثم ركبنـا الحمير · وذكرت الكتب التى فى أيدينا أننا قد شاهدنا المعبد الصغير الذى أقامه رمسيس الثالث ، واذا كان موقعه فى أى مكان آخر بخلاف الكرنك فلابد وأنه كان سيظهر ضخما جدا ·

وأتذكر الباقى كما لو كنت فى حلم · وبعد أن تركنا المعبد الصغير تحولنا نحو النهر وسرنا محاذين طرف الحوائط الطينية للقرية ، واقتربنا من المعبد الكبير فى طريق يقود الى مدخله الرئيسى · وهنا دخلنا فوق ما كان فى يوم ما طريقا آخر عظيما للتماثيل التى تحمل رؤوس الكباش وهى تجثم مرفوعة الرؤوس على قواعد مربعة تغطيها نقوش الأساطير الهيروغليفية ، ويبدأ هذا الطريق من مرسى بجانب نهر النيل ·

والآن فان البرجين اللذين رأيناهما أولا عند قدومنا بحرا فى الضباح، يرتفعان أمامنا ، كأطلال مهيبة تلمع فى ضوء الشمس ، وقد سطع عليها الضوء المتلألئ خلال أعماق السماء الزرقاء ، وكان أحدهما سليما تقريبا بينما كان الآخر مشققا كما لو كانت قد أصابته هزة زلزال · ولكنهما كانا مرتفعين بحيث انه لو تسلق أعرابى وتعلق فى منتصف المسافة ما بين

قمة أحدهما الى قمة الآخر ، فانه وهو على هذا الارتفاع كان سيظهر فى حجم لا يزيد على حجم السنجاب .

وترجلنا ثانية على عتبة بوابة الصرح الضخمة ، وكانت التلال غير المنتظمة الشكل التى تكونت من الطوب الأحمر ، تبين حدود الحائط القديم للدائرة ، والذى كان يمتد على كلا الجانبين ، وانفتح أمامنا منظور ضخم من الأساطين والصروح يقود الى مسلة بعيدة ، ودخلناه فاذا بالحوائط العالية ترتفع فوق رؤوسنا كالصخور ، ودخلنا الى البهو الأول ، وهنا فى وسط مربع مفتوح الى السماء ينتصب أسطون منعزل ، هو الأخير فى درب مكون من اثنى عشر أسطونا تفكك بعضها بفعل الهزة ، فتمددت على الأرض حيث وقعت مثل الهياكل العظمية لوحوش من الفقريات قذف بها الفيضان على الشاطئ .

وبعد أن عبرنا هذا البهو فى ضوء الشمس اللامع ، أتينا الى مدخل ضخم بين بوابتين أخريين ، وكان المدخل فخما ومغطى بنقوش بارزة ، أما البوابتان فقد كانتا مجرد شلالين من الكتل المتساقطة التى تكومت الى اليمين واليســار فى فوضى كبيرة ، وقد زال افريز المدخل ، ولم يبق الا شظية بارزة من الحجر الذى تكونت منه العارضة الأفقية فوق المدخل . وكان يبلغ طول هذا الحجر عندما كان كاملا أربعين قدما وعشر بوصات . ولابد أن ارتفاع المدخل كان يبلغ مائة قدم .

وتقدمنا بعد أن تركنا الى اليمين تماثيل عملاقة مشوهة ، نقش على ذراع وصدر كل منها خرطوش الملك رمسيس الثانى ، وعبرنا الظل الذى على العتبــة ووصلنا الى القاعة السفلية الشهيرة التى بناها الملك سيتى الأول .

لقد كتب الكثير عن هذه القاعة كما نشرت عنها صور كثيرة . ولكن لا تستطيع أية كتابات أو فنون أن تنقل الينا أكثر من انطباع قزمى شديد الشحوب . ومن الصعب وصفها بالكلمات لمجرد تقديم صورة واضحة عنها ، ان مساحتها كبيرة ، وتأثيرها عظيم ، وتثير فى الانسان احساسه بالدهشة التى تعجزه عن النطق ، وصغر السن ، والقصور بشكل كامل ومساحق .

انه مكان يدفعك الى الصمت ويعجزك ليس فقط عن الكلام بل أيضا عن التفكير . وليس هذا فقط هو الانطباع الأول ، فانه فيما بعد وخلال

نفس العام عدنا فى النهر فى رحلة العودة ، ورسونا بجوار المكان وقضينا أياما طويلة بين الأطلال ، وجدت أننى لم أقل كلمة واحدة فى القاعة الكبرى ، كان أفراد آخرون يقيسون محيط هذه الأساطين الضخمة ، وكان آخرون يتسلقون هنا وهناك ، ويكتشفون وجهات النظر ، ويختبرون دقة قياسات ويلكنسون وماربيت ، أما أنا فقد استطعت أن أنظر فقط ، وأظل صامتة ، والنظـر المجرد يمثل شيئا اذا نجح الانســان فى التذكر ، وقد صورت القاعة الكبرى بالكرنك فى ركن مظلم من عقلى طالما أننى أمتلك الذاكرة ، لقد أغلقت عينى ونظرت اليها كما لو كنت هنـاك ، ليس مرة واحدة كما يحدث أثناء النظر الى الصورة ، ولكن بالتدريج مثلما تلاحظ العينان الأشياء العظيمة وتنتقل خلال نطاق بصرى متسع • وقف مرة أخرى بين هذه الأساطين الضخمة التى تظهر خلال الدروب من أى زاوية تنظر اليها •



بهو الأساطين بالكرنك

اننى أرى هذه الأساطين ملفوفة في ظلال غامرة وحزم عريضة من الضوء ، اننى أراها منقوشة وملونة بأشكال الآلهة والملوك مع شعارات الاسماء الملكية ، ومذابح تقديم القرابين ، وأشكال الحيوانات المقدسة ، ورموز الحكمة والحقيقة . ان محيط هذه الأساطين ضخم ، وعندما أقف عند قاعدة واحد منها ــ أو ما يبدو أنه القاعدة ــ لأن رصف الأرضية الأصلية مدفون تحت الأرض بمقدار سبعة أقدام،أجد ان الاحاطة بالأسطون الواحد تحتاج الى ستة رجال يقفون حوله بأذرعهم ممتدة وقد تلامست أطراف أصابع ذراعى كل منهم بأطراف أصابع ذراعى الآخر ، ان الأسطون الواحد يلقى بظل عرضه اثنى عشر قدما ، ومثل هــذا الظل لا يلقيه الا برج كبير ، أما قمة الأسطون التى ترتفع فوق رؤوسنا فتظهر كما لو كانت قد وضعت هناك لتحمل السماء ، وقد نحتت على شكل زهرة اللوتس المتفتحة ، وهى تلمع بألوان أبدية ــ ألوان مازالت زاهية بالرغم من أنها تقع تحت ملامسة أيد ملوثة بالتراب على مدى أكثر من ثلاثة آلاف عام ، ان الأسطون لا يحتاج الى ستة رجال بل اثنى عشر رجلا للدوران حول هذه القمة الدائرية لهذه الزهرة الهائلة .

وتتشابه الاثنا عشر أسطونا الوسطى فى هذا الحجــم الضخم ، أما بقية الأساطين (وعددها اثنان وعشرون ومائة) فهى ضخمة كذلك ولكنها أصــغر ، ولم يتبق من السقف الذى كانت تحمله الا العوارض التى هى عبارة عن أحجار منحوتة من كتل صخرية كبيرة (١) ، ومنقوشة وملونة تقوم مقام القنطرة فى الفراغ الواقع ما بين كل أسطون والأسطون الذى يليه ، وتفرش التربة السفلية بخطوط من الظلال .

وبالنظر الى أعلى وأسفل الدرب الأوسط نرى فى أحد الطرفين مسلة تشبه اللهب ، ونرى فى الطرف الآخر نخلة منعزلة فى مواجهــة

---

(١) لم يذكر حجم هذه الاحجار فى أى كتاب من كتبنا . وقد قمت بقياس طول أحد الظلال مع الأخذ فى الاعتبار اضافة ٣٠ قدما عند كل طرف تمثل المسافة الضرورية للوصول الى مركز كل من الاسطونين اللذين يحملان الحجر ، وقد وجد ان الكتلة العلوية لابد وأن يبلغ طولها ٢٥ قدما . اما ابعــاد البهو الكبير فهى ١٧٠ قدما للطول ، ٣٢٧ قدما للعرض . وهو يتضمن ١٣٤ اسطونا ، ترتفع الاساطين الاثنــا عشر الوسطى منها بمقــدار ٦٢ قــدما (حوالى ٧٠ قدما بعد اضافة القاعدة المربعــة والطبقــة الحجرية المسطحة التى تعلو قمــة الاسطون) بينما يبلغ محيطه ٣٤ قدما و٦ بوصات . اما الاساطين الاصغر فان طول الواحد منها يبلغ ٤٢ قدما ، ٥ بوصات ومحيطه ٢٨ قدما . وجميع الاساطين قد دفنت فى الارض الى عمق يصل الى ستة او سبعة اقدام فى الرواسب الطينية التى تخلفت عن الفيضانات التى حدثت خلال فترة تتراوح ما بين ثلاثة الى اربعــة آلاف عام .

خلفية عبارة عن جبل أحمر اللون . أما عن اليمين واليسار فتظهر من خلال صفوف طويلة من الأساطين ، لمحة من نقوش بارزة ضخمة تتخذ شكل صفوف على الحوائط غير المسقوفة التى تتوزع فى كل اتجاه ، وكما هى العادة فقد كان الملك ظاهرا فى كل مجموعة وهو يقدم فروض العبادة المعتادة بينما تستقبله الآلهة وتباركه . وكانت هذه الأشكال الفنية الرفيعة التى يظهر نصفها فى الضوء والنصف الآخر فى الظل ، تبرز بشكل واضح وبدون لون ، ويبلغ ارتفاع كل شكل منها حوالى ثمانية عشر أو عشرين قدما ، وبالكاد تظهر أكثر غرابة عندما كان السقف الضخم فى مكانه مع وجود ضوء الغسق الدائم .

ولكن من الصعب أن نتخيل وجود سقف فوقها لأنه يغلق الاتساع الذى ينفتح نحو السماء ، انها تقوم جميعا فى موضعها المناسب ، ويشعر الانسان الى حد ما بأنه لم يكن من الضرورى وجود شيء يفصل بين مثل هذه الأساطين والأعماق الزرقاء اللانهائية للسماء .

وكان الطريق العظيم مضاء بما فيه الكفاية بفعل صف مزدوج من النوافذ التى فى الجزء العلوى من الحائط الذى يبرز من السقف وما زال بعضها باقيا حتى الآن ، وقد افترض بعض الدارسين أنها ربما كانت زجاجية ، ولكن هذا غير محتمل لسببين : الأول هو أن واحدا أو اثنين من براويز هذه النوافذ الضخمة مازال يتضمن المشربية الحجرية الصلبة التى تغطيها والتى يبدو فى الوقت الحالى أنها قامت مقام المادة نصف الشفافة . والثانى هو عدم وجود دليل يبين أن المصريين القدماء قد صنعوا ألواح الزجاج أو أنهم استخدموه فى مبانيهم بهذه الطريقة رغم أنهم عرفوا استخدام أنابيب النفخ لصناعة الزجاج منذ أيام خوفو .

فكيف كتبت العبارة القائلة بأن البهو الكبير فى الكرنك هو أعظم الأعمال المعمارية التى صممت ونفذت بأيدى الانسان ؟ وكيف أمكن تكرار هذه العبارة ؟ يقول لنا أحد المؤلفين ان مساحته تبلغ أربعة أضعاف المنطقة التى تقوم فيها كاتدرائية نوتردام فى باريس ، بينما يقارنها مؤلف آخر بكاتدرائية القديس بطرس فى روما . وبينما يتحدث الجميع عن عدم قدرتهم على وصفه الا أنهم يحاولون تقديم هذا الوصف ، وذلك لكى ينقلوا صورة ملموسة لمن لم يشاهده ، ولكن ذلك مستحيل كما سبق أن قلت ، ولو كان يشبه هذا المكان أو ذاك لما صعبت علينا مهمة وصفه ، ولكن الحقيقة أنه لا يوجد مبنى فى هذا العالم الواسع نستطيع أن نقارنه به ،

فالأهرام أكثر عظمة ، أما مسرح الكولوزيوم (فى روما) فيغطى مساحة أكبر ، أما معبد البارثينون (فى أثينا) فأكثر جمالا ، ولكن بهو الأعمدة يتفوق عليها جميعا من حيث عظمة الفكرة ، وضخامة التماثيل ، وجلال التنظيم الرفيع • ان هذا المدخل وهذه الأعمدة هى كلها من عجائب الدنيا • كيف تم رفع هذه العارضة الحجرية الأفقية ؟ وكيف تم نصب هذه الأعمدة ؟ يقول مشاهد حديث العهد بعد أن دخل بين هذه الأعمدة الجبارة : « ستشعر بأنك قد انكمشت حتى أصبحت فى مثل حجم وعجز الذبابة » ولكننى أظن أنك ستشعر بأكثر من ذلك ، انك ستذهل عندما تفكر فى الرجال الأقوياء الذين صنعوها وستقول لنفسك : « لقد كان هناك عمالقة حقيقيون فى تلك الأيام » •

وربما أحس السائح الذى يجد نفسه لأول مرة كما لو كان فى وسط غابة من أشجار المطاط الضخمة الحجم والارتفاعWillingtonia Gigantica نفس الاحساس الساحق بالرهبة والغرابة ، ولكن الأشجار الضخمة بالرغم من أنها احتاجت الى ثلاثة آلاف عام لكى تنمو وتصل الى هذا الحجم ، الا أنها تفتقد الاثارة والغموض اللذين يحققهما العمل الانسانى ، انها لا تضرب بجذورها فى أعماق ستة آلاف عام من التاريخ ، وكذلك لم ترتو بدماء ودموع الملايين (١) الذين لم تعرف حياتهم أصواتا تقل فى جرسها الموسيقى عن غناء الطيور ، أو عويل الرياح الليلية وهى تكنس مرتفعات كلجيرا (*) ولكن يبدو أن كل نفس ينطلق خلال أجنحة الكرنك الملونة ، يرجع صداه حاملا تنهدات هؤلاء الذين قضوا نحبهم فى المحجر ، وفوق المجاديف ، وتحت عجلات مركبة الغازى •

وبالرغم من أن البهو السفلى بناه سيتى الأول والد رمسيس الثانى الا أن بعض علماء المصريات يفترضون أنه قد صمم — ان لم يكن قد بدأ تنفيذه — فى عهد أمنحوتب الثالث الذى أسس معبد الأقصر وأقام التماثيل الضخمة التى فى السهل•ويحتمل أن تكون هذه الخراطيش المنحوتة بوفرة على الأسطون والاطار الخشبى الذى يحيط بالباب ، لا تتضمن سوى أسماء سيتى ، الذى لا نشك فى أنه قام بتنفيذ العمل كله ، وأسماء رمسيس الذى أكمله •

---

(١) لقد حسب العلماء ان كل حجر فى هذه المعابد الفرعونية الضخمة يساوى على الاقل حياة انسان •

(*) تقع جنوب استراليا الشمالية — (المترجم) •

والآن ، أليس غريبا أن نعرف اسم وتاريخ المهندس الذى أشرف على بنـــاء هـذا البهو العجيب ، وصمم المدخل الضخم الذى يستخدم للدخول اليه ، والبوابتين العظيمتين اللتين تقعان على كلا الجانبين ؟ أليس من المثير أن ننظر الى صورته ونعرف أى صنف من الرجال كان ينتمى اليه ؟ حسنا • ان القاعة المصرية فى متحف ميونيخ تتضمن تمثالا وجد فى طيبة منذ حوالى سبعين عاما يمثل ذلك الرجل وقد نقش اسمه عليه ، كان اسمه : باك ــ ان ــ خونسو (خادم خونسو) انه يجلس على الأرض فى حالة تأمل وقد أطلق لحيته وارتدى رداءه ، وقد ظهر من النقوش على ظهر التمثال أنه رجل يتميز بقدرة غير عادية ، وتسجل هذه النقوش خطوة خطوة ، ترقيته الى أعلى درجــات السلطة ، لقد حصل على منصب رئيس الكهنة والنبى الأول للاله آمون خلال حكم سيتى الأول ، وأصبح كبير المهندسين لمدينة طيبة خلال حكم رمسيس الثانى ، ونال تفويضا ملكيا بالاشراف على زخرفة المعابد ، وعندما أقام رمسيس الثانى أثرا لأبيه المقدس آمون رع تم تنفيذ بناء هذا الأثر تحت اشراف باك ــ ان ــ خونسو • ويمضى النقش هنا كما ترجمه مسيو ديفيريا فيقول انه « أقام الصرح المقدس فى البوابة العليا فى دار آمون (١) وأقام مسلات من الجرانيت وعمل صـــوارى ذهبيــة للأعلام ، وأضاف صفوفا من الأساطين البالغة الضخامة » •

ويظن مسيو ديفيريا أن معبد القرنة قد يكون هو المقصود هنا • ولكن يجوز الاعتراض على ذلك بأن معبد القرنة يقع فى الجزء السفلى وليس العلوى من طيبة ، وأنه لا توجد فى معبد القرنة صفوف من الأساطين الضخمة أو مسلات ، والأكثر من ذلك هو أنه لسبب غير معروف لدينـا حاليا يبدو أن اقامة المسلات قد انحصرت كلية فى البر الشرقى لنهر النيل • ومن الممكن ألا تكون الأعمال التى سردت هنا قد نفذت لنفس المعبد وحده • ان « الصرح المقدس فى البوابة الشمالية لمسكن آمون » لابد وأن يكون هو معبد الأقصر الذى زينه رمسيس بالمسلتين الوحيدتين اللتين تنسبان اليه فى طيبة ، والصرح الذى أقامه لأبيه المقدس آمون (من الواضــح أنه بناء جديد) من المحــال أن يكون شيئا آخر غير

---

(١) بر آمون أو با آمون هو أحد الأسماء القديمة لمدينة طيبــة التى كانت هى المدينة المقدسة المخصصة للاله آمون • وقد نسب البعض كذلك كلمة أبت أو ابوت أو ابيتو الى أصل هندى ألمانى بمعنى دار أو مسكن وهو اسم آخر لمدينة طيبــة ولكن من المحتمل أن يكون أكثر أسماء المدينة استخداما هو يواز Uas •

الرمسيوم ، بينما « صفوف الأساطين البالغة الضخامة » التى ذكرت بوصفها اضافات ، يبدو كما لو أنها تخص فقط البهو السفلى فى الكرنك ، وهذا السؤال فى جميع الحالات ملء بالاثارة · ويسعدنا الاعتقاد بأننا لا نجد فى تمثال متحف ميونيخ مجرد صورة لشخص لعب دور مايكل أنجلو فى الكرنك خلال فترة مضت ودخلت فى طى النسيان ، ولكنه كان أيضا مصمم Ictinus الرمسيوم ، لأن الرمسيوم هو بارثينون طيبة ·

عندما انتهينا من الجولة فى الأطلال الرئيسية ، كانت الشمس تميل الى الغروب والظلال تتمدد ، فركبنا حميرنا واتجهنا نحو الأقصر · أما وصف ما رأيناه بعد مغادرة البهو الكبير فلابد وأنه سيستغرق فصلا كاملا من الكتاب · ان المسلات الضخمة المصنوعة من الجرانيت اللامع ، التى أقيم بعضها ، بينما تهشم بعضها الآخر ، والخطوط الضخمة على الحوائط المنقوشة التى غطتها موضوعات المعركة العجيبة ، والمواكب المقدسة ، والتسجيل التفصيلى لأعمال الملوك ، والأفنية المحطمة المحاطة بصفوف من التماثيل التى بدون رؤوس ، والهيكل المبنى بكامله بالجرانيت اللامع ، والنقوش المحفورة مثـل الجوهرة ، وبهـو الأساطين الثانى الذى يعود تاريخه الى الأيام الأولى للملك تحوتمس الثالث ، والمتاهات المكونة من الحجرات التى بدون سقف ، والتماثيل المشوهة ، والبوابات المهشمة ، والأساطين الساقطة ، والقواعد الصلبة ، والنقوش الهيروغليفية التى ليس لها نهاية ، التى حملقنا فيها ، وهرونا بها ، قد تلتها عجائب حديثة ، ولا أجسر على تلخيص العدد الكبير من المعابد الصغيرة التى شاهدناها خلال مسار هذا المسح السريع · وفى أحد الأماكن رأينا منطقة متموجة من حشائش الحلفاء الجافة ، التى جثمت فى وسطها مجموعة محطمة ومشـوهة ومهجورة من تماثيل الكباش الجرانيتية الخضراء ، وتماثيل برؤوس لبؤات · وفى مكان آخر رأينا تمثالا لصقر ضـخم واقفا على قاعدته فى وسـط محيط من الخرائب · وقد مررنا بالمزيد من طرق الكباش ، والمزيد من البوابات ، والمزيد من التماثيل قبل أن يقودنا الطريق الذى اتخذناه فى العودة للدوران حول ذلك الذى أتينا منه · وفى ذلك الوقت وصلنا الى ضريح الشيخ عند حلول الغسق ، وركبنا حميرنا عبر السهل فى صمت وارتباك · ألم أقل ان ذلك كان يشبه الحلم ؟

الفصل التاسع

من طيبة الى أسوان

تلا غروب شمس مصر الصافية ليل ملئ بالأعاصير ، وقد بدأ هبوب الرياح حوالى الساعة العاشرة ، وعند منتصف الليل تحول النهر الى أمواج عاتية ، وأخذت ذهبيتنا تترنح في مرساها مثل سفينة فى البحر ، وأخذت الرمال تهب من الصحراء الليبية فى نفحات غاضبة ، وتخبط فى نوافذ قمرتنا مثل الوابل • وكنا فى كل لحظة نصطدم اما بالضفة أو بالقارب • وأخيرا وقبل الفجر بقليل ، انهارت قطعة ضخمة من الضفة ، وأصدرت صوتا كالرعد وهى تندفع كالانهيار الثلجى فوق سطح الذهبية ، وحينذاك انزعج الريس حسن من أجل سلامة المركب وجذبنا الى ركن صغير مخفى عن الرياح على ارتفاع عدة مئات من الياردات • وعلى العموم فاننا بعد اللجوء الى هذا الركن عشنا ليلة تفيض بالنشاط لم نصادف مثلها منذ رحيلنا عن بنى سويف •

وفى صباح اليوم التالى كان المنظر كئيبا ، فالنهر ترتفع أمواجه مزبدة ، وتجمعت القوارب معا أسفل الشاطئ ، واختفت الضفة الغربية داخل سحب من الرمال ، وأصبح السير مستحيلا لأن الرياح كانت منصبة علينا ولم يكن المضى الى أى مكان على الأرض موضع سؤال • وكان معبد الكرنك يظهر ضخما من خلال العاصفة الرملية ولكن الانسان يحتاج الى خوذة الغواص لحماية العينين والأذنين من الدمار •

وعند الظهر هدأ غضب الرياح بحيث استطعنا عبور النهر وركوب الحمير الى مدينة هابو والرمسيوم ، وقد حققنا لمحة عابرة نحو هذه الأطلال العجيبة ، ولكننى لن أتحدث عنها الآن ، فقد تعرفنا اليها بشكل أفضل فيما بعد فأصبح مجرد الانطباع الأول لا يستحق التسجيل •

وفى اليوم التالى ساعدنا النسيم المناسب رغم رقته ، على المضى حتى أرمنت ، وهى مدينة هيرمونثيس Hermonthis (أرمنت) البطلمية ،

والتي كانت يوما ما مقر معبد كبير ، وهى الآن مقر مصنع كبير للسكر . ورسونا هنا لقضاء الليل ، وبعد الغداء وصلتنا زيارة رسمية من البك ـ وهو رجل طويل ونحيف حاد الملامح لامع العينين ، يرتدى الملابس الأفرنجية ـ ومن الواضح أنه كان وجيها وحسن التربية . وقد جاء بصحبة سكرتيره القواس وحامل غليونه ، وعرفنا الآن أن بك أرمنت هو شخصية مرموقة فى هذه الأنحاء ، انه حاكم المدينة وهو أيضا المشرف على مصنع السكر ، كما أن له سلطة عسكرية ، وكان قصره وحدائقه فى موضع قريب ، وكذلك كان يختـه الخاص فى مرساه على النهر ، وهو تركى الأصل مثل كل كبار الموظفين فى مصر . أما السكرتير الذى كان هو الأخ الأصغر للبك فقد ارتدى رداء خارجيا بدون أكمام ذا لون بنى ، فوق جلباب أبيض طويل ، وترك شبشبه عند باب الصالون . وجلس طول الوقت طاويا أصابع قدميه الى أسفل ، فظهرت قدماه داخل الجورب مثل قبضتين مضمومتين ، وقد ارتدى كل من الرجلين طربوشـا وحمل عصا الزيارة ، وبالمناسبة فان عصا الزيارة تلعب دورا بارزا فى الحياة المصرية الحديثة ، ويبلغ طولها قدما ونصف القدم وقد وضع فى كل من طرفيها مبسم من الذهب أو الفضة ، ومن المفروض أنها تضيف لحاملهـا آخر لمسات الرشاقة .

وقد أسعدنا ضيوفنا بتقديم القهوة والليمونادة ، كما تجاذبنا معهم أطراف الحديث بقدر استطاعتنا . وقص علينا البك الذى لم يكن يتحدث الا التركية والعربية ، قصة شيقة عن أشغال السكر ، وأرسـل حامل غليونه لاحضار حزمة من أعواد القصب وبعض عينات من السكر الخام ، والمبلور ، وذكر أن لديه ملاحظ عمال انجليزى وعدد من العمال الانجليز ، وأنه شديد الاعجاب والتقدير بالانجليز كشعب عظيم . أما عن عدم اهتمام العرب بأسئلتنا عن الآثار فان اجاباته لم تكن شافية . لقد اختفى كل أثر للمعبد الكبير منذ زمن طويل ، بينما بقى من المعبد الصغير عدد قليل من الأساطين وجزء من الحوائط ، وهما يقعان خلف المدينة على مسافة بعيدة من النهر ، ولم يكن هناك ما يستحق المشاهدة الا القليل منها ، وهى كلها صغيرة ورديئة ولا تستحق مشقة الحديث عنها . أما عن القطع الأثرية فمن النادر العثور عليها ، واذا عثر على شىء منها فانه ضئيل القيمة .

وقد مرر علينا الجعل الذى كان يرتديه بوصفه فصا لأحد الخواتم فأعجبنا به . وأخيرا جاء الدور على السيدة الصغيرة لفحصه واعادته الى صاحبه ، ولكنه رفض استعادته مع انحناءة وايماءة تشير الى عدم الرغبة

فى ذلك . لقد كان الخاتم مجرد لعبة لا تساوى شيئا ، ولكن السيدة أجبرت على قبوله رغم أنها لم تكن راغبة فى ذلك . ان الامتناع يعنى التعدى ، ولكن الطريقة التى حدث بها هذا القبول هى التى أعطت البهجة لهذا الحدث الصغير ، لأن ما تضمنه من الكياسة ، والاستجابة ، والمجاملة ، وعدم المبالاة ، كانت كلها جديرة بالاعجاب . كان ماكريدى فى أفضل أيامه قادرا على أدائها بشكل رفيع ، ولكن حتى هو لم يكن من المحتمل أن يسهو عن التحفظ الشرقى الذى تميز به وجيه أرمنت .

ودعانا بعد ذلك لزيارة مصنع السكر (أبينا ذلك لأن الوقت كان متأخرا) فرحل فى الحال . وبعــد ذلك بعشر دقائق وصلتنا مجموعة كاملة من الهدايا بينها ثلاث باقات كبيرة من الورد للسيدات ، واثنان من الجعارين وتمثال جنازى صغير من البورسلين الأخضر النادر ، وديك رومى حى . أما من جهتنا فقد أرسلنا فى المقابل مدية انجليزية ومعها مجموعة من الأنصال ، وعدة قوارير من المربى الانجليزية .

وفى صباح اليوم التالى هبت الرياح مع اشراقة الشمس ، وعنــد تناول الافطار رحلنا عن أرمنت الى ما بعدها ، وقد خدمتنا الرياح الطيبة طوال هذا اليوم ، كما أن النهر كان مزدحما بقوارب البضائع ، ومضت فيلة بكامل سرعتها ، كما احتفظت السفينة الصغيرة باجستونز بسرعتها . أما الفسطاط وهى ذهبية انجليزية مصنوعة من الحديد ومزدحمة بالسائحين الانجليز ، فقد صاحبتنا طوال فترة بعد الظهر . وكنا جميعا متجهين نحو اسنا وهى مدينة تجارية كبيرة تقع على مسافة ستة وعشرين ميلا جنوب أرمنت ، وهنا فى اسنا كان من اللازم أن يقوم الرجال مرة أخرى بإعداد الخبز ، وظهر شوق الريس حسن الشديد للنزول أولا وتدبير الفرن وشراء الدقيق قبل حلول الغسق . وكان ريس الفسطاط وريس الباجستونز فى مثل شوقه ولنفس الأسباب . وفى نفس الوقت كان رجالنا شديدى الانفعال وهم يراقبون تحركات القوارب الأخرى ، وقد تعلقوا بحبل الشراع مثل جماعة من النحل ، مع طاعة الأوامر بنشاط غير مألوف ، وعندما اقتربنا من الهدف تزايدت حرارة السباق ، وأصبح تفوق كل سفينة هو الهدف وتناسى الجميع مسألة الخبز مع هذا السباق . وأخيرا وصلت الذهبيات الثلاث فى وقت واحد ، ورست بجانب بعضها أمام صف من المقاهى الصغيرة خارج المدينة .

وتقع اسنا (واسمها المصرى القديم ســنى واللاتينى لاتوبوليس Latopolis) فوق تلال المدينة القــديمة ، وهى مدينة كبيرة تشبه المنيا

من حيث المساحة ، وهى أيضا عاصمه وحدة ادارية مثلها • وهنا أعد التراجمة امدادات الجير ، والفحم النباتى والدقيق والمعدات الحية اللازمة للرحلة الى النوبة ، وأخذ البحارة يخبزون خبزهم للمرة الأخيرة قبل عودتهم الى مصر ، ذلك لأن الطعام نادر فى النوبة ، والأسعار مرتفعة بالاضافة الى عدم وجود أفران عمومية •

وقد وصلنا الى اسنا حوالى الساعة الخامسة فى يوم انعقاد السوق ، ولم تكن السوق قد انفضت بعد ، ولما مضينا خلال متاهة الحوارى الطينية وبيوتها الخالية من النوافذ ، حيث جثم كبار السن يدخنون ، تحت كل شبر من الحائط الظليل ، وبينما تجمع الأطفال مثل الذباب ، كانت صيحة البقشيش تئز متوالية فى آذاننا • ثم أتينا الى فضاء واسع فى الجزء العلوى من المدينة ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى وسط السوق، وهنا رأينا عامة الفلاحين يبيعون المنتجات الزراعية ، وأصحاب الأكشاك يعرضون الأمشاط ، والمرايا ، والمناديل المطبوعة بألوان صارخة ، والأساور الرخيصة المصنوعة من العظام والزجاج الملون • وكانت الجمال ترقد مستريحة وتزمجر نحو كل عابر ، بالاضافة الى الحمير الصبورة ، والكلاب الضالة ، والنساء المحجبات ، والرجال الذين يرتدون الأردية الزرقاء والسوداء ، وكافة المناظر والأصوات المعتادة فى السوق المحلية • وهنا أيضا وجدنا الريس حسن يساوم على شراء الدقيق وتلحمى يلح على بائع الفحم النباتى ، والسيدتان م • و ب • تشتريان لنفسيهما الديوك الرومية والأوز ، وكمية ضخمة من التبغ لبحارتهما • وكان أفضل المناظر هو منظر محل مهمل للعطارة فى مثل حجم كشك الحراسة ، وقد علقت على مدخله لافتة باللغة العربية ، بينما جلس فى داخله أعرابى محنى الظهر ، أشيب الشعر • فاشترينا زجاجة كبيرة من ماء الورد لعمل محلول لغسيل عيون مرضى الرمد •

وفى نفس الوقت كان هناك معبد اسنا ، وكان هذا المعبد كما قيل لنا ، يقع بجوار موقع السوق ، ونظرنا حولنا بحثا عن علامة تدل على وجود بوابة أو رواق دون جدوى • وقال العطار ان المعبد قريب ، وأشار راكب أحد الجمال الى بوابة خشبية متداعية بين منزلين متجاورين • وتطوع ولد صغير بأن يقودنا الى الطريق • وقد كنا شديدى الارتباك لأننا كنا نتوقع أن نرى المعبد شامخا فوق المنازل المحيطة كما هو الحال فى الأقصر ، ولم نفهم بأية حال كيف لا يمكن رؤية مثل هذا المبنى الضخم الذى توصل اليه هذه البوابة •

وعلى كل حال ، فان الولد جرى مسرعـا ودق على البوابة وصاح : « عباس ! عباس ! » وأضاف محمد على الذى كان يقوم بالحراسة بعض الطرقات المدوية بقبضة يده ، واحتشد جمع صغير دون أن يأتى عباس .

وكما هى العادة فقد تطوع المتفرجون بنصائحهم المجانية فأشاروا على الولد بأن يتسلق ، وعلى البحار أن يدق بصوت أعلى ، وقالوا ان عباس الغائب يمكن أن نجده فى قهوة مجاورة ، وقد عبرت عن رأيى بعد أن نفد صبرى بأنه لا يوجد معبد اطلاقا ، بينما ارتفعت دستة من الأصوات تؤكد لى أن البربة (المعبد) ليست خرافة ، وأن المعبـد كبير و « كويس » وأن جميع الانجليز يأتون لمشاهدته .

وفى وسـط الضـجة ، وعندما قررنا أن نعود يائسين ، انفتحت البوابة ، وخرج رجال فصـيلة الفسـطاط وهم يرتدون البنطلونات القصيرة ، وأخيرا سمح لنا بالدخول .

وهذا هو ما رأيناه أمامنا ــ فناء صغير محاط بحوائط طينية ، ورأينا فى الطرف البعيد من الفناء مدخلا متداعيا ، وظهرت خلفه كتلة غريبة الشـكل وهائلة الحجم من الحجر الجيرى الأصـفر . كانت مستطيلة ومنخفضة ومستوية السطح وفائقة الضخامة ، عرفنا أنها الافريز الدائرى لمعبد عظيم ، وعلى بعد خطوات قليلة شاهدنا معبدا غير متهدم ولا مشوه ، ولكنه مدفون حتى ذقنه فى القمامة المتراكمة على مدى عدة قرون ، وكان واضحا أن هذا الجزء هو الرواق ، ووقفنا بالقرب منه تحت صـف من الدعامات الضخمة التى تحملهـا أساطين مدفونة تحت أقدامنا ، وكان الافريز الثقيل بارزا فوق رؤوسنا ، وتبلغ المسافة ما بين المستوى الذى نقف عليه وحتى قمة هذا الافريز حوالى خمسة وعشرين قدما ، وهنـاك حائط مرتفع من الطين يحاذى الواجهة بطول عرضها تاركا بين الاثنين ممرا يبلغ عرضه اثنى عشر قدما ، وكان هناك حاجز طينى منخفض وسور يصل ما بين كل دعامة وأخرى . وكان كل ما تلا ذلك غامضا ومنخفضا ومحاطا بالأسرار وهو عبارة عن هوة غارقة فى الظلام ظهرت فى وسطها أشباح باهتة للعديد من الأساطين التى نراها بصعوبة ، ومن خلال فتحة بين اثنتين من الدعامات رأينا مجموعة من درجات سلم من القرميد تقود الى قاعة واسعة تقع أسفل سطح العالم الخارجى ، ذات مظهر مقبض ومرعب ، وربما كانت هى بوابة الهاوية .

وبعد أن هبطنا مع هذه الدرجات وصلنا الى المستوى الأصـلى للمعبد . الآن ونحن نطأ الأرضية القديمة ، وننظر الى السقف الضخم

المجوف والمنقوش والملون مثل سقف معبد دندرة ، أعتقدنا أننا نقف حقا فى بهو الأساطين بمعبد دندرة مرة أخرى ، فهنا نجد نفس العدد من الأساطين ، ونفس ترتيب الحاجز الذى بينها ، ونفس المناخ العام والملامح الأساسية للتصميم ، ولكن معبد اسنا أكثر اثارة فى بعض نواحيه لأن الأساطين بالرغم من أنها أقل ضخامة عن مثيلتها التى فى معبد دندرة الا أنها أكثر رشاقة ، كما كانت أكثر ارتفاعا ، وكانت مغطاة بأشكال الآلهة والشعارات وصفوف من النقوش الهيروغليفية ، وجميعها محفورة حفرا غائرا • أما تيجانها فانها ذات أشكال طبيعية تمثل أزهار اللوتس أو البردى ، أو رؤوس نخيل البلح بخلاف أساطين دندرة الضخمة التى تلتحف بتيجان تمثل رأس البقرة حتحور • وكذلك كانت النقوش المنحوتة على الحوائط مختلفة عن تلك التى فى دندرة ، وكذلك تختلف عن تلك التى فى الكرنك بدرجة كبيرة • وكانت الأشكال من الطراز البطلمى ، وجميعها ذات حجم واحد • وكانت النقوش متباعدة وليست متجمعة فى مجموعات مما جعلها تمثل أفضل أشكال زخارف الحائط التى أبدعها الانسان ، فقد كانت موزعة فى أساطين متناسقة تعطى الاحساس بأناقة العمل الضخم المعبر عن الحرية العظيمة التى استكمل بها هذا الانتاج اليدوى المضىء ، وذلك بالمقارنة مع طراز نقوش الكرنك الذى يتميز بالمبالغة •

وتحتل هذه الدرجات مكان المدخل الكبير • أما العوارض الرأسية وجزء من الافريز ، والحاجز الذى بين الأساطين التى دخلنا تحت دعائمها العلوية ، فقد كانت كلها نصف ظاهرة ونصف غائرة فى الرابية الصلبة التى وراءها • وكان الضوء يدخل من أعلى خلال فراغ ضيق جدا ، بحيث تحتاج العين الى التعود على الرؤية فى الظلام قبل أن تتعرف على أى من هذه التفاصيل ، وبالتدريج أخذت أشكال الآلهة المعروفة وغير المعروفة تنبثق من خلال الظلام •

وكان المعبد مخصصا للاله خنوم روح العالم الذى نراه الآن للمرة الأولى • ان رأسه رأس كبش ويمسك بيده علامة العنخ أو رمز الحياة (١)•

---

(١) كان الاله خنوم منذ الازل أحد الالهة الكونية المصرية ، فهو الخزاف المقدس لانه هو الذى أوجد الانسان من الصلصال ونفخ فيه نسمة الحياة • وهو يظهر احيانا اثناء عملية تشكيل الانسان الاول أو تلك البيضة السرية التى خرج منها ليس الانسان فقط بل العالم الكائن بواسطة عجلة الفخرانى المعروفة • وفى أحيان أخرى يرسم وهو فى قاربه ، يتحرك فوق صفحة المياه فى فجر الخليقة • وفى عصر الأسرة العشرين تطابق الاله =



معبد اسنا

كما أمكن التعرف على شكل جديد هو الاله بس (١) وهو الاله المشوه الخلقة المختص بالمرح والبهجة · أما الشيء الثاني الذي اجتذب انتباهنا فهو أسطونان صغيران منعزلان قد بنيا بين الأساطين على يمين ويسار المدرجات ، وهما يشبهان جوسق الحراسة الحجرى · وكان كل منهما متكاملا فى حد ذاته من حيث السقف والافريز المنحوت والمدخل ، وأيضا شباك صغير مربع فى الجانب · وتبين النقوش التى على مبنيين مشابهين لهما فى الرواق بمعبد ادفو ، أن الخزانة اليمنى قد تضمنت الكتب المقدسة الخاصة بالمعبد ، بينما احتوت الخزانة التى على يسار المدخل الرئيسى ، مناظر للملك وهو يؤدى طقس التطهير · ولذلك فمن المحتمل أن يكون هذان الموجودان فى اسنا قد أقيما لنفس السبب ·

والآن ، نحن نبحث عن القاعدة التالية ، وننظر بلا جدوى ، لأن المدخل الذى يقود اليها مسدود بحائط ، وكان الرواق قد كشف عنه فى أيام محمد على سنة ١٨٤٢ ، ليس تعبيرا عن الاهتمام بالآثار ، ولكن لعمل مستودع سفلى لحفظ ملح البارود · وحتى ذلك الوقت وكما هو ظاهر فى رسم بكتاب ويلكنسون وعنوانه : (طيبة ومنظر عام لمصر) Thebes and General view of Egypt ، فقد كان الداخل يغوص بين رؤوس الأساطين لمسافة تقدر بعدة أقدام وقد استخدم مخزنا للقطن · ولا نعرف شيئا عن بقية البناء لعدم وضوح شيء · ومن المحتمل أنه فى مثل حجم معبد دندرة أو معبد ادفو ، وهو سليم كما يقول التقليد المحلى ، ولكنه لا يستطيع أن يشير الى مساحته التى تقع تحت أساسات المنازل الحديثة التى تحتشد فوق سطحه · ويذكر نقش كان شامبليون قد أول من لاحظه ، أن تحتمس الثالث قد بنى هيكلا من قبل · فهل ما زال ذلك الهيكل الأثرى موجودا هناك ؟ وهل اتسع المعبد خطوة خطوة تحت حكم الملوك المتتابعين مثلما هو الحال بمعبد الأقصر ؟ أو أنه قد أعيد بناؤه فى احتفالات النصر مثلما حدث فى دندرة ؟ وهذه أسئلة محيرة الا اذا

= خنوم مع الاله رع ، كما تطابق كذلك مع الاله آمون · وصار يعبد فى الواحة الكبرى فى العصر الاغريقى تحت اسم آمون خنوم · وهو يعرف أيضا باسم « روح الآلهة » ويظهر فى هذه الشخصية وفى شخصيته الشمسية برأس كبش ، أو على هيئة كبش · ومن بين ألقابه الأخرى « صانع الآلهة والناس » · وكذلك كان خنوم أحد آلهة الشلال وكبير آلهة التالوث الذى عبد فى جزيرة الفنتين ، ويذكر نقش فى معبد فيلة أنه « صانع كل الموجودات، وخالق كل الكائنات ، وأنه أول الوجود ، أبو الآباء وأم الأمهات » ·

(١) « يظهر الاله بس فى الصور أحيانا بوصفه الها مستوردا من آسيا · ويظهر مسلحا بسيفه الذى يستله فوق رأسه · وهو معروف فى هذا الدور بوصفه اله المعارك · وقد ورد ذكره كثيرا بوصفه اله الرقص والموسيقى واللهو » ــ مارييت بك ·

بحثنا عن أجوبتها بهدم ربع المدينة • وفى نفس الوقت كم من كنوز التاريخ المحفور ، وكم من الحجرات الغنية بالنقوش ، وكم من التحف البرونزية المدفونة والتماثيل ستكون موجودة هنا فى انتظار معول من سيقوم بالحفر !

وقضت الكاتبة طوال اليوم التالى جالسة فى ركن من الممر الخارجى وهى ترسم رواق المعبد ، بينما كان الرجال يخبزون خبزهم • وقد أشرقت الشمس من الأفق الشرقى ، وغربت فى الأفق الغربى قبل الانتهاء من هذا الرسم ، ولكنها بقيت أكثر من ساعة تضىء مقدمة المعبد • وفى حوالى الساعة التاسعة والنصف صباحا بدأ ظهور الضوء على الشريط الحجرى فى الزاوية ، ثم ظهرت قمة أسطون محددة بشريط رفيع من الضــوء الذهبى ، ومع اتساع هذا الشريط ظهر الافريز فى لون نارى ، ثم برز المعبد كله فى النور وهو يناطح السماء ، وبعد ذلك أخذت الشمس تختفى بالتدريج ولكن فى وضوح تام عبر الفضاء الضيق الذى يعلو الأفق ، وصارت الظلال رأسية ، وأخذ الضوء يبدل فى شكل الجوانب ، وفى الساعة العاشرة خيم الظل حتى نهاية اليوم ، وعند الظهر صارت الشمس فى قمة ارتفاعها ، وأخذت تيجان الأساطين الداخلية التى خيم عليها الظلام تضىء بفعل الضوء العجيب المنعكس ، وأضاءت من الخارج بضوء جعلها تبدو مثل أعمدة من نار •

وهناك ضمن قواعد الحياة على النيل قاعدة تمنعك من النزول الى الشاطىء بدون حراسة • وحتى ذلك الوقت كان سلام قد أصبح كله تحت أمرى ، انه مواطن من أسوان صغير السن ونشيط وذكى ومفعم بالحركة مع الطبع الحار ، فكان بذلك وجيها كاملا ، وكنت سعيدة بمعرفته • أما الدليل على حسن تربيته فهو ذلك اليوم الذى قضيناه فى اسنا ، وهو يوم كان من المفروض أن يقضيه فى التسكع فى أسواق العاديات والمقاهى ، ولابد أنه أحس بالملل مع الانشغال بقضاء اليوم محبوسا بين الحائط الطينى والمعبد الغريب الشكل الذى بناه الجن الذين حكموا قبل عصر آدم • ولكن سلام لم يظهر عليه عدم الرضا ، وقد انطوى على نفسه فى أحد الأركان يراقب ما أعمله ، وهو مستعد بالشمسية عندما تشتد حرارة الشمس ، وأخذ يعيد ملء زجاجة الماء أو يمسك بصندوق الألوان بمهارة ، كما لو كان قد تدرب على ذلك منذ ولادته • وقد وصل غدائى فى الساعة الواحدة محفوظا فى حامل للأطباق • ولما كنت مشغولة بحيث لا أستطيع الانصراف عن العمل ، فقد نحيت الحامل جانبا وأرسلت سلام الى السوق لكي يشتري لنفسه غداء ، وهو عمل أبدى رغبته فى أدائه

بطريقة مهذبة • وقد أهديته مبلغ قرشين من الفضة وهو ما يساوى خمسة بنسات بالعملة الانجليزية ، ويستطيع بهذا المبلغ أن يشترى ثلاث أو أربع فطائر من الخبز المحلى الطازج وكفتة من اللحم المشوى وخضروات ونصف رطل من التمر •

ولما كنت أعلم أن هذا الغداء أفضل مما يتناوله هذا الصديق كل يوم ، كما أعلم أيضا أن بحارتنا قد تعودوا على تناول الطعام وقت الظهر ، فقد تعجبت وأنا أراه يترك هذه المأكولات اللذيذة دون أن يتذوقها ، فقلت فى صوت خفيض « بسم الله » محاولة اجباره على تناول الطعام فى كلمات لفظية ، بالاضافة الى الحركات التعبيرية ، فضحك وهز رأسه وطلب الاذن بتدخين سيجارة متعللا بأنه لا يشعر بالجوع • وعلى ذلك فقد مرت ثلاث ساعات • ولما كنت قد تعودت على الصوم الطويل ومع الاندماج فى الرسم الذى كنت أرسمه ، فقد نسيت كل ما يتعلق بحامل الأطباق ، وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عندما بدأت فى اصلاح النسيج فى ضوء النهار باستخدام أقل وقت ممكن • والآن بدأ سلام الوفى فى تناول الطعام بشهية قضت على الفطائر والكفتة والتمر كما لو كان قد استخدم السحر • أما بخصوص ما بقى من غذائى فقد تناوله فى مثل لمح البصر • ولم أر انسانا يتناول طعامه بمثل هذه الشهية الا فى عروض التمثيل بالاشارات (البانتوميم) • وفيما بعد جعلت تلحمى يوبخه بسبب هذا الصوم الطويل الذى تطوع به •

فقال : « أقسم بالنبى — أننى لست خنزيرا أو كلبا حتى أتناول طعامى بينما السيدة صائمة » •

وبالمناسبة فاننا لم نكتشف الا عند اسنا هذا الأمر الغريب عندما عرض على أحد الأشخاص شراء قطعة من العملة المصرية القديمة • كان الرجل الذى يريد أن يبيعها قد وجدها عندما كان يحفر على عمق بعيد تحت التلال فى أطراف المدينة بحثا عن أملاح النيترات ، وتطوع بأن يطلعنا على المكان ، وأخذ يقص روايته بمثل بساطة الأطفال ، ولسوء الحظ فانه بالرغم من حقيقة هذه العملة الأثرية الا أنها كانت تحمل الصورة المعروفة للملك جورج الرابع ونقشا يبين قيمتها المتواضعة التى تساوى ربع بنس فقط • وفى مناسبة أخرى وأثناء الفترة الطويلة التى قضيناها فى الأقصر ، أحضر أحد الفلاحين الى القـــارب زرا زجاجيا مصنوعا فى برمنجهام وأقسم أنه وجده فى احدى المومياوات فى مقابر الملكات فى قرنة مرعى • وفى أحد الأيام جاء نفس الرجل الى خيمتى عندما كنت منشـــغلة فى الرسم ، وقـــد أحضر معه خيطا يضم عددا لا بأس به من الجعارين ويقول انها أثرية فعلا ولا يمكن انكار أصالتها •

فقلت له بأسف : لا أريدك أن تحضر لى المزيد من القطع الأثرية · انها كلها قديمة ومستهلكة وغالية الثمن ، ألا يوجد لديك جعارين مقلدة ، جديدة وصالحة للاستعمال بحيث يستطيع الانسان أن يرتديها ولا يخشى عليها من الكسر ؟ » ·

وجاءت الاجابة الجاهزة : « انها مقلدة يا ست ! » ·

فقلت : « ولكنك قلت منذ لحظة انها قطع أثرية أصيلة » ·

فقال في خجل : « ذلك لأننى ظننت أنك تريدين شراء آثار » ·

فقلت : « ما دمت تريد أن تبيع لى أشياء جديدة على أنها أثرية فكيف أتأكد أنك لن تبيع لى أشـياء قديمـة على أنها جديدة ؟! وهنا أجاب قائلا انه قد صنع هذه الجعارين بنفسه · ولما خشى ألا أصدقه سحب من صدره قطعة صغيرة من الورق الخشن واستعار أحد أقلامى الرصـاص ورسم أفعى صغيرة ، وطائر أبى منجل وبعض الأشـكال الهيروغليفية المعروفة بمهارة ملحوظة · ثم قال بنغمة الانتصار : « هل تصدقين الآن ؟ »·

فقلت : « أرى أنك تستطيع عمل طيور وأفاع ولكن ذلك لا يبرهن على أنك تستطيع أن تصنع جعارين ولا يثبت كذلك أن هذه الجعارين جـديدة » ·

فاعترض قائلا : « كلا يا ست · لقد صنعتها بهاتين اليدين ، لقد صنعتها ولكن في اليوم السابق ، وأقسم بالله أنها لا يمكن أن تكون أحدث من ذلك » ·

وهنا تدخل تلحمى قائلا : « ان جعارينك في هذه الحالة جديدة جدا وستصاب بالتشققات قبل انقضاء الشهر ، ويستحسن أن تقوم الست بشراء بعض الجعارين فى الوقت المناسب » · وهنا لمس الفلاح حاجبه وصدره ، وقال فى جو من الصراحة الأمينة : « الحقيقة أيها الترجمان هى أن هذه الجعارين قد صنعت في وقت الفيضان · انها جديدة ولكن الى حد ما ، لقد صنعت فى موعدها الدقيق · واذا تشققت فانك تستطيع أن تشكونى الى الحاكم وسأنال علقة مقابل ذلك ! » ·

وقد ظهر لى أن أغرب ملامح هذا المنظر الصغير تتمثل فى البساطة العجيبة التى أبداها هذا الأعرابى ، فقد دافع بكل دهائه ، وقدرته على الاحتيال حتى يرفع نفسه فوق مستوى الشك مثل طفل صغير · ولم

يحدث له من قبل أن كان صدق حديثه موضع الاختبار ، أو أنه نسب لنفسه صدق كل كلمة تفوه بها • والحقيقة هي أن الفلاح نصف بدائي ، وعلى الرغم من امعانه في الكذب (ولابد أنه كان أكبر كذاب تحت السماء) الا أنه ظل انسانا فردا يسهل فضحه ، كما يسهل الترفيه عنه ، وخداعه ، واستثارته ، وتهدئة خاطره • انه يسرق قليلا ، ويحتال قليلا ، ولكنه يكذب كثيرا • أما من الناحية الأخرى فانه صبور ، ومضياف ، وبادى الود ، ويثق بالآخرين • انه لا يتوقع البغضاء ، ولا يحملها في صدره ، ولا يرتكب جرائم كبيرة ، ولا يضمر الانتقام،وباختصار فان محاسنه تفوق مساوئه • وكل انسان أو شعب يحتاج الى الارتقاء بسلوكه نحو الأفضل •

وقد يبدو أسلوب التعميم هذا تجاوزا من غريب عابر سبيل • الا أنه يلتمس العذر لأنه يحترم مصر أكثر من أي قطر آخر يضاهيها في الظروف • وفي أوربا كما هو الحال في معظم أنحاء الشرق يرى الانسان القليل من الناس بحيث لا يمكن أن يشكل رأيا حولهم ، ولكن الأمر مختلف بالنسبة لمن يعيشون على النيل • وبصرف النظر عن الفنادق والسكك الحديدية والمدن ذات الطابع الأوربي ، فانك تتعامل مع المواطنين • ان المرضى الذين يحضرون الينا طلبا للعلاج ، ووجهاء الريف ، وموظفي الحكومة الذين يزورونك على ظهر مركبك ، ويسلونك على الشاطىء ، والمرشدين ، والأولاد الذين يسوقون الحمير ، والتجار الذين يعيشون على الاحتيال ، كل ذلك يشكل معينا لا ينضب من الدراسات السلوكية ، ويعلمك الكثير عن الحياة المصرية أكثر من جميع الكتب التي كتبت عن السياحة النيلية • أما بحارتك وبعضهم من الأعراب والبعض الآخر من النوبيين فهم يمثلون عالما صغيرا في حد ذاتهم • هناك رجل منهم قد ولد عبدا وسيحمل علامة النخاس معه الى القبر • وآخر لديه طفلان في مدرسة ميس هوايتلي بالقاهرة وثالث تزوج حديثا وترك زوجته مريضة في البيت ، وربما يجدها ميتة عند عودته كما أنه لا يسمع عنها أية أخبار في الوقت الحالي • وهكذا فان وراء كل منهم قصة متواضعة ، قصة تحمل علامات الطغيان المحلي ، والالزام المرعب ، والسخرة الأكثر رعبا • وهذه كلها تشكل الوقائع الأولية • وهؤلاء المساكين على استعداد يكفي للادلاء بآمالهم ، وأخطائهم ، وأعذارهم • ومن خلال التعاطف معهم ، يمكن التعرف الى الناس ، ومن خلال الناس تتعرف الى الأمة ذاتها • لأن حياة العامة تكرر نفسها فيما عدا بعض الاختلافات البسيطة في كل مكان يجري فيه النيل ويقع تحت حكم الخديو • فالخصائص هي نفس الخصائص ، والوقائع هي نفس الوقائع ، ولا يختلف الا تبديل المناظر على مسرح الأحداث •

وعلى ذلك ، فقد يحدث أن السائح الذى يقضى حوالى ستة شهور فى رحلة نيلية ، ويهتم بمصر والمصريين ، ربما يتعلم خلال هذه الفترة القصيرة الكثير عن هذا البلد وأهله أكثر مما يحدث فى قطر آخر أقل انعزالا وانحصارا فى كافة النواحى السياسية والاجتماعية والجغرافية ·

ويذكرنى ذلك بأن السائح الذى يسافر فى النيل ، يشاهد القطر المصرى كله · لأن السائح الذى ينتقل من نقطة الى أخرى فى الأقطار الأخرى يتبع خطا رفيعا من الطريق أو السكة الحديد أو النهر ، تاركا مناطق واسعة لم تستكشف على كلا الجانبين · **ولكن هناك أماكن قليلة فى مصر الوسطى والعليا ــ وليس فى النوبة ــ لا يستطيع الدارس أن يحيط فيها بأية ملامح أو يقوم بأى مسح لصفحة البلد متنقلا من صحراء الى صحراء · والأفضل أن يقوم بهذا المسح مرات عديدة لأنه يساعد الدارس أكثر من أى شىء آخر فى فهم الفراغ الجبلى التائه الذى شق النيل خلاله طريقه على مدى الحقب اللانهائية ، كما يساعد الدارس فى معرفة ماهية الرداء المكون من الرواسب الطينية الذى يغطى هذا البلد الذى هو «هبة النيل» ·**

وقد واجهنا صباح مقبض رمادى اللون ، ونسيم ضعيف ومتقطع ، رويد رويدا فى طريقنا من اسنا الى ادفو · كما ظهر الخبز الجديد بوصفه حملا ثقيلا على المركب بعد وضعه على السطح ، وقد تكوم فى كومة ضخمة عند طرف السطح العلوى ، وقد احتاج تقطيعه الى جهد أربعة رجال طوال يوم كامل ، وسببت لنا ثرثرتهم المتواصلة الكثير من الارتباك · وكان تلحمى يصيح بين وقت وآخر : « اسكت يا خليفة ! اسكت يا على ! انك لست على السطح الخاص بك · ان الخواجات لا يستطيعون أن يقرءوا أو يكتبوا هذا الهراء الذى تتحدثون به » ·

فكانوا يصمتون لمدة دقيقة ونصف دقيقة ·

ولكن من السهل عليك أن تجعل قردا يتوقف عن الثرثرة ولا تستطيع ذلك بالنسبة للأعرابى ، فكان رجالنا يتحدثون باستمرار ، وكان حديثهم يدور دائما حول النقود · وعندما نستمع اليهم نجدهم يتحدثون بكلمات من نوعية «خمسة قروش» ، «نصف ريال» ، «اثنين شلن» · ولم نعرف أبدا كيف كانت النقود تلعب مثل هذا الدور الصغير فى حياتهم بينما كانت تلعب مثل هذا الدور الكبير فى أحاديثهم ·

وحـــوالى منتصف النهـار عبرنا الكاب التى كانت تعرف باسم Eilethyias قديما · وهناك أخذ الوادى الصخرى يضيق ، كما كان

هناك أيضا ضريح لأحد المشايخ على حافة الجبل من فوق ، وعدد قليل من مجموعات النخيل ، وبعض بقايا ما يشبه حائطا طويلا مبنيا من الطوب اللبن بزاوية عمودية على النهر ، وكتلة منعزلة من صخرة مجوفة من الحجر الجيرى ، تركت ظاهرة فى وسط محجر متهالك · وكانت تلك هى كل ما شاهدناه من الكاب عند مرور الذهبية بها ·

والآن ومع مرور فترة بعد الظهر المتراخية ، لاحت صروح معبد ادفو المغلفة بالضباب من على مسافة بعيدة ، وكنا نشاهدها لفترة طويلة قبل ظهورها ونحن نحسب كل ميل على الطريق ، وكل دقيقة من ضوء النهار · وكان النسيم قد توقف عن الهبوب حينذاك ، بينما امتد النهر أمامنا ناعما ومتألقا مثل بركة الماء · وأخذ تسعة من الرجال فى سحب المركب الى ادفو ، فهل ستصل فى وقت يسمح بمشاهدة معبد ادفو قبل حلول الليل ؟

وكان الريس حسن يبدو متشككا ولكنه يحتمى كعادته فى عبارة «ان شاء الله» ، وكان تلحمى يتحدث عن انزال بحار لكى يعدو فيسبقنا ويأمر باحضار الحمير ، بينما كانت فيلة تزحف ببطء ، وأخذت الشمس تزول مختفية خلف سحابة رقيقة ، بينما كانت هاتان البوابتان تلقيان بظلالهما أعلى وأعلى فوق الأفق كالشبح ولكنهما ظلتا على مسافة بعيدة ·

وفجأة توقف السحب ، ونظروا خلفهم وصاحوا نحو الذين على سطح المركب وبدءوا فى سحب القارب الى البر · وأخذ الريس حسن يشير بفرح نحو شريط أبيض عبر سطح النهر الناعم بمسافة تقدر بنصف الميل · وكان بحارة الفسطاط يحتشدون بأعلى السارية ، بينما عمل بحارة الباجستونز على افساح المكان لذهبيتهم · وكان رجالنا يستعدون لقذف الحبل والقفز فوق سطح المركب عندما تقترب فيلة من البر ·

وكانت الرياح المتقلبة المزاج التى لا تهب الا عندما لا تريدها ، تقترب !

أما وقد وصلت الفسطاط فى المؤخرة فقد نشرت شراعها الضخم واستقبلت أول نسمة · وجاء الدور على الباجستونز بعد ذلك · أما فيلة فقد تركت جناحيها يرفرفان ، وأطلقت طلقاتها لتفسح الطريق أمامها · وفى دقائق قليلة انسابت المراكب الثلاث تسوقها ريح عظيمة ·

أما البوابتان العظيمتان اللتان ظهرتا بعيدتين منذ نصف ساعة فقد أصبحتا الآن فى متناول أيدينا · وكانت تحتهما غابات من النخيل وأكواخ

متجمعة كانت البوابتان تبرزان من بينها في رفعة مقابل السماء الملبدة بالغيوم ، وسرعان ما تجاوزناها وتركناها خلفنا • وأخذ الغسق الرمادى يغلفهما ، وأصبحنا لا نراهما مرة أخرى • ثم هبط الليل باردا وخاليا من ضوء النجوم ولكن هبوط الظلام لم يكن فى مثل سرعة الريح والسفينة التى تحملنا •

والآن ، ومع هذا السباق المشتعل الذى لا يكبح جماحه ـ خاصة فوق صفحة النيل ، فقد سارعنا الى بذل ما نستطيع من جهد بالدخول فى تجربة السرعة • ولم يمض وقت طويل حتى اندمجنا فى هذا الموضوع • انها مباراة للفوز ، فقد كانت فيلة ضد الفسطاط ، والباجستونز ضد الاثنين معا • ونقول فى لغة بسيطة ان ذلك كان سباقا فى السرعة • وكانت الذهبيتان اللتان فى المقدمة متعادلتين • وكانت فيلة أضخم من الفسطاط ولكن الشراع الرئيسى للفسطاط كان أكبر حجما • ومن جهة أخرى كانت الفسطاط مصنوعة من الحديد بينما بنيت فيلة من الخشب ، وقد سهل ذلك من عملية سحبها من الشاطىء الرملى ، وجعلها أخف قيادة • أما الباجستونز فهى تحمل شراعا رئيسيا وتستطيع أن تسرع عند الحاجة • وفى نفس الوقت كان السباق واحدا من السباقات التى تختلف فيها ضربات الحظ • والآن فان الفسطاط تندفع للأمام ، ثم تندفع فيلة بعدها • كنا نتجاوزها مرة ، وتتجاوزنا هى مرة أخرى • كما كنا نسحب الريح من احداهما لصالح الأخرى ، ونستفيد من كل دوران ، وننشر كل شراع • وكنا قد التصقنا بقواربنا بحيث أصبحنا أشد شوقا للفوز ، كما لو كانت هناك جائزة فى انتظارنا • وفى هذه الظروف أصبح من الصعب علينا ارساء المراكب طوال الليل • وما دمنا قد بدأنا المباراة فاننا لا نستطيع أن نمضى الى أبعد مما تسوقنا اليه الريح • وكان بحارتنا متشوقين مثلنا للفوز • ومع قدوم الليل زادت سرعة الريح وازداد معها انفعالنا ، وظلت المراكب تطارد بعضها البعض بطول النهر المظلم ، وتنثر الرذاذ من أقواسها ، وترمى بخطوط عريضة من الزبد خلفها • وكانت نوافذ قمرتها مضاءة كلها من الداخل ، وتلقى بشعلات اللهب الخافقة على أمواج البحر التى تحتها • وكانت المصابيح المعلقة فى قمة صواريها تلمع بألوانها البرتقالية ، والأرجوانية والقرمزية خلال الغسق مثل الجواهر • وسرعان ما انقشعت السحابة ، وصفت السماء ، وظهرت النجوم ، وعوت الرياح ، واهتز زجاج النوافذ وتموجت ذراع دفة القارب ، وصاح البحارة وتسابقوا ، وخبطت الحبال فوقنا ، بينما كنا جالسين فى قمراتنا الضيقة نقضى نصف الليل ونحن ننظر من نوافذنا الخاصة بنا • ومضت عدة ساعات على هذا المنوال • وفى حوالى الساعة الثالثة صباحا ، اندفعت

المراكب الثلاث وانغرزت فى شاطىء رملى بعد هزة عنيفة وارتداد شديد ، وصياح ، ومشاجرة ! ثم طار الرجال لكى يطووا الشراع الخفاق ، فكان بعضهم يمسـك بالعصى الطويلة التى تدفع فى قاع النهر ، بينما كان الآخرون مثل العفاريت التى بلغت أشدها فى الظلام ، وهم يتقافزون من سطح المركب الى البحر ويعملون فى دفع السفينة بأكتافهم • وأخذوا يتبادلون فيما بينهم وبين الذين على السطح عبارات غنائية تدفع الى بذل المزيد من الجهد • وأخيرا وبعد معركة جنونية استمرت عشر دقائق ، انزلقت فيلة تاركة الذهبيتين الأخريين جانحتين على الأرض فى وسط النهر •

وقبل قدوم الصباح بقليل انقشعت الليلة كثيرة الضوضاء ، وأخلدنا الى النوم لكى نستيقظ مرة أخرى فى الساعة السابعة على صوت تلحمى وهو يعلن أن السفينتين الباجستونز والفسطاط قد اقتربتا منا ، وأننا قد تجاوزنا السلسلة وكوم امبو • وتركناهما خلفنا ، وأننا أصبحنا على مسافة ستة وأربعين ميلا من ادفو وأن الرياح الطيبة ما زالت تهب •

اننا الآن على بعد خمسة عشر ميلا من أسوان ، ومجرى النيل هنا ضيق جدا ، وأن خصائص المنظر قد تغيرت ، لقد اتجهت أبصارنا نحو الصحراء الشرقية (العربية) واقتربنا من حدود الجبال الجرانيتية السوداء ، بينما كانت هناك على جانب الصحراء الغربية (الليبية) سلسلة من التلال الرملية المرتفعة ، وقد تكلل كل منها باكليل من الصـــخور الداكنة ، وقد انتشرت أشجار النخيل بكثافة على كلتا الضفتين •

وفى نفس الوقت استمر السباق•لقد كان فى الليلة الماضية مجرد رياضة ، أما فى هذه الليلة فهو شديد الجدية • لقد تسابقنا فى الليلة الماضية من باب العظمة ، أما فى هذه الليلة فاننا نتسابق من أجل الفوز • وقلت : « سأمنح الريس حسن جنيها اذا وصلنا أسوان أولا » •

وبرقت عينا الريس ، بدون الحاجة الى تدخل الترجمان بيننا • كانت النظرة والنبرة واضحة بالنسبة له وضوح أحسن الكلمات العربية وصارت كلمة (جنيه) السحرية هى الحكم الآن ، لأنها كانت تعنى جنيها من العملة التى كانت تستخدم فى أيام نلسون وأبركرومبى • ولمس رأسه وصدره ، وألقى نظرة الى الوراء على الذهبيتين اللتين خلفنا ، ونظرة الى الأمام فى اتجاه أسوان • وخبط قدميه ببعضهما فى حركة انتباه ، ثم ربط منديلا حول وسطه وتمركز بنفسه عند قمة الدرجات

التى تقود الى السطح العلوى · وظهر تصميم الريس حسن على الفوز ممثلا فى النور الذى انبعث من عينيه ، وهيئة الاستعداد التى أحاطت بفمه ·

والآن ، فان وصولنا أولا الى أسوان يعنى أن نكون أول من كتبت أسماؤهم فى قائمة الحكمدار ، وأيضا أول من يتجه الى الشلال · ولما كان عبور الشلال يحتاج الى يومين أو ثلاثة من العمل ـ فان مسألة الأسبقية هذه أصبحت غير ذات أهمية · ولولا الجنيه الموعود لكانت الفسطاط قد سبقتنا خمس مرات ، وكنا سنضطر حينذاك لانتظار دورنا على الجانب الخطأ من الحدود ·

والآن تشرق الشمس عالية فتشتد حرارة السباق حتى اننا أصبحنا على بعد خمسة عشر ميلا من أسوان عند حلول وقت الافطار · ثم انخفضت الخمس عشرة الى عشرة ، وعندما نصل الى الرأس البحرى الذى هنــاك فانها تكون قد انخفضت الى سبعة أميال · ومن السهل رؤية كيف أنه مع نقصان المسافة بيننا وبين أسوان فانها تنقص أيضا بيننا وبين الفسطاط · ويعرف الريس حسن ذلك · اننى أراه يقيس المسافة بعينه ، كما أرى التقطيبة التى استقرت بين حاجبيــــه · انه يحسب طول المســافة التى تقطعها الفسطاط كل ربع ساعة ، وكم يبلغ عدد أرباع الساعة التى تبعدنا عن الهدف ، لأن البحارة العرب لا يقيسون المسافة بالأميال ، انه يحسبها بالزمن وبما يقطعه من النهر ، وهى تساوى ثلاثة أميال فى المتوسط لكل ربع ساعة (*) · ولذلك فان قبطان سفينتنا عندما يقول انه بقى لنا القيام بدورتين اجابة للسؤال الذى يتردد مرارا وتكرارا ، فانه يعنى أننا نبعد حوالى ستة أميال عن الجهة المقصودة ·

بقيت ســـتة أميال مع أن الفسطاط تزداد اقترابا فى كل دقيقة ! وكنا حتى الآن نتحدث بشغف · ولكن عنـــدما يقترب الهدف فانه حتى البحارة يلتزمون الصمت · ويقف الريس حسن بدون حراك عند عموده المعتاد لكى يتعرف على الأماكن الضحلة فى النهر ، وكانت كلمتا « شمال ـ

(★) هذا الأسلوب الملاحى العربى الأصل المتبع فى حساب المسافة حسب الزمن ، يدخل فى حسبانه المسافة التى تستهلك فى الدورانات واللفات الاضطرارية · وقد تعمم استخدامه الآن فى الملاحة البحرية والجوية لأنه يفيد فى حســاب استهلاك الوقود ، وعلى سبيل المثال فان الطيارين والمراقبين الجويين فى الطيران المدنى يقولون ان المسافة الباقية على وصول الطائرة الى مقصدها هى ساعتان وخمس عشرة دقيقة بفائض وقود يكفى لمدة نصف ساعة طيران · أما المسافة فيسهل حسابها حسب سرعة الطائرة فى الساعة ـ (المترجم) ·

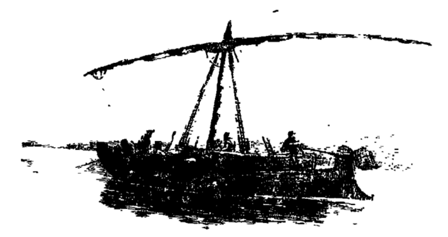
يمين » اللتـان تصدران عنـه فى لهجة قصيرة حادة هما الصوت الوحيد الذى يتردد ، بينما عامل الدفة يطيعه بعينه وأذنه كما لو كان هو يده اليمنى ، ويجلس البحارة القرفصـــاء فى أماكنهـم هادئين ومتحفزين مثل القطط ٠

والمسافة الآن ليست ستة أميال بل خمسة ثم أربعة ٠ أما الفسطاط التى يعود الفضل الى شراعها الكبير فقد كادت أن تلحق بنا ، كمـــا أن الباجستونز كانت على بعد لايزيد عن مائة ياردة خلف الفسطاط ٠ وأثناء تقدمنا كنا نمر بغابات من النخيل من أجود الأنواع التى شـاهدناها فى حياتنا ٠ كما مررنا بذهبيات مهجورة تقف فى انتظار الريح المواتية للاتجاه نحو مقاصدها ، ومررنا بقوارب محلية ، وأكواخ على جانب النهر ، وغيوم من الرمل المندفع حتى أكملنا الدوران حول الركن ، وكسبنا ربع الساعة الأخير ، وظهرت مآذن أسوان كما لو كانت فى داخل سحابة على البعد ٠ وكان البرج القديم الذى يتوج الرأس البحرى الناتىء يرتفع مقابـــل المدينة ، وكانت هذه البقع السوداء التى فى وسط مجرى النهر ، هى أوائل صخور الشلال ٠ وينثنى المجرى هناك بين الشعاب الصـــخرية والضفاف الرملية ، ومن الصعب الدوران حتى فى أشد نوعيات الطقس هدوءا ٠ وكانت فيلة تندفع الى الأمام وهى تميل بكاملهـا مثل عداء قفز الموانع عند الحاجز الخشبى ، مع استمرار نشر شراعنا فى مواجهــــة الريح ٠ وتتجه كل العيون الآن نحو الريس حسن ، الذى يقف مشدودا مثل تمثال من الحجر ، فالصخور قريبة من الأمام لدرجة أننا نستطيع أن نرى الأمواج وهى تصب فوقها ، والدوامة وهى تدور من بينها ٠ ويقع طريقنـا خـــلال فتحة بين الصخور ، وينحرف المجرى المائى خلف هذه الفتحة الى اليسار بحدة ٠ انها نقطـــة يعتمد كل شىء عندها على تحويل الشراع ٠ واذا تم ذلك سريعا فاننا سنفقد العلامة ، أما اذا تم متأخرا فاننا سنصطدم بالصخور ٠ وفجأة رفع القبطان يده ، وصعد السلالم فى حدة ، وقفز الى مقدمة السفينة ٠ وهب البحارة واقفين وتجمعوا ، بعضهم حول حبل الصارى ، والبعض الآخر حول نهاية السطح ٠ لقد أصبحت الفسطاط بجانبنا ، وحانت لحظة الفوز أو الخسارة ٠

والآن وبعد مضى ثانيتين من حبس الأنفـــاس ، اندفعت الذهبيتان للأمام ، كلتاهما بجـانب الأخرى ، للمرور من هذا الممر الضيق الذى لايتسع الا لواحدة منهما فقط ٠ وحتى السفينة الحديدية بالضفة الرملية قامت بعمل مدار أوسع ، وقد حولت شراعها أولا بحدة تاركة حبل الصارى دون رباط ، ورأينا الشراع يرفرف ، والحبل يطير ، وقد تدافعت جميع الأيدى لاستعادته ٠

وفى هذه اللحظة أطلق الريس حسن كلمته ، وأتجيت فيلة للأمام وقد اقتنصت القناة من بين مخالب الفسطاط ، وحولت شراعهـــا بدون سحب ، وابتعدت عن الماء العميق تاركة منافستها تعـــانى الأمرين وهى تسرع بين المياه الضحلة .

وكان الجزء الباقى من الطريق قصـــيرا ومفتوحا . وفى أقـل من خمس دقائق طوينا شراعنـــا ، ودفعنا للريس حسن الجنيه الذى كسبه بجدارة ، ووجدنا ركنا مريحا لكى نرســـو فيه . وهكذا انتهى ســـباقنا المشهود الذى قطعنا فيه حوالى ثمانية وستين ميلا من ادفو الى أسوان .



قارب محلى فى اسوان

الفصل العاشر

أســوان والفنتين

تقع جزيرة الفنتين الخضراء التى يبلغ طولها حوالى ميل ، فى مواجهة أسوان ، وتقسم النيل الى فرعين • وعلى كلا الجانبين تجد أن الصـحراء الغربية (الليبية) والصحراء الشرقية (العربية) التى تتكون من منحدرات ناعمة بلون الكهرمان ، ومن صخور جرانيتية غير مستوية ، تصل الى حافة النهر • وهناك ضريح لأحد المشايخ على الضفة التى فى ناحيـة الصحراء الغربية • أما فى ناحية الصحراء الشرقية فيوجد حطام بارز من العمارة العربيــة تعلوه عقود خـربة مفتوحة فى أعلاها ، تتوج اثنين من المرتفعات المتقابلة ، وتطل على بوابة الشلال • وتقع أســـوان تحت حطام العمارة العربية • ويفصلها عن النهر شاطىء منحدر من الرمال •

وكل ما يسـتطيع الانسان أن يراه من المدينة وهو يقف على المرسى النهـرى الذى يقع أسفلها ، بعض المنازل المتناثرة ، مع صف من الحوائط البيضاء ، وقمة مئذنة ، والمداخـــل المظلمـــة لزقاق أو اثنين من الأزقة المعتمة • وتتألق فى الشمس ، الصخور السوداء الملاصقة للضفة ، والتى يحتوى بعضها على نقوش هيروغليفية رائعة ، مثـــل الفحم اللامع (١) • أما الشاطىء فانه مزدحم ببالات البضائع والجمال المحملة وغير المحملة ، والأشخاص المعممين الغادين والرائحين • وقوارب نقل البضائع المحطمة

---

(١) ان صخور شلالات الأنهار العظيمة مثل اورينوكو ، والنيل ، والكونغو ، مغطاة بطبقة من مادة سوداء تجعلها تظهر كما لو كانت مدهونة بالكربون • وهذه الطبقة رقيقة جدا • اكتشف برزيليوس بعد تحليلها أنها تتكون من أكسيد الماغنيسيوم وأكسيد الحديد • ولا نعرف أصل هذه المادة المكونة من الأكاسيد المعدنية والتى تغلف الصخور كطبقة من الاسمنت • وأعتقد أنه لا يوجد ما يبرر سبب التشـــابه فى كثافتهـا • انظر : Journal of Researches تأليف تشـارلز دارون • الفصل الأول ، ص ١٢ ، طبعـة سنة ١٨٤٥ •

التى تتكوم منعزلة ونصف مائلة تحت أشعة الشمس ، بينما ترسو قوارب أخرى متقاربة وهى تحمل بالبضائع أو تفرغ منهـــا البضائع • وعلى بعد قليل منها ، ترسو ثلاث أو أربع ذهبيات تحمـــل الأعـــلام البريطانية والأمريكية والبلجيكية • كما أن هناك مراكب أخرى ترسو فى الطريق نحو الفنتين • وتمر بعض القوارب ذات المجاديف ، متخذة مسارا عرضيا فى كلا الاتجاهين من الشاطىء الى الشاطىء الآخر • وأخذت الكلاب تنبح ، والجمال تزمجر ، والحمير تنهق ، وبائعو الآثـــار يصيحون ويثرثرون ، ويحملون على أذرعهم البضائع التى يعرضونها • ويتعاركون ويتوسلون لكى يصعدوا الى سطح المركب • ولا يمنعهم من الصعود الى اللوح الموصل بين السفينة والشاطىء الا اثنتان من العصى الغليظة أمسك بهما اثنان من البحارة الصناديد •

وتتميز الأشياء التى تعرض للبيع فى أسوان بأنها جديدة وغريبة • وهنا لا يعرضون عليك الجعارين أو التماثيل الجنازية أو الآلهة المصنوعة من البرونز أو الخزف ، ولا بقايا الحضارة الماضية ، ولكنهم على العكس يعرضون عليك الأشياء التى تتحدث فقط عن حاضر ساذج ومتخلف • انهم يعرضون عليك بيض وريش النعام والحلى الفضية النوبية الصنع ، والرماح ، والأقواس ، والســـهام ، والدروع التى تخفى حاملهـــــا Rhinoceros-hide ، والأســاور العاجيــة المنحوتة من ناب الفيل ، وريش الطيور الذى يستخدم فى الكتابة ، والسلال المصنوعة من البوص المصبوغ ، والمجدول ، وخزامات الأنف الذهبية ، وما شابه ذلك • وقد عرضت احدى النساء النوبيات العجائز للبيع حقيبة لأدوات الزينـــة ، وشيئا خشنا يشبه التمثال مع وسادة ، وطواقى ذوات خصلات من الريش الأسود ، أما الوسادة فقد كانت تتضمن زجاجتين من الكحل ، وابـــرة غليظة ، ومشطا من العظم •

وكان أشد الباعة صخبا ، ولد مشاغب لونه شديد السواد ، وصوته شديد الحدة ، وهما صفتان نادرا ما تجتمعان فى شخص واحد • وكانت ملابسه البسيطة تتكون من جلباب مهلهل وطاقية من القطن الأبيض • وكانت أدواته عبارة عن حزام من الجلد الأملس مربوط فى طرف عصا • وأخذ يتنقل من نافذة الى نافذة على جانب الصالون المواجه للشاطىء • وتسلق طرف مركب بضائع مجاورة حتى يصل الينا فى المؤخرة ، وأخذ يدفع عصاه وحزامه فى وجهنا بصرف النظر عن الاتجاه الذى كنا نهرب اليـــه ، وهو يصرخ : « يا مـــدام •• حـــزام نوبى ! • يا مـــدام •• حزام نوبى ! » • واستمر يقفز ويصرخ ويكشف عن أسنانه ، كما لو كان شيطانا يتواجد فى كل مكان ويطيح بجميع منافسيه الى الهاوية •

ولما كنت قد رأيت حزأما مشابها ضمن مجموعة أحد الأصدقاء في الوطن ، فقد تعرفت في عبارة : « يا مدام .. حزام نوبي ! . » الى أحد هذه الأحزمة الغريبة التي تشكل مع العقد وبعض الأساور الزى الكامل للبنات الصغيرات في منطقـة جنـوب الشلال ، وتختلف هذه الأحزمة في حجمها حسب سن الفتـاة التي ترتديها ، ويبلغ عرض أكبرها حوالى اثنتى عشرة بوصة ، كما يبلغ طوله خمسا وعشرين بوصة ، والقليل من هذه الأحزمة يزينه الخرز والأصداف الصغيرة وهذه نوعية من النوعيات الثمينة ، أما النوعيات العادية فهي رخيصة وقد دهنت أطرافها بزيت الخروع . ويمكن القول بأن الحزام الجديد ينقع جيدا في زيت الخروع الذي يجعل الجلد أملس وغامق اللون ، الى جانب اضافة عطر ثمين تسعد به الفتاة النوبية . أما النوبي الذي يزرع مزروعاته ويعصر أعنابه بنفسه ، فانه يسعد جدا بهذه الرائحة . انه يحسب زيت الخروع ضمن أفضل كمالياته ، ويستخدمه في الطعام مثلما نستعمل نحن الشـــحوم ، وتنقع فيه زوجاته خصلات شعورها المجدولة ، كما تعطر بناته أحزمتها فيه ، ويدهن أولاده أجسادهم به . ان بيته ، وتسمة أنفاسه ، وأدوات زينته ، وطعامه ، جميعها مخضبة به . ان زيت الخروع يفوح أريجه في المكان الذي يحيا فيه . ويا لسعادة السائح الأوربي الذي يتوقف في النوبة لأنه يستطيع أن يدرب أنفه المتدهور على أريج زيت الخروع !

لقد طرد التطور الحضاري هذه الأحزمة خـارج نطاق الموضـة على الحـدود . أما في أسوان فهي تعتبر طلبـات ضرورية يطلبها الزوار الانجليز والأمريكيون . ان معظم السياح يشترون الأحزمة النوبية لتسلية أصدقائهم عند عودتهم للوطن ، وقد اشترت السيدة ل التي تراعي الموضة في ملبسها ، حزاما قوى الرائحة لدرجة أنه عطر الذهبية فيلة طوال الفترة الباقية من الرحلة ، ومازال محتفظا بأريجه حتى اليوم .

وقبل اتمام ربط حبل الذهبية ، هندم رسامنا نفسه بارتداء كوفية فخمة ، وتسلح بعصا للزيارة ، ثم قفز الى الشاطىء وسـارع لدعـوة الحكمدار . وبعد ساعتين رد الحكمدار الزيارة (وكان قد وعد بأن يرسل حالا في طلب شيخ الشلال ، وأن يحيط سفرنا بكل ما في استطاعته من عناية) وقد أحضر معه مدير وقاضي أسـوان وبصحبة كل منهما حامـل غليونه .

واستقبلتنـا ضـيوفنا في الصالون بحفاوة بالغة ، وجلس الرجال العظماء على احدى الأرائك الجانبية ، وافتتح الرسـام الحديث بتقديم

الشمبانيا والنبيذ والبراندى والويسكى وغيرها من نوعيــات الخمــور الفــاخرة ، وقام تلحمى بالترجمــة ، وضحك الحكمدار وهو شاب طويل ورشيق ونشيط وبهى الطلعة وأسود مثل الغراب ، أما القاضى والمدير فقد كانا هما كلاهما من شيوخ العربان وقد اصفر لون بشرتهما ، وقطبا حواجبهما ، وبدأ عليهما الارتباك لمجرد ذكر هذه المشروبات المحرمة ٠ وحينئذ اقترح أحدنا تقديم الليمونادة ٠

واتجه الحكمدار بسرعة نحو المتحدث متسائلا : « كازوزة » ٠

فرد عليه تلحمى قائلا : « أيوه كازوزة » ٠

ثم أحضرت الليمونادة والسيجار ٠ وراقب الحكمدار عمليــة نزع السدادات باهتمام شديد ، وشرب فى شراهة ظاهرة مثل تلميذ صغير ٠ وحتى القاضى والمدير ، تحررا قليلا من التحفظ فى السلوك ٠ أما بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين تعودوا على المشروبات المكونة من عصــير الليمون والسكر ، فان الليمونادة ذات الرغوة ، المعبــأة فى الزجاجــات تعتبر أفضل النوعيات ٠

وبدأت المحاولات المعتادة للحديث ٠ ولا يعرف ســوى هؤلاء الذين حاولوا الدخول فى حديث قصير أمام أصحاب السلطة ، صعوبة الدخول فى موضوعات للحديث تمنع التثاؤب وتضــمن التعبير الحى على سيماء المستمعين أثناء ابداء الاحتشام على كلا الجانبين ، ذلك الذى كان لايقطعه سوى حديث الترجمان ٠

لقد بدأنا رحلتنا فى فترة اعتدال الجو لأنه فى مصر حيث لاتمطر السماء ، وتشرق الشمس دائما ، يحل الترمومتر محــل النشرة الجوية بوصفه مقياسا مفيدا ٠ ولما كنا نعرف أن أسوان تفوق سمعتها ســمعة أية مدينة أخرى على سطح الكرة الأرضية من حيث ارتفــاع درجــة الحرارة ، فقد سعدنا ونحن فى قمة الدهشة عندما وجدنا أن حرها لايزيد عن حر انجلترا فى شهر سبتمبر ٠ وقد علق الحكمدار على ذلك بقوله أنه لم يمر عليه شتاء بارد فى مثل برودة هذا الشتاء٠ ثم سألناه الأسئلة المعتادة عن المحاصيل ، وارتفاع مستوى النهر ، وما شابه ذلك ٠ وقد أجاب عن جميع الأسئلة بهدوء وبساطة لم نجد مثلها لدى أى رجل آخر فى العالم كله ٠ فقال : ان جو النوبة صحى وكان محصول البلح وفيرا ، كما أن بواكير القمح تشير الى جودة المحصول٠أما السودان فكان هادئا ومزدهرا ٠ أما بخصوص الترتيبات الجديدة للخدمات البريدية فقد هنأنا عليها لأننا

أصبحنا قادرين على استلام وارسال الخطابات حتى الشلال الثانى ، وذكر أيضا أن أسلاك التلغراف تعمل الآن بانتظام حتى الخرطوم . وحينئذ سألناه عن الزمن المتوقع لوصول السكة الحديد الى أسوان ، فأجاب قائلا : « فى مدى سنتين على الأقل » .

وسرعان ما انتهى رصيدنا من الموضوعات وحل موعد التسلية .

وسألنا الترجمان : « ماذا أقول بعد ذلك ؟ » .

فأجبناه قائلين : « قل له اننا نريد أن نشاهد سوق العبيد بالذات » .

وغامت الابتسامة من على وجه الحكمدار ، وترك المدير كوب الليمونادة دون أن يتذوقها ، وأسقط القاضى السيجارة من فمه ، ولو كانت قد انفجرت قنبلة فى الصالون لما كان لها مثل هذا الأثر العظيم .

وكان الحكمدار هو أول من تكلم وعلى محياه سيماء الحزن ، ونقل الينا الترجمان كلامه قائلا :

« يقول لكم انه لا توجد فى مصر تجارة فى العبيد ، ولا توجد فى أسوان سوق للعبيد » .

وكان قد قيل لنا فى القاهرة من مصادر موثوق بها ان العبيد ما زالوا يشترون ويباعون هنا ، ولكن ذلك يحدث الآن بنسبة أقل مما كان فى الماضى ، وأن منظر هذه السوق من أكثر المناظر التى يراها السائح فى مصر غرابة واثارة للمشاعر ، وكررنا العبارة قائلين فى شك : « لا توجد سوق للعبيد ! » فهز الحكمدار والمدير والقاضى رؤوسهم ورفعوا أصواتهم وقالوا فى نفس واحد مثل ثلاثى الموظفين الاداريين فى الأوبرا الفكاهية :

« لا ، لا ، لا ، مافيش بازار ــ مافيش بازار » .

وسعينا الى توضيح أننا لم نرغب بهذا الاستفسار فى أن نشبع حب الاستطلاع غير المجدى ، أو أن نقدم أية وجهات نظر سياسية . ان غرضنا الوحيد هو عمل رسم كروكى . وكنا نعرف أن هناك سوقا للعبيد ما زالت موجودة فى أسوان..وكان ذلك أكثر مما تحتمله حساسية القاضى القضائية فلم يدع تلحمى يكمل الحديث .

وقاطعه قائلا وقد زم شفتيه تعبيرا عن مثل هذا الرعب الذى يحس به الرجل النيوزيلندى المصلح عندما يتطرق الحديث معه الى موضوع أكل لحوم البشر : « انه غير قانونى · انه غير قانونى » ·

وتلا ذلك صمت محرج ، وأحسسنا بأننا قد ارتكبنا خطأ فاحشا ترتب عليه ظهور الارتباك علينا ·

ورأى الحكمدار ذلك وأشفق على ارتباكنا بابداء أحسن مشاعر الرقة فى العالم · فوقف ، وفتح البيانو وطلب الاستماع الى بعض الموسيقى ، فقامت السيدة الصغيرة بعزف أفضل الألحان التى استطاعت أن تتذكرها ، وتصادف أنها عزفت لحن رقصة الفالس للموسيقار فردى ·

وفى هذه اللحظة جلس الحكمدار مبتسما ومنتبها بجانب البيانو ، وظهر أنه بالرغم من كل أدبه الجم ، كان يبحث عن شىء حتى لا يظهر بمظهر عدم الرضا · وكانت هناك سحابة تعبر عن عدم التوفيق وهو يقول : « كتر خيرك كتير » عندما انفجر الفالس عند نهايته فى شكل سيل من التتابع السريع · فماذا كان يعنى بذلك ؟ هل كان يريد الاستماع الى أغنية أم أن الجو الشاعرى قد أعطاه الاحساس بسعادة أكبر ؟

لا شىء من ذلك ، لقد كان يبحث عما لمحته عينه السريعة الحركة · وبالتحديد بعض الموسيقى المدونة فى النوتة ، فأمسك بها منتصرا ووضعها أمام العازفة · لقد كان يريد الموسيقى التى تعزف من النوتة ·

ولما سئل عما اذا كان يفضل لحنا غنيا بالحركة أم لحنا ينم عن الشكوى والأنين · أجاب بأنه « لا يهتم طالما كان اللحن صعب الأداء » · لقد تصادف عثوره الآن على أسطوانة للموسيقار فاجنر ، وعلى ذلك فقد نفذت السيدة الصغيرة رغبته وقدمت له جرعة من موسيقى تانهاوزر Tanhauser ولا نستغرب أن نقول انه أحس بالسعادة ، فابتسم كاشفا عن أسنانه ، وحرك عينيه وردد (الآه) الطويلة المعروفة فى مصر كتعبير عن الاستحسان · وكان من الواضح أنه كلما كان اللحن أكثر ابهاما وغرابة وغموضا أعجب به أكثر ·

اننى لا أفكر فى أسوان البتة الا وأجد نفسى أتذكر ذلك المشهد الغريب الذى ظهرت فيه السيدة الصغيرة وهى تجلس الى البيانو وبالقرب منها الحكمدار الأسمر وقد كشف عن أسنانه فى نشوة ، والقاضى وقد

التحف بالشال والعمامة ، والمدير وهو نصف نائم ، والهواء وقد تشبع بدخان التبغ ، وفوق كل ذلك ـ أتذكر صوت الصخب والرنين والايقاعات ونغمات تانهاوزر المتنوعة التى طغت كلها واستبدت بخلفية المشهد .

ان حلاوة الزيارة الشرقية تمتد لفترة طويلة تجعـــل صبر وأدب المضيفين الأوربيين محل اختبار عميق . فهذا الوجيه المحلي يترك عمله ـ لو كان لديه بالفعل عمل يؤديه ـ وينصرف قبل الظهر ، ولا يفعل شـــيئًا سوى التدخين والثرثرة حتى انتهاء اليوم ، ولا يقيم أدنى اعتبار للزمن الذى يغتاله بين يديه . وكل هدفه فى الحياة هو استهلاك هذا الزمن ، اذا أمكن ذلك بأقل قدر ممكن من الملل . ولذلك فهو يقوم بزيارة يتعمد خلالها اطالة البقاء بقدر الاستطاعة . وعلى أية حال فقد قضى زوارنا ساعتين من أفضل الأوقات . أما الحكمدار الذى تحدث حديثا قصيرا عن الذهاب الى انجلترا ، فقد طلب كافة أسمائنا وعناويننا لأنه يزمع أن يحضر لزيارتنا فى بلدنا .

وأثناء انصرافه من القمرة تمهـــل لكى يتأمل ورودنا التى كانت موضوعة بالقرب من الباب ، وذكرنا له أن بك أرمنت قد أعطاها لنا . فسألنا وهو يتفحصـــها فى اعجـــاب عظيم : « هل تزرع هـــذه الورود فى أرمنت ؟ يالها من جميلة ! لماذا لاتزرع فى النوبة ؟ » .

فقلنا انه ربما كان جو النوبة أشد حرارة بالنسبة لها . فأحنى ظهره لكى يستنشق عبيرها ، وظهر عليه الارتباك وهو يقول : « انها عظيمة جدا . هل هى ورود ؟ » .

لقد سبب لنا هذا السؤال نوعا من الصدمات فلم يخطـــر فى بالنا أننا وصلنا الى منطقة لاتعرف الورود . ولكن الحكمدار الذى قضى عمره فى تدخين النرجيلة التى كانت مملوءة بماء الورد ، وشرب شربات الورد ، وأكل مربى الورد ، لم يتعرف الى الورد الا بعد أن شم رائحته . ويبـــدو أنه لم يغادر أسوان طوال حيـــاته ، ولم يسافر الى أبعد من أرمنت ، ولم ير طوال حياته وردة متفتحة .

وكنا قد عزمنا على المضى فى طريقنـــا الى منطقة الشـــلال فى صباح اليوم التالى لوصولنا الى الحدود ، ولكن يبدو أنه كانت هنـــاك ذهبية أخرى تناضل لشق طريقها الى فيلة . وحتى مرور هذه الذهبيـــة فانه لا الشيخ ولا رجاله كانوا على استعداد للقائنا . وفى الساعة الثامنة من

صباح اليوم التالى ، حيث وعدوا بأن يصحبونا كمرشدين ، وكنا ملزمين بدفع ١٢ جنيها فى الرحلة عن الاتجاهين أى تســعة جنيهات للذهاب والثلاثة الباقية عند عودتنا الى أسوان ٠

وكانت هذه هى الاتفاقية المبرمة بيننا وبين شيخ الشلال فى اجتماع لجنة ترأسها الحكمدار وبمساعدة القاضى والمدير ٠

وكان لدينا يوم فراغ وعلينا أن نقضيه فى أسوان ، وبالطبع شغلنا جزءا منه بزيارة الفنتين التى أطلق عليها فى النقوش اسم : آبو أو جزيرة العاج ٠ ولابد أنه كان يوجد هنا مستودع أو « مدينة للخزائن » لحفظ أثمن الأشياء الموجودة فى منطقة أعالى النيل ، وأعنى بها الذهب النـوبى وأنياب الفيل التى تشتهر بها كوش ٠

انها جزيرة رائعة الجمال ، وعرة ومرتفعة فى الناحية الجنوبية ، ومنخفضة وخصبة فى الناحية الشمالية مع ساحل ممتاز يمتلىء بجداول المياه الكثيرة الشجر ، ومناطق السـباحة المحدودة المسـاحة التى يتوقع الانسان فى كل لحظة أن يتقابل فيها مع روبنسون كروزو حاملا شمسيته التى صنعها من جلد الماعز ، أو خادمه فرايداى وقد انحنى تحت ثقل حمل من الحطب ٠ ان سكان هذه الجزيرة جميعا من نوعية فرايداى لأن الفنتين بوصفها أول مركز نوبى لايسكنها الا النوبيـــون ، انهـــا تضم قريتين نوبيتين ، وخرائب مدينة قديمة كانت عاصمة لمصر كلها على أيام فراعنة الأسرة السادسة منذ ثلاثة أو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ٠ وكان هناك معبدان بنى أحدهما فى أيام أمنحوتب الثالث ، كان موجـودا منذ حوالى سبعين عاما مضت٠وقد شاهدهما بلزونى سنة ١٨١٥ ، وقد تمت ازالتهما مؤخرا لبناء قصر ومعسكرات للجيش مكانهما ، وقد حدث ذلك قبل زيارة شامبليون للمنطقة سنة ١٨٢٨ فلم يشاهد الا أطلال بـوابة من العصر الفرعونى ، وتمثالا زرى الهيئة للملك منبتاح فى وضع الجلوس ، وهو الفرعون الذى قيــل عنــه انه فرعون الخروج ٠ وقد بقى وحده لتحديد المواقع التى توقفوا فيها ٠

لقد تحول قلب هذه الجزيرة الى اللون الأخضر نتيجة لانتشــــار مزارع النخيل الكثيفة ، وحقول الخروع المحروثة بعناية ، وأشــجار القطن ، والعــدس والذرة ٠ أما الســاحل الغربى فهو محاط بالغابات التى تطل على حافة الماء ، بحيث يستطيع الانسان أن يسير هنا فى الظل فى أشد فترات الظهر حرارة ، منصتا الى هدير الشلال وباحثا عن الأزهار

البرية التي لايبدو أنها تنمو في أي مكان آخر الا المنطقة التي يطلق عليها الاسم العربي الجميل : جزيرة الأزهار ٠

ومن فوق الأرض المرتفعة في الطرف الجنوبي للجزيرة حيث تنتشر أكوام الزبالة والعظام البيضاء اللون والجماجم البشرية ، وجلود الحيات التي انسلخت عنها ، وأكوام قطع الخزف الملون المكسورة ، استطعنا أن نلتقط العديد من قطع الفخار الأسمر المنقوش والتي يتضح أنها قطع من الزهريات المكسورة ٠ وكانت الكتابة التي عليها باهتة جدا ومطموسة الى حد ما ٠ لقد اكتشفنا أنها مكتوبة بحروف يونانية ، ولكن حتى رجلنا الكسلان لم يكن كفؤا لتفسير كلمة واحدة بشكل منطقي ٠ وأعتقد أنها ليست سوى قطع صغيرة متفرقة ومن الاستحالة العثور على الأجزاء المكملة لها ٠ وقد سلمنا بأنها تنتمي أيضا الى تاريخ حديث نسبيا ، ولكننا أخذنا معنا ثلاثة أو أربعة منها كتذكار لزيارة المكان ، ولم نفكر فيها أكثر من ذلك ٠

وقد استغرقنا الحلم بأن يكون الدكتور بيرش Dr. Birch جالسا في هذه اللحظة في غرفة مكتبه المقبضة بالمتحف البريطاني على بعد عدة أميال ، مشغولا بفك طلاسم مجموعة من كسر الفخار المماثلة والتي أحضرت جميعها تقريبا من نفس المكان (١) ٠

---

(١) نشرت أعمال الدكتور بيرش في كتابه « Guide to the First and Second Egyptian Rooms » ومعناه : الدليل الى الغرفتين المصريتين الأولى والثانية ٠ وتم طبعه على نفقة المتحف البريطاني في شهر مايو سنة ١٨٧٤ ٠ ويقول عن محتويات الدولاب رقم ٩٩ بالغرفة الثانية ما يلي :

« لقد ازداد استخدام قطع الفخار لتسجيل الاحداث في عصر الامبراطورية الرومانية حيث كانت ايصالات استلام الضرائب تدون على مثل هذه القطع بمعرفة جامعي الضرائب في الفنتين أو سيين على حدود مصر ٠ وقد بدأ استخدام هذه النوعية من الايصالات على ايام الامبراطور فسباسيان حوالي عام ٧٧ ميلادية ٠ واستمر استخدامها حتى عصر الامبراطور ماركوس أوريليوس والامبراطور فيروس حوالي سنة ١٦٧ للميلاد ٠ ويظهر منها أن ضريبة الرأس وضريبة التجارة التي كانت تساوى ١٦ دراخمة سنة ٧٧ ميلادية قد ارتفعت الى ٢٠ دراخمة سنة ١٦٥ ميلادية بمعدل زيادة ثابت ٠ وكانت القيمة تدفع على أقساط تسمى mersmoi ثلاث مرات في السنة ٠ وكانت الضرائب تجمع بمعرفة جباة أطلق عليهم اسم misthotai وهم من الاغريق كما يبدو من هذا الاسم ٠

وكانت الضرائب في الفنتين تجمع بمعرفة جامعي الضرائب المعروفين باسم Practeres والواضح انهم كانوا يعينون في هذه الوظيفة منذ أيام البطالمة ٠ وكان كتبة الحسابات الذين يخدمونهم من المصريين ٠ وكانت لديهم دواليب وخزائن تسمى Phylax ٠ انظر ص ١٠٩ من الكتاب المذكور أعلاه وأيضا لنفس المؤلف الدكتور =

ولا نعرف شيئا تقريبا عن الاهتمام الغريب الذى انصب على هذه الشظايا التى يصعب قراءتها ، أو الأهمية التى حازتها مؤخرا فى عيون الباحثين ، أو القيمة المحتملة من اكتشاف بعض الاضافات فى عددها عن طريق الصــدفة ، ولكننا بعــد ذلك بمدة ستة أشهر رثينا جهلنا وأسفنا للفرص الضائعة ٠

لقد عرفنا أن المصريين قد استخدموا قطع الفخار بدلا من أوراق البردى لكتابة المذكرات الصغيرة ، وأن كل واحدة من تلك الشظايا التى التقطناها قد تضمنت تسجيلا كاملا فى حد ذاته ٠

وأخشى أننا كنا سنضحك لو ذكر لنــا أحد فى حينه أنها ايصــالات ضرائب حكومية جمعت على الحدود خــلال فترة الحكم الرومانى لمصر ٠ لقد كانت مكتوبة باليونانية؛لأن الرومان فوضوا الكتبة الاغريق لأداء مهام هذه الوظيفة غير المحبوبة ٠ ولكن الاغريقى كان فاسد الذمة ، كما كان فن الخط متخلفا ، بحيث انه لا يستطيع قراءة المكتوب عليها سوى القليل من الدارسين البارعين ٠

وليست جميع الشقافات التى وجدت فى الفنتين ايصــالات ضرائب أو أنها كتبت كلها بخط يونانى ردىء ، لأن المتحف البريطانى يحوى العديد من الشظايا مكتوبة بالديموطيقية أو الخط الشعبى ، بينما كتب القليل منها بالهيراطيقية أى الخط الذى يتعامل به المثقفون والكهنة ٠ ولم يتم بعد ترجمة النوعية السابقة ، ولكن لابد أنها تتضمن مذكرات فى الأعمال ، وخطابات خاصة قصيرة مما كان يتداوله المصريون فى تلك الفترة ٠

= بيرش ، ص ٤٥ من كتابه History of Ancient Pottery . وليست هذه المذكرات الجافة هى الأعمال الأدبية الغامضة الوحيدة التى عثر عليها فى الفنتين ، فانه يوجد ضمن المخطوطات المصرية المحفوظة بمتحف اللوفر بعض قطع الفخار التى تنتمى الى الأسرة الثامنة عشرة تتضمن فقرات من الالياذة كانت قد اكتشفت فى مقبرة فوق هذه الجزيرة ، ولا يعرف أحد كيف تم دفنها ٠ وقد يظن عاشق الفخار أن بعض الضباط الاغريق أو الرومان قد مات فى هذه المحطة البعيدة أثناء تأدية مهام وظيفته ورغب فى أن تدفن معه فى قبره أشعار هوميروس الذى يحبه ٠

ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية :

تم العثور على قطع أخرى من الفخار مدون عليها أبيات من الالياذة فى أجزاء مختلفة من مصر والبعض منها (الموجود الآن بمتحف اللوفر) عليه شخبطة مثل ايصالات دفع الضرائب التى ذكرناها آنفا ٠ لقد وجدت أثمن العينات فى مصر أو فى أى مكان آخر ٠ أما اقدمها فقد تم اكتشافه فى هذه السنة ١٨٨٨ بمعرفة مستر فلندرز بترى فى مقبرة احدى السيدات بمنطقة هوارة بالفيوم ٠

ولكن كيف تم الاحتفاظ بهذه الكسر الوثائقية عندما اختفت المدينة التى عاش فيها من كتبوها ، والمعابد التى تعبدوا فيها ولم تترك خلفها أى أثر ؟ من الذى ألقى بها بين قطع الفخار المكسورة على هذا الجانب المكشوف من التل ؟ هل نستطيع افتراض أنه كان يحتل هذا المكان مكتب لتسجيل الوثائق العمومية ، وأن الايصالات التى خزنت هنا كانت نسخا مكررة من الايصالات التى تسلمها دافعو الضرائب ؟ أليس من المحتمل أن يكون هذا المكان هو جبل النفايات Monte testaccio للمدينة القديمة، حيث تأخذ جميع قطع الفخار المكسورة سواء أكانت مكتوبة أم غير مكتوبة طريقها اليه ان عاجلا أم آجلا ؟

ومع استثناء شظية فاخرة من المحجر الرومانى المواجه تقريبا لمدينة أسوان ، فان بوابة الاسكندر المحطمة ، وتمثال منبتاح المهشم ، هما الأثران الوحيدان اللذان لهما أهمية أثرية على سطح هذه الجزيرة • ولكن جاذبية الفنتين هى جاذبية الجمال الطبيعى الدائم ، وهى الجاذبية التى تبدو فى الصخور وفى مزارع النخيل والمياه الهادئة •

وتشبه شوارع أسوان شوارع كل مدينة طينية أخرى على شاطىء النيل • كما أن أسواق العاديات بها تشبه مثيلتها فى المنيا وأسيوط • والبيئة المحيطة صاخبة بما فيها من مقاه وفتيات راقصات مثل البيئة المحيطة بمدينتى اسنا والأقصر ، وقد اختلسنا الأنظار الى داخل المسجد الذى كانت تؤدى فيه بعض الصلوات ولم ندخله • كان يبدو رطبا ونظيفا وشديد الاتساع • وكانت الأرضية مغطاة بالسجاد الفاخر ، وقد تدلت من السقف مجموعات من بيض النعام • وقد اشترينا من سوق العاديات بعض السلال والأطباق المصنوعة فى النوبة وهى مصنوعة من نفس البوص ونفس الصبغة ونفس الألوان ونفس الطرازات المشابهة لمثيلتها التى وجدت فى مقابر طيبة •

وقد وجدنا نوعا معينا من السلال البيضية ذات الغطاء المقوس التى توجد عينات منها محفوظة بالمتحف البريطانى مما يدل على أنها مازالت مطلوبة فى أسوان • ان صانعى السلال لم يعدلوا فى الطرازات ، كما أن المشترين لم يعدلوا فى أذواقهم منذ أيام رمسيس العظيم •

وهنا عند خزانة صغيرة فى دكان قريب من سوق الأحذية ، وقعنا فى براثن الاغراء باتفاق عدة جنيهات فى شراء ريش النعام الذى جلبه التجار القادمون من السودان الى أسوان • وكان التاجر يحضر ريشة واحدة فى

كل مرة ولم تظهر عليه الرغبة فى سرعة البيع · وكذلك لم نعبأ نحن أيضا بهذا الأمر · وكانت المساومة طويلة من كلا الجانبين ، كما كان المتفرجون مهتمين كالعادة ، وتبرعوا بالتعليق على كل كلمة عابرة · وفى النهاية حملنا حمل ذراع من الريش الفاخر الذى بلغ طول الواحدة من غالبيته ما بين اثنين ونصف الى ثلاثة أقدام · وكان بعض هذا الريش ناصع البياض ، بينما كان بعضه الآخر أبيض مع نقط بنية اللون · وكذلك لم يكن هذا الريش نظيفا ولا مجعدا ، ولكنه كان بنفس الشكل الذى ورد به من أيدى صائدى النعام ·

وكان أكثر المناظر اثارة فى أسوان هو منظر معسكر التجارب بالقرب من المرسى · هنا تشاهد الأحباش مثل قرود البابون ذات الأرجل الرفيعة ، وأفراد قبائل البشارية ذوى السحنات الوحشية ، وأعراب قبائل العبابدة ذوى العيون اللامعة والشعور المسترسلة · والنوبيين المفتولى العضلات ذوى اللون البرونزى ، والمواطنين من جميع القبائل والأقاليم ، من كردفان وسنار وصحارى باهودا وضفاف النيل الأزرق والنيل الأبيض · كان بعضهم عائدا من القاهرة ، والبعض الآخر فى طريقه الى هناك · وبعضهم قد أنزل تجارته فى المحطة (قرية على الجانب الآخر من الشلال)، والبعض الآخر جاء عبر الصحراء لكى يعيد تحميلها على السفن فى المحطة · وكانوا يعيشون بجوارها وقد وضع كل منهم نفسه فى معقله الصغير المكون من أكوام البالات والصناديق الخشبية التى تستخدم فى نقل البضائع ، مثل عنكبوت وسط عشه · وقد زود كل منهم نفسه بغلاية وكنكة للقهوة وسجادة قديمة لكى ينام ويصلى عليها · وقد أقام تركى عجوز متجهم الوجه سقفا من الحصير ، وأثث عشه بكنبة من جريد النخل ، ولكنه كان غير منقاد للملذات وهو استثناء من القاعدة ·

وعند مرورنا بالمعسكر شاهدنا البعض مبتسما ، والبعض الآخر عابسا · وقد عرض علينا أحدهم تناول القهوة ، وكان البعض الآخر لحوحا أكثر من غيره فعرض علينا محتويات طروده التى كانت عبارة عن حزم ضخمة من جلود الأسود والفهود ، وبالات من القطن ، وزكائب من أوراق الحنة ، وأنياب الفيل الملفوفة فى الخيش ، والحصير المتناثرة على الضفة الرملية · وكانت هناك عدة مئات من البالات التى تحتوى على الصمغ العربى وحده ، وقد خيطت كل بالة فى غلاف من الجلد الخام ، وربطت بسيور من جلد فرس النهر · وعند قرب حلول الغسق عندما أضيئت أنوار المعسكر ،وجرى اعداد وجبة العشاء ، صار المنظر رائعا بما يكفى للتصوير ، فقد كانت الأنوار تلمع ، والظلال تتعمق · وكان الأشخاص

الغرباء يتمشون هنا وهناك أو يجلسون القرفصاء فى مجموعات وسط تجارتهم • وكان البعض يخبزون فطائر مسطحة ، والبعض الآخر يقلبون الشوربة أو يحمصون البن ، وقد أحدثوا ثقبا وسط الرمال ، ووضعوا حجرين متقابلين لحمل الغلاية ، ثم جلبوا حفنة من الحطب وذلك لعمل المطبخ وتوفير الوقود • وفى نفس الوقت أخذت جميع كلاب أسوان تحوم حول المعسكر ، وانتشرت بلبلة من الألسنة البربرية المختلفة مع النسيم الذى تلا غروب الشمس •

ويجب ألا ننسى اضافة أننى رأيت وسط هذا الزحام المتنوع أخوين من مواطنى الخرطوم ، كنا قد قابلناهما لأول مرة فى المدينة ثم فى المعسكر • كانا يرتديان عمامتين حريريتين ، لونهما أبيض ، ويعرضان أثوابا من قماش الكشمير بلون أصفر باهت • وكان رأساهما الصغيران المتعاليان وملامحهما الأرستقراطية المتناسقة تتناسب مع أنقى نوعيات أهل فلورنسا • أما عيونهما فقد كانت مستطيلة ولامعة ، كما خلت بشرتهما من أية شوائب حبشية زرقاء ، أو نوبية برونزية ، فقد كان سوادهما حالكا وبراقا ورائعا • وقد اتفقنا على أننا لم نقابل أبدا مثل هذين الشابين الوسيمين ، فقد كانا مثل نموذجين محفورين فى العاج • ولم يتعرضا لآلام العالم ، أو يصابا بأمراض التفكير التى تصيب الانسان بالشحوب ، وانما كانا يتوهجان بمباهج حياة الجنوب الدافىء •

وبعد أن استكشفنا جزيرة الفنتين ، وقلبنا أسواق العاديات ، تفرقت مجموعتنا فى اتجاهات مختلفة • البعض قضى بقية اليوم فى كتابة الخطابات ، وانحنى الرسام على رسوماته الكروكية ، ثم قام ليبحث عن ذئب يعيش فى الخرائب فوق وهدة عميقة فى الجانب الغربى من النهر • أما الرجل الكسول فقد ركب الجمال بشجاعة ومضى بها فى الصحراء الشرقية •

ويعتبر ركوب الجمال من المناظر العادية فى أسوان ، كما أن السفر فى الصحراء يقدم نفس المتعة التى يحققها قضاء نصف ساعة على شاطىء بحر الثلج فى ممر جبل الثلوج Mortaretsch Glacier ، أو تسلق جبل مونت روزا ، ان الطريق المختصر من أسوان الى فيلة أو على الأقل ركوب الدواب الى محاجر الجرانيت ، يشكل جزءا من البرنامج الذى يضعه كل ترجمان ، ويعتبر بمثابة الانجاز المتوج لكل سائح من سياح شركة كوك • ويقوم العربان أنفسهم بهذه الرحلات الصغيرة على الحمير بأكثر سعادة وأكثر سرعة ، وهم فى الحقيقة يحرصون على ألا يتجاوزوا طاقة

الجمل بقدر الاستطاعة · ولكن السائح السهل التأثير يضع جمل أسوان ضمن مصاعب الرحلة · انه يضع ضـــمن اهتماماته أن هذه الحيوانات ذوات الأربع المزمجرة ، تجبر على ترك مهامها المعتـادة لكى تجوب منطقة المرسى ، بينما تتلخص مهمتها فى نقل البضائع التى تفـرغ قبل وبعد الشلال · ولكن بعيدا عن هذه المهمة الشريفة ، نجد أنهـــا تستخدم فى أداء تمثيلية سخيفة تهدف الى تسلية السياح ، ولذلك فاننى لا أتعجب وأنا أرى هذه النوعية من الدواب وقد أصبح سوء الطباع عادة عندها · انها تعرف أن الاجراءات كلها ذات طابع شعبى ولذلك فانها تستاء منها بموجب هذه المعرفة · وبالرغم من ذلك فهناك مميزات يتميز بهـــا ركوب هذه الدواب ، أقلها أنها تسهل للانسان معـرفة نوعية العمـل المنوط بأية بعثة استكشافية منتظمة فى الصحراء ، وهى فى جميع الأحوال تتيح للانسان أن يتعرف على سفينة الصحراء ومع (الأخذ فى الاعتبار القصور المحتمل للعينة) فانه يشكل حكما مسبقا على مواهب الجمل ·

ان للجمل فضائله الكثيرة التى تختص به والتى يجب التسليم بها على الأقل ، ولكنها لاتظهر على السطح · ولقد ذكر لى أحدهم أن الجمـــل يخترن فى معدته مخزونا من الماء الطازج الذى يستحق عليه الثناء · ولكن هذا المخزون لم يهذب مشيته ولا طباعه · لأنها مازالت فظيعة · ولا غبار عليه بوصفه واحدا من دواب الحمل ، ولكنه يلقى اعتراضات كثيرة كحيوان للركوب · وليس من المرغوب فيه فى المحل الأول أن تركب حيوانا لا يرفض فقط أن يركبه أحد ، ولكنه أيضا يبدى نفورا قويا نحو من يركبه · ومع ذلك فهو يمتاز بحلاوة المعشر · أنت تعرف أنه يكرهك من أول مرة تدور فيها حوله باحثا عن الكيفية التى تبدأ بها الصعود على سنامه · وهو فى الحقيقة لايتردد فى أن يبين لك ذلك بأوضـــح المصطلحات · انه يعاديك فى حرية عندما تأخذ مجلسك ، ويزمجر اذا تحركت فى السرج ، ويرمقك فى غضب اذا حاولت أن تدير رأسه فى أى اتجاه بخلاف ذلك الاتجـــاه الذى يفضله · واذا صممت على ذلك فانه يحاول أن يعض قدمك · واذا لم يؤد هذا العض الى نتيجة فانه يرقد على الأرض ·

والآن ، فان رقود الجمل وقيامه يدلان على الغرض الواضح الذى يهدف الى توجيه الأذى البدنى البالغ لراكبه·وعندما يلقى براكبه مرتين للأمام ومرتين للخلف ، ويضرب به الهواء ، ويحطم عموده الفقرى ، فان الراكب السيىء الحظ يتلقى أربع هزات ظاهرة ، كل منها أقسى من سابقتها وغير متوقعة ، ذلك لأن هذا السنام الفظيع يتخذ وضعا مخيفا وغريبا ، وهناك مفصل زائد فى مكان ما فى أرجله يستخدمه ليتفوق على الانسان ·

وعلى كل حال فان خطواته أكثر تعقيداً من مفاصله ، وأكثر ازعاجاً من طبائعه ، ذلك لأن له أربعة أساليب للسير : سير قصير يتدحرج فيه مثل تدحرج القارب الصغير في بحر متقلب ، وسير طويل يخلع فيه كل عظمة في جسمك ، وهرولة تهبط بك الى مستوى الجنون ، وركض يوردك موارد التهلكة • وانني أتخيل أن الجريمة التى يعاقب مرتكبها بمعاناة البقاء على ظهر الجمل لمدة ست عشرة ساعة متواصلة ، يمكن أن تكون كفارة كاملة وكافية عن الذنوب؛لأنها عقوبة لايود الانسان أن تكون وسيلة لادانة أي انسان حتى لو كان يعمل ناقدا أدبيا •

وكانت هذه الجمال تقضي النهار بطوله على الضفة للايجار • وكان بعضها بنى اللون ، والبعض الآخر أبيض اللون ، كما كان بعضها أشعث الشعر والبعض الآخر أملس • وقد وضعت شراريب من الصوف الزاهى اللون على رؤوسها كلها ، وطرحت بعض السجاجيد على سروجها الخشبية بطريقة تجعلها تصلح للاقامة • لقد ركب وجهاء الفسطاط الجمـــال منذ ساعات وجلسوا فوقها في هدوء وأرجلهم متقاطعة • وقد شهدنا سلوكهم هذا باعجاب يخالطه الحســـد • أما الآن وقد انتبهنا في تواضـــع الى شجاعتنا الذاتية ، فقد أعددنا أنفسنا لنفعل مثلهم • وكانت لحظة رزينة تلك التى قمنا فيها باختيار الجمال التى سنركبها ، وتأهبنا لمجابهة مخاطر الصحراء ، وأثار اعجابنا ما قام به الزوجان السعيدان من تبادل الوداع عند الرحيــــل •

وركبنا ثم مضينا فى طريقنا ، وكان هنـــاك ولدان مثـــل شيطانين صغيرين يتبعان خطوات جمالنا ، بينما يقوم ســـلام بدور الحارس • ثم وجدنا أننا نرتفع وننخفض ، ونتأرجح ، ونتدحرج للأمام بسرعة جعلتنا نصعد فوق المنحدر خلال ضاحية مملوءة بالمقاهى والبنـــات الراقصـــات الضاحكات • ثم انطلقنا الى الصحراء ، وكان طريقنا بالنسبة لنصف الميل الأول يمر بين المقـــابر • انها جبانات ضخمة يستخدمها المسلمون ، جزء منها قديم وآخر حديث • وهى تقع خلف مدينة أسوان وتغطى مساحة أكبر من مساحة المدينة ذاتها • وهناك عدة مجموعات من المســـاجد الصغيرة ترتفع فوقها قباب صغيرة ، وجميعها متداعية كثيرا أو قليلا ، وهى تقوم هنا وسط خرائب أحجار القبور المتناثرة ، وبعضها منعزل ، بينما تجمع البعض الآخر فى مجموعات تشكل منظرا صالحا للتصوير • ومن المفروض أن كلا منها يغطى قبر فقيد مسلم ، ولكن بعضها مجـــرد أضرحة لتخليد ذكرى مشايخ وشهداء مدفونين فى أماكن أخرى • وهناك المئات من شواهد القبور البسيطة ، مشوهة ومحطمة ، ومقلوبة ، ومسنودة بعضها الى البعض

الآخر فوق أكوام من الحجارة ، أو وضعت فى شـــكل أكوام مهملة . والطرف العلوى فى معظمها مستدير مثل اللوحات الفرعونية القديمة . عليها كتابات محفورة ، بعضها بالخط الكوفى يتجاوز عمرها ألف عام . وعندما تمضى الشمس فى اتجاه الغرب وتستطيل الظلال ، تحس بشىء من الحزن العميق والروعة التى تحيط بمدينة الأموات ، هذه التى تمتد فى الصحراء المهجورة .

والآن ، وبعد أن تركنا المقابر فاننا نتجه نحو اليسار قاصدين المسلة التى فى المحجر،وهى تمثل المنظر الأساسى للمكان،ويمتد الأفق خلف أسوان محاطا من جميع الاتجاهات بمرتفعات صخرية شاهقة وذات شكل بديع ، ولكنها ليست بالارتفاع الذى يكفى لكى نطلق عليها اسم الجبال . وكان القاع الرملى الذى تحت أقدام جمالنا تتناثر فيه الحصباء بينما هو متماسك بشكل مريح . وكانت مجموعات الصخور الجرانيتية التى تمتلىء بالنقوش الهيروغليفية ، تظهر فجأة هنا وهناك وتقوم مقام المعالم الأرضية حيث تشتد الحاجة اليها ؛ لأنه ليس هناك ما هو أسهل من أن يضل الانســان طريقه بين هــذه المنحــدرات الصفراء اللون ، ويمضى تائها مثــل الاسرائيليين التائهين فى الصحراء . وأخيرا وبعد أن تعرجت بنا السبل بين الروابى المتموجة ومنــاطق الصخور الأسطوانية وصلنا الى مجموعة صــغيرة من الصخور حيث توقفت جمالنا عند سفحها بارادتهــا . وهنا ترجلنــا ، وتسلقنا منحدرا قصيرا ، ووجدنا الكتلة الصخرية الضخمة تحت أقدامنا .

ونظرا لأنها قطعت أفقيا فقد كانت ترقد نصف مدفونة فى الرمال المنجرفة ، ولم يظهر منها ما يدل على أنها ليست منفصلة كلها وجاهزة للنقل . وتقول الكتب التى بين أيدينا انه لم يتم قطع السطح السفلى منها وهو القــاع الجرانيتى الذى ترقد عليــه . أما طرفاها فقد اختفيــا . ولا يستطيع الانسان أن يسير حوالى ستين قدما على السطح الظاهر منها ، ويحمل هذا السطح آثار الأدوات التى كان يستخدمها العمال . وهناك أخدود منحدر ملىء بالثقوب المثلثة الشكل التى تبين مســــار التناقص التدريجى فى الحجم مع الاقتراب نحو القمة . وأخدود آخر يبين التناقص الجانبى . ولو كانت هذه المسلة قد اكتملت لصــــارت أضخم مسلة فى العالم . ان المسلة العظيمة للملكة حتشبسوت فى الكرنك التى جــاءت أيضا من أسوان حسب ما ذكرته النقوش الموجودة عليها ، يبلغ ارتفاعها

أثنين وتسعين قدما • وتبلغ سعتها عند القاعدة ثمانية أقدام مربعة (١) • أما هذه التى ترقد نائمة فى الصحراء فقد كان طولها سيبلغ خمسة وتسعين قدما وتزيد مساحة قاعدتها على أحد عشر قدما مربعا •

ولا نعرف الآن لماذا تركت هنا ، كما أننا لا نستطيع تخمين اسم الملك الذى كان سينقش عليها • وهل كان الملك قد أضمر فى قلبه أن يقيم أضخم مسلة رأتها عيون البشر ؟ وهل مات قبل فصل المسلة من كتلة الحجر ؟ أم أن العمال قد طردوا من موقع العمل مثلما طرد الملك عن عرشه بفعل القبائل الجائعة القادمة من أثيوبيا أو سوريا أو جزر ما وراء البحر ؟ وربما كانت هذه الكتلة الضخمة أقدم من رمسيس الأكبر أو أنها فى مثل حداثة آخر الأباطرة الرومان ، ولكنه من المستحيل أن نحدد لها زمنا أو نخصص لها تاريخا • وهنا يقف علم المصريات الذى حل لغز أبى الهول ، عاجزا ؛ لأن المسلة التى فى المحجر تحتفظ بسرها آمنا ، وتتمسك به الى الأبد •

ويشاهد الانسان المحاجر المصرية القديمة فى أوضح معالمها بين الطبقات الكثيفة من الحجر الجيرى أو الحجر الرملى كما هى فى مناطق طرة والسلسلة • ولا يمكن تتبع الطريقة التى يستخلص بها الحجر بدرجة أوضح مما هى عليه الا فى أسوان•والمحاجر هنا رغم أنها على نطاق ضيق بالنسبة لتلك الموجودة أسفل النهر الا أنها أكبر جاذبية • وليس هناك شىء يثير الانسان فى السلسلة أكثر من الأسلوب الذى كان يقتطع به الحجر الرملى من قلب الجبل • أما فى أسوان فان نفس المادة تنتمى الى نوعية أفضل ، ولذلك فان أسلوب الاستخراج هنا أضخم تكلفة•والصخور الصفراء فى السلسلة تقطع الى شرائح منتظمة مثل انتظام الجبن فى شباك بائع الجبن ، وتحدد معالم المكان الذى يتم فيه العمل حوائط مرتفعة ملساء ، مع كمية صغيرة من الأنقاض • أما فى أسوان فانه عند استخلاص الجرانيت لأغراض النحت فانهم يقطعون الصخر كتلة واحدة بالشكل التقريبى المطلوب ، ثم يقومون بتشكيله بالتخلص من الزوائد ، وليست المسلة العظيمة الا احدى العينات التى فى المنطقة • وفى نفس المجموعة

---

(١) هذه هى الأبعاد التى وردت فى دليل موراى • أما الترجمة الانجليزية الجديدة لكتاب مارييت وعنوانه : Itineraire de la Haute Egypte وترجمته : الدليل الى مصر العليا ــ فانها تذكر أن ارتفاع مسلة حتشبسوت يبلغ ١٠٨ أقدام وعشر بوصات ــ انظر : The Monuments of Upper Egypt ترجمة الى الانجليزية ألفونس مارييت ــ لندن ، ١٨٧٧ •

من الصخور ، أو في مجموعة أخرى مجاورة ، رأينا عموداً منحوتاً دون استواء ، قائما وقد فصلت ثلاثة أجزاء منه وأيضا الفتحة نصف الأسطوانية التي أخذ منها زميله • وكان هنــاك تجويف غريب قطعت منـــه كتلة ربع دائرية أثارت ارتباكنا بسبب ضخامتها • وفي أماكن أخـرى ظهرت الكتل الصخرية وقد اتخذت شكل صندوق • وقد بحثنـا عن الناووس المهشم الذي ذكره موراي ولكن دون جدوى •

ولكننا متأكدون من أن الرمال المتراكمة قد أخفت أشـــياء أخرى أثمن من هذه • ومن المحتمل أن تكون النقوش كثيرة هنا كما هو الحال في محاجر الحمامات • ولابد من وجود مسلة زميلة للمسلة الضـــخمة ، وليتنا نعرف المكان الذي نبحث فيه عنها • ومن الممكن تتبع مسلة الملكة حتشبسوت ونواويس العديد من الملوك المشهورين حتى مواقع قطعها في هذه المحاجر • وكذلك أحجار الطبقة الخارجية التي اكتسى بهـــا هـــرم منكاورع ، والكتل المكعبة الضخمة التي بنى بها معبد الكباش ، وحوائط هيكل فيليب أريدايوس بالكرنك • وقبـــل كل شيء التمثال الضـــخم بالرمسيوم وتمثال الحيوان الخرافي الغريب الشكل في تانيس (١) الذي يعتبر أضخم تمثال منحوت في العالم ، فلابد وأن يكون كل منهما قد ترك الفجوة الضخمة التي نحت منها بين الصخور القريبة • ولكن هذه تشبه أغنية الجنيات البحرية (في الأساطير اليونانية) أو الياذة أخيل رغم أنها « ليست فوق مستوى التخمين » الا أنها تقع ضمن الأشـــياء التي لم يتم اكتشافها حاليا •

أما بخصوص عملية القطع من المحاجر بأسوان ، فيبدو أن الكتل الجرانيتية المستطيلة الشكل قد قطعت هنا مثل الحجر الجيري والحجر الرملي الناعم في أي مكان آخر ، باستخدام أوتاد خشبية تثبت في ثقوب صنعت لادخالها ، وبعد أن تتشبع بالماء ، تشـــق الصـــخر الصلب بقوة التمدد • ونجد أن كل كتلة مأخوذة من المحجر تحمل علامات صفوف من ثقوب الأوتاد التي ذكرناها •

ومررنا في طريقنا بواحة صغيرة شاهدنا فيها جمالا وبئرا ، وساقية مهجورة ، ومساحة من الشعير الأخضر بلون الزمرد • وبعد ذلك ركبنـــا

---

(١) للاطلاع على قصة اكتشاف هذا التمثال الضخم ومقاييس أجزائه المختلفة ، انظر الجزء الأول من كتاب Tanis تأليف العالم و• م• فلندرز بترى ـ الفصل الثاني ، صفحة ٢٢ وما بعدها ـ طبعة جمعية استكشاف مصر .E.E.F سنة ١٨٨٥ • (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •

الحمير عائدين الى ضواحي أسوان ، حيث يمكنك أن تـــرى في منخفض صغير في الأرض على حافة الصحراء معبدا صغيرا نصف مدفون من العصر البطلمي • وما زالت آثار الألوان ظاهرة على القرص المجنح الذى تحت الافريز ، وعلى بعض النقوش البارزة المشوهة على كلا جانبى المدخل • ولم نحــاول الدخول لأننـــا وجدنا داخل المعبد غاصا بالمخلفــات ، ولذلك ابتعدنا دون أن ننزل عن الحمير •

والآن ، مازال ضوء الشمس باقيـــا لمدة ساعة ، وعقدنا النية على الصعود الى قمة أقرب تل ، لكى نشاهد غروب الشمس ، وهو ابتـــكار لم يسمع به أحد من قبل ولذلك فقد حملق فينــــا الأولاد الذين يقودون الجمال ، وهزوا رؤوسهم واعترضوا قائلين : « ما فيش سكة » أى لا يوجد طريق • والواضح أنهم اعتبرونا مجانين • وزرعت الجمال بصلابة أقدامها المعوجة فى الرمال ، وحاولت أن تعود • وعندما أجبرت على الاستســـلام لضغط الظروف ، صارت تسبنا طوال الطريق • وعندما وصلنا الى القمة وجدنا أنفسنا ننظر الى جزيرة الفنتين بما فيهـــا النيـــل ، والمدينة ، والذهبيات التى تحت أقدامنا • وقادتنا اطالة حافة سلسلة الجبال التى كنا نقف عليها الى مرتفع آخر يتوجه قبر متهدم ، وبدا المنظر كما لو كان هو منظر الشلال • وعندما رأى الأولاد الذين يقودون الجمال أننا نستعد للاستمرار فى السير ، اندفعوا فى ثورة غضبهم معترضين ، ولم يضــــع حدا لتمردهم الصريح سوى عصا سلام الكبيرة • واستمر تقدمنا يصاحبه عدم الرضا ، وصممنا على مجابهة قمة ثالثة • وســـــار الأولاد فى تثاقل وهـــم يشعرون باليأس وقد تجهمت وجوههــــم • وكانت الشمس تتجه للمغيب ، بينما كان الطريق منحدرا وصـــعبا • واقترب حلول الليـــل • واذا اختار الخواجات أن تكسر أعناقهم فالأمر خاص بهم ، أما اذا انكسرت أعناق الجمال فمن الذى سيدفع أثمانها ؟

وقد عبروا عن بعض هذه المعانى بكلمات عربيـــة ، وعن بعضـــها الآخر بالاشارات • وكانت تلك هى أفكار هؤلاء الشـــبان النوبيين • ولم تكن الجمال نفسها بأقل منهم حسما ، فقد صرت على أسنانها ، ونخرت بأنوفها ، وزمجرت مكشرة عن أنيابها ، وعارضت كل قدم من الطريق • أما عن جملى (وهو حيوان ثقيل الحركة وشديد الاستخفاف ، وعينــــاه تقذفان بالشرر ، وأنفه رومانى مائل) فاننى لم أر فى حياتى كلها جملا مثله يقذف بأشد عبارات اللغة بذاءة ! •

وكان التل الأخير حجريا شــــديد الانحدار ولكن المنظر من فوق قمته كان رائعا • لقد فزنا الآن بأعلى نقطة على الحافة التى تفصل وادى

النيل عن الصحراء العربية (الشرقية) · وقد ظهر الشلال الذى أخذ يتسع مرحلة بعد أخرى ، ويمتلىء بالجزر الصخرية الصغيرة التى لاتحصى ، كما لو كان بحيرة وليس نهرا·ولم نستطع أن نرى شيئا من الصحراء الغربية وراء المنحدرات الرملية المقابلة ، ذات الحواف الذهبية التى تواجه مغـرب الشمس · وكانت الصحراء الشرقية وهى متاهة مترامية الأطراف يقع على حافتها خط متعرج من القمم القرمزية ، تمتد شرقا نحو الأفق البعيد · وأخذنا ننظر اليها كما لو كنا ننظر الى خريطة بارزة المعالم · أما مقابر المسلمين التى تقع على بعد حوالى خمسمائة قدم الى أسفل ، فقد ظهرت فى حجم لعب الأطفال · وقد عرفنا ونحن ننظر الى اليمين من فتحة واحـدة متسعة متجهة الى الجنوب ، ذلك الحوض القديم للنهر ، الذى يقوم حاليا مقام الطريق العلوى بين مصر وبلاد النوبة · وقد حددت الطريق الى فيلة ، بعض النخلات البعيدة التى تقف فى مواجهـة خلفية صخرية على حافة الصحراء ·

وفى نفس الوقت كانت الشمس تتجه بسرعة نحو المغيب ، وتتخذ الأنوار لونا قرمزيا ، والظلال تستطيل ، بينما لف الصمت والوحـدة كل شىء · لقد أنصتنا ولكننا لم نسمع أية همسة من الشلال · وبحثنا عن محجر السلسلة دون جدوى ، فلم يكن سوى مجموعة من الصخور بين المجموعات الأخرى ومن الصعب التعرف اليه من هذه المسافة البعيدة ·

وفى تلك اللحظة ظهرت مجموعة مكونة من ثلاثة أو أربعة أشخاص يركبون حميرا رمادية صغيرة ويدورون بين القبور ، ثم اتخذوا الطريق الى فيلة · كانوا بالنسبة لنا مجرد نقط صغيرة متحركة ، ولكن الأولاد ذوى الأبصار الحادة الذين يسوقون جمالنا ، عرفوهم سريعا بأنهم « شـيخ الشلال » وحاشيته · لقد دخلت ذهبيات كثيرة الى الشلال ، وكان الرجل الجليل القدر الذى قضى النهار فى أسوان يقوم بالزيارات والمناقشـات والمساومات ، وعائدا لقضاء الليل فى منزله بالمحطـة · وراقب الركاب المتقهقرين لعدة دقائق ، حتى غطى الغسق القناة القديمة مثل الفيضـان وأغرقها فى الظلال الدافئة ·

وسرعان ما اختفى الضوء خلف المرتفعات عندما عبرنا آخر حافة · ونزلنا آخر جانب من التلال ، ووصلنا الى السـطح المستوى الذى بدأنا منه · وهنا قابلنا مجموعة الفسطاط مرة أخرى · لقـد ركبوا الى فيلة وعادوا عن طريق الصحراء · وكانت ملابسهم شـديدة الاتسـاخ · ولما شاهدونا دفعوا جمالهم للسير بالخطوة السريعة ، وتظاهروا بأنهـم يحبون هذه الطريقة فى السير · وقد انفرجت أسارير الرجل الكسلان

والكاتبة عن ابتسامة واسعة ودفعا بجمليهما للسير بنفس الخطوة السريعة. ولم يفصحا عن صعوبة السير بهذه الخطوة متظاهرين بأن هذا هو التأثير السلوكى للجمل ، الذى يتصرف بشكل عصبى ، متمسكا بالفضـــائل الاسبرطية ، واذا لم يكن هو نفسه بطلا ، فانه على الأقل يدفع الآخرين فى طريق البطولة •

وعندما وصلنا أسوان كان الليل قد أرخى سدوله • وكانت جميع المقاهى مضاءة ومستيقظة على قدم وساق ، وكان التدخين واحتساء القهوة مستمرين خارجها ، بينما تصاعدت أصوات الموســيقى والضــحك فى داخلها • وكان هناك بيت خصوصى ضخم على الجانب الآخر من الطريق مزين بالأنوار كمــا لو كان شاغلوه يحتفلون بمناسبة ســارة • كانت الأعلام تتطاير على السطح بينما انشغل رجلان فى تركيب يافطة ملونة على المدخل • وقد سألنا كما هى العادة عما اذا كانت الاستعدادات تجرى لعقد احتفال بالزواج أو احتفال موسيقى ، ولم تظهر أية علامة تدل على أن هذه كانت علامات الحداد ، وأن رب هذا المنزل قد مات خلال الفترة ما بين خروجنا وعودتنا على ظهور الحمير • وفى مصر التى كانت تعتبر عبـــادة الأسلاف وحفظ الأجساد محنطة فى يوم ما ، ضمن الواجبات المقدســـة التى يقوم بها الأحياء ، يعمل المصريون الآن عملا مشابها لما كان يحدث فى الماضى بالنسبة للميت • كانوا يقولون انه سيدفن فى صباح الغد بعد شروق الشمس بثلاث ساعات •



الجمل فى أسوان

الفصل الحادى عشر

الشلال والصحراء

عند أسوان يودع الانسان مصر ويدخل النوبة من خلال بوابات الشلال • وهو فى الحقيقة ليس شلالا بل سلسلة من الجنادل تمتد بطول ما يزيد على ثلثى المسافة بين جزيرتى الفنتين وفيلة ، حيث يتحول النيل عن مجراه الأصلى بسبب بعض العوائق التى لاتحصى ، والتى كانت طبيعتها سببا فى ظهور افتراضات علمية كثيرة • وينتشر النهر هنا فوق حوض صخرى تحده على أحد الجانبين منحدرات رملية ، وعلى الجانب الآخر صخور جرانيتية ، وتسده جزر صغيرة تفوق الحصر ، ويتفرع الى عدد كبير من الفروع ،ويفيض على الصخور الغائرة ، ويدور فى شكل دوامات حول الصخور التى تغطيها المياه ، فتارة تجد المياه ضحلة ، وتارة أخرى عميقة ، وتارة بطيئة ، وتارة أخرى سريعة ، وهنا يرقد فى عمق منحدر رملى صغير ، بينما يدور هناك فوق دوامة غير ظاهرة ، وتستطيع أن ترى النهر سواء من فوق سطح الذهبية ، أو المرتفعات التى بطول الشاطىء • وهو يشق طريقه خلال متاهة لم ترسم ممراتها بعد على الخرائط ولم يسمح بها أحد •

وتجد هذه الممرات صعبة وخطيرة فى كل مكان تمر به • ويملك الشلال وحده مفتاح هذه المتاهة • وفى وقت الفيضان عندما يصبح كل شىء مغطى بالماء اللهم الا الصخور الشديدة الارتفاع ، تصبح الملاحة سهلة هنا كما هى فى أى مكان ولا تجد أثرا لمعوقات الشلال • ولكن مع انحسار الفيضان وظهور المسافرين مرة أخرى ، يعود الشلال الى ما كان عليه • وهنا تسحب الذهبيات فوق هذه الجنادل الغادرة بقوة دفع الحبال والعضلات ، وتوجه بمهارة للعودة خلال القنوات المحفوفة بالصخور والتى تغلى بالزبد فتصبح شغله الشاغل لمدة خمسة أشهر كل سنة • انه عمل شاق ولكن يقابله أجر مرتفع ، وتزداد الأرباح دائما لأن هناك ما بين أربعين الى خمسين ذهبية تأتى اليه فى الفترة ما بين شهرى نوفمبر

ومارس ، حاملة سيلا أكبر من السياح • وفي نفس الوقت نجد أن الحوادث نادرة الوقوع ، بينما تتجه الأسعار نحو الارتفاع باستمرار ، ويحقق أعراب الشلال ربحا لا بأس به عن طريق احتكاراتهم الفردية (١) •

أما منظر الشلال الأول فلا يضاهيه في العالم كله الا منظر الشلال الثاني • انه جديد وغريب وجميل • ومن المتعذر أن نفهم لماذا كتب عنه السياح عامة بمثل هذا الاعجاب المحدود ، فمن الواضح أنهم تأثروا بقوة المياه ، وغرابة أشكال الصخور ، ووحشة وروعة المنظر الطبيعي بوجه عام ، ولكنهم نادرا ما تأثروا بجماله الذي يفوق الخيال •

ويتسع النيل هنا فيصبح مثل البحيرة ، ونجد صعوبة في وصف مئات الجزر التي يغص بها ، ولكننا لا نبالغ اذا قلنا انه لا توجد منها جزيرتان متشابهتان • وتتكون بعض هذه الجزر كتلة فوق كتلة ، وعمودا فوق عمود ، وبرجا فوق برج ، كما لو كانت قد صنعت بيد الانسان مثل الصخور التي في طرف أراضي كورنوول (*) •

وتزخر بعض هذه الجزر باللون الأخضر بسبب الحشائش ، بينما يزخر بعضها الآخر باللون الذهبي بسبب منحدرات الرمال المنجرفة ، وبعضها الأخير مزروع بصفوف من نباتات الترمس المزهرة بألوانها القرمزية والبيضاء ، بينما تحول بعض منها الى مجرد تلال صغيرة من قطع الحجارة • وتنتشر قمم الصخور الخطرة هنا وهناك • وتقع فوق واحدة منها صخرة مستقيمة منعزلة بارزة كما لو كانت قد وضعت هناك كنصب تذكاري لتاريخ معين ، أو لتحديد الطريق الى فيلة • وتبرز كتلة صخرية أخرى من الماء ، مربعة ومرتكزة في القاع كاحدى القلاع • وتحدبت كتلة ثالثة كما لو كانت هي الظهر المبلل لأحد الوحوش البرمائية الذي يرفع ما يبدو أنه رأس متوج بالقرون فوق مستوى سطح الجنادل • وجميع هذه الكتل والصخور العجيبة من الجرانيت ، بعضها أحمر ، والبعض الآخر قرمزي ، والبعض الأخير أسود • أما أشكالها فهي مستديرة

---

(١) ان تزايد حركة المراكب بشكل نسبي قد غير أحوال السفر في النيل منذ كتابة هذا الكلام ، وقل عدد الذهبيات المستخدمة ، ولكن بالنسبة لهؤلاء الذين يستطيعون دفع النفقات والذين يرغبون في الحصول من الرحلة على أقصى درجة من الاستمتاع ، والدرس ، والاهتمام ، نوصي دائما بتفضيل الذهبية • (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •

(★) كورنوول مقاطعة في جنوب غرب انجلترا تبلغ مساحتها ٣٤٠ مليونا و ١٣٥٠ مترا مربعا ـ (المترجم) •

بسبب توالى العصور • أما الصخور القريبة من الحافة فتعكس صــورة السماء وكأنها مرايا مصنوعة من الفولاذ المصقول • وفوق هذه الأسـطح اللامعة تظهر هنا وهناك خراطيش ملكية ، ونقوش هيروغليفيـة سـليمة كما لو كانت قد نقشـت بالأمس • وقد كلل القليـل من هذه الجزر مجموعات من النخيل • وازدانت أجمـل هذه الجزر بأشجار الصمغ والأثل ونخيل الدوم ونخيل البلح وأشجار الطرفاء ذات الفروع المتناثرة مثل ريش الطيور • وقد تشابكت كافة هذه الأشجار تحت مظلة معلقة من النباتات الزاحفة ذات الأزهار الصفراء • لقد دخلنا الى هذا الأرخبيل الخرافى فى صباح يوم أحد مشرق مع هبوب رياح مواتية وأبحرنا ضد التيار بسرعة منتظمة حتى ابتعدنا عن أسوان وتركنا الفنتين خلفنـا • وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى وسـط الجزر • ومن تلك اللحظة أخذت كل دورة للدفة تكشف عن وجهة نظر جديدة • وجلسنا على سطح الذهبية للفرجة على بانوراما متحركة • وكان هذا التباين فى الموضوعات بلا نهاية لأن هذا المزيج من الشكل واللون ، ومن الضوء والظل ، ومن المنظر الأمامى والمسافة ، دائم التغيير • ولم يتطلب الأمر لاستكمال المنظر الذى يغرى بالتصوير الا قاربا وبضعة أفراد ، ولكننا لم نر فى كافة هذه القنوات ، وبين جميع هذه الجزر أية علامة تدل على وجود كائن حى •

وفى نفس الوقت فان شـيخ الشـلال ــ وهو نوبى كهل ، مسطح الوجه ، وذو عينين كعيون الأسماك ، وقد ربط رأسه بمنديل حريرى قذر ذى لون أصفر ، جلس وحيـدا فى مؤخرة السفينة وهو يدخن نرجيلة طويلة فى جلال مهيب ، وجلس القرفصاء خلفه خمسة أو ستة غرباء متجهمى الوجوه • وتولى قيادة الدفة عامل جديد أسود اللون هو المرشـد الذى سيقودنا فى منطقة النوبة ، وقد أصبح مسئولا عن سلامة الذهبية وكل من عليها من أسوان الى وادى حلفا ثم العودة الى أسوان •

وقد سرت بين البحـارة عبارة عامة تحـذرنا من الاقتراب الشديد من الجندل الأول • وكانت هنـاك سلسـلة من الجزر الصغيرة تعترض طريقنا رأسا بطول القناة مثل سد صغير يتحـكم فى مجرى النهر ، بينما يتفرع النهر الى ثلاثة أو اربعة مسارات طولية تندفع فوق المنحدر ثم تتحد مرة أخرى عند القاع فى سباق عاصف •

وفى البداية ظهرت لنا استحالة الوصول الى جزيرة فيلة فوق هذا الجبل من المياه المتدفقة • واستمر عامل الدفة فى عمله ملتزما بالابحار داخل أوسع القنوات ، كما استمر الشيخ فى التدخين وهو رابط الجأش

دون أن يرفع الغليـون عن فمه ، وهو يردد كلمـة واحـدة (روح !) أى (تقـدم !) •

ومع ايماءة من رأس الشيخ ، امتلأت الصخور سريعا بالمواطنين • لقد كانوا مختبئين حتى الآن فى كافة أنـواع الأماكن غير المنظورة ، وقفزوا وهم يصيحون ويستخدمون الاشارات ، وقد حملوا لفـائف من الحبال ، ثم قفزوا فى مياه الجنادل حيث أثاروا فيضـانا من المياه مثل كلاب البحر ، وكانوا يتقافزون مثل قطع الفلين ، وهم يعرضون علينـا استعراضا للقوة كما لو كانوا سيجذبوننا الى أعلى شلالات نياجرا • كان المنظر مثل دقات المسرح ، وشبيها بظهور فرقة محاربى الألب فى مسرحية دونا ديل لاجو Donna del Lago مع طلب البقشيش فى الخلفية •

وكان المنظر الذى تلا ذلك مثيرا للغـاية • لقد حملوا حبلين من الذهبية الى أقرب جزيرة وثبتوهما فى الصخور ، كما أوصلوا حبالا من الجزيرة الى سطح الذهبية ، وكان هناك صفان من الرجال على السطح ، وصفان آخران على البر ، وقاموا جميعا بترتيب أنفسهم وهم يقفون بطول الحبال • وأعطى الشيخ الاشارة وبدأ سحب الذهبية عن طريق حبلين يجذبهما هذان الصفان من الرجال ، يصاحبهم الانشاد بصوت مرتفع ، وحركة تشبه الرقص البربرى الذى يؤديه سير روجر دى كوفرلى • وهكذا صعدت الذهبية ببطء وثبات • لقد قضينا ربع ساعة فى صعود المنحدر ، ولكن بدت لنا هذه الفترة أطول من ذلك • وفى نفس الوقت كان الرجال مندمجين فى عملهم ، وصار صوت انشادهم أكثر ارتفاعا ، كمـا أصبح سحبهم أشد قوة ، حتى اندفعت المركب أخيرا ، وتعلقت فوق بحيرة من الماء الهادىء نسبيا ، وبعد أن قضينا ساعة للراحة ، كررنا العرض ثانية ضد تيار أشد قوة للصعود الى أعلى لمسافة أخرى • وفى هذه المرة انقطع أحد الحبلين فتساقط الرجال الذين يسحبون المركب مثـل صف من أوراق اللعب التى مالت أطرافها فجأة ، وتأرجحوا حول الذهبية فيلة ، مستقبلين اندفاعة التيار على كمرة السفينة • ومن حسن حظنا أن الحبل الآخر كان مربوطا جيدا • ولو كان قد انقطع هو الآخر لتحولت الذهبية الى حطـام قبيح الشكل •

وبعد ذلك ترك مساعدونا النوبيون العمل ، وقالوا ان القدر كان معاندا • وعادوا الى منازلهم تاركين المركب راسية طوال الليل فى البحيرة عند قمة الجندل الأول • ووعد الشيخ بأن يبدأ رجاله العمل عند فجر الغد فيصلون بنا الى هناك قبل الغروب • وجاء صباح اليـوم التـالى

ولم يظهر أى رجل فى الأفق. وعند منتصف النهار تقريبا بدءوا يتقاطرون ويلقون بأنفسهم فى الماء ، وتعلقوا بطريقة كسولة ومتراخية فى السفينة لمدة ساعتين أو أكثر ونقلونا الى موقع أفضل لمواجهة الجندل التـــالى . ثم ذابوا بين الصخور فى مجموعات مكونة من فردين أو ثلاثة ، ولم يظهروا بعد ذلك . وأحسسنا الآن بأن وقتنـــا ونقودنا قد تبددت باســـتهتار ، وأننا قررنا ألا نتحمل هذا الوضع أكثر من ذلك . وتكفـــل الرســـام المرافق لنا بابلاغ اعتراضنا للشيخ واقناعه بخطأ الأساليب التى يلجأ اليها . وأنصت اليه الشيخ ، وأخذ يدخن نرجيلته ، ويهز رأســـه ، ثم أجاب بأنه توجد فى الشلال مثل أى مكان آخر أيام حظ وأيام نحس ، أيام يشعر فيها الرجال بالرغبة فى العمل ، وأيام أخرى يميلون فيها الى الكسل . وقد حدث اليوم أنهم أحسوا بالكسل ، ولما ذكرناه بأنه من غير المعقول أن نقضى ثلاثة أيام فى صعود خمسة أميال فقط من النهر ، وأن هناك حكمدارا فى أسوان سنتصل به غدا اذا لم يستمر العمل بنشاط ، ابتسم ، وهز كتفيه بلا مبالاة وتمتم بشىء عن « القـــدر » . والآن بدأ الرسام يقوم بدور عملى لأنه كان قد جمع لنفسه مجموعة كلمات عربيـــة مختارة عن السباب واللعن ، وقد دونها فى نوتة للعودة اليهـــا عنـــد الحاجة ، أما وقد اعتقد فى عدم امكانية الاستفادة منها فقد وجدنا فى الطريقة التى يجمعها بها مادة للتسلية ، فنظرنا اليها واعتبرناها فى حقيقة الأمر تسلية غير ضارة ، مثلما نظرنا الى المسدس الذى يحمله فى جيبه دون أن يحشوه بالرصاص ، أو بندقيته الجديدة الخاصة بصيد الطيور تلك التى لم يعرف مطلقا كيفية استخدامها .

ولكن شيخ الشلال مضى الى أبعد من ذلك ، لأن سخافة ابتسامته تلك تثير أكثر الرجال تواضعا ، ولم يكن رسامنـــا هو أكثر الرجـــال تواضعا ، ولذلك أخرج النـــوتة من جيبه ، ومشى باصـــبعه على الخط واستخرج تعبيرا مناسبا . وربما لم تكن لهجته صحيحة ولكن لم يخطىء فى أسلوبه أو قوة لغته . وكان تأثيرهما سريعا . لقـــد قفز الشيخ على قدمين كما لو كان قد أطلق عليه الرصاص ، وامتقع لونه من الغضب . وأقسم بأن تظل فيلة فى مكانها حتى يوم الحشر لأنه مهما كانت الأسباب فانه هو أو رجاله لن يساعدوا فى تحريكها قدما واحدا . ثم انتعل صندله المتهالك وابتعد تاركا اياتا لمصيرنا .

ووقفنا مذهولين . لقد انتهى كل شىء بالنسبة لنا ولن نشـــاهد (أبو سنبل) ، ولن نكتب أسماءنا على صخرة (أبو صير) ، أو نروى عطشنا فى مياه الشلال الثانى ، فماذا نفعل ؟ هل يمكن مقاومة الشيخ أو استعطافه ؟

هل تتصل بالحكمدار ، أو نقدم الرسام قربانا ٠ وقد وافقت الأغلبية على التضحية بالرسام ٠

وفي تلك الليلة ذهبنا للنوم ونحن يائسون ٠ ولكن ، انظر ! لقد ظهر شيخ الشلال في صباح اليوم التالى عند شروق الشمس بكل ابتسام ، وكل نشاط ، ومعه حبال لاحصر لها ، وقوة مكونة من مائتى رجل ٠ لقد أصبحنا الآن أعز أصدقائه وأصبح الرسام أخا له ٠ لقد استدعى جماهير الشلال وما وراءها لكى يصيروا في خدمتنا ٠ وباختصار فانه عمل كل ما فى استطاعته لخدمتنا ٠

وأقسم الترجمان أنه لم ير النوبيين يعملون كما عملوا في هذا اليوم ٠ لقد انهمروا مثل العمالقة وأخذوا يسحبون السفينة من الصباح حتى المساء ، ولم يتوقفوا حتى عبروا بنا الركن الأخير ، وصعدوا بنا آخر الجنادل ٠ وعندما استقرت ذهبيتنا أخيرا فى الماء الخالى من المطبات ، كانت الشمس قد غربت ، وخيم الظلام ، وبدأ الغسق يغطى سطح النهر ٠ ومع صيحة الرحيل تفرق الرجال الذين يبلغ عددهم مائتين وعادوا الى قراهم العديدة ٠

ولم نعرف بعد ذلك أبدا قيمة العبارات السيئة ٠ ولو كانت هذه النوتة هى كتاب بروسبيرو الذى غرق فى البحر ، أو بردية تحوت السحرية وقد جرى صيدها من قاع النيل ، لما كنا ننظر اليها باحترام يقارب ما لقيته هذه النوتة من الاحترام ٠ وبالرغم من عدم وجود خط يحدد أين تنتهى حدود مصر وأين تبدأ النوبة ، الا أن جنسية السكان الذين يعيشون على كلا جانبى هذا الخط الوهمى غير المنظور ، واضحة كما لو كان المحيط يفصل بين الاثنين ٠ فمن بين القرويين الذين يسكنون الشلال توصلنا فجأة الى عدم وجود شىء واضح يجمع بينهم وبين سكان مصر ٠ انهم ينتمون الى تصنيف جنسى مختلف ٠ ويتحدثون لغة مشتقة من أصول أفريقية خالصة ٠ فالبدائيون الذين احتشدوا حول فيلة عند عبورها الشلال يختلفون عن بحارتنا العرب من حيث سحنتهم العابسة ، وأجسامهم نصف العارية ، وقوتهم البدنية ، ولا يستطيع الانسان الا أن يلاحظ أنهم ما زالوا حتى اليوم أناسا مميزين ومختلفين،وقد صنف المصريون القدماء جميع الأمم الذين يعيشون جنوب الحدود بحيث يشتركون فى صفة واحدة بوصفهم « الجنس الكوشى القبيح » ولم يغير الزمن شيئا من طباعهم منذ الأيام القديمة التى هزمهم فيها المصريون ، ولكن زحفت الى مفرداتهم بعض الكلمات العربية ٠ وتضمنت قائمة احتياجاتهم اليومية بعض مواد

الترف الحديثة مثل التبغ ، والقهوة والصابون ، وملح البارود . ولكنهم ما زالوا فى غالبية نواحى الحياة يعيشون حتى اليوم مثلما كانوا يعيشون على أيام الفراعنة . يزرعون العدس والذرة ، ويصنعون الجعة من الشعير ، ويصنعون الحصر والسلال من البوص المصبوغ ، ويخطون أشكالا بدائية فوق أوعية من سطح القرع المجفف ، ويقذفون الرمح ، ويرمون القوس الخشبى الذى يرتد الى راميه ، ويصنعون الدروع من جلد التمساح ، والأساور من العاج ، ويمدون مصر بالحنة ، ويوازنون أنفسهم على جذع النخلة المجوف بمهارة عظيمة كما لو كانوا يجلسون فى قارب المراهنات، وتدهشك طريقة تجديفهم فى النهر ذهابا وعودة . وربما كان هذا البديل البربرى للقارب أقدم من الأهرام . وبعد أن شاهدنا مسار الجنادل القليلة الأولى سعدنا بالنزول من الذهبية وقضاء الوقت فى الرسم هنا وهناك على حدود الصحراء وبين القرى والجزر المحيطة ، ولا يوجد فى كل بقاع مصر والنوبة منظر غنى بالصور الصالحة للرسم أفضل من منظر الشلال ، ولابد للفنان أن يقضى هناك فصل الشتاء دون أن يستنفد الثروة التصويرية الموجودة فى هذه الأميال الخمسة التى تفصل أسوان عن جزيرة فيلة ، أو يستنفد الجداول المائية الصغيرة المتعرجة المليئة بالصخور المتجمعة فى شكل عجيب ، أو المنحدرات الرملية الذهبية التى على حافة الماء ، أو البحيرات الهادئة التى ترقد فى وسط حقول الترمس ، ومناطق زراعة الشعير الرفيع والسواقى المختفية بين أشجار النخيل وهى تلقى بالماء أثناء دورانها ، والأكواخ الطينية التى تتجمع هنا فى مناطق غائرة ، بينما تجثم هناك منعزلة على المرتفعات التى بين الصخور وتتخذ حتى هذا اليوم شكل وانحدار البوابات الفرعونية ، والقوارب البدائية التى تجهز

فى خلجان محمية أو التى تتكسر وتجف فوق الرمال ، وصخور الجرانيت القرمزية والسوداء والأرجوانية التى تجرفها الأمواج وتغطيها الطيور البرية فى وسط النهار ، والصياد الذى ينشر شباكه لكى تجف فى حرارة الشمس ، والجمال والقوافل ، والمعسكرات الشاطئية ، وقوارب نقل البضائع ، والمراكب التى فى النهر ، والأشكال الضخمة للأجسام الرياضية نصف العارية ، والنساء القاتمات اللون اللائى يتزين بالزينة البربرية وهن سافرات ، وينزلقن بسرعة ، ويسحبن خلفهن أثوابا طويلة الذيل ذات الوان زرقاء غامقة ، والعجائز المسنات ، والأطفال الصغار العراة مثل تماثيل برونزية حية . وليست هناك نهاية لهذه الموضوعات ومئات الموضوعات الأخرى التى يمكن تصنيفها فى مجموعات لا نهائية . وهى جميعها صالحة للتصوير ، والتدوين ، والنظم فى القصائد لدرجة أن الانسان يخشى أن يقع فى خطأ نسيان أن هذه الأماكن تمثل ما هو أكثر من خلفيات جميلة ، وأن الناس ليسوا مجرد تماثيل متناسقة وضعت

هناك لاسعاد الرسامين ، ولكنهم من لحم ودم ، يتحـــركون وهم مفعمون بالأمل والمخاوف والأحزان مثلنا ٠

وتستكين المحطـة فى أحضـان خليج صـغير وقد اخضر لونها بفعل أشجار الجميز والنخيل ، كما اتخذ نصفها الخلفى شكل جزيرة بسبب ذراع من الماء ينحنى ويلمع مثل سيف تركى فتبدو بذلك من أجمل القرى التى على النيل ٠ انها مقر الشيخ الرئيسى وهى أيضا عاصمة الشلال ٠ وتبعد المنازل قليلا عن الشاطىء ٠ أما الخليج فانه مزدحم بالقوارب المحلية من كافة الأحجام والألوان ٠ ويزدحم الشاطىء الرملى بالرجـــال والجمال والنساء والأطفال والحمير والكلاب والبضائع والأكواخ المؤقتة كل ذلك فى نفس الموقع مع الأعمدة والحصير ٠ وهذه هى أسوان أخرى ولكن على نطاق أوسع ٠ فهناك العشرات من السفن ٠ أما معسكر التجار فهو قرية فى حد ذاته ٠ ويبلغ طول الشاطىء نصف ميل ، كما يبلغ عرضه المنحدر الى النهر ربع ميل ٠ والحقيقة هى أن المحطة تمثل الميناء التوأم لأسوان ٠ وهى لا تقع تماما على الطرف الآخر للوادى العظيم بين أسوان وفيلة ، ولكن



التجار السودانيون فى المحطه

عند أقرب نقطة يمكن الوصـــول اليها فوق الشـلال ٠ ويفرغ التجار السودانيون بضائعهم هنا لكى يعاد شـحنها الى أسـوان ٠ ولم نر بطول النهر مثل هذه القوارب النوبية المخلعة ذات المظهر البربرى ، انها تبدو قديمة ومهجورة مثل سفينة نوح ، وعلى البعض من هذه القوارب شرفات مقوسة خارج مدخل القمرة ، بينما تميل مؤخرة بعضها الآخر مثل السفينة

الشراعية الصينية المسطحة القاع • وقد كان معظم هؤلاء التجار يعملون بالنخاسة أيام الدفترداربك ، ويتنقلون بين وادى حلفـــا والمحطة مثلما يتنقلون الآن حيث يفرغون بضائعهم البشرية فى هذه النقطة لكى يعاد شحنها الى أسوان ، ونادرا ما كانوا يعبرون الشلال حتى فى وقت الفيضان • ولو كانت ألواحهـم الخشبية القديمـة القذرة تستطيع الكلام لذكرت لنا العديد من القصص السوداء الدامية •

وبعد أن مضينا من خلال القرية وحدائق النخيل ، ودرنا فى اتجاه شمالى شرقى نحو الصحراء وصلنا الى منتصف المســـافة فى هذا الوادى الذى نوهت عنه أكثر من مرة ، ولا يستطيع أى شـخص غير ماهـــر فى الجغرافيا الطبيعية أن ينظر من أحد طرفى هذا الأخدود الضخم الى الطرف الآخر دون أن يكتشف أنه كان فى يـوم ما قاعا للنهـر • ولا نعرف لمدة كم من عشرات الآلاف من السنين مضى النيل فى مجراه داخل هذه الحدود الأصلية • ولا نستطيع أن نذكر متى هجرها • ولكن من المؤكد أن النهر كان يفيض متخذا هذا الطريق خـــلال العصـــور التاريخية أى فى أيام أمنمحات الثالث (حوالى ســـــنة ٢٨٠٠ ق•م •) والكثير من هذا الكلام يحتاج الى برهان يستدل عليه من بعض النقوش (١) التى تسجل أعلى

(١) ان أهم الاكتشافات التى اكتشفناها هنا والذى سأذكره فى ايجاز ، هو سلسلة من النقوش الصخرية التي تسجل أعلى ارتفاعات للنيل خلال سلسلة من السنوات تحت حكم أمنمحات الثالث وخلفائه ••• انها تبرهن على أن النهر قد ارتفع خلال الأربعـة الاف عام التى مضـت أكثر من أربعـة وعشرين قدما فوق مسـتوى ارتفـاعه الآن ولابد أن ذلك نتج عنه أحوال مختلفة بالنسبة للفيضان وسطح الأرض كله ، شمال وجنوب هذه البقعة • انظر : خطابات من مصر للمؤلف لبسيوس (الخطاب السادس والعشرين) Lepsius's Letters from Egypt.

لقد تم تسجيل أعلى ارتفاع للنيل كل عام فى سحنة بواسطة علامة تبين سنة حـكم الملك ، نقشت فى الجرانيت ، سواء فوق احدى الكتل التى تشكل أساس القلعـة أو على صخرة خاصة على الضفة الشرقية أو الغربية فى أفضل مكان منـاسب لأداء الغرض • وقد بقيت ثمانى عشرة علامة من هذه العلامات ، قطعت ثلاث عشرة منهـــا فى عصر موريس (امنمحات الثالث) وخمسة فى عصر الملكين اللذين خلفـاه • لقد أوضحنا هذه الحقائق ذات الدلالة وهى أن أعلى الدرجات المسجلة صارت معروفة الآن ، ذلك أنه فى خلال السنة الثالثة عشرة من حكم امنمحات وبناء على القياسات الدقيقة التى قمت بها ، كان الارتفاع ٨ر١٧ مترا (٢٦ قدما ، ٨ بوصات) أعلى من أعلى مستوى وصل اليه ارتفـاع النيل خلال سنوات الفيضان العـالى • وكانت أقل علامة على البر الشرقى وفى مقابل السنة الخامسة عشرة من حـكم نفس الملك ، تبين أن الارتفـاع مازال هو ٤ر١٤ مترا (١٣ قدما و ٦¾ بوصة) كما أن العلامة المنعزلة على الضفة الغربية تبين أنه فى خلال السنة التاسعة بلغ الارتفاع ٧٧ر٢ مترا (٩ أقدام) فوق أعلى مستوى سبق الوصول اليه) عن خطاب لبسيوس الى البروفيسور اهرنبرج Lepsius's Letter to Ehrenberg .

ارتفاع للفيضان عند سمنة خلال السنوات العديدة التى حكمهــا هذا الملك ، ثم ارتفع النيل فى أثيوبيا الى مستوى ٢٧ قدما زيادة على أعلى نقطــة وصـــل اليها فى الوقت الحالى • وأنا لا أعرف ماهيــة العلاقة التى يحملها ارتفاع هذا الفيضان القديم بالنسبة للمستويات المسجلة فى سمنة أو بالنسبة لتلك المستويات المسجلة الآن ذاتيا على شواطىء فيلة ، ولكن الانســـان يرى فى لمحة واحــدة بدون الاستعانة بالمقاييس أو علم مسح الأنهار ، أنه لو فاض النهر فى موجة عظيمة تصل قمتها الى ٢٧ قدما فوق أعلى أرض يخصبها الآن الفيضان السنوى ، فسرعان ما يمتلىء الحوض الصحراوى الطويل ويحول أسوان الى جزيرة •

ولابد أن النيل الذى أغرق الصحارى بفيضانه العـــالى فى عصر أمنمحات الثالث ، قد جاء عليه يــوم فى فترة أخرى تلت ذلك العصر فانخفض مستوى الفيضان الى درجة الجفاف • ومن المفروض أن تكون هذه الكارثة قد حدثت فى وقت طرد الهكسوس (حــوالى ســـنة ١٧٠٣ ق•م •) عندما تحطم الحاجز الصخرى فى السلسلة وأغرق منطقة النوبة التى لعبت حتى الآن دور خزان ضخم ، وشتت الفيضانات الحبيسة فوق سهول مصر الجنوبية • ومن الخطأ استنتاج أن النيل مع هذه الكارثة قد حول مجراه لكى يتدفق فى اتجاه الشلال ، ولابد أن ذراعا من النهر قد اتخذ لنفسه المجرى المنخفض والعميق الحالى ، فى نفس الوقت الذى جف فيه الذراع الآخر الذى كان منخفضا وذلك مع هبوط الفيضان كل موسم • ولا يوجد أى سجل أثرى لهذا الحدث ، ولكن الحقائق تتحدث عن نفسها • هناك المجرى العظيم ، وهناك طمى النيل القديم ، وقد دفن الجزء الأكبر منه فى الرمال ، ولكنه مازال ظاهرا فوق العديد من المدرجات والهضاب الصخرية التى تقع بين أسوان وفيلة • وهناك أماكن نجد فيها أن سطح الكتلة قد انجرف كما لو كان ذلك بفعـــل الاندفاع الفجـائى للمياه • ومنذ ذلك الحين فاضت موجات الحرب والتجارة فى مكانها • لقـــد اتجـــه كل من الغـــازيين تحتمس ورمسيس الى أرض كوش وقادا جيوشهما عبر هذا الطريق • واستطاع شـــباكا وهو على رأس القبائل الاثيوبية أن يتخذ هذا الطريق المختصر ليصل به الى عرش الفراعنة • وكذلك فان الفرنسيين الذين طاردوا المماليك بقيادة ديزيه بعد معركة الأهرام قد اندفعوا خلال هذا الطريق الى فيلة • وفى نفس الوقت فان كل تجارة الســـــودان قد اتخذت نفس الطريق وان كانت قد انقطعت أحيانا بسبب المد والجزر الذى تحدثه الحــــروب • ولم تعبر أبدا هذه الأميال الخمسة من الصحراء بدون مقابلة قافلة أو قافلتين من الجمـــال

المحملة سواء بالبضائع الأوربية الى جنوب السودان ، أو الكنوز الشرقية في اتجاه الشمال ٠

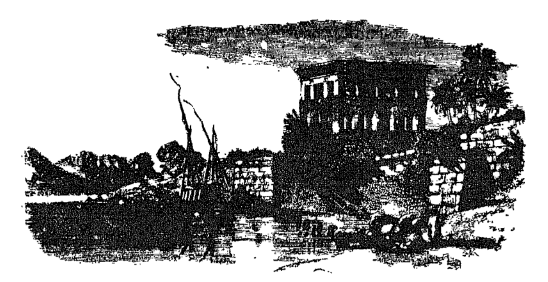
ولن أنسى سريعـــا القافلة الأثيوبية التى قابلنـــاها ذات يوم أثناء خروجنا من المحطة ، كانت تتكون من سبعين جملا محملة بأنياب الفيل ٠ وقد حزمت كل ستة من هذه الأنياب التى يبلغ طول الواحد منها أربعة عشر قدما فى حزمة واحدة ، ووضعت داخل زكائب من جلد الجاموس أغلقت جيدا بالخيوط المتينة ٠ وكان كل جمـــل محملا بحملين وضـــع كل منهما فوق أحد جانبى السنام ٠ ولابد أن القافلة كلهـــا قد حملت حوالى أربعين وثمانمائة ناب ٠ وكان يجرى الى جانبى كل جمل نوبى حافى القدمين ٠ وتلا القافلة فهـــد صياد محبوس داخل قفص خشبى ومحمول فوق ظهر جمل ضخم ومعه قطة برية داخل سلة ٠ وفى النهاية ســـار حبشى أسود كالفحم يصل طوله الى حوالى سبعة أقدام ، وقد ارتدى شالا فخما وعمامة ، وكان يلمع الى جانبه سيف أحدب ضخم ، كما وضع فى حزامه زوجا من مسدسات القرن السابع عشر المطعمة بالصدف ، مثل جـــراب مسدس الأمير روبرت ٠ وكان هذا المحارب المزركش هو حارس القـــافلة ٠ وكان الفهد الصياد والقطة البرية قادمين لأجـــل الأمير حسن الابن الثـــالث لولى العهد ٠ أما العاج فكان مخصصا للتصدير ٠ ولم أجد منظرا يصلح للتصوير أفضل من منظر هذه القافلة التى تسبقها ســـحب من التراب المثار بينما يخرج الأطفال من القرية فى اثرها ، بشكل يصعب ادراكه ٠ وقد اشتقنا لحضور جيروم لكى يرسمها على الطبيعة ٠

وتتضمن الصخور على كلا جانبى مجـــرى النهر القـــديم نقوشا هيروغليفية ٠ ويغطى تاريخ هذه النقوش مع غيرها مما وجدناه فى المحاجر المجاورة ، فترة تتراوح ما بين ثلاثة الى أربعة آلاف عام ابتداء من العصور المبكرة للامبراطورية القديمـــة ، وتنتهى بعصـــور البطالمة والقياصرة ٠ ان بعضها مجرد توقيعات ، ولكن البعض الآخر يصل الى طول معقول ٠ والكثير منها تعلوه أشكال الآلهة والعابدين ٠ وليست هذه النوعية فى معظمها الا مجرد نقوش جدارية سيئة الرســـم ومحفورة باهمـــال ٠ أما السجلات التى تصورها فهى فى الغالب سجلات النذور ٠ كان المسافر العابر يعظم آلهة الشلال ، ويطلب حمايتها ، ويسجل اســـمه ، ويذكر الغرض من رحلته ٠ وكان المسافرون من طبقات وعصـــور وجنسيات مختلفة ، ولكن العبارات كانت فى معظم الحالات متشابهة الى حد كبير ، فهذا مواطن من طيبة يقوم بالحج الى فيلة ، أو قائد على رأس قواته عائد من غزوة فى اثيوبيا ، أو أمير تابع يقدم خضوعه للملك رمسيس العظيم

وارتباط اقطاعيته بآلهة المكان · وكنا بين حين وآخر نعثر على خرطوش ملكي وقائمة طويلة بالألقاب تبين كيف أن الفرعون هو نفســـه الصقر الذهبي ، وابن رع ، والجبار ، والذى لايقهر ، وشــبيه الآلهـــة ·· وهكذا ·

ومما يثير العجب أن نرى كيف أرســت الملكيــة من عدة آلاف من السنين أسلوب الألقاب ، كما تفعل فى أيامنا هذه ، لقد تسمى تسعة أعشار من المسافرين القدماء الذين تركوا توقيعاتهم على هذه الصخور ، بأسماء رمسيس أو تحوتمس أو أوسرتاسين · وكان البعض منهم طموحين فاتخذوا لأنفسهم أســماء الآلهة · وقد وجد أمبير الذى كان مجتهدا فى العمل فى اكتشاف النقوش سواء هنا أو بين الجزر ، توقيعات عدد لايحصى من الموتى الذين تسموا بأسماء آمون وحتحور (١) ·

وتلا فترة ثلاثة الأيام التى قضيناها محجوزين فى الشلال ، يوم رابع تميز بالهدوء الشامل حيث لم تكن هناك نسمة هواء تملأ أشرعتنا · ولم يكن هنــاك مكان يقوم فيه الملاحون بسحب السفينة ، حتى اننــا لم نستطع أن نتحرك للأمام الا باستخدام العصى الطويلة التى تنغرز فى قاع النهر ، ولذلك مضى نصــف النهــــار قبل أن ترسو الذهبيـــة فى ظل الجزيرة المقدسة التى تحمل اسمها ·



معبد جزيرة الفراعنـة

(١) للاطلاع على عبارات وترجمات عدد كبير من نقوش أسوان الجــدارية انظر كتاب لبسيوس وعنوانه Denkmaler وللاطلاع كذلك على أحدث وأكمل مجموعة من النقوش التى كانت على صخور أسوان والمناطق المجاورة بما فيها النقوش غير المدونة بوادى السبع رجالة ، والفنتين ، والصخور التى فى جنوب السلسلة ·· الخ ·· الخ · انظر أحدث كتب السير وليم م· فلندرز وعنوانه : عمل فصل كامل فى مصر سنة ١٨٨٧ ـ صــدر سنة ١٨٨٨ عن دار نشر Field and Tuer (ملحوظة مضــافة الى الطبعــة الثانية) ··

الفصل الثانى عشر

فيلــــة

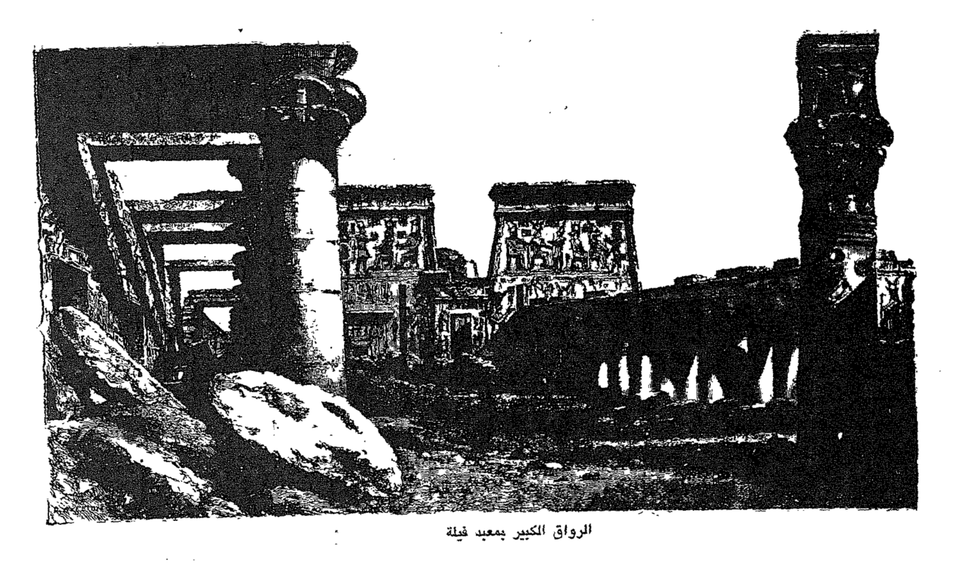
قضينا عدة أيام على مقربة من فيلة ، وليس للقارىء أن يحسب أننا اكتفينا منها بالتطلع الى بواباتها البعيدة بين الحين والآخــر ، ولكن على العكس فقد كنا نجد طريقنا الى هنــاك عند انتهاء جولة كل يوم · لقــد اقتربنا منها بريا من الصحراء ، وبحريا عن طريق القارب ، ومن المحطة عن طريق الممر الواقع بين الصخور والنهر · وعندما أقول بأننا قد رسونا هنا لمدة ليلة ونهارين تقريبا ونحن فى طريقنا جنوب النهر ، ومرة أخرى لمدة أسبوع عند وصولنا ، فان ذلك يبين أنه كان لدينا وقت يســـمح لنا باستظهار معالم هذه الجزيرة البديعة · وأجمل الطرق المؤدية اليها هو طريق النهــر ، فحينما ترى من سطح القــارب الجزيرة وعليهــا أشجار النخيل ، تظهر أساطينها وبواباتها وكأنما هى سراب يرتفع من النهر ، وتحيط بها أكوام الصخور من جميع الجهات ، بينما تسد الأفق الجبال ذات اللون الأرجوانى · وترتفع هذه الصروح المزينة بالنقوش شيئا فشيئا فوق أفق السماء ، بينما ينزلق القارب على صفحة الماء فيدنــو منهــا وهو يشق طريقه بين الصخور المتالقة ، دون أن تظهر عليها أية علامة تدل على الخراب أو تقدم الزمن ، فكل شيء يبدو صلبا ومتماسكا ومتكاملا . ولبرهة نخال أن كل شيء على حاله لم يتغير ، فلو حملت الينا نسائم الهواء الذى يلفه الصمت نغمات أغنية عابرة ، ولو أننا رأينا موكبا من الكهنة المتسربلين بالبياض يشق طريقه وسط آجام النخيل وأبراج المعبد ، وهم يحملون زورق الاله المحجوب عن الأنظار ، فما كنا سنجد فى ذلك غرابة ·

وينزل غالبية السائحين فى طــرف الجزيرة بالقرب من الشلال ، وبذلك يصلون الى المعبد الرئيسي من الخلف ويشاهدونه بترتيب عكسى . ولكننا جعلنا الأعراب يجدفون حول الجزيرة متجهين نحو الطرف الجنوبى حيث كان يوجــد مرسى فخــم ينحدر بمدرج الى النهر · وسرنا محاذين للضفاف المنحدرة ، ومررنا بالمعبد غير المسقوف المعروف باســـم معبــد

سرير فرعون ، وهو معبد طالما اجتذب الفنانين لتصويره بالريشة والكاميرا حتى أصبحت صورة كل حجر فيه وكل ركن فى المنصة القائم عليها وآجام النخيل التى تطوقه مطبوعة فى الذهن منذ الطفولة كصورة أبى الهول أو الأهرام • وقد وجدته أضخم مما كنت أحسب ، لكنه لم يكن أقل جمالا مما توقعت ولو بقدر خردلة • وعلى أية حال فالانســـان يشعر بأن معبـد سرير فرعون الحقيقى يحل محل الصور المحفوظة فى الذاكرة الضيقة التى تشبه عش الحمام والتى اعتاد الانسان حتى هذه اللحظة أن يختزن فيها المناظر الشهيرة علما بأنه حتى الصور قد يطرأ عليها نوع من التغيير •

والآن نجد الركن مستديرا ، والنهر يتسع فى اتجاه الجنوب بين الجبال ومزارع النخيل • وتلمس مقدمة السفينة خرائب خليج قديم فاذا بالضفة هنــا شديدة الانحـــدار • ونصعد فينفتح أمــام أعيننا منظر عجيب • اننا نقف على الطرف السفلى من فنـــاء يقود الى صروح المعبـد العظيم • وهذا الفناء غير منتظم الشكل ، ويطوقه على كلا الجانبين رواق من الأساطين ، وهى أساطين غير متساوية فى الطول ، كما أنهــا مقامة فى زوايا مختلفة • ونجد ببساطة أن أحد الرواقين عبــارة عن ممر مغطى ، بينما ينفتح الآخر على صف من الحجرات الصغيرة مثل رواق دير ينفتح على صف من صوامع الرهبان • أما الأحجار التى أقيمت بها سقوف هذين الرواقين فقد أزيحت قليلا ، بينما ضـــاع أسطون أو تاج أسطون هنـــا أو هناك • أما الصروح المزدوجة للمدخل التى تقف فى صفوف مستقيمة مقابل السماء وقد غطتها التماثيل المنحوتة فهى كاملة أو شـــبه كاملة تقريبا مثلما كانت فى أيام البطالمة الذين شيدوها •

وقد زخرفت المنطقة التى بين الأســاطين بقواعد من الطوب اللبن عبارة عن الأثر الباقى من قرية قبطية تنتمى الى العصور الأولى للمسيحية• وقد اتخذنا طريقنا بين هذه القواعد الى مقدمة الصرح الرئيسى التى يبلغ عرضها الكلى ١٢٠ قدما • ويبلغ ارتفاع البوابة ٦٠ قدما من القاعدة حتى الشرفة• وهذه الأبعاد لا تعنى شيئا بالنسبة لمصر ، ولكن الصرح الذى يعتبر صغيرا بالقياس الى صروح الأقصر أو الكرنك لا يبــدو هــكذا فى فيلة • وليست العظمة هنا هى محور الكلام بل الجمال • والجزيرة صغيرة بمعنى أنها تغطى منطقة تعادل مساحة قمة الاكروبول فى أثينا • أما نطاق المبانى فقد حدده حجم الجزيرة ، والأرض هنا كما هى فى أثينا يحتلها معبد رئيسى واحد متوسط الحجم ، بالاضافة الى عدد من الهياكل الثانوية • ويحل محل الضخامة هنا الرشاقة الكاملة ، والتناســـب الرائــع ، والتجميع



الرواق الكبير بمعبد فيلة

المختلف والمتقلب الأطوار ، وبذلك يضاف الى النماذج المصرية عدم انتظام التنفيذ وهو صفة تميز العمارة القوطية ، واللمعان الذى تتميز به العمارة الاغريقية •

ونشاهد الآن بعض لمحات قاعة داخلية ، وبهوا ثانيـــا ، يقع خلفه بهو آخر ذو أساطين • وعندما نرفع أنظارنا الى النحت البارز الضخم الذى فوق رؤوسنا ، نرى الأشكال السرية المعتادة للملوك والآلهة ، متوجين ، وجالسين على العروش ، يعبدون أو يتلقون العبادة • وتبرهن هذه النقوش التى تبدو لأول نظرة وهى ليست أقل كمالا عن الصروح على أنها نالت من الجهد مثل ما نالتـه مثيلتها فى معبد دندرة • وقد نجت من التحطيم هنا وهناك التماثيل التى تحمل رأس الصقر حورس ، ورأس البقرة حتحور ، بينما كانت الآلهة ذات الوجوه البشرية وبلا مبالغة « بدون عيون ، وبدون أنوف ، وبدون آذان ، وبدون أى شىء » •

ودخلنا الى القاعة الداخلية وهى على شكل مربع غير منتظم يحده من الشرق رواق مكشوف • ومن الغرب هيكل صغير فى مقدمته أساطين على قمتها رأس البقرة حتحور ، بينما يحده من الجانبين الشمالى والجنوبى الرواق الثانى والرواق الأول ، ويخيم الصمت على هذه القاعة المربعة ، بينما تلمع زرقة السماء من أعلى ، وترقد الظلال من أسفل ، ويظهر الغسق رقيقا حول أقدامنا • وترقد الظلمة الأبدية فى داخل الهيكل الصغير الذى بناه بطلميوس الثانى (يورجتيس) وينتمى هذا الهيكل الى الطراز الذى أطلق عليه شامبليون اســـم ماميزى (بيت الولادة) Mammisi • وهو مكان شديد الغرابة ، مخصص للالهة حتحور تخليدا لذكرى تربيـة حورس • ومن خلال الضوء الباهت الذى يتصارع على الحاجز والمدخل ، ظهرت على الحوائط السوداء صورة ايزيس زوجة وأخت أوزوريس وهى تلد حورس • أما فى الخارج فقد تتبعنا على عوارض الحاجز قصة طفولته ، وتعليمه ، ونموه • كان يتربى فى حجر أمه الحاضنة حتحور عندما كان طفلا رضيعا • وعندما صار صبيا نراه يقف عند ركبة أمه ، وينصت الى موسيقى عازفة القيثارة (رأينا فى القاهرة فى يوم آخر ، ولدا عارى القدمين يعزف على قيثارة من نفس النوع بها أوتار عديدة) • وعندما صار شابا كان يوزع الحبوب تكريما لايزيس ، ويقدم صدرية مرصعة بالأحجار الكريمة الى حتحور • أما ايزيس هذه بأنفها الطويل المعقوف ، وشفتيها الرفيعتين، وطلعتها الشامخة فانها تشبه احدى الصور الشخصية التكريميـــة التى نتعرف اليها ضمن نقوش المعابد المصرية • وقد تمثل احدى الصـــورتين اللتين تسجلان زفاف كليوباترة الى بطلميوس فيسكون •

وقد نقش على الحائط الخارجى لهيكل صغير مجاور ، كلبان سلوقيان ، وضع حول عنقيهما طوقان • ويظهر هذان أيضا مثل صورتين شخصيتين ، وربما كانا هما الكلبين المفضلين لأحد كبار كهنة فيلة •

وقد نقشت مقابل الكلبين وعلى نفس الحائط تلك النسخة الشهيرة من النقش المدون على حجر رشيد والذى كان لبسيوس هو أول من لاحظه سنة ١٨٤٣ للميلاد ، وهو نقش غير مرتفع ومكتوب بخط واضح بخلاف ما ذكره أمبير (بكل ما فيه من تعصب بوصفه فرنسيا من رجال شامبليون) ونستطيع القول بأنه كان محفوظا فى حالة أكثر من جيدة •

أما عن هذه النسخة من مرسوم رشيد المدونة على حائط فيلة بوصفها صورة طبق الأصل ، فهى نسخة ناقصة ، لأن نص حجر رشيد بعد أن أورد بكل الفخامة الرسمية انتصارات وسخاء الملك بطلميوس الخامس الدائم البقاء والمنتقم لمصر ، ينتهى بالأمر بأن يدون هذا السجل بالكتابات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، ويوضع فى جميع معابد الدرجات الأولى والثانية والثالثة فى كافة أنحاء الامبراطورية • وتتميز النسخة الثمينة التى من البازلت والموجودة فى المتحف البريطانى بكافة هذه الاشتراطات ؛ بصرف النظر عما بها من كسور وتحطيمات (١) وعليها النص المكتوب باللغات الثلاث •

---

(١) يورد ماريت فى نهاية كتابه : A percu de l'histoire d'Egypte
- قصة حجر رشيد واكتشاف شامبليون كما يلى :

« Déciuverte, il y a 65 ans environ, par des soldats franWais qui creusaient un retranchement près d'une redoute située à Rosette, la pierre qui porte ce nom a joué le plus grand rôle dans l'archéologie égyptienne. Sur la face principale sont gravées *trois* inscriptions. Les deux premières sont en langue égyptienne et écrites dans les deux écritures qui avaient cours à cette époque. L'une est en écriture hiéroglyphique réservée aux prêtres : elle ne tompte plus que 14 lignes tronquées par la brisure de la pierre. L'autre est en une écriture cursive appliquée principalement aux usages du peuple et comprise par lui : celle-ci offre 32 lignes de texte. Enfin, la troisième inscriptiin de la siècle est en langue grecque et comprend. 54 lignes. C'ert dans cette dernière est en langue grecque et comprenr. 54 lignes. C'est dans cette dernière partie que réside l'intérêt du monument trouvé à Rosette. Il résulte, en effet, de l'interprttation du texte grec de la stèle que ce texte n'est qu'une version de l'original transcrit plus haut dans les deux écritures égyptiennes. La Pierre de Rosette nous donne donc, dans une langue parfaiteéent connue (le grec) la traduction d'un texte concu dans une autre langue encore ignorée au moment où la stéle a été découverte. Qui ne voit l'utilité de cette mention ? Remonter du connu à l'inconnu n'est pas une opération en dehors des moyens d'une critique prudente, et déjà l'on devine que si la Pierre de Rosette a =

أما فى فيلة ، فانه بالرغم من أن النص الأصلى المكتوب بالهيروغليفية والديموطيقية متطابق حرفيا ، الا أنه ينقصه النص اليونانى الأصلى ، وهو الذى تضمنه حجر رشيد فى المقدمة ، وقد ترك له مكان فارغ فى نهاية لوحة فيلة . ونحن نتخيل أننا استطعنا أن نميز هنا وهناك آثار الحبر

= acquis dans la science la célébrité dont elle jouit aujourd'hui- c'est qu'elle a fourni la vraie clef ne cette mystérieues écriture dont l'Egypte a si longtemps grade le secret. Il ne faudrait pas croire cependant que le déchiffrement des hiéroglyphes au moyen de la Pierre de Rosette ait été obtenu du premier coup et sans tâtonnements. Bien au contraie, savants s'y essayèrent sans succès pendant 20 ans. Enfin, Champollion parut. Jusqu'à lui, on avait cru que chacune des lettrer qui composent l'écriture hiériglyphique etait un *symbole* ; c'est à dire, que dans une seule de ces lettres était exprimée une *idée* complète Le mérite de Champollion été de prouver qu'au contraire l'écriture égyptienne contient des signes qui expriment véritablement des *sans*. En d'autres termes que'elle est Alphabetic. Il remarqua, par exemple, que partout où dans e texte grec de Rosette se trouve le nom propre *Ptolémée, on* rencontre à l'endroit correspondant du texte égyptien un certain nombre de signes enfermés dans un encadrement elliptique. Il en conclut : I, que les noms des rois étaient dans le systeme héroglyphique signalés à l'attention par une sorte d'écusson qu'il appela *cartouche* : 2, que les signes contenus dans cet écusson devaient être lettre pour lettre le nom de Ptolémée. Déla donc en supposant les voyelles omises, Champollion était en possession de cinq lettres — P, T, L, M, S. D'un autre côte, Champollion savait, d'après une seconde inscription grecque gravée sur une obélisque de Philae, que sur cet obélisque un cartouche hiéroglyphique qu'on y voit devait être celui de Cléopâtre. Si sa première lecture était juste, le P, le L, et le T, de Ptlémée devaient se retrouver dans le second nom propre ; mais en même temps ce second nom propre fournissait un K et un R nouveaux. Enfin, appliqué à d'autres cartouches, l'alphabet encore très imparfait révélé à Champolion par les noms de Cléopâtre et de Ptolémée le mit en possession d'à peu près toutes les autres consonnes. Comme *prononciation* des signes. champollion n'avait donc pas à hésiter, et des le jour où cette constatation eut lieu, il put certifier qu'il était en possession de l'alphabet égyptien. Mais restait la langue ; car prononcer des mots n'est rien si l'on ne sait pas ce que ces mots veulent dire. Ici le génie de Champollion se donna libre cours. Il s'aperçut en effet que son alphabet tiré des noms propres et appliqué aux mots de la langue donnait tout simplement du *Copte*. Or, le Copte à son tour est une langue qui, sans être aussi explorée que le grec, n'en était pas moins depuis longtemps accessible. Cettte fois le voile était donc complétement levé. La langue égyptienne n'est que du Copte écrit en hiéroglyphes ; ou, pour parler plus exactement, le Copte n'est que la langue des anciens Pharaons, écrite, comme nous l'avons dit plus haut, en lettres grecques. Le reste se devine. D'inrices en indices, Champollion procéda véritablement du connu à l'incinnu, et bientot l'illustre fondateur de l'égyptologie put poser les fondements de cette belle science qui a pour objet l'interprétation des hiéroglyphes. Tel est la Pierre de Rosette. » — *Aperçu de l'histoire d'Egypte* : Mariette Bey, p. 189 et seq. : 1872. =

الأحمر فى الفراغ الذى كان من المفروض أن تكتب فيه السطور اليونانية ولكن لم ينقش حرف واحد منها على سطح الحجر .

واذا نظرنا الى هذا النقش فى حد ذاته فاننا لا نجد غرابة فى هذا الحذف ، ولكننا ننظر اليه مرتبطا بحذف مماثل موجود فى نقش آخر يبعد عنه عدة ياردات ، وبذلك يصبح الأمر أكثر من مصادفة .

وهذا النقش الثانى محفور على صفحة كتلة من صخرة تشكل جزءا من أساس البرج الشرقى من الصرح الثانى،وهو بعد أن ذكر الأراضى التى أوقفها بطلميوس السادس والسابع لصالح المعبد ، ينتهى مثـل الحجر الأول بالأمر بأن ينقش هذا السجل الخاص بالمنحة الملكية باللغـات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ـ أى بلغة الكهنة المقدسة التى كانت تستخدم لدى الفراعنة ، ولغة العامة ، ولغة البلاط . وهنا أيضا ترك النحات عمله ناقصا حيث يتوقف النقش عند نهاية النص الديموطيقى تاركا فراغا للنص اليونانى . وهذا الحذف الثانى يعنى اهمالا مقصودا ، وليس من الصعب ادراك الدافع لهذا الحذف وهو أن لغة الجنس الحاكم لم تكن لها شعبية بين العائلات النبيلة العريقة والكهنوتية . وربما كان كهنة فيلة الذين يحتمون بجزيرتهم البعيدة والمنعزلة يغفلون هذه الفقرة دون خوف من القصـــاص بخلاف اخوتهم فى الدلتا الذين أجبروا على الانصياع .

ولا نفهم من ذلك أن الحكم الاغريقى كان بالتالى غير شعبى فان لدينا من الأســباب ما يدفعنا الى الاعتقاد بعكس ذلك فقد كان قاهر الغــازى

= ونضيف الى ما ذكره مارييت أنه قد اكتشف نسخة أخرى مكتوبة باللغات الثلاث عندما كان يقوم بحفرياته فى صان (تانيس) سنة ١٨٦٥ ويعود تاريخها الى السـنة التاسعة من حكم بطليموس يورجتيس ويتضمن النص تأليه برنيس ابنـة الملك والتى ماتت فيما بعد (سنة ٢٥٤ قبل الميلاد) وهذا الحجر المحفوظ فى متحف بولاق معروف باسم : حجر صان أو مرسوم كانوب . ولو لم يكن قد تم اكتشاف حجر رشيد فاننا كنا سنستنتج أن مرسوم كانوب ربما أصبح أداة شامبليون فيما بعد لاكتشاف مفتاح اللغـة الهيروغليفية والا كان هذا الاكتشاف العظيم لم يتم حتى الآن .

ملحوظة مضافة الى الطبعـة الثانية : وجدت فى تل نبروه سنة ١٨٨٥ نسخة ثالثة من مرسوم كانوب منقوشة بالهيروغليفية فقط ونقلت الى متحف بولاق . وقد فات مكتشف هذه اللوحة الاعلان عن هذا الكشف الأعظم وحفظه كما هو بالمتحف حتى أتى مستر م. فلندرز بترى الى هذه البقعة بعد ذلك بشهر أو شهرين ووجد أن مرتفعات تل نبروه تخفى بقايا المدينة الاغريقية نوكراتيس المشهورة والتى ظلت مجهولة فترة طويلة . انظر : كتاب بترى وعنوانه Naukratis ـ الجزء الأول ـ نشرته جمعية اكتشـاف مصر E.E.F. سنة ١٨٨٦ م .

الفارسي في الحقيقة هو مخلص مصر . لقد استعاد الاسكندر الأكبر السلام للفضر المصرى ، واهتم البطالمة بشئون الشعب ، وأنشأوا الأسرة التى لم تخفف الأحمال عن الفقراء فقط ، بل واحترمت امتيازات الأغنياء وكرمت رجال الكهنوت ، ووهبت الأوقاف للمعابد ، واستعادت الفاقد من مياه النيل ، ولذلك كان من الصعب على مثل هذه الأسرة أن تفشل في كسب مودة جميع الطبقات ، ولابد أن كهنة فيلة قد احتقروا لغة هوميروس ولكنهم فى نفس الوقت كرموا أحفاد فيليب المقدونى . لقد استطاعوا تمصير الملك ، فأخفوا اسمه بحروف الهجاء الهيروغليفية . وصوروه مرتديا ملابس الفراعنة التقليدية ، كما قدموه متوجا بالتاج المزدوج أثناء عبادته لآلهة بلده الجديد ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يمصروا أو يخفوا لغته ، فقد كانت شيئا دخيلا سواء فى نطقها أو كتابتها ، وكان حفرها فى الأماكن العالية يمثل شعارا للعبودية . فماذا تستطيع السلطة المحافظة الا أن تكرهه ، وأن تتجاهله كلما كان ذلك في استطاعتها ؟ وهناك نقوش أخرى فى هذا المربع يحب الانســان أن يلقى عليها نظرة ، وهى للوهلة الأولى تيجان أساطين الرواق الشرقى التى لا يتشابه منها اثنان ، والنقوش البارزة المشوهة التى فوق افريز الهيكل . ومن هذه الأســاطين نجد مجموعة غريبة جدا تشبه شجرة الأنساب ، تمثل الصقر المقدس جالسا فى وسط شجرة على شكل المروحة بين اثنين من المساعدين . أما المساعدان فأحدهما أسد مجنون على أحد الجانبين ، والآخر أحد أفراس النهر ، وقد أمسك كل منهما زوجا من جزة صوف الخراف .

والآن وقد عبرنا من مدخل الصرح الثانى ، نجد أنفسنا فى مواجهة بهو الأساطين الذى رأينا له العديد من الصور التخطيطية حتى تخيلنا أننا نعرفه ، وهذه المعرفة الثانوية لا تساوى شيئا فى حضرة الحقيقة . وقد أخذتنا الدهشة الشديدة كما لو كنا أول السياح الذين يضعون أقدامهم فى هذا الحرم الخلاب .وفى هذا المكان يبدو أن الزمن قد توقف ساكنا كما فى مثل هذا القصر الخالد الذى أخلد كل ما فيه للنوم على مدى مائة عام . ان النقوش البارزة على الحوائط ، والمناظر المعقدة المنقوشة على السقوف ، والألوان التى على تيجان الأســاطين ، كانت كلها سليمة وواضحة بشكل لا يصدقه عقل . لقد كانت هذه التيجان الرائعة هى المعجزة التى تسعد السياح فى مصر على مدى الأزمان . انهــا جميعها مأخوذة عن أشــكال الطبيعة مثل زهرة اللوتس فى البرعم المتفتح ، والبردى ، والنخيل . انها تكشف عن المهارة التقليدية ، وفى نفس الوقت تمتاز بالتناسب ما بين الارتفاع والمحيط الأسطوانى للأسطون مما يعطى أنطباعا بالرشاقة التى تشمل المبنى كله . وهناك اللون قبل كل شيء .

انه اللون الذى تركز فى رقة وبساطة فى رسوم واتو ولانسرت وجروز وهى نوعية ساحرة · انها النوعية المتدرجة الرقيقة ، وهى صورة طبق الأصل من « مبادىء التلوين » التى لا تنقل الفكرة البعيدة · كانت كل درجة من درجات اللون ناعمة وممتزجة ومتدرجة ، فالألوان الوردية مرجانية ، والخضراء ممتزجة بالزرقة ، ومخضرة كالفيروز ، مثل النصف الغربى من السماء فى أمسية خريفية ·

وفيما بعد عندما عدنا الى فيلة من الشلال الثانى ، خصصت الكاتبة الجزء الأكبر من الأيام الثلاثة لعمل دراسة متأنية لأحد أركان رواق الأساطين هذا ، وجمعت فى صبر عجيب هذه الفروق الدقيقة التى فى طبقات اللون ساعية الى السيطرة على سر تركيبها (١) ·

ان الرسم الملحق المطبوع من حفر على الخشب يمكن أن يبين ما هو أكثر من مجرد عمل نسخة ·

ومن وجهة النظر المعمارية نجد أن هذه القاعة لا تشبه أية قاعة أخرى شاهدناها حتى الآن بوصفها صغيرة جدا ومفتوحة من الوسط نحو السماء مثل الحجرة المركزية المفتوحة فى منزل رومانى · وبذلك فان الضوء المسموح به يدخل رأسيا فى شكل بقعة مربعة على الأرضية التى تحته ، وينعكس على حنيات السقف المزخرفة بالصور ، وهناك حاجز أصلى بين الأساطين فى الطرف العلوى · وتبين الجوانب الخشنة للأساطين المكان الذى انشقت فيه الكتل التى توصل بينها · وكذلك الأرضية قد خلعت

---

(١) وليست تيجان الأساطين هذه هى العينات الاولى لمهارة التلوين فى فيلة حيث مازال يوجد بين النقوش البارزة المحطمة التى فى بهو الأساطين الكبير الواقع فى الطرف الجنوبى للجزيرة ·· بعض القطع المنعزلة التى لم يصل اليها الأذى ، وهى ملونة بالوان جميلة · انظر الى الزخرفة بالخزف التى على عرش الاله فوق المدخل الثانى فى الحائط الغربى ، والتصميمات التى على سلسلة من العروش الاخرى التى تبعد قليلا نحو الشمال · لقد رسمت كلها بعناية فى شكل مقصورات ولونت بالالوان الأساسية الثلاثة ، ونفذت فى تدرجات عريضة تدل على الصفاء العجيب والرقة المتناهية · ومن بين هذه الرسومات التى نستطيع أن نقدمها كنماذج لهذا الانجاز المتكامل والتصميم الذى جرى تنفيذه بالوان زاهية ، زهرة اللوتس التى رسمت بين اثنين من البراعم ، وكبش صغير ممتاز على أرضية باللون الاحمر الفاتح ، وسلسلة من الصقور المقدسة بلون ابيض على احمر بالتبادل مع لون ابيض على ازرق وكلها رائعة التكوين ·

ولا يوجد على ضفتى النيل بطوله ، عمل اكثر قابلية للدراسة واثارة للبهجة فى النفوس يفوق رسم هذه القطع الثمينة التى نوصى الطلبة والرسامين بمشاهدتها ·

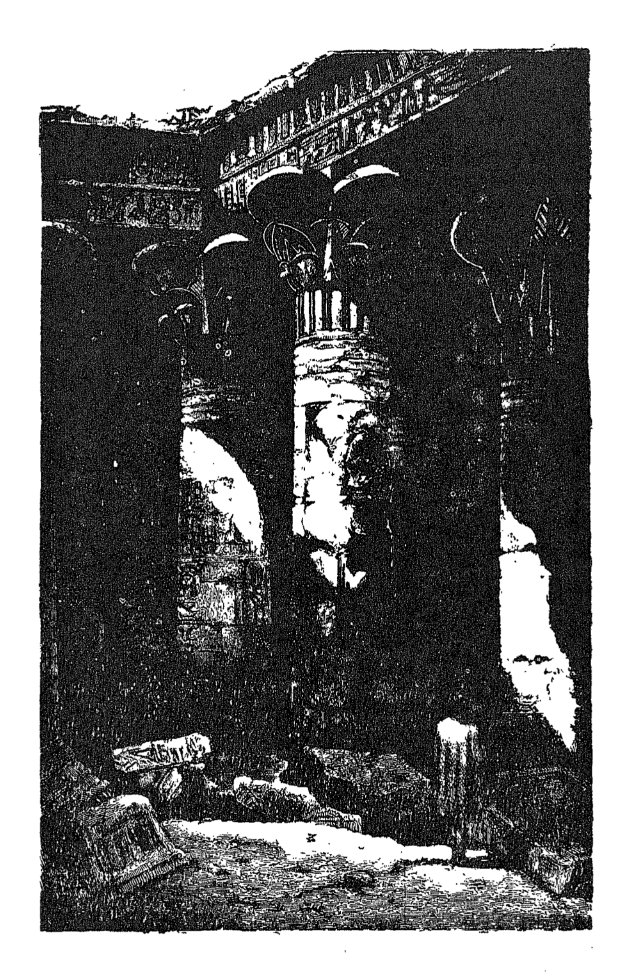
منها أحجار الخزف الملونة التى كانت تغطيها وذلك بمعرفة الباحثين عن الكنوز ، وتبعثرت الكتل المكسورة وقطع الافريز المحطمة على الأرضية ·

وهذه هي العلامات الوحيدة الدالة على التخريب · وهى علامات لم تتسبب فيها أصابع الزمن ولكن أصابع المخربين · أما الباقى فهو سليم حتى اننا تمنينا أن نخدع انفسنا لحظه بالاعتقاد فى أن ما شاهدناه ليس الا عملا لم يلحق به ضرر ، وأن هذه الأساطين التى يرتكز عليها لم يتم انشاؤها بعد ، وأن أحجار الخزف التى كانت تغطيها على وشك أن يتم تركيبها · ولن يدهشنا أن نجد هنا فى صباح الغد النحاتين أو المصورين ومعهم المطرقة والأزميل ، وهم ينفذون هذه المجموعة من براعم اللوتس والنخيل · ومن الصعب الاعتقاد بأنهم جميعا منهمكون فى هذا العمل منذ اثنين وعشرين قرنا مضت ·

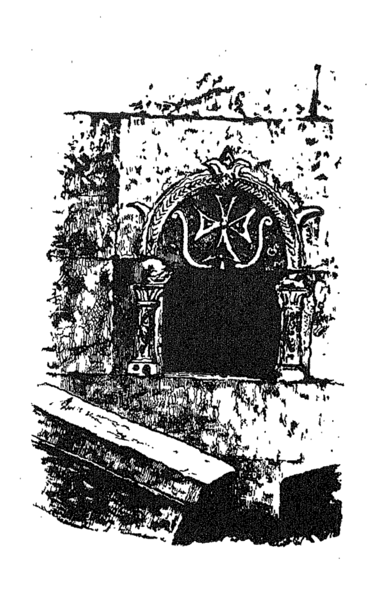
ويرى المشاهد هنا وهناك حيث جرى الاخلال بالأساسات — أن الأساطين قد أنشئت من كتل منحوتة ، أخذت من معبد أكثر قدما · بينما يرى على ارتفاع حوالى ستة أقدام من الأرض صليبا من الطراز اليونانى ، محفورا فى جانب قصبة السهم التى ترتكز على عمودين علامة على ممارسة العبادة المسيحية ، ذلك أن الأقباط الذين أحاطوا القاعات والأفنية بأكواخهم تسربوا أيضا الى المعابد · وقد هدموا بعضها للحصول على مواد البناء بينما استولوا على البعض الآخر ·

ولا نعلم كم عدد المعابد التى خربوها ، ولكننا نرى ديرين كبيرين على الضفة الشرقية فى أعلى النهر ، وكنيسة صغيرة من الطراز البازيليكى فى الطرف الشمالى من الجزيرة · ويبدو أن هذه المبانى قد أقيمت بأحجار رصيف الميناء الجنوبى ، والكتل الحجرية التى أخذت من مبنى كان يحتل الركن الجنوبى الشرقى من البهو الكبير ·

أما فيما يتعلق بهذا البهو الملون فقد حولوه الى كنيسة صغيرة ، وأقاموا مقصورة صغيرة فى الحائط الشرقى ، وهناك مذبح مقلوب مأخوذ من كتلة منفصلة من الحجر الجيرى تشير الى مكان القسم الشرقى من الكنيسة وهو المخصص للقساوسة والمرتلين · أما العرب الذين اتخذوا من هذا الصرح الأخير شواهد للقبور فقد قلبوه رأسا على عقب ، حسب عادتهم بحثا عن الكنز المدفون مع الأموات · ومرة أخرى يظهر الصليب



الأعمدة الملونة فى بهو المعبد الكبير بجزيرة فيلة



مقصورة مسيحية قديمة فى جزيرة فيلة ٠

اليونانى على مقدمة المذبح (١) وفوق المقصورة التى زخرفتها بالنقوش البيزنطية البدائية يد غير ماهرة ولكنها متدينة ٠

ان التاريخ الدينى لجزيرة فيلة عجيب لدرجة تثير الشفقة نظرا لعدم قيام أحد من المؤرخين بدراسته ٠ انها تتقاسم مع أبيدوس وبعض الأماكن الأخرى السمعة القائلة بأنها هى المكان الذى دفن فيه أوزوريس ٠ ولذلك كانت تدعى « الجزيرة المقدسة » ونفس تربتها تربة مقدسة ٠ وكان لا يسمح لأحد بالهبوط على شواطئها أو حتى الاقتراب منها بدون

(١) أشار كاتب فى مجلة ساترداى ريفيو Saturday Review الى ان هـذا المذبح قد أقيم من قطعة حجرية أخذت من ضريح كان مدفونا فيه أحد الصقور التى كانت تعبد تقديسا للاله حورس (ملحوظة مضافة الى الطبعـة الثانية) ٠

تصريح • ويتطلب الحصول على هـذا التصريح والقيام بالحج الى قبر الاله ــ الذى يمثل بالنسبة للمصرى الصالح ما يمثله الحج الى مكة بالنسبة للمسلم الصالح ــ الكثير من العناء •.وكان أكبر قسم يقسم به المصرى هو « باسم ذلك الذى يرقد فى فيلة » •

أما متى وكيف اعتبرت الجزيرة لأول مرة مكان الراحة بالنسبة لأحب الآلهة فهذا أمر لم يكتشف بعد • ولكن يبدو أن تمتع الجزيرة بسمعتها كمكان مقدس يعود الى تاريخ حديث • ولابد أنها نالت أهميتها بعد اضمحلال أبيدوس • وقد قام هيرودوت ــ الذى يفترض أنه وصل الى الفنتين ــ بالاستعلام الدقيق حول ما يتعلق بحالة النهر بعد هذه النقطة . وذكر أن الشلال كان تحت احتلال « البدو الاثيوبيين » ولا يذكر شيئا عن فيلة أو معابدها • وهذا الحذف الذى قام به شخص عرف عنه أنه كان يقوم بدراسة مجتمع الكهنة فى كل بلد ذهب اليه ــ واهتم اهتماما خاصا بالشعائر الدينية المتبعة فى البلد ، مما يبين أن هيرودوت لم يمض الى أبعد من ذلك ، أو أن الجزيرة لم تكن قد أصبحت بعد منزلا لأسرار أوزوريس • وبعد ذلك بأربعمائة عام يصفها ديودور الصقلى بأنها أقدس الأماكن المقدسة ، بينما يذكر استرابون الذى كتب تاريخه أثناء نفس الفترة الزمنية أن أبيدوس قد تضاءلت مكانتها حتى صارت مجرد قرية ، ولذلك فربما يكون كهنة ايزيس قد هاجروا من أبيدوس الى فيلة خلال فترة تالية لعصر هيرودوت وســابقة على عصر تيودور واسترابون • ولا يعنى هذا بأية حال أنه كان انتقالا رسميا ليس فقط لرفات أوزوريس، بل أيضا للقدسية التى كانت مرتبطة بموضع راحتهما الأصلى على مدى العصور • ولا نحتاج الى بيان الدافع لهذا الخروج ، فلم تعد بقايا الاله آمنة فى أبيدوس التى تقع فى وسط منطقة ريفية غنية بالقمح على طريق طيبة ، ولم تكن أية مدينة جنوب منف أكثر منها تعرضا لمخاطر الحرب • لقد مر قمبيز من هذا الطريق ، ولابد أن غزاة آخرين قد تبعوه ، ولذلك يبدو أن البحث عبر الحدود عن الأمان الذى لم يعد موجودا فى مصر هو السبب الواضح لمسيرة جماعة الكهنة الذين خصصوا أنفسهم لهذه الثقة • وبالطبع فان هذا مجرد تخمين قد تكون له قيمة • ويتلازم تدهور أبيدوس فى كافة الأحوال مع نمو مكانة فيلة • ولا يستطيع الانسان أن يتفهم كيفية ارتفاع مثل هذه البقعة فجأة الى هذه المكانة الرفيعة دون الاستعانة بمثل هذا الافتراض •

لقد بنى المعبد الأقدم هنـا والذى لم يتبق منه الا رواق صغير ، بمعرفة آخر الفراعنة الوطنيين (نختنبو الثانى ــ ٣٦١ ق•م) • أما أكثر

أيام فيلة ازدهارا فهي التى تنتمي الى الحكم اليونانى الرومانى • انهـا أيام البطالمة التى أصبحت هذه الجزيرة المقدسة خلالها مقرا لمدرسة دينية ومعقلا لسلطة الكهنة القوية • وكان الزوار من كافة أرجـــاء مصر ، والسياح من الأراضى البعيدة ، وموظفو البلاد المحملون بالمنح الملكية ، يأتون سنويا فى جموع غفيرة لتقديم نذورهم عند قبر الاله • وقد نقشوا المئات من أسمائهم فى كافة أرجاء المعبد الرئيسى كما يفعل السياح اليوم • وقد كتبت بعض هذه الأسماء فوق أسماء زوار آخرين سابقين ، بينما نقشت أسماء غيرهم من الزوار على الأحجار بعد محو الأسماء التى كانت مكتوبة سابقا • وكذلك حفرت أسماء أخرى على سـطح المدخل وبوابة الصرح اللذين لم يزخرفا بعد ، لأنها تبدو أقدم من النصوص الهيروغليفية التى حفرت عليه فيما بعد• وتغطى هذه النقوش فترة استغرقت عدة قرون، وهى الفترة التى توالى فيها ارسال الأوقاف الى الجزيرة بمعرفة ملوك البطالمة والقياصرة المتتابعين • وفى سنة ٣٧٩ للميلاد أصبحت المدرسة الدينية،الغنية بثرواتها ومعابدها وأساطيرها المحلية التى فرضتها،قوية بما فيه الكفاية لكى تفرض مقاومتها العملية ضد منشور ثيؤودوسيوس ، ذلك أنه بكلمة واحدة صادرة عن القسطنطينية صارت كل أرض مصر مسيحية ، وامتنع الكهنــة ــ بسبب الخوف من عذاب الموت ــ عن ممارسة الشعائر الجنازية المقدسة ، وسلبت المئات من المعابد ، وتم تحطيم أربعين ألفا من تماثيل الآلهة فى هجمة واحدة • وفى نفس الوقت حوصر كهنة فيلة خلف الشلال والصحراء للحفاظ على حقارة نظامهم وخرائب عقيدتهم القديمة (*) ولا نعرف بالتأكيد المدة التى استمروا يتمتعون فيها بامتيازاتهم الكهنوتية ، ولكن نقشين من النقوش التى ذكرناها عاليه يدلان على أن العائلات الكهنوتية كانت لا تزال تحتل الجزيرة حتى سنة ٤٥٣ للميلاد وأنها ظلت تحتفل بأسرار أسطورة ايزيس وأوزوريس • ويبدو أن هذا هو السبب فى الاعتقاد بأن العبادة القديمة استمرت قائمة حتى نهاية القرن السادس الميلادى ، وهو الوقت الذى تمكن فيه سيلكو « ملك جميع الاثيوبيين » الذى كان مسيحيا ، من غزو جنوب النوبة مرتين حيث أعطاه

(*) لقد مضت تخمينات المؤلفة الى مدى بعيد ولم تستطع بما تخيلته من بدايات انتشار المسيحية فى مصر أن تغطى عدم اهتمامها بمعرفة التاريخ الحقيقى لهذه الفترة لأن الاضطهاد الذى تتحدث عنه حدث من جانب الرومان للمصريين الذين كانوا قد دخلوا فى المسيحية منذ البدايات وليست المراسيم التى صدرت عن الرومان بالاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية الا اداة لوقف الاضطهاد الذى مارسوه ــ (المترجم) •

الرب الانتصار ، وأقسم له المنهزمون بأصنامهم على مراعاة شروط السلام ، وذلك بناء على نقش موجود فى معبد كلابشة (١) ٠

وليس فى هذا السجل شيء يبين أن الغزاة قد مضوا الى أبعد من طافا Tafa التى كانت تشتهر قديما باسم Taphis وهى تقع على بعد ٢٧ ميلا جنوب فيلة ٠ ولكن من المعقول أن نستنتج أنه طالما كانت الآلهة القديمة تحكم فى أى جزء من النوبة ــ فان الجزيرة المخصصة لعبادة أوزوريس ظلت محتفظة بقدسيتها التقليدية٠ولابد أنه كان هناك يوم مخصص لتتويج قبر الاله بالأزهار وانشاد «مراثى ايزيس» على أعتاب المعبد٠ولابد أنه كان هناك يوم آخر ارتفع فيه الصليب منتصرا فوق هذه الأساطين الملونة ، وأقيم أول قداس مسيحى فى الحرم الوثنى٠ويود الانسان أن يعرف كيف حدثت هذه التغييرات ، وهل اضمحلت العبادة القديمة لانصراف المريدين عنها ؟ أم أنها أزيلت بالقوة ؟!٠والتاريخ غير واضح فى هذه النقطة (٢) ، كما أن نقوش تلك الفترة لم تذكر شيئا٠اننا نعرف فقط أن العبادة القديمة قد انتهت ودخلت العبادة الجديدة،وأنه حيث كان يعبد أوزوريس المقام من الموت حسب أقدس أساطير الطقس المصرى القديم ، صارت عبادة المسيح القائم من بين الأموات بعد نشأة الكنيسة القبطية فى عصورها الأولى٠والآن ، فان الجزيرة المقدسة التى كان من المعتقد أن الأسماك لا تستطيع أن تسبح

(١) كانت جزيرة فيلة فى عصر استرابون كما وصفها البروفيسور رفيو Revillout فى كتابه : Seconde Memoire sur les Blemmys ملكية عامة للمصريين والنوبيين أو على الأصح تلك الدولة الغامضة التى أطلق عليها اسم البليمى الذين كانوا يصنفون مع بدو التوياد والمجابر فى ذلك الوقت طبقة واحدة من « الأحباش » وكان البليمى (أجداد من يطلق عليهم حاليا اسم البرابرة) جنسا شجاعا وشديد البأس ، وقويا بما فيه الكفاية للتعامل مع الحكام الرومان الذين حكموا مصر ٠ وكانوا عبادا مخلصين للالهة ايزيس ٠ ومن المثير أن نعلم أن ماكسيمين فى معاهدته مع هذا الشعب اشترط أنه « طبقا للقانون القديم » يسمح لشعب البليمى بأن يأخذوا تمثال ايزيس من معبد فيلة الى بلادهم للزيارة فترة متفقا عليها ٠ ويذكر نقش فيلة الذى نشره ليترون Letronne أن الكاتب (يقصد استرابون) كان موجودا فى فيلة عند اعادة تمثال الالهة من احدى هذه الجولات الدورية ، وأنه شاهد وصول القوارب المقدسة التى حملت مزار التماثيل المقدسة ٠ ويتضح من ذلك أن هناك تماثيل أخرى بخلاف تمثال ايزيس كانت تنقل الى اثيوبيا ربما كانت لأوزوريس وحورس وربما أيضا لحتحور المرضعة المقدسة ٠ (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) ٠

(٢) يرجع الفضل الى الامبراطور جستنيان فى تشويه نقوش المعبد الكبير ، ولكن لابد وأن هناك ما يدل على أن هذه العبادة القديمة قد توقفت مؤقتا فى الفترة التى حكم فيها الامبراطورية ٠

على شواطئها ، ولا تستطيع الطيور أن تطير فى أجوائها ، ولا يستطيع حاج أن يطأ أرضها بقدميه بدون تصريح ، أصبحت على الفور ملكية عامة ومشاعا لجميع الناس - وانتشرت المساكن الصغيرة المبنية من الطوب اللبن بين القاعات ، والأروقة ، وحتى الممرات المسقوفة • وبنيت كنيسة صغيرة من الطراز البازيليكى فى الطرف الجنوبى للجزيرة • وتحول بهو المعبد الكبير الى كنيسة صغيرة كرست لاسم القديس اسطفانوس • ويقول نقش يونانى حفر هناك بيد راهب عاش فى تلك الفترة ان « هذا العمل العظيم قام به رئيس الدير الأسقف ثيودور حبيب الله » • ولا نعرف شيئا عن هذا الأسقف — الذى وصفه نص آخر بأنه القديس العظيم — الا اسمه فقط •

وتمتلىء الحوائط فى كل مكان هنا بهذه السجلات العابرة ، فنجد أن أحد الكتاب العديدين كتب قائلا : « لقد انتصر الصليب ، وسينتصر دائما » • بينما ترك كتاب آخرون توقيعات بسيطة مثل « أنا يوسف » فى مكان ، و « أنا ثيؤودوسيوس الذى من النوبة » فى مكان آخر • وتجد هنا أو هناك بعض الكلمات الاضافية التى تعطى أهمية انسانية للتوقيع • فعلى سبيل المثال نجد فى شخبطة مثيرة أحد التوقيعات لشخص يقول عن نفسه « العبد يؤانس » ويبدو أحيانا أننا نقرأ قصة حياة أحد الأفراد فى سطر واحد • وقد أعقب رسم علامة الصليب هذه التوقيعات القبطية كلها •

وما زالت أساسات الكنيسة الصغيرة التى من الطراز البازيليكى — والتى تتجه الشرقية (المحراب) فيها نحو الشرق ، بينما يتجه المدخلان نحو الغرب — ظاهرة ويمكن تتبع آثارها • وقد خصصنا اثنين من بحارتنا لمدة يوم كامل لازالة القمامة التى حول الطرف الجنوبى من صحن الكنيسة • وهناك وجدنا المعمودية — وهى حوض من الحجر غير المصقول — عند قاعدة أسطون مكسور •

وليس من الصعب تخمين ما كانت عليه جزيرة فيلة على أيام رئيس الدير الأسقف ثيودور وأتباعه ، ولكننا نعلم أن الكنيسة الصغيرة التى من الطراز البازيليكى كانت لها مجموعة من القباب الطينية فوق السقف ، وأتخيل أن رئيس الدير ورهبانه قد أقاموا فى هذا الصف من الصوامع التى تقع على الجانب الشرقى من البهو الكبير حيث كان يسكن كهنة ايزيس قبلهم • أما عن القرية فلابد أنها كانت مثل الأقصر — مزدحمة بالحياة الكئيبة ، ومليئة بالضوضاء التى يحدثها الأطفال ، وصياح الطيور الداجنة ، ونباح الكلاب ، ويرتفع منها وقت الظهر أعمدة رفيعة من الدخان

الأزرق ، ويتجاوب في أرجائها صدى رنين الجرس الذى يدعو الى الصلاة صباحا ومساء ، وتنام ليلا فى سكون كما لو لم تكن هناك آلهة مشوهة شبيهة بالشياطين ، تطل عليها من خلال ضوء القمر بشكل يثير الأشجان ·

والآن انتقمت الآلهـة لنفسها ، فالعقيدة التى أنزلتها عن عرشها قد أنزلت هى الأخرى عن عرشها · أما رئيس الدير الأسقف ثيودور وخلفاؤه والديانة التى نشروها ، وبسطاء الناس الذين أنصتوا الى تعليمهم فقد ذهبوا وغابوا فى طى النسيان ، لأن كنيسة المسيح التى ظلت ضعيفة فى مصر ، قد اندثرت فى النوبة·وقد بقيت فترة طويلة ــ بالرغم من الشك فى أنها كانت تتخذ شكلا متخلفا وبربريا ــ مثل ذلك الذى تبدو عليه فى أثيوبيا حتى اليوم · ولكن الاسلام امتصها مؤخرا ولم يبق الا دير مخرب جاثما هنا أو هناك فوق بعض المرتفعات المنعزلة ، أو قليل من الصلبان المحفورة بدون عناية على حوائط المعبد البطلمى ، وقد بقيت دليلا على أن المسيحية مرت يوما من هذا الطريق (*) ·

أما التاريخ الوسيط لجزيرة فيلة فهو مجهول · ان العرب وقد غزوا مصر حوالى منتصف القرن السابع الميلادى ، قضوا وقتا طويلا فوق الأرض المصرية قبــل أن يبدءوا فى هضــم الآداب ، وأمضوا ما يزيد على ثلاثمائة عام فى صمت ، ولم تظهر أية لمحة عابرة عن فيلة مرة أخرى قبل القرن العاشر الميلادى · لقد انتقلت الحدود الآن الى شمال الشلال · وتوقفت الجزيرة المقدسة عن ممارسة وضعها المسيحى ، وتوقفت أيضا عن ممارسة وضعها النوبى · انها الآن تتضمن مسجدا وقاعدة عسكرية وهى آخر نقطة حدود أمامية للمسلمين · وما زالت تحتجز وستظل تحتجز اسمها المصرى القــديم لعدة قرون قادمة ، ونقول ان بيلاك المذكورة فى النقوش الهيروغليفية (بحرف P الذى يصبح B فى اللغة العربية) أصبحت

(★) عجبت لهذه السيدة المسيحية التى كتبت هذا الكلام وغيره مما ورد فى مواضع أخرى من الكتاب ، وهو كلام أقل ما يقال عنه أنه ملىء بالحقد المرير على المسيحيين الذين تنتمى اليهم خاصة الأقباط وكنيستهم القبطية المصرية كنيســة الشهداء والتى حمت المسيحية خلال عصورها الأولى أيام الاضطهادات وما تلاها من الهرطقات ، وتصدى رجالها لكل عوامل الفناء وتقدموا للاستشهاد وهم يترنمون فرحين · ولكننى لا أستغرب مثل هذا الكلام من سيدة انجليزية احتلت دولتها مصر وطبقت فيها مبدأ (فرق تسد) للوقيعة بين الأقباط والمسلمين ولم تنجح مما أوغر صدور هؤلاء الانجليز ــ (المترجم) ·

بيلاك فى اللغة العربية (بحرف B) وهى أكثر شبها بالأصل من فيلة وهو الاسم الذى أطلقه عليها الاغريق (١) ٠

وفى نفس الوقت فان المواطنين المسيحيين يظهرون وقد ارتدوا الى حالة نصف بربرية ٠ انهم يشنون غارات دائمة على الحدود العربية ، ويقاسون دائما مرارة الهزيمة ٠ انهم يخوضون المعارك ويغتصبون الضرائب ، ويعقدون المعاهدات ويخرقون شروطها ٠ وعند نهاية القرن الثالث عشر قتل ملكهم ونهبت كنائسهم ، وفقدوا ربع مساحة أرضهم ، بما فيها ذلك الجزء الذى تدخل أسوان ضمن حدوده ٠ أما هؤلاء الذين ظلوا مسيحيين فقد ألزموا بدفع جزية سنوية ، بالاضافة الى الضرائب العادية المفروضة على البلح ، والعبيد ، والجمال ، ونستنتج من ذلك أنهم قبلوا الاسلام من العرب ، كما قبلوا من قبل عقيدة أوزوريس من قدماء المصريين ، والمسيح من الرومان ٠ ولم نعد نسمع عنهم شيئا بوصفهم مسيحيين ، لأن المسيحية فى النوبة قد تلاشت من الجذور والفروع ، ويقال انه لا يوجد قبطى الآن فى منطقة الحدود ٠

وكانت فيلة ماهولة بالناس سنة ١٧٩٩ ميلادية عندما احتلت الجزيرة تجريدة من جيش ديزيه بقيادة الجنرال بليارد ، وتركت نقشا (٢) فوق السقف الداخلى لمدخل البهو الكبير احياء لذكرى عبور الشلال ، ويذكر دينون عند وصفه المنظر بخفة روحه المعتادة كيف أن المواطنين قاوموا فى البداية ثم هربوا أمام الفرنسيين،وألقوا بأنفسهم فى النيل ، وأغرقوا أطفالهم الذين لم تسمح أعمارهم بالسباحة ، ثم هربوا فى الصحراء ٠ وظهروا فى هذا الوقت بوصفهم مجرد متوحشين فكانت النساء

---

(١) توجد هذه الخاصية وغيرها من الخصائص المتعلقة بالمسيحيين النوبيين فى كتاب المقريزى ، وهو مؤرخ عربى من القرن الخامس عشر نقل الكثير عن المؤرخين السابقين ٠ انظر كتاب بوركهارت Burckhardt وعنوانه هو : Travels in NUBIA ـ الجزء الرابع ـ نشر سنة ١٨١٩ التذييل رقم ٣ ٠ وبالرغم مما ذكره من أن بيلاك جزيرة مجاورة للشلال وتبعد اربعة أميال عن أسوان الا أنه يصر على أنها تقع ضمن الجزر التى فى جنوب المحطة ، وأن فيلة هى أول مدينة نوبية بعد الحدود ٠ ولم تكن الأبجدية الهيروغليفية ٠ قد حلت رموزها حينذاك لأنه مات بالقاهرة سنة ١٨١٧ ٠

(٢) هذا النقش الذى يعتبره مسيو أبوت أهم النقوش الموجودة فى فيلة يمضى نصه كما يلى ٠ « فى السنة السادسة للجمهورية وفى ١٥ من شهر ميسيودور ، نزل جيش فرنسى بقيادة الجنرال بونابرت فى الاسكندرية ٠ وبعد عشرين يوما هزم المماليك فى موقعة الأهرام ، وقاد ديزيه الفرقة الأولى وتبع فلول المماليك حتى الشلال التى وصلها فى ١٨ من شهر فينتوس من السنة السابعة » ٠

كئيبـات ومتجهمات الوجوه ، وكان الرجال عراة ، وخفـاف الحركة ، ومشاغبين ، وكانوا مسلحين ليس فقط بالسيوف والرماح ولكن أيضا ببنادق يتم حشوها بالبارود ، وقد استخدموها لاطلاق « نيران سريعة ومركزة » •

وربما عاد رحيلهم عن الجزيرة الى هذا التاريخ ، فعندما ذهب اليها بورخارت سنة ١٨١٣ للميلاد ، وجدها كما تبدو حتى اليوم ، مهجورة وخالية • ولم يكن يسكنها سوى رجل عجوز فقير هذا اذا كان لا يزال حيا ، وأشك فى قدرته على عبورها من بيجه فى الموسم السياحى • انه يطلق على نفســه اســم الوصى على الجزيرة سواء عن طريق السلطة أو بدونها • وينام فى كومة من الخرق البالية والقش فى ركن محمى خلف المعبد الكبير • وهو مجعد الوجه ومحنى الظهر ومنكفىء بحيث لا يظهر منه ما يدل على أنه حى سوى عينيه • وقد أعطيناه خمسين بارة (حوالى جنيهين وستة بنسات بالعملة الانجليزية) عند رحيلنا فى طريق العودة الى مصر ، وقد ذهل لدى احساســه بهذه الثروة حتى انه أسرع بدفن هذا الكنز وتوسل الينا ألا نخبر أحدا بما أعطيناه • ومع الحصار الفرنسى وهروب السكان الوطنيين ، أغلق الفصل الأخير فى تاريخ فيلة المحلى • ووقعت الجزيرة المقدسة بعد ذلك فى خضم حرب الصراعات العقائدية أو الملكية • واختفت من صفحة التاريخ ودخلت صفحة العلم • وقد امتازت الجزيرة بمساهمتها فى اكتشاف الأبجدية الهيروغليفية • ولا يكاد يخلو أى رسم لجزيرة فيلة — مهما كان بسيطا — من المسلة التى أمدت شامبليون باسم كليوباترة • وهذه المسلة التى تلى حجر رشيد فى الأهمية اللغوية نقلها مستر و • بانكز **Mr W. Bankes** مكتشف اللوحة الأولى فى أبيدوس — الى دورستشاير • وتبقى مكانها الخالى ، ورفيقتها المسلة الأخرى مشوهة ومنعزلة دون أن تنقل من مكانها الأصلى فى الطرف الجنوبى البعيد من الجزيرة •

أما الآن وبعد أن مكثنا فى البهو مدة طويلة فقد حان الوقت لامعان النظر فى داخل المعبد ، ولذلك فاننا سندخل من الباب الأوسط الذى تنفتح خلفه تســع أو عشر قاعات وحجرات جانبية تقود الى الهيكل ، كما هى العادة ، وكل شىء هنا مظلم ومترب ومقبض • وقد وجدنا فى الحجرات التى لا يصل اليها أى شعاع قادم من الخارج ، حوائط ذات لون أسود بسبب الدخان ، ومغطاة بالنقوش البارزة ، كما وجدنا ممرات سرية سوداء تشق طريقها فى باطن الحوائط السميكة وتتقابل عن طريق فتحات تشبه الفخ وتحتها أقبية • وهناك مذبح ملقى فى الهيكل ، بينما تقع فى الركن

خلفه الحنية التى لابد وأن يكون استرابون قد شاهد فيها ذلك الصقر الاثيوبى المسكين الذى وصفه بأنه « مريض وميت تقريبا » ·

ولكن هناك فى ذلك المعبد ، المخصص ليس فقط للالهة ايزيس بل أيضا لذكرى أوزوريس وعبادة حورس ابنهما ، توجد حجرة لا شك فى أن استرابون لم يشاهدها وكذلك ديودور ، ولا أى غريب ينتمى الى عقيدة أجنبية مهما كانت سمعته أو مقصده · انها حجرة أكثر قدسية من بقية الحجرات ، لأنها الغرفة المخصصة لأوزوريس وبالطبع نحن غير مقيدين ، ولا ممنوعين ، بل أحرار فى أن نمضى حيثما نشاء · وتذكر لنا الكتب التى بين أيدينا أن هذه الحجرة السرية تقع فى مكان ما فوقنا ، ولذلك اندفعنا مرة أخرى الى ضوء النهار ، واعتلينا سلما باليا يقود الى أعلى السقف ·

وهذا السقف مكان معقد جيئة وذهابا ، ومن الصعب العثور على الحجرة · انها تقع عند قاع سلم صغير على شكل حجرة صغيرة يبلغ حجمها حوالى اثنى عشر قدما مربعا ولا يضيئها الا المدخل · وكانت حوائطها مغطاة بنقوش تمثل مقاصير ، وتحنيط ، وبعث أوزوريس (١) وتحتوى

---

(١) أما قصة أوزوريس ، الاله الكريم ، صديق الانسان ، الذى قتله تيفون ، ومزق أطرافه ، ثم دفن فى عدد من القبور وبحثت عنه ايزيس ، واستعادت أطرافه واحدا فواحدا ، وأعيدت اليه الحياة ، وانتقل من الأرض ليحكم الأموات فى عالم الظلال — هذه القصة تعتبر اكثر الأساطير المصرية تعقيدا · ويشبه أوزوريس النيل فى العديد من النواحى ، وهو يجسد الخير المطلق · ويطلق عليه اسم : « الكائن الطيب » وهو يظهر فى شكل أسطورة عن السنة الشمسية ، ويحمل شبها نبيلا بالاله بروميثيوس اليونانى والاله باخوس الهندى :

« Osiris, dit-on, était autrefois descendu sur la term. Etre bon par excellence, il avait adouci les moeurs des hommes par la permission et la bienfaisance. Mais il avait succombé sous les embêches de Typhon, bon frère, le génie du mal, et pendant que ses deux scears, Isis et Nephthye, recueillaient son corps qui avait été jeté dans le fleuve, le dire resouacitait d'entre les morts et apparaissait à son fils Horus, qu'il instituait son vengeur. C'est ce sacrifice qu'il avait autrefois accompli en faveur des hommes qu'Osiris remouvelle ici en faveur de l'âme dégagée de ses liens terrestres. Non seulement il devient son guide, mais il s'identifie à elle ; il l'absorbe en son propre sein. C'est lui alors qui, devenu le défunt lui m'me, se soumet à toutes les éoreuves que celui-ci doit subir avant d'être proclamé juste ; c'est lui qui à chaque âme qu'il doit sauver, fléchit les gardiens des demeures infernales et combat les monstres compagnons de la nuit et de la mort : c'est lui enfin qui, vainqueur des ténèbres, avec l'assistance d'Horus, s'assied au tribunal de la supréme justice et ouvre à l'âme déclarée pure les portes du séjour éternel. L'image de la mort aura éte empruntee au soleil qui disparait à l'horizon du soir : le soleil resplendissant du =

= matin sera la symbole de cette seconde naissance à une vie qui, cette fois, ne connaître par la mort.

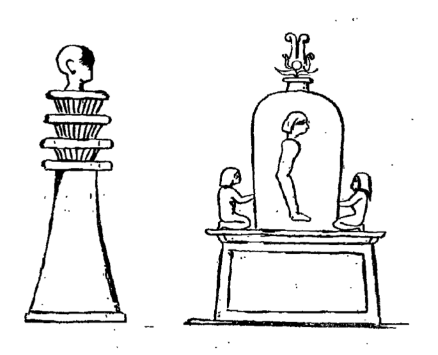
« Osiris est donc le principe du bien. ... chargé de sauver les âmes de la mort définitive, il est l'intermédiaire entre l'homme et Dieu ; il est le type et le saveur de l'homme. » *Notice des Monuments à Boulaq* — AUG. Mariete Rev. 1872, pp. 105 et seq.

وقد أقر علماء المصريات كقضية مسلم بها أن أوزوريس فى الأصل هو الاله المحلى لمدينة أبيدوس وأن أبيدوس كانت مهد أسطورة أوزوريس · وقد بين مسيو ماسبيرو فى بعض محاضراته الأخيرة فى كوليدج دى فرانس أن أسطورة أوزوريس ظهرت فى الدلتا ، وأن أوزوريس كان يدعى فى نقوش قديمة معينة باسم الملك أوزوريس « سيد الأموات » (بوزوريس) وكان اسمه منقوشا داخل خرطوش ملكى · وحتى بداية الحكم اليونانى الرومانى كانت المدينتان اللتان حكمهما أوزوريس هما بوزيريس ومنديس فقط ·

« Le centre terrestre du cuite d'Osiris, était dans les cantons nord-est du Delta, situés entre la branche Sébenntique et la branche Pélusiaque, comme le centre terrestre du culte de Sit, le frère et le meurtrier d'Osiris : les deux dieux étaient limitrophes l'un de l'autre, et des rivalités de voisinage, expliquent peut-être en partie leurs querelles ... Tous les traits de la tradition Osirienne ne sont pas également anciens : le fond me parait être d'une antiquité incontéstable.. Osiris y réunit les caractères des deux divinités qui se partageaient chaque nome : il est le dieu des vivants et le dieu des morts en même temps ; le dieu qui nourrit et le dieu qui détruit. Probablement, les temps où, saisi de pitité pour les mortels, il leur ouvrit l'accès de son royaume, avaient été précédès d'autres temps où il etait impitoyable et ne songeait qu'à les anéantir. Je crois trouver un souvenir de ce rôle desttructeur d'Osiris dans plusieurs passages des textes des Pyramides, où l'on promet au mort que Harkhourti viendra vers lui, 'déliant ses liens, brisant ses chaines pour le délivrer de la ruine' ; *il ne le livrera pas à* Osiris. si bien qu'i ne mourra pas, mais il sera glorieux dans l'horizon, Solide comme le Did dans la ville de Didou' L'Osiris farouche et cruel fut absorbé promptement par l'Osiris doux et bienvillante L'osiris qui domine toute la religion égyqtienne dès le début, c'est l'Osiris Onnofris, l'Osiris Etre bon, que les Grecs ont connu. Commes ses parents, Sibou et Nouit. Osiris Onnefris appartient à la classe des dieux généraux qui ne sont pas confinés en un seul canton, mais qui sont adorés par un pays entiers ». See *Les Hupogées Rougur de Thèbes* (Bulletin critique de la religion égyptienne) par Professeur G. Maspero — *Revue de l'histoire des Réligions*, 1888. Note to second edition.)

« ان العناصر الفلكية والطبيعية أوضح من أن يتم فهمها بطريقة خاطئة · ان أوزوريس وايزيس هما النيل ومصر · وتمثل أسطورة أوزوريس السنة الشمسية · اما قوة أوزوريس فهى الشمس فى نصف الكرة الجنوبى ، فترة الانقلاب الشتوى · ويمثل ميلاد حورس الاعتدال الربيعى · وانتصار حورس هو الانقلاب الصيفى وفيضان النيل · اما تيفون فهو الاعتدال الخريفى »انظر كتاب بنسين وعنوانه Egypt's place in universal History المجلد الأول ص ٤٣٧ · ويذكر هيرودوت فى كتابه الثانى أن المصريين جميعا لم يشتركوا فى عبادة جميع الآلهة فيما عدا ايزيس وأوزوريس اللذين عبدهما جميع المصريين ·

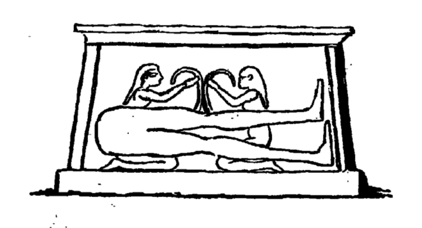
كل من هذه المقاصير ذات الأشكال المختلفة على جزء من جسمه • فرأسه مثلا يستريح فوق مقياس للنيل ، وذراعه التى تعلو رأسه ، قد نقشت على أسطون رأسى على شكل يمثل قارورة مرتفعة الكتفين يعلو أحد أغطية الرأس المخصصة للاله ، أما رجلاه وقدماه فانهما يرقدان بكامل طولهما فى ضريح على شكل صرح المعبد •



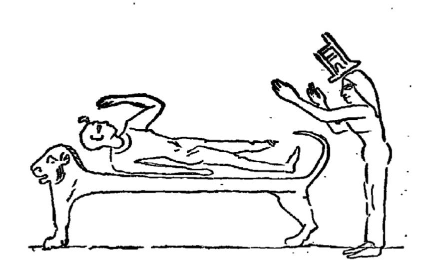
ويقف فى مقصورة أخرى مرتديا تاجه الذى يشبه تاج الأسقف ، وهو يرتديه بوصفه قاضيا للعالم السفلى ، وتقوم ايزيس ونفتيس بحراسة كل من الضريحين • ونرى فى افريز سفلى مومياء الاله موضوعة على نعش وقد وضعت تحته الجرار الأربع التى تسمى الأوانى ذات الغطاء الذى يشبه القبة canopic jars (١) •

---

(١) هذه الجرار المصنوعة من الرمر ، والحجر الجيرى ، والبورسلين ، والفخار الأسمر ، والخشب ، كان دورها ينحصر فى احتواء الأجزاء اللينة أو الأحشاء التى كانت تستخرج منفصلة وتخزن فيها • وكان عددها أربعة مصنوعة على شبه جنيات الهاوية الأربع التى تشير الى الجهات الأصلية الأربع • انظر كتاب بيرش وعنوانه : Guide to the first and second Egyptian rooms المنشور سنة ١٨٧٤ ص ٨٩ وانظر كتابه الثانى وعنوانه : History of Ancient Pottery المنشور سنة ١٨٧٢ ، ص ٢٣ وما بعدها •



وعلى بعد قليل يرقد الاله ساكنا ، تحيط به براعم اللوتس فوق سيقان طويلة تمثل النمو أو عودة الحياة (١) • وأخيرا فانه قد رسم ممددا على أريكة ، وقد أعيد توصيل أطرافه ورأسه ويده اليسرى وقدمه اليسرى مرفوعة كما لو كانت تمثل حالة استعادة الوعى، بينما تقوم نيفتيس فى ثياب جنى مجنح بالتهوية عليه بنفخ نسمة الحياة •



---

(١) وعلى ذلك فانه يسمى « أوزوريس الذى ينبت البذور » (ملحوظة مضافة الى الطبعـة الثانية) •

وتقف ايزيس بذراعيها المبسوطتين عند قدميه ، ويبدو أنها تدعوه لكى يعود الى أحضانها مرة أخرى ، ويوضح المنظر فى حقيقته ، أن هذه هى اللحظة العظيمة التى صبت فيها ايزيس أشـــواقها ، بينما يعود أوزوريس الى الحياة بفعل أغانى الأخوات المقدسات (١) ٠

وبصرف النظر عن رداءة الطراز والقطع فان هذه التماثيل تتميز بطبيعة فظة ترفعها فوق مستوى الانجاز التقليدى فى الأعمال البطلمية الخاصـــة بالموتى ٠ ان الحروف تحكى قصتها بوضـــوح ، حيث يبدو أوزوريس كما لو كان يناضل بالفعل للقيام من رقاده ، كما تعبر حركة ايزيس عن غرض الفنان بوضوح ، وبالرغم من تشويه بعض الرؤوس وانحطاط سطح الحجر فمن المؤكد أن الموضوعات محفوظة لكن فى حالة سيئة ولم يتم عمل شىء فى الرسوم التخطيطية لتحسين الشكل الناقص أو اصلاح الخطوط الخارجية للرسومات الأصلية ٠ ففى احدى الصور نجد أن أوزوريس بدون قدم ، وفى صورة أخرى بدون وجه ٠ أما يدى ايزيس فليستا بالشكل الطبيعى كما لو كانتا يدى دمية مصنوعة من القش ٠ وتغطى سذاجة التنفيذ على الموضوع فتجعله يبدو مثل رسوم الكاريكاتير ، ولكن الأهمية التى تحملها هذه الصور تختلف عن طريقة تنفيذها ٠

والآن ونحن نستنشق بسرور الهـــواء النقى القـــادم مع غروب الشمس ، نعود الى السقف ، لكى نرى الجزيرة فى شكلها الذى يشبه الدرع المصرى القديم ، وهى ترقد بكل تفاصيلها تحت أقدامنا ٠ ومن هنا ننظر خلفنا الى الطريق الذى جئنا منه ، وننظر أمامنا الى الطريق الذى سنذهب فيه ٠ الشلال يقع فى الاتجاه الشمالى ، مع شبكة من الجزر الصغيرة التى تتخللها ممرات من مياه النهر ٠ أما فى اتجاه الجنوب فان التيار الواسع يتجمع فى شكل لوح زجاجى ناعم ولا يقطعه أى اندفاع سريع ٠ وكم جلنا بأبصارنا فى شوق نحو هذا الطريق لأن هناك يوجد معبد أبى ســنبل وجميع الأراضى المليئـة بالأسرار التى خلف الشلال ! ولكننا لم نستطع أن نرى أبعد من ذلك لأن النهر يدخل فى انحناءة كبيرة نحو اليمين ويختفى خلف سلسلة من التلال الجرانيتية ٠ وهناك سلسلة مشابهة تحيط به على الضفة المقابلة ٠ وفى نفس الوقت خرائب ديرين فوق حافتين صخريتين على طرف الشاطىء أعلى من مزارع النخيل ، مثل

---

(١) انظـر الترجمـة التى قدمهـــا مســـيو ب٠ ج٠ دى هـوراك فى كتـــابه The Lamentations of Isis & Nephthys ضمن سجلات الماضى Records of the Past الجزء الثانى ص ١١٧ وما بعدها ٠

قلعتين على نهر الراين • وعلى الضفة الشرقية المقابلة يوجد عدد قليل من البيوت الطينية ومجموعة من أشجار الخروب التى تحدد موقع قرية يختفى الجزء الأكبر منها بين أشجار النخيل • وينفتح خلف هذه القرية واد رملى متسع مثل ذراع من البحر تراجعت عنها المياه • أما المدخنة الطويلة التى مررنا بها فى اليوم السابق فقد كانت تبدو كالمحراث الذى يقف بعرض الطريق الى فيلة • وأخيرا وجدنا جزيرة بيجة التى تمثل الجانب الغربى من هذا المنظر الرباعى • كان سطحها وعرا وجبليا ، ويفصلها عن جزيرة فيلة قناة ضيقة جدا ، بحيث ان كل صوت ينبعث من القرية الوطنية التى على المنحدر المقابل ، يسمع كما لو كان آتيا من الفناء الذى نقف فيه • لقد بنيت هذه القرية بين خرائب معبد بطلمى صغير لم يبق منه الا حاجز ومدخل من بوابة صغيرة • ونستطيع أن نرى سيدة تطحن البن على عتبة باب أحد الأكواخ ، وبعض الأطفال يتزاحمون حول الصخور وهم يطاردون ديكا روميا ، وبمجرد أن شاهدونا على سقف المعبد جاءوا وهم يصيحون ويهرولون الى الشـاطىء ، وألحوا فى طلب البقشيش • ولو لم يكن المجرى أوسع مما يبدو عليه لكنت قد قذفت قرشا نحو أيديهم الممدودة •

وقد قيل ان مستر هاى اكتشف ممرا سريا من الحجر الصلب ، محفورا تحت أرضية النهر وموصلا بين الجزيرتين • وكان المدخل على هذا الجانب يبدأ من مدخل معبد ايزيس (١) • ولم يذكر لنا مستر هاى المدى الذى استطاع أن يصل اليه فى التغلغل فى اتجاه بيجة ، ولكن من المحتمل أن يقودنا الممر الى المعبد الصغير المقابل •

وربما كانت الجبال هى أكثر ملامح هذا المنظر غرابة • أنها من نوعية لم نر لها مثيلا خلال جولاتنا المتباينة • أما الجبال التى نعرفها فهى متجانسة وتشق طريقها من أسفل الى أعلى فى كتل لا يعوقها شىء • أما هذه الجبال فيبدو أنها ترقد فوق سطح بدون أساس ، فى شكل صخور منفصلة احداها فوق الأخرى ، مثل تلال عظيمة أقامتها أشباه الآلهة والمردة • وتجد هنا وهناك كتلة ضخمة مستديرة يصل وزنها الى عدة أطنان معلقة على رف أو قمة فى توازن متقلب الأطوار • وقد اقتنعت بأن معظم هذه الكتل قد يتعرض للانهيار اذا وضـع تحت الاختبار •

---

(١) انظر : Operations Carried on at the Pyramids of Ghizeh
تأليف كولونيل هاوارد فايس ـ لندن سنة ١٨٤٠ ، المجلد الاول ، ص ٦٣ •

ونقدم كنموذج لهذه الصخور ، صخرة ضخمة فى مواجهة حافة الماء بالقرب من أشجار الخروب والمعدية • ونجد أن هذه الصخرة بالرغم من أنها كتلة منفصلة من الجرانيت ذى اللون الأحمر البرتقالى ، الا أنهـا تبدو مثل ثلاثة صخور ، وقد رأى الأعراب أنها بتفريعاتها الثلاثية تشبه الكرسى ذا المساند ولذلك أطلقوا عليه اسم : عرش فرعون ، وقد جعلتها الفيضانات المتعاقبة مستديرة ومصقولة • وقد نقشت عليها خراطيش ملكية ذات حجم غير عادى مما جعلها تجذب انتبـاه الحجاج فى جميع العصـــور • وقد غطاها الملوك والفاتحون والكهنة والسياح بتسجيلات الانتصارات والمناسبات الدينية والصلوات والقرابين والأعمال البطولية ويزيد عمر بعض هذه التسجيلات على عمر المعابد التى على الجزيرة المواجهة لها بمدة ألف عام •



الصخرة الضخمة التى تحمل نقوش التسجيلات فى فيلة

وهذه الوجوه الأربعة التى تحيط بجزيرة فيلة هى الشلال والنهر والصحراء والجبال • وترقد هذه الجزيرة الجميلة والتى لا حياة فيها فى وسط هذه الوجوه الأربعة ، بما تمثله من الماضى البعيد بكل ثروتها من النقوش واللوحات والتاريخ والفخار والتراث • انها واحدة من أشهر المعالم الأرضية فى العالم ، وهى تستحق ما تتمتع به من شهرة يصفها كل سائح ، الا أنها مجرد مكان من تلك الأماكن التى تتوازن فيها الملامح الايجابية مع السلبية والتى لا يمكن وصفها بالكلمات أو الألوان • ويضطر الرسام الى أن يترك مرغما ، جو المعاشرة الموحى بالموضوع الصالح للرسم • أما وصف الكاتبة فانه فى أحسن حالاته ليس الا قائمة ناطقة •

الفصل الثالث عشر

من فيلة الى كورسكو

أخذ نهر النيل يتسع أمامنا ونحن نبحر جنوبا فى رفق ، بينما كانت فيلة تتضاءل فى الخلف ، وشعرنا بأننا الآن قد اجتزنا الحدود تماما . وانه اذا كانت مصر غريبة وبعيدة عن موطننا فان النوبة ظلت أشد غرابة وأكثر بعدا ، وفى هذه المنطقة يزداد النيل اتساعا وعمقا . أما الارتفاعات الصخرية القريبة التى تحيط به من كلا الجانبين فانها ما زالت سوداء من ناحية ، وذهبية من الناحية الأخرى . أما الضفتان فانهما تضيقان أكثر من ذى قبل . وصارت المساحة الخالية أكثر ضيقا بحيث تسمح فقط بسحب المركب ، وصارت مساحة الفراغ فى بعض الأجزاء أكثر ضيقا بحيث تسمح فقط بمجرد شريط من أشجار النخيل ، ومنزلق من التربة الطينية تزرع فيه الذرة أو الشعير . وكان الطرف المنحدر تحتنا يصل بلونه الأخضر الى حافة الماء . وكان النهر أثناء انحساره اليومى يترك هامشا من التربة الرطبة كان الفلاح المثابر يسرع اليه لكى يحرث شقا جديدا ويبذر خطا آخر من البذور؛لأنه لا يستطيع أن يترك بوصة واحدة من هذه التربة الثمينة دون استغلال .

ومع الاستمرار فى الابحار بشراع يمتلىء نصف حجمه بالهـواء ، لاحظنا كيف أن مساحة الأرض الصالحة للزراعة هى التى تحدد عدد السكان . وكانت تزداد كثافة القرى فى المساحة التى تنتشر فيها مياه الفيضان . ويظهر الكثير من الأشخاص الذين يتحركون هنا وهناك فى ظل أشجار النخيل ، ويزداد عدد الأطفال الذين يتسابقون بطول الضفتين وهم يصيحون طالبين البقشيش . وعندما يضيق شريط التربة ويصبح على خلاف ذلك مجرد هامش من الخضرة اللامعة التى تشق الصخرة من ناحية النهر ، يغيب كل شىء يدل على وجود الحياة . وتمضى بك المركب بطول هذا الهامش ميلا بعد ميل دون أن تصادف أية علامة تدل على وجود بشر يسكنون فيه . وعندما يظهر بين حين وآخر مواطن فرد مسلح ببندقية

أو رمح وهو يمشي بخطوات واسعة على حافة الصحراء ، فانه يظهر الامتداد العريض للعزلة الموحشة ٠

وفي نفس الوقت فاننا لا نفتقد وجود الرجال والنساء فقط ، الرجال الذين يعملون على شاطيء النهر ، والنساء اللائي يحملن أطفالهن منفرجي السيقان على أكتافهن ، أو جرار الماء المتوازنة على رؤوسهن ، ولكننا نفتقد أيضا الطيور والوحوش والمراكب وكافة الأشياء التي تعودنا على رؤيتها بطول النهر ٠ وكانت اناث الجاموس نائمة في المياه الضحلة في وسط النهار ، والجمال تخطو في ثقة متجهة الى مقاصدها في صف واحد عند غروب الشمس ٠ واختفت الطيور المائية التي كانت تتردد على الضفتين الرمليتين بشكل فجائي ٠ وحتى الحمير أصبحت الآن نادرة ٠ أما عن الخيول فلا أتذكر أنني شاهدت احداها على مدى الأسابيع السبعة التي قضيناها في النوبة ٠ ولم نسمع طوال الليل سوى عواء الذئاب بدلا من نباح الكلاب الذي تعودناه من قرية الى أخرى ٠ ولم تعجبني ندرة الحياة الحيوانية في مثل هذه المنطقة التي تعطي تربتها الضئيلة طعاما قليلا يكاد يكفي هؤلاء الذين يحرثونها ٠ ولكي نعرف مدى ضآلتها ، علينا أن نتذكر فقط أن هذه التربة في أوسع عرض لها لا يزيد عرض الرواسب السنوية التي تغطيها عن نصف ميل ٠ بينما يصل عرضها الى مسافة تتراوح ما بين ستة الى ستين ياردة في غالبية الطريق ما بين خيلة ووادي حلفا الذي يبلغ طوله ٢١٠ أميال ٠

وهنا فقط يستطيع الانسان أن يرى كيف أن جميع هذه الأرض التي ندعوها مصر والنوبة ليست شيئا سوى ضفاف نهر وحيد وسط عالم من الصحراء ٠ ويتسع الوادي في مصر لدرجة تنسي الانسان الفراغ الحجري الذي يمتد خلف حقول القمح ٠ أما في النوبة فالصحراء حاضرة دائما ولن نستطيع أن ننساها حتى لو أردنا ذلك ٠ وتضغط الجبال القاحلة على طريق سيرنا ، وهي تمطرنا بسيول من الجرانيت على جانب واحد ، ووابل من الرمل الأصفر على الجانب الآخر ٠ ونعرف أن هذه الحجارة تتساقط بشكل دائم ، وأن هذه الرمال تنحدر دائما لدرجة تجعل من الصعب على النهر أن يصمد في مكانه ، وتتسع الصحراء في صمت يوما بعد يوم ٠

وتعتبر هذه المجاري الرملية من أحدث وأجمل المعالم الأرضية ٠ انها تنحدر من المستوى الأعلى للصحراء الغربية (الليبية) مثلما تنحدر ثلوج سويسرا من هضبة الألب العليا ، وتجد لنفسها مجرى من خلال

كل وهدة وفجوة • وهى هنا تقطر فى مجار دقيقة ، بينما تفيض هناك فى سيول عريضة تتسع فى اتجاه النهر •

وبعد هدوء استغرق عدة أميال فوق جزيرة فيلة ، وجدنا أنفسنا عند قاعدة أحد هذه المنحدرات الكبيرة ، ودخلنا فى تحد مع ذهبية السيدتين م• و ب • اللتين أرادتا تسلق المنحدر ورؤية غروب الشمس فى الصحراء• وكانت الساعة حوالى السادسة والترمومتر متوقف عند درجة ٨٠ فهرنهيت فى أشد أركان الصالون برودة • وغامرنا بالقول بأن القمة تستغرق مسافة طويلة الى أعلى لبلوغها ، ولكن السيدتين م• و ب • لم تتراجعا • وعلى ذلك مضينا نلهث ونحن مقطوعو الأنفاس ننذب قدرنا الصعب • لقد قامت السيدة ل • والكاتبة فى أيامهما ببعض المسيرات الصعبة على الجليد ، وفى الحمم البركانية البـاردة والساخنة ، وفوق المنحدرات المشبعة ببقايا الفحم المحترق وأحواض السيول الجبلية ، ولكن هـذه المنحدرات الرملية ذات الشكل البرىء برهنت على أن تسلقها أصعب من كافة تلك المسيرات ، ذلك لأن الرمال تتراكم ناعمة وخفيفة بشكل عجيب ، وهى فى نفس الوقت ساخنة كما لو كانت خارجة من الفرن • وفى هذه الرمال تنغرز الأقدام ، وتغوص الكواحل ، وتنزلق الى الخلف عند كل خطوة تاركة حفرة كبيرة تنساب اليها الرمال مرة أخرى كالمياه • واذا نظرت خلفك فانك ترى آثار خطوات قدمك عن طريق سلسلة من الحفر التى على شكل الأنفاق يصل حجم الواحدة منها الى مثل حجم حوض غسيل الأيدى • وبالرغم من أن حذاءك لا يتجاوز حجم حذاء سندريلا ، فان القادم الذى يأتى بعدك لن يستطيع أن يذكر ما اذا كان أثر القدم هذا يخص سيدة أم جملا • انها مهمة عسيرة لأن القدم لا تجد راحة ولا مقاومة مع مواصلة الضغط على العضلات •

ولكن جمال الرمال يفوق الجهد المبذول فى تسلقها • انها ناعمة ولامعـة وحريرية ودقيقة مثل تراب المـاس ، ولينة ومتموجة وبراقة ، وتنبسط فى أشد المنحنيات روعة ، وتدور فى حلقات مثل أكوام الثلج التىتكدسها الرياح وقد تحولت الى اللون الذهبى • ومع هبوب كل نسمة تعيد تشكيل سطحها الدائم التغيير فى عرض لا نهاية له من الأنوار والظلال الرقيقة • ولم يوجد بعد النحات الذى يستطيع نحت مثل هذه الانحناءات وأشك فى مقدرة (تنر) ذاته ، فى أرق وأمهر حالاته ، على أن يحسن التحكم فى هذه الألوان الرمادية والعنبرية المركبة •

وبعد ان استرحنا على حافة الصخرة البارزة فى منتصف المسافة الى أعلى ، وصلنـــا الى قمة المنحدر الأخير ، ووجدنا أنفسنا على سطح

الصحراء ، وهنا كانت أول الأشياء التى التقت بها عيوننا مع المسار الصحيح لمجرى النهر : أعمدة التلغراف والأسلاك وخلفها فى الشمال والجنوب مجموعة من القمم القريبة • أما فى الجهة الغربية فهناك فضاء دائرى يتكون من الروابى والأغوار المتفتحة نحو الشمس ، حيث تمضى كرة قرمزية اللون نصف متخفية تحت أفق العالم •

ولا يستطيع الانسان أن يقاوم الرغبة فى المضى قدما لعدة أقدام حتى يلمس أقرب أعمدة التلغراف ، وتشبه هذه الرغبة محاولة أن يمد الانسان يده نحو الوطن •

ورجعنا مع غياب الشمس ، فكان الوادى الأسفل شديد الانحدار أثناء فترة الغسق•وكان النيل يلمع مثل حية ملتفة فى الظلال ، وتنعكس عليه سماء الليل فى ثلاثة محاور منفصلة • وقد امتدت سلسلة من الجبال فى ناحية الصحراء العربية (الشرقية) بلون أرجوانى ، وبرزت فى مواجهة الأفق الشرقى •

وكان النزول سهلا حيث ضغطنا بكعوبنا على الرمال فانزلقنا ، نصف متزحلقين ، وسرعان ما وصلنا الى القاع ، وهنا التقينا بامرأة نوبية عجوز كانت قد أسرعت بمشيتها البطيئة آتية من أقرب قرية لتسأل بحارتنا عن يوسف ابنها الذى لم تسمع عنه منذ عام مضى • وكانت أرملة عجوزا شديدة الفقر ، أما يوسف هذا فهو ابنها الوحيد،وقد أراد أن يحسن حالته المادية فاتخذ طريقه الى القاهرة منذ ثمانية عشر شهرا فى مركب لنقل البضائع • ومنذ رحيله لم يرسل اليها سوى خطابين فقط وبعض النقود • ومنذ ذلك الحين مضى أحد عشر شهرا فى صمت ، وتخشى أن يكون قد مات • وفى نفس الوقت فان نخلتها قد أنهكت الى أقصى قدرتها على الانتاج بحيث لم تجن منها هذا العام ما يساوى قرشا واحـدا • وقد تقوض كوخهـا الطينى ويوسف غـير موجود لكى يقوم باصلاحه • ولا تستطيع الآن وهى عجوز ومريضة أن تفعل شيئا سوى طلب الاحسان من الناس • أما جيرانها الذين عاشت على احسانهم فقد صاروا أفقر منها •

ولم يعرف رجالنا شيئا عن يوسف الضائع • ووعد الريس حسن بأن يسأل عنه البحارة عند عودته الى بولاق ، وأضاف أنه « يوجد فى القاهرة عدد كبير من الذين يحملون اسم يوسف ! » •

وقد ذابت قلوبنا ونحن نسمع الصوت المشتاق المتهدج الذى صاغت به العجوز أسئلتها ، والنظرة الملتاعة على وجهها عندما استدارت لتعود أدراجها .

والآن وقد صادفنا الحظ السعيد بهبوب الرياح التى تأتى فى الغالب من اتجاه الشمال ما بين الشروق والغروب ، استطعنا أن نتقدم بحيث قضينا عشرة الأيام التالية على سطح ذهبيتنا فى جو لطيف .

وأخذت المعالم الأساسية لسطح الأرض تكرر نفسها يوما بعد يوم فيما عدا بعض الاختلافات المحدودة ، فالجبال ترتدى زيها المعتـاد من اللونين الأسود والذهبى ، والنهر يتسع ويضيق وهو يجرى بين ضفتين تظللهما أزهار العدس والترمس ، بالاضافة الى أغصان أشجار السنط الصـفراء وحبـات الخروع الزرقاء ، وشـجرات البطيـخ البرى Weird Coloquintida بأوراقها الخشنة وعصيرها اللبنى وثمارهـا المنتفخة مثل الخوخ الأخضر المشرب بالحمرة ، وكنا نجمع منها باقة لتزيين مائدة العشاء وذلك لعدم وجود أزهار أخرى ، وصعوبة زراعة الأزهار فى هذه التربة التى يعنى كل عود أخضر يزرع فيها قيمة كبيرة بالنسبة للزارع .

والآن صار المناخ أدفأ بشكل محسوس ، واشتدت حرارة الشمس فى وسط النهار حتى مع هبوب رياح الشمال ، وتعذر علينا الجلوس على سطح المركب ما بين الساعة الثانية عشرة والساعة الثالثة . وعند الغروب كانت سرعة الرياح تنخفض ، ويصبح الجو خانقا ، ولذلك اعتبرنا أن التمشية على الشاطىء واجبا أكثر منها متعة . وعلى كل حال ، فاننا نشكر ذلك الرسام الذى لا يعرف معنى الاستسلام والذى كان على استعداد دائم للقيام بجولة قصيرة بعد الظهر ، ولذلك اعتدنا القيام بالتمشى لمدة ساعة قبل العشاء نمضى فيها الى الصحراء بحثا عن الأحجار الكريمة بين الحصباء التى تناثرت على سطح الرمال ، ونراقب بدون جدوى ظهور الذئاب والأرانب البرية .

وفى بعض الأحيان كنا نمضى بمحاذاة ضفتى النهر بدلا من الصحراء فنصادف ساقية تديرها جاموسة منقبضة الصـدر ، أو نمضى الى قرية وطنيـة مختفية خلف نخلات قزمية . وهنا نجد أن الكل كوخ فناء أماميا صغيرا ، أقيم فى وسطه فرن من الطين ، وخـزانة طينية تستخدمها الأسرة ، ومخروطان قصيران من الصلصال الرمادى مثل أنابيب الفخار

التى فى رأس المداخن ، وقد غطى أحدهما بغطاء من الرصاص ، أما الآخر فقد ركب عليه باب بمزلاج خشبى · وكانت بعض المنازل مزينة على الحوائط بأسلوب متخلف بآثار أياد قد غمست فى صبغة حمراء أو صفراء ثم لطخت السطح الذى كان مبتلا (*) ·

وكانت هناك أعداد لا تحصى من الأسواق التى تنتشر فى كل قرية من هذه القرى · وعند دخولنا كانت الكلاب تعطى انذارا يدل على اقترابنا ، وسرعان ما تحيط بنا جميع النساء والبنات اللاتى بالمكان ، حيث يعرضن علينا شراء الحمام الحى والبيض والكوسة ، والقلائد ، وخزامات الأنف ، والأساور الفضية · أما الأولاد فقد ظلوا يلحون علينا لشراء الزواحف البائسة · أما الرجال فكانوا يقفون بعيدا تاركين المساومات للنساء ·

ولم تكن النساء على دراية بالمساومات فقط بل أيضا بتقدير القيمة النسبية لكل قطعة عملة تمر على تيارات النيل ، انهن يعرفن الروبية والروبل والريال والدولار والشلن مثل معرفتهن البارة (المليم) والقرش · ويعرفن كذلك مقدار ثقل الجنيه الذهب الانجليزى ، ومقدار خفة الفرنك الذهب الفرنسى · لقد مضت أيام النوبى الذى ذكره بلزونى بأنه أخذ يحملق فى أول قطعة نقود معدنية يراها فى حياته وهو يقول : « من يقبل أن يعطينى شيئا مقابل هذه القطعة الصغيرة من المعدن ؟ » ·

وكانت القلائد تتضمن حبات من العقيق والعظم والفضة والزجاج الملون وبعض الجعارين أو التمائم المصنوعة من الخزف الأزرق القديم · وكان ترتيب الألوان دقيقا جدا · أما الخزامات المصنوعة من الذهب المضغوط ، والأساور الفضية الكبيرة الحجم ذات الزخارف البارزة ، فقد كانت ذات تصميمات مثيرة للانتباه ، وطرازات تقليدية لا نشك فى أقدميتها الزمنية · وقد التقطت السيدتان م· وب· صدرية جميلة التصميم مصنوعة من الفضة والمرجان ، ولابد أن تكون احدى بنات أحد الفراعنة قد تزينت بها منذ ثلاثة آلاف عام مضت ·

وبدأنا الآن نلقى نظرة حادة من فوق سطح المركب بحثا عن التماسيح · لقد كنا نسمع عنها باستمرار ، ونرى مساراتها فوق ضفاف

(*) تقصد بذلك ما يلجأ إليه القرويون فى الريف عند ذبح اضحية فى مناسبة عزيزة حيث يغمسون أيديهم فى دمائها ويلطخون بها الجدران للذكرى والتنويه عن قيامهم بهذا الذبح العظيم — (المترجم) ·

النهر الرملية · وتفحصنا مع الترقب الشديد كل ذرة سوداء على البعد ، ولكننا كنا نفشـل دائمـا · وكلما ابتعدنا جنـوبا ، عيل صبرنا · وفى صباح أحد الأيام الهادئة قابلنا السيد (٠١) الذى كانت ذهبيته تنساق ببطء فى طريق العودة ، وأبلغنا أنه شاهد أمس « أحد عشر تمساحا جميلا » فوق جزيرة رملية ، على بعد حوالى عشرة أميال · أما قارب مستر س · ب · فقد تكلل بالتماسيح من المقدمة الى المؤخرة ، مما ملأ نفوسنا بالحسد تجاهه · وكنا على استعداد لدفع أى شيء فى مقابل أن نشاهد هذه الزواحف وهى تتدلى على جانبى صارية مركبنا الرئيسية أو رفيقتنا الباجستونز الوفية · أما ألفريد الذى قرر أن يجمع ستة تماسيح على الأقل فانه لم يقل شيئا ، ولكنه كان يزداد وجوما يوما بعد يوم · وفى الليل عندما كان يظهر القمر ويلجأ الناس الى أسرتهم وينامون ، كان ألفريد يتجول فى الصحراء متابعا الذئاب وهو عكر المزاج ·

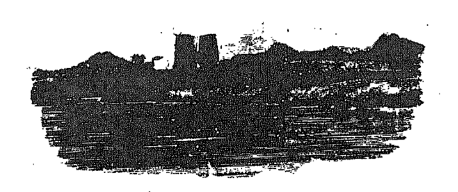
وفى نفس الوقت واظبنا على السير ، فتبدأ المركب الابحار عند شروق الشمس ، وترسو عند الغروب ، ولا تتوقف ساعة واحدة طوال النهار ، مندفعة الى الأمام فى اتجـاه أبى سـنبل بأسرع ما يمكن · وعلى ذلك فقد عبرنا بوابات دابود بما تخفيه وراءها من الصحراء والشمس التى كنا نراها عند اقتراب المساء عند الغروب · وكانت منطقة طافا الغنية بالنخيل تلمع بأعمدتها البيضاء من خلال أوراق الشجر الخضراء على جانب المياه ، مع الصخور والجزر ، وجنادل كلابشة والمعبد الضخم الذى يرتفع فى وسطها مثل القلعة ، ودندور وهو هيكل صغير له بوابة وحيدة ، وجرف حسين الذى يبدو من هذه المسافة مثل فوهة قبر منحوت فى صخرة على حافة الهاوية ·

وفى منتصف المسافة بين كلابشة ودندور ندخل فى مدار السرطان · ومن ذلك اليوم وحتى اليوم الذى عبرنا فيه تلك الحدود الوهمية ، وجدنا تغيرا ملحوظا فى الأحوال الجوية التى نعيش فيها · أخذت درجات الحرارة خلال النهار ترتفع بالتدريج خاصة فى وقت الظهر عندما تكون الشمس عمودية · وكذلك لم يعـد الليل منعشـا ، وغاضت قشعريرة الصباح البـاكر اللهم الا عند هبوب رياح قوية من الشمال ، حتى اننا أصبحنا لا ندرى ما نحن فى حاجة اليه ، وهل هو شال نلتف به على سطح السفينة فى المساء ، أم أغطية اضافية على أسرتنا عند اقتراب الفجر · اننا ننام ونوافذ قمراتنا مفتوحة ونستمتع بلذة الحرارة المعتدلة منذ غروب الشمس وحتى شروقها · وفى نفس الوقت كان طول النهار يتساوى مع طول الليل ·

والآن ، فان الصليب الجنوبي والمجموعة الثانية من النجوم التي استنتجنا أنها تشكل جزءا من القنطورس تظهر ما بين الساعة الثانية والساعة الرابعة كل صباح • وكانت تزحف بمعدل نجم كل ليلة خلال الأسبوعين الأخيرين،ولكنها مازالت شديدة الانخفاض فوق الأفق الشرقي لدرجة أننا لا نراها الا عندما يحدث انكسار في السلسلة الجبلية فوق هذا الجانب من النهر • وفي نفس الوقت كان أصدقاؤنا القدامى الذين ينتمون الى نصف الكرة الشمالي ، ويظهرون مشــوهين وفي غير مكانهم الصحيح ، يختفون سريعا في الجانب المقابل من السماء • لقد ظهر كوكب أوريون وكأنه يرقد على ظهره ، أما الدب الأكبر فقد ظهر واقفا على ذيله بينما اختفت مجموعة النجم القطبي،وفي نفس الوقت فان سمت الرأس قد ظهر رفيعا جدا ، ولذلك أحسسنا بأننا قد رحلنا بعيدا عن أحــد نصفي الكرة الأرضية ولم نصل بعد الى النصف الآخر • أما عن الصليب الجنوبي فاننا سنحتفظ برأينـــا عنه حتى نبتعد في اتجاه الجنوب ، وقد تكون هناك خيانة عندما نشير الى أننا قد جانبنا التوفيق مع هذه المجموعة من النجوم •

وبعد جرف حسين يأتي المكان التالي في الأهمية والذي تقودنا خرائطنا للبحث عنه وهو معبد الدكة • وعندما اقتربنا منه متوقعين في كل ساعة أن نرى شيئا من المعبد ، كان النيل يزداد اتساعا وجمالا • وكان صباحا آمنا وصافيا ، وكان الرجال قد عملوا في سحب السفينة منذ الفجر ، وتوقفوا للافطار تحت ضفة رملية تظللها أشجار الطرفاء والصمغ • وكانت هناك شبكة متألقة من نسيج العنكبوت تطفو ممتدة من غصن الى غصن • وتلونت السماء فوقنا بلون أزرق لامع لم نر له مثيلا في أوربا• أما الهواء فكان ساكنا بشكل يثير العجب • وكان النهر الذي يتخذ هنا انحناءة فجائية نحو الشرق ، يتخذ شكل بحيرة ، بما يوحي بأن الصحراء تعترض مساره • وفي الحال شاهدنا جنازة تمر بطول الضفة المقابلة ، وكبير النائحين يحرك عكازا طويلا مثل عصا قائد الفرقة الموسيقية ، وكانت النساء تذرى ملء أيديهن من التراب ويلقين به فوق رؤوسهن • وظللنا نسمع نواحهن لفترة طويلة بعد مرور الموكب •

ومع استمرارنا في المسير استحوذت على اهتمامنا الملامح الجيولوجية الجديدة والمتفردة للصحراء الليبية • كانت سهلا عريضا مغطى بالجبال المنعزلة ذات المعــالم البركانية ، مما جعلها تبــدو مثل بعض التحولات الغريبة التي تطرأ على سطح الهضبة بكافة مروجها التي تكنسها الرياح فتحولها الى رمال ، وفجواتها ذات الحشائش التي نزعتها الرياح فجعلتها



معبد الدكة بالنوبة

جرداء . وكلما ازداد اتساع هذا السهل أمام أعيننا ، ازداد عدد القمم التي تنتشر على صفحته . وبينما كنا ندور حول الركن ظهر معبد الدكة ، الذي يعتبر نموذجا مصغرا لمعبد ادفو ، أمام أنظارنا على الضفة الغربية حيث كانت الصحراء التي في هذا الجانب ، تقدم لنا منظر حقل ضخم من القمم البركانية التي لا تخطئها العين . وكانت هذه القمم المخروطية مختلفة الأحجام والارتفاعات مثل تلك الموجودة في أوفرني Auvergne . كان بعضها منخفضا ومستديرا مثل الفقاعات التي تم تبريدها دون أن تنفجر ، والبعض الآخر يتراوح ارتفاعه ما بين ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ قدم . وكانت الفوهات البركانية للعديد منها يمكن التعرف عليها بمساعدة نظارة الميدان . وكانت احداهـا بالذات تشبه صديقنـا القديم سهل باريو Puy de Pariou الذى لا نستطيع حتى مع الاستعانة برسم تخطيطي باللون الأبيض والأسود أن نفرق فيه بين القمة والأخرى .

واندهشنا لأننا لم نجد ذكرا لأى شىء عن جيولوجيا هذه المنطقة فى كتاب من الكتب التى بين أيدينا . لقد مر عليها موراى وويلكنسون فى صمت . أما كتاب الرحلات فان واحدا أو اثنين منهم فقط هما اللذان استطاعا أن يلحظا الشكل « الهرمى » للتلال ، وقد أحسا بالرضا لذلك الاكتشاف . ولم يبد على أحد منهم أنه لاحظ أصولهـا البركانية (*) ونشكر النسيم الخفيف الذى هب عند الظهر ، فقد أتاح لنا أن ننشر

(*) لم يقل احد من قبل أو من بعد ان منطقة النوبة بها أية تكوينـات بركانية مما يتناقض مع اكتشاف المؤلفة ــ (المترجم) .

صارينا الأكبر مرة أخرى ، وأن نريح رجالنا من تعب سحب الذهبية . وعلى ذلك فقد جدفنا قبالة خرائب المحرقة التي تظهر من النهر مثل بوابة اغريقية ترتفع في الفضاء الواسع للصحراء الحارقة . وبعد ذلك جاء وادى السبوع وهو معبد نصف مدفون في الرمال ، حيث قابلنا قريبا منه ذهبية صغيرة يبحر بها نوبيان يرفعان علما يحمل نجمة وهلالا . انه مفتش الحكومة المخادع الذى يرتدى ملابس أوروبية وطربوشا ، وقد وقف على حصيرة خارج باب قمرته وهو يدخن ، بينما علق تمساحا ضخما على قائم خشبى من أعلى . كان لون هذا الوحش بنيا يميل الى الاخضرار ، ويبلغ طوله من رأسه حتى ذيله ستة عشر قدما على الأقل ، وكان فكاه منفرجين ، وقد أخذت احدى أرجله السمينة المترهلة ، ومخلبه الثقيل يتأرجحان مع حركة المركب فظهر مثل انسان غريب الشكل .

وقد هيأ الرسام عرضا قدمه بنفسه في الموقع وهو ينظر الى المقدمة الأمامية ، ولكن المفتش المخادع لم تحركه اعتبارات الربح ، وفضـــل تمساحه على الذهب الكافر ، وتنازل بشق الأنفس بالرد على الطلب .

وفى نور الغسق المدارى ظهرت الجبال الأرجوانية وهى تنحدر في كتل منفصلة نحـو حافة النهر في جانب ، والصحراء بقممها البركانية المرتفعة في الجانب الآخر . وقد حسبنا أن الاقتراب من كورسكو يشكل منظرا رائعا يصلح للتصوير أكثر من كافة المناظر التى شاهدناها جنوب الشلال . ومع تغلغل الغسق ظهر القمر . أما النخلات التى وجدت لنفسها مكانا تنمو فيه بين الجبال والنهر ، فقد تحولت من اللون البرونزى الى الفضى . وفى الوقت الذى خيم فيه بعض الغسق مع بعض ضوء القمر وصلنا الى منقطة المرسى . أما تلحمى الذى كنا أرسلناه في القارب الصغير منذ نصف ساعة لكى يتقدمنا ، فقد قفز الى سطح الذهبية وهو يحمل حزمة من الخطابات ورزمة من الجرائد . وقد اكتشفنا أول مكتب بريد نوبى في هذه المنطقة التى يمضى فيها طريق القوافل الكبيرة عبر الصحراء الى الخرطوم . وكانت قد مضت عشرة أيام فقط منذ أن تسلمنا آخر رسالة وردت الينا في أسوان ولكن هذه الفترة ظهرت لنا مثل عشرة أسابيع .



مجوهرات نوبية

الفصل الرابع عشر

من كوروسكو الى أبي سنبل

وصلنا الى كوروسكو فى وقفة العيد الكبير أى مناسبة الضحية التى قدمها ابراهيم عندما كان ابنه اسماعيل (حسب النص الاسلامى) هو الضحية المقصودة وافتدى بخروف • ولما كان العيد الكبير هو أحد الأعياد الكبرى الاسلامية فهو مناسبة لتقديم الهدايا ورفع الدعوات الطيبة ، فالأغنياء يزورون أصدقاءهم ويوزعون اللحوم على الفقراء ، ويذهب كل مؤمن حقيقى فى الصباح الى الجامع لتلاوة صلواته • ولذلك فانه بدلا من الاستيقاظ عند شروق الشمس كما هى العادة ، قدمنا الى بحارتنـا خروفا وانتظرنا الى ما بعد الظهر حيث يقيمون العيد •

وبدءوا يومهم بالذهاب الى جامع القرية وهم يرفلون فى الجلاليب الجديدة والعمائم النظيفة ، والشباشب الجلدية القرمزية اللون ، فأخذوا يتسكعون حتى وقت الغداء عندما تم طهى الخروف المذكور مع العدس والثوم وانتهى بذلك الاحتفال • لقد كان الخروف حيوانا ضعيفا ولابد أنهم عاملوه بقسوة ، ولكن الشوق الى الطعام جعلهم يستمتعون مثل الأطفـال ، وذلك عنـدما جلس أصدقاؤنا المخلصون القرفصاء متقاطعى السيقان ، وهم سعداء حول المرجل الذى يتصاعد منه الدخان وهم يثرثرون ويضحكون ويحتفلون بالعيد ويغرزون أصابعهم فى الطعام المشترك الذى يتناولونه من اناء واحد ، ثم يغسلون أيديهم بمدد متصل من ماء النيل وبعد أن انتهوا من ذلك أخذوا يتبادلون تدخين النارجيلة التى كانت تدور من شفتين الى شفتين وفم ممتلىء بالقهوة الكثيفة • وبعد منتصف اليوم بقليـل كانوا قد خلعوا ملابسهم الفاخرة ، وربطوا أنفسهم الى الحبلين ، وبدءوا العمل فى سحب المركب خلال القطع الصخرية التى تعرقل مسار التيار •

وتبلغ المسافة الحقيقية ما بين كوروسكو والدر ، حوالى أحد عشر ميلا ونصف ، ولكن مع العوائق التى تنتشر فى مجرى النيل ، ومع الريح التى بدت مواتية ، ومع الدخول في انحناءة كبيرة أخرى ، غيرت مسار النيل الى الشرق ، وجدنا أن هذه الأميال الأحد عشر والنصف قد كلفتنا جهد يومين كاملين من السحب الشاق ٠

وعندما كانت المركب تلاصق الشاطىء وكنا نهبط منها ، وجدنا نظام الزراعة متشابها في كل مكان حيث يزرع الترمس والعدس على المنحدر مقابل خط المياه ، بينما تنمو غابة متصلة من أشجار النخيل على حافة الشاطىء ٠ وتنمو حقول القطن والقمح الحديث الانبات فى الفراغ الذى يلى ذلك ، ثم تتسع الصحراء٠وكانت التربة القابلة للزراعة قد قسمت كالمعتاد بواسطة مئات من القنوات المائية ، ويبدو أنها أفلحت جيدا ، كما رويت بغزارة بحيث لا يستطيع الانسان رؤية أية أعشاب ضارة ، كما أنه لم تفقد بوصة واحدة من التربة ٠ وكانت القثاء والكوسة تزدهران فى الأركان المنعزلة حيث لا يوجد مكان لزراعة النخيل وسائر المحاصيل٠ ولا يمكن العثور على أشجار الخروع الضخمة ، أو لوز القطن الكبير أو أشجار النخيل المرتفعة فى أى مكان ٠

وهنا نشاهد لأول مرة خارج مصر بين الشجيرات القصيرة عددا قليلا من طائر الهدهد وغيره من الطيور الصغيرة ، كما شاهدنا على منحدر رملى بجوار النهر مجموعة من البط البرى ٠ وقد تجولت الكاتبة مع احدى السيدتين م٠ و ب٠ فى ذلك الاتجاه بحثا عن التماسيح ٠ وكانت كلتا الذهبيتين ، كل بطاقم السحب الذى يجرها ، تتقدمان ببطء ضد التيار على بعد حوالى ميل ، كما كانت المنطقة كلها شديدة الحرارة وشديدة الصمت ٠ وقد ابتعدنا فى سيرنا ولكننا لم نر أية تماسيح ـ فما الذى سنفعله لو شاهدنا واحدا منها ؟ لست مستعدة للاجابة،فربما كنا سنركض مبتعدين ٠ وعلى كل حال فقد كنا على وشك العودة عندما لمحنا طيور البط تجفف نفسها فى الشمس وهى نصف نائمة على حافة بحيرة صغيرة على بعد حوالى مائة وخمسين مترا ٠

وقد زحفنا بحرص تحت الضفة حتى أصبحنا على بعد ياردات قليلة منها ٠ كان عددها أربعة ، أحدها ذكر واحداها انثى واثنتان صغيرتان لهما ريش رائع وصغير مثل الزغب ٠ أما الأبوان الكبيران فقد تجاوز طول كل منهما ثمانى بوصات من الرأس حتى الذيل ٠ وكانت لها جميعا

رؤوس بلون ثمار أبي فروة يشقها من المنتصف شريط أصفر مثل فرق الشعر ، وظهور ذات لون قرمزى مائل للسمرة · أما ريش أجنحتها فقد كان بلون قرمزى ورمادى · أما ذيولها فكانت أطرافها صفراء اللون · كانت رائعة الجمال مع اكتمال الصحبة العائلية الصغيرة لدرجة أن المؤلفة لم تستطع أن تخفى سعادتها لوجود ألفريد وبندقيته على ظهر الباجستونز ·

وهناك على الضفة المقابلة للصحراء الليبية كان يرتفع معبد عمدا الصغير على حافة منحدرة وهو نصف مدفون فى الرمال · وعندما كنا نقوم بصيد البط فى الصباح رأيناه من الجانب العكسى ، فظننت أنه أحد الملاجىء الحجرية التى أقامها محمد على لتربية الماشية التى ترسلها السودان سنويا · وتأكدنا من أنه معبد صغير ولكنه متسع وقد بنى بكتل من الحجر الرملى ، ويعود تاريخه الى أيام أوسرتيسنز وتحوتمس · وكان يشتمل على بهو وقاعة أمامية مستعرضة وثلاث حجرات صغيرة · أما أعمدة البهو فهى مجرد دعائم مربعة · والحجرات صغيرة ومنخفضة · أما السقف المبنى من كتل مستطيلة فهو مسطح من الجهتين · واذا نظرنا اليه كأحد المعالم المعمارية فسنجد أنه فى الحقيقة ليس الا درجات قليلة نقلت من خرائب قديمة · وبدون هذا المعبد الصغير فان المنطقة تصبح مثل الحلية التى جردت من الحجر الكريم الذى يتوسطها · ولم نشاهد مثل تلك النقوش الغائرة الجميلة الطراز والعميقة الألوان الا فى مقبرة « تى » · وهنا مثل كافة الأماكن الأخرى نجد الحوائط مغطاة بمجموعات من صور الملوك والآلهة والنصوص الهيروغليفية · وتظهر أشكال الأشخاص رشيقة وقد رسمت فى أوضاع حركية · كما أن أغطية الرؤوس والمجوهرات والملابس مرسومة وملونة باحكام بحيث تبدو كل رأس مثل لوحة شخصية ، وكل شكل هيروغليفي مثل منمنمة مرسومة على العاج أو جلد الرق ·

وبصرف النظر عن التنفيذ الرائع فان النحت الموجود على حوائط معبد عمدا لا ينتمى الى الدولة القديمة وانما الى عصر النهضة المصرية · ورغم رداءته من ناحية الوضوح والتعبير عن الطبيعة بالنسبة لأعمال المدرسة القديمة الا أنه يمثل علامة على تلك الفترة التى تطور فيها فن النحت الغائر بحيث صار يتلامس مع المستوى الرفيع الذى لم يدركه من قبل ، لأن هذا المستوى الرفيع يعود الى أيام تحوتمس الثانى وتحوتمس الثالث مثلما تنتمى فترة التكامل فى العمارة الى عصر سيتى الأول ورمسيس الثانى · وتعود أهمية معبد عمدا الى هذا السبب · انه يسجل وصول تاريخ الفن الى قمته ، ويقدم أحسن مآثر هذه الفترة عندما بلغت قمة

تألقها • ويظهر النحت هنا ملتزما بالحدود التى رسمت له ، ولكنه رغم هذه الحدود كان يتمتع بحرية الحركة • وبالرغم من أن الفن الذى يعبر عنه تقليدى الى حد كبير ، الا أنه نمطى غير متكرر • وظلت موهبة الاحساس الغنى تعبر عن نفسها فيه • وباختصار فان معبد عمدا يمتاز بالرقة واللطف فيما يتعلق بالنحت الغـــائر الذى يفوق ذلك النحت القصصى المرسوم على حوائط الكرنك •

أما الحجرات فهى نصف مكتظة بالرمال مما اضطرنا الى الزحف على أيدينا وركبنا فى داخل الهيكل • وهناك نقش طويل فى الطرف العلوى يسجل كيف أن أمنحتب الثانى عند عودته من حملته الأولى ضد أعدائه الآسيويين ، قد ذبح سبعة ملوك بيديه ، شنق ستة منهم على أسوار طيبة بينما أرسلت جثة الملك السابع الى الحبشة عن طريق النيل حيث علقت على الحائط الخارجى لمدينة نباتا (١) « حتى يعلم أهلهـــا بانتصارات الملك فى كل أنحاء العالم » •

وفى أشد أركان الصالة الأمامية ظلاما ، شاهدنا لوحة غريبة تمثل الملك وقد احتضنته احدى الالهات ، وكان يمسك بسيف مستقيم قصير فى يده اليمنى ، وعلامة العنخ فى يده اليسرى ، ويضع على رأسه الخوذة الحربية وهى تاج أزرق مرصع بالنجوم الذهبية ومزين بالأفعى الملكية • وتمسك الالهة برقبته فى حب وتقترب بشفتيها من شفتيه • وقد لون الرسام بشرتها باللون الأصفر المخصص للنساء • ولكن فمهـا الجذاب وأنفها المستقيم ينتميان الى الملامح الأوروبية • ولما كانت ترتدى ملابس القرن التاسع عشر (ق•م) ، فلابد أنها كانت تمثل الفتاة التى عاشت فى ذلك العصر •

وكان الرمل قد تكوم فى كومة شديدة الارتفاع خلف المعبد بحيث يخطو الانسان فوق السطح كما لو كان يخطو فوق ممر قد ارتفع مستوى سطحه عن مستوى سطح الصحراء ، ولكن سرعان ما يستوى السطح سريعـا • واذا لم يتم عمل شىء لانقاذ المبنى خلال جيل أو جيلين قادمين فان الرمال ستبتلعه جميعه ويضيع مكانه •

---

(١) مدينة اثيوبية كانت تعبد الاله آمون حوالى نهاية الأسرة العشرين • وعن طريق كهنة طيبـة الذين استقروا فى نباتا فى تلك الفترة ، جاء النسل الذى غزا مصر على أيام الأسرة الثالثة والعشرين •

واذا نظرنا من فوق السطح خلفنا الى كوروسكو ومباشرة نحو قرية الدر ، فاننا سنرى واحدا من أفخر المناظر فى النوبة ، وربما أفخرها كلية . فالنيل ينحنى انحناءة عظيمة خلال الأرض الأمامية ، بينما تبدو أراضى قرية الدر ، خضراء على البعد . وتبدو المنطقة الجبلية التى عبرنا تلالها منذ قليل ، مثل هلال ضخم ومكون من القمم التى لا تحصى والتى تنتشر حول ثلثى الأفق ، حافة بعد حافة ، وسلسلة بعد سلسلة ، وهى تلمع فى الضوء بلونها القرمزى ، وتزداد عمقا فى الظل مع كل درجة من درجات اللونين البنفسجى والأرجوانى ، ثم تتلاشى فى الأفق بلونها الأزرق الخفيف . وعند غروب الشمس تبدو لامعة ، ومتوهجة بالضوء ، ومتلامسة مع اللهب ، مثلما كانت كل فوهة بركان فى الماضى عينا تنبع من النار .

وفى الصباح التالى بعد أن ناضلنا خلال متاهة الضفاف الرملية الغارقة فى النهر ، وصلنا الى قرية الدر بعد الافطار . وتقع هذه القرية التى تعتبر عاصمة النوبة فى موقع منخفض قليلا عن مستوى الضفة ، وبذلك لا يظهر منها سوى القليل من الحوائط الطينية التى تبدو للناظر من النهر . ولما كنا قد تعلمنا حتى هذا الوقت أن العاصمة ليست الا قرية كبيرة قد تضم مسجدا ومكانا فسيحا لاقامة السوق ، فلم تصبنا خيبة الأمل عند رؤية المعالم المتواضعة لهذه العاصمة النوبية .

وكانت دهشتنا أكبر عندما وجدنا موقع المرسى مهجورا بدلا من الازدحام الصاخب المعتاد ، والذى يتصارع فيه الأفراد وهم يصرخون ، ويزيحون بعضهم بعضا بالمناكب ، ويضايقوننا طالبين البقشيش . وكان هناك قاربان وطنيان أو ثلاثة تقف فارغة تحت الضفة ، ولم نر شخصا واحدا على مدى الرؤية . وكان السيد (ل) والسيدة الصغيرة متشوقين لشراء بعض السلال التى يشتهر بها هذا المكان ولكن بدون جدوى . أما تلحمى الذى كان متشوقا للنوم فى مخزن للبيض الطازج والخضروات فقد عاد بخفى حنين .

ورسونا ، ولكننا لم نر أمامنا سوى فراغ يقع فى الطرف البعيد منه فى مواجهة النهر قصر المدير ، وهو عبارة عن كوخ طينى ضخم له افريز من الطوب الأحمر حول قمته ، ومدخل حجرى مهيب . ويستقبل الرجل العظيم جمهور الزوار فى هذا المدخل حسب الاستخدام القديم . ورأيناه فاذا هو مجرد شاب ، ينفخ فى غليون طويل وسط حشد صغير من كبار السن ذوى اللحى الرمادية الذين نظروا الينا فى وقار دون أن يتحركوا

مثل الآلات التى ينبعث منها الدخان • وقد اردت أن أسألهم اذا ما كانوا قد أصبحوا جميعا تماثيل من الجرانيت ابتداء من وسطهم حتى أقدامهم ، وعما اذا كان سكان قرية الدر قد تحولوا الى حجارة زرقاء ولكننى امتنعت •

ومع الاصرار على شراء السلال ، هذا اذا كانت هناك سلال تصلح للشراء ، كان الاصرار أيضا على اكتشاف مكان معبد منحوت فى الصخر أوصت الكتب التى بين أيدينا بأن نبحث عنه فى ظاهر المدينة ، فانحرفنا جانبا الى شارع غير منتظم الشكل يقود الى الصحراء • وكانت المنازل مبنية بطريقة أفضل من المعتاد • ويبدو أن تسوية سطح الشارع وتزيين الأبواب بقطع من الفخار الملون قد استغرقا الكثير من الجهد • وكان هناك طبق مشروخ مصنوع من الخزف المزين بالرسوم ، موضوع مثل طاقة بأعلى أحد البابين ، وطبق آخر أبيض اللون من أطباق الشوربة لا شك أنه جاء من مقصف احدى الذهبيات الانجليزية ـ كان موضوعا فوق باب آخر ، وكان الطبقان مصدر فخر لأصحابهما • وقد نظرنا فى هذا الشارع من طرفه الأدنى الى طرفه الأقصى ـ وكان شارعا طويلا ما بين النيل فى أحد طرفيه ، والصحراء فى الطرف الآخر ـ الا أننا لم نر علامة أو ظلا لحركة انسان يسير فيه • فيما عدا سيدة شابة سمعت الأصوات الغريبة التى تتحدث بلغة أجنبية فاختلست النظر من باب نصف مفتوح أثناء مرورنا ، وبعد أن رأتنى أنظر الى الطفل الذى بين ذراعيها (كان الطفل قبيح الشكل ملتهب العينين) جذبت حجابها على وجهها ودلفت الى الداخل مرة أخرى ، وقد ظنت أننى طمعت فى كنزها ، وخافت من حسد العين الشريرة •

وسرعان ما سمعنا صوتا مثل صرخة مرتجفة لعدد كبير من البوم آتية من بعيد • فأمسكنا أنفاسنا ، وأصخنا أسماعنا ، ولم نكن قد سمعنا مثل هذا الصوت المتوحش النائح من قبل • وفجأة رأينا من فتحة بين المنازل زحاما ضخما على أرض مرتفعة فسيحة على بعد حوالى ربع ميل • وكان الزحام مكونا من الرجال فقط الذين بلغ عددهم حوالى أربعمائة رجل معمم واقفين فى سكون وهم ينظرون جميعا فى نفس الاتجاه • وأسرعنا الى الصحراء حتى شاهدنا المنظر الغريب الذى كانوا ينظرون اليه •

كان المنظر يتكون من منحدر رملى قاحل ، يقع بين المدينة والصخور ، وقد انتشرت فيه القبور • وكانت جميع الممثلات من النساء وقد تزاحمن

تحت حائط طويل على بعد عدة مئات من الياردات • وكانت رؤوسهن مكشوفة ومعرضة لحرارة شمس الصباح ، وكان عددهن يزيد عن عدد الرجال بمقدار الثلث ، البعض منهن جالسات ، والبعض الآخر واقفات ، بينما كن يتحلقن حول سيدة شابة في الوسط يبدو أنها كانت تقوم بدور القائد • وأخذن يترنحن ويتجمعن في شكل دائرى ، ويجرجرن خطواتهن في شكل صف متراص ومترابط من الراقصات • وكانت كل العيون مركزة على هذه السيدة الشابة • كانت نسخة سوداء اللون من كاساندرا (*) وكانت تحرك جسمها من جانب الى جانب ، وقد شبكت يديها فوق رأسها ، وأطلقت أنشودة حماسية أخذت الأخريات في ترديدها خلفها • ويبدو أن هذه الأنشودة كانت مقسمة الى أبيات ، ولذلك كانت تتوقف عند كل بيت من أبياتها ، وتدق على صدرها ، ثم تنفجر في هذا النواح المخيف الذى سمعناه من على البعد • ويبدو أن أخاها قد مات الليلة الماضية وها نحن نشاهد جنازته في تلك اللحظة •

وقد انتهت عملية الدفن عند وصولنا الى المكان ، ولكن ما زال هناك أربعة رجال منشغلين في تكديس الرمال فوق المقبرة حيث كانوا يلقون ملء جاروف في كل مرة ثم يكبسونه بأقدامهم الحافية •

ولما كان المتوفى غير متزوج فقد ترأست أخته جوقة الندابات • كانت امرأة شابة طويلة وهزيلة من النوع النوبى البسيط الذى يمتاز ببروز عظام الخدين ، والعينين المنحدرتين من الركن الى أعلى ، والفم الضخم ذى الأسنان اللامعة • وكانت قد وضعت فوق رأسها طرحة بيضاء ملطخة بالتراب • أما رفيقاتها فقد تميزن بشريط أبيض ضيق ملتف فوق الحاجبين وقد ربط من طرفيه خلف الرأس • وقد أخفين قلائدهن وأساورهن وارتدين أردية تجر على الأرض وغطين رؤوسهن بشيلان • كما ارتدين سراويل من القطن الأسود أو الأزرق •

ووقفنا نشاهد رقصهن الأهوج مدة طويلة دون أن تلحظنا واحدة منهن • ولكن الرجال أفسحوا لنا الطريق بأدب مشوب بالحزن حتى وصلنا الى المقدمة لكى نشاهد منظر الاحتفال من موقع أفضل •

(*) ابنة الملك بريام التى كانت لديها موهبة التنبؤ ولكن أحدا لم يكن يصدقها ـ (المترجم) •

ووقفت امرأة عجوز من بين أولئك الجالسات وتحركت بخطوات مترنحة غير ثابتة نحو نقطة مرتفعة من الأرض مبتعدة قليلا عن الزحام • وحدثت حركة تعاطف بين الرجال الذين استدار أحدهم نحو المؤلفة وهمس قائلا : « هذه أمه » •

كانت عجوزا واهنة ترتدى ملابس متواضعة ، وكانت ذراعاها ويداها مثل ذراعى ويدى المومياء ، أما وجهها الأسود الذابل ، فقد ظهر مرعبا خلف قناعها الترابى • وأخذت تدير جسمها للأمام والخلف عدة لحظات وهى تراقب حفارى القبر وهم يهيلون الرمال ، ثم مدت ذراعيها وانخرطت فى سيل من النحيب •

كانت لهجة قرية الدر غريبة وبربرية (١) ولكننا شعرنا بأننا نفهم كل كلمة نطقت بها ، وسرعان ما بدأت الدموع تنساب على خديها ، واختنق صوتها بالعبرات ، وسقطت على شكل كومة لا حول لها ولا قوة ، ورقدت واضعة وجهها على الأرض مثل كلب كسير القلب • وظلت هكذا •

وفى نفس الوقت ارتفعت الرمال حتى أصبحت كومة كبيرة فتوجه الرجال بأنفسهم الى مكان بعيد عن الصخرة واختاروا حجرين كبيرين من بين الأنقاض ثم وضعوهما فى موضعين فوق رأس ورجلى الميت وانتهى كل شىء •

وعند اشارة متفق عليها بالرغم من أننا لم نلحظها ، توقف النواح ، وقامت النساء وانطلقت جميع الألسنة ، وانفرط الزحام الى حشد متحرك متدافع كثير الضوضاء ، وتشتت الجميع فى اتجاهات مختلفة •ومضينا مع الجميع فأخذت المؤلفة والرسام يتجهان للبحث عن المعبد ، بينما اتجه الثلاثة الآخرون الى البحث عن أماكن بيع السلال والحلى • وعندما نظرنا الى الخلف ، كان الزحام قد انفض بينما بقيت الأم التعيسة راقدة فى التراب بلا حراك •

لقد تصادف أن شاهدنا العديد من الجنازات فى منطقة النوبة • وكانت كثيرة حتى اننا أحسسنا بأن محافظ أسوان لم يكن يبلغ عن الحالة

---

(١) الرجال هنا يتحدثون جميعا اللغة العربية ، أما نساء النوبة فانهن يعرفن فقط اللهجتين الكينسية والبربرية والأولى منهما يتحدث بها أهل كوروسكو •

الصحية في محافظته . وكان الاحتفال الجنازى متشابها في جميع الحالات من حيث الرقص والانشاد دائما بشكل بربرى مع أعلى درجات التصنع . واحدث افكر في مدى تشبع هذه الاحتفالات بالاصول الافريقية الخالصة ومدى ما دخل عليها من التقاليد المصرية القديمة . من المحتمل أن يعود الرقص الى اصول حبشيه . وقد شاهد ليبسيوس أثناء رحلاته في السودان سنة ١٨٨٤ للميلاد شيئا من هذا النوع في جنازة كانت في واد مدنى الذى يقع في منتصف المسافة بين سنار والخرطوم (١) أما شريط الشعر المصنوع من القماش الأبيض الذى كانت ترتديه جوقة النائحات فهو مصرى ، لأننا رأيناه فيما بعد في النقوش التي تمثل مواكب الجنازات على حوائط العديد من المعابد في طيبة حيث تظهر النساء النائحات وهن يجمعن التراب في أيديهن ثم يذرينه فوق رؤوسهن مثلما يحدث الآن. أما عن النواح فقد بدأ مرتفعا ثم انخفض في دورات يفصل بينها ثلث نغمة وليس نصف نغمة حتى يصل الى ختام الجواب المكون من ثماني نغمات موسيقيه متتالية يبلغ ارتفاعها نصف الارتفاع الذى بدأ به النواح ـ ولابد أنه يمثل حتى اليوم نفس الحركة والايقاع الذى امتاز به النواح الذى كان يصحب الفراعنة الى مثواهم في وادى الملوك .

ولابد أن هذا النواح كان يسلم من جيل الى جيل على مدى عصور عديدة مثل الزغاريد التي كانت كل أم تعلمها لبناتها الصغيرات والتي لا يمكن اتقانها الا بالتدرب عليها منذ سنوات الطفولة . ولابد أيضا أن الأغنية التي يدير الفلاح الشادوف على أنغامها ، والانشاد الرتيب الذى ينشده عامل الساقية تعود جميعها الى أصول بعيدة . ولكن أقدم وأشجى الأصوات الانسانية هو نواح الموت الذى استمعنا اليه في قرية الدر ، ولا شك في أنه أقدم الأصوات وأكثرها اثارة للشجن .

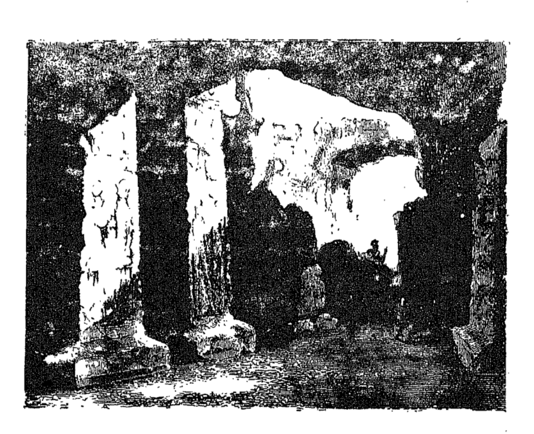
أما هذا المعبد الذى يعود تاريخه الى أيام رمسيس الثاني فهو بسيط التصميم ، متوسط الجودة في التنفيذ . وقد بنى جزء منه وحفر الجزء الآخر ، ويتم الوصول اليه عن طريق فناء أمامى يدعم سقفه ثمانية أعمدة مربعة ، لم يتبق منها سوى قواعدها . وترفع سقف البهو أربعة أعمدة ضخمة كان أمامها في يوم من الأيام أربعة تماثيل كبيرة الحجم ، وتسمح الأعمدة بظهور ثلاثة مداخل تؤدى الى الحجرات المنحوتة في

---

(١) انظر .Lepsius's letters from Egypt, Ethiopia etc ـ الخطاب رقم ١٨ صفحة ١٨٤ ، طبعة بون Bonn سنة ١٨٥٣ .

الصخر خلفها . وهذا البهو الآن بدون سقف ، أما التماثيل فلم يبق منها سوى أقدامها . لقد خرب كل شيء تخريبا ليس فيه شيء من الجمال .

وعندما ننظر الى المكان من الداخل نجده لا يخلو من روعة . وتنقسم القاعة الكبرى الى صحن وجناحين بواسطة صفين من الأعمدة المربعة يوجد منها ثلاثة على كل جانب . وتبلغ مساحة هذه القاعدة أربعين قدما مربعا وقد نحتت الأعمدة فى الصخر مثل تلك الأعمدة الموجودة فى المقابر القديمة بأسيوط . أما ضوء النهار الذى يحجزه البهو المتهدم فانه يبدو خافتا ، ويشق طريقه ضعيفا الى قدس الأقداس فى الجزء العميق . أما النقوش التى فى الداخل فانها بالرغم من شدة الدمار الذى لحق بها فانها أقل تشويها من تلك التى فى القاعة الخارجية . وقد غطيت الحوائط والأعمدة والمداخل بنقوش بارزة يظهر فيها الملك والاله بتاح ، ثم الملك والاله رع ، وأخيرا الملك والاله آمون ، واقفين وجها لوجه ، ويدا فى يد على الجوانب الأربعة لكل عمود . وتغطى الحوائط مناظر الحرب ، والذبح ، والمسح بالزيت . أما المساحات الخالية فقد امتلأت كالعادة بالنقوش الهيروغليفية التى اكتشف شامبليون من بينها قائمة غير كاملة بأسماء أولاد وبنات رمسيس الثانى .



معبد الدر بالنوبة

وكانت هناك يوما ما أربعة آلهة تجلس على عروشها فى عمق قدس الأقداس ولكنها لقيت مصير التماثيل الخارجية الأربعة ولم يبق منها الا أقدامها . أما النقوش الحائطية التى تغطى هذه الحجرة الصغيرة المظلمة فهى محفوظة بطريقة أفضل من تلك الموجودة فى القاعة ، حيث نرى صورة لم تمس لموكب احتفالى مكون من الكهنة الذين يحملون على أكتافهم القارب المقدس « بارى » ، وبالقرب منها صورة للالهة حتحور بطول الحائط ما زالت تحتفظ بألوانها الزاهية .

أما المنظر الذى يثير الاهتمام أكثر من هذه المناظر كلها والذى تعود أهميته الى ندرته ـ فهو منظر منحوت لشجرة نخيل يركع الملك أمامها أثناء تقديمه القربان للاله آمون رع . وقد رسم الجذع بصدق واضح ، والأغصان كاملة ومنحوتة برشاقة رغم تنفيذها حسب الشكليات المتعارف عليها . وليست هذه الشجرة الا اضافة ربما أمكن التعرف عليها من خلال موسم جنى البلح الذى يمثل ثروة هذه المنطقة ، ولكنها لا تعنى شيئا مقدسا ، وقد رسمت لاضفاء الجو الطبيعى على الرسم . وهذا الجو الطبيعى غير معتاد فى الفن الذى ينتمى الى هذه الفترة حيث كانت زهرة البردى التقليدية وزهرة اللوتس التى تجاريها هما الشكلين النباتيين الوحيدين اللذين يظهران على حوائط المعابد . وأتذكر رسما مشابها يتجلى فى النحت البارز الذى ينتمى الى عصر الدولة الحديثة ، وأعنى به أعواد نبات البردى المنحنية والمقصوفة والمتمايلة فى منظر صيد الأسود بمعبد مدينة هابو ، وهو رسم يثير الاعجاب لتحرره من القيود واستعاراته الواضحة من الطبيعة .

وبعد خروجنا نظرنا الى حوائط الفناء باحثين بلا جدوى عن منظر المعركة التى استطاع شامبليون عن طريقها أن يتتبع الأسد المشهور الذى خضع للملك رمسيس الثانى فى الاسطورة التى تصفه بأنه « خادم جلالته الذى يمزق أعداءه الى أشلاء متناثرة » . وقد مضى على ذلك خمسة وأربعون عاما . والآن فاننا نكتشف بصعوبة بعض الخطوط الخارجية المبهمة التى تبين عجلات العربة الحربية والخيول .

وهناك بعض المقابر المحفورة فى الصخور القريبة . وقد اكتشفها الرسام بينما كانت مؤلفة هذا الكتاب ترسم بعض الرسومات التخطيطية للمعبد من الداخل . ولكنه قرر أنها مجرد مقابر غير ملونة وغير منقوشة . وعندما أدرنا وجوهنا ناحية النهر ، كانت الصخور والرمال والسماء فى

أوجها . وبعد أن كان هناك حشد كبير من الناس لا نجد الآن شخصا واحدا . وكانت أشجار النخيل تهز هاماتها ، وطيور الحمام قد غلبها النعاس ، والمدينة الطينية ترقد في الشمس . وحتى أم الفقيد بارحت المكان الذى كانت تنوح فيه وتركت ابنها ليرقد فى سكون الصحراء .

ومضينا لكى نشاهد قبره . وكان الرمل الذى أهيل فوقه حديثا ، غامق اللون بالنسبة لبقية الرمال المحيطة ، ولولا آثار الأقدام لما استطعنا أن نميز القبور الحديثة من تلك القديمة فكلها متشابهة . وقد وجدنا بعضها غائرا أكثر من غيره فحددناه بأحجار كبيرة ثم ملأناه بالزلط المتعدد الألوان . وكان منها قبر واحد أو اثنان محددين بحائط من الطين . وعلى رأس القبور جميعها آنية من الطين . وكنا أينما شاهدنا منطقة مدافن فى النوبة ، نـرى هذه الآنيـة فوق القبور . وقيل لنا ان النائحين كانوا ينوحون عندها لمدة أربعين يوما ويحضرون خـلال هذه الفترة كل يـوم جمعة ، ويملأون هذه الآنية بالماء الذى تشرب منه الطيور . وكانت الآنيه التى على القبور الأخرى جافة ومملوءة بالرمل ، ولكن الاناء الجديد كان ممتلئا . وعندما لمسنا الماء الذى كان فيه وجدناه ساخنا .

ووجدنا السيد (ل) والزوجين السـعيدين واقفين عند الخليج وظهورهم مسـتندة الى شجرة لبخ كبيرة ، محاطين بزحام ضخم وأبعـد ما يكونون عن الراحة . ولابد أنهم مروا على « الأسـواق » متظاهرين بالاستعداد للشراء ، ولذلك حضر اليهم جميع السكان حاملين كافة الحصر والسلال وخزامات الأنف والخواتم والقلائد والأساور فى المكان الذى يقفون فيه . ولما شاهدنا الضيقة التى كانوا فيها أسرعنا الى الذهبية وأرسلنا ثلاثة أو أربعة من البحارة لنجدتهم فأحضروهم منتصرين .

انك لا تستطيع أن تتجول على الشاطىء بدون حراسـة حتى فى مصر ، فقد تعود الناس على الالحاح ولكن من الممكن ابعادهم الى مسافة معقولة . أما فى النوبة حيث لم تكن حياة السياح آمنة منذ خمسين عاما مضت ، فان الانجليز الذين بدون حماية يتجمع حولهم الغوغاء بشكل غير مقبول . أما المواطنون فما زالوا فى حقيقة الأمر مجرد متوحشين ، والطباع القديمة مختفية تحت قشرة رقيقة من الاسلام .

وكانت بعض النساء اللائى تبعن أصدقاءنا الى المركب بالرغم من لون بشرتهن الأسود ، مثل بقية النساء يتميزن بعيون زرقاء صافية ،

وشعر أحمر مما جعل أشكالهن تثير الخوف . ويوجد هنا وفي أبريم الكثير من هذه العائلات ذات البشرة الفاتحة اللون ، ويقال انها تناسلت عن آباء من البوسنة كانوا قد أقاموا في النوبة منذ الهزيمة التي لحقت ببلادهم على أيام السلطان سليم سنة ١٥١٧ ميلادية . وتتفاخر هذه العائلات بدمائها الأجنبية وتظن بناتها أنهن جميلات .

وبعد أن ركبنا جميعا المركب ونحن سالمون ، أبحرنا في الحال تاركين حوالي مائتين من الباعة الساخطين واقفين على الضفة ، وهم يشيعوننا بصياحهم الذي يعبر عن الاستياء . لقد ظن الذين باعوا والذين لم يبيعوا أنهم قد تعرضوا جميعا لعدم التوفيق والخراب والخداع . لقد اندفعت احدى النساء تجري بطول الضفة وهي تصرخ وتضرب صدرها لأنها استطاعت من دون البائعين أن تبيع الدلاية الذهبية التي تتدلى فوق الحاجب بثمن مرتفع ولكنها تشعر الآن بالحزن لفقدها . وكثيرا ما كان يحدث أن الباعة الذين أبدوا استعدادهم للبيع ، يعودون فيندمون على المساومة ، بالرغم من أن جشعهم يفوق حبهم للمظاهر . وقد تأثرت مرة أو مرتين ببكاء بعض الفتيات السود اللائي ربحن ربحا معقولا من بيع قلائدهن ، ولما عرضت عليهن الغاء الشراء ، اتضح أنه بالرغم من دموعهن فانهن يفضلن الاحتفاظ بالنقود .

وكانت أشجار النخيل في قرية الدر والمنطقة الغنية التي وراءها من أفخر الأنواع التي رأيناها خلال الرحلة كلها ، فقد كانت مستقيمة وقوية ووافرة الثمار ، وكان متوسط ارتفاعها يصل الى ما بين سبعين الى ثمانين قدما . وهذه النخلات الفاخرة تمد مصر كلها بالشتلات ، وتساهم في زيادة الدخل القومي بسبب ما يفرض عليها من ضرائب ضخمة ، أما البلح الذي يجفف في الشمس ، وينكمش سطحه الخارجي فيرسل الى الشمال بكميات كبيرة .

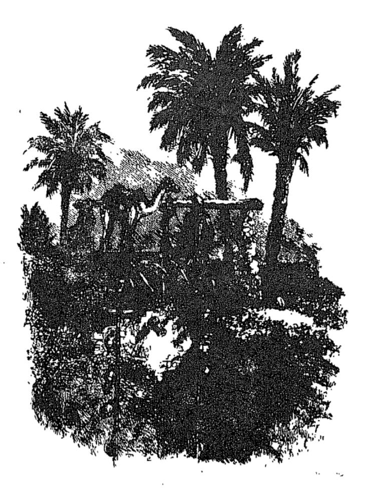
ويقوم المواطنون بزراعة أشجار النخيل في دأب شديد ، ويعود اكتمال نجاح عملهم هذا الى الري الغزير والمناخ المناسب . ويحيط بساق كل نخلة خندق دائري يمتلئ بالماء الوارد اليه عن طريق قناة صغيرة يبلغ عرضها حوالي ١٤ قدما . وتقف كل مجموعة من النخلات داخل شبكة من هذه المجاري الصناعية . وتمد الساقية الخزان الذي تخرج منه هذه القنوات بالماء . والساقيه آلة بدائية وجميلة المنظر ، تتكون من عجلتين احداهما موضوعة رأسيا على النهر وقد ربطت بها سلسلة دائرية من الجرار ، أما الثانية فهي ترس أفقي يديره في بعض الأحيان جمل ، وفي

أحيان أخرى جاموسة · أما الجرار (التى تهبط فارغة وتغس فى الماء ثم ترتفع ممتلئة بالماء) فانها تغذى حوضا منحدرا يمد خزانا بالماء فى بعض الأماكن ، وفى بعضها الآخر يتصل مباشرة بقنوات الرى · وتعمل هذه السواقى بشكل مستمر وهى موضوعة فى أعلى قرية الدر بكثرة ، حتى ان المؤلفة أحصت خمس عشرة ساقية فى خط واحد ، وعلى مدى ميل واحد ولا شك فى وجود العديد منها على الضفة الأخرى ·

وتصدر السواقى صريرا عاليا يرتفع صوته الى طبقات غير محدودة من النغم · وتبدأ الدوران من الفجر حتى هطول الندى ، ومن هطول الندى الى الفجر وهى تصر وتعوى وتحتك وتئن وتنعق · وبعد حلول الظلام يسمع صوت السواقى وهى تجاوب احداها الأخرى ، ويجعل تردد صوتها الحزين الليل مرعبا بشكل يستحيل معه النوم · ولما كنا قد رسونا مضطرين على بعد أميال قليلة من قرية الدر ، فقد عانينا من السهر مدة تصل الى نصف الليل ، ولذلك عرضنا على عامل الساقية دولارين اذا ترك ساقيته لتستريح حتى الصباح ، ولكن كان الزمن والماء خلال هذا الفصل أغلى من الدولارات ، ولذلك رفض الرجل المبلغ ولم تفعل شيئا سوى الانتقال بالمركب الى منتصف النهر ، والبقاء فى نقطة نقع على بعد متوسط من أقرب ساقيتين ·

ويحب المواطن هنا نخلته التى تكلفه الكثير من الجهد ، وينظر اليها بوصفها قمة انجازات الخليقة · **وتقول أسطورة عربية ان الله عندما خلق الانسان الأول احتفظ بقطعة صغيرة من الطين صنع منها النخلة ·** وتعتبر هدايا البلح مقدسة بالنسبة للنوبى الفقير ، لأنها تقدم الطعام لأطفاله ، والسقف لكوخه ، وألواح الخشب لساقيته ، والحبال والحصر والأطباق والأوعية وحتى المشروب القوى الذى تحرمه تعاليم الاسلام · والخمر المصنوع من البلح (العرقى) لونه أبيض ضارب الى الصفرة مثل الويسكى ، وهو ليس مثل الويسكى ، ولكنه خلاصة ذات قوام غليظ وطعم ملتهب غير مستساغ ·

وهناك أشجار معينة مثل شجرة الصنوبر الصغيرة التى تنمو فى غابات ألمانيا وتلقى الواحدة منها كل عناية ، ولكن لا أحد يهتم بالنخلة · ان النخلة الواحدة أو المجموعة من أشجار النخيل رشيقة ومثيرة دائما وهى كبيرة القيمة بالنسبة للرسام الذى يرسم لوحاته على شاطىء النيل ، لأنها تكسر الخطوط العرضية الطويلة للنهر والضفتين ، وتتوافق مع الخطوط الحادة للعمارة المصرية بشكل لا توفره أية شجرة أخرى فى العالم ·



الســـاقية

لقد قال أحـــد الفنانين البارزين لمؤلفة هذا الكتاب فى يوم ما : « الموضوعات حقا . ان ما يقال عن الموضوعات هو كلام فارغ ! ان الفنان الصادق يستطيع تكوين لوحة من مجرد عمود وحفرة ضحلة تمتلىء بماء المطر » .

لنعتبر النخلة اذن هى العمود ثم نربط بينها وبين أول ما يخطر على بالنا ، وليكن جملا أو شادوفا أو امرأة تحمل جرتها على رأسها ، فتصبح اللوحة كاملة أمامك .

وفى البداية لم يعجبنى شيء أكثر من النخيل الذى اعتاد رسامو المناظر الطبيعية الشرقية أن يرسموه بلون أزرق غامق مثل لون ورقة الصـــبار Yucca ان سـعف النخيـــل رقيق ولامع ، ولونه خليط من

الرمادى والأخضر مثل لون البحر · ومن الصعب محاكاته الا أنه يتوافق مع لون السماء المشرق الرائع ، ولون الصحراء الذهبى ·

وقد ظلت مزارع النخيل مصاحبة لنا عدة أميال ، وكانت تحدها من ناحية الصحراء الشرقية سلاسل طويلة من صخور الحجر الرملى التى تتخذ شكل طبقات أفقية مثل تلك الموجودة فى طيبة · والآن أصبحنا لا نرى القرى الا نادرا ، ولكننا كنا نرى فقط النخيل والسـواقى والضفاف الرملية على نهر النيل·كانت القرى هناك ، ولكنها غير مرئية لأنها مبنية على حافة الصحراء ، لأن الأرض القابلة للزراعة ذات قيمة كبيرة فى النوبة سواء للمعيشة عليها أو لدفن الموتى فيها ·

وشاهدنا فى أبريم لعدة دقائق ، حطام صرح كان قائما على حافة جرف عال ، وذلك عندما ذهبنا لشراء خروف صغير ذى فروة كثيفة أتى به أصحابه الى منطقة المرسى بغرض البيع · ولكننا لحظنا النسيم الذى أخذ يهب حينذاك فأردنا أن نتسلق الصخرة لمشاهدة المنظر والخرائب التى كان بعضها حديثا ، وبعضها الآخر ذا طابع تركى ، والبعض الأخير رومانيا ، والقليل منها مصريا ·

وهناك أيضا بعض الكهوف المنحوتة والملونة التى تظهر فى الجانب الجنوبى للجبل · وكان ارتقاؤها صعبا بالنسبة للسيدات ، ولكن تم جذب ألفريد ــ الذى ذهب الى الشاطىء بحثا عن طيور السمان ــ اليها مربوطا بالحبال ، ولكنه وجدها مشوهة الى الدرجة التى تجعلها لا تستحق مشقة المشاهدة ·

وأصبحنا الآن على بعد ٣٤ ميلا من أبى سنبل ، ولكننا كنا نتقدم ببطء ونحصى كل قدم نقطعها من الطريق · وكانت الحرارة شديدة فى بعض الأحيان مع هبوب نفحات من رياح الخماسين التى كانت تتعاقب ساخنة مما ضايق الرجال الذين كانوا يسحبون المركب · واستمر تقدمنا لمسافة عدة أميال فى كل مرة حتى اختفت الصخور ذات القمم المسطحة تدريجيا ، وتبعتها مرة أخرى القمم البركانية التى ظهرت أعلى من تلك التى حول الدكة أو كوروسكو · ثم أخذت مزارع النخيل فى الزوال ، وضاق حزام الأرض المزروعة حتى أصبح مثل خيط أخضر بين الصخور وحافة الماء · وفى النهاية حل المساء عندما كنا نريد فقط رياحا تكفى لعبور انحناءتين أو ثلاث انحناءات من النهر ·

وسألنا للمرة العشرين قبل أن نهبط لتناول العشاء : « هل سنصل الى أبى سنبل الليلة ؟ » ·

وكان الريس حسن يجيب قائلا : « أيوه » •

ولكن المرشد كان يضيف قائلا : « بكرة » •

وعندما صعدنا مرة أخرى كان القمر قد لاح ، ولكن الرياح انخفضت سرعتها ، ولكننا ما زلنا نتحرك مسوقين برياح ضعيفة لدرجة أن الانسان لا يشعر بها ، وسرعان ما اختفت هذه الأخرى ، وتم طى الشراع ، وأدار المرشد المركب نحو الشاطىء ، وأعطى القبطان الأمر بالارتفاع عندما أدت هبة ريح مفاجئة قادمة من الشمال الى تغيير طالعنا ، ودفعتنا للخروج مرة أخرى الى وسط النهر بشراع ممتلىء بالهواء •

ولن ينسى أحد منا الاثارة المتواصلة خلال الساعات الثلاث التالية • وعندما أخذ القمر فى الارتفاع انتشر نور أكثر غرابة ، ومختلفا عن نور النهار ، على الامتداد المتسع للنهر والصحراء • واستطعنا مشاهدة جبال أبى سنبل وهى ترتفع على مسافة بعيدة عبر مسارنا • لقد رأينا الجبل المنخفض فى البداية ، ثم الجبل الأكبر ، ثم سلسلة من المرتفعات المنحدرة الى الخلف • وكانت جميعها متجاورة ولكنها منفصلة •

كان الجبل الأكبر هو جبل المعبد الكبير الذى يقف فى مواجهتنا مثل تعويذة • لقد ظهر لفترة طويلة مجرد جبل مثل بقية الجبال ، ولكننا تخيلنا رويدا رويدا أننا اكتشفنا شيئا ــ انه ظل ــ كما لو كان دعامة ضخمة • ثم ظهرت بقعة سوداء لا يزيد حجمها عن حجم نافذة القمرة فى السفينة • واستنتجنا أن هذه البقعة السوداء لابد وأن تكون هى المدخل ، وعرفنا أن التماثيل العظيمة كانت هناك رغم أنها لم تظهر بعد ، ولكن لابد لنا أن نراها •

وفى نفس الوقت شعر بحارتنا ببهجة الوصول قبـل الآخرين • وكانت الذهبية باجستونز وثلاث ذهبيات أخرى تتبعنا فى مسار ضوء القمر • وكانت أنوارها الصفراء تلمع مثل المنارات الضوئية فوق سطح الماء • وكانت أقربها الينا على مسافة تبلغ ميلا تقريبا• أما الأخيرة فكانت مثل شرارة على البعد • ولم تكن فى الحالة التى تسمح بالاهتمام بالتسابق فى هذه الليلة ، ولكننا كنا حريصين على وجودنا فى المقدمة ووصولنا أولا الى موقع المرسى •

وكان الصعود على الشاطىء الرملى الغارق فى النهر يشبه فى مثل هذه اللحظة الغرق المفاجىء في ماء بارد • لقد خفق شراعنا بشكل غريب ،

واندفع الرجال الى العصى الطويلة التى تنغرز فى قاع النهر لدفع المركب الى الأمام ، فقفز أربعة منهم على السطح ودفعوا العصى بكل قوة أكتافهم ، وفى نفس الوقت نزلنا نحن الى القوارب الأخرى التى استطعنا أن نتقدم بها لمسافة نصف ميل ، وبذلنا جهدا كبيرا لمنع هذه القوارب من الضغط على كعوب أقدامنا • وبعد أن درنا حول الركن الأخير ظهر المعبد الكبير مرتفعا فى مواجهتنا • أما الواجهة التى كانت غارقة فى جانب الجبل مثل صورة ضخمة داخل برواز كبير ، فقد صار من السهل رؤيتها الآن • ولم تعد البقعة السوداء فى مثل حجم نافذة القمرة بل ظهرت فى حالتها الطبيعية بوصفها بوابة ضخمة •

وأخيرا ظهرت التماثيل الأربعة الضخمة كالأشباح ، باهتة ومكللة بالظلال فى ضوء القمر الساحر وذلك بالرغم من الليل ، ومن بعدها عنا بمسافة لا تقل عن ميل • وحتى عندما كنا نراها ، كانت تظهر وكأنها تكبر وتتسع وتتحرك نحونا قادمة الينا على هذا البعد •

وكان الوقت يقترب من نصف الليل عندما وصلت فيلة عند المعبد الكبير • واقتنعنا بما شاهدناه عن طريق النهر فذهبت بقية المجموعة للنوم فيما عدا الرسام والمؤلفة اللذين لم يصبرا حتى الصباح ، ولذلك قفزا الى الشاطىء وأخذا فى تسلق الضفة قبل أن يتم ربط حبل المرسى جيدا •

وذهبا ووقفا عند أقدام التماثيل الضخمة على عتبة ذلك المدخل الكبير الذى خيم الظلام خلفه • وكانت التماثيـل الضخمة ترتفع فوق رأسيهما مثل الأبراج العالية • أما صفحة النهر فكانت تلمع على البعد مثل لوح من الصلب • وكان السـكون الشديد يغلف الهواء • ونجم الصليب الجنوبى يرتفع فى اتجاه الشرق أما بالنسبة لهذين الغريبين اللذين وقفا يتحدثان بأنفاس مقطوعة ، فقد أحسا بأن ظروف الوقت والمكان وحتى صوت حديثهما أبعد كثيرا عن التصديق • وشعرا كما لو كان الواجب يقتضى تلاشي المنظر كله فى ضـوء القمر واختفاءه قبل قدوم الصباح •

الفصل الخامس عشر

رمسـيس الأكبر

كان رمسيس الثانى وسيظل دائما هو العلامة المركزية فى التاريخ المصرى • وهو ينال هذه المكانة بالشرعية مرة وبالصفة مرة أخرى • ولقد ولد ليكون عظيما فنال العظمة ، واشتهى العظمة فشقت طريقها اليه ، وكان قدره الوحيد ليس فقط أن يغتصب العظمة بعد الوفاة ، بل أيضا أن ينسى اسمه الشخصى ويذكره الناس عن طريق مجموعة من الأسماء المستعارة مثل سيسوسيس ، وأوسيمانديا‌س ، وسيزوستريس • لقـد صار مرتبطا على مدار الزمن بكافة أعمال أبطال الدولة الحديثة التى بدأت بتحوتمس الثالث الذى سبقه بثلاثمائة عام وانتهت بشاشانق الذى استولى على القدس والذى عاش بعده بعدة قرون • وعلى كل حال فقد قام العلم الحديث باصلاح هذا الظلم عندما كشف عن السلسلة الطويلة من الأسماء المنسية لعظماء الملوك ، مما ساعدنا على أن نرد الى كل منهم الأمجاد التى تخصه • ونحن نعرف الآن أن بعض هؤلاء الملوك كانوا غزاة أعظم من رمسيس الثانى ، ولا نشك فى أن بعضهم كانوا حكاما أفضل • الا أن البطل الشعبى احتفظ بمكانته • وما فقده بالتأويل من ناحيـة ، ناله بالتأويل من الناحية الأخرى • وسيظل رمسيس بطل البردية الثـالثة السافرة ، والفرعون الذى يمثل سلسلة من الملوك الذين يغطى تاريخهم فترة زمنية تقدر بخمسين قرنا ، والذين امتدت حدود امبراطوريتهم يوما ما من بين النهرين الى الحدود الجنوبية للسودان •

ويبدأ الاهتمام برمسيس الثانى من منف ، ويمضى فى الازدياد على طول الطريق مع نهر النيل • انه اهتمام حى وشخصى مثلما يحس الانسان فى أثينا بعظمة بركليس ، أو فى فلورنسا بعظمة لورنزو • أما بقية الفراعنة فلا يثيرون الخيال الا قليلا • ان تحوتمس وأمنحوتب يمثلان ما يمثله دارا أو أرتاكسيس — ظلالا تأتى وتذهب على البعد • أما بالنسبة لرمسيس الثانى فاننا نعرفه المعرفة التي تستحق الاحترام • اننا نعرف الرجل

ونحس بوجوده ونسمع اسمه فى الأجواء • وملامحه معروفة لدينا مثل ملامح هنرى الثامن أو لويس الرابع عشر ، ويواجهنا خرطوشان يمثلان اسمه فى كل جولة • وحتى بالنســـبة لهؤلاء الذين لا يعرفون الحروف الهيروغليفية فان هذه العلامات المعروفة تنقل اليهم اسم رمسيس محبوب آمون بقوة خارقة (١) •



خرطوشا رمسيس الأكبر

وما دام الأمر كذلك ، فان السائح السيىء الاعداد هو الذى يذهب الى مصر وليس لديه ما هو أكثر من مجرد المعلومات الواردة فى كتب الارشاد السياحى عن رمسيس الثانى ، لأنه يكون مثل من رضى بقراءة المناقشة دون أن يقرأ القصيدة ، انه لا يرى فى خرائب منف وروعة طيبة المهشمة ، الا ما يثير الرثاء المعتاد على الخرائب المعتادة • أما فيما يخص (أبو سنبل)

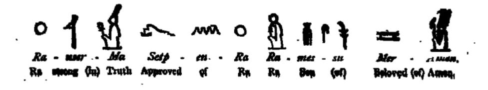
---

(١) أورد مسيو شاباس هذه الألقـاب باللاتينية وهى :

Sol dominus vertitatis electus a sole, solgenuit eum, amans Ammonem.

وترجمتها هى : شمس الحقيقة ــ مختار الشمس ــ ابن الشمس ــ محبوب آمون •

واليك النص الهيروغليفى :



الذى يمثل أروع سجل تاريخى انتقل من الماضى الى الحاضر ، فانه لا يذكر للسائح الا جزءا من الحقيقة • وعندما يصل الى مجرد الخيط الذى يظهر من الشرح ، فانه يتجول من قاعة الى قاعة مفتقدا بهجة الارتباط بالماضى الذى لا يستطيع أى مؤلف من نوعية موراى أن يشرحه • ويصبح مثل السائح الفرنسى الذى يتجول شريدا خلال قاعات كاتدرائية وستمنستر آبى فى لندن تحت توجيه أحد شمامسة الكاتدرائية ، فلا يحيط الا بمفهوم غير واضح عن المغزى التاريخى للأشياء التى يشاهدها • وما يقال عن هذا السائح الفرنسى يقال كذلك عن هؤلاء الذين يأخذون معلوماتهم عن الرحلة عبر نهر النيل عن طريق كتب الارشاد السياحى • واذا أرادوا أن يفهموا شـيئا من وصـف أبى سنبل فعليهم أولا أن يعـرفوا شـيئا عن رمسيس الثانى • دعنا اذن ننتهز فرصة وجود فيلة راسية فى صخرة ابشك (١)، لكى نستعرض باختصار شديد الحقائق الأساسية عن هذه الفترة ذات الأهمية • وسنورد هذه الحقائق كما هى مدونة فى النقوش والبرديات وغير ذلك من الآثار المعاصرة •

كان رمسيس الثانى (٢) هو ابن سيتى الأول ، أحد فراعنة الأسرة التاسعة عشرة من الملكة توى التى تصفها الآثار بأنها « الزوجة الملكية ، والأم الملكية ، ووارثة وشريكة العرش » ومن المفروض أنها تعود الى النسل الملكى من الأسرة السابقة وعلى ذلك ، فمن حقها أن تسبق زوجها فى ارتداء التاج المزدوج • ويبدو أن رمسيس الثانى قد ولد عن طريقها ، مساويا لزوجته فى المكانة ان لم يكن مساويا لها فى قوتها • وتحددت حقوقه بالاشتراك مع أبيـه سيتى الأول الذى منحه السلطات الملكيـة والصفات القدسية منذ لحظة ولادته ، أو كما يقول المؤرخون المصريون عندما كان (ما يزال فى البيضة) ويذكر النقش المقدس الموجود فى معبد أوزوريس

---

(١) ابشك هو الاسم الهيروغليفى لمدينة أبى سنبل •

(٢) من الصعب فى الترتيب الزمنى المصرى حاليا تحديد تاريخ تقريبى للأحداث التى حدثت قبل غزو قمبيز ، فليس لدى المصريين فى الحقيقة ترتيب زمنى بالمعنى المعروف للكلمة • ولقد اتخذوا ميلاد السيد المسيح نقطة مرجعية ، وأحصوا أحداث كل فترة من بداية ظهور السلطة التى تنتمى اليها الأحداث • ولم يكن من الممكن تفادى حدوث الخطأ والارتباك مع تطبيق مثل هذا النظام ، فمن الصعب تحديد تاريخ ميلاد ووفاة رمسيس الثانى • كذلك فاننا غير متأكدين من تاريخ القرن المحدد الذى عاش فيـه ، ويفـرض ماربيت الذى اتخذ من القوائم التاريخية التى أوردها مانيثون قاعدة لحسابه ، أن الأسرة التاسعة عشرة قد حكمت خلال الفترة ما بين عامى ١٤٦٢ ، ١٢٨٨ ق•م ، وبنـاء على هذه الحسابات (التى تطول ٥٧ سنة هى فترة حكم رمسيس الأول وسيتى الأول) يعود حكم =

فى أبيدوس (١) كيف وضع أبوه الطفل الملكى بين يديه ، الذى لم يكن الا ولدا صغيرا ، وعرضه على الجماهير بوصفه ملكهم وطلب الى كبار ضباط القصر أن يتوجوه بالتاج المزدوج . ويذكر نفس النقش أنه كان قائدا عسكريا منذ ولادته ، وأنه بالرغم من كونه طفلا ، كان « يقود حراسه الشخصيين وكتيبة فرسان العجلات الحربية » ولكن لابد وأن تكون هذه مجرد ألقاب . وفى الثانية عشرة من عمره جلس على العرش الى جانب أبيه ، مع تحلل سيتى الأول التدريجى من الالتزام بمهام الحكومة . وفى خلال فترة تتراوح ما بين عشر الى خمس عشرة سنة أصبح رمسيس صاحب السلطة الكاملة بلا منازع . ومن المحتمل أنه كان فى سن الثلاثين عند وفاة والده . ومن هذا التاريخ يبدأ حساب سنوات حكمه الرسمى ، وبمعنى آخر نقول ان حكم رمسيس الثانى يحسب فى الوثائق الرسمية ابتداء من السنة التى انفرد فيها بالسلطة ، وهى أيضا السنة الأولى التى توفى فيها سيتى الأول ، وبذلك فهى تعتبر السنة الأولى من حكم ابنه وخليفته حسب ما ترويه النقوش الأثرية . وخلال السنوات الثانية والرابعة والخامسة لحكمه ، قاد بنفسه الحملات العسكرية الى سوريا . وقد دونت أخبار العديد من انتصاراته على الألواح المنحوتة فى الصخر على نهر الكلب بالقرب من بيروت . وانه كان معروفا فى ذلك الوقت بوصفه المقاتل الجبــار كما هو مدون على لوح دكه الذى يعود تاريخه الى السنة الثالثة ويصفه بأنه رهيب فى المعركة « الثور القوى ضد أثيوبيا . أما هؤلاء الذين كانوا يعملون تحت الأرض فقد سيقوا للعمل بدون أن يطلقوا سيقانهم للريح » . أما أحداث حملة السنة الخامسة (قام بها لكى يعيد الى طاعته قبائل سوريا وبين النهرين الثائرة) فهى مذكورة فى قصيدة بنتاؤور . وفى هذه الحملة خاض معركته التى استخدم فيها

= رمسيس الثانى الى سنة ١٤٠٥ ق.م ويحـدد بروجش فترة حكمــه ما بين ١٤٠٧ ، ١٣٤١ ق.م أما لبسيوس فانه يجعل حكمه خلال الستين عاما المحصورة بين عامى ١٣٨٨ ، ١٣٢٢ ق.م. وقد أجريت هذه الحسابات جميعها قبل اكتشاف لوحة أبيدوس ، أما بانسين فانه يجعل بداية حكمه من ١٣٥٢ ق.م . وهناك اختلاف قدره ٥٥ عاما بين أكبر وأصغر هذه الحسابات كما يلى :

وفقـا لحسابات :	بروجش	١٤٠٧	ق.م.
	ماريت	١٤٠٥	ق.م.
	لبسيوس	١٣٨٨	ق.م.
	بانسين	١٣٥٢	ق.م.

(١) انظر كتاب ج. ماسبيرو فى باريس سنة ١٨٦٧ وعنوانه :
Essay sur l'Inscription Dédicatoire du Temple d'Abydos et la Jeunesse de Sesotris.

يديه ضد المهاجمين الذين تدفقوا عليه أمام كلا الجيشين تحت حوائط مدينة قادش • وبعد ذلك بثلاث سنوات حمل النار والسيف فى أرض كنعان • وفى عامه الحادى عشر استولى على قلاع عسقلان وأورشليم ضمن الأماكن الحصينة الأخرى وذلك حسب النقوش التى مازالت باقية فوق خرائب بوابات معبد الرمسيوم فى طيبة •

وينقلنا السجل المهم الثانى الى السنة الحادية والعشرين من حكمه • لقد مضت الآن عشر سنوات منذ سقوط أورشليم ، ومن المحتمل أن تكون قد حدثت خلالها حروب حدودية متقلبة مما أدى الى انهاك الجيشين ، فسعى الأمير خيتا سيرا أمير خيتا الى السلام (١) ، وحينذاك وقعت معاهدة مفصلة ورد فيها أن الأمير المذكور « ورمسيس كبير الحكام الذى يقيم حدوده حيثما شاء » يتعاهدان على اقامة حلف هجومى ودفاعى ، وتحقيق النوايا الطيبة ، والتآخى بينهما الى الأبد • وقد قيل لنا ان هذه المعاهدة قد نقشها الأمير الحيتى « على لوح من الفضة مزين بصورة سوتخ حاكم السماء العظيم » أما بالنسبة لرمسيس مر آمون فقد نقشت على حائط ملاصق للقاعة الكبرى فى الكرنك (٢) حيث بقيت الى اليوم •

وحسب آخر فقرة فى السجل الغريب ، يدخل الطرفان المتعاهدان أيضا فى اتفاق يقضى بأن يسلم كل منهما للآخر السياسيين الهاربين من كلتا الدولتين • ويعملان فى نفس الوقت على تحقيق سلامة الأشخاص المعارضين • وتقول المعاهدة : « أما الذى يتم تسليمه فلا يتعرض للقتل هو أو زوجاته أو أولاده ، وفضلا عن ذلك فانه لا يسمح بارتكاب أية جريمة ضده » (٣) • وتعتبر هذه النصوص أقدم نموذج مدون لمعاهدة تنص

---

(١) أمير الحيثيين حيث يعرف شعب خيتا الآن باسم : الحيثيين •

(٢) هذا السجل المهم محفور على قطعة بارزة من الحائط خصصت لهذا الغرض ، تقع على زوايا قائمة من الحائط الجنوبى للقاعة الكبرى بالكرنك • ويتجه وجه نص المعاهدة نحو الغرب ، وهى واقعة فى نفس المسافة بين النقش الغائر المشهور المتعلق بالملك شاشانق وأسراه ، ونسخة قصيدة بنتاؤور المحفورة فى الكرنك • وتقع الأولى فى غرب المدخل الجنوبى بينما تقع الأخيرة الى الشرق • وربما كان هذا الحائط الجنوبى وملحقه اللذان يبلغ طولهما معا حوالى ٢٠٠ قدم يمثلان أثمن قطعة من الأسطح المنقوشة فى العالم •

(٣) انظر كتاب : Trealy of peace between Ramses II and the Hittites ترجم المعاهدة من الهيروغليفية الى الانجليزية س• و• جودين ، ضمن سلسلة Records of the Past ـ المجلد الرابع ، ص ٣٥ •

على تسليم المجرمين • وهى جديرة بالاهتمام لأنها تصور مدى الاعتدال الذى تميز به القانون الدولى فى تلك الفترة •

وأخيرا فقد وضعت المعاهدة بين الدولتين تحت الحماية المشتركة لآلهة كل من البلدين « سوتخ اله خيتا ، وآمون اله مصر ، وكافة الآلهة التى يصل عددها الى ألف اله ، تمثل الآلهة الذكور والاناث ، وآلهة التلال والأنهار وآلهة البحر الكبير وآلهة الرياح والسحب ، وآلهة أرض خيتا وآلهة أرض مصر » •

يبدو الآن أن السلام المتفق عليه قد بقى سارى المفعول خلال بقية مدة حكم رمسيس الثانى الطويلة المدى ، ولم نسمع فى كافة الأحوال ، عن المزيد من الحروب • ونجـــد أن الملك قد تزوج أمـــيرة حيثيـــة اتخذت لنفسها اسم : ما ـ آت ـ ايرى ـ نفرو ـ رع • ومعناه « المتأملة فى محاسن رع » واختلفت بذلك مع آلهة بلدها • وقد وجدنا أيضا على الآثار اسمى اثنتين من الملكات هما نفرتارى واست نفرت •

ومن المحتمل أن تكون هذه الملكات الثلاث هن الزوجات الرئيسيات للملك رمسيس الثانى بالرغم من أنه كان لديه عدد ضخم من الحريم • وعلى كل حال فان عدد أفراد أسرته كما هو مدون على حوائط معبد وادى السبوع ، بلغ ما لا يقل عن ١٧٠ ولدا منهم ثلاثة أمراء • وربما كانت هذه أسرة صغيرة العدد بالنسبة لملك عظيم حكم منذ ثلاثة آلاف عام • ولابد أن لبسيوس قد رأى فى يوم آخر العجوز حسن ، كاشف قرية الدر وهو نفس الحاكم الصغير الذى أثار الكثير من المضـــايقات أمام بلزونى وبورخارت وغيرهما من الرحالة السابقين ، وكان بوصفه كبير العجائز فى أيامه زوجا لعدد من الزوجات بلغ أربعا وستين زوجة وأبا لما يقرب من ٢٠٠ ابن •

وقد عاش رمسيس الأكبر فى سلام مع جيرانه من دافعى الجزية على مدى ستة وأربعين عاما • وكان عصره طويلا وعظيما ، فقد أحب المدن الجديدة وفاخر بانشائها وشيد القصور ، وحفر الترع ، وبنى الحصون ، وضاعف أعداد التماثيل والمسلات والنقوش ، وأقام أكبر وأغلى المعابد التى تعبد فيها الانسان • وأضاف الى الآثار التى أقامها أسلافه اضافات عظيمة فاقت التصميمات التى كان فى نيتهم استكمالها • وحفر الآبار الارتوازية فى قاع الصحراء الحجرية ، واستكمل القناة التى بدأ أبوه فى حفرها ،

وشق طريقا مائيا بين البحرين الأبيض والأحمر (١) ولم يكن ليصعب عليه أى مشروع ، أو يتجاوز أى تصميم حدود طموحاته • وتقول لوحة الدكة انه « أشرف أثناء طفولته على الأعمال العامة ووضع أسسها بيديه » • وفى رجولته صار أعظم البنائين • أما عن مبانيه الضخمة فقد استطاع القليل منهـا أن يقـــاوم عوادى الأيام ، ولكن هذا القليل يمثل عجائب الدنيـــا •

ومن الصعب الآن تقدير تكلفة هذه الأعمال التى أنجزها لأن كل معبد ، وكل قصر ، يمثل مذبحة بشرية ، لأنه أجبر العبيد المستوردين من أثيوبيا ، وأسرى الحروب ، والمهاجرين السوريين الذين استقروا فى

---

(١) منذ تأليف هذا الكتاب قادتنى الدراسة المستمرة لهذا الموضوع للتخمين بأن سيتى الأول لم يكن هو المنشىء الفعلى للترعة التى أوصلت نهر النيل بالبحر الأحمر ، ولكنها الملكة حتشبسوت التى تنتمى الى الأسرة الثامنة عشرة ، ذلك لأن النقوش المحفورة على حوائط معبدها الكبير فى الدير البحرى تذكر بوضوح أن أسطولها أبحر من طيبـة الى بلاد بونت ثم عاد من بونت الى طيبـة محملا بمنتجات هذا القطر الغـامض الذى استنتج ماريت وماسبيرو أنه كان يقع على شواطىء الصومال بين باب المندب ورأس جاردافوى ، ولو لم يكن هناك فى ذلك الوقت طريق بحرى ممتد بين النيل والبحر الأحمر فمن المرجح أن تكون حملة حتشبسوت الاستكشافية قد أبحرت من طيبة فى اتجاه الشمال وهبطت فى النيل الى أحد مصباته وعبرت البحر الأبيض المتوسط بطوله وخرجت منه عند أعمدة هرقل وعبرت رأس الرجاء الصالح ووصلت الى ساحل الصـومال عن طريق بوغاز موزمبيق وسواحل زنجبار • وبمعنى آخر ، فان السفن الشراعية المصرية قامت بدورة كاملة حول القارة الافريقية مرتين • ومن الواضح أن هذا الاحتمال لا يقوم عليه دليل • وليس هناك طريق بديل الا وجود قناة أو سلسلة من القنوات التى تربط النيل بالبحر الأحمر • أو عن طريق ترعة وادى الطميلات التى ينسب حفرها الى سيتى الأول لأنه لم يكن هناك سبب آخر يبرر حفر هذه القناة التى تصل من النيل الى البحر والتى وجدت مرسومة فى نقش غائر على الحائط الشمالى الخارجى من معبد الكرنك العظيم الذى يعود الى عصره • ولكن مما لا شك فيه أن تكون الملكة العظيمة التى جلست على عرش الفراعنة هى التى تصورت أولا فكرة المغامرة بأسطولها للسفر فى بحر غير معروف وهى أيضـا التى أقامت القناة التى أبحرت هذه السفن عن طريقهـا ، وحسـب ما ورد فى الطبعـة الثانية من كتـاب سير ج• و• داوسون المسـمى : مصر وسوريا Egypt and Syria فان الدراسات الأخيرة التى قام بها الليفتنانت كولونيل أردغ Ardagh ، والميجور سبيت Spaight والليفتنانت بورتون وهم جميعا من المهندسين الملكيين « تؤكد أن هذا الوادى (تقصد وادى الطميلات) كان يجرى فيه يوما ما فرع من النيل كان يلقى بمياهه فى البحر الأحمر » وفى هذه الحالة فانه لو لم يكن هذا الفرع مستخـدما فى الملاحـة بالفعل فان الملكة حتشبسوت تكون قد احتاجت فقط لحفره ومن المحتمل أن تكون فعلت ذلك بالفعل •

(ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •

أذلتنا لخدمة الدولة • ونحن نعرف مقدار عناد العبرانيين ومدى وصولهم الى حافة اليأس التى قادتهم اليها الأعمال التى أجبروا على القيام بها • ولكنه حتى العبرانيين قد استخدمت ضدهم قسوة لا تجارى تلك التى استخدمت ضد الذين اختطفوا عبر الحدود من حيث قوتها ، وانتزعوا من بيوتهم بدون أمل فى العودة اليها ، ثم سيقوا فى أسراب الى المناجم والمحاجر وساحات صنع الطوب الأحمر • لقد عوملت هذه الفرائس المنكودة الطالع بطريقة لم تجعل هناك فرصة للفرار • لقد اقتيد الزنوج من الجنوب الى الشمال حسب نظام موضوع ، كما أن الأسرى الآسيويين قد نقلوا الى أثيوبيا • أما هؤلاء الذين كانوا يعملون تحت الأرض فقد سيقوا للعمل بدون راحة أو امهال حتى سقطوا فى المناجم وماتوا • أما القول بأن رمسيس هو الفرعون الذى استعبد العبرانيين (١) وأن مرنبتاح ابنه وخليفته كان هو فرعون الخروج (٢) فهو الآن ضمن الافتراضات المسلم بها فى علم

---

(١) انظر كتاب شاباس :

« Les circonstances de l'histoire hébraique s'appliquent ici d'une manière on ne peut plus satisfaisante. Les Hébreux opprimés batissaient une ville du nom de Ramsès. Ce récit ne peut donc s'appliquer qu'à l'tpoque où la famille de Ramsès était sur le trône Moise, contraint de fuir la colère du roi après le meurtre d'un Egyptien, subit un long exil, parceque le roi ne mourut *qu'après un temps fort long* ; Ramsès II renga en effet plus de 67 ans. Assitot après le retour de Moise commenca la lutte qui se termina par le célèbre passage de la Mer Rouge. C'est événement eut donc lieu sous le fils de Ramsès II, ou tout au plus tard pendant l'époque de troubles quit suivit son règne. Ajoutons que la Rapiditt des derniers événements ne permet pas de supposer que le roi eût sa résidence à Ihèbes dans cet instant. Or. Merenptah a précisément laissé dans la Basse-Egfpte, et spécialement à Tanis des preuves importantes de son séjour ». — De Rougé. *Notice des Monuments Egyptiennes du Rez de Chausste du Musée du Louvre*, Paris, 1857, p. 22.

« Il est impossible d'attribuer ni à Meneptah I, ni à Seti II, ni à Siptah, ni à Amonmesès un règne même de vingt années ; à plus forte raison de cinquante ou soixante. Seul, le règne de Ramsès II remplit les conditions indispensables. Lors même que nous ne saurions pas que ce souverain a occupé les Hébreux à la construction de la ville de Ramsès, nous serions dans l'impossibilité de placer Moise à une autre epoque à moins de faire table rase des resignements biliques. » — *Recherches bour servir à l'Histoire de la XIX Dynastie* : F. Shabas; Paris, 1873 ; p. 148.

(٢) القصة الواردة فى الكتاب المقدس والتى جرت مراعاتها ، تذكر الملك بلقبه (فرعون) مما يجعل من الصعب تحديد اسمه • ويورد بروجش اسم الملك عن طريق ذكر القابه :

« Plus généralement », says Brugsch, Writing of the royal titles, « sa personne se cache sous une série d'expression qui toutes ont le =

المصريات • ويتفق الكتاب المقدس مع الآثار حول هذه النقاط ، بينما تؤيدهما مرة أخرى البحوث الجغرافية واللغـوية الحـديثة ، ان « مدينتى الخزائن بيثوم ورعمسيس » اللتين بناهما الاسرائيليون للفرعون من الطوب الذى صنعوه ، هما المدينتان المذكورتان فى النقوش باسم باتوم وبارمسيس • وقد تعرف عليهما حديثا مسيو نافيل خلال حفائره التى قام بها فيما بين عامى ١٨٨٣ ، ١٨٨٦ لحساب صندوق اكتشاف مصر E.E.F.

ان اكتشاف بيثوم « مدينة الخزائن » القديمة الوارد ذكرها فى الكتاب المقدس فى الاصحاح الأول من سفر الخروج قد جذب الكثير من الانتباه العام • ونوقش على نطاق واسع بمعرفة العلماء الأوروبيين أكثر من أى حدث أثرى آخر منذ اكتشاف مدينة نينوى • كان ذلك فى شهر فبراير سنة ١٨٨٣ عندما فتح مسيو نافيل الرابية المعروفة باســم تل المسخوطة على الضفة الجنوبية من الترعة الجديدة بوادى الطميلات • وهناك اكتشف الأساسات والبقايا الأخرى لمدينة حصينة من النوع المعروف فى التاريخ المصرى باسم بخن Bekhen أو قلعة التخزين • واتضح أن مساحة هذه المدينة التى كانت محاطة بسور سمكه ٣٠ قدما تبلغ حوالى ١٢ فدانا ، وقد وجدت خرائب معبد بناه رمسيس الثانى فى أحد الأركان • أما بقية المساحة فقد شغلتها متاهة مكونة من سراديب مستطيلة تحت الأرض ، أو غـــرف للتخزين مبنيـــة من الطوب كبير الحجم المجفف فى الشمس • وتقسمها حوائط يتراوح سمكها ما بين ٨ الى ١٠ أقدام • وقد اكتشفت فى خزائن المعبد العديد من التماثيل التى تهشمت بعض أجزائها ومنها تمثال ضخم لصقر محفور عليه الخراطيش الملكية للملك رمسيس الثانى ، مع أعمال فنية أخرى يعود تاريخها الى أيام أوسركون

= sens de la « *grande maison* » ou du « *grand* palais », quelquefois au duel, des « *deux grandes maisons* », par rapport à la division de l'Egypte en deux parties. C'est du titre très frequent [hieroglyph] Per-aa, « la grande maison, » « la haute porte, » qu'on a heureusement dérivé le nom biblique *Pharao* donné aux rois d'Egypte. » — *Histoire d'Egypte* *BRUGSCH* : 2d edition, Part I, p. 35 ; Leipzig, 1875.

ومن المحتمل أن يكون ذلك هو اللقب الوحيد الذى سمح لطبقـة العامة باستخدامه فى الحديث أو الكتابة أثناء ذلك العصر • ومن الصعب أن نتجاهل ملحوظة بروجش التى نجدها مترجمة عن سفر التكوين (الأصحاح الخمسين الآية الرابعـة) التى تقول : « وبعدما مضت أيام بكائه ، كلم يوسف بيت فرعون قائلا : اذا كنت قد وجـدت نعمـة فى عيونكم » •• الخ •• الخ • ولو كان قد سجل ولو مرة واحدة خرطوش اسم أى من الفراعنة الثلاثة الذين عاصرهم لوفر بذلك الكثير من المتاعب التى يعانيها رجال الآثار والشراح •

الثانى ونختأنبو وبطلميوس فيلادلفوس · أما الأساطير الهيروغليفية التى نقشت على التماثيل فانها تحدد القيمة الحقيقية لهذا الكشف بما قدمته من اسم المدينة واسم المقاطعة التى كانت تقع فيها المدينة · وكان اسم المدينة هو باتوم (بيثوم) ومعناه « مسكن توم (أتوم) » واسم المقاطعة هو ثوكوت (سوكوث) وبذلك جرى تعريف باتوم التى فى مقاطعة ثوكوت بأنها بيثوم مدينة الخزائن التى بناها العبرانيون عن طريق السخرة ، كما أن سوكوث هى المنطقة التى أقاموا فيها أولا فى طريق مجيئهم من أرض العبودية · وحتى قوالب الطوب التى بنى بها الحائط الكبير وحوائط المخازن تحمل شهادة بليغة على تعب البؤساء الذين احتلوها وتثبت بأدق التفاصيل صحة سجل تسخيرهم : كان بعضها معجونا بالقش · وعند عدم ورود القش (التبن) كان البعض الآخر يخلط بأوراق البوص الموجود بكثرة فى مستنقعات الدلتا · وعندما كان يندر وجود البوص كان البعض الأخير يصنع بدون التبن فيعجن من الطمى ويجفف فى الشمس · وقد أظهرت أبحاث مسيونافيل فيما بعد أن معبد أتوم الذى أنشأه رمسيس الثانى قد أعاد بناءه أوسركون الثانى من الأسرة الثانية والعشرين فى نفس الوقت الذى جرى فيه اكتشاف بقايا حصن رومانى على مستوى أرضى أعلى من مستوى المعبد · وكانت مدينة بيثوم هذه مازالت ذات أهمية كبيرة فى عصر البطالمة دل عليها لوح تاريخى شديد الأهميـة وجده مسيونافيل فى احدى غرف التخزين التى كان قد ألقى فيها مع منحوتات أخرى ونوعيات مختلفة من القمامة · ويسجل هذا اللوح أنباء الاصلاحات التى أجريت على القناة ، وبعثة الى اثيوبيا ، وتأسيس مدينة أرسينوى · ولا يقل عن هذا اللوح فى الأهمية من وجهة النظر الجغرافية اكتشاف لوحة مسافات رومانية تعلن عن بيثوم بأنها تسمى هيروبوليس ، وهى المدينة التى ذكرت التوراة أن يوسف ذهب اليها لملاقاة أبيه يعقوب · وتبين هذه اللوحة الرومانية أن هناك تسعة أميال رومانية هى المسافة من هيروبوليس الى القلزم · وقد اكتشف سنيور جامورينى Gamurrini مؤخرا فى مكتبة اريزو مخطوطا يبين أنه منذ القرن الرابع الميلادى استخدم هذا الفضاء القديم الذى تحده الحوائط معسكرا للجيش فى العصر الرومانى · لقد كانت مدينة بيثوم الوارد ذكرها فى الكتاب المقدس معروفة للحجاج الأتقيـاء

بأنها « بيثوم التى بناها بنو اسرائيل » وأن المدينة المجاورة فى خارج المعسكر والتى أنشئت حينذاك داخل حدود مدينة بيثوم القديمة كانت تسمى هيروبوليس ، وأن مدينة بارمسيس كانت بعيدة عن بيثوم بحوالى عشرين ميلا رومانيا (١) .

أما فيما يتعلق بمدينة « بارمسيس » مدينة الخزائن الأخرى الخاصة بالخروج فقد تعرف اليها مسيونافيل بالحدس وليس بشكل ايجابى ، وهى رابية قرية صفط الحنة فى المكان الذى قام فيه بحفائره سنة ١٨٨٦ . أما صفط الحنة وهى « كيس » أو جوشين عاصمة اقليم « أرض جوشين » فقد برهن المكتشف مسيو نافيل على حقيقتها . ومن المحتمل أنها كانت معروفة أيضا فى عصر رمسيس الثانى باسم « بارمسيس » (٢) . وتوجد هناك بقايا معبد مبنى من البازلت الأسود يشتمل على أعمدة وأجزاء من بعض التماثيل وما شابه ذلك ، وكلها منقوش عليها خراطيش رمسيس الثانى وتبعد عن بيثوم بمسافة ٢٠ ميلا رومانيا .

---

(١) يعود الفضل فى الحصول على هذا المخطوط الى رحلة قامت بها سيدة فرنسية حوالى سنة ١٣٧٠ ميلادية للحج الى مصر وما بين النهرين والأراضى المقدسة . وهذا المخطوط منقول عن أصل أكثر قدما يعود تاريخه الى القرنين العاشر والحادى عشر وقد ضاع منه الكثير ولكن الأجزاء التى تصف عملية الحج من جوشن الى تانيس ثم الى القدس وانيسا وحاران ، مازالت سليمة وكاملة . وورد فيه عن بيثوم قوله :

« Pithona etiam civitas quam oedificaverunt filii Israel ostensa est nobis in ipso itinere ; in eo tamen loco ubi jam fines Egypti intravimus, religentes jam terras Saracenorum. Nam et ipsud nunc Pithona Castrum est. Heroun autem civitas quae fuit illo iempere, id est ubi occurit joseph patrisuo venienti, sicut scriptum est in libro Genesis nunc est comes sed grandis quod nos dicimus vicus ... nam ipse vicus nunc appellatur Hero. »

انظر الرسالة عن « Pithom-Heroopolis » التى وصلت الى الاكاديمية من مسيو نافيل فى ٢٢ مارس سنة ١٨٨٤ . وانظر كذلك مذكرة مسيو نافيل وعنوانها « The store city of pithom and the Route of the Exodus » (الطبعة الثالثة – نشرت بمعرفة جمعية صندوق اكتشاف مصر E.E.F. سنة ١٨٨٨) .

(٢) انظر مذكرات مسيو نافيل وعنوانها : Goshen and the shrine of saft el-Henneh – نشرتها جمعية صندوق اكتشاف مصر E.E.F. سنة ١٨٨٧ .

وفى بأرمسيس هذه انطلق رمسيس بجيشه لمحاربة الأمراء المجتمعين بآسيا الصغرى حيث وقع فى الكمين عند قادش (١) وهناك أحرز انتصاره العظيم فيما بعد • ويحكى كاتب معاصر اسمه بانبيسا Panbesa فى عبارات واضحة عن جمال وعظمة المدينة الملكية ، وكيف أن الفتيات كن يقفن على أبواب بيوتهن وهن يرتدين الملابس الخاصة بالعطلات الرسمية ، وفى أيديهن باقات الأزهار ، وعلى خصلات شعورهن الزيوت العطرية « فى يوم وصول اله الحرب فى العالم كله » • وهذه الرسالة محفوظة بالمتحف البريطانى (٢) •

وقد ورد فى خطابات أخرى أثناء فترة حكم رمسيس الثانى ذكر كلمة الاسرائيليين بطريقة مباشرة ، حيث ذكر الكاتب كا أوسر فى رسالته الى رئيسه (باك ــ ان ــ بتاح) أنه « خضع لخدمة تقديم التموين للجنود والخابيرو [العبرانيين ؟] الذين يقتلعون الأحجار لبناء قصر الملك رمسيس محبوب آمون » • وهناك وثيقة مشابهة كتبها كاتب يسمى قنى آمون Keniamon تحمل فى معظمها نفس الكلمات ، تذكر هؤلاء الخابيرو فى مناسبة أخرى بأنهم كانوا يقتلعون الأحجار لاقامة مبنى فى الجهة الجنوبية من منف ، ولابد أن محاجر طرة كانت هى المنطقة التى عملوا فيهـا •

وهذه الرسائل القيمة التى كتبت على أوراق البردى بالحروف الهيروغليفية فى حالة جيدة • وقد وجدت فى خرائب منف وتشكل الآن جزءا من كنوز متحف ليدن (٣) •

---

(١) قادش أو كادس مدينة على نهر الاورنت ــ انظر بحثا بعنوان « حملة رمسيس الثانى فى عامه الخامس ضد قادش على نهر الأورنت » •

«The campaign of Rameses the second in his 5th year against «kadesh on the Orontes

بقلم : ج• هـ• تومكنز فى مجلة The preceedings of the society of Biblical Archaeology عن سنتى ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ • وكذلك محاضر جلسات الجمعية ــ المجلد الثامن •

(٢) بردية أنستاس رقم ٣ بالمتحف البريطانى •

(٣) انظر كتاب Melanges Egyptologiques للعالم ف• شاباس ــ الطبعة الاولى سنة ١٨٦٢ حيث يذكر انه جرت مناقشات عديدة بين علماء المصريات حول تعريف شاباس للعبرانيين • وقد استشهد بالاسم الذى أطلق عليهم فى البرديات وايضا فى نقش موجود فى محاجر الجمامات والاسم هو الخابيرو Apir-u • وهناك بحث علمى منشور فى مجلة Revue Archaeologique (المجلد الخامس ــ الطبعة الثانية سنة ١٨٦٢) يقول :

... وهم يذكروننا بأحداث وشخصيات الكتاب المقدس حيث نرى العمال منهمكين في عملهم ، والملاحظين يبلغونهم بتعليمات مشرفي الأشغال العامة. انهم يستخرجون من المحاجر تلك الكتل الضخمة التي تثير دهشتنا حتى اليوم ، ثم يسحبونها وهي مربوطة الى زحافات بدائية نحو ضفة النهر ، حيث يقومون بتشوينها للنقل الى الضفة الأخرى (١) وكان بعضها شديد الضخامة وثقيل الوزن مما جعل نقلها الى موقع المرسى يستغرق شهرا (٢) . وكان هناك عمال آخرون في مكان آخر يقومون بصنع الطوب اللبن ، وحفر القنوات ، والمساعدة في بناء الحائط الكبير الذى كان يصل ما بين مدينتي بيلوزيوم وهليوبوليس ، وتقوية الاستحكامات ليس فقط

=...« La découverte du nom des Hébreux dans les hiéroglyphes serait un fait de la dernière importance ; mais comme aucun autre point historique n'offre peut-être une pareille séduction, il faut aussi se mfier des illusions avec un soin méticuleux. La confusion des sons R et L dans la langue égyptienne, et et le voisinage des articulations B et P nuirent un peu, dans le cas particulier, à la rigueur des conclusions qu'on peut tirer de la transcription. Néanmoins, il y a lieu de prendre en considération ce fait que les Aperiu, dans les trois documents qui nous parlent d'eux sont montrés employés à des travaux de même espèce que ceux auxquels, selon l'Ecriture, les Hébreux fureur assujettis par les Egyptiens. La circonstance que les papyrous mentionnant ce nom ont été trouvés à Memphis, plaide encire en faveur de l'assimilation proposée — découverte importante qu'il est à désirer de voir confirmée par d'autres monuments. »

ويضاف الى ذلك ان كلمة الخابيرو تظهر ايضا في النقش الخاص بالملك تحوتمس الثالث في الكرنك . كما افترض ماربيت أنهم شعب ايفون Ephon . وجدير بالذكر أن النقوش تذكر قبيلتين من الخابيرو . واحدة كبرى والثانية صغرى . وربما يعود ذلك الى أن بعض العبرانيين استقروا في الدلتا وبعضهم الآخر بجوار منف . ويظهر الخابيرو في نصوص أخرى بأنهم كانوا فرسانا أو مدربين للخيول . ويتعارض هذا مع القول بأن هذه التسمية قصد بها العبرانيون .

(١) انظر النقش الحائطي الموجود على التمثال الضخم المحمول على الزحافة والرسوم في الصورة التي في مواجهة العنوان الداخلي لكتاب سير ج. ويلكنسون : المصريون القدماء Ancient Egyptians) المجلد الثاني – طبعة سنة ١٨٧١ .

(٢) وجدنا في خطاب كتبه كاهن كان يعيش في ذلك العصر (عصر رمسيس الثاني) قصة مثيرة عن العيوب والمصاعب التي واجهت أنواع الحرف المختلفة والملاحقات التي حالت دون معاونة وتكريم أصحاب المناصب الكهنوتية . ويقول الخطاب عن العمال الذين يشتغلون في حرفة تحت الأحجار ما يلي :

« يصل مدى بؤسهم الى درجة التزام ستة عمال فقط بدفع كتلة من الحجر يبلغ طولها عشر أذرع وعرضها ست أذرع وهي كتلة يستغرق سحبها بين المنازل بالأساليب الخاصة مدة شهر » . (بردية ساليبه رقم ١١ بالمتحف البريطاني) .

في بيثوم ورعمسيس، بل في جميع المدن والقلاع التي تقع ما بين البحرين الأحمر والأبيض • وكانت مهمتهم صعبة ولكنها لم تكن أصعب من مهام العمـال الآخرين • وكان يقدم لهم غذاء جيد ، ويسمح لهم بالتزاوج والتناسل بحيث تتضاعف أعدادهم ، ولم يكن حينذاك قد حل الفصل الذى يواجهون فيه المعاناة • ولا يمكن إنكار حقيقة أنهم كانوا يصنعون الطوب اللبن ، وكان عليهم انجاز كمية محددة وتقديمها كل يوم (١) ولكنهم لما لم يتزودوا بالتبن تزايد حجم العمل واستحال انجازه أيضا • ونحن الآن في عصر رمسيس الثانى ، ومازال العصر الذى سيحل فيه من نبتاح محله بعيدا جدا ، ولم يستطع بنو اسرائيل أن يتنفسوا الصعداء حتى موت الملك « بسبب العبودية » •

ويوجـد فى المتحف البريطـانى ومتحف اللوفر والمكتبـة القومية بباريس ، بعض البرديات الأقدم زمنيا بالنسبة لهاتين البرديتين اللتين تضمهما مجموعة ليدن • يعود بعضها الى أيام يوسف الصديق ولكن ليس

---

(١) « لا تعودوا تعطون الشعب تبنا لصنع اللبن كأمس وأول من أمس • ليذهبوا هم ويجمعوا تبنـا لأنفسهم ومقدار اللبن الذى كانوا يصنعونه أمس وأول من أمس تجعلون عليهم لا تنقصوا منه (سفر الخروج ـ الأصحاح الخامس — الآيتان السابعـة والثامنة) ويقول مسيو شاباس :

« Ces détails sont complètement conformes aux habitudes Egyptiennes. Le mélange de paille et d'argile dans les briques antiques a été parfaitement reconnu. D'un autre côté, le travail à la tâche est mentionné dans un texte écrit au revers d'un payprus célébrant la splendeur de la ville de Ramsès, et datant, selon toute vraisemblance, du règne de Meneptah I. En voici la transcrpitiin : — « Compte des maçons, 12 ; en outre des hommes à mouler la brique dans leurs villes, amonés aux travaux de la maison. Eux à faire leur nombre de briques journellement ; non ils sont à se relâcher des travaux dans la maison neuve ; c'est ainsi qui j'ai obéi au mandat donné par mon maitre. » See *Recherches pour servir à l'Histoire de la XIX Dynastie*, par F. Chabas. Paris ; 1873. p. 149.

وهذا النص الغريب الذى ترجمه مسيو شاباس الى الفرنسية والمكتوب على ظهر البردية ، تم نسخة (خطاب من بانبيسا ـ بردية إتسـتاسى رقم ٣) وحـفظ بالمتحـف البريطانى • أما النقش الحائطى الموجود على حائط المقبرة التى فى طيبـة والتى تعود الى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وهو النقش الذى يصور الأسرى الأجانب الذين يخلطون الطمى ، ويصبونه فى القوالب ، ويجففونه ثم يصفونه فى صفوف : فهو نقش معروف من الصورة التى أوردها سير ج• ويلكنسون فى كتابه Ancient Egyptians طبعـة سنة ١٨٧١ ـ المجلد الثانى ـ ص ١٩٦ • وكذلك فان الصندوقين رقمى ٦١ ، ٦٢ من الحجرة المصرية الأولى بالمتحف البريطانى يحتويان على قوالب من الطوب المخلوط باللبن وعليها خاتم الملك رمسيس الثانى •

لها مثل هذه الأهمية ، لأن الكاتبين كا أوسر وقن أمون يظهران كما لو كانا على قيد الحياة ويتحدثان بما ورد في البرديتين ، وليس هناك شيء لم نذكره عن خطابيهما هذين ! لقد عرفا منف في أيام مجدها ، وتفرسا في وجه رمسيس الأكبر ولابد أنهما شاهدا موسى في عنفوان شبابه عندما كان يعيش في حماية الأم التي تبنته (ابنة فرعون) أميرا وسط الأمراء •

لقد عاش كا أوسر وقن آمون وماتا وحنط جسداهما خلال فترة تتراوح ما بين ثلاثة الى أربعة آلاف عام مضت • ولكن هذه القطع الصغيرة من البرديتين قد عبرت حطام العصور ، كما أن الكتابة الطريفة التي غطتهما واضحة لنا كما كانت بالنسبة للموظفين الذين وجهت اليهم • لقد كان المصريون يحبون العمل،وحرصوا على دقة تسجيل أعمال عمالهم وأسرارهم، وبناء على أقدم ما سجلته الآثار ، نجد نظاما بيروقراطيا مسهبا عن العمل في كافة أنحاء القطر • وحتى في أيام بناة الأهرام كان هناك مشرفون على الأعمال العامة ، ومفتشون للتفتيش على الأراضي والبحيرات والمحاجر ، وسكرتاريون ، وكتبة وملاحظون عديدون (١) • ولابد أن هؤلاء جميعا كانوا في حاجة الى حســاب مصروفاتهم ، والى تقارير عن الأعمال التي تم انجازها تحت اشرافهم • ولكن عينات السجلات المصرية التي سجلت فيها هذه الشئون نادرة • ويعتبر متحف اللوفر غنيــا في هذه النوعية من المذكرات التي يختص بعضها بتدوين تواريخ تحصيل الضرائب ، بينما يختص بعضها الآخر بنقل القمح ونظام فرض الضرائب الخاصة به • ويختص البعض الأخــير بدفع الأجور ، وكذلك بيع وشراء الأرض لاقامة المدافن ، وما شابه ذلك • واذا كانت قد وصلتنا من مصادر مصرية أنباء محددة وواضحة عن العبرانيين ، فمن المؤكد أنها جاءت عن طريق مثل هذه الوثائق •

(١) « Les affaires de la cour et de l'administration du pays sont expédiées par les « chefs » ou les « intendants », par les « secretaires » et par la nombreuse classe des scribes. ... Le trésor rempli d'or et d'argent, et le divan des depenses et des recettes avaient leurs intendans à eux. La chambre des comptes ne manque pas. Les domaines, les propriétés, les palais, et même les lacs du roi sont mis sous la garde d'inspecteurs. Les architectes du pharaon s'occupent de bâtisses d'après l'ordre du pharaon. Les carrières, à partir de celles du Mokattam (le Toora de nos jours) jusqu'à celles d'Assouan, se trouvent exploitées par des chefs qui surveillent le transport de pierre taillées à la place de leur destination. Finalement la corvée est dirigée par les chefs des travaux publics. » *Histoire d'Egypte*, Brugsch ; 2d edition, 1875 ; chap. v. pp. 34 and 35.

ويبدو أن الستة والأربعين عاما الأخيرة من حكم الملك رمسيس الثانى الطويل على غير العادة ، قد مرت فى سلام ورخاء مما أتاح له أن يتمتع بشهوته للحكم بدون انقطاع · ان وضع قائمة مصورة بأعماله الانشائية المعروفة قد تتعادل أهميتها مع كتابة بيان تفصيلى عن مصر واثيوبيا تحت حكم الأسرة الثامنة عشرة · ويبدو أن تصميماته كانت ضخمة كما أن وسائله غير محدودة · لقد ملأ البلد من الدلتا حتى جبل برقل بالآثار التى خصصها لبيان أوجه عظمته ولعبادة الآلهة · وقد ظهرت معالم عظمته التى لا تبارى على الآثار التى أقامها فى طيبة وأبيدوس وتانيس · أما فى النـوبة فى الأماكن المعروفة الآن مثـل جرف حسين ووادى السـبوع والدر وأبى سنبل فقد أقام المعابد وأنشأ المدن · وقد اختفت هذه المدن التى نفضل وصفها بأنها كانت عواصم كبرى ، ولولا ورود ذكرها فى النقوش المختلفة لما عرفنا شيئا عن مجرد وجودها ، مما يجعلنا نتساءل عن كيفية فناء الكثير منها دون أن تترك أثرا أو سجلا · وربما كانت هناك اثنتا عشرة مدينة تخص رمسيس مدفونة تحت بعض هذه الروابى التى لا نعرف أسماءها والتى تلى بعضها البعض فى سلسلة ممتدة بطول ضفتى النيل فى مصر الوسطى والسفلى (١) · وبالأمس فقط اكتشفت بالصدفة بقايا بناء عظيم مزين بأسلوب فريد تحت رابية تل اليهودية (٢) التى تقع على بعد اثنى عشر ميلا شمال شرق القاهرة ، ومن المحتمل وجود حوالى خمسين رابية من هذه الروابى التى لم تفتح بعد فى الدلتا وحدها · ولسنا نبالغ اذا تحدثنا عن وجود حوالى مائة رابية أخرى تقع فى المسافة ما بين البحر الأبيض المتوسط والشلال الأول ·

وقد وجد فى أبيدوس خلال السنوات الأخيرة نقش يبين أن رمسيس الثانى قد حكم مملكته العظيمة حوالى سبعة وستين عاما · ويقول رمسيس الرابع مقدما ذاته الى الاله أوزوريس : « انك أنت الذى ستمنحنى مثل هذا الحكم الطويل الذى حكمه رمسيس الثانى الاله العظيم على مدى سبعة

(١) ان قصة مدينة « بارمسيس » الواردة فى الكتاب المقدس تدل على انها لم تكن المدينة الوحيدة التى تحمل هذا الاسم ، فقد كانت هناك مدينة أخرى باسم بارمسيس تقع بالقرب من منف ، ومدينة ثالثة عند أبى سنبل وربما أقيمت مدن أخرى تحمل نفس الاسم ·

(٢) « تكشف البقايا عن قاعة ضخمة مبلطة ببلاطات من المرمر الأبيض · أما الحوائط فقد كانت مغطاة بتشكيلة من القوالب والقيشانى · أما القوالب فقد كان العديد منها رائع الصنعة وقد طعمت فيها الحروف الهيروغليفية المصنوعة من الزجاج أما تيجان الأعمدة فقد طعمت بالموزاييك الملون اللامع ، كما أحاط بالافريز خط من الموزاييك · =

وستين عاما • وأنت الذى ستمنحنى المدة التى استغرقها هذا الحكم العظيم » (١) •

واذا كنا قد عرفنا فى أى سن جلس رمسيس الثانى على العرش ، فاننا نستطيع عن طريق هذا النص أن نعرف أيضا السن التى مات فيها • ولم يصل الينا سجل عن هذا الموضوع،ولكننا توصلنا الى ذلك عن طريق مقارنة الفترة الطويلة التى استغرقتها أحداث هذا العصر ، وقبل كل شىء العمر الذى دلت عليه مومياء هذا الفرعون العظيم التى اكتشفت سنة ١٨٨٦ وهى تبين أنه عاش مائة عام •

وتقول لوحة الدكة : « أنت الذى وضعت التصميمات عندما كنت فى عمر الطفولة • لقد كنت ولدا يرتدى الازار ، وبدونك لم يقم أى أثر أو يوضع أى نظام • وكنت شابا عمرك عشر سنوات عندما كانت جميع الأعمال فى قبضة يديك وأنت واضع أساساتها » • وليس لدينا ما نضيفه الى هذه السطور التى ترجمناها حرفيا • وهى لا تتضمن شيئا يبين أن هذا الشاب الذى كان عمره عشر سنوات أصبح فى هذه السن ملكا منفرداً

= وقد طعمت بعض الأحجار بخرطوش رمسيس الثالث » ، انظر دليل موراى عن مصر ـ الفصل السابع ــ Murray's Handbook for Egypt ص ٢١٧ • وتحتوى الخزانة رقم D فى الغرفة المصرية الثانية بالمتحف البريطانى على العديد من بلاطات القيشانى هذه التى رسمت على بعضها أشكال الأسرى الأسيويين والزنوج والطيور والثعابين •• الخ وتمتاز جميعها بالروعة سواء من ناحية التصميم او التنفيذ • ولابد أن موراى قد أخطأ فى نسبة هذا المبنى الى رمسيس الثانى لان الخراطيش تخص رمسيس الثالث • وقد اكتشف بعض العمال هذه القاعة سنة ١٨٧٠ • **ملحوظة مضافة للطبعة الثانية** : كشفت عن هذه الرابية المقابر التى اجراها مسيو نافيل فى العام الماضى (١٨٨٧) ممثلا لجمعية صندوق اكتشاف مصر .E.E.F • انظر الملحق المضاف الى عدد مجلة The Illustrated London News بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٨٨٧ وهو يتضمن القصة الكاملة لحفريات تل اليهودية مع الرسومات •

(١) تمثل هذه اللوحة نذرا أو قربانا ، ويحتوى فى حقيقته على صلاة تعبدية قدمها رمسيس الرابع للاله أوزوريس فى السنة الرابعة من حكمه ، وفيها يعدد الملك فضائله الشخصية وأعماله الصالحة ، ويطلب من الاله أن يمنحه طول العمر • انظر مقالا عنوانه : Sur une stèle inédite d'Abydos بقلم ب• بيير نشر فى مجلة، Revue Archéologiqce المجلد التاسع عشر ، ص ٢٧٣ •

وحاكما لمصر وأنه كان منذ ولادته ملكا شرفيا حسب مفهوم الوراثة (١) أثناء حياة أبيه • وقد صار ذلك مؤكدا الآن ، ورغم كونه ولدا الا أنه قام بتصميم المباني العامة وأشرف على بنائها • وأن هذا المركز كان لابد من اسناده الى ولى العهد الذى كان يحب العمارة واتخذ منها مجالا لدراساته الخاصة • والحقيقة أن هذا المركز كان مركزا نبيلا لأنه كان يسند منذ أوائل الدولة القديمة الى أمراء تجرى فى عروقهم الدماء الملكية (٢) ، ولكنه لا يحمل فى حد ذاته دليلا على السلطة • ولذلك فاننا نسلم بأن لوحة الدكة هذه (التى يعود تاريخها الى السنة الثالثة لحكم رمسيس الثانى منفردا على العرش) تشير الى وقت طويل مضى عندما كان الملك ولدا يتقلد هذا المركز تحت رعاية أبيه •

ويشير نفس النقش كما رأينا الى الحملة المظفرة فى الجنوب ، ويذكر رمسيس بوصفه « الثور القوى ضد اثيوبيا ، والوحش الغاضب ضد

---

(١) أوضح مسيو ماريت فى كتابه الضخم عن ابيدوس أن الملك رمسيس الثانى قد اختص أثناء حياة أبيه بخرطوش يبين أنه فقط (أوسر — ماعت — رع) وأنه لم يتحصل على اللقب الاضافى (ستب — ان — رع) حتى وفاة أبيه الملك سيتى الأول • وعلى كل حال فان متحف اللوفر يتضمن قطعة من النقش الغائر تبين الولد رمسيس الثانى حاملا اللقب الكامل الذى حمله فى السنوات الأخيرة • وقد وصف مسيو ب• بيير هذه القطعة قائلا :

« Ramsés II enfant représenté assis sur le signe des montagnes *du* : c'est une assimilation au soleil levant lorsqu'il émerge à l'horizon celeste. Il porté la main gauche à sa bouche, en signe d'enfance. La main droite pend sur les genoux. Il est vétu d'une longue robe. La tresse de l'enfance pend sur son épaule. Un diadème relie ses cheveux, et un uraeus se dresse sur son front. Voici la traduction de la courte ltgende qui aécompagne cette réprésentation. « Le roi de la Haute et de la Basse Egypte, maitre des deux pays, *Ra-User-Ma Setpen-Ra*, vivificateur, éternel comme le soleil. » *Catalogue de la Salle Historique, P. Pierret. Paris*, 1873, p. 8.

ويرى مسيو ماسبيرو أن هذه القطعة تكشف عن الحقيقة التى أثير الجدل حولها وهى أن حكمه الفعلى قد بدأ منذ الطفولة وبذلك ينتهى هذا الاشكال — انظر :

المقال الرابع الذى نشره ج• ماسبيرو سنة ١٨٦٧ فى باريس ضمن سلسلة المقالات التى تحمل العنوان التالى :

l'Inscription dédicatoire du Temple d'Abydos, suivi d'un Essai sur la Jéunesse de sesostris.

(٢) انظر كتاب بروجش :

« Le métier d'architecte se trouvait confié aux plus hauts dignitaires de la cour pharaonique. Les architectes du roi, les *Murket, se* recurutaient assez souvent parmi le nombre res princes. » *Histoire d'Egypte* : *Brugch*. Second edition, 1875, chap. v. p. 34.

الزنوج » . وأن الأحداث التى ألمح اليها لابد وأن تكون قد حدثت خلال السنوات الثلاث الأولى من حكمه المنفرد وهو ما برهن عليه تاريخ اللوح . والحقيقة أن نقش أبيدوس العظيم يبين أن رمسيس الثانى قد قام بحملة فى اثيوبيا ، فى الوقت الذى وصله فيه خبر وفاة أبيه وأنه عاد فى النيل الى الى الشمال لكى يتم تتويجه فى طيبة (١) .

والآن ، فان النقوش المشـهورة التى كانت مرسـومة على الهيكل التذكارى فى معبد بيت الوالى تشير الى أحداث هذه الحملة . وقد نفذت النقوش بهذا الأسلوب الرفيع والرقيق الذى يجسده على وجه الخصوص النقش البارز فى القرنة وأبيدوس وكافة هذه المبانى التى أنشأها سيتى الأول ، أو بدأها سيتى وأكملت خلال السنوات الأولى من حكم رمسيس الثانى . واننى أجازف بالقول بأننى أعتبرها معاصرة له ، أو قريبة العهد من عصره . وعلى أية حال ، فانها مع المناظر التى تسجلها تدفعنا الى استنتاج أن الفنانين الذين قاموا بالعمل كانوا يعرفون شيئا عن الأحداث والأشخاص الذين جرى التعبير عنهم ، وأنهم أبرياء من الاتهام بعدم ابراز الأخطاء .

ويتبدد الشك كله حول ما اذا كانت التواريخ المتعلقة بحكم سيتى ورمسيس أو حكم الأخير المنفرد ، عندما نجد فى هذه النقوش (٢) أن الفاتح يصحبه ابنه الأمير آمون حرخبشف الذى كان فى السن التى تسمح ليس فقط بالقيام بدوره فى الميدان بل تجعله يقيم بعد ذلك احتفالا عظيما بمناسبة خضوع القائد الاثيوبى ودفعه للجزية ، وهذا الدليل الذى تقدمه النقوش البارزة الموجـــودة فى بيت الوالى ، وكذلك فان هؤلاء الذين لا يستطيعون الذهاب الى بيت الوالى يمكنهم أن يشاهدوا ويحكموا بأنفسهم عن طريق الأضواء العجيبة التى تطرحها هذه اللوحات العظيمة التى تغطى حوائط الغرفة المصرية الثانية بالمتحف البريطانى . ويصعب تفسير ما يتعلق بالأمير آمون حرخبشف ؛ لأننا تعودنا على اكتشاف قدر معين من المبالغة المهذبة من جهة هؤلاء الذين يسجلون بالقلم أو يرسمون فى لوحاتهم الأعمال العظيمة للفراعنة . اننا نتوقع أن نرى الملك على الدوام شابا وجميل المنظر ومنتصرا . والشىء الحقيقى والطبيعى أنه يجب ألا يقل طوله عن عشرين قدما ولا يزيد على ستين . ولكن الذى لا يمكن تصديقه هو أن

(١) انظر مقال ج. ماسبيرو وعنوانه :
L'Inscription dedicatoire du Temple d'Abydos, etc.

(٢) انظر كتاب روسيلينى : Monumenti Storici اللوحة رقم ٧١ .

يحاول أي متملق أن يمضي في تملقه الى درجة الاقرار بقدرات صبي في الثلاثين مع ابنه الذي يبلغ نفس عمره تقريبا ·

واخيرا فهذا هو الدليل من الكتاب المقدس :

« بعد موت يوسف وبقاء الاسرائيليين في مصر ، جاء الى العرش فرعون الذي شعر بخطورة زيادة أعداد هذا الشعب الأجنبي وبحث عن طريقة لوقف تزايدهم السريع · ولم يعمل فقط على اذلال هؤلاء الأجانب، بل أمر أيضا بأن يلقى في نهر النيل كل مولود جديد يرزقون به » · وهناك اجماع عالمي على الاعتقاد بأن هذا الفرعون هو رمسيس الثاني ، وتأتي بعد ذلك القصة القديمة العظيمة التي أوردها الكتاب المقدس وهي معروفة لنا جميعا · وتمت ولادة موسى ووضع في سفط من البردي ووضع بين الحلفاء على حافة النهر ، وأنقذته ابنة فرعون واتخذته ابنا لها · وبالرغم من عدم ذكر أية تواريخ فمن الواضح أن هذا الفرعون الجديد لم يكن قد مضى عليه في الحكم سنوات طويلة عندما حدثت هذه الأحداث · ومن الواضح كذلك أنه لم يكن مجرد شاب · لقد كان كبيرا لأنه كان يدبر أمور الدولة ، كما كان ابنا لأميرة من الصعب الافتراض أنها كانت هي نفسها طفلة ·

وعموما نستطيع استنتاج أن رمسيس الثاني بالرغم من أنه قد ولد ملكا الا أنه لم يكد يبلغ مبلغ الرجال حتى تم زفافه ، وأنه بعدما أصبح أبا لأطفـــال قد تجـــاوز مرحلة الطفولة · وتم ذلك كله قبل أن ينفرد بالحكم · وعلى كل حال فان هذه هي وجهة النظر التي أبداها البروفيسور ماسبيرو الذي يقول في الطبعـــة الأخـيرة من كتابه : التاريخ القـديم Histoire Ancienne : « ان رمسيس الثاني عندما وصله خبر وفاة والده كان في عنفوان حياته محاطا بأسرة كبيرة ووصل بعض أبنائه الى السن التي تسمح له بالقتال تحت قيادة أبيه » (١) ·

---

(١) انظر :

« A la nouvelle de la mort de son père, Ramsès. Il désormais seul roi quitta l'Ethiopie et ceignit la Couronne à Thèbes. Il était alors bre d'enfants, dont quelques-uns étaient assez âgés pour combattre sous ses ordres. » *Hist. Ancienne des Peuples de l'Orient,* par G. Maspero. Chap. v. p. 220. 4eme edition 1886.

ويجعل بروجش ميلاد موسى في السنة السادسة لحكم رمسيس الثاني (١) وهو استنتاج صحيح • أما السنوات الثمانون التي انقضت بين ذلك الوقت ووقت الخروج فهي تطابق بالتمـــام الفترة الزمنية التي أوضحتها الآثار • وعلى ذلك فان موسى قد شاهد السنوات الباقية من حكم هذا الملك وعددها واحد وستون عاما،وأطلق الاسرائيليين من العبودية في أواخر حكم مرنبتاح (٢) الذى جلس على عرش آبائه حوالى عشرين عاما • وفي هذه المرة نجد أن تطابق التواريخ لم يترك شيئا للتمنى •

أما سيزوستريس الذى تحدث عنه ديودور الصـــقلى فقد أصيب بالعمى وقتل نفسه بيده ، وقد أعجب شعبه كثيرا بنهايته هذه التي تتطابق مع عظمة حياته • اننا هنا ندخل في منطقة الخرافة الخالصة • ان الانتحار معروف لدى المصريين ولكنه فضيلة كلاسيكية • واذا كان الاغريق قد كرهوا الحياة فان المصريين قد عظموها • ونشك فيما اذا كان الناس الذين يتوقون دائما الى طول الأيام يثير اعجابهم التقصير الارادى لأيام العمر وهى أعظم عطية أعطتها الآلهة للانسان ــ وباستثناء كليوباترة ، فهناك أيضا

---

(١) انظر :

« Comme Ramsès II regna 66 ans, le règne de son successeur sous lequel la sortie des Juifs eut lieu, embrassa la durée de 20 ans ; et comme Moise avait l'age de 80 ans au temps de la sortie, il en résulte évidemment que les enfants d'Israel quittèrent l'Egypte une res ces dernières six années du règne de Menepthah ; C'est à dire entre 1327 et 1321 avant l'ère chrétienne. So nous admettons que ce pharaon périt dans la mer, selon le rapport biblique, Moise sera né 80 ans avant 1321, ou 1401 avant J. Chr., *la sixième années du règne de Ramsès II.* » — Chap. viii. p. 157. *Hist. d'Egypte* : BRUGSCH. First edition. Leipzig, 1859.

(٢) اذا كان الخروج قد حدث خلال السنوات الأولى لحكم مرنبتاح يكون من الضرورى اما ترحيل ميلاد موسى الى تاريخ سابق ، واما قبول التصحيح الذى أورده بانسين الذى يقول : « من الصعب أن نلتزم حرفيا بالنص الخاص بعمر موسى وقت الخروج وهو اثنان وأربعون عاما » • وفترة الاربعين عاما هى الاصطلاح المستخدم للتعبير عن جيل من الأجيال وهو فترة زمنية تتراوح ما بين ثلاثين الى ثلاثة وثلاثين عاما ــ انظر كتـاب بانسين وعنوانه : Egypt's Place in Universal History ــ نشر فى لندن سنة ١٨٥٩ ــ الجزء الثالث ــ ص ١٨٤ •

ومنه يتأكد القول بأن مرنبتاح لم يهلك مع جنوده • أما الطغيان الذى بلغ ذروته ضد العبرانيين ومعجزات موسى ، حسب ما ورد فى الكتاب المقدس ، فانها جميعها تعطينا انطباعا بأن كافة هذه الأحداث قد حدثت فى فترة زمنية قصيرة ، ولم تمتد على مدار عشرين عاما • ولم تذكر أن فرعون قد هلك • والحقيقة أن مقبرة مرنبتاح موجودة فى وادى الملوك ــ (المقبرة رقم ٨) •

موت نيتوكريس الكائن الاغريقى ذى الخدود الوردية (١) المشكوك فى أصله • ولكن لم نسمع أن مصريا انتحر • وحتى كليوباترة التى كانت اغريقية بالميلاد ، قد تأثرت فى اقدامها على الانتحار بســـوابق اغريقية ورومانية • ولذلك علينا أن نتغاضى عن هذه الأسطورة القائلة بأنه أصيب بالعمى وقتل نفسه • وهكذا يمكن القول بأننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن موت رمسيس الثانى •

وباختصـــار ، فان هذه هى الحقائق المتعلقة بتاريخ هـــذا الفرعون المشهور • واذا عالجنا قصته بالتفصيل فان تدوينها يحتاج الى مجلد كامل • ولو حدث ذلك بالفعل فسيظل الانسان يتساءل ويتساءل عن نوعيـــة هذا الرجل ولكن دون جـــدوى • وتعتبر كل محـــاولة لاستنباط طباعه الشخصية بناء على هذه المعلومات المحدودة مجرد خيـــال (٢) • أما عن شجاعته فيمكن أن نستدل عليها من قصيدة بنتاؤور — مع التحفظ الواجب • أما عن امتيازه بصفة الرحمة فقد ظهرت فى العبارة الخاصة بتسليم المجرمين التى وردت فى معاهدته مع الحيثيين • أما كبرياؤه فليست لها حدود • لقد كان كل معبد أقامه يمثل أثرا يسجل عظمته ، وكان كل تمثال ضخم يمثل تذكارا • وكان كل نقش يمثل أنشودة تمدح شخصه ، لقد وضع صورته الشخصية فى الهيكل بين صور الآلهة فى أبى سنبل وفى الدر وفى جرف حسين (٣) وهناك حالات رسم فيها بمظهر السلطة

---

(١) هيرودوت ـ الكتاب الثانى •

(٢) ينكر روسيلينى صفات التاليه فى أعلى درجاتها عندما لا يذكر فقط أن رمســيس الاكبر قد حقق لمصر الرخاء نتيجة لانتصاراته ، وأن هذا الرخاء قد أدى الى نعومة الحياة اليومية وأمن الدولة ، ولكنه ايضا (مع قبول اللغـــة التكميلية للوح التذكارى عن الانتصارات كحقيقة مسلم بها) يضيف ان « السلام العالمى حقق له حب المنهزمين » انظر : Mon-Storici المجلد الثالث ـ الجزء الثانى ـ ص ٢٩٤ • وبنفس القدر ينحاز بانسين الى الاتجاه المضاد ، و لا يرى أية سمة من سمات الشهامة او الكرم فى شخص يحب ان يوصف بأنه « طاغية لا يكبح جماحه ، استغل ميزة بقائه فى الحـــكم هذه الفترة الطويلة ، وانجازات أبيه وأسلافه لكى يعذب رعاياه ، والغرباء المقيمين على أرضه مستخدما اقصى ما يستطيع من قوة ، ويوظفهم لتحـــقيق شـــهوته فى الحـــرب والبناء • » انظر كتاب بانسين : Egypt's Place in Universal History ـ المجلد الثالث ـ الكتاب الرابع ـ الجزء الثانى ، ص ١٨٤ •

(٣)
« Souvent il s'introduit lui-meme dans les triades divines auxquelles il dédie les temples. *Le soleil de Ramsès Melamoun* qu'on aperçoit sur leur murailles. n'est autre chose le roi lui-meme défié de son vivant. » *Notice des Monuments Egyptienne au Musée du Louvre*. De *ROUGE* ; Paris, 1875, p. 20.

الملكية والسلطة الالهية — رمسيس الفرعون يحرق البخور أمام رمسيس الاله .

أما عن الباقى فمن الأسلم استنتاج أنه لم يكن أفضل ولا أسوأ من انطباق المبدأ العام المعروف عن الطغاة الشرقيين ألا وهو أنه لا يعرف الرحمة فى الحرب ، مسرفا فى السلم ، متكالبا على الغنيمة ، وسخيا فى ممارسة القوة غير المحدودة، وكان هذا الكبرياء مع هذا الطغيان يتوافقان مع الأسبقية التى تعود الى الأزمنة القديمة ، وطبيعة العصر الذى عاش فيه . ولا شك فى أن المصريين قد اعتقدوا بأن ملكهم كان على الدوام الها . فكتبوا عنه الترانيم (١) ورفعوا اليه الصلوات ، واعتبروه المثل الحى للألوهية . وكان أمراؤه ووزراؤه يخاطبونه عادة بلغة العبادة . وحتى زوجاته المفروض أنهن يعرفنه جيدا ، تم تصويرهن وهن يقدمن الأعمال الدالة على التقديس الدينى أمامه . اذن ما الذى يثير دهشتنا عندما يعتقد هذا الرجل أنه اله ؟

(١) انظر : ترنيمة موجهة الى الفرعون (مرنبتاح) ترجمها س. و. جودوين C. W. Goodwin فى مجلة Records of the past المجلد الثانى ، ص ١٠١ .

الفصل السادس عشر

آبـو سـنبل

وصلنا الى أبى سنبل فى ليلة الحادى والثلاثين من يناير ، وغادرناها عند غروب شمس اليوم الثامن عشر من فبراير ، وقد قضينا من هذه الأيام الثمانية عشر ، أربعة عشر يوما عند أقدام صخرة المعبد الكبير التى يطلق عليها فى اللغة المصرية القديمة اسم : صخرة ابشك • أما الأيام الأربعة الباقية (التى تقع بعد نهاية الأسبوع الأول وقبل بداية الأسبوع الثانى) فقد قضيناها فى رحلة قصيرة الى وادى حلفا ثم العودة • وبتقسيم المدة هكذا أصبحت اقامتنا الطويلة أقل رتابة نظرا لعدم وجود عمل محدود نقوم به •

وفى نفس الوقت أعجبنا أن نستيقظ كل صباح بجوار الضفة المنحدرة دون أن نرفع رؤوسنا عن المخدة لكى نرى ذلك النصف من الوجوه العملاقة التى تناطح السماء • وكانت تظهر عالية جدا فى ضوء القمر ، بينما تظهر بنصف هذا الارتفاع فى الفجر • وفى تلك الساعة التى تمثل أنسب ساعات اليوم كانت التماثيل تبدو فى حالة ساكنة ولكنها أكثر روعة • وعند اشتداد حرارة الجو ، كأنت هذه النظرة الثاقبة ومضـة تتصاعد وتتعمق مثل انبعاث ومضة الحياة ، حتى ان هذه الوجوه ظهرت وكأنها تتوهج ، وتبتسم ، وتتجلى • وبعد ذلك ظهرت شرارة مثل شرارة الفكر نفسها • وكانت هى الشرارة الأولى لشروق الشمس وقد استغرقت أقل من ثانية واحدة ، وذهبت قبل أن يقول الانسان انها هناك • وفى اللحظة التى تلت ذلك ظهر الجبل والنهر والسماء من خلال ضوء النهار المنتظم • والآن نرى التماثيل الضخمة جالسة هادئة ومتصلبة فى ضوء الشمس السـاطع •

وكنت أستيقظ فى هذا الوقت كل صباح لمشـاهدة هذه المعجزة اليومية • اننى أشاهد هؤلاء الاخوة المهيبين كل صباح وهم يبعثون من

الموت الى الحياة ، ويتحولون من الحياة الى أحجار منحوتة • وغالبا ما كنت ألزم نفسى بالاعتقاد أخيرا بأنه سرعان ما يأتى يوم سواء أكان عاجلا أم آجلا ، عندما تتنحى البهجة القديمة جانبا ، فيقـــوم هؤلاء العمـــالقة ويتحـــدثون •

وليس هناك ما هو أصعب من رؤية هذه التماثيل الضخمة بوضوح مع هذا المظهر المهيب • واذا وقف المشاهد بين الصخرة والنهر فانه يقترب منها اقترابا شديدا ، أما اذا وقف فوق الجزيرة المقابلة فانه يبتعد عنها بعدا شديدا ، بينما لا يشاهد وهو فوق المنحدر الرملى الا منظرا جانبيا • ومع الحاجة الى موقع مناسب للمشاهدة كان الســـياح لا يرون شيئا فيما عدا تشوهات آكمل وجه سلمه لنا الفن المصرى ، مما يجعل بعضهم يتعرف فى هذه التماثيل الى الملامح الزنجية ، بينما يتعرف سائح آخر على الملامح المغولية (١) بينما يتعجب سائح ثالث للاخلاص الذى تدل عليه « الخصائص النوبية » •

والحقيقة أن رأس الملك الشاب ليست موضوعة فى قالب أعلى ، لأن هذه التماثيل تمثل صورا شخصية لنفس الرجل مكررة أربع مرات وهذا الرجل هو رمسيس الثانى •

---

(١) يعتقد المرحوم الفايكاونت ا• روجيه فى خطاب ارسله الى مسيو M. Guigniaut عند ظهور اكتشافات تانيس أنه لاحظ الملامح السامية فى الصور الشخصـــية لرمسيس الثانى وسيتى الأول ، ويخمن أن فراعنة الأسرة التاسعة عشرة ربما يكونون قد انحدروا من سلالة الهكسوس • واليك ما ذكره فى هذا الصدد :

« L'origine de la famill des Ramsés nous est jusqu'ici ompléte-ment inconnue : sa prédilection pour le dieu ou *Sutech*, qui éclate dès l'abord par le nom de Séti 1ere (*Sethos*), ainsi que d'autres indices, pouvaient déjà engager à la reporte vers la Basse Egypte. Nous savions méme que Ramsés II avait épousé une fille du prince de khet quand le traité de l'an 22 eut ramené la paix entre les deux pays. Le profil très-decidement sémitique de Séti et de Ramsés se distinguait nettement des figures ordinaires de nos Pharaons Thébains ». (See *Revue* ......*Archélologique*, vol. ix. A.D. 1864).

وفى نفس الخطاب يشير مسيو روجيه الى فخامة معبد الاله سوتخ الذى أعيد تجديده فى تانيس (صان الحجر) بمعرفة رمسيس الثانى ، والى حقيقة أن الاله المرسوم هناك يلبس غطاء الرأس الشاذ الذى يرتديه امير خيتا فى موضع اخر • ولابد ان نتذكر أن امون رع هو حامى رمسيس الثانى • اما تكريمه للاله سوتخ (الذى من المحتمل ان يكون ارضاء لزوجته الحيثية) فيبدو أنه يقتصر فقط على مدينة تانيس التى من المفروض ان الأميرة الحيثية (ماعت ـ ايرى ـ نفرو ـ رع) تسكن فيها •

والآن ، فان رمسيس الأكبر لو كان يشبه هذا التماثيل الأربعة المتشابهة فلابد أنه ضمن أكثر الرجال وسامة ـ ليس فقط فى عصره بل على مدى التاريخ . وحيثما تقابلنا معه سواء فى التمثال الساقط فى منف أو فى التمثال المقطوع الأطراف Syento torso بالمتحف البريطانى ، أو بين النقوش البارزة العديدة بمعابد طيبة وأبيدوس والقرنة وبيت الوالى، فان ملامحه دائما متشابهة (بالرغم من أن بعضها يحمل مظاهر الشباب وبعضها الآخر يحمل ملامح النضج) : الوجه بيضوى ، والعيون مستطيلة وناتئة ، وأجفانها سميكة . أما الأنف فهو معقوف قليلا ومضغوط عند طرفه المدبب . أما فتحتا الأنف فانهما واسعتان وحساستان ، والشفة السفلى بارزة ، بينما الذقن قصيرة ومربعة .



وهنا رسم مأخوذ عن رسم غائر فى بيت الوالى . والموضوع مسجل لتخليد ذكرى أولى حملات الملك رمسيس،ويمثل شابا غير ملتح ملطخ الوجه بغبار المعركة ويمسك بأحد الأسرى من شعر رأسه ، ويرفع الصولجان الملكى لكى يقتله به . وفى هذا الوجه الرقيق الذى يعوزه امتلاء وهدوء الصور الشخصية الأخيرة ، نتعرف على كافة السمات التى تميز بها رمسيس الأكبر .



وهنا نجد للمرة الثانية رسما من أبيدوس يظهر فيه الملك ملتحيا بلحية الشباب ، وقد تجاوز السن التى يبدو عليها فى الصورة السابقة بثلاث أو أربع سنوات ، وذلك بالرغم من أنه لم يتوقف بعد عن ارتداء الازار الذى يرتديه الشباب ٠



ومن الضرورى أن نقارن بين هذين الرأسين بالرسم الجانبى لأحد الأعمدة الضخمة التى على شكل امرأة داخل معبد أبى سنبل الكبير ٠ ثم نقارن بين هؤلاء الثلاثة وبين احدى الصور الضخمة التى فى واجهة البناء ، وسنجد أن هذه الأخيرة بصرف النظر عن اعتبارها أعجوبة من حيث الحجم ودقة رسم الأشخاص ، الا أنها تمثل قمة ما وصل اليه فن النحت المصرى ٠ ان ملامحه متطابقة مع الرأس المرسوم فى بيت الوالى ٠ ولكن الخطوط الخارجية مختلفة ٠ وقد زاد عمر الملك بحوالى خمسة عشر أو عشرين عاما ٠ لقد تجاوز عنفوان ذلك الشباب المبكر ولم يعد مندفعا بل معتدلا ، وهادئا فى مثل هدوء الآلهة ، مع رفعة تتجاوز طاقة البشر ، وارادة راسخة ٠ وهذه السمات كلها يكاد ينطق بها الحجر المنحوت ٠ لقد تعلم الايمان بأن بطولته لا تقاوم ، وأن ذاته مقدسة ، وأنه اذا رفع ذراعه اليوم للقتل فانها ستكون فى مثل وداعة الملاك المهلك ٠



منظر جانبى لوجه رمسيس الثانى
(مأخوذ عن التمثال الواقع فى أقصى معبد أبى سنبل)

أما الرسم الملحق المحفور على الخشب فانه يعطى التمثال الذى فى أقصى الجنوب ـ وهو التمثال الوحيد الكامل تقريبا من بين التماثيل الأربعة ـ الشكل الجانبى للوجه . أما التمثال الأصلى فلا يمكن رؤيته كاملا من أية نقطة فيما عدا نقطة واحدة ، وهذه النقطة هى التى يتلاقى عندها المنحدر الرملى مع الدعامة الشمالية للواجهة على مستوى متواز

مع ذقون التماثيل • ومن هنا تم رسم الشكل الجانبى الذى قدمناه الآن ، أما المنحدر الرملى فهو شديد الانحدار وغير متماسك وشـديد الحرارة بالنسبة لأقدام المشاهدين ، ويندر وجود منحدر يصعب تسلقه مثل هذا المنحدر حتى فى بلاد النوبة ، ولكن لا يستطيع أى سائح يرفض القيام بمواجهة مثل هذه العقبة الصغيرة أن يدعى رؤية وجوه التماثيل •

أما اذا نظرنا من أسفل ، فان هذه اللوحة الجميلة تقصر أبعادها من ناحية نسب المنظور ، فتظهر متسعة أكثر من اللازم فى المسافة التى تقع ما بين الأذنين ، بينما تظهر الشفاه والجزء السفلى من الأنف بحجم أكبر نسبيا من بقية الملامح ، وربما يقال نفس الكلام عن التمثال العظيم بالمتحف البريطانى فهو محبوس فى نهاية ممر ضيق ومرتفع عن سطح الأرض بمسافة لا تزيد على خمسة عشر قدما • لقد تم وضعه بعناية حتى يبدو الوضع خاطئا من جميع الزوايا ، ومعبرا عن سوء عرض التمثال من كافة الأركان •

لم يواجه الفنانون الذين طوعوا التماثيل الأصلية أية صعوبة من جهة ضبط الأبعاد ، ولم تهددهم أية صعوبة فيما يتعلق بنسب الرسم • ان هؤلاء الذين نحتوا هذه التماثيل العملاقة من الصخر الصلد ، ومنحوها القوة والجمال اللذين يفوقان ادراك البشر ، كانوا هم أنفسهم عمالقة ، ولم يبحثوا عن كتل الأحجار أو الصـــخور المأخوذة من المحاجر لاقامة تماثيلهم ، ولم يقيموا نماذج من الصلصال ، ولكنهم اختاروا جبلا وانكبوا عليه مثل المردة وأخذوا يثقبونه وينحتونه كما لو كان ثمرة من ثمـــار الكريز ، ثم تركوه لكى يقف رجال الأجيال القادمة فى بلاهة ، مشدوهين أمام عظمة هذه المعجزة الى الأبد ، ثم شقوا فى بطنه قاعة ضخمة وخمس عشرة حجرة فسيحة • ثم هذبوا حافة الجرف الذى يتجه نحو النهر ، وقطعوا أربعة تماثيل ضخمة متجهة بوجوهها نحو مشرق الشمس ، اثنان منها الى يمين المدخل ، واثنان الى يساره لكى يقوموا بالمراقبة الى نهاية الزمـان •

ان هؤلاء الحراس الذين يجلسون بارتفاع ستة وستين قدما أعلى المنصة التى تحت أقدامهم ، يبلغ عرض صـــدر كل منهم ٢٥ قدما ، ٤ بوصات • وتبلغ المسافة من الكتف الى الكوع ١٥ قدما ، ٦ بوصات ، ومن الجانب الداخلى لمفصل الكوع الى طرف الاصبع الوسطى ١٥ قدما • وهكذا يجرى حساب القيم النسبية،حتى انه لو قدر لهذه التماثيل الوقوف فان ارتفاعها سيبلغ ٨٣ قدما من باطن أقدامها الى قمة تيجانها المزدوجة الضـــخمة •

لا يوجد فى تراث النحت المصرى كله شيء تصل روعته الى مثل تلك الروعة التى تعامل بها فنانو أبى سنبل مع الأطنان من المادة الحجرية التى أعطوها هذا الشكل الانسانى • واستطاعوا كأساتذة أصحاب تأثير أن يعرفوا بالتحديد ما يجب أن يفعلوه وما يجب أن يتركوه • لقد كانت هذه التماثيل شخصية ، ولذلك فرغوا من نحت رؤوسها الى أعلى نقطة فيها وجعلوها متناسبة مع حجم الجسم ، ولكنهم نظروا الى الجذوع والأطراف السفلية من وجهة النظر الزخرفية وليس باعتبارها أجزاء من التماثيل •

أما من وجهة النظر الزخرفية فقد كان من الضرورى لهذه الأطراف أن توفر للواجهة مظهر الضخامة والهيبة • ونتيجة لذلك أصبح كل شيء هنا ثانويا بالنسبة لاضفاء التأثير باتساع وضخامة البناء•ومع هذا الاعتبار بلغت التماثيل القمة فى التنفيذ • انها تجلس متجاورة بعضها الى جانب البعض الآخر فى وضع هادىء ومهيب ، وقد تباعدت أقدامها قليلا بينما استراحت يدا كل تمثال على ركبتيه • وتظهر السيقان الضخمة فى الوضع الذى هى عليه ، رديئة المحيط بالقياس الى أعمدة الكرنك الضخمة • أما وصلة رباط الركبة ، واستدارة سمانة الساق والخطوط الخارجية لقصبة الساق الطويلة فانها تبدو طبيعية أكثر منها مكتسبة • أما أظافر ومفاصل أصابع القدمين فهى منحوتة بنفس الأسلوب الجرىء • وجرى تنفيذ أصابع اليدين بشكل عام علما بأنه لا يظهر منها الا أطرافها وذلك لأن الناظر اليها يراها من أسفل •

تكشف الوجوه عن نفس ضخامة الشكل ، والذقن الصغير الذى يعطى مثل هذه الرقة لجانبى الفم ، والعمق السطحى الذى فى شحمة الأذن ، كل ذلك يمثل فى حقيقة الأمر تجاويف دائرية فى مثل حجم فناجين القهوة • ويمكنك أن تتأمل فى كيفية تناسب هذه المعالجة مع رقة وروعة التنفيذ بالنظر الى الرسم التخطيطى ، وستجد أن الأنف المرسوم فى الشكل الجانبى للوجه يبلغ طوله ثلاثة أقدام ونصف القدم • كما يبلغ عرض الفم نفس هذا المقدار • وحتى فتحتا الأنف اللتان يبدو أنهما تتمددان مع نسمة الحياة ، يتجاوز طولهما ٨ بوصات • أما الأذن (العالية والمنفصلة عن الرأس بدقة) فيبلغ طولها ٣ أقدام ، ٥ بوصات من القمة الى الطرف المدبب •

ويرى كاتب حديث العهد كان قد أثار هذا الموضوع (١) أن النحاتين المصريين لم يحددوا عملهم قبل التنفيذ ، واذا صدق هذا القول فان المعجزة هنا تكون أشد روعة • لأن الرجال الذين يعملون فى مادة بمثل هذه الصلابة ومثل هذه النعومة لم يستطيعوا فقط اضفاء هذا الجمال والتشطيب الرائع للرؤوس التى تبلغ هذا الحجم ، بل استطاعوا أيضا باستخدام الأدوات البدائية أن ينحتوها من الصخر الطبيعى وهم بذلك وفى الحقيقة مايكل أنجلو عصرهم •

وقد قيل مؤخرا ان تمثال رمسيس الذى فى اتجاه الجنوب هو الذى فى حالة أفضل•وان كانت ذراعه اليسرى ويده قد تعرضتا للأذى ، كما أن رأس الحية المنحوتة على مقدمة التاج قد ضاعت ، ولكن بالرغم من هذه الاستثناءات فان التمثال كامل ، وسليم السطح ، وواضح التفاصيل ، مثلما كان فى اليوم الذى استكمل فيه •

أما التمثال التالى له فان وسطه محطم ورأسه ساقط عند قدميه ومدفون حتى نصفه فى الرمال •

أما التمثال الثالث فهو سليم مثل الأول • أما الرابع فقد فقدت منه اللحية بكاملها والجزء الأكبر من الحية كما أن ذراعيه الاثنتين مكسورتان،

---

(١) « *L'absence de points fouillés,* la simplilication voulue, la restriction des détails et des ornements à quelques sillons plus ou moins hardis, l'Ingorgement de toutes les parties délicates, démontrent que les Egyptiens étaient loin d'avoir des procédés et des facilité inconnus. » — *La Sculpture Egyptienne*, par EMILE SOLDI, p. 48.

« Un fait qui nous parait avoir du entraver les progrès de la sculpture, c'est l'habitude probable des sculptures ou entrepreneurs égyptiens d'entre prendre le travail à même sur la pierre, sans avoir préalablement cherché le modèle en terre glaise, comme on le fait de nos jours. Une fois le modèle fini, on le moule et on le reproduit mathematiquement définitive. Ce procédé a toujours éte employe dans les grandes époques de l'art ; et il ne nous a pas semblé qu'il ait jamais été en usage en Egypte. » — *Ibid.* p. 82.

ويتفق مسيو سولدى أيضا مع الرأى القائل بأن النحاتين المصريين كانوا يجهلون استخدام الكثير من الأدوات المفيدة المعروفة بالنسبة للاغريق والرومان وللنحاتين المحدثين مثل فروخ الصنفرة وسن الماس •• الخ •• الخ •

مع وجود ثقب غائر كبير فى مقدمة الجسم • وبخصوص التاج المزدوج على رأس التمثالين الأخيرين فان الزخرفة العليا مفقودة • وهى تبدو كما لو كانت مجرد مقبض ولكن ارتفاعها يصل الى ثمانية أقدام •

ويتلخص تأثير حجم هذه التماثيل الأربعة على عقل المشاهد فى أنه نادرا ما يلاحظ الكسور التى تحملت الثقل ، وأنا لا أتذكر أننى لاحظت رأس وجسم التمثـال المحطم ، بالرغم من أنه لم يبق منهـا شىء فوق الركبتين ، وتغطى النقوش القديمة هاتين الساقين والقدمين الكبيرتين (١) وبعض هذه النقوش ذات أصل اغريقى ، وبعضها الآخر يعود الى أصل فينيقى ، وهى ترتفع فوق رؤوس الذين ينظرون اليها من أسفل بالرغم من أنهم نادرا ما يفكرون فى النظر الى أعلى •

هذه التمـــاثيل عارية حتى الوســط ، ترتدى الازار ذا الثنيات المعتاد ، بينما تضع على رؤوسها التاج المزدوج ، وتحلى أعناقها الصدريات الثمينة المرصعة بفصوص الأحجار الكريمة • والأقدام عارية بدون صنادل والأذرع بدون أساور • ولكن هناك ثقوبا عميقة فى الحجر فى مقدمة الجسم حيث كان يوضع الحزام المعتاد وشبكة كما لو كانت قد حفرت لوضع مسـامير برشـام مع افتراض أن الأحزمة كانت مصـنوعة من البرونز أو الذهب • أما على الصدر وتحت الصدرية تماما وعلى الجزء العلوى من كل ذراع فقد نحتت أشكال بيضية عظيمة ، يتراوح طول الواحد منها ما بين أربعة الى خمسة أقدام تمثل الخراطيش العادية للملك • ومن المحتمل أن تكون وشما مرسوما على جسمه •

---

(١) نقش على الساق اليسرى لهذا التمثال النص الاغريقى المشهور الذى اكتشفته السيدتان بانكس وسالت ، ويعود تاريخه الى عصر بسماتيك الأول ، ويفيد بأنه قطع بواسطة شخص معين يسمى داميرشون وهو احد الجنود الذين بلغ عددهم ٢٤٠ الفا الذين ذكر هيرودوت (فى الكتاب الثانى الفصلين ٢٩ ، ٣٠) انهم قد هربوا لانهم حجزوا فى حامية سين لمدة ثلاث سنوات دون تسريح • وقد أورد كتاب رولينسون عن هيرودوت ترجمة النص التى قام بها كولونيل ليك (الجـزء الثـانى ـ ص ٣٧) وهى كما يلى :

« بعد أن جاء الملك بسماتيك الى الفنتين فان هؤلاء الذين جاءوا مع بسماتيك كما كتب ابن ثيوكليس قد أبحروا وجاءوا الى اعالى كيركس حيث يرتفع مجرى النهر ••• امازيس المصرى ••• والكاتب هو داميرشون بن أموبيكوس وبيليفوس (بيليـكوس) بن اوداموس » • واسم بسماتيك هنا مميز فى النقوش باسم بسماتيك الأول • ولذلك فان الهروب العسـكرى الكبير قد حدث فى عصره وليس فى عصر بسماتيك الثانى كمـا كان يظن البعض من قبل •

لقد افترض البعض أن هذه التماثيل كانت ملونة في الأصل ، وأن الألوان قد زالت بسبب زحزحة وهبوب الرياح المكتسحة ، ولكن الاكتساح وصل الى ذروته عندما اكتشف بورخارت هذا المكان سنة ١٨١٣ ، ويبدو أنه لم يلحظ آثارا للألوان على الرأسين اللذين كانا بارزين على السطح • ولم تستطع العين الفاحصة أن تكتشف أى أثر لهذه الطبقة الرقيقة من المونة التى كان يستخدمها المصريون فى اعداد السطح للزخرفة • وربما رضى الفنانون باللون الطبيعى للحجر الرملى الذى يظهر هنا عميقا ومتباينا • كما تصادف توافق لون التمثال مع لون الصخرة الفاتح ، ولذلك فهو يجلس مرتاحا مقابل أرضية غامقة اللون • وعند الظهر عندما دخل مستوى الواجهة فى الظل بينما كان ضوء الشمس مازال يضرب فوق التماثيل ، كان تأثير المناظر أخاذا وأصبح فى الامكان رؤيته بكامله من الجزيرة ، شبيها بفص كبير من العقيق المنحوت نحتا بارزا •

ويقوم تمثال للاله رع (١) الذى كرس المعبد على اسمه ، على بعد حوالى عشرين قدما داخل فجوة فوق المدخل وقد استند فى كل من جانبيه الى شكل بالنحت البارز للملك فى وضع العبادة • ويأتى بعد ذلك نقش هيروغليفى رائع بعرض الواجهة فوق النقش البارز ، ويتضمن مجموعة من الخراطيش الملكية فوقها افريز مكون من قرود جالسة ، وفوق القرود بعض أجزاء من طنف • ويتجاوز ارتفاع هذه التركيبة كلها مائة قدم • ونستطيع أن نعتبرها نوعا من الزخرفة مع وجود الخراطيش البيضية للملك • وقد لاحظت تحت تلك الزخارف المنحوتة على المنصات وفوق الباب العلامة الهيروغليفية المعروفة بين مجموعة العلامات الدالة على المعادن بأنه يعنى الذهب (نوب Nub) ولكن عندما يتم تصويره مثلما هو ظاهر هنا بدون تحديد فهو يعنى النوبة (أرض الذهب) •

---

(١) رع هو اله الشمس الرئيسى ويمثله رأس صقر عليه قرص الشمس :

« Ra veut dire *faire, disposer* ; c'est, en effet le dieu Ra qui a disposé, organisé le monde, dont la matière lui a été donnee par Ptah. » — P. PIERRET : *Dictionnaire d'Archéologie Egyptienne.*

« Ra est une autre des intelligences démiurgiques. Ptah avait créé le soleil ; le soleil ; le Soleil, a son tour est le créateurs des êtres, *animaux et hommes*. Il est à l'hémisphère supérieure re qu'Osiris est à l'hémisphère inférieure. Ra s'intarne à Héliopolis ». — A. MARIETTE : *Notice des Monuments à Boulak*, p. 123.

وهذه الاضافة التى لا أعرف أين شاهدتها مع ارتباطها بخراطيش رمسيس التانى (١) قد استخدمت هنا بمفهوم يتعلق بالأنساب بمعنى السيادة النوبية ·

لقد وصفنا الموقع النسبى لمعبدى أبى سنبل ، وكيف أنهما محفوران فى جبلين متجاورين يفصل بينهما شلال من الرمال ، وتقع مقدمة المعبد الصغير موازية لمسار النيل الذى يتدفق هنا فى الاتجاه الشمالى الشرقى · وقد حفرت واجهة المعبد الكبير فى سفح الجبل فى مواجهة الشرق · وكذلك خان التماثيل الضخمة التى ترتفع فوق مستوى المنحدر الرملى تحتل منظرا جانبيا من المعبد الصغير وتواجه السفن الذاهبة الى شمال النهر · أما عن الجرف الرملى فهو يشبه الأجزاء المتجمدة من نهر الرون ، ويماثلها من حيث الحجم والشكل والموقع ، وكل شىء ماعدا اللون والمادة · وهو محصور بين الصخور فى قمته ، بينما ينفتح كالمروحة عند القاع · وهو بهذا المسار الاجبارى ينحدر فى اتجاه الجنوب عبر واجهة المعبد الكبير · ثم يشن الحرب القديمة الخفية هابطا ومكتسحا ومتراكما الى الأبد ، ويعمل فى هدوء وبلا كلل على ملء الحجرات المجوفة ودفن التماثيل العظيمة واحاطة المعبد كله بالرمال حبة وراء حبة ، مثـل تابوت ذهبى وبذلك لا يعرف أحد هذا المكان فيما بعد ·

وكان قد اقترب من هذه الحالة عند حضور بورخارت (سنة ١٨١٣ للميلاد) · وكانت قمة المدخل حينذاك تقع على بعد ٣٠ قدما تحت مستوى السطح · أما اذا كان الرمل سيبلغ هذا الارتفاع مرة أخرى ، فهذا أمر يعتمد على القوة التى ستكافحه · انه يحتاج لازاحته كلما ازداد تراكمه لأنه من المستحيل تفاديه · واذا أعيد الى المتاهات غير المحدودة فى الصحراء الغربية فلا يمكن استنفاد المدد الذى يتدفق من أعلى ، وسيظل يتدفق حتى انقضاء الدهر ·

وعندما رست فيلة كان الرمل المتراكم قد وصل الى قمة التمثال الذى فى أقصى الشمال ، والى منتصف ساقى التمثال الثانى · أما المدخل فقد

---

(١) تظهر هذه العلامة فى نقش صغير محفور على صخور جزيرة سهيل فى الشلال الاول ، وهو يسجل الاثر الثانى الذى يمتدح حكم رمسيس الثانى · انظر : Récueil des Monuments للعالم بروجش ـ المجلد الثانى ، اللوحة رقم ٨٢ ، النقش رقم ٦ ·

كان خلوا من الرمال حتى العتبة ، ولم يزد ارتفاع الرمال في داخل القاعة الأولى عن قدمين • وقد قيل لنا ان الواجهة كلها قد أخليت من الرمال حتى أصبحت عارية تماما ، كما جرى كنس وتنظيف داخل المعبد عندما أبحرت الامبراطورة الفرنسية في نهر النيل بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ووصلت حتى الشلال الثاني • ومنذ ذلك الوقت تقريبا عادت السجادة الرملية مرة أخرى لكى تفترش كل غرفة بعمق أكبر ، وسرعان ما سدت المدخل مرة أخرى •

كيف أتذكر مدى الاثارة الشديدة التى واجهناها فى يومنا الأول فى أبى سنبل ! عندما كنا نحاول اختيار زوايا مشاهدة المنظر ، ونشرف على نصب الخيام فى الصباح البارد • لقد وضع الرسام خيمته على حافة النهر فى مواجهة التمثال والمدخل الفسيح • أما مؤلفة هذا الكتاب فقد نصبت خيمتها على ارتفاع يقرب من أربعين قدما على حافة المنحدر الرملى • وبذلك تشاهد المنظر الجانبى للواجهة مع اختلاس النظر من مسافة تتيح الرؤية عبر النهر ، علما بأن تثبيت الخيمة فى هذا المكان المرتفع لم يكن بالأمر السهل لأنه تم فقط بغرز عمود الخيمة فى ثقب ملىء بالأحجار حتى يمكن للخيمة أن تثبت فى مواجهة ضغط رياح الشمال التى تهب دائما أثناء هذا الفصل من السنة •

وفى نفس الوقت كان السياح القادمون على سطح الذهبيات الأخرى يسيرون مسافة طويلة للأمام والخلف بين المعبدين ، وهم يملأون الجو بضحكاتهم التى تبعث أصداء غريبة فى الجبال المجوفة • ومع مضى النهار عادوا الى مراكبهم التى نشرت أشرعتها واحدا وراء الآخر ، واتجهت نحو وادى حلفا • وعندما اختفوا تماما وأصبح المكان ملكا لنا وحدنا ، ذهبت لمشاهدة المعبدين •

لقد وجدنا أن المعبد الصغير بالرغم من أنه يظهر أولا للقادم من النهر الا أنه لا يشاهد الا أخيرا ، ولذلك فان رؤيته لا تعتبر ميزة بالنسبة للعيون القادمة بعد مشاهدة « بيت رع » و « بيت حتحور » حيث يبدو بالنسبة لهما فى حجم أقل من حجمه الطبيعى ، وهى حقيقة ولكنها أقل أهمية بالنسبة للمعبد الموجود فى قرية الدر • أما القاعة الأولى والتى تبلغ أبعادها ٤٠ قدما طولا ، ٢١ قدما عرضا ، فانها تؤدى الى ممر مستعرض تطل عليه حجرتان جانبيتان وقدس أقداس تبلغ مساحته سبعة أقدام مربعة حيث توجد فى نهايته البقايا المحطمة لتمثال يحمل رأس البقرة حتحور • وهناك

معبد أبى سنبل الصغير بالنوبة

أعمدة مربعة مثل تلك الموجودة فى معبد الدر تحمل ما يجوز أن نطلق عليه اسم سقف القاعة ، بالرغم من أن السقف فى الحقيقة هو الجبل المحفور فيه المعبد .

وهناك الكثير من البساطة والرشاقة فى هذا التنظيم كما هو فى الشكل العام للنقوش البارزة التى تغطى الحوائط والأعمدة ولكن ليس فيها شيء جديد . وعلى العكس من ذلك فان الواجهة ابتكار جرىء . والرسم الملحق بهذا الكلام يغنى عن تقديم صفحات كاملة من الوصف بالنسبة لهؤلاء الذين لم يشاهدوا المكان . ومن الصعب كذلك أن نصفه بالكلمات. وهنا نجد أن الواجهة كلها ليست الا اطارا يحيط بست فجوات يبرز من كل منها تمثال ضخم شبيه بالانسان الحى ويبدو كأنه يمشى الى الأمام خارجا من قلب الجبل . وتقف هذه التماثيل بالنسبة للمدخل بمعدل ثلاثة الى اليمين وثلاثة الى اليسار،ويبلغ ارتفاع كل منها ثلاثين قدما وتمثل رمسيس وزوجته الملكة نفرتارى ، وبالرغم من أنها مشوهة الا أن تماثيل الملك مفعمة بالحياة وتماثيل الملكة مليئة بالرشاقة . وترتدى الملكة على رأسها (قرص الشمس بين قرنى البقرة) تاج الالهة حتحور ، أما الملك فهو يرتدى تاج اللباد (التاج الأبيض) مع خوذة غريبة مزينة بالأجنحة والقرون . وهما يصحبان أطفالهما معهما . الملكة معها بناتها ، والملك معه أولاده . ويبلغ ارتفاع الأطفال عشرة أقدام بحيث تصل رؤوسهم الى مستوى ركبة الأبوين .

تشكل جدران هذه الفجوات الثلاث وهى تتبع انحدار الجبل ، دعامات ضخمة يظهر تأثيرها العجيب فى الضوء وفى الظل . ويعطى المدخل تأثير الشرفة التى شاهدناها ســـواء فى مصر أو فى النوبة . أما النقوش الهيروغليفية العظيمة التى تغطى وجوه هذه الدعامات ومقدمة هذه الشرفة فهى منحوتة فى الصخر بعمق يصل الى نصف قدم ، وكبيرة الحجم لدرجة تسمح بقراءتها من الجزيرة التى فى وسط النهر . أما القصة التى تحكيها فهى القصة المكررة فى الطرازات المصرية القديمة المختلفة والمدونة على الأطر التى تحيط بالفتحات أو الأبواب ، وهى قصة فريدة ومثيرة .

تقول الأسطورة الخارجية : « أقام هذا المسكن المقدس رمسيس القوى فى الحقيقة ، محبوب آمون ـ لزوجته الملكة نفرتارى التى يحبها » (١) ·

وبعد أن تعدد الأسطورة ألقاب الملك تذكر أن « زوجته الملكة التى تحبه نفرتارى محبوبة ماعت ، قد بنت لأجله هذا المسكن فى جبال المياه الطاهرة » ·

ونجد اسمى رمسيس ونفرتارى متلازمين وغير منفصلين على كل عمود ، وفى كل فعل تعبدى منقوش على الحوائط ، وحتى فى قدس الأقداس، وربما استطاع الانسان أن يكتشف فى هذه الهبة المتبادلة وفى رقة الطراز غير المألوف ، آثار بعض الأحداث التذكارية التى ضاعت معالمها الى الأبد · ربما كان لقاء ، أو وداعا · وربما كان صلاة استجيبت ، أو نذرا تحقق · وعلى كل حال ، فاننا نرى أن رمسيس ونفرتارى أرادا أن يتركا خلفهما سجلا خالدا عن الحب الذى جمع بينهما على الأرض والذى يأملان أن يجمع بينهما أيضا فى السماء ·

ما الذى نريد أن نعرفه أكثر من ذلك ؟ لقد رأينا أن الملكة كانت رقيقة (٢) وأن الملك كان فى قمة عظمته · اننا نقدس الباقى ، وكذلك فان الشعر المدون فى هذا المكان يخصنا فى جميع الأحوال · وحتى فى هذه العزلة الموحشة فانه تهب علينا نسمات من شواطىء الخيال القديم ، ونشعر بأن الحب قد مر من هنا يوما ما ، وأن الأرض التى وطأها مازالت أرضا مقدسة ·

---

(١) بالرغم من أن هذا المعبد كان هبة من الملك رمسيس للملكة نفرتارى · ومن الملكة نفرتارى للملك رمسيس ، الا أنه قد أقيم أصلا تحت حماية حتحور أعظم نموذج للأمومة المقدسة · وتمثلها الملكة نفرتارى التى تظهر فى الواجهة كأم لستة أطفال وتتجمل بصفات الآلهة · ومن وجهة النظر الدينية نجد أن معبد حتحور هو المعبد المطابق لمعبد رع · ويذكر مسيو مارييت فى كتابه : Notice des Monuments à Boulak عن حتحور أن وظائفها موجودة ولكنها غير معروفة لنا تماما وفى ذلك يقول :
« Peutêtré etait-elle à Ra ce que Maut est à Ammon, le recipient où le dieu s'engendre l'ui-même pour l'éternitt ».

(٢) لا يستطيع الانسان أن يتحدث كثيرا عن جمال رأس أنثى فى رسم جدارى مصرى ، ولكن يتضح من هذه الصور التى تمثل الملكة والتى تكررت مرات كثيرة فوق حوائط القاعة الأولى بمعبد حتحور ، أن الملكة لو لم تكن تتمتع بالجمال الايجابى حسب مفاهيمنا الغربية فانها تمتعت بالكثير من الحلاوة والكثير من الرقة · واسم نفرتارى =

وهرولنا الى المعبد الكبير دون أن ننتظر لفحص تفاصيل المعبد الصغير · وكان هناك ضوء خافت يخيم على القاعة الأولى والظلام يلف كل شيء خلفه · وقد أقيمت ثمانية تماثيل أربعة الى اليمين وأربعة الى اليسار ، تتجه الى وسط القاعة ، حاملة الجبل فوق رؤوسها ، ويبلغ ارتفاعها خمسة وعشرين قدما · وقد وضعت التماثيل أيديها متقاطعة على صدورها وهي تمسك بالعصا والصولجان رمز العظمة والسلطان · وهذه الهيئة هي هيئة أوزوريس ، ولكن الوجه هو وجه رمسيس الثانى · وتبدو التماثيل عند رؤيتها من خلال هذا الضوء الخافت الظليل والمحزن والمهيب ، كما لو كانت قد تذكرت الماضى ·

وتقع قاعة ثانية خلف القاعة الأولى محمولة على أعمدة مربعة · وتقع خلف هذه الصالة أيضا حجرة أفقية غطيت حوائطها بنقوش بارزة لتعديد من الآلهة · وفى النهاية يأتى قدس الأقداس · وهنا تجلس أربعة تماثيل متجاورة أكبر من الحجم الطبيعى تمثل الآلهة بتاح ــ آمون رع ــ رع ، ورمسيس المؤله · وأمامهم مذبح على شكل هرم مبتور الطرف ، منحوت من الصخر الصلد · ومازالت آثار الألوان باقية على ثياب التماثيل وقد ظهرت فى الحوائط على كلا الجانبين ثقوب وأخاديد ربما حفرت لتثبيت ستارة معدنية ·

كان الهواء فى الهيكل ثقيلا مع رائحة لاذعة كما لو كان الكهنة قد أحرقوا بعض البخور الغريب ثم ذهبوا لتوهم من المكان · ونحن ندين بهذا الوهم للزوار الذين كانوا قبلنا لأنهم أشعلوا شريطا من الماغنسيوم لانارة المكان · وكان دخانه ما زال باقيا فى هذه القاعات المغلقة ·

= يعنى الرفيقة الكاملة والطيبة والجميلة · والحقيقة هى أن هذا الجمال والطيبة لابد أن يكونا صفتين مترادفتين ، وليس لهما فقط مجرد الأهمية التى تظهر من وجهة النظر الفلسفية الرفيعة · ولكنهما تكشفان عن القوة الكامنة فى ذلك المذهب الذى جرى تعليمه فيما بعد فى المدارس الاسكندرية وأدى الى مثل هذه النتائج الواضحة ، ومنه يتضح لنا أن كلمتى الحقيقة والعدل مترادفتين وتحملان نفس المعنى ·

وهناك معنى طريف عن أسماء الأعلام المصرية التى تذكرنا بالأسماء التى استخدمت فى انجلترا تحت مظلة الكومنولث ولنأخذ مثلا الاسم باك ــ ان ــ خونسو ، أى (خادم خونسو) ، با ــ تا ــ آمون أى (هبة آمون) ، ربنترا نفر ، أى (عام سعيد) ، حورس ابن عير شو · وهناك أسماء طويلة ولكنها تبين العلاقة بالآلهة مثل : القطع التى أمام الاله ·· الخ ·· الخ ·

ولذلك كان من الصعب أن نستقر هنـا وهناك لاجراء تحقيق ثابت حول نقوش الجدران ولم نحاول ذلك ، وأخذنا نتجول من قاعة الى قاعة ومن حجرة الى أخرى ، نتأمل أحيانا الأشعة الباهتة التى تدخل من الخارج، وأحيانا أخرى نتعثر فى ضوء حفنة من الشموع مربوطة الى نهاية عصا ، الا أننا فضلنا أن نعيش هذه الانطباعات الأولى المنبعثة من الاتســـاع العظيم ، والغموض ، والعظمة الموحشة التى تزداد عمقا مع بعض الابهام والشيوع ·

ومرت أمام أبصارنا مناظر الحرب والانتصار والعبادة مثل أحداث عابرة · هنا الملك محمولا فى مركبة تجرها خيول ســمينة تعدو بأقصى سرعتها وقد زينت بأغطية مزركشة فوق سروجها ، أما هو فيسحب قوسه الجبـار ويهاجم قلعة منيعة ، وقد طعن بعض المحاصرين بسهامه العظيمة فانحنوا يطلبون الرحمة · انهم من السوريين ، ويتميز بعضهم بأنهم من الحيثيين الشماليين · وكانت بشرتهم صفراء وقد ارتدوا الشعر المستعار الطويل واللحية ، والشرائط التى يربطون بها شعورهم والملابس الثمينة ، والعباءات التى بدون أكمام والأحزمة المطرزة بأشغال الابرة التى تلبس فوق الكتف لحمل السيف والتى اعتدنا رؤيتها فى تماثيل نينوى،وهناك رجل يسوق الماشية فى واجهة الصورة يبدو كما لو كان قد خرج مباشرة من احدى لوحات المتحف البريطانى · وفى نفس الوقت يظهر رمسيس فوق الزحام مسرعا ، فى هيئته الالهية · أما خيوله فمن سلالة خالدة مثل خيول أخيل · أما أولاده وكل أفراد جيشــه وعجلاته الحربيـة وجواده فانها كلها تتبعه · وتكشف كافة المناظر عن الحركة وروعة المعركة ·

وبعد ذلك نرى الملك عائدا فى هيئته الرسمية يتبعه أسراه فى الحرب وقد ربطوا معا فى مجموعات وهم يترنحون أثناء سيرهم وقد أزاحوا رؤوسهم الى الخلف ورفعوا أيديهم الى فوق·ولم يكن هؤلاء الأسرى آسيويين ولكنهم كانوا أحباشا ونوبيين يمثلون نماذج صادقة لجنسهم بالشفاه الغليظة ، والأنوف المفلطحة والشعر الأشعث ، ويثير منظــرهم الرثاء بدلا من السخرية ·

وبعد ذلك نرى الملك رمسيس يقود مجموعة من هؤلاء الأسرى فى حضرة آمون رع وموت وخنسو ، ويظهر آمون رع فى شكل غريب غير مألوف بلونه الأزرق وأجنحته الطويلة · أما الالهة موت فكانت ترتدى تاج مصر العليا ، أما خنسو ففى ملامحه لمسة دقيقة من المبالغة التى جعلت ملامحه شبيهة بملامح الملك · ومرة أخرى نجد صور رمسيس على يمين ويسار

المدخل فى حجم يضاهى ثلاثة أمثال الحجم الطبيعى وهو يذبح مجموعة من الأسرى من جنسيات مختلفة ، وعلى يساره آمون رع وعن يمينه رع حرماخيس (١) وهو يوافق ويتقبل التضحية • وفى القاعة الثانية نرى كالعادة موكب الآلهة المقدسة بتاح ، وخنوم ، وست فى عباءات ملونة تظهر غامقة وهم مثل أشباح فى لوحة باهتـــة من النسيج ، بين حوائط الممر المستعرض ، أما الشىء العجيب فى أبى سنبل فهو الموضـــوع الضخم المرسوم على الجانب الشمالى من الصالة الكبرى • انه يمثل جانبا كبيرا من أرض المعركة يغطى مساحة طولها ٥٧ قدما ، ٧ بوصات ، وارتفاعها ٢٥ قدما ، ٤ بوصات وبداخلها ما يزيد على ١١٠٠ شكل • ونجد أن هذا الجانب قد حذف منه صف الخراطيش المتعلقة بالأنساب والأفاعى الصغيرة التى تدور حول بقية السقف • وبذلك فان الحائط يمتلىء بالصور من القمة الى القاع •

ولا شك فى أن الوصف الكامل لهذه اللوحة يستغرق عدة صفحات ، لأنها تمثل معرضا خفيا فى حد ذاتها • انها لا تمثل عملا واحدا بل حملة كاملة ، لأنها تكشف أمامنا فى بساطة روعة وحالة الحرب ، وأحداث حياة المعسكرات وأحداث ميدان المعـــركة المفتوح • ونرى مدينة الأعداء بأبراجها المجهزة للقتال ، وثالوث الالهة موت ، ومعسكر الحصار وسرادق الملك ، وسير جنود المشاة وقوات العجلات الحربيـــة ، والتحام الحابل بالنابل يدا بيد أثناء المعركة ، وفرار المقهورين ، وانتصـــار الفرعون ، واحضار الأسرى ، واحصاء عدد الأيدى المقطعة ، ومرور نهر خلال الصورة من طرفها الأدنى الى طرفها الأقصى محيطا بالمدينـــة المحاصرة ، والملك فى عجلته الحربية يتبع جمهرة من الفارين بطول الضفة ، وقد سقط بعضهم تحت عجلات العربة ؛ بينما سقط البعض الآخـــر فى الماء وغرق فيـــه ، وخلفهم حائط متحرك من حاملى الدروع والرماح يتقدم بخطوة منتظمة فى صف متلاصق كتفا الى كتف ، بينما تظهر هناك حيث تحتدم المعـــركة ، العجلات التى انقلبت ،والرجال الذين ماتوا ، أو يعانون من ســـكرات الموت ، والخيول التى بدون فرسان وهى تجرى فى الميدان ، وفى نفس الوقت يرسل المحاصرون كشـــافين راكبين ، بينما يســـوق الفلاحـــون ماشيتهم الى التلال •

وهناك صف طويل من العجلات الحربية التى تجرها الجياد بأقصى سرعتها ، يشق الموضوع طوليا ويفصل المعسكر المصرى عن ميدان المعركة •

---

(١) رع حرماخيس يدعى حر ـ ام ـ آخت ، فى اللغـة القديمة وهو يمثل الشمس التى تشرق من الأفق الشرقى •

أما المعسكر فهو مربع الشكل ومحاط بحاجز من الدروع ، وهو يحتل سدس مساحة الصورة ويحتوى على ما يقرب من مائة شكل . وقد استطاع الفنان أن يجمع فى هذا الحيز الضيق مجموعة مثيرة من الأحداث : الخيول واقفة فى صفوف وهى تأكل من مذود عمومى ، أو تنتظر دورها وهى تضرب الأرض بحوافرها نظرا لنفاد صبرها ، وبعضها راقد على الأرض . وهناك أحد الخيول بدون السرج واللجام يهرول حول الميدان . وهناك حصان آخر يرفس العجلة الحربية الفارغة باستخدام عقبيه الخلفيين وقد اعترضه سائسان . وهناك عدد آخر من السائسين يحضرون جرادل من الماء تتدلى من نير موضوع على عاتق كل منهم . وهناك أيضا ضابط جريح يجلس منعزلا وقد أراح رأسه على يده ، بينما يحضر اليه الضابط المناوب مسرعا لكى يبلغه أخبار المعركة ، وضابط آخر مصاب بجرح بسيط فى قدمه ويقوم أحد الجراحين بعمل غيار على جرحه ، بينما تسرع فصيلتان من المشاة للقيام بدورهما لمعاونة الجنود المشتركين فى المعركة ، وتتقابلان عند مدخل المعسكر مع العجلة الملكية أثناء عودتها من ميدان القتال . وكان رمسيس يسوق أمامه بعض الهاربين الذين وقعوا وقبض عليهم وأرسلوا الى هذا الموقع . وقد وضعت فى أحد الأركان أشياء يبدو أنها قطع كبيرة من اللحم . وبالقرب منها مذبح صغير ومجمرة من الفحم على حامل ثلاثى . وفى مكان آخر يجلس اثنان من الجنود على أعقابهما وبينهما مرجل كبير وهما يغمسان أصابعهما فى محتوياته ،مثلما يفعل كل فلاح حتى اليوم . وفى نفس الوقت يتضح أن النظام كان مرعيا لدى المصريين ، وأن الجندى الذى يتجاوز حدود الالتزام كان يتعرض للعقاب باستخدام العصا مثلما يحدث حاليا مع أحفادهما المعاصرين. ونرى فيما لايقل عن ثلاثة أماكن هذه العادة التى أضفى عليها الزمن جلالا وهم ينفذونها ، فنشاهد الضابط العظيم وهو يرفع عصاه ، بينما يتقبل الشخص المعاقب عقوبته باشمئزاز واضح . ويرقد بجوار رمسيس فى وسط المعسكر أسده المستأنس فى رعاية حارسه ، بينما يقف عند الجناح الملكى جاسوس معاد يشعر بالدهشة بينما يتولى الضابط القائم بالحراسة طعنه . والجناح نفسه غريب جدا لأنه ليس خيمة بل مبنى من المحتمل أنه أقيم ارتجاليا من الطوب اللبن ، وبه أربعة مداخل ذات عقود ، ويتضمن فى أحد أركانه شيئا مثل دولاب يدعمه اثنان من الصقور المقدسة . وهذا الشئ الذى يتطابق مع الشعار الهيروغليفى المستخدم للتعبير عن التكريم أو الاحتفال يقوم بلا شك كبديل عن هيكل صغير مخصص للملك . وهناك خمسة أشخاص راكعون أمامه لأداء العبادة .

واذا أردنا أن نعدد أو نصف العناصر المهمة فى هذه اللوحة المذهلة فاننا نحتاج الى مساحة أكبر ، ومن المستحيل حتى مجرد رؤيتهـــا خلال الفترة الزمنية المتاحة لنا مع كل المساعدة التى تقدمهـــا لنا الشموع ومصابيح الماغنسيوم ، ونجد أن تضاريس الصورة منخفضة على غير العادة ، والسطح الذى كان مغطى بالحصى ، قد غطته آثار الازميل الدقيقة التى تزاحم التفاصيل بشكل يثير الألم ·وليس هذا كل شىء ، بل ان نوعا من الرواســب الطينيـــة المالحة فى هذا الجـانب من الصخرة قد محا طبقة الجص وكان سببا فى الاضرار بالسطح الطبيعى الذى يبدو متآكلا مثلما يتآكل الحديد بفعل الصدأ · وهناك بعض المساحات الصغيرة سليمة فى بعض الأماكن ومحتفظة بألوانها الأصلية · أما النهـــر فمازالت تغطيه الخطوط المتعرجة الزرقاء والبيضاء التى تمثل الماء · وهنـــاك بعض المجموعات المتقاتلة كاملة · وكذلك عجلتان حربيتان ملكيتان احداهمـــا تعلوها مظلة خفيفة مزخرفة بزخارف جميلة ولامعـــة كما لو كانـت قد رسمت حديثا ·

أما الخيول فى كل أرجاء اللوحة فهى ممتازة ، ويعبر صف العجلات الحربية عن الانطباع الذى يخلفه تحريك المجاميع ، وتعتبر الخيول التى فى معسكر رمسيس من أحسن انجـازات الفن المصرى لما تبدو عليه من أشكال طبيعية داخل مجموعة مختلفة من الأوضاع · ويجدر بنا أن نذكر أن هناك فارسا نادر الوجود يظهر أربع أو خمس مرات في أجزاء مختلفة من الصورة · ان منظر الحملة قد جرى في سوريا ، وكذلك فان النهـر الذى تدل عليه الخطوط المتعرجة الزرقاء هو نهر العاصى ، والمدينـــة المحاصرة هى قادش (١) والأعداء هم الحيثيون · والحقيقة أن اللوحة كلها صورة تعبر عن قمة الأحداث التى خلدتها قصيدة بنتاؤور ، وهى القصيدة التى وصفها مســيو روجيه بأنها « نوع من الالياذة المصرية » ولابد أن المقارنة هنا تدور حول الصورة أكثر منها حـــول القصيدة · كان بنتاؤور

---

(١) تسمى كاتيشو فى اللغـة المصرية القديمة :

« Aujourdhui encore il existe une ville de Kades près d'une courbe de l'Oronte dans le voisinage de Homs. » *Leçons de M. de Rougé, Professées au Collége de France*. See Mélanges D'Archeologie, Egyp. and Assyr., vol. ii. p. 269.

وهناك ورقة مهمة أخرى بعنوان : حملة رمسيس الثانى ضد قادش The campaign of Rameses II against kadesh تأليف : ج· هـ· تومكينز ترجمتها مجلة جمعيـة آثار الكتاب المقدس Soc. of Bib. Arch. المجلد الثامن — الجزء الثالث — سنة ١٨٨٢ ومنها نعرف أن انحناءة النهر قد صورت بالنقش البارز ·

ينتمى الى رجال البلاط فى المحل الأول ، وشاعرا فى المحل الثـــانى . وقد ضحى بكل شىء لابراز عظمة الشخصية المحورية . لقد قصد تعظيم الملك . أما قصيدته التى تنطوى كلها على المديح فهى تبدأ وتنتهى بالحديث عن شجاعة الملك رمسيس محبوب آمون . وعلى ذلك يمكن أن تســـمى الياذة ، فهى ملحمة لم تترك شيئا مما يمكن أن يهم أخيل . أما الصورة فهى على العكس ، بالرغم من أنها تبين البطل فى القتال والنصر ، الا أنها ذات أبعاد ضخمة ، ولم تترك مساحة لجمهور من الشخصيات الصغرى ، وتتخذ القصص التى تظهر فيها هذه الشخصيات شكل الملحمـــة . ان مفاجأة الجاسوس وقتله تشبه قتل دولون بيد أوليس . أما الرجال فهم يحتفلون ويقاتلون ويصابون بالجراح مثل أبناء أخيا ذوى الشعور الطويلة، بينما تأكل خيولهم الشعير الأبيض والشوفان وهى طليقة بدون سروج . « وهم فى مثل صلابة عجلاتهم الحربية ، ينتظرون ظهور الفجر » .

وقد اهتم الفنان الذى نفذ القطعة الخاصة بالمعركة مثل هوميروس أيضا بابراز الصفات المميزة للمقاتلين الكثيرين ، فالحيثيون يركب كل ثلاثة منهم عجلة حربية ، بينما يركب العجلة الحربية المصرية اثنان فقط . ويمتاز الحيثيون بالشوارب ويرتدون الخوذات فوق رؤوســـهم ، بينما يتباهى المصريون بوجوههم الحليقة ويغطون رؤوسهم بالشعور المستعارة الثقيلة . أما جنود سردينيا المرتزقة فانهم يطلقون شعورهم الكثيفة ولحاهم وشـــواربهم ، وتظهر ملامحهم الأوربية بوضـــوح ويرتدون أيضا الخوذة الغريبة التى تعلوها الكرة وقضيبان معدنيان مدببان ، وهى الخوذة التى يمكن عن طريقها التعرف عليهم فى النقوش . ويظهر هؤلاء السردينيون فى الصف السفلى القريب من الأرض . وقد تكومت الرمال عنـد هذه النقطة ولم تظهر فوق السطح الا قمة خوذة واحدة ، ولما لم نعرف لمن تنتمى هذه الخوذة ، جلعنا رجالنا يزيحون الرمال فاذا بهم يكتشفون مصـــادفة أكثر المجموعات غرابة وأهميـــة فى الصـــورة كلهـــا ، وهم السردينيون (شاردانا فى اللغة المصرية القديمة) (١) الذين كانوا سجناء مجندين فى صفوف الجيش المصرى ، وهم أول الأوربيين الذين تظهر أسماؤهم فى الآثـــار .

---

(١) « La légion S'ardana de l'armée de Ramses II provenait d'une première descente de ces peuples en Egypte. « Les S'ardaina qui étaient des prisonniers de sa majesté », dit expressément e texte de Karnak, au commencement du poeme de *Pentaur*. Les archélogues ont remarqué la richesse de leur costume et de leurs armures. Les principales pièces de leur vétements semblent couvertes de broderies. Leur bouchier est =

وهناك ساعة واحدة فقط على مدى الأربع والعشرين ساعة يمكن خلالها تكوين فكرة عن التأثير العام لهذا الموضوع الضخم وهى ساعه شروق الشمس • وبعد ذلك ينقضى اليوم فى المدخل وتخفيف ظلمة الأجنحة الجانبية بالضوء المنعكس من الأرضية التى تضيئها أشعة الشمس • وحينذاك يمكن رؤية الأقسام الواسعة من الصورة وتوزيع المجاميع ولكن بشكل معتم •

أما التفاصيل فهى تحتاج الى ضوء الشموع ، ولايمكن دراستها الا على مراحل تستغرق المرحلة منها عدة بوصات ، ومع ذلك فمن الصعب الوصول الى المجموعات العلوية بدون استخدام السلم • وصعد سلام على كرسى ممسكا بعصوين طويلتين مربوطتين معا حتى استطاع بصعوبة أن يرفع مشعله الصغير الى الارتفاع الذى يتيح للمؤلفة نسخ النقش المدون على البرج الأوسط فى قلعة قادش •

ومن المدهش أن تشاهد شروق الشمس على واجهة المعبد الكبير ، ولكن هناك شيئا أروع يحدث فى قلب الجبال فى صباح أيام معينة من السنة ، عندما تظهر الشمس فوق قمم الجبال الشرقية يدخل شعاع طويل من المدخل ويشق الظلام الداخلى مثل السهم ويتسلل الى الهيكل ويسقط مثل النار النازلة من السماء على المذبح الذى عند أقدام الآلهة • ولا يشك أحد من الذين شاهدوا نزول هذا الشعاع من ضوء الشمس أنه يعطى تأثيرا محسوبا ، وأن الحفر قد اتجه مباشرة بزاوية خاصة بحيث يسمح بمثل هذا الحدث • وبهذه الطريقة يقال ان رع الذى خصص له هذا المعبد يدخل يوميا ، وأنه يقدم بحضوره دليلا على قبوله تضحيات الذين يعبدونه •

وأقول اننا لم نشاهد نصف النقوش ، أو حتى نصف الحجرات فى نصف هذا اليوم الأول بمعبد أبى سنبل • وأخذنا نتجول هنا وهناك ونحن مندهشون وقانعون بمجرد الدهشة مثل القرويين الذين يتجولون

= une rondache: ils portent une longue et large épée de forme ordinaire, mais on remarque aussi dans leurs mains une épée d'une longueur démesurée. Le casque des S'ardana est très caracterisque ; sa forme est arrondie, mais il est surmonté d'une tige qui supporte une boule de métal. Cet ornament est accompagné de deux cornes en forme de croissant. ... Les S'ardana de l'armée Egyptienne ont seulement des favoris et des moustathe roupés très courts». — *Memoire sur les Attaques Dirigées contre l'Egypte, etc. etc.* E. DE ROUGÉ. Revue Archéologique, vol. xvi. pp. 90, 91.

بأحد المعارض · وكان لدينا متسع من الوقت للحضور مرة ثانيـــة وثالثة حتى نحفظه عن ظهر قلـب · وكانت الكاتبـة تدخل باستمرار وفى أى ساعة من الساعات بعد الانتهاء من الرسومات التخطيطية اليومية، بينما كان الآخرون يتمشون أو يركبون القوارب فى برودة بعد الظهر المتأخرة · انه مكان عجيب بالنسبة لمن يزوره منفردا · انه مكان يتميز بالظـــلام والسكون القديم الذى يبدو فيه الزمن غارقا فى النوم · والشخص الذى يتجول فيه هنا وهناك بين هذه القاعات المغطـاة بالنقوش مثل ظل بين الظلال ، يحس بأنه قد ترك العالم خلفه ، وأنه قد تخلى عن التعاليم المعاصرة لكى يرتبط بالماضى · ونفس الآلهة تشيع تأثيرها القديم بين هؤلاء الذين يطلبونه فى وحـدتهم ، فيشـاهدونه فى حلكة ظلمة المساء حيث يظهرون مندمجين فى حياة ما وراء الطبيعة · وكانت هنـاك أوقات أحسست فيها بضرورة أن أستمع اليهم وهم يتحدثون ، وأن أشاهدهم وهم ينهضون عن عروشهم المزخرفة ويخرجون من الجدران ، وقد مرت لحظات أحسست فيها أننى أثق بهم ·

كان هناك شىء شديد الغرابة والروعة يغلف المكان ، وقد اشـتدت هـذه الغرابة وتلك الروعـة مع المضى قدما فى داخله ، حتى اننى نادرا ما جازفت بتجاوز القاعة الأولى عندما كنت بمفردى · وبعد ظهـــر أحد الأيام عندما كان الوقت مبكرا والضوء أوضح مما هو فى العادة ، ذهبت الى الطرف البعيد وجلست تحت أقدام الآلهة فى قدس الأقداس ، وفجأة (لا أستطيع أن أذكر لماذا لأن أفكارى كانت هائمة بعيدا) خطر فى بالى أن الجبل كله يوشك أن يغطى رأسى مثل مغارة ، وقد غشيتنى رعدة فجائية مثل تلك التى يشعر بها الانسان فى الأحلام ، وحاولت أن أجرى ولكن قدمى تسمرتا فى مكانهما ، وظهرت الأرض وكأنها تميد تحتهما ، وشعرت بأننى لا أستطيع أن أطلب المساعدة رغم أنها كانت ضرورية لانقاذ حياتى · وليس من الضرورى أن أضيف أن الجبل لم يسقط على رأسى وأن خوفى لم يكن له أساس من الصحة ، وربما كانت هذه المشاعر تمثل أسلوبا كبيرا للموت وأسلوبا كبيرا للدفن ، ولم تكن جميع زياراتى للمعبد بمثل هذه الروعة ، ففى بعض المرات صحبت معى سلام الذى كان يدخن السجائر عندما لا يكون فى نوبة عمل ، أو يمسك شـمعة عندما كنت أرسم نماذج الأفاريز وأغطية رؤوس الملوك والآلهة ، وتصميمات القلائد والأسـاور ، ورؤوس الأسرى وما شابه ذلك · وقمنا فى بعض الأحيـان باستكشـاف الحجرات الجانبية حيث توجد ثمانية من هذه الحجرات الشديدة الظلمة والمحفورة بزوايا مختلفة · وقد أحيطت اثنتان أو ثلاثة منهـــا بمقاعد حجرية محفورة فى الصـخر ، وكانت النقوش الهيروغليفية فوق احداها

محفورة جزئيا ومرسومة باللون الأسود ولكنها متروكة دون استكمال · وينسب هذا التمثال بكامله الى عمل رمسيس الثاني،ولا يحمل أية علامة تدل على أن أحدا من خلفائه قد أضاف اليه شيئا ، أما هذه العلامات التى تبين عدم استكمال النقوش فتدل على أن الملك قد مات قبل انهاء العمل ·

وقد أحسست دائما بأنه كانت هناك مواضع سرية فى هذه الحجرات المظلمة لم يستكمل اكتشافها · وقد شاركنى سلام فى البحث عنها · وسواء فى دندرة أو ادفو أو مدينة هابو أو فيلة (١) وجدت سراديب داخل جسم الجدار والحنيات تحت الأرضيات لحفظ الكنوز وقت الخطر ، ولابد أن المعابد المحفورة فى الصخر كان بها أماكن مماثلة لاخفاء الكنوز ، وان هذه الأماكن قد اتخذت شكل خلايا مخبأة فى الجدران أو تحت الأرضيات داخل الحجرات الجانبية ·

أما عن الخروج بمفردك من هذه الجحور السوداء الى ضوء الصالة الكبرى ورؤية المعالم الأرضية كما هى فى داخل اطار المدخل العاجى ، فهو يساوى وحده الرحلة الى أبى سنبل كلها · وفى أوقات غروب الشمس يبدو أن النهر والجزيرة الرملية الصفراء وأشجار النخيل والطرفاء المواجهة لها ، وجبال الصحراء الشرقية ، مثل « كبش الفداء » كانت كلها غنية بالأزهار والذهب مثل المكان ·

ومضت أيامنا فى أبى سنبل على هذا المنوال · العمال يعملون ، والكسالى يتكاسلون ، بينما الغرباء من العالم الخارجى يأتون ويذهبون بين حين وآخر · وكانت الحرارة على الشاطىء شديدة الوطأة خاصة فى الخيام التى نجلس فيها للرسم · ولكن ريح الشمال كانت تهب بانتظام كل يوم بعد شروق الشمس بمدة ساعة وحتى قبل غروب الشمس بمدة ساعة كذلك · أما الجو على سطح الذهبية فكان باردا دائما ·

وقد استغل الزوجان السعيدان ميزة الريح الطيبة هذه لممارسة التجديف فى القارب · كما رتبوا جولاتهم بحيث يستغلون فترة انتهاء هبوب الريح للخروج فى جولاتهم على أن تتكفل الأذرع القوية لأربعة من المجدفين باعادتهم مرة ثانية · واستطاعوا بهذه الطريقة أن يشاهدوا

---

(١) عثر فرلينى سنة ١٨٣٤ على كنز ثمين من الذهب والفضة كان حبيسا فى جدار أحد أهرام مروى فى النوبة العليا ·

انظر : Lepsius's letters ـ ترجمها ل· ج· هورنر ـ نشرت فى بون سنة ١٨٥٣ ـ ص ١٥١ ·

معبد فريج الصغير المنحوت فى الصخر وهو ما افتقده الباقون لسوء حظهم • وفى فرصة أخرى قاموا بزيارة شيخ معين كان يعيش فى قرية تبعد حوالى ميلين جنوب أبى سنبل وكان رجلا عظيما كما يذكر كبار النوبيين ، وكان اسمه حسن بن رشوان الكاشف ، وهو حفيد ذلك الذى كان يسمى حسن الكاشف الكبير نائب حاكم النسوبة فى أيام بورخارت وبلزونى • وقد استقبل الزوجين السعيدين بحفاوة بالغة ، وذبح خروفا تكريما لهما ، وأخذ يسامرهما لأكثر من ثلاث ساعات • وكان الغداء مكونا من سلسلة أطباق لا نهاية لها وكلها تشبه البعبع الذى كنا نخشاه فى طفولتنا • واستمر تكرار نفس الصنف تحت ستار خليط من التمويهات سواء كان لحما مشويا أو مسلوقا أو مطبوخا أو مفروما ، وسواء جرى تقديمه على أسياخ ، أو مدفونا فى الأرز ، أو مغموسا فى اللبن الرائب فان الأطباق كلها كانت من لحم الضأن •

لقد يئسنا الآن من امكانية رؤية التمساح،ولولا أن رجالنا اكتشفوا آثاره على الجزيرة المقابلة لكنا أمسكنا عن الاعتقاد فى وجود تماسيح بمصر • وكانت العلامة حديثة عندما ذهبنا لمشاهدتها • وكان التمساح يستدفىء فى الشمس ويجفف نفسه ، فى نفس النقطة التى عاد منها ثانية الى النهر • أما الرمل الرطب عند حافة الماء فقد اكتسى بتراب مخالبه السمينة الضخمة ، وكذلك السلسلة المدرعة التى تغطى ذيله بصرف النظر عن أن هذا الانطباع الأخير كان مشوها بسبب اندفاعه النهائى نحو الماء • وأشك فى أن روبنسون كروزو عندما شاهد أثر القدم على الشاطىء كان أكثر دهشة منا نحن ركاب الذهبية فيلة عند رؤية هذا الأثر الأصيل والذى لايمكن انكاره •

أما عن الرجل الكسول فقد قفز مسرعا الى السلاح واستعد للهجوم • وحفر لنفسه قبرا عميقا على بعد ياردات من المكان ، ثم ذهب ورقد فيه عدة ساعات مستلقيا وصابرا وحذرا ، صباحا بعد صباح تحت وهج الشمس ومعه بندقيته جاهزة للاطلاق ، وغطاء النعش فوق ظهره • واذا كان قد نجا من ضربة الشمس فان هذه ليست غلطته وكان جزاؤه من جنس العمل؛لأن التمساح كان أذكى منه وحرص على ألا يعود مرة أخرى •

وفى نفس الوقت فان بحارتنا بالرغم من سعادتهم بهذه العطلة الطارئة ، فقد بدءوا يواجهون الملل فى أبى سنبل ، وطول فترة بقاء الباجستونز كان طاقما البحارة يتجمعان معا كل ليلة للرقص والتدخين وغناء مواويلهم الطريفة • ولكن عندما وصلت الشائعات عن الأشياء

العجيبة التي جرت في هذا الشتاء عند وادي حلفا ، وهي الشائعات التي ذكرت أن الشـلال الثـاني كان مزدحما بالتماسيح ، فان رفاقنا الأوفياء تسللوا في صباح أحد الأيام قبل شروق الشمس وتركوا الذهبية فيلة بدون رفاق ٠

وفي هذه الظروف ومع رؤية وقت الرجال وهو معلق بين أيديهم ، خطرت في ذهن الرسـام فكرة ارسالهم لتنظيف وجـه التمثال الذي في أقصى الشمال والذي كان ملطخا بالمصيص الذي ترك فوقه عندما أزال مستر هاى الطبقة الخارجية منذ أكثر من نصف قرن مضى ٠ وقد نفذت هذه الفكرة السعيدة وسرعان ما تم التوصل الى عمل سقالات من القوائم الخشبية والمجاديف ، وأسرع الرجال يحتشدون فوق الرأس الضخم وهم سعداء مثل الأطفال مثلما كان النحاتون يحتشدون فوقه عنـــدما كان رمسيس ملكا (١) ٠

ويتلخص كل ما كان مطلوبا منهم في ازالة أية كتلة صغيرة ملتصقة بالسطح ثم تلوين البقع البيضـاء بالقهوة ٠ وقد فعلوا ذلك مستخدمين قطعا من الاسفنج مربوطة في نهاية عصى طويلة ، ولكن الريس حسن أخذ فرشاة قديمة من الرسام وتفاخر بها ٠ واستغرق استكمال هذا العمل فترات بعد الظهر على مدى ثلاثة أيام ، وشعرنا جميعا بالأسى عند انتهائه وكان منظر الريس حسن وهو يتحسس الأنف الضخم الذي يماثله في

---

(١) هذه الطبقة الخارجية التي الت للمتحف البريطاني وضعت فوق باب يقود الى المكتبة في نهاية الردهة الشمالية التي أمام السـلم ٠ وعلمت من المرحوم مستر بونومي أن خلطة العجينة صنعها مستر هاى الذي أحضر معه مساعدا ايطاليا التقطه من القاهرة وأحضرا معهما عدة براميل من الجص وسلمين واخترعا وسيلة تماثل تلك القوائم والأعمدة التي أخذناها من الذهبية لوضع سقالات وساتر متشـابك للتمثـال المصبوب في الجص ٠ وكان التمثال في ذلك الحين مدفونا في الرمال حتى ذقنه مما جعـل عملهم أكثر سهولة ٠ وعندما أحضرت الطبقـة الخارجية التي كانت على الرأس الى انجلترا أرسلت الى ستوديو مستر بونومي مع عينـة من الطبقـة التي كانت على رأس تمثال ميت رهينة ، وعينة من رأس المسلة السـاقطة في الكرنك ، وعينـات من تراب النقوش الجدارية في بيت الوالي ٠ وأشرف مستر بونومي على عمل العجينة ووضع ذلك كله في المتحف بعد مرور حوالي ثلاث سنوات على صنع العجينة ٠ وقد حدث ذلك عندما كان مستر هاوكينز في منصب أمين المتحف ٠ وانا أورد هذه التفاصيل لأنها تهم كافة الذين يعرفون أبي سنبل ، ولأن قدرا كبيرا من سوء الفهم قد أحاط بالموضوع فقد نسـب بعض السياح تشويه الرأس الى لبسيوس ، ونسبه آخرون الى شركة كريستال بالاس ، وهكذا حتى ان المؤلفـة نفسها قد انقادت للمرحومة ميس مارتينيه فيما ذكرته من نسـبه هذا التشويه الى شامبليون ٠



تنقليف التمثـال

الطول ، ومنظر رزق الله ومساعد الطباخ وهما يترنحان هنا وهناك اثناء تناوب حمل القهوة التى أعدت « سميكة القوام وصلبة » لتأدية الغرض ، ومنظر سلام وهو يجثم متقاطع الساقين مثل بعض العفاريت المتكبرة فوق الطرف البارز من الغطاء العلوى ، ومنظر بقية البحـــارة وهم يثرثرون ويتقافزون كالقرود حول السقالة · كل هذه المناظر كانت مثيرة للضحك أكثر من كافة المناظر التى شاهدناها فى (أبو سنبل) من قبل أو من بعد ·

وكانت شهية رمسيس لشرب القهوة تفوق حد التصور ، حتى اننى لا أعرف عدد الجالونات التى استهلكها فى اليوم الواحد وقد وقف الطباخ مذهولا ازاء هذا الطلب الذى استنفد مخزونه من البن ، ولم يكن قد دعى من قبل لتقديم القهوة لضيف يبلغ عرض فمه ثلاثة أقدام ونصف القدم -

وكانت النتيجة تستحق التكلفة . لقد برهنت القهوة على أنها تضارع الحجر الرملى . وبالرغم من استحالة استعادة تناسق السطح الأصـلى فقد نجحنا على الأقل فى اخفاء تلك البقع الفظيعة التى شوهت هذا الوجه الجميل فجعلته فى مثل قبح المصاب بالجذام لسنوات طويلة .

ومع الانشغال بالتجديف والصيد والرقاد فى انتظـار التماسيح وتنظيف التمثال وكتابة بطاقات على أوراق الخطابات الرقيقة للأصـدقاء فى الوطن ، قضينا الأسبوع الأول بسرعة معقولة . وفى نفس الوقت كان الرسام والكاتبة يعملان بجد كل منهما بطريقته ، الرسام على قماش الرسم أمام المعبد ، والكاتبة تنقل خيمتها الصغيرة وهى تقوم بالكتابة،والآن فانه بالرغم من أن أكثر نواحى الحياة بهجة هو الرسم فانه من المسلم به أن الرسام فى أبى سنبل يعمل وسط مصاعب عديدة وعلى رأس هذه المصاعب تأتى صعوبة الموقع ، فالمعبد الأكبر يقع على بعد حوالى خمس وعشرين ياردة من حافة الضفة ، بينما يقع المعبد الصغير على مدى أقدام عديدة بحيث يستحيل الابتعاد عن الموضوع . لقد رسمت الكاتبة المعبد الصغير وهى على سطح الذهبية لعدم وجود نقطة على الشاطىء تنظر منها اليه . ويلى ذلك صعوبة اللون ، فكل شىء أصفر اللون ما عدا السماء والنهر . فكان اللون هو الأصفر بكل درجاته متدرجا فى ألوان البرتقال والذرة والمشمش والذهب والجلد المدبوغ ، والجبال من الحجر الرملى ، والمعابد من الحجر الرملى ، والمنحدر الرملى يصب الحجر الرملى من الصحراء ذات الحجـر الرملى . وفى هذه جميعها تجد نفس مقياس اللون الأصفر . وحتى الظلال التى تلمع فى الضوء المنعكس ، تعيد التكرارات المتدرجة للون السائد . ويلى ذلك أن الذى يبـذل جهده رغم تواضعه لاستخلاص حقائق المنظر أمام عينيه ، يضطر لتنفيذ ما يسميه رسامونا فى هذه الأيام السيمفونية الصفراء سواء عن طيب خاطر أو عن اضطرار .

وأخيرا ، فهناك المضـايقات الصغيرة التى تسببها الشمس والرمال والرياح والذباب ، فالمكان كله يشع بالحرارة ، والنور ، والتوهج من أعلى ومن أسفل مع عدم قدرة الانسان على تحمل وطأة ذلك كله .

واستنشقت الكاتبة التى نصبت خيمتها على المنحدر الرملى رائحة احتراق اللحم البشرى ، تحت وطأة هذه الحرارة الشديدة وهى زائغة العينين وعاجزة حتى عن النظر الى موضوعها بدون مساعدة النظارة التى

اصبحت بلون الدخان . وعندما تهب الريح من الشمال (وهو ما يحدث دائما خلال هذا الفصل من السنة) تقل شدة الحرارة ، ولكن الرمال تثير الغيظ . انها تملأ شعرك وعينيك وزجاجات الماء التي معك . وتلقى بالتراب على صندوق ألوانك ، وتجفف سماءك وتقلل من بياض اللون الأبيض فتحيله الى لون السلاطة لاختلاطه بالحصى . أما عن الذباب فان شهيته مفتوحة للألوان المائية حيث يتبع فرشاتك المبللة على الورق ويترك أرجله في مسحوق اللون الأصفر وتنغمس بشراهة فى اللون الأزرق الجاهز للاستعمال . وكل شيء حلو الطعم أمامه ولا يحمل أى لون السم اليه . كان وقتا ممتعا بكل المقاييس بالنسبة للذين عملوا والذين استراحوا .. وكان كل شيء يبعث على السرور . ثم انطلقنا الى وادى حلفا .

الفصل السابع عشر

الشـلال الثـانى

حملنا بطول الطريق من أبى سنبل الى وادى حلفا نسيم عليل ، وشراع منبسط فى مهب الريح ، واحساس بروعة الاجازة وسعادة غامرة . لقد بدأنا الابحار فى وقت متأخر بعد ظهر اليـــوم الأول ، واستطعنا أن نقطع مسافة تبلغ حوالى اثنى عشر ميلا قبل أن تهدأ الريح ، واستكملنا مسافة الثمانية والعشرين ميلا الباقية قبل ظهر اليوم التالى ، وكانت هذه هى آخر رحلة لنا فى النيل والسفينة منشورة الشراع . ورست فيلة عند وادى حلفا لكى يتم تفكيكها ، سينزل الشراع الكبير الذى كان موضـــع فخرنا ومبعث سرورنا . وستصبح ذهبيتنا برشاقتها وسرعتها مجرد صندل مكون من ألواح خشبية منشورة أكثر شبها بقوارب النزهة على نهر التيمز، منها بسفينة كيلوباترا التى تعمل بالمجاديف.وبعد أبى سنبل بمسافة قصيرة اخترقت الضفة الغربية سلسلة من الجبـــال البركانية تشبه فى ارتفاعها وحجمها وشكلها صفا من أبراج مارتيللو وقد فصلتها عن بعضها سلسلة من المنحدرات الرملية المتكاملة الشكل . بينما غطت هاماتهـــا المستديرة طبقة من أغرب الأحجار السوداء فى العـــالم ، مثـــل الزبيب المنثور على سطح الكعكة التى يعرفها تلاميذ المدارس باســـــم « القبعة السوداء » . ولما كنت قد ارتقيت أكثر من مرة قمـــة جبـــل ابشـــك (وهو أول جبل مرتفـــع فى هذه السلسلة ، وقد تشعبت قمته بنفس الأسلوب) فقد تعرفنا الى هذه الأحجار ، وعرفنا ما الذى كانت تتشابه معه ، فمن حيث اللون كانت سوداء أرجوانية تشوبها مساحات حمراء هنا وهناك . وعند طرقها تصدر صوتا مثل صوت الصخور التى تطلق شررا عند حكها ببعضها البعض ، أما شكلها فهو غريب . والتقط السيد (ل) بعضها الذى يشبه عناقيد العنب ، بينما كان بعضها الآخر مبروما وملتفا مثل حمم بركان فيزوف عند ثورته سنة ١٨٧١ . وكانت متناثرة على السطح بأحجام مختلفة ، فكان بعضها صغيرا فى حجم حبات الزبيب ، والبعض الآخر فى مثل حجم ربع الرغيف . وأنا أقول كما لو كنت من المتخصصين ان هذه الأحجار تنتمى الى نوعية نارية كانت فى حالة انصهار تغلى وتموج ثم اصطدمت بوسط شديد البرودة .

ويتسـع عرض المنظر عند نهاية السلسـلة على بعد حوالى ثلاثـة أو أربعة أميال جنوبى أبى سنبل ، وتظهر مجموعة من الجبـال الخارجية متناثرة فوق سهل واسع يمتد لعدة أميال فى الصحراء الغربية . وعلى الضفة الشرقية تظهر قلعة عدة (١) وهى قلعة رومانيـة ضخمة متعددة الأجنحة متجهة الى خرائب منعزلة فى آخر جرف على حافة الماء الى اليسار.

---

(١) هى قلعة تشبه قلعة ابريم من حيث الحجم والشكل ، وتحمل اسم قلعـة عدة. وقد هجرت منذ سنوات عديدة ، وهى محاطة بصخور قاحلة . ومازال جزء من حائطها القديم الذى يشبه حائط قلعة ابريم موجودا . وقد بنيت بعض أماكن الاقامة من الحجر وبعضها الآخر من الطوب . وترقد على أرض أعلى بقعة فى المدينة الصغيرة ثمانية أو عشرة أساطين جرانيتية ذات أبعاد صغيرة وبجوارها بعض تيجان الأساطين التى تنتمى الى العمارات الاغريقية ولكن بشـكل ردىء . (انظر كتاب بوركهارت : رحلات فى النوبة Travels in Nubia المنشور سنة ١٨١٩ ــ ص ٣٨) . وتجد فى كتـاب عربى عن تاريخ النوبة ــ كتبه مؤلف يدعى عبد الله بن احمد بن سليم الأسوانى ــ مقتطفات مما تضمنه كتاب المقريزى العظيم اقتبسها بوركهارت وكاترمير ، نقتطف منها الفقرة التاليـة :

« وتقع فى هذه المقاطعة (النوبة) مدينة بجراش Bedjrasch عاصمة ناريس ، قلعة ابريم ومكان آخر يسمى عدوة لها ميناء ويقال عنها انها مكان ميلاد لقمان الحكيم وذى النون وهناك معبد عظيم ــ انظر :

Mémoire Géographiques sur l'Egypte, etc. E. Quatremere, Paris, 1811 Vol. II. p. 8.

واذا كانت عدوة وعدة اسمين لمسمى واحد ، فمن المرجح أن تكون هذه الفقرة قد حفظت النص الوحيد الحديث نسبيا الدال على هذا المعبد العظيم المنحوت فى الصخر ، والذى تغطى الرمال مداخله حاليـا . ومن الواضح ان المقصود ليس هو معبـد (ابو سـنبل) (الواقع على الضفة المقابلة وشمال عدة بحوالى ثلاثة أو أربعة أميال) ولا هو معبد فريج (الذى يبعد قليلا وهو أيضا مكان صغير) ، ولكن هنـاك معبدا آخر يقع فى مكان ما بين (ابو سنبل) ووادى حلفـا ، لم يكتشف بعـد ، ولكن وجوده مؤكد حيث يدل عليه لوح كبير منحوت فى الصخرة التى تبعد خطوات شمال المعبد الصغير فى (ابو سنبل) . ويكشف هذا اللوح الذى يعتبر أكثر المصادر وضوحا وتفصيلا عن بوابة مصرية تعلوها الشمس المجنحة ، ويبين رمسيس الثانى متوجا وهو يتقبل الولاء من أمير ترجم روسيللينى اسمه هو (رمسيس ــ نينسكتى ــ هاباى) . ويسجل النقش الذى يشـغل ستة عشر أسطرنا سليمة تماما ــ القاب ومدائح الملك ، ويذكر كيف انه « اقام مسكنا أثريا للاله حورس أبيه ، وسيد هام ، وقد حفر فى باطن صخرة هام لكى يقيم له مسكنا يبقى لعدة أجيال . » ولا نعرف شيئا عن الصخرة هام (أطلق عليها روسيلينى اسم : سكيام) ولكن لا شك فى انها موجودة فى مكان ما يقع بين (ابو سنبل) ووادى حلفا ــ انظر :

« Qual sito precisarnente dinotisi in questo nome di Sciam, io non saprei nel presente stato delle cose determinare : credo peraltro secondo varie luoghi delle iscrizioni che lo ricordano, che fosse situato sul' una o l'altra sponda del Nnlo nel paese compreso tra Wadi-halfa e Ibsam- =

تصل بالسلسلة المقابلة لها الى نهايتها ، وتجاور سهلا مماثلا تتناثر فوقه أيضا القمم المنعزلة . والمنظر هنا شديد الروعة . اننا نشاهد جزيرة كبيرة تغطيها أشجار النخيل وتقسم نهر النيل الى فرعين يبدو كل منهما فى مثل اتساع النهر نفسه . وتنفتح مسافة غير محدودة نحو الأفق الفضى ، ولا توجد أية خضرة على الضفتين أو أية علامة تدل على نشاط انسانى ، فلا شىء يعيش هنا ، ولا شىء يتحرك ، فيما عدا الرياح والنهر .

ورغم غرابة القمم التى شاهدناها فان الجبال المحيطة أكثر غرابة . وسواء أكانت منعزلة أم فى مجموعات فانها تبرز هنا وهناك بين الصحارى التى على الجانبين مثل قطعة الشطرنج على رقعة اللعب . وهى معظمها مخروطية الشكل ، ولكنها ليست فوهات براكين خامدة مثل القمم البركانية المخروطية فى كوروسكو والدكه . ولما لاحظت الكاتبة كيف تبرز جميعها بنفس الارتفاع تقريبا ، وأن قممها كلها مغطاة بهذه الطبقة من الأحجار السوداء اللامعة ، فانها لم تستطع أن تمنع خيالها من رؤيتها شبيهة بجبلى روشيه دى كورنى Rocher de Corneille وروشيه دى سانت ميشيل Roche de St. Michel فى بوى Puy . ولابد أنها أجزاء من قشرة صخرية انفصلت وانجرفت بعيدا منذ فترة سحيقة من التاريخ العالمى وربما كان سطح قممها الحالية هو السطح القديم للسهل .

أما عن شكلها فهى موحشة بما فيه الكفاية تطبيقا لأشد الأفكار الجيولوجية التى تتعلق بالوحشة . وتتناقص جميعها تدريجيا مع الارتفاع نحو القمة . وقد لاحظنا أن أحدها له أربعة جوانب مثل الهرم . واتخذ

= bul, o poco oltre. E qui dovrebbe trovarsi il nominato speco di Horus, fino al presente occulto a noi, » — Rosellini, Letterpress to Monumenti Starici, vol. iii. part ii. p. 184.

ويظهر من ذلك أن صخرة هام ورد ذكرها فى نقوش أخرى .

وتبلغ المسافة بين (أبو سنبل) ووادى حلفا اربعين ميلا فقط والاماكن المشابهة بطول الضفتين قليلة جدا . واذا تم الكشف عن هذا المعبد فسيكون مشروعا يطمع السياح الى تحقيقه ، ويفوق من حيث فائدته ما يترتب عليه من ابادة التماسيح القليلة لعدد التى تعيش أسفل الشلال الثانى .

الآخر شكل مخروط مبتور ، وظهر الثالث كما لو كانت تعلوه مئذنة وقبة . وكان الرابع مجوفا على شكل عقود متصلة ببعضها البعض ، والخامس يتوجه تل من الأحجار المكدسة . وهكذا تتوالى تصورات الكاتبة عن النوعيات المختلفة التى لا نهاية لها . وربما استطاع أحد علماء الجيولوجيا أن يحدثنا عن هذه الثروات فيوضح لنا كيف تتابعت النيران والزلازل والفيضانات بعضها وراء بعض ، وكيف أن هذه الجبال التى كانت قبلا مغطاة بالأحجار البركانية ، قد انشطرت الى وهاد مما أدى الى فتح الوديان حتى عبرتها السيول التى اكتسحت الأجزاء الناعمة من الصخرة وتركت الأجزاء الصلبة فى مكانها .

وبعد قلعة عدة واختفاء سلسلة جبال (أبو سنبل) وجزيرة النخيل فى الصحراء ، وبعد أن تركنا خلفنا القمة الوحيدة المنعزلة التى تسمى جبل الشمس ، أتينا الى معجزة جديدة تقع فوق مجموعتين من الروابى المتناثرة تقع احدى المجموعتين على الضفة الشرقية والأخرى على الضفة الغربية . واذا حاول الانسان أن يجازف بتكوين رأى معين من على هذا البعد فانه لن يجد هذه الجبال ذات تكوينات بركانية ولا حتى تكوينات طارئة . وهى أحجام مختلفة بعضها صغير وبعضها الآخر كبير ، وجميعها مستديرة وناعمة ومغطاة بتراب بركانى ذى لون يختلط ما بين الأخضر والبنى . فكيف تكونت فى مكانها هذا ؟ وما سبب تكوينها ؟ وما الذى تحتضنه ؟ وهناك خرائب رومانية بجوارها . لقد مر الجنود الفارون وعددهم ٢٤٠ ألفا من هذا الطريق ، ولابد أن الجيشين المصرى والأثيوبى اللذين تدفقا بالآلاف بطول نفس هاتين الضفتين قد خاضا معارك عديدة فوق هذا السهل المكشوف . لقد افترضت كافة أنواع الاحتمالات وملأت رأسى بتخيلات عن الجيوش والجواهر والجرار التى تحوى رماد جثث الأموات ، حتى اننا أوشكنا فى هذه اللحظة أن نفقد نصف عقولنا ، ونوقف المركب ، ونرسو هناك ، ولكننا ارتضينا الأفكار الثانية التى وعدنا أنفسنا فيها بأننا سوف نحفر احدى هذه الروابى عند عودتنا .

والآن صار الهواء منعشا ، وأخذت الذهبية تشق طريقها بجرأة ، فتركنا الروابى خلفنا لندخل فى منطقة مهجورة حيث تتراجع الجبال تدريجيا وتعترض الضفاف الرملية الغارقة مجرى النهر .

ووجدنا عند احدى هذه الضفاف الرملية على بعد بضع ياردات من حافة الماء ما يشبه جذع شجرة ضخمة ربما كانت نخلة قديمة ساقطة ، ومازالت بعض بقايا السعف المكسور متصلة بها ، ويسمى أصدقائى الأمريكيون مثل هذا الشيء « نتوء أو بروز » . وانحنى الربان على ذراع الدفة الى الأمام ووضع اصبعه على شفتيه وهمس : « تمساح ! » وسرعان ما صعد الرسام والرجل الكسول والكاتبة جميعا الى سطح السفينة ، ولم يصدقه أحد . لقد شاهدوا لتوهم العديد من هذه النتوءات ولن يتركوا أنفسهم نهبا للتوتر بلا طائل مرة أخرى .

وأشار المرشد الى القمرة التى كان فيها السيد (ل) والسيدة الصغيرة منهمكين فى هذه النقيصة الصغرى التى تسمى : تناول شاى بعد الظهر ـ وهو يقول : « الست ! استدعوا الست ! ها هو التمساح » .

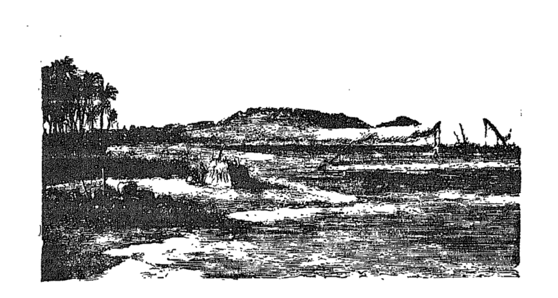
وفحصنا هذا الشيء بمنظارنا وضحكنا على المرشد الى درجة الاستهزاء . لقد كان أسوأ تقليد رأيناه للتمساح . وفجأة رفع جذع النخلة رأسه (أى التمساح) وحرك ذيله وثبت رجله فى الأرض وأخذ يعدو ويتلوى ويتموج فى سرعة شديدة على المنحدر وسرعان ما اختفى فى الماء حتى قبل أن نطلق صيحة تعجب .

وقد مر ثلاثتنا بوقت عصيب عندما حضر الاثنان الآخران وعرفا أننا رأينا أول تمساح دون أن يكونا معنا .

وفى صباح اليوم التالى مررنا بضفة رملية غاصة بالذيول المتحركة وبدت كما لو كانت بقعة ينعقد فيها برلمان التماسيح،فقد كان هناك على الأقل عشرون أو ثلاثون تمساحا حاضرين فى تلك الجلسة ، وبرهنت العلامات الحديثة على أن الاجتماع قد انفض لتوه .

وحملتنا رياح شديدة مسافة الثلاثين ميلا الأخيرة من رحلتنا ، وتخيلنا أننا قد وصلنا الى أقصى الجنوب حيث قابلنا أشد الأجزاء حرارة ، ولكننا نخشى أن نقول اننا كنا نرتعش فى داخل معاطف الفرو تحت أجمل سماء فى العالم ، وعند خط عرض يبعد كثيرا الى الجنوب من مكة أو كلكتا . وكان علينا فى مقابل ذلك أن نجرى بكل سرعتنا مقابل أسوأ مناظر النيل حيث كنا لا نرى الا الضفاف الرملية التى فى مجرى النهر ، بينما تمتد التلال والمسطحات الرملية على كلا الجانبين . وكان هناك شادوف مهجور ، أو هيكل قارب محطم عند حافة الماء ، وأخذت الريح تتلاعب بشجرة الدوم التى تناضل من أجل البقاء على حافة الضفة .

وعند ركن خطير يبعد حوالى ستة أميال جنوب وادى حلفا ، مررنا بأسطول صغير من الذهبيات المفككة من بينها الفسطاط ، وزنوبيا ، وأليس والمنصورة ـ وجميعها تحت رحمة الجو ، على عكس اتجاه هبوب الرياح • وكان على سطح المنصورة قبطانها والسيدة (أ •) لقد قضيا ثلاثة أيام لم يقطعا خلالها سوى هذه الأميال الستة وبذلك فانهما بمعدل السرعة هذا قد يصلان الى القاهرة بعد انقضاء عام وشهر بالتمام والكمال •



وادى حلفا

وعند الانحناءة التالية ظهرت أشجار النخيل فى وادى حلفا بلونها الأزرق على البعد • وعند الظهر رست فيلة مرة أخرى بجوار الباجستونز عند شاطىء مزدحم بالمراكب ، ومغطى بالبالات وصناديق البضائع،ومثل شواطىء المحطة وأسوان من حيث الازدحام بالأكواخ المؤقتة ، لأن التجار الذين يسافرون بالمراكب يحملون بضائعهم أو يفرغونها هنا وهم فى طريق ذهابهم أو عودتهم بين دنقلة والشلال الأول •

وكانت هناك ثلاثة معابد أو على الأصح ثلاثة مبان مصرية قديمة • كانت فى زمن ما قائمة مقابل وادى حلفا •

والآن ، لا يوجد سوى القليل من الأعمدة المحطمة وجزء منعزل من بوابة مبنية بالطوب وبعض بقايا درجات سلم حجرى يتجه الى النهر ، وحائط قريب تنمو عليه ثمار القرع البرية . وتشكل هذه الخرائب مع خان محلى منحدد الحجرات ، وشجرة جميز قديمة ، مجموعة صالحة للتصوير ، خلفها صخور عنبرية اللون تحدد مكان مدينة مفقودة (١) تنتمى الى عصر أوسرتسين الثالث .

ويبدأ الشلال الثانى بعد وادى حلفا بقليل ويمتد عدة أميال ، وهو يتكون مثل الشلال الأول من سلسلة من الصخور والجنادل ، وتحاذيه فى مسافة الأميال الخمسة الأولى حافة صخرية رملية تشكل كما سبق أن قلت خلفية للخرائب التى تواجه وادى حلفا . وتنتهى هذه الحافة بشكل حاد الى الربوة المشهورة التى تسمى صخرة (أبو صير). ولا يتجاوز هذه النقطة الا السياح المغامرون وهم فى طريقهم الى دنقلة أو الخرطوم ، وفى معظم الأحوال يتخذون الطريق الأقصر من كوروسكو عبر الصحراء . وقام السيد (ل) والكاتبة باستئجار بعض الجمال ، وتقدما حتى سمنة التى تستغرق الرحلة من وادى حلفا اليها يومين ، وهى تعتبر من أسهل الرحلات البرية بالنسبة لهؤلاء الذين تزودوا بخيام للرسم .

وقد يذهب الانسان الى صخرة (أبو صير) برا أو بحرا . وقد صحب الزوجان السعيدان الكاتبة مع بحارين وطنيين لهما خبرة فى تفادى عقبات الشلال ، وركب الجميع فى القارب . أما السيد (ل) والرسام فقد فضلا ركوب الحمير ، ومع هبوب ريح طيبة من الجانب الأيمن صعب علينا الاختيار بين الطريقين بصرف النظر عن عنصر الزمن ، ولا يستطيع من وصل الى الصخرة عن طريق الماء وشاهدها وهى ترتفع مثل الكاتدرائية فى وسط تلك المتاهة من الجزر الصخرية التى كان بعضها على شكل عناقيد من الأعمدة البازلتية ، وبعضها الآخر متوج بخرائب متداعية ، وبعضها الأخير مكشوف للرياح ، وبعض آخر أخذ

---

(١)
« Un Second Temple, plus grande, mais tout aussi détruit que le précéden, existe un peu plus au sud, c'était le grand temple de la ville Egyptienne de *Béhéni* qui exista sur cet emplacement. et qui d'après l'étendu des débris de poteries répandus sur la plaine aujourdhui déserte, paraît avoir été assez grande. » — Champollion, *Lettres écritse d'Egypte*, etc., ed. 1868 ; Letter ix.

اللون بسبب أشجار الرمان البرية ــ أن يشك فى أنها من أحسن المناظر صـلاحية للرسـم ٠

وبعد أن نزلنا بين أشجار الطرفاء عند قاعدة الصخرة وصلنا الى أطراف متناثرة من جرف رملى منحدر ومجهد لكل من يحاول أن يتسلقه بشكل أصعب من الجرف الرملى الذى عند (أبو سنبل) ٠ وقد تسلقناه بالرغم مما كنا فيه من عبوس ، ولما وجدنا راكبى الحمير جاثمين على القمة ، أنعشنا أنفسنا بجرعات من الليمونادة المثلجـة التى أحضرناها معنـا من وادى حلفا فى قلة من الفخار ٠

أما قمة الصخرة فهى منحـدر حاد ومعلق نحو الشرق والجنوب وقد نقشت عليه توقيعات تذكارية ، والقليل من هذه التوقيعـات هو الذى يثير الاهتمام ، ولكن أغلبها يسجل فقط زيارات أفراد مغمورين ٠ وقد وجدنا بينها اسم بلزونى ، ولكننا بحثنا دون جدوى عن توقيعات بوخارت وشامبليون ولبسيوس وأمبير ٠

ونظرا لطبيعة الأرض وصفاء المناخ ظهر لنا المنظر من هذه النقطة من أعظم المناظر التى شاهدتها طوال حياتى ، وهنا نرى صخرة (أبو صير) وهى ترتفع ارتفـاعا غـير ملحوظ ، وبذلك تعتبر مجـرد تل صـــغير بالقياس الى قمم بعض جبال الألب التى أعرفها ٠ وأشك فى أن يصـل ارتفاعها الى مثل ارتفاع الهرم ٠ وعلى أية حال فهى مكان يصاب الناظر منه الى أسفل بالدوار ، كما أنها تبدو أكثر ارتفاعا مما هى عليه ٠

ومن الصعب علينا ونحن هنا الآن ، معرفة أن هذه نهاية الرحلة ٠ والشلال خليط ضخم من الجزر الصغيرة السوداء واللامعة التى يتسع النهر عندها فيتفرع الى مئات من القنوات المنفصلة ، وينتشر الى مسافة بعيدة تبلغ أكثر من ستة عشر ميلا ، الا أنه يرغى ويزبد عنـد أقدامنا ويتحول الى رغاو وأمواج ، ويندفع هادئا عندما يكون مجراه خالصـا من العوائق ، ويزمجر فى وحشية عندما يصطدم ببعض العوائق ٠ وهو يسرع فى حين ، ويبطيء فى حين آخر ٠ ويتحول هنا الى دوائر مثـل الزيت ، ويرقد هناك فى شكل برك سـاكنة لا يقطع سكونها الا خرير الماء ٠ ويمتليء النهر فى كل مكان بالحياة والأصوات ، وتلمع فوق سطحه أشعة الشمس ٠

وفى ناحية الشمال حيث يتلوى فى اتجاه (أبو سنبل) نرى فى الأفق كافة الجبال العجيبة التى شاهدناها أمس ، أما فى الشرق فانه

يرتبط بالجبال التى تنتمى الى نفس السلسلة المنفصلة حيث توجد متاهة من البرية السوداء العاصفة التى تتفرع الى عدد لا حصر له من الوديان التى تتخللها بحور من الرمال . وفى الجانب الغربى يقطع استمرارية المنظر المنحدر الذى ينتهى عند (أبو صير) . وفى الجنوب تصل الصحراء الغربية الى سهل متموج ضخم لونه أصفر مائل الى السمرة ومجدب ويبعث على الملل ، بينما تلمح الشمس كلها والرمال كلها هنا وهناك بومضات من النيل الذى يمرق كالسهم . وترتفع قمتا جبلين فى الطرف البعيد من العالم ، احداهما طويلة والأخرى تشبه القبة . وقد ذكر النوبيون المرافقون لنا أن هذه هى جبال دنقلة . وبمقارنة موقعنا هذا بالشلال الثالث كما يظهر على الخريطة ، نصل الى استنتاج مهم هو أن هذه الأشكال الغامضة هى جبل فوجو (١) وجبل أرامبو ، وهما جبلان متوازيان يقعان فى جانبين متقابلين على نهر النيل ، على بعد حوالى عشرة أميال جنوب هانيك ، وعلى بعد حوالى ١٤٥ ميلا من البقعة التى نقف عليها .

ولا يوجد شىء حقيقى وجميل فى كل هذه الصورة الغريبة ذات الطابع البرى والموحش الا اللون ، ولكنه لون رفيع فلم أر فى مصر شيئا يمثل هذه الرقة والشفافية والتناسق . اننى أغلق عينى ويمر المنظر كله أمامى فأرى اللون العنبرى للرمال والجبال ذات اللون الوردى واللولى ، وصخور الشلال وكلها سوداء وأرجوانية ومصقولة ، والنخلات الرمادية التى تتشابك هنا وهناك فوق الجزر الكبيرة ، وأشجار الطرفاء والرمان ذات الخضرة الداكنة ، والنيل بلونه البنى الذى يميل الى الخضرة المشوبة بالرغاوى التى بلون الخميرة . وفوق كل ذلك السماء الزرقاء الحارقة التى يتخللها الضوء وأشعة الشمس المتلألئة .

لم أرسم شيئا فقد شعرت أنه من السخف أن أحاول ذلك . وأشعر الآن بأن أية محاولة لتصوير المنظر بالكلمات هى مجرد جهد متطفل لوصف ما لا يمكن وصفه . ان الكلمات أدوات نافعة ، ولكنها مثل ابرة الحفر على الألواح المعدنية والحامض المستخدم معها من حيث انهما يعجزان عن التشكيل ولا يستطيعان ترجمة الألوان فى هذه اللوحة العجيبة . واذا سألنى سائح وقته محدود عما اذا كان من الضرورى أن

---

(١) جبل فوجو كما يظهر على خريطة مصر والنوبة التى رسمها كيث جونستون هو جبل على برصى الذى ذكره لبسيوس .

يذهب الى ما بعد الشلال الثاني ، فانني كنت سأنصحه بالعودة من (أبو سنبل) لأن هذا الجزء من الرحلة يستغرق أربعة أيام ، واذا لم تكن الريح مواتيــة بطريقــة ما ، فانه سيســتغرق ستة أو ســبعة أيام • أما مسافة الأربعين ميــلا من النهر التى يجب قطعها مرتين فهى أصعب أيام الرحلة النيلية • والشلال هنا صورة مكبرة من الشلال الذى بين أسوان وفيلة • والمنظر العظيم كما سبق أن قلت ، ليس بهذا النوع من الجمال الذى يجذب السائح العــادى •

هناك أهمية تتجاوز مشاهدة الجمال ، فالمنظر يثير الخيال للاحساس بعظمة نهر النيل ، اننا ننظر عبر عالم من الصحراء ونرى النهر قادما من بعيد • لقد وصلنا الى نقطة ينتهى عندها كل ذلك المألوف والمعتاد بشكل حاد • فلا نشاهد قرية أو حقلا للفول أو شادوفا أو ساقية ، فى السهل الممتد • كما أنه لا يوجــد أى شراع يعمــل فى هذه الميــاه الخطرة • ولا يوجد مخلوق واحد يتحرك فوق هذه الرمال المعــدومة المســالك ، فيما عدا أعمدة التلغراف التى تبــدو كالأشباح عبر الصحراء • ويبــدو أننــا قد وصلنا الى أطراف الحضارة ، وأننــا نقف على أعتاب أرض لم تكتشف بعد ، وبالرغم من كل ذلك فاننا نحس كما لو كنا عند بداية النهر العظيم • لقد قطعنا ألف ميل ضد التيار ولكن ـ ماذا عن المسافة التى تفصلنا عن البحيرات العظمى ؟ وكم تبلــغ المســافة التى يجب أن يقطعها الانسان بعد البحيرات العظمى بحثا عن المنبع الذى لم يكتشف بعد ؟

ولم نبق فى وادى حلفا الا ليلة واحدة ، وقمنا برحلة واحدة الى الشــلال ، ولم نشــاهد التماسيح بالرغم من كثرتها بين هذه الجزر الصغيرة الصخرية • أما م • • ، ب • اللذان قضيا هنا أسبوعا فقد كان لديهما العديد من قصص التماسيح وانجازات الفريد بأسلحته • لقــد اقترب من وحش وأطلق النار عليه قبل وصولنا بيومين ولكن الوحش اندفع عائدا الى الماء بعد إصابته وهو يلوح بذيله فوق رأسه غاضبا ، ولم يره أحد بعد ذلك أو يسمع عنه شيئا •

ويبدو أن ذلك التمساح كان مثل أخيل لا يمكن اصابته الا فى نقطة واحدة • وتقع هذه النقطة غير المدرعة خلف ذراعه الأمامية • وكان من الممكن أن يقتل هناك عددا كبيرا لو كانت الطلقات تتخذ طريقها الى النقطة الحيوية ، أو كانت من النوع الجهنمى الذى « ينفجر فى جسم الفريسة » • وحتى اذا أصاب التمساح بجرح قاتل فمن النادر أن يكون

قد أصابه فى النقطة غير المدرعة ، فيندفع التمساح بكل قوته المختزنة عائدا الى الماء ويموت فى القاع • وترتفع الجثة بعد ثلاثة أيام وتطفو على سطح الماء ، وقد بقى أصدقاؤنا حتى الآن لكى يضع ألفريد لعبته الضخمة فى الحقيبة مع أن الوحش المسكين قد زحف الى حفرة أو اختفى بين الأحراش ولن يظهر مرة أخرى • وفى مقابل كل تمساح هناك دستة من التماسيح التى تعود الى الماء وبعد أن تعانى الآلام تحت الماء تموت بعيدا عن مدى الرؤية وخارج متناول الصياد •

وعندما كنا نتسلق صخرة (أبو صير) ،كان رجالنا مشغولين فى انزال الشراع الكبير واعداد فيلة للقيام برحلتها الطويلة والمرهقة فى الاتجاه المغاير • ولما عدنا وجدنا الصارى الرئيسى موضوعا مثل شجرة تظلل على رؤوسنا ،وقد طوى الشراع فى شكل كرة ضخمة ووضع على سقف المطبخ • أما الصارى الصغير وشراعه فقد وضعا فوق الصارى الرئيسى • وتم ربط كل ستة مجاديف على جانب من جانبى الذهبية • وتحول السطح السفلى الى مقاعد لجلوس المجدفين • وبهذا التغيير تحولت الذهبية الى سفينة مسطحة تسير بالمجاديف • وأصبحت مجاديفها هى قوتها المحركة ، كما أصبح فى قدرة طاقمها المكون من المجدفين (الذين كان التيار فى صالحهم) أن يقطعوا ثلاثين ميلا كل يوم • وعندما تهب رياح طيبة من الجنوب فانه يكفى الشراع الصغير والتيار لكى يندفع المركب الى الأمام ، ويدخر الرجال قوتهم للتجديف أثناء الليل عندما يتوقف هبوب الرياح • وأحيانا عندما تصير الرياح هادئة ويحتاج المجدفون الى الراحة فان الذهبية تنقاد بأجهزتها الخاصة فتطفو مع التيار ، وتتراقص مترنحة فى وسط المجرى ، أو تنحرف جانبا مثل حصان مستر وينكل ، فتتجه مرة الى الضفة الشرقية ثم تغير رأيها وتنحرف فى المرة الأخرى الى الغرب ، وبذلك تقطع حوالى ميل ونصف أو ميلين فى كل ساعة فى المتوسط • وهى بذلك تقدم عرضا مسرحيا تصور فيه المعتوهة عديمة الحيلة أمام المشاهدين المشفقين • وفى أوقات أخرى عندما تهب الريح القادمة من الأمام بشدة ، لا تنفع المجاديف ولا التيار ، ولا يكون أمامنا من منفذ سوى أن نركن بالذهبية الى جانب الضفة فى انتظار أوقات أفضل للابحار •

وتلك كانت حالتنا المحزنة أثناء عودتنا الى (أبو سنبل) • وبعد أن كافحنا بصعوبة كبيرة خلال الخمسة والعشرين ميلا الأولى وصلنا الى وقفة تبعد حوالى منتصف المسافة بين فراس وجبل الشمس • يحملنا التيار الى الأمام ، وتدفعنا الرياح الى الخلف ، تضربنا الأمواج وتهزنا اهتزازات المركب الى هنا وهناك • وأخيرا دخلت فيلة فى ركن هادىء

بعد تذبذب دام عدة ساعات · وهناك تركت فى سلام حتى يتغير اتجاه الرياح أو تتوقف كلية ·

وبعد أن قضينا يوما ونصف اليوم فى هذا السجن ، وجدنا أنفسنا بالصدفة فى متناول الروابى التى فكرنا فى استكشافها · واتجهنا أولا الى تلك الواقعة على الضفة الشرقية ، وقد صحبنا معنا فى القارب أربعة رجال للتجديف والحفر ، ومجرفة للنار ، وفأسا صغيرة ، وقضيبا حديديا ، وسلة كبيرة من الخيزران · وهذه هى كل الأدوات التى نمتلكها ، وهى أيضا ما نحتاج اليه حينذاك وفيما بعد · وكذلك الأدوات التى لابد أن تتزود بها كل ذهبية عند الابحار وهى جاروفان أو ثلاثة وزوج من المعاول ذات الطرف المدبب وعتلة حديدية ·

وبعد أن صعدنا الى قمة أعلى هذه الروابى بدأنا فى عمل مسح للأرض · الصحراء راسخة حتى القاع ، ومسطحة ، ومتينة ، وقد تناثرت فوقها الحصباء الكثيفة · ولم نر الا القليل من الرمال الصفراء الناعمة التى تتميز بها الصحراء الغربية ، وهذا القليل يتركز مثل الثلوج فى أكوام وشقوق وتجاويف كما لو كانت الرياح قد حملته الى هناك · وقد غطيت قمم هذه الروابى بتراب من الطمى الخالص يتميز بالنعومة والصلابة والتماسك · وقد أحصينا من أكوام هذا التراب أربعا وثلاثين كومة يتراوح ارتفاعها ما بين خمسة الى ثلاثين قدما ، ورأينا الكثير منها على الجانب المقابل من النهر ·

وبعد أن وقع اختيارنا على كومة منها يبلغ ارتفاعها حوالى ثمانية أقدام كلفنا البحارة بالعمل · وبالرغم من استحالة شق وسط هذه الكومة بهذا العدد القليل من الرجال وذلك العدد المحدود من الأدوات ، الا أننا نجحنا بوجه عام فى الحفر حتى وصلنا الى طبقة من كتل الصلصال الخام غير المنتظمة الشكل والتى يمكن تشكيلها باليد ·

وسواء أكانت هذه الطبقة تشكل أساس الربوة أم تخفى قبرا محفورا تحت مستوى الصحراء ، فلم يتوفر لنا الوقت أو الوسائل للتأكد من ذلك ، ولكننا أقنعنا أنفسنا بأن هذه الروابى اصطناعية (١) ·

---

(١) بالعودة الى كتاب الكولونيل فايس : رحلة فى مصر العليا Voyage into Upper Egypt etc. ارى أنه قد شق احدى هذه الروابى ولكنه لم يجد دليلا على أية انشاءات « اصطناعية » واستطيع استنتاج أنه لم يمض فى حفره الى مسافة كافية لأنه من الصعب افتراض أن الروابى أقيمت بدون هدف ، ولا أعتقد أنها تستحق تحقيقا منهجيا آخر ·

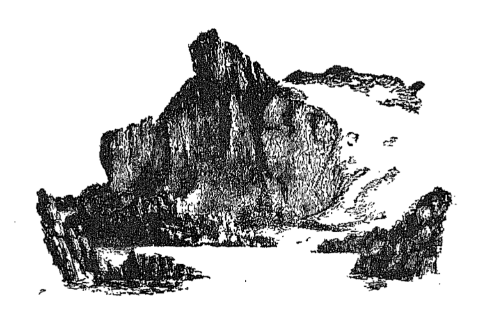
وعند ذهابنا قابلنا فلاحا نوبيا يسير متثاقلا فى اتجاه الشمال وهو يقود جملا بائسا وقد حمل تحت ذراعه ديكا أبيض اللون ، وتسير خلفه امرأة خائفة سحبت شالها على وجهها وأخفت نفسها خلفه وهى ترتعد لرؤية الانجليز · وسألنا الرجل عن ماهية هذه الروابى ومن الذى أقامها ، ولكنه هز رأسه وقال انها « موجودة فى مكانها منذ زمن بعيد » وسألناه مرة أخرى عن الاسم الذى تعرف به فى هذه الأجزاء التى دفع عندها جمله الى الأمام ،فأجاب مترددا أن لها اسما ولكنه نسيه ·

وبعد أن كان قد تقدم قليلا عاد مرة أخرى قائلا انه تذكر الآن كل ما يتعلق بها وأنها كانت تسمى « قرون ياكما » ولم نستطع أن نحصل منه على بيانات أكثر من ذلك ، أما من هو ياكما ، أو كيف أصبحت له قرون ، ولماذا اتخذت قرونه شكل الروابى ؟! فهذه أسئلة أصعب من أن يجيب عنها ، ولا نستطيع نحن أن نخمن أجوبتها ·

ومنحناه بقشيشا صغيرا مقابل هذه المعلومة السرية ، ومضينا فى طريقنا بأقصى سرعة ممكنة ، وفى نيتنا أن نجدف عبر النهر ونرى الروابى التى على الضفة الأخرى قبل غروب الشمس· ولكننا لم نتحسب لصعوبة شق طريقنا بين سلسلة من الضفاف الرملية أو المضى قدما فى اتجاه الشمال لمسافة ميلين ، وذلك لكى ندور حول القناة الملاحية التى فى الجانب الآخر · وبالطبع فاننا جربنا الطريق الأقصر · وبعد أن جرينا على الأرض ثلاث أو أربع مرات ، صرفنا النظر عن المحاولة ، ورفعنا شراعنا الصغير وانساق القارب عائدا بأسرع ما تستطيع الريح أن تحملنا اليه ·

وعلى ذلك فقد كانت عودتنا بعد الرحلة بالقارب من أمتع الأشياء التى نتذكرها عن النيل · لقد غربت الشمس ، واختفى نور الغسق ، وأخذت النجوم فى الظهور·وبعد أن اقتنعنا بأننا رأينا وعملنا شيئا ، أخذنا ننصت الى الأغنية الحالمة القديمة التى يتغنى بها المجدفون ، والى خرير الماء المترقرق تحت هيكل السفينة · وفى نفس الوقت كنا نرى أشجار النخيل وهى ترتفع أمامنا فى لونها البرونزى الى عنان السماء · وسرعان ما أخذ المركب الكبير يلوح وسط الغسق وهو يتألق بالأضواء ، وصوت الغناء يتعالى من مؤخرة المركب · وأخذنا ننزلق تحت الانحناءة · وكانت هناك نصف دستة من الوجوه السمراء تلقى علينا السلام ، مع الأيدى التى امتدت لتساعدنا على الوصول الى الشاطىء · وقد حمل النسيم رائحة طيبة قادمة من المطبخ ، واستقبلنا منظر صالة الطعام المبهجة وفى

وسطها المائدة المجهزة والمصابيح المشتعلة وهى تلقى علينا بأنوارها من خلال المدخل المفتوح · لقد عدنا الى مكان اقامتنا مرة أخرى · دعنا الآن نأكل ونشرب ونستريح ونشعر بالمرح ، لأن غدا سيبدأ العمل الشاق مرة أخرى لمشاهدة المناظر ورسم الصور التخطيطية ·



صخرة (ابو صير)

الفصل الثامن عشر

الاكتشــافات فى (أبو سنبل)

عدنا لكى نجد أسطولا من الذهبيات المصفوفة بطول الشاطىء عند (أبو سنبل) • وقد نصـب على الأرض هنـاك ما لا يقل عن ثلاث خيام للرسم • وتقع احدى هذه الخيام فى البقعة التى أخلاها رسامنا • وقد اختصر حجمها لكى تفسح مكانا للمستأجر الأصلى • وعلى مدى ساعتين تعودنا على الجو العائلى كما لو كنا لم نبرح المكان لمدة نصف يوم •

وفى نفس الوقت وجدنا صديقتنا القديمة الفسطاط وعليها الوجهاء من ركابها• وهناك زنوبيا وكل ركابها من السيدات وهن أليس الصغيرة، مع سير ج • س • ، ومستر و • على سطحها • والذهبية سيرينا وقد رفعت العلم الأمريكى ، أما الذهبية المنصورة فقد ربطت بشدة الى الذهبية الفيوم • وفى اليوم التالى أضيفت الى هذه الذهبيات ، ذهبيتان تحملان العلماء الألمان ، ثم الباجستونز وقد عادوا بالسلامة من وادى حلفا •

أما عن الوصول والرحيـل وتبـادل الزيارات وعرض الرسوم ، والترفيه من مختلف الأنواع ، فقد قضينا وقتـا سعيدا • وقد أقـامت فيلة حفل عشاء وموسيقى تحت أنف التماثيل الضخمة ، وقد اندمجت أطقم الذهبيات جميعا فى الطبل والصياح لطرد أشباح رمسيس وجميع ملكاته • وكان ذلك مبهجا حقا مع استمراره ، ولكن عندما رحل الغرباء واحدا وراء الآخر ، عدنا مرة أخرى للوحدة ، ولم نكن آسفين لأن المكان كان أكثر وقارا بالنسبة « للغناء والضحك واختلاس النظر الى الفتيات ، وما شابه ذلك » •

عندما نقارن سهرنا أثناء الليل بسهر السياح الذين قابلناهم فى (أبو ســنبل) نكتشف الآن كيف زاغ منظمو أوقـات السهر عندنـا؟

وعندهم . لقد كنا نعدل برامجنا دائما منذ رحيلنا عن القاهرة ولكن الشمس كانت تفسدها دائما ، وبذلك فقدنا التحكم فى الزمن بوجه عام . وكانت أول كلمات نحيي بها كل قادم جديد هي : « هل تعرف كم الساعة الآن ؟ » وكان القادم يرد قائلا بأن هذا هو نفس السؤال الذى كان هو نفسه على وشك أن يسألنا اياه . وتضخمت المشكلة أخيرا حتى اكتشفنا أننا كنا نقضى حوالى احدى عشرة ساعة من اليوم الى ثلاث عشرة ساعة باضافة بعض ساعات الليل . فقررنا اصدار مرسوم تقديرى بحيث نقول ان الساعة تبلغ السابعة عند شروق الشمس وتبلغ السادسة عند غروبها . وكان فى ذلك تلبية لكافة الأغراض .

وحسب هذا التوقيت الذى ابتدعناه كان نجم الصليب الجنوبى يظهر كل صباح ، ولا شك فى أن رؤيته من (أبو سنبل) أفضل من أى مكان آخر . والنهر هنا شديد الاتساع ، وحيث ترتفع مجموعة البروج توجد فتحة فى الجبال التى على الضفة الشرقية ، وبذلك فان هذه النجوم الأربعة يمكن رؤيتها من خلال فراغ واسع من الجو بالرغم من أنها كانت لا تزال منخفضة فى السماء ، وبذلك يتولد عنها منظر أعظم مما يتوقعه الانسان ، ربما لأننا كنا نشاهدها من زاوية منخفضة جدا . واذا قلنا ان مجموعة البروج قصرت أبعادها فى المنظور ، فان صدى ذلك سيكون سخيفا ، ولكن هذه هى الحقيقة التى تتعلق بالصليب الجنوبى عند (أبو سنبل) واذا نظرنا اليه من زاوية تبلغ حوالى ٣٠ درجة فلابد وأن يظهر مشوها ومظلما . واذا نظرنا اليه وهو يحترق فى سمت الرأس فانه سيصل بلا شك الى مستوى شهرته المعروفة . والآن فان ذلك هو اليوم الخامس بعد عودتنا من وادى حلفا عندما حدث حادث أثار حفيظتنا الى أعلى درجة من الاثارة وجعلنا فى قمة التوتر خلال بقية الوقت المتاح لنا .

كان اليوم هو الأحد والتاريخ هو ١٦ فبراير سنة ١٨٧٤ ، أما الوقت حسب ما تدل عليه فيلة فهو حوالى الحادية عشرة صباحا عندما كان الرسام يستمتع بيومه السابع من اجازته بعد عودته وقد خرج يتمشى الهوينى بين الصخور ، وقد حدث أن اتجه بخطواته جنوبا ، وبعد أن عبر مقدمة المعبد الكبير صعد الى قمة ربوة غير محددة الشكل مكونة من صخور ساقطة ورمال ، وحائط من الطوب مقابل الركن الذى ينحدر فيه الجبل ناحية النهر . ولما نظر من هذا الركن بسرعة نحو الجنوب واقترب حتى مسافة ضيقة من حافة بارزة من الصخر الضيق ، وجد مائدتين للقرابين منحوتتين وملونتين ، يعود تاريخهما الى العام الثامن والثلاثين من حكم رمسيس الثانى . وقد رأيناهما من النهر عند عودتنا من وادى حلفا ،

ولحظنا روعة المنظر من هذه النقطة • وبصرف النظر عن حقيقة أنهما ملونتان وأن اللون كان ما زال يلمع فوقهما ، فاننا لم نلحظ شيئا يلفت الانتباه فى هذه النقوش لأنه يوجد الكثير من أمثالها فى (أبو سنبل) ؛ ولذلك فان رسامنا لم يحضر لفحص اللوحات فقد كان مندهشا لجمال المنظر •

وبمجرد أن إستدار للعودة أثارت انتباهه بعض النقوش المشوهة على الصخرة التى تبعد عدة ياردات عن الركيزة الجنوبية للمعبد • لقد رأى هذه النقوش من قبل • ورأيتها أنا أيضا عندما كنت أتجول فى اليوم الأول بحثا عن وجهة النظر دون أن أهتم بها • كان النقش غائرا ، والتنفيذ رقيقا ، والسطح مكسورا بحيث لم يبق من النصوص الا خطوط قليلة تثير الارتبـاك •

أما الشيء الذى أثار انتباه الرسام الآن فهو شق طويل عمودى على وجه الصخرة • ويبدو أنه حدث عن عمد ربما بسبب عاصفة شديدة •

فأحنى ظهره وأزال الرمال بيده جانبا ، فلاحظ أن الشق آخذ فى الاتساع ، فدفع فيه طرف عصاه ، ووجد أن عمقه يصل الى قدمين أو ثلاثة أقدام • وحينذاك خطر له أن يتوقف ليس لأنه اصطدم بعائق ، ولكن لأن الشق لم يكن متسعا بما يكفى لمرور الطرف السميك من العصا •

وقد أثار ذلك دهشته لأنه لم تكن هنـاك أية شائبـة فى الصخرة الطبيعية ، وفكر فى أن يمضى الى أبعد من ذلك فأزاح بعض الرمال مرة أخرى ، ومازال الشق يتسع • ودفع بالعصا مرة أخرى • كانت العصا من جريد النخل مثل العصا المستخدمة فى تسلق الجبال ، ويبلغ طولها نحو خمسة أقدام • وعندما دفعها فى الشق للمرة الثانية مضت معـه فى حرية حتى الطرف الذى أمسـك به فى يـده • أى الى عمق حوالى أربعة أقدام •

لقد اقتنـع الآن بوجود ثغرة مخفية فى الصخرة ، فقـام بفحص السطح بعناية ، فظهرت بعض الحروف الهيروغليفية وجزء من خرطوشين مع بعض الخطوط الخارجية المحطمة لأشكال قديمة • وقد ضاعت رؤوس هذه الأشكال (فى هذه البقعة أزيل وجه الصخرة الذى كانت مرسومة فوقه بكامله) ، بينما كانت هى مختفية تحت الرمال ابتداء من وسطها ولم نستطع الكشف الا عن بعض الأيدى والأذرع فقط •

كانت هذه الأيدي والأذرع تخص أربعة من الأشكال . اثنان منهما في وسط التشكيل والاثنان الآخران في الطرف البعيد . أما الاثنان اللذان في الوسط واللذان كانا يقفان وقد أولى كل منهما ظهره للآخر ، فهما اثنان من الآلهة بينما كانت الأشكال الأخرى تمثل العابدين .

ولاح في ذهن الرسام أنه قد شاهد هذه المجموعة من قبل خاصة فوق أحد المداخل . وعاد الينا وقد أحس بأنه على وشك تحقيق كشف علمي . وأخذ معه سلام ومحمد علي ، ولم يقل كلمة لأي أحد . بدأ العمل مع هذين الاثنين في ازالة الرمال في البقعة التي أخذ الشق يتسع عندها .

وفي نفس الوقت كان جرس الغداء قد دق ثلاث مرات فاستنتجنا ان الرسام كان يتجول في مكان ما في الصحراء ولذلك جلسنا لتناول الطعام بدونه . وعندما اقتربنا من نهاية الغداء وصلت الينا ملحوظة مكتوبة بالقلم الرصاص مضمونها كما يلي :

« من فضلكم احضروا حالا . لقد وجدت مدخل مقبرة . من فضلكم أرسلوا بعض الساندوتشات – أ . م . س » .

وتبعنا الرسول سريعا الى موقع العمل حيث شاهدنا النزوة العامة . كنا هناك بعد أقل من عشر دقائق ، وأخذنا ونحن مبهورو الأنفاس نسأل أسئلة ، ونختلس النظر الى داخل الثغرة الآخذة في الاتساع ونساعد في ازالة الرمال .

وقضينا بعد ظهر يوم الأحد غير مهتمين بأن نصاب بضربة شمس ، وغير متنبهين للاجهاد ، وقد ركزنا على أيدينا وركبنا تحت أشعة الشمس الحارقة ، وحضر الينا بقية البحارة وأخذوا يعملون مثل النمور . لقد ساعد الجميع حتى الترجمان والفتاتان ، وعندما كنا نتوقف لالتقاط الأنفاس كنا نخاطب بعضنا بعضا قائلين :

« ماذا كان سيقول أصدقاؤنا في الوطن لو شاهدونا في مثل هذه الحال ؟! » .

وأحسسنا الآن أكثر من أي وقت مضى بالحاجة الى الآلات . فلو كان لدينا مجرفة أو اثنتان وعربة يد ذات عجلة واحدة ، لاستطعنا

عمل المعجزات · ولكن لم يتوفر لنا الامجرفة فخم صغيرة ، ومكنسة من الليف ، وسلتان من سلال الفحم النباتي ، وحوالي عشرين زوجا من الأيدي البشرية · لقد كنا فقراء حقا ، وقد استطعنا أن ننجز بالأسلوب ما كان يحتاج الى الانجاز بالوسيلة · قام بعضنا بازاحة الرمال ، وقام البعض الآخر بوضعها في السلتين ، وحمل البعض الآخر السلتين الى طرف الصخرة وأفرغهما في النهر · أما الرجل الكسول فقد شغل نفسه بحفر قناة الى حيث كان المنحدر شديد الانحدار فسهل العمل ، وحافظ على بقاء القناة خالية ، مما جعل الرمل يندفع منها كما لو كان سيلا من الماء ·

وفي نفس الوقت أخذت الفجوة تتسع سريعا · وبعد مرور ساعة من بدء العمل الذى بدأه الرسام والبحاران وجدنا ثقبا يسمح بمرور يد الانسان · استطعنا عن طريقه أن نلمح الحوائط الملونة خلفه · وعند غروب الشمس كنا قد كشفنا عن قمة المدخل · وعندما انتهى الشق الى كسر مثلث الشكل ، وصلنا الى ثغرة تصل مساحتها الى حوالى قدم ونصف قدم مربع · وكان محمد على هو أول من دخل فيها ، وتبعناه مع شمعة وعلبة ثقاب ، ولكنه خرج مسرعا قائلا انها بربة رائعة الجمال ، وداخلها مضيء ·

ثم دخلت الكاتبة بعده فوجدت نفسها تنظر من قمة منحدر رملى الى غرفة صغيرة مربعة · أما هذا المنحدر الرملى الذى يرتفع هنا الى حوالى قدم ونصف قدم من قمة المدخل ، فقد كان مكوما الى السقف في الركن الذى خلف الباب ، ثم انحدر بحدة الى أسفل ، حتى غطى الأرضية تماما · وكان هناك ضوء كاف لرؤية كافة التفاصيل بوضوح ، فهناك الافريز الملون الذى يدور تحت السقف · والنقوش البارزة المرسومة على الحوائط وقد لونت بألوان زاهية ، والرمل الناعم المكوم بالقرب من القمة حيث دخل محمد على · ولما لم يتوزع الى أية ناحية أخرى بفعل انسان ، فان الفتحة الكبيرة فى وسط السقف حيث أفسحت الصخرة الطريق والقطع الساقطة على الأرضية ، كل ذلك دفن معظمه الآن تحت الرمال ·

وشعرنا بالرضا لأن المكان لم يمسه أحد · وخرجت الكاتبة زاحفة ، بينما دخل الآخرون زاحفين ، واحدا فواحدا · وبعد أن شاهدها كل منهم بدوره ، تم اغلاق الفتحة فى المساء ، ومنع البحارة من الدخول حتى لا تضار الزخارف ·

وفى هذا المساء عقدنا مجلساً استشارياً حيث قررنا أن يذهب تلحمى والريس حسن غداً الى أقرب قرية للحصول على خدمات خمسين من المواطنين الأشداء • وقدرنا أننا نستطيع بمساعدتهم أن نكشف عن المكان فى مدة يومين بسهولة ، وتعشمنا أن نكشف عن المدخل الى مكان المومياء أسفل المقبرة • أما اذا كانت مجرد هيكل صغير أو غرفة مثل تلك الموجودة فى أبريم فسنشعر بالرضا ؛ لأننا على الأقل قد شاهدنا كل ما تضمنته من رسومات ونقوش •

وقد حدث ذلك بالفعل ولكننا فى صباح اليوم التالى عملنا بجد حتى منتصف اليوم • ثم اتخذ رفاقنا الوطنيون وعددهم حوالى الأربعين ، طريقهم الى مركب قديم مخلع كان قاعه ممتلئاً بالماء حتى المنتصف •

لقد طلبنا منهم احضار أدوات وقد أحضروا بعضها ومنها مجدافان مكسوران لاستخدامهما فى الحفر ، وبعض السلال وعدد من القطع الخشبية التى كانت تربط بين قطعتين من الحبال ، ويتم سحبها بطول السطح ، مثل الطرف المكون من قطع غير متجانسة • وكانت جميعها مفيدة بحالتها الراهنة • وقد استخدمت هذه الألواح فى رحلة مزدوجة من المدخل الى الحجرة الى حافة الصخرة مع الغناء البدائى • تم دفع هذه الألواح حتى استطاع الرجال اخلاء ممر الى المدخل • وكان ذلك سببا فى قيامهم بعمل اضافى حتى بعد ظهر اليوم • وعند غروب الشمس ، وبعد أن تشتتوا ، كان الممر قد تم تجويفه الى عمق أربعة أقدام مثل نموذج مصغر لخط سكة حديد يمر بين رصيفين من الرمال •

وفى صباح اليوم التالى حضر الشيخ نفسه ومعه ابنان ، ويتبعهما مائة رجل • وكان هذا العدد أكبر مما أردناه ، فخطرت لنا فكرة ابتزاز الأموال • وقد برهن الشيخ على أنه صورة طبق الأصل من رشوان ابن حسن الكاشف الذى استمتع الزوجان السعيدان من قبل بضيافته الكريمة لمدة أسبوعين ، ولذلك استقبلناه بالترحاب ، ودعوناه لتناول الغداء • ولكى ننهى العمل بسرعة قسمنا الرجال الى مجموعات تحت اشراف الريس حسن ، وكبير البحارة • وعند الظهر أزيحت الرمال عن الباب حتى عتبته السفلى وظهر الحائطان الجنوبى والغربى بكاملهما • وقد اكتشفنا الآن أن الأطلال التى سدت الحائط الشمالى ووسط الأرضية ليست كما افترضنا من قبل مجرد كومة من الأجزاء الساقطة ، ولكنها صخرة صلبة سقطت بكاملها من أعلى ، وكان من الصعب تحريكها ، فلم تكن لدينا أدوات للقطع أو التكسير ، وكانت أعرض وأعلى من المدخل •

كما أن محاولة اخلاء الرمال التي ترتفع خلفها الى السقف ستستغرق وقتا طويلا وقد تسبب أضرارا حتمية للزخارف التى حولها • وقد بهت لمعان اللون حيث كان الرجال قد أحنوا ظهورهم فصارت الحوائط كلها مبللة بالعرق •



مدخل الهيكل الصغير •

ولما لحظنا أنه لم يتم كشف حوالى ثلاثة أرباع الزخارف ، وأنه لم يكن هنـاك شيء ذو أهمية خلف الكتلة الساقطة ، قررنا ألا نسـتمر فى العمل أكثر من ذلك •

وفى نفس الوقت قضينا وقتا سعيدا ونحن نلهو مع شيخنا النوبى ، وهو رجل طويل حسن الملامح يتميز بالكثير من الكبرياء الطبيعية • وكان يرتدى ملابس فاخرة وعمامة بيضاء قد رتبت لفاتها بعناية فائقة ، كما لف حول رقبته شالا أبيض اللون وارتدى رداء طويلا مفتوحا من الصوف الأسود ، وعباءة خارجية من القماش الأسود الفاخر ذات أكمام وقلنسوة •

وقد ارتدى في قدميه جوارب بيضاء وحذاء مغربيا قرمزى اللون • وقد ازداد حرجه عندما واجه السكين والشوكة وظهر أنه كبير السن بحيث لا يستطيع أن يتناول طعامه بنفسه • ولابد من وجود من يطعمه مثلما كان لدى عظماء الرجال في العصور الوسطى ذواقة يقوم بتذوق النبيذ • ولما كان تلحمى مؤهلا لهذا العمل فقد التقط بأصابعه أجزاء من لحم الضأن والدجاج وغمس قطعا من الخبز في الصلصة ، ووضع كل لقمة في فم ضيفنا العظيم كما لو كان الضيف المذكور طفلا :

وعند تقديم الحلوى أخذته السيدة الصغيرة والسيدة (ل) والكاتبة من يده ، وأطعمنه بكافة أنواع المربى والفواكه المحفوظة • وقد سعد الرجل المسكين بهذا الاهتمام فأكل كما لم يأكل من قبل ، ووضع يده على المنطقة التى تلى قلبه ، وطلب الرحمة •

وبعد الغداء دخن نارجيلته ، وقدمت القهوة فلم تعجبه قهوتنا فتذوقها وأعاد الفنجان سريعا ، وهو يقول للنادل بامتعاض ان البن احترق أكثر من اللازم وصارت القهوة ضعيفة • ولما اعتذرنا عن ذلك تأسف بأسلوب النفاق الشرقى المعروف وقال انها قهوة جيدة •

وكان من السهل تسليته لأنه كان مهتما بكل شيء • بنظارة الميدان الخاصة بالسيد (ل) والأكورديون الخاص بالرسام ، والبيانو ، وبريمة فتح الزجاجات • وقد سعد جدا عندما أعطيناه القليل من الكولونيا ، ومررها على لحيته ، وأخذ يشمها وعيناه مغلقتان في حالة من الانتعاش • وكان فتح موضوع للحديث هو الأمر الصعب كالعادة • وعندما ذكر لنا أن ابنه الأكبر هو حاكم الدر ، وأن أصغر أولاده عمره خمس سنوات ، وأن بلح الدر أفضل من بلح وادى حلفا • وأن أهالى النوبة فقراء ، وصل الى نهاية موضوعاته • وأخيرا طلب الينا أن ننقل عنه خطابا الى لورد دى الذى استضافه على سطح ذهبيته في العام الماضى • ولما سألناه عما اذا كان قد أحضر خطابه معه هز رأسه قائلا : « سيقوم ترجمانكم بكتابته » •

وسرعان ما تم احضار الورق وقلم البسط وكتب تلحمى ما أملى عليه كما يلى :

« الرب يحفظك • أتمنى أن تكون في حالة طيبة • واننى آسف لأنه لم يصلنى منك أى خطاب منذ كنت هنا — أخوك وصديقك : رشوان ابن حسن الكاشف » • وكان خطابا موجزا ويفى بالغرض •

وعندما وصلنا الى مرحلة الحساب لم يكن شيخنا المعمم الوجيه سعيدا ، فقد أرسلنا أولا في طلب خمسين رجلا ، وكان الثمن المتفق عليه خمسة قروش أى حوالى شلن انجليزى يوميا عن كل رجل • وردا على ذلك وصل الينا أولا أربعون رجلا لمدة نصف يوم ، ثم مائة ليوم كامل • وبذلك يكون المجموع ستة جنيهات لقاء أجور الجميع • ولكن أحفاد الكاشف لا يسمعون عن شيء عادى مثل الوفاء بالعقد الصريح ، فطلب أجر مائة رجل عن يومين كاملين وبندقية لنفسه وبقشيشا خاصا يدفع نقدا • ولما وجد أنه طلب أكثر مما يمكن أن يحصل عليه ، رضخ لمسألة الأجور ، ولكنه أصر على طلب حقيبة لحمل الحيوانات التى يتم صيدها ، وطلب زوجا من المسدسات • وأخيرا أجبر على قبول مبلغ ستة الجنيهات أجرا لرجاله ، وأن يأخذ لنفسه برطمانين من المربى وعلبتين من السردين وزجاجة من الكولونيا وعلبة من أقراص الدواء ، ونصف جنيه انجليزى من الذهب •

وعند الساعة الرابعة انصرف هو ورجاله • وقضينا اليوم التالى بكامله فى العمل داخل وحول الهيكل • وقامت السيدة (ل) والسيدة الصغيرة بنقل كتبهما وأشغال الابرة الخاصة بهما الى هناك ، وجعلتا منه غرفة استقبال وقامت الكاتبة بنسخ الزخارف والنقوش • أما الرجل الكسول والرسام فقد قاما بقياس ومسح الأرض حول الهيكل مع محاولة عمل رسم لبعض أقسام الحائط والأساس التى لم تنكشف بعد •

وقد استطاعا بفضل الفحص المتأنى لهذه الخرائب ، واخلاء الرمال هنا وهناك ، أن يصلا الى اكتشافات أخرى ، فوجدا أن الهيكل يتم الدخول اليه عن طريق صالة خارجية كبيرة مبنية بالطوب المجفف فى الشمس ، مع مدخل رئيسى واحد فى مواجهة النيل • ومدخلان جانبيان فى اتجاه الشمال • أما الأرضية فقد دفنت فى الرمال والأنقاض ، ولكن معظم الحوائط بقيت ظاهرة فوق السطح لتبين أن السقف كان مقببا وأن المدخلين كانا على شكل عقدين •

وظهر لنا عند ازالة الرمال أن الحائط الجنوبى لهذه القاعة لا يقل سمكه عن عشرين قدما • ولم يكن ذلك عجيبا فى حد ذاته ، فقد كانت هناك فى المبانى المصرية حوائط مبنية من الطوب بلغ سمكها ٨٠ قدما (١)

---

(١) يبلغ سمك حائط السور فى معبد تانيس الكبير ٨٠ قدما • انظر كتاب : تانيس • بقلم : و• م• فلندرز بترى الجزء الأول ـ نشره صندوق استكشاف مصر E.E.F. سنة ١٨٨٥ • (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •

ولكنه كان مثيرا للعجب لدى مقارنته بالحائطين اللذين في الشمال الشرقي والغربي ، واللذين بلغ سمكهما ٣ أقدام فقط ، ولما كان من الواضح أنه لا يمكن أن تكون هذه الكتلة صلبة بدأ الرجل الكسول في العمل مع اثنين من البحارة لفحص الجزء الأوسط منه ، وسرعان ما اتضح وجود فراغ مجوف يبلغ عرضه حوالى ثلاثة أقدام يسير ما بين الشرق والغرب وليس في وسط البناء بالضبط ٠

ودفع الرجل الكسول أصابعه مرة واحدة في جمجمة ! وكان ذلك حادثا مدهشــا وغير متوقع ؛ لأنه حتى هــذه اللحظة لم يقل شيئا ولكنه استمر في هدوء يزيــح الرمال ويتحسس طريقه تحت الســطح ٠ وفي اللحظة التاليــة اصطدمت يده بحافة وعاء طيني فسحبه بعناية ٠ كان قطره يبلغ حوالى أربع بوصات ومقبضه متآكل ومملوء بالرمال وأعلن حينئــذ عن اكتشافــه ٠ وأسرع الجميع نحوه للمســاعدة في العمل ، وسرعان ما انقلبت الجمجمة الصغيرة ، ثم ظهر وعاء آخر ، ثم ظهر تحت مكان الأوعية هيكلان عظميان مفككان ومتصلبان تماما ولكنهما كاملان ٠ كانت هذه بقايا طفل وشخص بالغ صغير ربما كان امرأة ٠ كانت الأسنان سليمة والعظام رقيقة وهشة ٠ أما عن الجمجمة الصغيرة (التي سقطت عند الرقبة) فقد كانت صافية وهشة وقابلة للكسر من ناحية البنية مثل كوب من ماء الزئبق ، ووضعنا العظام جانبا كما وجدناها ، وأخذنا في فحص كل حفنة من الرمال على أمل اكتشاف شيء يمكن أن يلقى الضوء على أشــخاص المدفونين ، ولكن بلا طائــل ، فلم نجد شريطا من القماش أو خرزة أو قطعة عملة أو أى أثر صغير لشيء يســاعد للحكم على ما اذا كانت هذه البقايا في مكانها منذ مائة عام مضت أو ألف عام ٠

والآن ، استدعينا جميع البحــارة واستمررنا في الحفر الى أسفل داخل ما يبدو أنه عقد ضيق تبلغ مساحته حوالى خمسة عشر قدما طولا وثلاثة أقدام عرضــا ٠

وبعد التأمل اقتنعنا بأننــا عثرنا على مقبرة نوبية بالصدفة ، وأن الأوعية (التي أطلقنا عليها أولا اسم قوارير الرماد من باب التكريم) لم تكن الا قوارير الماء المعتادة التي كانت توضع بجوار رأس الميت ٠ ولكننا لم نكن حينذاك في حالة نفسية تسمح بالتأمل ، وتأكدنا أن هذه المقبرة لم تكن الا غرفة صغيرة لحفظ الجثث ، وأن العقد لم يكن الا حفرة رأسية تقود الى غرفة الدفن ، وأننا سنجد تحتها ٠٠ من يستطيع أن يذكر ماذا ؟ مومياوات ٠ ربما ، ونواويس وتماثيل جنازية ، ومجوهرات ، وأوراق

بردية ، وعجائب لا تنتهي ! جعلت القدماء يضعون هذه العظام في فوهة مثل هذه الحفرة بلا عناية مما جعلها تبدو غريبة بالنسبة لنا • وماذا بعد أن افترضنا أنها بقايا نوبية ؟ واذا كانت الجثة النوبية في الطبقة العليا فلماذا لا تكون هناك جثث لقدماء المصريين في الطبقة السفلى ؟

ومع استمرار أعمال الحفر ، وجدنا أن العقد يمكن الدخول اليه عن طريق سطح مائل شديد الانحدار ، ثم يتحول السطح المائل ليصبح سلما ذا درجات ضحلة بالية • وكان يقود إلى مقر مربع صغير على عمق حوالى اثنى عشر قدما تحت مستوى سطح البحر يهبط منه مدخل رئيسى وممر مفتوح على القاعة الأمامية للمقبرة (١) • وقد لقى بحارتنا صعوبة عظيمة في حفر هذا الجزء بسبب ثقل وزن الرمال المتراكمة والحطام المتدفق من الجانب الآخر للمقبرة • ومع اخلاء الأرضيـة تمكنوا من كشف الأرض التى كانت مبلطة بأقماع من الفخار مثل قاع مقياس السوائل • وهذه الأقماع التى استخرجنا منها حوالى ثمانية وعشرين أو ثلاثين قمعا لم تكن على الأقل شبيهة بالأقماع الجنـازية التى وجـدت مهملة في طيبة لأنها لم تحمل أى ختم • وكان شكلها أقصر وأكثر صـلابة ؛ وأخـيرا وبعد أن أبعدنـا جميع الأقماع وصـلنا الى أرضية مضغوطة وصلبة من الصلصال المحروق •

وفى نفس الوقت كان الرسام منشغلا في العمل أيضا • لقد تتبع الدائرة ورسم خطا تخطيطيا للأرضية ، واستنتج أن كل الكتلة المتصلة بالحائط الجنوبى للمقبرة كانت في حقيقة الأمر مكونة من خرائب احدى البوابات التى كان سمك حوائطها سبعة أقدام • وقد بنيت في خطوط منتظمة من الطوب الرملى ؛ وانتهت في الزوايا بالحجارة الناتئة المعتادة ، أو الأفاريز الدائرية • وقد زال المبنى كله بحجراته وممراته وافريزه العلوى ، وأن الجزء الذى نهتم به الآن كان مجرد القاعدة وتضمن قـاع السـلم •

---

(١) ساد الاعتقاد فترة طويلة بأن المصريين لم يعرفوا فكرة القوس أو العقد في مبانيهم • ولم تكن تلك هى القضية ، فهناك عقود من الطوب تعود الى أيام رمسيس الثانى خلف الرمسيوم في طيبة وغيرها من الأماكن • ولكن العقود نادرة في مصر بوجه عام • وقد قمنا بملء العقد وتغطيته مرة أخرى ، وكذلك الجزء الأكبر من السلم للمحافظة على الجزء السابق •

وقد قضى الرسم التخطيطى الذى قام به الرسام على كل آمالنا فى خبطة واحدة • فلم يعد العقد عقدا ، وكذلك فان السلم لم يعد يقود الى غرفة الدفن • ولم تعد الأرضية المبنية من الطوب تخفى مدخلا سريا • وتبخرت المومياوات فى الهواء • ولم يعد لدينا سبب يدفعنا الى الاستمرار فى الحفر • وشعرنا بالاحباط الى أبعد الحدود • وقلنا لأنفسنا فى يأس ان اكتشافنا لبوابة ضخمة من الطوب تلك التى لم يتنبه الى وجودها غيرنا من السياح الذين سبقونا ، كان حدثا له أهميته القصوى أكثر من مجرد اكتشاف مقبرة • لقد اعتمدنا على اكتشاف المقبرة وأخشى أن أقول ان اهتمامنا بالبوابة لم يكن بنفس الحماس •

أما وقد تتبعنا مسار الحفائر الى هذا المدى ، والطريقة التى كان كل اكتشاف يقودنا بها الى اكتشاف آخر مترتب عليه خطوة خطوة ، جعلنى أشعر بضرورة أن أعود الآن الى المقبرة وأحاول أن أصفها بقدر الاستطاعة ليس فقط اعتمادا على مذكراتى التى دونتها عن المكان ، ولكن على ضوء تلك الملحوظات التى دونتها فيما بعد عن الانشاءات التى تنتمى الى نفس الطراز والفترة الزمنية • ولابد أن أقدم لحديثى بأننى لم أعد قادرة على الدخول فيها أثناء قيام الحفارين بالعمل • وقد بقى لنا يوم واحد فقط فى (أبو سنبل) بعد انتهاء العمل ، وهكذا لم يعد متاحا لى الكثير من الوقت• لقد أردت أن أعمل صورا ملونة لجميع النقوش الجدارية ولكن ذلك لم يكن فى استطاعتى ، ولذلك اضطررت الى الاكتفاء بنسخ النقوش وعمل صور تخطيطية لقليل من الموضوعات ذات الأهمية القصوى •

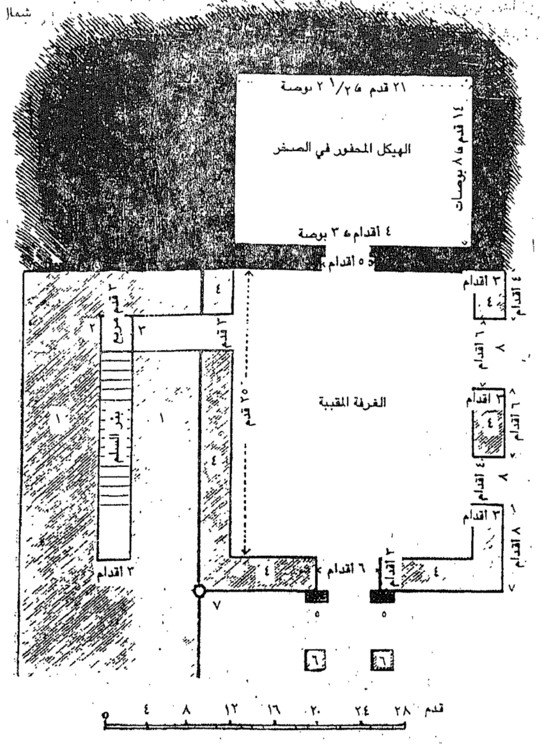
كانت الغرفة المنحوتة فى الصخر التى سبق أن وصفتها بأنها هيكل والتى اعتقدنا فى البداية أنها مقبرة ، وهى ليست كذلك فى حقيقة الأمر• لقد كانت هيكلا أثريا نصف مبنى ونصف محفور ، معاصرا زمنيا للمعبد الأكبر • ويتشابه هذا الأثر فى بعض نواحى التصميم مع المعبد المعاصر المقام فى بيت الوالى • ومن الواضح لأول وهلة أن الحوائط الخارجية للاثنين كانت تتخذ فى الأصل شكل العقود ، وأن النقوش المشوهة فوق مدخل الحجرة المحفورة فى (أبو سنبل) تتفق فى موضوعها ومعالجتها مع تلك الموجودة على المدخل مع الأجزاء المحفورة فى بيت الوالى • أما فيما يتعلق بالمفهوم العام فان أثر (أبو سنبل) يندرج تحت نفس العنوان مع المعابد المعاصرة له فى الدر وجرف حسين ووادى السبوع ، من حيث انه طراز مختلط يربط ما بين الحفر والبناء • ويبدو أن هذا الطراز كان شائعا على أيام رمسيس الثانى•

ويقع هذا المدخل المحفور فى الصخر فى الزاوية الجنوبية الشرقية للصخرة ، بعد واجهة المعبد الكبير بقليل وصالة المدخل التى تمتد من الجنوب الشرقى الى الشرق وتتحكم فى معظم المنظر الذى يرتفع الى مستوى معبد حتحور ، وهذه البوابة المحفورة يصل عرضها الى ٢١ قدما ، و٢½ بوصة ، ويبلغ طولها ١٤ قدما ، و٨ بوصات • أما الارتفاع من الأرضية الى السقف فيبلغ حوالى ١٢ قدما • ويبلغ عرض المدخل ٤ أقدام، و٣½ بوصة ، كما تبلغ الفجوة الخارجية لاطار الباب ٥ أقدام • وهناك ثقبان كبيران مستديران أحدهما فى العتبة والآخر فى العارضة العليا فوق الباب وهما يحددان مكان المحور الذى كان يدور حوله الباب يوما ما •

وليس من السهل قياس الصالة الخارجية فى حالتها الخربة والمزدحمة حاليا ، ولكننا بقدر استطاعتنا نقول ان أبعادها هى كما يلى : ٢٥ قدما للطول ، ٢٢½ قدم للعرض ، ٦ أقدام عرض المدخل الرئيسى المقابل للنيل ، ٤ أقدام ، ٦ أقدام للمدخلين الجانبيين على التوالى • ويبلغ سمك الحوائط المبنية من الطوب ٣ أقدام ، وهناك عارضتان رأسيتان للباب على كلا جانبى المدخل الرئيسى لهذه الصالة المبنى من الطوب • وعلى بعد حوالى ستة أو ثمانية أقدام أمامها ينتصب صقران حجريان فوق قاعدتين حجريتين عليهما نقوش هيروغليفية •

وقد وجدنا أحد هذين الصقرين فى مكانه ، بينما كان الآخر أبعد قليلا • وقام الرسام الذى لم يتوقع اكتشاف أى من هذه الأشياء بعد المفاجآت باستخدامها كعمود ، ربط اليه أحد الحبال الرئيسية لخيمة الرسم الخاصة به ، ووجدت لوحا هيروغليفيا ضخما أظن أنه كان يشكل جزءا من الباب ، واقعا عند جانب البوابة على بعد ياردات قليلة بالقرب من النهـــر •

وما دمنا نتحدث عن المدخل والصالة الخارجية فان الرسم التخطيطى المرفق لأرضية المعبد الذى أنشىء على أساس القياسات التى قمت بها من جهة وعلى أساس الجزء الذى استعرته من الرسم التخطيطى الذى قام به الرسام من جهة أخرى ، يمكن قبوله بوصفه رسما صحيحا • أما فيما يتعلق بالبوابة فأستطيع أن أقول بكل ثقة ان السلم الذى يقع فى الوسط يبلغ عرضه ثلاثة أقدام ، وان سمك الحائطين اللذين على جانبيه يبلغ سبعة أقدام بالرغم من صعوبة ذلك لأنه مدفون بين الأنقاض والرمال مما يصعب معرفة أين ينتهى البناء وأين تبدأ القمامة فى الطرف الذى يلى نهر النيل • ولذلك تركنا هذا الجزء غير محدد فى الرسم التخطيطى للأرضية •



الرسم التخطيطى للأرضية ٠

١ ـ حائط ٠
٢ ـ مهبط مربع ٠
٣ ـ المدخل والممر اللذان يقودان الى الغرفة المقببة ٠
٤ ـ حوائط الغرفة المقببة أى ذات العقد أو القوس العلوى ٠
٥ ـ محاور البـاب ٠
٦ ـ الصقور الحجرية على قواعدها ٠
٧ ـ حد الصرح ٠
٨ ـ المداخل المقببة (ذات العقد المقبب) فى الحائط الشمالى ٠

وبقدر استطاعتنا لم نشاهد أية دعامات حجرية في الجانب الداخلي للحوائط الأمامية • ولو كان هناك شيء من هذا القبيل فمن الممكن اكتشاف بعض بقاياه مع استمرار اخلاء المنطقة من الرمال • وهو عمل مثير بالنسبة لمن لديه وقت فراغ للقيام به •



طراز من الافاريز •

وسأتحدث الآن عن زخارف المدخل والجانب الداخلي للحوائط التي ترتفع من أسفل السقف الى حوالى ثلاثة أقدام من الأرضية ، وهي جميعها مغطاة بنقوش موضوعات دينية محفورة بالحفر البارز ومغطاة، كما هي العادة، بطبقة من الجص وملونة بألوان زاهية لا أعرف لها مثيلا فيما عدا مقبرة سيتي الأول في طيبة (١) وهذه الألوان في المنطقة التي تعلو مستوى الرمال المتراكمة لامعة وجيدة المظهر كما لو كانت قد انتقلت الى هذه الحوائط من باليتة الرسام • أما كافة النقوش التي تحت هذا المستوى فقد كانت معتمة ومهشمة •

ويحيط بالسقف افريز من الخراطيش التي تحملها الحيات المقدسة ، وقد انقسم كل خرطوش مع حياته عن الخرطوش الذي يليه بواسطة شكل جالس صغير • وتتخذ هذه الأشكال رؤوسا رمزية لآلهة مختلفة مثل رأس البقرة للالهة حتحور ، ورأس أبي قردان للاله تحوت ، ورأس الصقر للاله حورس ، ورأس ابن آوى للاله أنوبيس •• الخ •• الخ •

وتتضمن الخراطيش الطراز المعتاد ، وألقاب الملك رمسيس الثاني (أوسر ــ ماعت ــ رع ــ ستحتب ان ــ رع ــ رمسيس مري آمون) وتحيط بها مجموعة من قرص الشمس • وقد وضع تحت كل اله جالس الحرف الهيروغليفي الذي يعني (مري) أو (محبوب) •

وعن طريق هذه الوسيلة فان الافريز كله يدل على مسار أسطورة مرتبطة به ، ويصف الملك ليس فقط بأنه محبوب آمون ، بل أيضا بأنه رمسيس محبوب حتحور وتحوت وحورس • وباختصار فهو محبوب كل اله ظهر في السلسلة ، وهذه الآلهة فيما عدا الافريز متطابقة في التصميم مع الافريز الموجود في القاعة الأولى بالمعبد الكبير •

---

(١) المعروفة باسم بلزوني •

الحائط الغربي (١)

ينقسم الحائط الغربي أو الرئيسى الذى يواجه المدخل الى موضوعين كبيرين يحتوى كل منهما على رقمين كبيرين من المعلومات • ففى القسم الأيمن يقوم الملك رمسيس الثانى بالتعبد للاله رع • أما فى القسم الشرقى فهو يتعبد للاله آمون رع ، وهذا الترتيب يتفق مع ذلك الموجود فى المعبدين الآخرين حيث تحتل الموضوعات التى تخص آمون رع النصف الأيسر ، بينما تحتل الموضوعات التى تخص الاله رع النصف الأيمن فى كل مبنى • ويفصل بين هذين القسمين شعار رأسى يعلوه رأس حورس أرويريس Aroëris أى حورس المتـوج ، بروعـة كبيرة (٢) ويظهـر



حورس المتوج (أرويريس)

---

(١) أكتب عن هذه الحوائط مشيرة اليها بألفاظ الشمالى والجنوبى والشرقى والغربى كما تعودنا باعتبار أن موقع المبانى مواز للنيل ، أما الأثر الحـالى فنظرا لأنه يميل قليلا ناحية الجنوب حول زاوية الصخرة فانه يقع فى اتجاه جنوب شرق الى الشرق بدلا من الشرق والغرب كالمعبد الكبير •

(٢) Horus Arceris. — « Celui-ci qui semble avoir été frère d'Osiris. Porte une tête d'épervier coiffée du pschent. Il est presque complètement identifié avec le soleil dans la plupart des lieux où il était adoré, et il en est de même très souvent pour Horus, fils d'Isis. » — *Notice Sommaire des Monuments du Louvre*, 1873. De Rougé. In the present instance, this God seems to have been identified with Ra.

الملك رمسيس الثانى فى الموضـوع الأيمن وهو يلبس التاجين الأحمر والأبيض ويقدم قربانا مكونا من زهريتين بدون مقابض ، وقد لونت الزهريتان باللون الأزرق ، والمفروض أنهما تحتويان على أحجار كريمة هى أحجار اللازورد التى كان قدماء المصريين يحبونها وكانت معروفة لديهم باسم خسبت • وكذلك كانت صدرية الملك وأكمامه وأساوره جميعها أيضا زرقاء اللون • ويجلس رع متوجا على العرش ممسكا فى احدى يديه بعلامة العنخ ، أو الصليب ذى المقبض رمز الحياة ، ويمسك فى اليد الأخرى صولجان الآلهة الذى تحليه رأس الكلب السلوقى (١) • ان رأسه رأس الصقر ومتوج بقرص الشمس والأفعى • أما لون بشرته فهو أحمر بندقى لامع • ويرتدى صدرية مزخرفة وصدرية ثمينة مكونة من حبات قرمزية وسـوداء بالتبادل ، وحزاما ذا لون أصفر ذهبى مرصعا بأحجار حمراء وسوداء • أما العرش الموضوع فوق منصة زرقاء فهو ملون بخطوط مستطيلة حمراء وزرقاء وبيضاء • والمنصة مزخرفة بصف من النجـوم ذات اللون الذهبى وعلامات العنخ الملونة باللون الأحمر • وعند أقدام هذه المنصة بين الاله والملك يقع مذبح صغير موضوع فوقه أزهار اللوتس الزرقاء بسيقانها الحمراء مع اناء لسكب السوائل • والى يسار شعار حورس يجلس آمون رع أكثر الآلهة المصرية بشاعة ، وظهره الى ظهر رع على نفس العرش بلون بشرته الأزرق الأسود ، وحزامه المكون من سلسلة ذهبية وغطاء رأسه المكون من ريش الطيور (٢) ، وهنا أتاحت لنا الصورة

---

(١) « Le sceptre à tête de lévrier, nommé à tort sceptre à tête de cou-coupha, était porté par les dieux. » — *Dic. d'Arch. Egyptienne : P. Pierret* H Paris, 1875.

(٢) آمون ذو البشرة الزرقاء هو أقدم طرازات هذا الاله وهو هنا يمثل الولاء المقدس الذى يحمل عنه لقبه « اله السموات والأرض والمياه والجبال » •

« Dans ce role de roi du monde, Amon a les chairs peintes en bleu pour indiquer sa nature céleste ; et lorsqu'il porte le titre de Seigneur des trones, il est représenté assis, la couronne en tête : d'ordinaire il est debout. » — *Etude des Monuments de Karnak.* De Rougé. Mélanges d'Archeologie, vol. 1, 1875.

وقد عرفت مصر تشكيلات عديدة من صور الاله امون مثل التشكيلات العديدة من صور العذراء مريم فى ايطاليا او اسبانيا • فقد كان هناك امون طيبـة ، وامون القنتين وامون قفط وامون كيمس (بانوبوليس) وآمون البعث وامون الندى وآمون الشـمس (امون رع) وامون الكائن بذاته أى الذى خلق نفسه بنفسه •• الخ •• الخ ولا شك ان الالهين امون وكيم هما اله واحد • ومن الحقائق المدهشة ان تعود الكلمات الانجليزية المشتقة من كلمة كيمياء العربية فى اصلها الى الاسم كيم الذى اتخذه اقدم آلهة قدماء المصريين وتعنى اله النباتات والأعشاب وعناصر الخلق • ولا شك ان المزارع المصرى قد اعتبر جميع هذه الآلهة التى اطلق عليها اسم آمون هى طرازات رمزية من اله واحد •

السليمة التى تميز بها السطح رؤية أن الفنانين القدماء لم يعتادوا استخدام هذا اللون المختلط ما بين الأزرق والأسود فكان واضحا أن بشرة الاله قد لونت أولا باللون الأسود القاتم ثم لونت بلون مأخوذ من بودرة الكوبالت الأزرق ، ومع ذلك استمر اللون الأسود ظاهرا ، وهو يحمل فى احدى يديه علامة العنخ ويمسك باليد الأخرى الصولجان الذى تحليه رأس الكلب السلوقى · ويقدم أليه الملك يده اليمنى مرفوعة ، وفى يده اليسرى سلة صغيرة تتضمن قربانا عبارة عن تمثال صغير للالهة ماعت الهة الحقيقة والعدالة · وعلى كل حال فان ماعت مجردة من ريشها المميز وتمسك بالعصا التى تحمل رأس ابن آوى بدلا من علامة العنخ ·

أما عن دلالة هذه الصورة الشخصية فانها لا تمثل أيا من رؤوس رمسيس الثانى ولكن الملامح تحمل شبها معينا للرسم الجانبى المعروف لوجه الملك · أما تنفيذ الشكل فهو رشيق وملء بالحركة ، ويمثل الشكل بكل نقائه الخط الواضح والانسيابى لفن رسم التصميمات الهندسية المصرى ·

ويتميز لباس الملك بلونه الغامق ، فالخوذة التى تشبه تاج الأسقف ملونة بلون الكوبالت الأزرق (١) المزخرف باللون الذهبى · أما الحزام

---

(١) ان المادة المصنوع منها هذه الخوذة الزرقاء والتى ورد رسمها كثيرا على الاثار ، قد تكون هى مادة Homeric Kuanos التى تجمع عنها الكثير من الشكوك والتخمينات ، والتى يفترض مستر جلادستون أنها كانت معدنا من المعادن انظر : Juventus Mundi, Chap XV. p. 532.

وتقدم لنا فقرة منشورة فى مجلة The Academy (٨ يونيو سنة ١٨٧٦) الخصائص التالية عن مصابيح ملتهبة معينة مصنوعة من « مادة معدنية زرقاء » اكتشفت فى هيسارليك على يد الدكتور شليمان ووجدت مركزة تحت الدروع النحاسية التى ربما كانت عالقة بها · وقد أجرى عليها فحص بمعرفة العالم لاتدرر ـ انظر : (Berg. Hüttenm-Zeitung. XXXIV- 430) أظهرت أنها سلفات النحاس · وقد كان فن تلوين المعادن معروفا للنحاسين فى كورنثوس فكانوا يغمسون النحاس الساخن فى نافورة بيرين ، ويبدو أنه من المستحيل أن تكون هذه عينا فوسفورية ، وان اللون الأزرق قد انتقل الى المعدن عن طريق غمسه وهو فى درجة الاحمرار فى الماء وتحويل السطح الى سلفات النحاس » ·

ويلاحظ ان الفراعنة يظهرون وهم يرتدون هذه الخوذة الزرقاء فى مناظر المعارك وأنها كانت فى معظم الأحوال مرصعة بحلقات من الذهب · ولذلك فلابد أن تكون من المعدن · فاذا لم تكن من سلفات النحاس فلابد انها كانت تصنع من الصلب الذى يعرف فى افضل حالاته ممثلا فى مسن الجزار وغير ذلك من الأسلحة التى ترسم على الآثار باللون الأزرق ·



رمسيس الثانى المرسوم فى الهيكل

والصدرية والأكمام والأســـاور ، فكلها من الذهب المرصـــع بالأحجار الكريمة . أما الأرضية فهى خضراء وذهبية . ويحوم فوق رأس الملك النسر المقدس وشعار الالهة موت وهى تمسك بمخالبها نوعا من اللوحات المعدنية قد رسمت عليها علامة العنخ :

الحائط الجنوبى

الموضوعات المرسومة على هذا الحائط هى كما يلى :

١ ــ رمسيس بالحجم الطبيعى يتصدر مائدة القرابين . ويرتدى الملك غطاء الرأس القماش « النمس » بخطوط ذهبية وبيضاء ومزخرف بالأفعى . وقد تكدست المائدة كما هى العادة باللحوم والطيور والأزهار .

والسطح هنا سليم وتفاصيل هذه الأشكال قد نفذت بدقة مدهشة ، حتى أطراف الريش السوداء الدقيقة للأوزات التى نتف ريشها قد رسمت بنفس اخلاص الفن الصينى ، بينما ظهر جرح أحمر فى صدر كل أوزة يوضح كيف تم ذبحها للتضحية • أما الأرغفة فقد كانت مكونة من قرصين، الصغير فوق الكبير وهو ما يطلق عليه علميا اليوم اسم Cottage loaf وبها نفس الهبوط العلوى الناتج عن ضغط اصبع الخبـــاز ، وتتوج المجموعة أزهار اللوتس والبردى فى شكل باقات •

٢ ـ حاملان ثلاثيان من طراز خفيف ورشيق يحملان الأزهار •

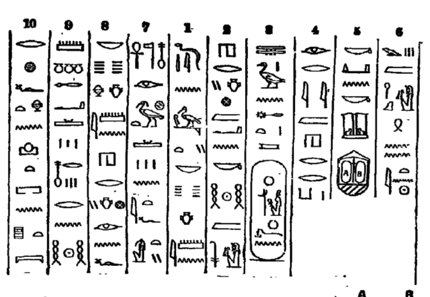
٣ ـ البـــارى Bari أو القارب المقدس ملون باللون الذهبى وبه الحجاب المعتاد نصف المرخى عبر الناووس أو المقصورة ، وقد انحنت مقدمة القارب بطريقة رائعة ، وزينت بالعين الرمزية Uta (١) تسبقها مروحة ضخمة من ريش النعام • وقد ظهر ركاب القارب فى شكل نقاط سوداء صغيرة يركع أحدها أمام مؤخرة القارب بينما يجثم أحد تماثيل (أبو الهول) بجسم أســـد ورأس بشرى ويراقب مقدمة الملك وهذا التمثال يمثل الملك (٢) •

وعلى هذا الحائط ، وفى الفراغ الموجود بين القارب المقدس وشكل الملك رمسيس ، يجرى النقش التالى المنحوت نحتا بارزا والملون بألوان زاهيـــة :

---

(١) هذه العين التى تسمى أوجات ، استخدمها المصريون بكثافة للزينة والتعاويذ اثناء حياتهم ، وكتعويذة مع الميت ووجدت فى شكل عيون يمنى وعيون يسرى • وتمثل عين حورس وهو ينظر الى الأفق الشمالى والأفق الجنوبى فى رحلته من الشرق الى الغرب من الشروق الى الغروب • » وقد ذكر مسيو جريبو فى ترجمـته لمقـال : أنشودة لآمون رع ـ ما يلى : « الشمس التى تسير من الشرق الى الغرب تكشف بعينيك منطقة الشـمال ومنطقة الجنوب » • انظر : Revue Arch. vol. xxv, 1873, p. 387 .

(٢) انظر صورة طبق الأصل لهذا القارب مطبوعة على الحجر فى كتاب مستر فيلليرز ستيوارت • اشراقات نيلية :
Villiers Stuart's « Nile Gleanings » Murray, 1879.



ملحوظة : ـ يقرأ هذا النقش حسب أرقام الأعمدة فيبدأ القارىء برقم ١ ويتجه الى اليمين ثم يعود مرة أخرى الى العمود رقم ٧ ويقرأ بقيـة النص فى اتجاه اليسار . أما الفراغان المميزان بالحرفين B, A فى الجزء السفلى من العمود رقم ٥ فيملؤهما خرطوشـا الملك رمسيس الثانى .

الترجمة (١)

قال تحوت سيد سيسنو (٢) الساكن فى آمون هرى (٣) أقدم لسيادتك الأبوية على القطرين يا ابن جسمى المحبوب ، رع ـ أوسر ـ

---

(١) تمت ترجمة هذا النقش للطبعـة الأولى من الكتاب بمعرفة المرحوم دكتور بيرش . اما بالنسبة للطبعة الحالية فاننى مدينة لتفضل المحترم السيد ٠ا ٠ ا ، واليس برج بهذه الترجمة .

(٢) سيسنو هى أشمون أو هرموبوليس .

(٣) جبل عدة .

ماعت ، ستب ـ ان ـ رع ، مالك الكا • أقدم لك الأعياد التي لا تحصى لرمسيس محبوب آمون ، رع ـ أوسر ـ ماعت ، ستب ـ ان ـ رع ، أمير كل شيء يدور فوقه قرص الشمس ، الاله الحي الوسيم صانع الأشياء الجميلة لأبيه تحوت سيد سيسنو الساكن في آمون هرى • الذى صنع آثارا قوية وجميلة تواجه الأفق الشرقى للسماء الى الأبد » •

ومعنى هذا أن تحوت يوجه حديثه الى رمسيس الثانى ثم يعيش ويحكم • ويعده بعمر طويل وأعياد يوبيل (١) عديدة فى مقابل الأعمال التى أقيمت لتشريف تحوت فى (أبو سنبل) وغيرها من الأماكن •

الحائط الشمالى :

لقد رسمت فى الطرف العلوى من هذا الحائط سيدة بالحجم الطبيعى ترتدى غطاء رأس أزرق دقيق الصنع يعلوه قرص الشمس واثنتان من ريش النعام • وتمسك العنخ بيدها اليمنى ، بينما تمسك بيدها اليسرى الصولجان الذى تعلوه رأس ابن آوى • وهذا الصولجان مما يخص الالهات ، وأن غطاء الرأس هذا يخص الملكة كما هو مبين على واجهة معبد حتحور • وقد استنتجت أننا هنا أمام صورة نصفية للملكة نفرتارى فى مواجهة الصورة النصفية لرمسيس الثانى على الحائط المقابل • وتوجد بالقرب منها مائدة قرابين ، وضعت عليها ضمن أشياء أخرى ـ أربع زهريات ذات لون أزرق غامق مرسوم عليها شرائط أفقية باللون الأصفر ، ربما كانت تمثل نوعية الزجاج الملون الذى يطلق عليه اسم False Murrhine (٢) ، وتحتوى كل من هذه الزهريات على شيء مثل

---

(١) أعياد اليوبيل هذه التى يحتفل بها كل ثلاثين عاما ، كانت أعيادا دينية تقام بعد مرور كل فترة ثلاثين عاما من ارتقاء الفرعون الحاكم العرش •

(٢) يوجد بالمتحف البريطانى عدد من القوارير والفازات التى ينطبق عليها هذا الوصف يعود تاريخها الى أيام الأسرة الثامنة والعشرين ، انظر الصندوق رقم E بالغرفة المصرية الثانية بالمتحف البريطانى ، وهى مصنوعة من الزجاج الأزرق نصف الشفاف ، ومجزعة بخطوط متموجة من اللونين الأبيض والأصفر المعتمين •

الصنوبر • أما لون الأرضية فهو أصفر غامق محاط بتقسيمات فرعيــة قرمزية اللون ، وقد اعتبرناها نماذج لحبوب الذرة المكدسة على شكل الهرم •

وأخيرا ، فانه يوجد على الحائط المقابل القارب المقدس،وهو مرسوم بطريقة عكسية حيث تتجه مقدمته الى الشرق ، بينما تستقر بقيته على مذبح رسم فى منتصفه خرطوشا رمسيس الثانى ، ونقش هيروغليفى صغير يعنى : « محبوب آمون رع ، ملك الآلهة ، الساكن فى أرض كينوس (النوبة) •

وبعد هذه النقطة وفى الطرف القريب من الركن الشمالى الشرقى للغرفة ، نجد أن الرمل المكدس يخفى غير ذلك مما يمكن أن تحتويه الغرفة على سبيل الزخرفة •

الحائط الشرقى

اذا كان الحائط الشرقى مزخرفا مثل الحوائط الأخرى (كقضية مسلم بها) فان لوحاته ونقوشه تختفى خلف الرمال التى يصل ارتفاعها هنا الى السقف ، علما بأن المدخل الموجود فى هذا الحائط يحتل مساحة يبلغ عرضها ٤ أقدام ، ٣½ بوصة فى الجانب الداخلى •

وبقى جزء لابد من ذكره عن أهم الأحداث التى تتعلق بحفر هذا الهيكل الصغير • لقد وصفت صــورة السيدة التى فى الطرف العلوى للحائط الشمالى ، وكيف أنها تمسك العنخ فى يدها اليمنى ، والصولجان الذى يحمل رأس ابن آوى بيدها اليسرى • واليد التى تمسك العنخ تمتد الى جانبها ، أما اليد التى تمسك بالصولجان فهى نصف مرفوعة • ويشاهد تحت هذه اليد المرفوعة مباشرة ، وعلى ارتفاع ما بين ثلاثة الى أربعة أقدام من المستوى الطبيعى للأرضية ، وعلى الســـطح غير الملون للجص الأصلى ، عدة صفوف من الكتابة بخط اليد • وقد رسمت هذه الكتابة بالفرشاة والحبر ، هذا اذا كان لونها أسود فعلا لأنه أصبح الآن بنيا • ووجدت منها خمسة صفوف طويلة ، وثلاثة صفوف قصيرة لم تمس ، وتحتها آثار بعض خطوط أخرى قد طمسها الرمل •

وسرعان ما عرفنا أن هذه الكتابة الجذابة الباهتة قد كتبت اما بالخط الهيراطيقى أو الديموطيقى • واستطعنا أن نميز فى خطوطها بين الأشكال التى اعتدناها فى الكتابة الهيروغليفية ، لأنهــا تتكون من طيور وأفاع

وقوارب،ولا شك فى أنه كان شيئا غريبا وقلبناه فى عقولنا بوصفه الكتابة التى كتبها البناء أو المزخرف الذى زخرف البناء ٠ ولما كانت الكاتبة متشوقة لعمل صورة طبق الأصل من النقش فقد نقلته ثلاث مرات ٠ وكانت أفضلها آخرها ، وهى التى نشرناها هنا مع ترجمة بقلم المرحوم الدكتور بيرش ٠ ونعلم جميعا مدى صعوبة النقل الدقيق عن لغة يجهلها الانسان ، وأن حذف أية انحناءة أو نقطة صغيرة يعتبر ضربة قاضية بالنسبة لمعنى هذه الحروف القديمة ، وفى الظرف الحالى فانه مهما كانت العناية التى نقل بها النص فلابد من وجود أخطاء ماثلة لأنه كان غير مفهوم فى بعض الأماكن التى حدثت بها ثغرات حتمية ، ولكن بقى ما يكفى لبيان أن الخطوط لم تكتب بيد الفنان كما افترضنا ، ولكن بيد زائر دارس لم نستطع لسوء الحظ أن نتبين اسمه ٠ وكان هذا الزائر هو ابن أمير كوش ، أو كما هو مكتوب حرفيا الابن الملكى لكوش وهو اللقب الرسمى لحاكم اثيوبيا (١) ؛ لأنه كان هناك ثمانية حكام لاثيوبيا على أيام رمسيس الثانى ٠ (وربما أكثر ولكن لم تصل الينا بقية أسمائهم) ومن المحال أيضا أن نجعل من تخمين أصل زائرنا عقبة ٠ وعلى أية حال فقد عرفنا أنه أرسل الى هناك للاشراف على انشاء شارع ، وأنه بنى قوارب لنقل البضائع ، وأنه مارس وظائف ٠ وبعد أن أخذنا فى اعتبارنا الأرض والنقوش والزخارف تتبقى لنا الاجابة على هذا السؤال :

ما هى طبيعة وخاصية الأثر الذى وصفناه الآن ؟

انه متاخم لبوابة ، وكما رأينا ، كان مكونا من غرفة مقببة مبنية بالطوب ، وهيكل محفور فى الصخر ٠ وقد رسمت على حوائط هذا الهيكل آلهة مختلفة مع صفاتها ومع القرابين والصور النصفية للملك وهو يقدم فروض العبادة ٠ أما القارب بارى فقد ظهر مرسوما على الحائطين الشمالى والجنوبى للمدخل ٠ وهذه هى المعالم الأساسية لمعبد أو هيكل ٠ ومن جهة أخرى لابد من تسجيل اعتراضات معينة على

---

(١) حمل حاكم أثيوبيا هذا اللقب حتى عندما لم يكن من أبناء الأسرة الفرعونية الحاكمة ٠

وهناك حقيقة غريبة تتلخص فى أن حاكما لأثيوبيا على أيام رمسيس الثانى كان يدعى ميس Mes أو مسو Messou وتعنى (ابن) أو (طفل) ٠ وهو نفس الاسم : موسى والآن نرى أن النبى موسى كما ورد فى الكتاب المقدس كانت قد تبنته ابنة فرعون « صار مثل ابن لها » وقد تهذب بكل حكمة المصريين ، وتزوج امرأة كوشية سوداء ولكنها مليحة الوجه ٠ وربما كان من المبالغة أن نتأمل فى امكانية وصوله الى منصب حاكم أثيوبيا أو الابن الملكى لكوش ٠

هذه المقدمات المنطقية · لقد تهيأ لنا أن البوابة قد بنيت أولا وأن الحائط الجنوبى الذى بنى فى مرحلة تالية قد أقيم فى مقابل منحدر البوابة حيث يبدأ ظهور العقد · والى جانب ذلك فقد كانت البوابة ملحقا ضخما غير متناسب بالنسبة لأثر صغير بلغ طوله الكلى من المدخل الى الحائط الغربى للهيكل أقل من ٤٧ قدما · ولذلك استنتجنا أن البوابة تنتمى الى المعبد الأكبر ، وقد أقيمت فى الجانب بدلا من اقامتها أمام الواجهة · بسبب ضيق الفراغ الذى يفصل الجبل عن النهر (١) ·

ولنفس هذا السبب نجد أن البوابة التى فى كوم أمبو قد أقيمت بجانب المعبد وعلى مستوى أكثر انخفاضا · أما بالنسبة لهؤلاء الذين قد يعترضون قائلين ان البوابات المقامة من الطوب اللبن من الصعب الحاقها بمعبد من معابد الدرجة الأولى ، أقول ان بقايا البوابات المشابهة ما زالت موجودة على قمة ما كان يعرف يوما بأنه المرسى الذى يقود الى المعبد الأكبر فى وادى حلفا · ويمكن افتراض أن هذا الأثر الصغير رغم ارتباطه بالبوابة عن طريق مدخل وسلم الا أنه أضيف فى تاريخ لاحق ·

وما دام هو مجرد اضافة بصرف النظر عما تعنيه هذه الكلمة فان المبنى لابد أن يكون معبدا ·

وحتى مع ما يحيق بذلك الاستنتاج من شك ، فان الهيكل لا يوجد به أثر للمذبح أو قطعة من منبر حجرى أو صورة منحوتة أو عرش من الجرانيت ، كما هو الحال فى فيلة ، ولا جنية مقدسة كما هو الحال فى دندرة · أما راية حورس أرويريس (المتوج) التى سبق أن شرحناها فهى تحتل وسط الحائط فى مواجهة المدخل ليس كاله حارس ، ولكن كوسيلة للزخرفة للفصل بين الموضوعين الكبيرين اللذين شرحناهما ·

ومرة أخرى نجد أن الآلهة المرسومة فى هذه الموضوعات هى الاله رع وآمون رع والآلهة الحارسة للمعبد الأكبر ، ولكننا اذا عدنا الى النقش الذى شرحناه من قبل نجد أن تحوت الذى لم تظهر صورته على الحوائط مطلقة (٢) (الا بوصفه واحدا من الآلهة الصغيرة فى الافريز) ، هو فى

---

(١) توجد على بعد متساو من شمال المعبد الاكبر ، وحافة مجرى النيل ، كتلة غير منتظمة الشكل من الاطلال التى كانت مقامة بالطوب اللبن — ومن الممكن لو أعيد تركيبها أن تتحول الى بقايا بوابة ثانية مكملة لتلك التى كشفنا عنها جزئيا فى الجنوب ·

(٢) ربما كان مرسوما على الحائط الشمالى المغطى بكومة الرمال ·

الحقيقة الاله المتصدر للمكان . وهو الذى يستقبل رمسيس وقرابينه . والذى يتقبل التعظيم المقدم له بمعرفة ابنه المحبوب ، والذى فى مقابل الآثار العظيمة التى شيدت لتكريمه ، يعد الملك بأنه سينال « سيادة أبدية على القطرين » .

والآن نجد أن تحوت هو اله الخطابات المعظم . ويعرف بأنه اله الكلمات المقدسة واله الكتابات المقدسة ، وقرين الحقيقة ، وهو يجسد الذكاء الالهى . انه حامى الفن والعلم ، وصاحب الفضل فى اختراع الحروف الأبجدية ، وكما ورد فى واحد من أهم خطابات شامبليون من طيبة (١) فانه يتحدث عن الخرائب التى فى الطرف الغربى للرمسيوم وكيف أنه وجد فيها مدخلا مزخرفا بأشكال تحوت وسافيك (٢) . تحوت بوصفه رب القلم ، وسافيك التى جرى وصفها بلقب سيدة قاعة الكتب . وتوجد فى دندرة غرفة مخصصة للكتابات المقدسة وقد نقشت حوائطها كلها بقائمة لكنوز المعبد من المخطوطات . وفى ادفو بنيت خزانة بين أسطونين فى صالة الاجتماع وخصصت لنفس هذا الغرض . وباختصار فان كل معبد له مكتبته الخاصة . ولما كانت الكتب المصرية تنسخ على البردى أو الرق ثم تلف فى أشكال أسطوانية ، وتخزن فى صناديق ، فلذلك لم تكن تحتل الا مكانا ضيقا فكانت الحجرات المخصصة لهذا الغرض صغيرة الحجم .

وكان من رأى الدكتور بيرش أن هذا الأثر الصغير ربما كان مكتبة معبد أبى سنبل الكبير . أما والحال كذلك فاننا نكون قد تحدثنا عن عدم وجود المذبح وتصوير رع وآمون رع فى اللوحتين الرئيسيتين ، بما فيه الكفاية . أما الاله الذى يحرس المعبد العظيم وحامى رمسيس الثانى فمن الطبيعى أن يحتل فى هذا المبنى الثانوى نفس المواضع التى يحتلها فى المبنى الرئيسى ، بينما ظلت المكتبة بوصفها من ممتلكات تحوت ، تحت حماية آلهة المعبد الذى خصصت له .

ولا أعتقد أننا سألنا أنفسنا يوما كيف بقى هذا المكان مخفيا طوال هذه العصور ، بينما تدل جدته على مدى الفترة الزمنية التى ترك فيها مهجورا . ولو كان مفتوحا على أيام خلفاء رمسيس الثانى ، فلابد أنهم كانوا قد تدخلوا فى النقوش والخراطيش كما هو الحال فى أماكن أخرى .

---

(١) الخطاب رقم ١٤ ص ٢٣٥ من الطبعة الجديدة ، باريس ، ١٨٦٨ .
(٢) تقصد هنا الالهة سشات الهة الكتابة — (المراجع) .

أو استبدلوا خراطيشهم بخراطيش المنشىء . ولو كان مفتوحا على أيام البطالمة والقياصرة لكان السياح الاغريق والدارسون الرومان والغرباء القادمون من بيزنطة ومدن آسيا الصغرى قد حفروا أسماءهم على العارضتين الرأسيتين للباب ، وشوهوا نذورهم على الحوائط . ولو كان مفتوحا فى أيام المسيحية النوبية لكانت النقوش قد غطيت بالطين ودهنت بالجير ورسمت فوقها الصور المقدسة للقديس مار جرجس والعائلة المقدسة ، ولكننا وجدناه سليما مثل قبر كان مخفيا تحت القاع الصخرى فى الصحراء . ولهذه الأسباب أظن أنه لم يستعمل بعد استكماله مباشرة . وهناك بعض الشك فى حدوث موجة من موجات الزلازل خلال عصر رمسيس الثانى بطول الضفة الشرقية للنيل مبتدئة من بعد وادى حلفا وممتدة شمالا حتى جرف حسين . وأن مثل هذه الهزة قد دمرت المعبد فى وادى حلفا ، وخلعت البوابة فى وادى السبوع ، وهزت الأجنحة المبنية للخارج فى الدر وجرف حسين والتى حسبما أعتقد قد حملت المعابد الأربعة الأخيرة علامات تبين أنها أضيفت بمعرفة الفراعنة اللاحقين،مما يفيد بأنه قد هجر نتيجة الخراب الذى ألم به . أما هنا فقد هزت الزلازل جبل المعبد الكبير ، وشرخت أحد أعمدة أوزوريس بالقاعة الأولى (١)، وحطمت أحد التماثيل الأربعة الكبيرة،مع احداث أصابات صغيرة أو كبيرة بالتماثيل الثلاثة الأخرى ، وطرحت البوابة الضخمة المبنية من الطوب اللبن، وحولت جناح المكتبة Pronaos الى كومة من الخراب . ولم تدمر فقط جزءا من الهيكل المحفور ، بل شقت أيضا صدعا رأسيا فى الصخرة يبلغ طوله حوالى ٢٠ أو ٢٥ قدماً .

---

(١) تدل على وقوع هذه الهزة أو الزلزال أثناء حياة الملك رمسيس الثانى ، حقيقة أن العمود الأوزيريسى متصدع ، وأن هناك حائطا مبنيا لتدعيم العمودين الأخيرين الى اليسار عند الطرف العلوى للقاعة الكبرى . وتوجد على هذا الحائط لوحة ضخمة يغطيها نقش هيروغليفى مفصل يعود تاريخه الى السنة الخامسة والثلاثين من حكم رمسيس الثانى فى اليوم الثالث عشر من شهر طوبة . أما الذراع اليمنى للتمثال الخارجى الواقع الى اليمين من المدخل الكبير فقد دعم باقامة ذراع مسندة للعرش بنيت من الطوب المربع الشكل. وهذه هى الذراع الوحيدة التى لم يوجد مثلها فى أى من العروش الأربعة . وقد اكتشفت ميس مارتينيو اعادة جزء من الفك السفلى للتمثال الذى فى أقصى اليمين ، وأيضا جزءا من الرداء الذى يرتديه أحد تماثيل أوزوريس فى الصالة الكبرى . ولدى صورة فوتوغرافية التقطت عندما كان مستوى الرمال أكثر انخفاضا من مستواها الحالى بعدة أقدام ، وهى أن الساق اليمنى للتمثال الشمالى ليست هى الأخرى الا نتيجة اصلاح واسع النطاق . وقد بنيت فى شكل كتلة ضخمة مثل ذراع مسند العرش ولابد أن تشطيبها قد جرى فيما بعد .

ومع مثل هذا الدمار الشديد الذى يصعب اصلاحه والذى حدث للمعبد الكبير ، ومع ذلك الجزء الكبير الذى تم اصلاحه فان الأمر يسترعى الانتباه • ولا عجب أن هذه المبانى المقامة من الطوب اللبن قد تركت لمواجهة مصيرها (*) وربما استطاع الكهنة انقاذ الكتب المقدسة من بين الأنقاض ثم هجروا المكان •

ولا شك فى أن الكثير مما ذكرناه هنا قد أوردناه عن طريق التخمين• ولكننا نفترض أنه سبب كاف لتفسير الحالة الجيدة التى وجدت عليها الحجرة الصغيرة عندما وصلت الينا فى عصرنا الحالى • وهناك تفسير منطقى آخر لغياب الخرطوشين الأخيرين وتسجيلات النذور الاغريقية واللاتينية ، والرموز المسيحية ، وما تلا ذلك من تشويهات مختلفة الأنواع ، فيما عدا ما يتعلق بزائر معاصر واحد هو ابن حاكم كوش ، فاننا عندما فتحنا المكان وجدناه لا يحتوى على أية تسجيلات تتحدث عن زوار عابرين، أو توقيع مشوه لأحد السياح أو علماء الآثار أو العلماء المستكشفين • وكذلك لم يكتشف ذلك بلزونى أو شامبليون ، وحتى لبسيوس مر عليها مرور الكرام •

وقد يحدث أحيانا أن الأشياء المختفية التى يسهل اكتشافها فى حد ذاتها تفلت من الفحص لأن أحدا لا يفكر فى البحث عنها • ولكن لم تكن هذه هى الحال فى الموقف الحالى ، فقد جرى البحث هنا عدة مرات حتى اليوم •

(★) اثناء ترجمتى لهذه الفصول المتعلقة بآثار النوبة التى كانت موجودة منذ ١٢٠ عاما ، تذكرت أننى كنت أعمل ضابط مراقبة جوية بمطار أسوان عام ١٩٦٥/٦٤ وحضرت الاحتفال بتحويل مجرى النيل الذى أقيم فى عصر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، ونتج عن ذلك التحويل تمهيدا لبناء السد العالى ، اغراق معظم أراضى النوبة وآثارها تحت مياه بحيرة ناصر ، فيما عدا ما تم انقاذه بالحملة التى دعت اليها اليونسكو حيث كان قد تم نقل معبد كلابشة ومعبدى (أبو سنبل) الى أماكن جديدة • وقد زرتها جميعا فى مواقعها الجديدة حينذاك بعيدا عن البحيرة • أما بقية الآثار التى ليست لها أهمية قصوى فقد قامت هيئة اليونسكو ومعها فى ذلك سلطات هيئة الآثار حينذاك بتصويرها وتسجيلها وعمل كتيبات عنها وهى محفوظة بمركز تسجيل الآثار بالزمالك وفى جميع الأحوال يصبح ما أوردته مؤلفة هذا الكتاب ، تسجيلا له أهميته القصوى ومصدرا عظيما لتاريخ وجغرافية أراضى النوبة التى أغرقتها البحيرة ، ولم يعد لها وجود ـ (المترجم) •

ويبدو أن الخديو عندما كان يريد تسلية الضيوف المشهورين الذين كان يرسلهم في ذهبيات فخمة للرحلة عبر نهر النيل (١) ، كان يمنحهم ربوة عذراء ، أو عدة أقدام مربعة من مقبرة شهيرة ويسمح لهم بالحفر الى العمق الذى يرغبونه ، ويسمح لهم بالاحتفاظ بما يعثرون عليه من آثار . وكان فى بعض الأحيان يرسل فتيان الكشافة لحفر الأرض لاكتشاف مقبرة ثم يتركونهـا دون أن يفتحوها ، ثم يسمح للزائر الجليل القدر باكتشافها . وعندما كان فتيان الكشافة لا يوفقون كما كان يحدث أحيانا ، فانهم كانوا يعيدون اغلاق مقبرة قديمة بعناية ثم يعاد فتحها مرة أخرى بعد يوم أو اثنين بين مظاهر الفرح .

وقد ذكر لنا الشيخ رشوان بن حسن الكاشف أن ذلك حدث فى سنة ١٨٦٩ عندما وصلت امبراطورة فرنسا الى (أبو سنبل) ، كما حدث مرة أخرى سنة ١٨٧٢ عندما جاء أمير وأميرة ويلز ، وكيف أنه تسلم أوامر مشددة بالبحث عن مقبرة لم تكتشف بعد (٢) لكى يحس الضيوف بالارتياح لافتتاحها . وأضاف أنه لم يعد هناك مكان بين الصخور والوديان على جانبى النهر لم يفحصه دون أن يجد شيئا . ولكن وجود مثل هذه البربة (المعبد) كان سيخدم موقفه أمام الحكومة ، وسيتيح له الحصول على بقشيش كبير من ولى عهد الامبراطورية فى الوقت الذى كان فيه قد نال التوبيخ لافتقاره الى الاجتهاد ، واعتقد أنه صار منبوذا من ذلك الحين.

ولكى أنهى هذا الموضوع يجب أن أذكر هنا أن المبنى بالرغم من أنه مدفون فى الخارج الى عمق حوالى ثمانية أقدام ، فان الهيكل قد امتلأ من الداخل برشح تدريجى متساقط من أعلى . ولابد أن ذلك قد حدث عندما كان المنحدر الرملى القديم فى أوج ارتفاعه . ولابد أن هذا المنحدر الذى انسال فى خط متصل عبر واجهة المعبد الكبير ، كان مرتفعا هنا فى يوم ما الى ٢٠ قدما فوق المستوى الحالى . ومنذئذ اتخذ الرمل طريقه الى أسفل الصدع العمودى الذى ذكرناه من قبل . وقد ارتفعت كومة الرمال فى الركن الذى خلف الباب حتى السقف ، فى شكل يشبه الرمل المتراكم عند قاعدة الساعة الرملية . وقد أبلغنى الرسام أنه عند اكتشاف قمة المدخل مع احدى الفتحات لأول مرة ، انهالت الرمال من الداخل مثل الماء الذى يتدفع من عين مفتوحة .

(٢) ينطبق هذا القول على الخديو السابق اسماعيل باشا الذى كان يحكم مصر عند تأليف هذا الكتاب وطبعه فى طبعته الأولى — (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) .

(٢) توجد مقابر عديدة فى الوهاد التى خلف المعابد . ولم نهتم نحن بمشاهدتها .

وهنا نجد دليلا ايجابيا (هذا اذا احتاج الأمر الى دليل) على أننا أول من دخل الى المكان ، منذ ارتفاع المنحدر الرملي حتى وصوله الى مستوى قمة الصدع ٠

وكتب الرسام اسمه وأسماءنا مع التاريخ (١٦ فبراير ١٨٧٤) فى مساحة خالية من حائط خال من النقوش فوق الجانب الداخلى من المدخل ٠ وهذه هى المناسبة الوحيدة التى ترك فيها أى فرد منا اسمه على أثر مصرى ٠ وعند وصولنا الى كوروسكو حيث يوجد مكتب للبريد ، أرسل الرسام خطابا الى جريدة التايمز يحوى باختصار الحقائق المتعلقة بهذا المكان ٠ وقد نشرنا هذا الخطاب الذى نشرته الجريدة فى ١٨ مارس التالى فى التذييل الذى فى آخر هذا الكتاب ٠

وقد علمت فيما بعد أن أسماءنا التى سجلناها قد شوهت جزئيا ، وأن الرسوم الجدارية التى أحسسنا بالسعادة ونحن نعجب بجمالها وجودتها قد جرحت ٠ وهذا هو قدر كل أثر مصرى سواء أكان كبيرا أم صغيرا ٠ فالسائح يشغل الآثار كلها بالأسماء والتواريخ وأحيانا بالرسوم الهزلية ، وكذلك فان دارس علم المصريات يبلل ورقة يشف بها كل أثر باق من اللون الأصلى ٠ اما جامع التحف فانه يشترى وينقل كل شىء له قيمة يستطيع أن يتوصل اليه ، ويقوم الأعرابى بسرقة الآثار لحسابه ٠ وفى نفس الوقت تستمر أعمال التخريب على قدم وساق ، ولا يعمل احد على وقف هذا النزيف أو عدم التشجيع على المضى فيه ٠ واستمر عمل التشويه للمزيد من الزخارف والتماثيل ٠ ويحتوى متحف اللوفر على شكل بالحجم الطبيعى للملك سيتى الأول ، قد نزع بكامله من مقبرته بوادى مقابر الملوك ٠ وكذلك فان متاحف برلين وتورين وفلورنسا غنية بالخرائب التى تحكى قصتها الذاتية التى يرثى لها ٠ أليس من الغريب أنه فى نفس الوقت الذى يدخل فيه العلم الى مكان ، يدخل خلفه الجهل أيضا الى نفس المكان ؟!

الفصل التاسع عشر

العودة من خلال أراضى النوبة

يوجد أربعة عشر معبدا ما بين أبى سنبل وجزيرة فيلة ، بخلاف المغارات والمقابر والخرائب الأخرى . وكقاعدة عامة فان الناس يبدءون في الاحساس بالتعب من جهة المعابد فى مثل هذا الوقت ، ويعطون أصواتهم فى غير صالحها بقدر كبير ، ويجوس السياح المتواضعون خلالها كنوع من أداء الواجب . ولكن العدد الاكبر منهم يتمرد . ويؤسفنى القول بأن الزوجين السعيدين اتخذا مسار الغالبية ، ولم يخجلا من اعلان ذلك . لقد أعلنا صراحة أنهما يشعران بالملل ، لدرجة أنهما تجاهلا معابد عديدة .

أما عن نفسى ، فاننى لم أشعر بالملل من المعابد أبدا ، وبالرغم من كثرة عددها الا أننى أود دائما أن يكون عددها أقل ، وتوضح لنا ميس مارتينيه كيف أنها وهى فى هذا الجزء من النهر ، نادرا ما كانت تقبل بالجلوس الى الافطار قبل أن تكون قد اكتشفت معبدا . ولكننى كنت أستطيع أن أتناول الإفطار وأتغدى وأتعشى على المعابد . لقد كانت شهيتى للمعابد لا ترتوى . وكانت تنفتح مع ما تتغذى عليه . لقد مررت بها جميعها ، ودونت مذكرات عنها كلها ، وفحصتها كلها .

وأقول اننى سوف أنشر سريعا العدد القليل من هذه المذكرات ، والقليل من هذه الرسومات التخطيطية ، ضمن هذا الكتاب . وسوف تفشل الخرائب – اذا ما أحاط بها خلطاؤها المحليون – فى أن تثير اهتمام هؤلاء الذين يسافرون بعيدا لكى يشاهدوها . وليس من المفروض أن تثير القراء فى الوطن . وربما ظهر شخص هنا أو هناك يهتم بأن ينكب معى على كل تمثال ، وأن يقرأ معى كل خرطوش قليل الوضوح ، وأن يتقصى التأثيرات الاغريقية والرومانية (التى لا تتضح فى أى مكان آخر بخلاف هذه المبانى النوبية) والتدهور البطىء للطراز المصرى . ولكن العالم يحتفظ لنفسه بالجزء الأكبر منها خاصة ما يتعلق بالحقب الزمنية

العظيمة والاسماء الكبيرة التى ترددت فى الماضى ، ونظرا لأنه لم يتعرف جيـدا الى أسماء الكرنك ، وأبى سنبل ، والاهرام . فانه يحتزن قدرا ضئيـلا من هذه الآثـار الأصـغر والتى تؤرخ لفترات الحـكم الاجنبى واضمحلال الفن الوطنى • ولهذه الاسباب ، أقترح أن نتجاهل وباختصار شديد العـديد من الأماكن التى منحتها سـاعات طويلة من العمل المثير لبهجـة •

وغادرنا معبد أبى سنبل عند شروق القمر فى مساء يوم ١٨ فبراير، وألقينا بأنفسنا مع التيـار لمسافة ثلاثة أو أربعـة أميال قبل أن نرسو لقضاء الليل • وفى السـاعة السادسة من صباح اليوم التـالى بدأنا فى التجديف • وفى حوالى الساعة الثامنة والنصف كانت رؤوس التماثيـل الأربعة الضخمة لا تزال ظاهرة بعد أن عبرنا سلسلة من التلال المتوسطة ، ثم أصبحت كلها على بعد يجاوز خمسة أميال على خط مباشر • ولكن كافة المعالم كانت واضحة فى ضوء النهار الميكر • وكنت أرتفع ثانية وثالثة مع استمرار بقائها على مدى النظر ، وأخيرا لوحت لها بتحية الوداع ، بنفس الدفء القلبى الذى يصحب المناظر الجميلة فى جبال الألب •

وعندما أقول اننا قضينا سبعة عشر يوما للخروج من (أبو سنبل) الى جزيرة فيلة ، وان الريح كانت كل يوم ضدنا من شروق الشمس حتى غروبها ، فان ذلك يبين كيف كان تقدمنا بطيئا جدا ، خاصـة بالنسبة لهؤلاء الذين تعبوا من مشاهدة المعابد ، والبحارة الذين عانوا من القصور فى مخزون الخبز ، فقد كانت هذه الأيام الطويلة ـ التى قضيناها راسين تحت الضفة ، أو متأرجحين يمينا ويسارا وسط النهر ـ بغيضة بما فيه الكفايـة •

وكانت الأميال تمضى ببطء شديد ، فكانت الصحراء العارية تحيط بنا يمينا ويسارا دون وجود أى شريط أخضر بين الصخر والنهر • وفى بعض الأحيان كما حدث فى توشكى (١) (*) كنا نأتى الى منطقة واسعة مفتوحة تنمو بها أشجار النخيل ، وزراعات الخروع ، وحقول القمح التى يتجمع فيها السمان • وقد نزل الرجل الكسول الى الشاطىء فى توشكى

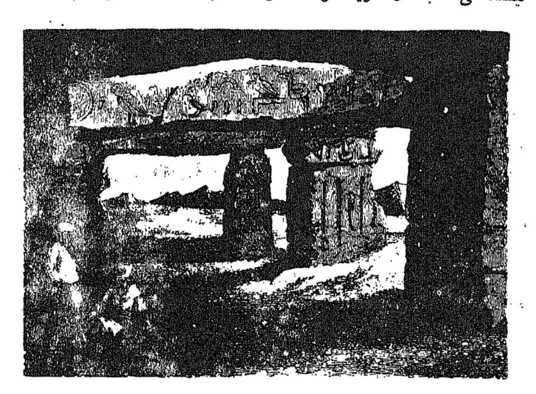
(١) تقع توشكى على الضفة الشرقية وليست الغربية كما أوردها كيث جونستون فى خريطته •

(*) هى توشكى فى الجهة الغربية من النيل وليست الشرقية كما تقول المؤلفة ومنها تبدا قناة توشكى لمشروع تنمية جنوب الوادى ـ (المراجع) •

ومعه بندقيته • بينما تسلقت السيدة الصغيرة والكاتبة صخرة منعزلة على ارتفاع حوالى ٢٠٠٠ قدم من سطح النهر • وفى كل موسم تغطى أطراف الضفة موجة من الفيضان على شكل الهلال يبلغ طولها حوالى ثلاثة أميال • ويستطيع الانسان من هذا الارتفاع أن يشاهد مدى اتساع الموجة ، وكيف تنشىء خليجا صغيرا عندما تتكون هناك • والخليج الآن مزروع بالشعير الذى يملأ السنابل وتعمل الرياح على انضاجه • وبعد الخضرة تأتى الصحراء ، كلتاهما خلف الأخرى فى حدة تشبه مواجهة الأرض مع النهر • ويظهر جمال عراقة الصحراء بجانب القمح الأخضر • ويتسع انتشار فيضان النيل بين الضفاف الرملية مثل نهر من المد والجزر بالقرب من البحر • أما القرية المربعة التى على شكل متوازى الأضلاع مثل سوق الماشية فهى تقع أسفل النهر • وتظهر نظارة الميدان أن المنازل مسورة فى بساطة بأحواش مسقوفة بسعف النخيل ، أما منزل الشيخ فقد كان أكبر حجما من المنازل الأخرى ويمتد أمامه الفضاء المعتاد ، كما تنتشر أمامه أشجار الجميز • وتتحرك النساء هنا وهناك فى داخل الأحواش ، والأزواج فى حقول الخروع • وتظهر الآن جنازة يمشى خلفها طابور من الندابات فى اتجاه المدافن على حافة الصحراء • وكان الرجل الكسول الرفيع الجسم الذى لف حول قبعته شريطا ، وأخذ يخوض الماء وهو نصف مختف بين أعواد الشعير ، يعلن بين الفينة والفينة عن نفسه ، عن طريق نفثة من الدخان الأبيض • وتظهر مركب للبضائع عائمة فوق صفحة النهر دون أى تقدم يذكر • وهناك فلوكة وطنية ترفع شعارا مهلهلا بنى اللون تمضى سريعا مع الريح فى اتجاه الجنوب بسرعة تجعلها تصل الى أبى سنبل قبل هبوط الليل • وقد تجاوزت بالقرية الآن • وكانت تلك البقع السوداء التى لم تحلم بها هناك ، هى التماسيح التى ألقت بنفسها الى الماء عند اقترابنا ، وهى الآن بعيدة على هذه المسافة غير المحدودة ، والتى تشقها أذرع فضية من النهر ، وتنتهى باتساع ضخم ، أزرق ومترامى الأطراف لدرجة أن الانسان لا يستطيع أن يميز النقطة التى تختلط فيها الأرض بالسماء اللهم الا فى وجود ثلاث أو أربع بقع من القمم الأرجوانية التى تبدو فى الأفق •

وبعد ذلك تأتى أبريم ثم الدر ثم وادى السنبوع • وتوجد فى أبريم كما فى الدر عائلات جميلة الشكل تعود شعور رؤوسها الخفيفة وعيونها الزرقاء (المطعمة على جلد أسود بنى) الى أجدادها البوسنيين الذين أحضروا الى هنا منذ ٣٦٠ عاما مضت • وهؤلاء يقدمون انفسهم على الآخرين ويمثلون وجهاء المنطقة ، ورجالهم كسالى ويميلون الى الشجار •

أما النساء فيرتدين ثيابا طويلة مع العديد من الخرز والحلقان وهن أقل جاذبية ، ويدهن ذواتهن بزيت الخروع أكثر من سائر النسوة اللائى شاهدناهن فى أماكن أخرى ٠ وهم يحتفظون أيضا بالعبيد ، وقد رأينا هؤلاء العبيد المنحوسين وهم يسيرون مثل الكلاب خلف سادتهم من السيدات ٠ ولما كانت السيدتان م ، ب تعرفان أن الرق محظور رسميا فى أملاك الخديو فقد دخلتا فى مساومة مع أحد السماسرة الذى عرض عليهما فتاة حبشية مقابل عشرة جنيهات ٠ ودارت المساومة حول فائدة هذه الصفقة لأن الفتاة كانت تستطيع أن تكنس ، وتغسل ، وتحلب اللبن ، وتخضه ، ولكنها لا تعرف الطبخ ٠ ولما كانت السيدتان م ، ب ليستا فى حاجة الى المزيد من الأنفس فقد تراجعتا عن اتمام الصفقة ٠



معبد عمدا

وفى الدر قمنا بزيارة توديع للمعبد ٠ ووصلنا عند عمدا قرب نهاية اليوم ، فقررنا أن نشاهد جمال المنظر للمرة الأخيرة ممتزجا بجمال الشمس عند الغروب ٠

والآن فانه بالرغم من هبوب ريح الشمال باستمرار الا أن الحرارة تزداد كل يوم ، والتماسيح تحب ذلك وتظهر لكى تستدفىء فى حرارة الشمس ٠ وفى صباح أحد الأيام نودى علينا فى أثناء الافطار فشاهدنا تمساحين ، أحدهما صغير والآخر كبير ، وكانا راقدين على ضفة رملية

قريبة · وكان الرجال يستريحون على مجاديفهم بينما تمضى المركب مع المجرى · لا أحد يتكلم ، ولا أحد يتحرك ، ومضينا فى صمت حتى أصبحنا بالقرب منهما · كان التمساح الكبير ضخما وأسود اللون مثـل سـاق شجرة الدردار المزروعة فى لندن ، ويصل طوله الى ثمانية عشر قدما · أما التمساح الصغير فقد كان شاحبا بلون أخضر ويلمع مثـل الزجاج · وفجأة تحرك التمساح الكبير وقوس جسمه ثم قفز واختفى فى طرطشة عظيمة ، ولكن كان واضحا أن التمساح الصغير غير مميز للخطر فرفـع درقته مثل الرأس ، وأخذ يرمقنا بعينيه من جميع الجهات · وهنا همس أحدنا ، واذا بهذه الهمسة تكسر جدار الصمت لأن تمساحنا الصغير رفـع ذيله وغطس تحت الضفة واختفى فى لحظـة ·

ولم يفهم البحارة كيف أن الرجـل الكسول الذى كان يرقـد فى (أبو سنبل) منتظرا ظهور التماسيح قد جعل هذه الفرصة تمر دون أن يطلق رصاصة واحدة · ولكننا منذ ذلك الحين تذكرنا المذبحة العشوائية التى جـرت عند الشـلال الثـانى وأنه لم يساهم بأى دور فى ابادة هذه الزواحف التاريخية القديمة · وليس من المعقول أن يرغب الرجل الرياضى فى الحصـول على جائزة واحـدة ، ولكن هذا الاطـلاق الكثير للطلقـات العشوائية والذى يدور كل شتاء قتـلا وجرحا لهذه الوحوش البـائسة بمتوسط يتراوح ما بين اثنتى عشرة الى ثمانى عشرة طلقة لكل بندقية ليس الا مذبحة فعلية ، ولابد من استنكاره بشدة· وأخذت هذه المخلوقات تختفى وتتناقص أعدادها عاما بعد عام ، وليس ببعيد ذلك اليوم الذى يصبح فيه التمساح نادر الظهور بعد قرية سمنة ، مثلما هو اليوم نادر الظهور بعد أسوان ·

وكان الترمومتر متوقفا عند درجة ٨٥ فهرنهيت فى غرفة الصالون بالذهبية فيلة ، وذلك عندما وصلنا الى وادى السبوع حيث يوجد معبد وحيـد غارق فى الرمال · وكان يتم الوصول اليـه يوما ما فى طريـق للكباش والتماثيل الواقفة قد تحطم الآن ودفن فى الرمال · أما سقف المعبد ــ لو كان هناك سقف ــ فقد زال · وجميع القاعات الداخلية المحفورة فى الصخر ومعها قدس الأقداس ، غاصة بالرمال ومن الصعب عبورها · والبوابات فقط هى التى تقف خالية من الرمال ، وتبدو رغـم ضخامتها هشة بحيث تتقوض تحت صـدمة واحدة من الآلة الحربيـة التى كانت تسـتخدم قديما لتقويض الحصون ، لأن كل حجر ضخم من أحجارهـا مفكك ، كما أن كل كتلة فى الافريز تبدو متهاوية فى مكانها · وتدل هذه

العلامات كلها على حدوث زلزال (أبو سنبل) الذى تخيلنا حدوثه من قبل (١) ·

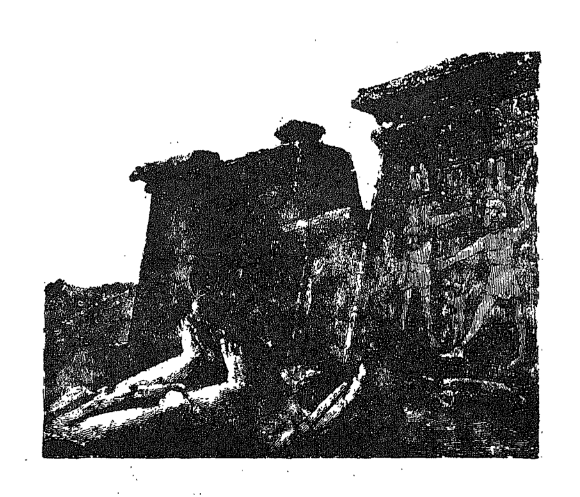
وعند وادى السبوع نشاهد مواطنا سمينا · ولابد من تسجيل هذه الحقيقة لأنها غير عادية · انه رجل شديد البأس متوسط العمر ، يلبس ثوبا قصيرا مهلهلا ، ويحمل فى يده نبوتا من جريد النخيل ، ويقف أمامنا وتتبعه زوجتاه وثلاثة أو أربعة من الأبناء وهم جميعا يمارسون التجارة · كنسخة طبق الأصل من التمثال الخشبى الموجود أمام متحف بولاق · وكانت المرأتان تعرضان للبيع بعض الحلى الرخيصة ، بينما يعرض الأولاد حرباء حية وتمساحا صغيرا ·

وبينما كان الرسام يساوم على شراء التمساح والسيدة (ل) تشترى خزامة للأنف ، كانت الكاتبة تتعرف الى اثنين من طائر الهدهد ، يعيشان فى البوابة الضخمة للمعبد ويعتبرانها عشا ضخما قاما ببنائه · وهما يجثمان يراقبانني باستغراب وأنا أرسم لوحاتى ، مثل اثنين من النقاد · ويظهر طائر أسود صغير أبيض الصدر يغنى لحنا شجيا ، وهو لا يشبه أى طائر آخر صغير رأيته من قبل ، ولكن اللحن الذى يشدو به من حنجرته الصغيرة يماثل فى عذوبته ورقته شدو عصافير الكناريا ·

وكانت الذهبية تقف مستسلمة عكس اتجاه الرياح يوما بعد يوم فى الشمس · وأحيانا عندما كان يتصادف وجودنا بالقرب من احدى القرى كان المواطنون يجلسون القرفصاء على الضفة ، ويحملقون فينا أو يثرثرون معا · وفى اللحظة التى يظهر فيها أى شخص على سطح المركب كانوا يندفعون فى صوت واحد طالبين « البقشيش ! » ولم أجد سوى وسيلة واحدة للتخلص منهم وهى أن أقوم برسمهم · وكانت

---

(١) هو أحد المعابد التى أنشأها رمسيس الأكبر ، وأعتقد أنه لم يكن أضافة أضافها أحد خلفائه ، وقد اقيمت طبقا لصورته الشخصية التماثيل الضخمة والأعمدة التى على شكل اوزوريس وتماثيل الكباش (التى تحطمت الآن فتجردت من كافة الملامح الانسانية الخارجية) وكذلك فان جميع الخراطيش تخصه · كما أن هناك قائمة بأسماء أفراد عائلته الصغيرة فى احدى الحجرات الداخلية · وكان من السهل الوصول الى جميع هذه الحجرات منذ ثلاث أو أربع سنوات مضت ، عندما نزعت مجموعة من السياح الألمان بعض اللوحات الملحوظة ذات الأهمية الأثرية العظيمة · وبعد عملية النهب هذه أغلق المدخل بالرمال تنفيذا لأوامر مرييت بك ، مع الأخذ فى الاعتبار الزلزال الذى ربما يكون قد حدث فى هذا المكان — انظر الفصل السابق من هذا الجزء من الكتاب ·



معبد وادى السبوع

الاستجابة سريعة فقد أحضرت فرخا من الورق وقلما من الرصاص ، وسرعان ما أسرع أهل القرية جميعا بالهروب لدى اكتشافهم لهذه النية . ولو كنت أريد موديلا لواجهت صعوبة كبيرة فقد استحضر الرسام بعض النساء والفتيات (الكثيرات منهن مليحات الشكل) لكى يجلسن حتى يرسمن . وأتذكر أن واحدة منهن كانت صارخة الجمال وتشبه الالهة جونو زوجة جوبيتر كبير الآلهة الاغريقية ، وقد وقفت على الضفة فى صباح أحد الأيام وهى تسخر من كل ما يجرى على ظهر السفينة . وكانت تحمل سلة عريضة ذات مقبض خلفى ، وقد غطيت ذراعاها بالأساور وأصابعها بالخواتم ، وتعلقت طفلتها الصغيرة بطرف ثوبها وهى نصف متعجبة ونصف خائفة . وقد أرسل اليها الرسام مندوبا مفوضا يعرض عليها أى مبلغ ابتداء من ستة بنسات حتى نصف جنيه انجليزى من الذهب ، اذا استمرت فى وقفتها هذه لمدة نصف ساعة ، وكانت طريقة رفضها عظيمة فقد سحبت شالها فوق وجهها وأمسكت بيد طفلتها ومضت مثل الهة تعرضت للاساءة . وكانت الكاتبة قد رسمت لها خلسة صورة صغيرة من نافذة القمرة وهى مختفية خلف ستارة ...

وفى الضفة الغربية فى بقعة خالية من الخضرة ، تقع ما بين وادى السبوع والمحرقة ، قامت خرائب مدينة حصينة لم يذكرها موراى أو يوقعها على خرائطه ٠ كانت مرتفعة ومبنية على قاعدة من الصخر ، وتتحكم فى النهر والصحراء ، وقد اكتشفها الرسام والكاتبة بعد ظهر أحد الأيام خلال جولة بدون قصد ، حيث ارتقينا فى البداية منحدرا حادا تناثرت فوقه الأحجار ، ثم وصلنا الى بقايا بوابة حجرية ٠ ولما لاحظنا صعوبة عبورها ، اتخذنا طريقنا من خلال ثغرة فى الحائط ، ثم صعدنا طريقا ضيقا اندفعنا منه الى شلال من الأنقاض ٠ ولما وصلنا الى موقع خرب فى قمة هذا الطريق ، وجدنا أنفسنا فى متاهة من الممرات التى تعلوها البواكى المبنية من الطوب اللبن ، ومضاءة على مسافات قصيرة عن طريق فتحات من السقف ٠ وقد شغلت هذه الممرات الغريبة على الجانبين ، مبان صغيرة من الطوب اللبن على قواعد حجرية ٠ ودخلنا الى بعض المنازل فوجدناها مجرد صالات خربة وحجرات بدون سقف ، وليست بها أية علامات على وجود مكان للمدفأة أو بئر للسلم ٠ وقد سنطحت فى أحد هذه المنازل قطعة من عمود حجرى يبلغ قطرها حوالى ١٤ بوصة ٠ وكان الهواء فى هذه الشوارع القديمة متعفنا وراكدا ٠ وقد تكدست الأرضية فى كل مكان بأكوام من الشقافة الفخارية المكسورة بألوانها السوداء والحمراء والصفراء مثل شقافة الفنتين وفيلة ٠ ولم أر ما يتفوق على هذا المكان من حيث الوحشة والخراب ٠ وكان يبدو كما لو كان محاصرا ومنهوبا ومهجورا منذ ألف عام مضت ، كما تدل على ذلك نوعية الفخار الذى ينتمى الى فترة الاحتلال الرومانى ٠ وبالاشارة الى كيفية بناء الطبقات العليا بالطوب اللبن فوق أحجار أكثر قدما ، استنتجنا أن بدايات هذا المكان هى بدايات مصرية ، والأبنية التالية رومانية ٠ أما الرخام فيبين أن هذه المدينة مثلها مثل أية مدينة بنيت فى بقعة منعزلة ولم يكن هناك فراغ كبير تشغله حقول العدس لأن المسافة الواقعة بين النهر والصحراء لا تزيد عن ميل أو أكثر ٠

وبعد أن عبرنا المكان من بدايته الى نهايته ، خرجنا من فتحة أخرى فى الجانب الغربى ٠ وقد فكرنا فى البحث عن موقع يصلح للرسم فى داخل هذه الأرض ويتجه نحو السهل ٠ وللوصول الى ذلك يتحتم على الانسان أن يعبر واديا عميقا يفصل صخرة القلعة عن الصحراء ٠ وبعد أن تبينا حافة هذا الوادى الى النقطة التى يصل فيها الى مستوى الارتفاع ، وجدنا مع بالغ الدهشة أننا كنا نطل على نهر متبدل !

والنهر ممتلىء بالرمال الآن ولكنه كان ممتلئا بالماء يوما ما · وقد اتضح لنا كل ذلك من الجبال التى تتجه نحو الغرب ، فقد استطعنا أن نتتبع انحناءاته لمسافة طويلة عبر السهل ثم خلال الوادى وجنوبا فى خط متواز مع نهر النيل ، وهنا تحت أقدامنا ، كانت تقع الصخرة التى كان يتخذ طريقه من خلالها · وهناك الصخور التى شكلها عندما اعترضت مساره ، وهى الآن نصف مدفونة فى الرمال · وأشك فى أن المجرى وهو ممتلىء بالماء ، كان فى نصف الجمال الذى هو عليه الآن وهو نهر من الرمـــال ·

ولا شك فى أنه كان حينذاك عكرا ومحملا بالرواسب ، أما الآن فان لونه ذهبى أكثر من لون نهر باكتولاس (*) وقد غطته موجات متحركة مترقرقة أكثر عددا مما كانت ترسمه فرشاة كاناليتى ·

واذا افترضنا أنه كانت توجد هنا مدينة عندما كان هذا النهر يمتلىء بالماء ، وكان السهل خصـــبا ومرتويـــا بالماء ريا جيـــدا ، فان ذلك كان سيوضح سر موقع هذه المدينة التى كانت محمية من الأمام بنهر النيل ، ومن الخلف بالوادى والنهر القديم · ولكن متى كان ذلك ؟ من الواضح أنه كان يجرى هنا نهر مستقل ينبع ماؤه من بين الجبال الليبية ، وبذلك فان تاريخه يعود الى الزمن الذى كانت فيه هـــذه التلال القاحلة تتجمع وتوزع الماء · ولنقل ان فى ذلك الزمن كانت الأمطار تسقط على أراضى النوبة ، كما أن ذلك الزمن كان سابقا لظهور الحاجز الصخرى فى منطقة السلسلة ، فى الأيـــام الخوالى عنـــدما كانت أرض كوش تفيض باللبن والعســـل (١) ·

وكان فى الامكان أن تســقط الأمطار على أراضى النوبـــة فى هذه الأيام التى نعيشها للدرجة أنه فى نفس ذلك المساء الذى بقينا فيه حتى وقت الغروب ، قد شاهدنا سحابة على شكل مروحة متقطعة وهى تنساق فوق رؤوسنا على ارتفاع شـــاهق ، وكانت تتفكك على شكل أطراف من

(*) نهر كان يجرى فى مملكة ليديا بآسيا الصغرى واشتهر بالذهب الذى أعطاه لونا ذهبيـــا ـ (المترجم) ·

(١) لقد وجدنا هذه التربة الطينية القديمة ليس فقط بالقرب من هذه المدينة غـــير المعروفة بل فى أماكن كثيرة أخرى تقع بين (أبو سنبل) وفينـــلة ويتراوح ارتفاعهـــا ما بين ٢٠ الى ٣٠ قدما فوق مستوى طبقـــات الفيضان الحالية ·

البخار الذى يتخذ ألوان قوس قزح · وكنا نستطيع أن نرى هذه الأطراف بوضوح وهى تتكون وتتموج وتتبخر ولكنها لا تستطيع أن تتساقط فى شكل امطار لانها كانت تتبدد على ارتفاع شاهق بسبب الحرارة المنبعثة من الصحراء ، وهذا هو الاستثناء الوحيد الذى رأينا فيه سحابا فوق أراضى النوبة (*) ·

وعند عودتنا التقينا بمواطن نوبى يحمل فى يده عقدا من الخرز وسكينا على كم ثوبه ، وقد تبعنـا لمسافة طويلة وهو يحكى قصة غير واضحة عن بربة (معبد) غير معروفة فى الصحراء (١) · وسألنـاه عن مكانها فأشـار الى أعلى النهر غير المعروف الذى تحدثنـا عنه · فسـأله الرسام : « هل رأيتها » · فقال : « مرات كثيرة » · وسأله مرة أخرى : « كم تبعد عن هنـا ؟ » فأجاب : « مسيرة يوم واحـد فى الصـحراء » · فسأله : « ألم يرها أحد من الانجليز من قبل ؟ » فهز رأسه أولا لأنه لم يفهم السؤال ، ثم ظهر عليه الحزن ورفع احدى أصابعه ·

كان رصيدنا من اللغة العربية قليلا ، بينما كانت لغته العربيـة مختلطة باللهجة الكنسية Kensee حتى اننـا وجدنا صعوبة شديدة فى فهم ما ذكره بعد ذلك · واسـتطعنا أن نسـتنتج أن أحد الخواجات كان يسـافر على الأقدام وحـده بحثا عن هذه البربة ولم يعـد ، فهل تاه فى الصحراء ؟ أم قتل ؟ لا أحد يعرف ·

ورد الرجل حامل الخرز قائلا : « كان ذلك منذ وقت طويل مضى ولم يأخذ معه مرشدا » ·

وكنا مستعدين لدفع الكثير من المال للوصول الى منبع هذا النهر ، والبحث فى الصحراء عن هذا المعبد غير المعروف ، ولكن سوء حظ مثل هذه النوعيـة من السفر ، يجعل المسـافرين يلتزمون بعدم الخروج عن المسار المطروق · وكان فصل الصيف قادما ، والماء منخفض فى النهر ، والتكلفة اليومية للذهبيـة فادحة ، وفى النوبة يصعب شراء أية مواد غذائية ولذلك فان المسافر المتباطىء يغامر بالموت جوعا · وعلى المرء أن

(*) أرى أن الخيال قد شطح بالكاتبة هنا أكثر من اللازم حتى انها نسيت أبسط الحقائق العلمية عن سقوط الأمطار ـ (المترجم) ·

(١) كلمة بربة العربية تعنى معبدا ـ (المترجم) ·

يلاحظ أن نهر النيل بدلا من أن يفيض لمسافة ١٢٠٠ ميل دون أن تصله امدادات من أى رافد آخر ، فانه هنا يتلقى مياه رافد كبير (١) .

وتتوالى المعابد فى تتابع سريع بالنسبة لهؤلاء الذين تهب ريح الجنوب خلفهم . وقد استطعنا تحقيق ذلك بدرجات ، وسعدنا عندما رست ذهبيتنا العاجزة عن التجديف نحو أى شيء يستحق المشاهدة . وعلى ذلك فقد انطلقنا فى يوم من الأيام الى المحرقة ، وهى ليست فى حد ذاتها الا خرابة كئيبة ولكنها موحشة كمنظر صالح للرسم ، وهى تظهر للقادم من الضفة بعد النزول من المركب على شكل صفين متوازيين من الأعمدة ، يقفان فى جرأة مقابل السماء ، ويسندان بناية مسقوفة خربة . وفى المقدمة يقف القليل من نخيل الدوم المتخلف النمو وهو على وشك الجفاف والموت لعدم وفرة الغذاء فى تربة قاحلة ، بينما تقترب الصحراء من على البعد .

ونحن محاصرون هنا بحشد صفيق من الرجال والأولاد ذوى السحنات المتوحشة ، والفتيات الوقحات ذوات الشعر المجعد والأهداب النوبية اللائى أخذن يزعجننا بالخرز والحصباء ، وهن يرقصن ويصرخن ويضربن أرجلهن ويصفقن بأيديهن فى وجوهنا ، ثم يلقين علينا الزلط عندما نسير . وأخذ أحد المحاربين المهتاجين يلوح ببندقية قديمة يبلغ طول ماسورتها ستة أقدام كاملة ، بينما حمل بعض المحاربين الآخرين رماحا رفيعة .

ويبدو أن المعبد وهو مبنى رومانى قديم قد تعرض للدمار نتيجة زلزال حدث قبل اتمام بنائه ، فقد كانت جميع الأعمال الحجرية غير مصقوله ، وظهرت الأعمدة كما لو كانت قادمة لتوها من المحجر . كذلك كانت تيجان الأعمدة على شكل كتل تنتظر النحات . وهذه الخرائب غير المستكملة الصنع ، والتى كان يبدو كل حجر منها جديدا كما لو كان العمل

---

(١) « يتلقى النيل مياه آخر روافده وهو نهر عطبرة عند خط عرض ١٧٫٤٢ شمالا عند طرف المنطقة التى تتخذ شكل شبه الجزيرة والتى تسمى جزيرة مروى . ومن هناك يتجه شمالا (فى شكل مجرى منفرد بدون أى روافد أخرى) خلال ١٢ درجة من خطوط العرض ، أو يتبع مجراه المتعرج لمسافة لا تقل عن ١٢٠٠ ميل الى البحر » . انظر كتاب بلاكى Blackie, Imperial Gazetter المطبوع سنة ١٨٦١ ، وهو مسح دقيق للمنطقة ، من المحتمل ان يلقى الضوء على المنابع الجافة للكثير من هذه الروافد من أمثال الرافد الذى تحدثنا عنه الآن .

فى تشطيبته يجرى على قدم وساق ، تؤثر فى خيال المشاهد الى حد بعيد ·
وعند حائط متداع فى جنــوب الهيكــل ، أخــذ الرجل الكسول يفحص بعض بقايا نقش اغريقى (١) وبحثنا عن حروف هيروغليفية أو خراطيش نهتدى بها الى تاريخ البناء دون جدوى (٢) ·

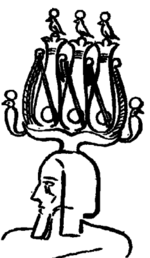
ونأتى بعد ذلك الدكة فى الترتيب ثم جــرف حسين ثم دنــدرة وكلابشة · وقد وصلنا الى الدكة بعد شروق الشمس مباشرة فوجدنا جميع الســكان يصرخون ويتدافعون ويثرثرون وهم يحملون البيض ، والحمام ، واليقطين (القرع العسلى) للبيع ، وقد تدفقوا لاستقبالنــا · وتوجد فى الطريق هنا جزيرة رملية كبيرة ، ولذلك فقد رسونا على بعد حوالى ميل شمال المعبد · فى البداية ، رأينا صرح معبد الدكة منذ عدة أسابيع مضــت ، وكنا حينئذ فوق ســطح فيلة ، وقد شبهناه بالصرح ذى البرجين لمعبد ادفو · أما ونحن نقترب من هذا الصرح عن طريق الأرض فقد تعجبنا ؛ لأننا وجدنا البرجين صغيرين جدا · وكان صباحا مشرقا شديد الحرارة ، وكان طريقنا يمر بجوار النهر بين منحدرات العدس ومزارع الخروع · وكانت هناك أسراب من الحمام تطير منخفضة فوق رؤوسنا ، وقد اقتربت

---

(١) يقول بوركهارت عن هذا الحائط : « من الواضح أنه قد سقط بسبب ارتجاج فجائى وعنيف ، لأن الأحجار قد سقطت على الأرض وهى مرتبة فى طبقات فوق بعضها ، مثلما كانت موضوعة فى الحائط بما يبرهن على أنها قد سقطت كلها فى وقت واحد » · انظر كتابه Travels in Nubia, ed. 1819, p. 100. ، ولكنه لم يلاحظ النقش المدون بحروف كبيرة على ثلاثة سطور فوق ثلاث طبقات منفصلة عن الحجر · وقد نسخ الرجل الكسول الأصل وهو فى الموقع حيث صارت هذه النسخة منذ ذلك الوقت معروفة بأنها نذر سابق لأحد الجنود الرومان منشور ضمن مجموعة النصوص اليونانية التى جمعها بوخ فى كتابه Boeckh's Corpus Inscr. Graec. واليك ترجمتها : « هذا هو النذر المقدم من الجندى فيريكوندوس ووالديه الصالحين ، وجــايوس أخيه الأصــغر وبقيــة إخوته » ·

(٢) هناك مفتاح للتاريخ من المحتمل العثور عليه وهو لوح منقوش نقشــا سانجا وهو النقش الوحيد الموجود فى هذا المكان على حائط منعزل بالقرب من الأعمدة القائمــة · وهو يمثل ايزيس تتقبل العبــادة من شــاب يرتدى النقبــة الرومانيــة القصيرة Toga وكلا الشكلين ثقيل الظل وسيىء الطراز ، وقد جلست ايزيس تحت شجرة الجميز التقليدية وهى ترتدى شعرا مستعارا ينتشر على شكل أسطوانات جامــدة فوق الجبهــة على شكل اكليل · انه الوجه والشعر المتصلب الذى تشتهر به ماركيانا أخت الامبراطور تراجان كما هو واضح على قطعة الفمل المشــهورة المحــفورة صورتهــا فى قاموس Smith's Dic. of Greek and Roman Biography. Vol. II, p. 939. والمخرفة هى مكان شــجرة الجميز المقدســة Hiera Sycaminos حيث ينتهى خــط سير رحلة انطونيوس ·

هنا الكلاب التى تنبح ، والديوك التى تصيح فى القرية • ومئات من الخنافس بطول المسار ، والجعلان الحقيقية الحية بلونها الأسود مثل الفحم وهى مشغولة مثل النمل حيث تقوم بدحرجة بالات الطين من عند حافة الماء الى الصحراء • ولو قمنا بفحص عدد من هذه البالات فقد نجد هنا أو هناك بالة لاتحتوى على البيض لأن هناك حقيقة غريبة مفادها أن الجعل يصنع بالاته ويدحرجها ، سواء أكان بها بيض يريد حفظه أم لا • أما أنثى الخنفساء فبالرغم من المساعدة التى تلقاها من الذكر فانها تقوم بالجزء الصعب المتعلق بدحرجة البالة ، واذا حل المساء قبل اخفاء بالتها فانها تنام طوال الليل وهى ممسكة بها بين أقدامها ، ثم تواصل عملها فى الصباح (١) •



وقد بدأ انشاء المعبد هنا على يد ملك اثيوبى يدعى أركامان (ارجامن) كتب عنه ديودور الصقلى قصة طويلة ثم استمر العمل فى استكماله بمعرفة البطالمة والقياصرة • ويقع المعبد فى فضاء واسع منعزل فى شمال القرية ، ويتم الوصول اليه عن طريق شارع أقيمت حوائطه بكتل منقولة من مبان أخرى أكثر قدما • أما حجارة الشارع وكل الأرض الفضاء التى تحيط بالمعبد الى مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة ياردة فهى ليست مبعثرة ولكنها عبارة عن أكوام من قطع الشقافة والزلط وأحجار كبيرة ناعمة من

---

(١) انظر كتاب المؤلف ودروف C. Woodroofe وعنوانه : The Scarabaeus Sacer وهو عبارة عن ورقة تستند الى المفكرات التى كتبها (س• جونز) القيت امام جمعية ونشستر اند هامبشاير العلمية والادبية فى ٨ نوفمبر ١٨٧٥ وقد طبعت على نفقة المؤلف •

أحجار الفرفير (نوع من الصخور النارية يمتاز باللون الأحمر القاتم) ومن المرمر ، والبازلت ، ونوع من الرخام الاخضر • وهى جميعها أحجار محيرة لأنها تبدو كما لو كانت قطعا من تماثيل قد شكلتها العصور المتتالية من الاحتكاك فى حوض سيل جارف • ونجـــد بين القطع الموجودة بعض الشقاقات مثـــل تلك التى كانت فى الفنتين (١) • أما عبد المعبد فسأقول أنه جيد البناء بالنسبة لأى عمل آخــــر من أعمال الأسرة الثامنـــــة عشرة أو الأسرة التاسعة عشرة التى أعرفها • والنحت شنيع جدا ، ولم نر حتى اليوم مثل تلك الحروف الهيروغليفية رديئـــة الشكل ، وتلك الالهـات القصيرات المبتسمات ، وهؤلاء الملوك الهزليين بأغطية رؤوسهم الرديئة • وباختصار ، فان المبنى كله طراز من الأبنية البطلمية الخارجة عن الانتماء البطلمى •

وسرعان ما جدفنا متجهين الى كوبان • والنهر هنا واســـع وسريع الجريان • وبعد أن تجاوزنا الجزيرة الرملية نزلنا تحت حوائط بنـــاء ضخم من الطوب اللبن جعلته العصور المتوالية أسود اللون • وكان يبدو للوهلة الأولى بدون شكل محدد ولكنه يدل على أنه قلعـــة مصرية قديمة ذات ركائز وارتفاعات ومنافذ • وقد شبطبت عند الزوايا بعقود مصبوبة على شكل قوالب ويحيط بها خندق جاف عميق ، لابد وأنه كان يمتلىء بماء الفيضان فى كل صيف •

وقد وجدنا ضمن الأشياء النادرة فى وادى النيل خرائب مبنى غير دينى ، وهو بخلاف أساسات المبانى السكنية المتناثرة هنا وهناك ، يعتبر أول مبنى من نوعه • ولابد أنه قديم جدا ربما يعود الى أيام تحوتمس الثالث الذى وجدنا اسمه منقوشا على بعض الكتل المتناثرة على بعد حوالى ربع ميل ، وهو الذى أقام قلعتين مماثلتين لهذه القلعة فى سمنة التى تقع على بعد

---

(١) كانت دكة (التى أطلق عليها الاغريق والرومان اسم Pselics بينما أطلق عليها المصريون اسم Pselk) ، تقتصر يوما ما على مصر واثيوبيا ويبدو أنها كانت محطة عسكرية ضخمة • أما الشقاقات المنقوشة هنا فهى ايصالات وحسابات رواتب الجنود • وقد زينت الحوائط الخارجية للمعبد والحجرات من الداخل بنقوش يدوية كتب معظمها بالحبر الاحمر • ولاحظنا ان بعضها كان ثلاثى اللغـة • وقامت الكاتبـة بنسخ النقشين التاليين من فوق أحد المداخل وقال الدكتور بيرش ان أولهمـــا مكتوب بالديموطيقية الاثيوبية وهو مجرد اسم • اما الثانى فغير معروف •

النقش الأول

النقش الثانى

خمسة وثلاثين ميلا شمال وادى حلفا • وربما كانت تعود الى فترة سابقة عليه بمدة ألف عام على أيام أمنمحات الثالث الذى يوجد اسمه أيضا منقوشا على لوح بالقرب من كوبان (١) ؛ لأنه كانت توجد هنا فى يوم ما مدينة قديمة فى دكة الحالية وهى ليست الا ضاحية جديدة واقعة على الضفة المقابلة • وقد ضاع اسم هذه المدينة القديمة ولكن يفترض البعض أنها تتفق مع مدينة بطلميوس Metacompso of Ptolemy (٢) ومع نمو هذه الضاحية كانت المدينة الأم تضمحل ، ومع الزمن صارت الضاحية هى المدينة وتحولت المدينة الى ضاحية • ومازالت الكتل المتناثرة التى تحدثنا عنها مع بقايا معبد صغير ، تحدد مكان المدينة الأكبر •

ومن المحتمل أن تكون حوائط هذه القلعة الغريبة والمثيرة قد فقدت الكثير من ارتفاعها الأصلى • ويبلغ سمكها فى بعض المواضع ٣٠ قدما ، ولا تقل عن ٢٠ قدما فى المواضع الأخرى • وقد بنيت رأسية بالنسبة للداخل ، مع انحدار الركيزة فى الخارج ، مع اقامة ركائز اضافية ضحلة على مسافات منتظمة • وهذه الأخيرة لاتضيف شيئا الى قوة الحائط الأصلى ، ولابد أنها صممت لزيادة الفاعلية • وهناك مدخلان الى القلعة أحدهما فى وسط الحائط الشمالى والآخر فى الجنوب • وقد دخلنا اليها

---

(١) توجد على بعد أقل من ربع ميل ، خرائب معبد صغير من الحجر الرملى ذى أعمدة عنقودية • وبالمناسبة فانك ستمر بالقرب من القرية على لوح حجرى من عصر أمنمحات الثالث يذكر السنة الثالثة عشرة من حكمه ، انظر : Murray's Handbook of Egypt ، ص ٤٨١ • ويكتب م • ماسبيرو عن تحوتمس الثالث قائلا : « أقام ابنه وخليفته أمنحوتب قلعة عظيمة فى الواجهة » • Histoire Ancienne des peuples de l'Orient ، الفصل الثالث ، ص ٢١٢ •

وعند كوبان وجد أيضا لوح رمسيس الثانى المشهور والمعروف باسم : لوح الدكة • وفى هذا النقش الموجود منه نسخة بمتحف اللوفر ، ورد أن رمسيس الثانى أمر بحفر بئر ارتوازية فى الصحراء ما بين هذا المكان وجبل العلاقى لتسهيل تشغيل مناجم الذهب فى هذه المنطقة •

(٢) « بالنسبة لمدينة بطليموس فان ميتاكومبسو لابد أن تكون فى مواجهة سلكيس حيث توجد خرائب ضخمة على الشاطئ الغربى • ولو صح هذا الامر يكون ميتاكومبسو وسلكيس تضمين لمدينة واحدة » • انظر كتاب ويلكنسون وعنوانه : Topography of Thebes etc. • طبعة سنة ١٨٣٥ ، ص ٤٤٨ • أما مدام فيفيان دى سانت مارتن فترى أن جزيرة ديرار القريبة من المحرقة هى مدينة ميتاكومبسو الحقيقية • انظر كتابها Le Nord de l'Afrique ، القسم السادس ، ص ١٦١ • ومهما كان الامر فاننا فى جميع الأحوال نتعرف الى الحصار العظيم الذى تحملته هذه القلعة والى معركة عظيمة جرت تحت جدرانها • يقول استرابون ان « الأثيوبيين انتهزوا فرصة انسحاب جزء من القوات الرومانية ، فقاموا بهجوم مفاجئ على سيين والفنتين وفيلة ، واستولوا =

عن طريق المدخل الثاني ووجدنا أنفسنا في وسط متوازي أضلاع ضخم يبلغ طوله من الشرق الى الغرب ٤٥٠ قدما . وربمـــا يلغ ضلعه الآخر ٣٠٠ قدم من الشمال الى الجنوب .

وتحيط هذه المنطقة كلها بمتاهة من الخرائب . ويبدو هذا الفضاء كبيرا بما فيه الكفاية لانشاء مدينة ضخمة تحتوي على أنقاض اثنتي عشرة مدينة . وأخـــذنا نتسلق تلالا ضخمة من المخلفـات ، ونتسلق حواف شلالات من الشقافة ، ونقف على حواف مناجم محفورة ومثقبة مثـــل قرص العسل على عمق أربعين قدما ، وقد أقيمت أساســـات من الطوب اللبن وقد احتشد فوق هذه التلال وعند فوهات هذه المناجم ، رجال ونســـاء وأطفال يملأون سلالا من الأنقاض ، ويذهبون بها بعيدا . وكان التراب يتصاعد مثل السحاب . ويصعب علينا وصف ما كان يحدث من الضجيج والحرارة ، والارتباك ، ويتوقف المشاهد ويرتبك محاولا أن يكشف في هذه المتاهة الضخمة عن دليل يكشف عن خطـــة محددة دون جـدوى ، واستطعت بجهد كبير أن أعرف تدريجيا أن المكان ليس الا محارة ضخمة ، وأن جميع هذه التلال والمناجم تحدد موقع ما كان في يوم ما صرحا ضخما مرتفعا الى موقع مركزي كالبرج مثل ذلك الذي نراه في موضوعات المعارك في (أبو سنبل) وطيبة . وأصبح هذا الصرح المرتفع والموقع المركزي كالفريسة حيث ينقل على شكل قطع صغيرة بعيدا ويتحول الى بودرة وينثر على صفحة الأرض كسماد . وقد استنزف بالفعـــل حتى أساســـاته ،

= عليها وساقوا سكانها عبيدا ، والقوا بتماثيل قيصر على الأرض ، ولكن بترونيوس أستطاع بقوة يقل عددها عن عشرة الاف جندي من المشاة و ٨٠٠ حصان ان يهزم جيشا مكونا من ثلاثين الف رجل ، واجبرهم على التقهقر الى سلكيس . ثم ارسل وكلاء للمطالبة باستعادة ما سلبوه وشرح الأسباب التي اغرتهم بأن يبدأوا الحرب . وقد رد بترونيوس على حجتهم بأنهم نالوا معاملة سيئة من الحكام الرومان قائلا أن هؤلاء ليسوا هم أصحاب السلطة بل قيصر . وعندما طلبوا مهلة ثلاثة أيام للتفكير ولم يفعلوا شيئا مما تعهدوا به ، هاجمهم بترونيوس وأجبرهم على القتـال ، فهربوا سريعا بسبب سوء قيادتهم وسوء تسليحهم لانهم كانوا يحملون تروسا ضخمة مصنوعة من الجلد الخام وفؤوسا كأسلحة هجومية . وقد سبق جزء من القوات المتمردة الى داخل المدينة ، بينما هرب البعض الاخر الى المناطق غير المأهولة . أما الذين غامروا بعبور النهر فقد هربوا الى جزيرة مجاورة حيث لا يوجد عدد كبير من التماسيح بسبب التيار . . ثم قام بترونيوس بمهاجمة سلكيس واستولى عليها » . انظر : جغرافية استرابون Strabo's Geography مترجم في بون سنة ١٨٥٧ ـ الجزء الثالث ، صص ٧ ـ ٢٦٨ . وربمـا كانت هذه الجزيرة التي هرب اليها المتمردون هي الجزيرة الضخمة التي مازالت في وسط النهر وتمنع الاقتراب من بكة . او انهم هربوا الى جزيرة ديراز التي تبعد بمسافة سبعة أميال لان استرابون لم يذكر اسم الجزيرة .

ولم يتبق الا البئر التى فى الوسـط ، وحائط الدائرة الضخم · وهذا الحائط يمضى الآن الى حتفه ، وسيلاقى تدريجيا نفس مصير بقية الصرح · اما البئر التى كانت عميقة جدا ، فقد غصت بالمخلفات حتى الحافة · وفى نفس الوقت فان الانسان لكى يعرف ما يمثله هذا المكان حاليـا لا يمكنـه الا أن يتخيل ما يبدو عليه برج لندن اذا تحولت المبانى الداخلية كلها ، والبرج الأبيض ، والكنيسـة ، ومسـتودع الأسلحة ، ومقر المحافظ ، وكل شىء ، الى خرائب غير محددة الشكل ولم يترك منهـا الا الحوائط الخارجية والخندق ·

وقد احتشدت مقابل الجانب الداخلى لحائط الدائرة بقايا سلسلة من الأبراج الضخمة تبدو قممها قصيرة بالنسبة للبناء الخارجى ، ولا يمكن أن نتصل بالأسوار الا باستخدام السلالم · ويواجه أفضل هذه الأبراج مع جزء ضخم من الحائط الصحراء الشرقية ·

وخرجنا عن طريق المدخل الشمالى ، لنجد أن جوانب البـوابة ، وحتى درجات السلم التى تقود الى الخندق سليمة وقد بقيت عند قاعدة الحائط الضخم على الجانب الخارجى فى مواجهة النهر قناة تبلغ مساحتها حوالى قدمين مربعين وهى مبنية ومسقوفة بالأحجار · ويصفها موراى فى كتابه بأنها بوابة مائية ·

وعنـدما تحـولنا للذهاب كانت الشمس قد ارتفعت ، والحرارة انتشرت ، والقارب فى انتظارنا · فمضينا رغما عنا ونحن نعرف أنه ابتداء من هنا وحتى القاهرة ، لن نشاهد آثارا أخرى من الماضى السحيق فيما عدا هذا الحصن المفكك · انه مجرد جبل من الطوب اللبن ، وبالرغم من عدم تناسق شكله الا أنه يثير الاعجاب بسبب قوة تناسب أجزائه الضخمة ، والاثارة التى تنطلق من تواضع أطلاله · ولكنه يعيد العصور الضائعة الى خيال الانسان بطريقة لايقدر عليها أى معبد آخر · انه يبدو لامعـا فى لحظة الاشراق الأثرى للنقوش ، ويجبرنا على أن نتذكر هذه الملايين المنسية من البشر والتى لم تذكر أسماؤها ، هؤلاء الذين شكل منهم الحكام جنودهم فى وقت الحرب ، واتخذوا منهم بنائين فى وقت السلم ·

وأصبحت مغامراتنا فى الطريق قليلة ومتباعدة ، ومن النادر الآن أن نقابل ذهبية · وصار عدد الطيور كبيرا عما كان عليه فى هذا الجزء من النهر منذ أسابيع قليلة مضت · ورأينا أسرابا ضخمة من طائر الكركى الأسود والأبيض وهى تحتشد على الضفاف الرملية ليلا ، وأصبحت أعداد السمان فى متناول الصياد ، وابتهجنا لدى رؤيتنا للرجل الكسول وهو يخرج بندقيته ويعود بملء حقيبة من السمان ، ذلك لأن آخر خروف كان

لدينا قد ذبحناه قبل توجهنا الى وادى حلفا ، كما أن آخر دجاجاتنا توقفت عن الوقوقة عند (أبو سنبل) ٠

وفى صباح احد الأيام شاهدنا عروسا يعبرون بها النهر فى مركب كبيرة مزدحمة بالنساء والبنات اللائى يصفقن بأيديهن ، ويطلقن الزغاريد المدوية ٠ وكانت العروس ذات جمال بلون الشيكولاتة ، وعينين رائعتين ٠ وتتزين بقلادة تتدلى فوق حاجبيها ، وخزامة فى أنفها ، وقد جدل شعرها فى مئات من الجدائل الرفيعة التى تنتهى فى نهايتها بحبات من الصلصال مطلية بلون أصفر ٠ وكانت تقف محاطة بصديقاتها ، فخورا بثيابها ، وسعيدة وهى ترى الانجليز يرمقونها بعيونهم ٠

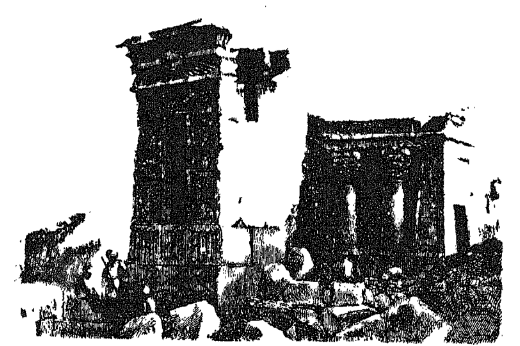
وفى ذلك الوقت أيضا ، رأينا فى احدى الليالى نوعا من الاحتفالات البدائية يجرى على بعد عدة أميال من جانبى النهر ، ورأينا النيران تشتعل قرب الغسق أولا على هذه الضفة ثم على الضفة الأخرى ، وازداد لمعانها واتساع رقعتها مع هبوط الظلام ٠ وعند ذهابنا للنوم كنا نسمع أصوات الطبول وهى تقترب شيئا فشيئا على الضفة الشرقيـــة ونرى على البعد موكب مشاعل ورقص ٠ وكان تأثير هذه المشاعل ـ لأن المشاعل فقط هى التى كانت ظاهرة ـ شديدا جـدا ٠ وكانت الأضـواء تهفهف وتتقافز كما لو كانت كائنات حية ، وتدور وتلتف وتتبدد وتتعالى وتطارد بعضها الآخر فى سرعة ٠ وتدور فى الهواء بين حين وآخـــر مثـل الصواريخ ٠ وبالرغم من أن الوقت كان متأخرا الا أننا رغبنا فى الهبوط الى الشاطىء ومشاهدة هذا الاحتفال عن قرب ، الا أن الريس حسن هز رأسه رافضا ، فالمعروف أن المواطنين فى هذه المنطقة يميلون الى الشـــجار ، واذا كانوا يحتفلون بمولد بعض المشايخ المحليين وهو أمر وارد ، فاننا سـنعامل كدخلاء متطفلين ٠

وعندما وصلنا ميكرين فى صباح أحد الأيام الى جرف حسين ، اتخذنا طريقنا الى المعبد الذى كان محفورا فى واجهة صخرة من الحجر الجيرى على ارتفـاع حوالى ٢٠٠ قدم من سـطح النهر ٠ وهنـاك ممر منحدر شديد الحرارة تحت أشعة الشمس ، يقود الى شرفة واسعة فى الصخرة ٠ ويتم الوصول الى المعبد من خلال رواق خرب ذى أعمدة وطريق للتماثيل الضخمة المحطمة ٠ وداخل المكان شديد الانقباض ، أما خارجه فهو صورة من المعبد الكبير فى (أبو سنبل) ، كما أنه يعود الى نفس التاريخ الزمنى ٠ وهو مكون من قاعة أولى تحملها أعمدة على شكل أوزوريس ثم قاعة ثانية أصغر حجما ذات أعمدة مربعة ٠ وقد غشى الدخان الهيكل بلون أسود ، بالاضافة الى حجرتين جانبيتين ٠ أما أعمدة أوزوريس الضـــخمة التى ترتفـع الى

معبد جرف حسين بالنوبة

مسافة ٢٠ قدما دون اضافة الأجزاء التي تفصل نهايات الأعمدة عن السقف، وبدون قواعد تحت أقدامها ، وبذلك فانها تبدو قصيرة ممتلئة ومقوسة السيقان ورديئة الشكل · وتبدو وجوهها كما لو كانت قد طليت أصلا باللون الأسود ، بينما تبدو التماثيل التي في الطريق الخارجي ذات ملامح أثيوبية واضحة · وكان علينا أن نبحث هنا عن أسلوب الفنانين الذين أقاموا الرمسيوم في طيبة مثلما فعلنا في (أبو سنبل) · أما الحجرتان الجانبيتان في جرف حسين فهما تغصان بالخفافيش ·

وتمثل هذه الخفافيش أعظم مناظر المكان ، ولها منظم ينظم حفلاتها الاستعراضية ، وقد وجدناه في انتظارنا ومعه حبل غمست نهايته في القطران يقوم بقذفه فيلمع في المدخل الشديد الظلام · وفي لحظة واحدة رأينا السقف كله وقد تعلقت به زوائد بيضاء مثل ستارة شفافة · وكان ذلك لمجرد لحظة واحدة ، وفي اللحظة التالية تحركت جميع الخفافيش واندفعت بجنون في وجوهنا مثل حبات الثلج المتساقطة ، وفيما بعد وعند انتهاء الاندفاعة التقطنا خفاشا ميتا ، وفحصناه في الخارج في ضوء النهار · كان مخلوقا صغيرا بديعا أبيض اللون ومغطى بشعر ناعم ، وله جناحان شفافان ، وقدمان صغيرتان ورديتان ، وفم رقيق مثل فم الفأر ·



معبد دندور ·

أما الصخور الواقعة بين جرف حسين ودندور فهي محاطة بأشجار النخيل القصيرة ، وأشجار السنط ، وشجيرات الحناء ، فانها تتجمع في شكل كتل منعزلة تشبه الأطلال ، حتى اننا لا نكاد نصدق أنها صخور ·

وعند غروب الشمس فى دندور وهبوط ظلام خفيف على الوادى ، قمنا بزيارة معبد صغير يقع على الضفة الغربية وهو يقع أعلى من النهر ، محاطا بحائط من الأراضى العامة ، وهو يتكون من بوابة منعزلة وبهو للأعمدة وحجرتين صغيرتين وقدس أقداس • ويشبه المكان كله لعبة رائعة مغطاة بأعمال النحت الناعمة الملمس وذات الشكل الجديد والبناء المثير للاعجاب• وعندما كنا نراه فيما بين الغروب وحلول الغسق ، يبدو لنا أن هذه النقوش البارزة تنتسب الى المدرسة المتخلفة (١) • ويغطى اللون الوردى الخفيف الذى يلمع فى نور الغسق ، كثرة من الأخطاء التى لاتعد ولا تحصى ، ويدخل بالجميع فى جو من الشاعرية •

وأخذنا نعجب لما صار اليه الجو ، فقد استيقظنا فى صباح اليوم التالى ونحن نرتعد حتى قرب نهاية اليوم بساعة ، كما أننا تذوقنا لاول مرة منذ أسابيع عديدة القشعريرة المبكرة القديمة فى الهواء • وعند الظهر وجدنا أنفسنا فى كلابشة وقد مررنا بحدود المنطقة المدارية أثناء الليل • ومن ذلك الوقت صار النهار شديد الحرارة بينما كانت هذه القشعريرة تأتى مع أشد ساعات الليل ظلاما قبل بزوغ الفجر •

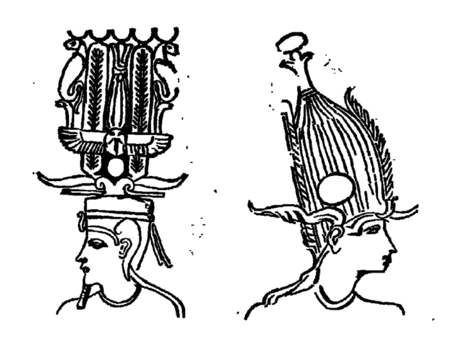
وشاهدنا زحام الصياح المعتاد من بائعى الخرز والسلال والبيض والحمام وهم يحيوننا من على الشاطىء فى كلابشة ، وقد حمل أحد الرجال سيفا قويا ذا مقبضين فى جراب من القطيفة الزرقاء ، وكان يطلب خمسة جنيهات ذهبية فرنسية ، ويبدو هذا السيف كما لو كان يخص أحد الصليبيين • وقد أحضرت بعض السيدات (قشدة جاموسى) فى قربة سوداء قذرة المظهر مربوطة الى وسطهن مثل النطاق • وكانت القشدة جيدة ولكن القرب الجلدية تمنع النفس من اشتهاء المأكولات غير العادية •

ويوجد بالقرب من هنا معبد عظيم محفور فى الصخر ، ويطلق عليه اسم محلى هو : بيت الوالى • وقد حظيت نقوش هذا المعبد المشهور بالوصف والتصوير أكثر مما حظيت به أية نقوش أخرى فى مصر • ذلك لأن مشاهد موكب حاملى الجزية من الاثيوبيين ، وحملة مدينة عمورية ، وانتصارات رمسيس معروفة جدا ليس فقط لدى كل من قرأ كتاب ويلكنسون ، بل بالنسبة لكل زائر يمر على الحجرتين المصريتين بالمتحف البريطانى • وهى مازالت جميلة بالرغم من الأجزاء التى نزعت منها

---

(١) « C'est un ouvrage non achevé du temps de l'empereur Auguste. Quoique peu important par son étendu ce monument m'a beaucoup interessé, puisqu'il est entièrement relatif à l'incarnation d'Osiris sous forme humaine, sur la terre. » — Lettres écrites d'Egypte, etc. : Champollion. Paris, 1868, p. 126.

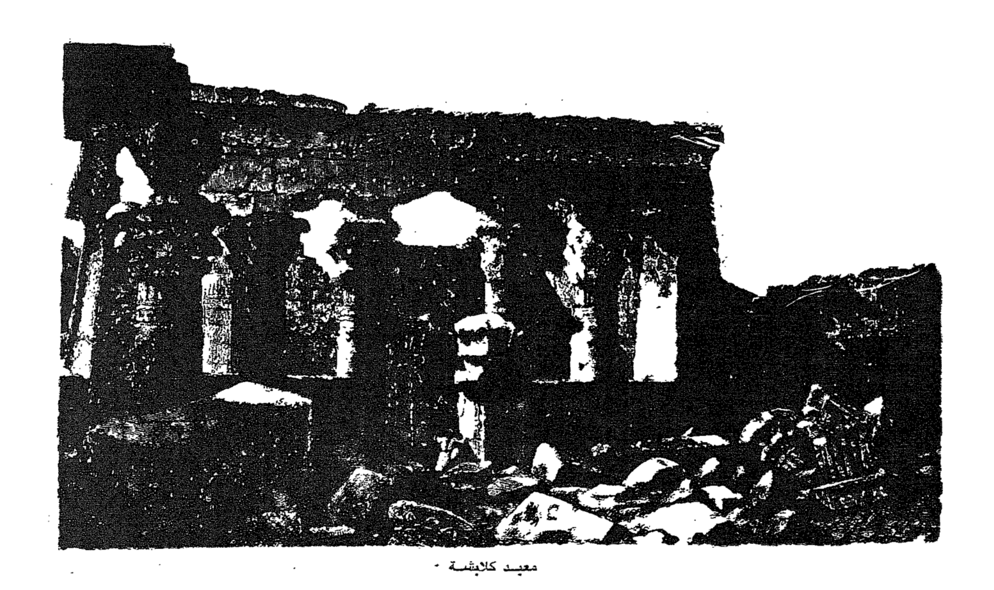
والمعاملة السيئة التى عاملها بها المواطنون والزوار · وبالرغم من أن لون هذه النقوش التى فى الفناء غير المسقوف كانت كاملة عندما نفذ بونومى لوحاته المثيرة للاعجاب ، الا أنها الآن قد زالت عنها قشرتها الخارجية . ولكنها مازالت تلمع فى البهو والحجرات الداخلية · وكذلك فان ألوان تمثال أوزوريس الخضراء مثل الزمرد وألوان أنوبيس القرمزية وألوان ايزيس الصفراء مثل معدن الكروم ، ما زالت جميعها مذهلة بصفائها ونقاء خاصيتها ، أما عن لون جسم أنوبيس فأعتقد أنها كانت المرة الأولى التى أصادف فيها لونا قرمزيا حقيقيا فى كافة الصبغات المصرية ، ويقع بين معبد بيت القاضى ومعبد كلابشة المجاور له على مسافة تبلغ حوالى نصف ميل من ممر جبلى ، وخليج يبلغ طوله حوالى ١٤٠٠ ياردة · ويقودنا رمسيس الى حضرة أغسطس ، ثم تجتاز الخطبة التى استمعنا اليها فى بيت الفرعون العظيم الى الغرفة التى يشغلها القياصرة ·



ولو كانت الزخارف التى فى غرفة القياصرة تشبه الزخارف التى فى معبد كلابشة لكان ذوقها من أقبح الأذواق ؛ لأننا لم نشاهد أبدا مثل هذه الآلهة التنكرية ، وتلك الحبال المخططة والمنقطة والمتقاطعة ، وتلك الأغطية الساذجة التى فوق الرؤوس ، وتلك الألوان البدائية العنيفة (١) ·

---

(١) لاحظت هنا اللون البنفسجى للمرة الأولى والوحيدة ، واللون الأزرق اللازوردى اللامع ، كما توجد آثار الطلاء باللون الذهبى فوق الكثير من الأشكال ·



معبد كلابشة .

أما عن الالهات فانهن مبهرجات آكثر من البنـــات الراقصـات فى الأقصر ، بينما يضع الملوك على رؤوسهم أكاليــل مكونة من قرون وأقمار وطيـــور وكرات وجعارين وأزهار اللوتس والأفاعى الصغيرة والزهريات والريش ٠

وجرى تنفيذ هذا المعبد على نطاق واســـع فهو كرنك النوبة (*) ٠ ولكنه كرنك تعرض لهزة زلزال أعنف من تلك الهزة التى زعزعت الأعمدة الضخمة للصالة الأولى ، وأسقطت مسلة هاتاسو ٠ وهو يبدو من النهر مثل قلعة ضـــخمة ، ولكنك اذا نظرت اليـه من عتبة البوابة الرئيسيه للصرح فستجده مجرد متاهة خربة ، فالكتل والأعمدة وتيجـــان الأعمدة والطبقات العازلة بينها وبين السقف ، جميعها ساقطـة ومكدسة بشكل عجيب بحيث لا توجد بقعة واحدة فى جميع هذه القاعات والأفنية يستطيع الانسان أن يطأها بقدمه على سطح البلاط الأصلى ٠ وللمرة الثانية يبدو أن الزلزال قد حدث قبل اتمام العمل ، فهناك أشكال محددة على الحوائط ولكنها لم تنحت ، وأشكال أخرى بدأ العمل فيها ولكنها لم تنته ٠ وتستطيع أن تتبين المواضع التى توقف عندها الازميل ، بل انك تستطيع أيضا أن تكتشف آخر علامة نحتت على السطح ٠ ويستطيع الانسان هنا أن يتتبع العمليات الأربع التى تتم بها زخرفة الحوائط ، فتجد فى بعض الأماكن أن المساحات قد عزلت داخل مربعات ووضـــعت تحت ســيطرة العـــامل الميكانيكى ٠ وفى أماكن أخرى تجد أن الموضوع قد رسم بالفعل داخل هذه المربعات بمعرفة الفنان ، وهنا مضى بها النحات الى مرحلة أخرى ، وهناك بدأ النقاش فى تلوينها ٠

ومن أهم النقوش الأخرى التى تتجاوز أهميتها أى شىء آخـــر فى كلابشة ، النقش اليونانى عن سيلكو ملك أثيوبيـــا ٠ وقد اكتسب هذا

(*) كان هذا المعبد يبعد عن سد أسوان بحوالى ٥٧ كيلو مترا ، ولكنه أعيد تشييده جنوب أسوان أثناء حملة انقاذ اثار النوبة عام ١٩٦٠ بمساعدة الالمان – (المراجع) ٠

النقش شهرة عظيمة بسبب تعليقات نيبور ولترون التى اكتشفت سنة ١٨١٨ للميـــلاد بمعرفة مسيو جـاو M. Gau ، وهو يتضمن ٢١ سطرا كتبت بالحبر الأحمر بخط جميل ، ويعود تاريخـــه الى القرن السادس بعد الميلاد ، ويبدأ هكذا :

لقد وصلت مرتين الى تلميس (١) وتافيس (٢) ٠

لقد حاربت ضد البليمى (٣) ووهبنى الرب الانتصار ٠

لقد قهرتهم مرة ثانية ٠ وفى المرة الأولى ٠

أقمت نفسى تماما مع جيوشى ٠

لقد قهرتهم وتضرعوا الى ٠

لقد أقمت سلاما معهم وأقسموا لى بأصنامهم ٠

لقد وثقت بهم لأنهم أناس ذوو عقيدة طيبة ٠

ثم عدت الى ممتلكاتى فى القطر العلوى ٠

لأننى ملك

ولست ملكا داخلا فى ترتيب الملوك الآخرين ٠

ولكننى أتقدمهم

---

(١) كلابشـة ٠

(٢) طافة ٠

(٣) البليمى جنس بدوى من البربر ، والمفروض انه ينتمى اصلا الى قبيلة بيلماس التى من التيبو فى الصحراء الوسطى وقد استقر مبكرا فى هذا الجزء من وادى النيـل الذى يقع بين الشلال الاول والشلال الثانى منذ ايام اراتوسينس ٠

انظر :

Le Nord re l'Afrique by : M. V. Dest. Martin, Paris, 1863, section III. p. 73.

آما هؤلاء الذين يبحثون عن الشقاق ضدى ٠

فاننى لا أمنحهم سلاما فى مساكنهم حتى يتوسلوا الى طالبين العفو منى

اننى أسد فى السهول وعنزة فوق الجبال ٠

الخ ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

هذا النقش له أهمية تاريخية عظيمة لأنه يبين أنه فى خلال القرن السادس الميلادى بينما كان السكان الوطنيون فى هذا الجزء من وادى النيل يلتزمون بالعقيدة المصرية القديمة كان الأحباش فى الجنوب يدعون أنهم مسيحيون (*) ٠

وكانت سلالة الجنس البليمى تمثل جنسا خالصا يمتاز أفراده بالطول والقوة ، وكانوا ذوى لون بنى غامق ٠ وعندما كنا نتمشى خلال القرية عند الغروب شاهدنا جميع السكان ، فكان الكهول من الرجال يجلسون أمام أبواب منازلهم ٠ والشبان يتسكعون ويدخنون ، والأطفال يلعبون ٠ أما النساء اللائى كن يتمتعن بأسنان بيضاء لامعة وعيون صافية ، ويتحلين بالحلى الذهبية والفضية على أعناقهن وحواجبهن بشكل مفرط ، فقد كن يخرجن مع أطفالهن الصغار ذوى اللون البنى ، منفرجى السيقان على وسطهن أو كتفهن لكى يستطعن الحملقة فينا أثناء مرورنا ٠

وكانت هناك سيدة عجوز مريضة ترقد خارج كوخها على دكة مصنوعة من جريد النخيل ، وقد رفعت نفسها مرتكزة على كوعها لحظة قصيرة ثم انهارت مرة أخرى وهى تتأوه فى ضعف ، وأدارت وجهها نحو

(★) هذا الاستنتاج مخالف للواقع فقد دخلت المسيحية الفعلية الى أثيوبيا أيام البابا القبطى المصرى القديس أثناسيوس الرسولى الذى اختير للبطريركية سنة ٣٢٦ للميلاد ٠ وجاء اليه فرومنتيوس Frumentius لتقديم تقرير عن الأحوال فى اثيوبيا فرسمه أسقفا وأرسله اليها سنة ٣٣٠ ميلادية وصار يعرف باسم أبا سلامة أى (أبو السلام) وهو لقب مطران الحبشة الذى كان يرسم ويرسل من مصر ٠ وبذلك فان معرفة أثيوبيا للمسيحية ودخول الأحباش فى هذه الديانة قد حدث خلال القرن الرابع الميلادى على يد الأقباط المصريين ، وهذا يخالف ما ذكرته المؤلفة من ان المصريين فى القرن السادس كانوا يلتزمون بالعقيدة المصرية القديمة ٠ انظر فى ذلك : ١ ـ تاريخ الكنيسة القبطية ـ منسى يوحنا ـ صص ٢٠٤ ـ ٢٠٦ ٠ ٢ ـ قصة الكنيسة القبطية ـ ايريس حبيب المصرى ـ الجزء الأول ، صص ٢١٤ ـ ٢١٥ ٠ ٣ ـ تاريخ أثيوبيا ـ دكتور زاهر رياض ـ صص ٤٠ ـ ٤١ ، وغيرها ـ (المترجم) ٠

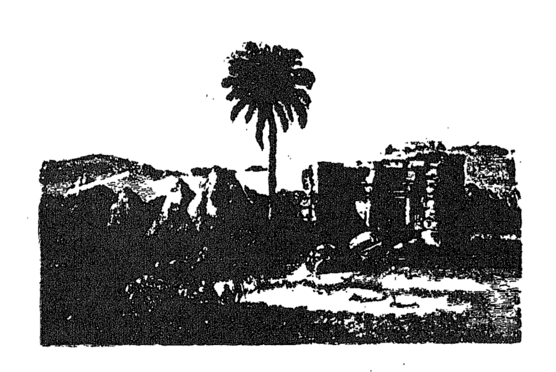
الحائط . أما المساكن المبنية من الطوب اللبن هنا فقد أقيمت داخل وخارج متاهة من الأساسات الحجرية الهائلة وهى بقايا مبان كانت عظيمة فى يوم من الأيام ، وقد بنيت بعض هذه الحوائط فى أشكال منحنية بينما بنيت أطرافها من الأحجار بمعنى أنها مضغوطة من الوسط ومرتفعة عند الأركان ، وهو طراز من البناء تم تعديله ؛ لكى يعطى مقاومة أقل عندما يتعرض لهزات الزلزال (١) .

وقد شاهدنا أساسات أخرى مقامة بنفس الأسلوب فى طافا حيث وصلنا فى صباح اليوم التالى . ولما كانت الأعمال الحجرية فى طافا تعود الى التاريخ الرومانى المتأخر ، بالاضافة الى كثرة الزلازل فى النوبة خلال الفترة الطويلة التى تلت الهزة الضخمة التى حدثت سنة ٢٧ للميلاد ، والتى ذكرها المؤرخ يوسابيوس فقد كان السياح مستعدين لنسبة كافة الأطلال الى عصر قمبيز والثورة الاصلاحية التى قام بها المسيحيون الأوائل . وليس هناك شيء أسهل من التمييز بين تخريب الآثار الذى أحدثته يد الانسان والتخريب الذى أحدثته ثورة شاملة . فالتشويه يسود فى الأولى بينما يسود الاستبدال فى الثانية . وفى دندرة على سبيل المثال نجد أن الضرر الذى حدث كان متعمدا ، بينما هو فى (أبو سنبل) عرضى ، أما فى الكرنك فقد كان يجمع بين التعمد والصدفة . أما فى كلابشة فمن الواضح أن مثل هذا الدمار الضخم لايمكن أن يحدث بوسيلة انسانية دون مساعدة المعدات الآلية ، مع النيران أو البارود لأن هذه الوسائل قد تركت آثارا واضحة .

ويوجد فى طافا معبدان صغيران أحدهما محطم بشكل يصلح للرسم . أما الآخر فهو سليم تماما ويستخدم الآن كاسطبل للخيول . وهناك أيضا عدد من الأساسات الحجرية منعزلة ومربعة الشكل ومقسمة الى حجرات صغيرة عديدة ، ومحاطة بحوائط بعضها مبنى فى المسارات المنحنية التى

---

(١) انظر : The Habitations of man in all ages. V. Le Duc. Chap. IX. p. 93



بقايا معبد طافا بالنوبة ٠

سبق أن ذكرناها ٠ وقد ظلت هذه الأساسات الفرعية التى أحصى منها الرسام ثمانية عشر أساسا ، تثير حيرة السائحين (١) ٠

وتقع طافا فى موقع ساحر ، ولا شك فى أن الأميال السبعة التى كانت تفصلها عن كلابشة ، مع منظر الشلال ، تمثل أفضل المناظر صلاحية

---

(١) لابد أن هذه الأساسات تحدد موقع دير قبطى ورد وصفه فى مخطوط عربى تحدث عنه أ٠ كاترمير حيث يقول انه « فى مدينة طافا يوجد دير بديع يسمى دير أنسون Ansoun ٠ وهو دير قديم جدا ولكنه صلب البناء لدرجة أنه بعد عدد كبير من السنين مازال سليما بدون أضرار ٠ وتقع بالقرب من هذا الدير وفى مواجهة الجبل خمس عشرة قرية ٠

انظر ٠ Mèmoires Hist, et Géographique sur l'Egypte et le Nubie
بقلم E. Quatremere - نشر فى باريس سنة ١٨١١ ـ المجلد الثانى ، ص ٥٥ ٠

ولا شك أن الدير والقرى أيضا قد شيدت حسب الطراز الرومانى المصرى كما يبدو لأول وهلة ، وربما كانت فى الأصل تشكل كلية لاهوتية مثل الكلية اللاهوتية التى فى فيلة ٠

للرسم على هذا الجانب من وادى حلفا • أما الجزر الصخرية الصغيرة التى فى النهر ، ومزارع النخيل ، وأشجار السنط والخروب والحناء والخروع وكافة نوعيات الأشجار المزهرة على حواف الضفاف والجوانب المتصدعة والقمم المخروطية للجبال التى ترتفع هنا بحدة على حافة الماء ، فانها تشكل مع السهل الرملى منـاظر جميلة حيثما ذهب الانسان • ويقال انه توجد هناك غزلان فى الوديان التى خلف طافا • ويشرح أحـد المواطنين وهو شخص مشاكس يرتدى قميصا ممزقا وعمامة بيضاء قذرة • كيف أنه يوجد على مسافة ثلاث ساعات ، واد ضيق طويل به بربة أخرى أكبر من هذين المعبدين اللذين فى السهل ، وتمثال ضخم يتجاوز طوله ثلاثة أضعاف طول الرجل العادى • اذن فلو صحت القصة فانه يوجـد كشف جاهز لمن يود القيام به • وباع نفس هذا المواطن عقدا للرجل الكسول • وبعد أن مضى راضـيا بالثمن الذى حصـل عليه ، عاد الينا عدة مرات وخلفه نصف أهالى القرية وهو يطلب ضعف الثمن • ولما رفضـنا هذا الطلـب المتواضـع هاج كالمجنـون ومزق عمامته ، وأخـذ يؤدى بعض الحركات الوحشية بالرمح الذى كان يحمله ، ثم جلس فى هدوء وجلس حـوله أصدقاؤه وجيرانه خلفه فى شكل نصف دائرة •

ويبدو أن هذا هو الاجراء الذى يتخذه النوبيون للتحدى ، فقد ألقى بقفازه طالبا النزال • وفى نفس الوقت أخذ الجمع الصاخب يتزايد فى كل لحظة • وظهر الريس حسن حزينا ، وخشى حدوث معركة محتملة ، بينما كان الرجل الكسول يقرأ صلاة باكر فى أسفل المركب (لأن ذلك الصباح كان صباح الأحد) ولم يسمع شيئا من الضجيج الدائـر فى الخارج • ومع حالة الطوارىء هذه خطر فى بال الكاتبة أن ترسـل الى الشاطىء رسالة تبلغ هؤلاء السادة بأن الخواجات يؤدون صلاتهم الآن فى الذهبية ويطلبون اليهم أن يهدءوا حتى ينتهى وقت الصلاة • وكان تأثير الرسالة عاجلا فقد صمتت الأصوات الغاضبة ووضع المتحدى عمامته على رأسه ، وجلس النظارة القرفصاء على الشاطىء فى هدوء • وبعد أن مرت على ذلك الوضع ساعة كاملة ، أخذت العاصفة فى الانقشاع ، وعندما ظهر الرجل الكسول على سطح المركب ، تقدم متحدبه الى الأمام سعيدا بأن يبدأ المساومة من جديد •

ولا تهمنا الصورة التى انتهت بها هذه المشكلة ، ولكننى أعتقد أنه عرض عليه أن يسترد عقده فى مقابل رد النقود التى أخذها ، وقد فضل أن يلتزم بالمساومة التى اتفق عليها • والواضــــح أن ذلك كان نتيجة الاخلاص الدينى الذى يخيم على عقول هؤلاء الناس نصف المتوحشين (١) لدرجة أنى وجدت أن الواقعة لاتستحق الذكر •

ونحن الآن على بعد أقل من أربعين ميلا من فيلة ولكن الريح القادمة من الأمام كانت ضدنا على طول الخط ، وقد نفد مخزون الرجال من الخبز ، ولايوجد دقيق فى هذه القرى النوبية • وقد كنس الرجال المساكين آخر الفتات الذى كان موجودا فى قاع صحارة الخبز منذ ثلاثة أو أربعـــــة أيام مضت ، وهم يعيشون الآن على ثلاثة أرباع الجراية المفروضة لكل واحد منهم ، من شوربة العدس والقليل من التمر الذى اشتروه من وادى حلفا • وقد جثموا بجوار مجاديفهم صامتين ، أو حاولوا أن ينسوا جوعهم بالالتجاء الى النوم • وبالنسبة لنـــا كانت رؤية حاجتهـــم الى الخبز تثير آلامنا ، وقد تضاعفت هذه الآلام لعجزنا عن مساعدتهم • وأقسم تلحمى الذى وصـــل مخزونه الى أقل مستوى بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا • أما علب اللحم المحفوظ الموجودة لديه فلن تكفى لغذاء خمسة عشر رجـــلا الا لمدة يومين فقط • أما عن الدقيق فليس لديه الا كمية من الشعير تكفى الخواجات• ولا شك فى أنهم جائعون ، ولكن ماذا فى ذلك ؟ انهم أعراب ، والأعراب يتحملون الجوع مثلما تتحمل الجمال العطش فهذا ليس بجديد بالنسبة لهم ، وقد عانوا من الجوع من قبل ، وسيعانون منه فيما بعد • يكفى هذا ! فليس على النساء الاهتمام بمثل هؤلاء الناس !

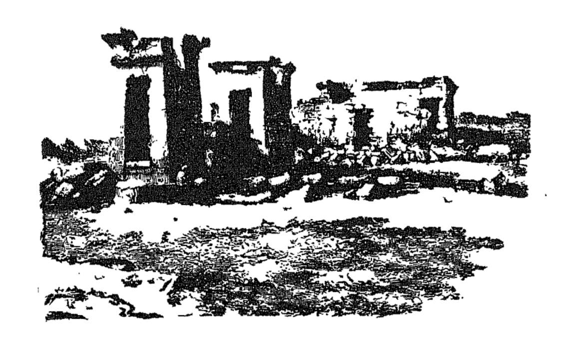
وكانت نصيحة جيدة بلا شك ولكن من الصعب الاصــــغاء اليها • ان عدم اهتمامنا وعدم قدرتنا على عمل شىء لهؤلاء الفتيان المساكين شىء

---

(١) « ان فلاحى طافا يذكرون أنهم أحفاد السكان المسيحيين القلائل من أهل المدينة الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية عند خضوع البلد للاسلام • وقد لجــأ الجزء الاكبر من اخوانهم الى الفرار ، أو انهم قتلوا اثناء تلك المعركة • ومازال يطلق عليهم اسم : أولاد النصارى – أى ذرية المسيحيين » •

انظر كتاب : Travels in Nubia, Burckhart, London, 1819, p. 121.

لايمكن احتماله • وعندما يعنى هذا أن نضع أيدينـــا على مخزون تلحمى القليل من البيض والبسكويت وأن نقيم مسابقات اليانصيب ونخصص لها جوائز من الشيكولاتة والتبغ فان ذلك يعنى أننا قد تصرفنا بالقليل من الحكمة • وقضينا ساعة أو ساعتين تحت حـــر الشمس فى قرطاس ثم توجهنا الى دابود • ان محاجر الحجر الجيرى فى قرطاس مليئة بالمناظر والنقوش الخاصة بالنذور • وليست أطلال المبنى الصغير الا مجرد مجموعة من الأعمدة التى تسند قطعة من الافريز الذى يقف فوق حافة صخرة تطل على النهر • وعليك أن تنظر اليها كما تريد سواء من أعلى أو من أسفل • وأنظر شمالا أو جنوبا فهى من جميع النواحى تمثل منظرا صالحا للرسم •



معبد دابود

واذا انتقلنا الى دابود على ذلك البســاط الســـحرى المذكور فى قصص الجنيات ، فان الانسان سينظر اليها بوصفها خرائب فى « منطقة ساحلية » لاحدى البحيرات الهادئة فى وادى الأحلام • انها تقع بين اثنتين من انحناءات النهر الذى يتسع فى هذه المنطقة دون أن تظهــــر له منافذ للتصريف ، وقد أحاطت به الجبال ومزارع النخيل • أما المعبد نفســـه فهو صغير وغير ذى أهمية • ويبدأ انشاؤه مثل معبد الدكة بمعرفة أحـد الملوك الأثيوبيين وينتهى بمعرفة البطالمة والقياصرة • أما الشىء الغريب فيه فهو عبــارة عن صومعة سرية ، وتوجـد بجوار الهيكل غرفة جانبية مظلمة ، وهناك حفرة فى أرضية الغرفة الجانبية التى كانت مغطاة بالبلاط

في يوم ما • وفي أحد أركان الحفرة كانت توجد فتحة تسمح بمرور جسم رجل من خلال ممر ضيق • وهناك في الممر الضيق درجات سلم تقود الى غرفة سرية مبنية في جسم الحائط • وقد شاهدنا غرفا سرية أخرى في المعابد الأخرى (١) ولم تكن بينها غرفة واحدة سليمة بما فيهـا مـن الأساليب القديمة •

ولا تتجاوز المسافة من دابود الى فيلة عشرة أميال ، ولما كنا نقصد توريجور الأقرب الينا بمسافة ميلين وهي نفس القرية التي عند سفح المنحدر الرملي الجميل الذي رسونا بالقرب منه في طريقنا الى جنوب النهر ، فقد كان علينا أن نبقى هنا لمدة يومين يليهما أسبوع على الأقل في فيلة • ولذلك فانه بمجرد وصولنا الى توريجور أسرع الريس حسن وثلاثة من البحارة الى أسـوان لشراء الدقيق ، وطلب الكهل علي ، ورزق الله ، وموسى الذين تقع منازلهم في القرى المحيطة بالمكان السماح بالغياب لمدة أسبوع ، وسرعان ما تقلص عدد البحارة الى خمسة تحت رئاسة خليفة • وعلى كل حال فقد كان هؤلاء الخمسة بمثابة خمسين •

وعندما رست الذهبيه ولم يكن هناك شيء نعمله ، وقد أصبح بحارتنا الخمسة سعداء الآن بعد أن استطاعوا شراء بعض الفطائر النوبية الناعمة والعدس الأخضر ، فقد أقام الرسام خيمته على قمة المنحدر الرملي ، وأخذت الكاتبة ترسم خرائب الدير المقابل ، وأخذت السيدة (ل) والسيدة الصغيرة تكتبان خطابات لاتنتهي • وقام الرجل الكسول يتبعه محمد علي بصيد السمان • وشعر الجميع بالرضا •

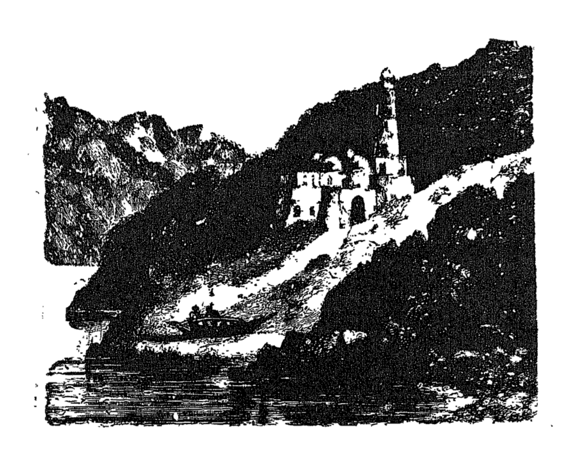
وكان الرجل الكسول منحوسا ، ولكنه لم يكن مصابا بجنون القتل لأنه اكتفى بقتل السمان ولم يحاول قتل الأطفال ! فما الذي دفعه الى

---

(١) كانت تحفظ في هذه الغرف السرية (التي كانت مداخلها مغلقة بكتل حجرية مثبتة بحيث لا يمكن الكشف عنها) التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة واللازورد ، والزهريات الثمينة ، والصنوج ، والقلائد المطعمة بالجواهر ، وجميع الكنوز المنقولة التي في المعابد • وقد رأينا ثغرة مشابهة وغرفة صغيرة في ركن معبد الدكة ، وبعض السراديب الغريبة وأماكن الاخفاء تحت أرضية الغرفة المظلمة التي في شرق الهيكل بمعبد فيلة ، وجميعها قد كسرت وسلبت • ولكن لدينا سببا قويا للاعتقاد بأن الرسام قد اكتشف مكان غرفة سرية أو ممر الى غرب الهيكل مازال مغلقا ، ومن المحتمل أن تكون جميع كنوزه سليمة • ولم تكن لدينا على أية حال ، وسائل فتح الحائط المبني من الحجر الصلب •

ذلك ؟ دعنا لا نأمل أن تكون قد أصابته أطماع اهتمـــام خاطىء ، بسبب التماسيح ! فقد ظهر هادئا ومبتسما وقد وضع بندقيته تحــت ابطـــه ، ومحمد على يســير بجانبه ، ولم يكن هناك من يشبه الرجل الكسول فى خفة قلبه ؟ ومن كان يضاهى محمد على المعمم ، فى خفة سيره ؟ وقد سمعنا رجلنا الرياضى وهو يدخل فى حقل الشعير · وقد ســعدنا بهذا الصوت لأننا عرفنا أن هدفه حقيقى · وقلنا فى أنفسنا ان كل طلقة نسمعها تعنى صيد أحــد طيور الســمان · وتهيأ لنـــا أن احدى هذه الطلقــات قد أصابت طفــلا ·

وسرعان ما سمعنا صرخة احـــدى السيدات · كانت صرخة حادة وفجائية على اثر طلقة رصاص · كما كانت مشوبة بالفزع ، وترددت من ركن الى آخر مع زيادة الحدة ورجع الصدى من كل اتجـــاه · وفى نفس اللحظة حفلت الضفة بالكائنات البشرية · وظهر الناس كما لو كانوا قد خرجوا من باطن الأرض · وكانت النساء يصرخن ويلوحن بأذرعهن ، وأخذ الرجال يجرون ، والجميع يتجهون الى نفس الهدف · وسمعت الكاتبـــة



دير قبطى للراهبات بالقرب من فيلة ·

صوت الصرخة ، وشاهدت الاندفاعة ، واستنتجت حالا وقوع حادث ناجم عن اطلاق النار ٠

وتلت ذلك لحظات من التوقع المؤلم ، ثم ظهر محمد على وهو يعدو بأقصى سرعته ٠ وبعد ذلك بحوالى خمس دقائق بدت كما لو كانت عشرين دقيقة ، جاء الرجل الكسول وهو يسير ببطء وتحد مرفوع الرأس وذراعاه مبسوطتان ، وقد اختفت بندقيته ، وخلفه حشد ضخم من الغوغاء ٠

وهب بحارتنا القليلون المسلحون بالعصى للنجدة ، وأحضروه سالما ، وبعد ذلك عرفنا ماذا حدث ٠ لقد طار سرب من السمان عاليا ، وعندما عاد الى ارتفاع منخفض ومس سطح الزراعات ، وغاص مرة أخرى في دورة سريعة ، أصبح فى متناول بندقية الرجل الكسول ٠ وفى اللحظة التى أطلق فيها الرصاصة وفى نفس ممار السمان قفزت سيدة وطفل كانا يجلسان القرفصاء فى داخل حقل الشعير وأخذا يصرخان ٠ وسرعان ما لاحظ الخطر القادم ، واستطاع بحضور ذهنه المثير للاعجاب أن يفرغ شحنة الطلقة التالية ، ثم أخفى صندوق ذخيرته واحتضن بندقيته متعمدا أن يتمسك بها أطول فترة ممكنة ٠ وفى اللحظة التالية احاط به الناس وشلوا مقاومته وسحبوا بندقيته من قبضته ، ثم تلقى ضربة حجر فى ظهره ٠ وبعد أن أخذوا بندقيته تركه واحد أو اثنان من الرجال لكى يمضى فى طريقه ٠ وبعد ذلك تخلص من الباقين وعاد الى المركب ٠ وفى نفس الوقت أسرع محمد على فى طلب النجدة ، وكان هو الآخر قد نال بعض الضربات القاسية بالاضافة الى تمزيق ثوبه وخلع عمامته عن رأسه ٠

وفى نفس الوقت لم يكن معنا الا ما يقل عن نصف عدد رجالنا ، وقد دخلنا فى معركة خاصة بدون قائد ، بينما استولى العدو على احدى بنادقنا الثلاث ، فيا له من منظر مخيف ! لقد اندفع أهالى القرية كلها وهى قرية كبيرة ، وأخذوا يتزاحمون على الضفة وهم يجرون هنا وهناك ، وجميعهم يهذون بالكلام ويصيحون مستخدمين الحركات والاشارات

للتعبير عن سخطهم · لقد كنا على وشك العراك فى طافا ، ولكننـــا هنـه مهددون بالحصـــار · وبعد أن سحبنا اللوح الخشبى الذى يصل ما بين المركب والشاطىء عقدنا مجلسا سريعا للحرب ·

وكانت المرأة سليمة ، واذا كان الطفـل قد أصيب فهى اصـــابة طفيفــة ، وأحسسنا بالاعتدال فى الحديث بنغمة الاصابة ودعونا أهالى القرية الى تقديم بيان بحالة العدوان الجبان ، وطالبناهم باعادة البندقية حالا ، وعلى ذلك ارسلنا تلحمى للتفاوض مع زعيـم القـــرية واحضـــار البندقية سريعا ، وفوضناه بأن يقول لهم ـ كنوع من الدهاء السياسى ـ انه لو كان قد حدث مكروه فانه يوجد طبيب ضمن الخواجات ، وعلى والد الطفل أن يأتى بطفله المصاب لمعالجة اصاباته ·

وكانت الأحوال متوترة فى الخارج مثلها فى الداخـــل ، فأنتظرنا لما ستسفر عنه الأحداث · ولما كان ظهر تلحمى فى مواجهـــة النهر فقد شاهدنا كل نصف الدائرة التى تتكون منها الوجوه السمراء كاملا بما فيه الحواجب المقوسة ، والعيون التى تطلق الشرر ، والأســـنان اللامعة · وفجأة تغير تعبير الوجوه · لقد بدأ التغيير أولا بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا أقرب الى المتحدث ، وانتشر بالتدريج الى الخارج · وظهر كما لو أن موجة قد عبرت فوقهم ، وعرفنا حينذاك أن ضربتنا قد نجحت · وعاد تلحمى · وتجمع القرويون حول زعمائهم وهم يتفاوضون · وأخذت أعداد منهم فى الجلوس ، وعندما يجلس النوبى تتأكد أنت من أنه لم يعد يشكل خطرا ·

وبعد حوالى ربع الساعة أعيدت البندقيـــة دون أن تمس · وظهر رجل كهل على الضفة وهو يحمل صرة زرقاء · والآن أعيد لوح الخشب الموصل بين المركب والضفة ، وابتعد الزحام ، وسمح بمرور الرجل الذى يحمل الصرة ومعه ثلاثة أو أربعة آخرون ·

وبعد فك الصرة ظهر جنى صغير بنى اللون يبلغ من العمر حوالى أربع سنوات ، ورأسه أشعث حليق الشعر · وبكى فى البـــداية وهو يشاهد الوجوه الغريبة البيضاء اللون ، ولكن عنـــدما قدمت له احدى تمار التين ، نسى كافة مخاوفه وجلس يمضغها مثل القرد · أما بالنسبة لجروحه فقد كانت سطحية ؛ لأن الطلقة قد لامست كتفه فى أربعة أو خمسة مواضع · وقام الرجل الكسول بغسل الخدوش بقطعة اسفنج مبللة بالماء

الدافىء وقام السيد (ل) بتغطيتها بقطع من البلاستر اللاصق · وأخيرا أهدينا الى أبيه جنيها ذهبيا فرنسيا ، كما تم لف المصاب فى أحد قمصان الرجل الكسول ، وانتهى الفصل الأول من المسرحية · وكان علينا انتظار الفصلين الثانى والثالث · عندما وجد الرسام والرجل الكسول ان العملية قد انتهت ، اتفقنا على أنه من المناسب تقديم شكوى ضد القرية ، حماية للسياح القادمين فيما بعد · وكان ذلك بسبب الضربة الغادرة التى وجهت من الخلف فى وقت كان فيه الرجل الكسول (الذى لم يحاول من قبل أن يحمى نفسه) ضعيفا بين أيدى الغوغاء · ولذلك ذهبنا فى اليوم التالى الى أسوان ، ووعد الحاكم وهو مبتهج كعادته دائما بأن تأخذ العدالة مجراها · وفى نفس الوقت تحركنا بالذهبية الى فيلة وبقينا هناك لمدة أسبوع مشغولين بالرسم ·

وفى المساء التالى حضر وفد من توريجور يطلب الصفح ويعلن ان خمسة عشر قرويا قد اقتيدوا الى السجن ·

وذكر الرجل الكسول أنه لايستطيع أن يفعل شيئا بالنسبة لهم ، وأن الموضوع باختصار أصبح فى يد العدالة ، وسيتم التعامل معه طبقا للقانون · وهنا جمع المتحدث حفنة من التراب وهدد بأن ينثرها فوق رأسه · وقال : « أيها الترجمان ، أبلغ الخواجة أنه لايوجد قانون الا ما يرتضيه الحاكم وأنه لا توجد عدالة الا رغبة الحاكم ! » ·

وفى صباح اليوم التالى ذهب الرجل الكسول الى أسوان مبكرا ليدلى بشهادته فاستقبله الحاكم والمدير بمفرده ، وتم تقديم الغليون والقهوة وتبادل الرسميات المعتادة ، ثم أبلغ الحاكم ضيفه أنه تم القبض على خمسة عشر رجلا من أهالى توريجور واعترف أربعة عشر منهم بأن الخامس عشر هو الذى وجه الضربة من الخلف ·

ثم قال الحاكم : « والآن قبل أن نرسل فى طلب المحتجزين ، فمن الأفضل الاتفاق على القرار · ما الذى يرغب سعادته فى عمله بالنسبة لهم ؟ » ·

وارتبك الرجل الكسول فكيف يقدم اقتراحا بالمطلوب وهو يجهل القانون المدنى المصرى ؟ وكيف يتم الاتفاق على منطوق الحكم قبل المحاكمة ؟

وابتسم الحاكم بهدوء ، وقال : « ولكن هذه هي المحاكمة » .

ولما كان الرجل الكسول انجليزيا فقد بذل جهدا لمعرفة مدى فاعلية هذا التوضيح . انه توضيح لخص ببساطته الرفيعة النظام الكامل للادارة القضائية في القانون المصرى . وتردد في بيان أنه لا يضمر أدنى استياء ضد المذنب أو القرويين ، وأن كل ما رغب فيه هو تخويفهم لكى يحترموا السياح بوجه عام .

وهنا دعا الحاكم المدير لاقتراح صيغة الحكم ، وقال المدير انه وهو يأخذ في اعتباره قرارات سعادته المتسامحة يقترح مجازاة الأربعة عشر رجلا الأبرياء بشهر سجنا لكل منهم ، أما الجانى الحقيقى فيسجن لمدة شهرين مع جلده مائة وخمسين جلدة في الفلقة .

وقد اقشعر بدن الرجل الكســول لدى سماعه هذا الاقتراح وأعلن ضرورة اطلاق سراح الأبرياء ؛ ولكنه وافق على أن يجلد الجانى مائة وخمسين جلدة لكى يكون مثــالا لغيره ، ثم تخفف الجلدات بعـــد أداء الجلدات الأولى ، وأعطيت الأوامر بادخال المذنبين .

وتقدم السجان أولا وتبعه شرطيان ، ثم أدخل الخمسة عشر رجلا المحتجزون . وكم أحس بالخجل وأنا أكتب أن أعناقهم قد ربطت بالسلاسل في طابور واحد . ويستطيع القارىء أن يتخيل شعور الرجل الكسول في هذه اللحظة .

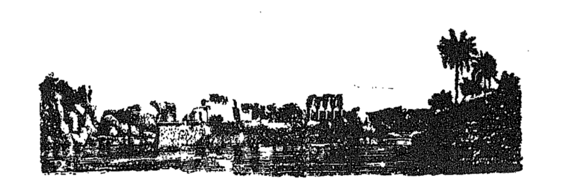
وتم النطق بالحكم،ونظر الأربعة عشر رجلا في ذهول وهم لا يصدقون آذانهم ، بينما كان المسجون الخامس عشر المعاقب بمائة وخمسين جلدة (« خمسة وسبعين جلدة على كل من قدميــه » كما قال الحاكم) أكثرهم سعادة لاطلاق سراحه بمثل هذه السهولة .

وألقى به على ظهره ، ثم ربطت قدماه وباطنهما الى أعلى ، وبـــدأ الشرطيان في تنفيذ الحكم . وكان يصرخ عند كل جلدة قائلا : « يحيـــا الحاكم ! يحيا المدير ! يحيا الخواجة ! » .

وبعد أداء الجلدة السادسة اتجه الرجل الكســـول نحـو الحاكم وطلب رسميا التغاضى عن تنفيذ بقية الحكم . واستجاب الحاكم للطلب وأطلق سراح المحتجزين وهم يبكون من فرط سعادتهم .

ثم تبادل الحاكم والمدير والرجل الكسول التمنيات الحارة ، وذكر الحاكم أن رغبته الوحيدة أن يكون مقبولا عند الانجليز ، وأنه كان سيقوم بجلد القرية كلها لو رغب سعادته فى ذلك ٠

وقضينا فى فيلة ثمانية أيام سعيدة ٠ وبعد حلول ظهر اليوم الثامن كانت الكاتبة وحدها على الجزيرة خلال الساعات الأخيرة ٠ كانت بمفردها بمعنى أنه كان برفقتها أحد البحارة ، وهذا يعنى أنها كانت وحيدة ٠ وكانت فيلة أيضا وحيدة بما يضفى لمسة اضافية من الملل والاحساس بالغربة ٠



منظر فيلة من الجنوب ٠

وكان الجو فى ذلك اليوم حارا ، والنسيم هادئا على صفحة النهر ، وقد انتهيت من رسم آخر لوحاتى ، وأخذت أتجول ببطء من بقعة الى أخرى وأنا أودع مسكن الفراعنة ، والأعمدة الملونة ، وكل ممر ، ونخلة ، ومقصورة ، ووجهة نظر معتادة ٠ واختلست النظر مرة أخرى الى حجرة أوزوريس السرية ٠ ورأيت الشمس وهى تشرق للمرة الأخيرة من سقف معبد ايزيس ، ثم عندما خبت ومضات كل تلك العجائب بألوانها الوردية والذهبية ، ظهر الغسق الدافىء ، ولا تستطيع أية كلمات أن تصور الجمال الحزين الذى تميزت به فيلة فى هذه الساعة ٠ كانت الجبال المحيطة تقف شامخة مسننة وذات لون أرجوانى ، فى مواجهة سماء عنبرية شاحبة ٠ وكان سطح النيل مصقولا ٠ ولم يكن هناك نفس أو فقاعة تثير المنظر الطبيعى الهادىء ٠ وكانت كل نخلة ثنائية ، وكل حجر مزدوجا ٠ وانعكست الصخور الضخمة التى فى وسط المجرى تماما بحيث أصبح من المستحيل اكتشاف أين تنتهى الصخرة بحيث تبدأ المياه ٠ وفى نفس الوقت كانت مبانى المعبد قد تحولت الى اللون البرونزى الذهبى الباهت ٠

وقد غصت البوابات بأشكال تلمع بالحياة الفنية ، وبدت مستعدة للخروج من أماكنها ٠

وكانت الوحدة شاملة مع وجود هدوء ساحر فى الهواء ٠ وكنت أسمع احدى الأمهات تغنى لطفلها بصوت خفيض فوق سطح الجزيرة المجاورة ، وعصفورا دوريا يغرد فى عشه الصغير فى قمة عمود تحت قدمى ، ونسرا يصرخ بصوت نائح بين الصخور على مسافة بعيدة ٠

كنت أنظر ، وأسمع ، وأعد نفسى بأننى سأتذكر كل ذلك خـــلال السنوات القادمة ٠٠ كل التـلال الهادئة ، وهذه الصفوف من الأعمـــدة الصامتة ، وهذه المساحات العميقة الساكنة من الظلال ، وهذه النخلات الناعسة ٠ وكنت أتلكأ حتى يحوطها كلها الظلام ٠ وأخيرا ودعتها جميعها خوفا من ألا أراها مرة ثانية ٠



الفصل العشرون

السلسلة وادفو

أثناء ذهابنا استغرق نضالنا في السفر من أسوان الى المحطة مدة أربعة أيام ، ولكننا في العودة انزلقنا بسرعة · وشكرا لصديقنا القديم شيخ الشلال ، فقد وصل في فترة قصيرة لاتتجاوز نصف الساعة ــ بوجهه العريض ، وعينيه اللتين تشبهان عيني السمكة ، وبدانته المعهودة ، وقد ربط رأسه بنفس المنديل الأصفر القديم ، ونفس النارجيلة في فمه · وقد أحضر معه جماعة مكونة من خمسين صنديدا من رجال الشلال وحمل تحت ذراعه علما رثا أحمر اللون · ورفع هذا العلم الذى طرز عليه هلال ونجمة بوقار فوق مقدمة السفينة ·

وبعد أن أودع الشيخ الذهبية في رعاية النبي ، أغلقت النوافذ والطمبوشى (الصالون الذى تضيئه كوة بالسقف) ، وأقفلت الأبواب ، وأزيحت الأشياء القابلة للكسر الى مكان آمن · وأصبح كل شيء محكما ، كما لو كنا نستعد لاستقبال عاصفة بحرية · وأقلعنا من المحطة في الساعة السابعة من صباح يوم جميل في منتصف شهر مارس ، وسارت فيلة على الجانب الليبي بدلا من العودة من خلال القنوات القديمة ، متجهة مباشرة نحو الباب الكبير وهو الجندل الهائل الذى لم نره من قبل · وقد قضينا الليلة الماضية كلها ونحن نستمع الى صوته من على البعد ، أما الآن فان ذلك الصوت الهادر يقترب مع كل ضربة مجداف ·

واليوم أصبح شيخ الشلال هو ربان الذهبية ، ورجاله هم بحارتنا · واقتصر واجب الريس حسن ورجاله على الجلوس والتطلع في سكون · وفي نفس الوقت أخذ رجال الشلال يجدفون بسرعة وانتظام · وهكذا ظهر لنا النهر وهو يجرى أسرع من المعتاد ، وسرعان ما أحسسنا بقوة اندفاع التيار تحت هيكل الذهبية · وفجأة شاهدنا شرارة ورغوة فوق السطح هناك · لقد كانت الصخور أمامنا على اليمين واليسار ، بينما

ظهرت الدوامات في كل مكان · وأمال الشيخ غليونه ، وخلع حذاءه ، وذهب بنفسه الى مقدمة السفينة · وكان نائبه متمركزا في قمة السلم الذي يتجه الى السطح العلوي · وتكفل ستة رجال بذراع الدفة ، وتمت تقوية القائمين بالتجديف فجلس اثنان الى كل مجداف ·

وفي وسط هذه الاستعدادات ، وبينما ظهرت الجدية على وجوه الجميع ، حتى ان الأعراب التزموا أيضا بالهدوء ، وجدنا أنفسنا حالا في مدخل مضيق طويل وضيق ، وهو نوع من الوهاد العميقة التي تقع بين حائطين من الصخور ، وتندفع من خلاله كتلة من المياه المزمجرة في انحناءة حادة · وقد ظهر لنا كما لو كان النيل كله يندفع في موجات وحشية أسفل هذا الممر المرعب ·

ويبدو للوهلة الأولى أنه من المستحيل للذهبية أن تخاطر بعبور هذا الطريق دون أن تتحول الى أشلاء متناثرة ، ولم نشاهد مساحة كافية لمرور المركب والمجاديف · وعلى كل حال فقد أعطى الشيخ كلمته ، ورددها نائبه ، فأطاعها الرجال الذين عند الدفة ، فوضعوا الذهبية في وضع مستقيم عند ذلك التيار المائي المتوحش · وتهيأ لنا ونحن مقطوعو الأنفاس لمدة ثانية واحدة ، أننا نرتعش على حافة السقوط · ثم اندفعت فيلة الى الأمام !

ورأينا الذهبية تنزلق بكاملها تحت أقدامنا ، وكنا نحس بالارتفاع والانخفاض والاندفاع المترنح الى الأمام ، وسرعان ما أخذت الأمواج تزبد وتغلي مرتفعة من كافة الجوانب ، ثم تفيض على السطح السفلي وتغطي السطح العلوي بالرذاذ ، ورفع المجدفون مجاديفهم تاركين كل شيء للدفة والتيار · وبالرغم من الضوضاء الصاخبة كنا نسمع بوضوح هذه المجاديف وهي تحتك بالصخور على كلا الجانبين ·

والآن ، فان الشيخ الذي يبدو ملك الموقف في هذه اللحظات ، يقف بدون حراك رافعا ذراعه لأنه توجد عند نهاية الممر انحناءة حادة الى اليمين ، تشبه في حدتها ركن شارع في أحد شوارع لندن العمومية الضيقة · فهل تستطيع فيلة التي يبلغ طولها ١٠٠ قدم من مقدمتها الى مؤخرتها أن تدور مع هذه الزاوية في سلام ؟ وفجأة لوح الذراع المرفوع وصاح الشيخ « دفة ! » ، وأسرع الرجال بتوجيه الدفة ، واستجابت المركب لكلمة الأمر التي صدرت ، وبدأت الدوران قبل أن

نتجاوز الصخور ، ثم اندفعت حول الركن في اللحظة المناسبة تمــاما ، وخرجت سالمة فيما عدا كسر مجداف واحد !

وكانت الفرحة عظيمة • وأسرع الريس حسن لمصافحة الجميع وقد غمرت السعادة قلبه ، وانفجر الأعــراب في ترديد كلمتي « طيبــون » ، و « حمدا لله على السلامة » • وابتسم تلحمي وقد أحاط به نصف دستة من رجال الشلال وهم يمازحونه ، وينزعون كوفيته عن رأسه ويأخذونها كجائزة • أما الرجل الوحيد الذي لم يتحرك فهو شيخ الشلال ، فقد زالت ومضة القوة اللحظية التي أضاءت وجهه ، وعادت اليه الملامح المتبلدة في تثاقل ، وارتدى حذاءه ، ومدد رجليه ، وأشعل غليونه ، وصار مثل البومة كعادته الدائمة • وقد تخيلنا حتى هذه اللحظة أن أعراب الشلال كانوا يضخمون مخاطر عبور الباب الكبير لزيادة أجرهم ، وكذلك كان السياح يضخمونها أيضا للتفاخر بأنهم اجتازوها • ولكن هذه ليست هي القضية ؛ لأن عبور الباب الكبير يمثل في حقيقته مهمة صعبة لدرجة أنني أشك في أن يقبل أي ربان انجليزي المخاطرة بقيادة مثل هذه المركب خــلال هذا الممر السريع الجريان ووسط مثل هذه الصخور مثلما فعل أعراب الشلال في ذلك اليوم •

وليست جميع الذهبيات سعيدة الطالع،ذلك أنه من بين أربع وثلاثين ذهبية عبرت الشلال في هذا الموسم أصيب عدد قليل بأضرار طفيفة ، بينما تعطلت ذهبية واحدة ، مما اضطرها للبقاء في أســوان لمدة أسبوعين حتى يتم اصلاحها ، ولكنني لم أسمع عن حدوث خطر حقيقي يؤدي الى غرق حقيقي للسفن ، أو حدوث أضرار للأفراد أو اصــابات لبعض الأطراف • ان رجال الشلال يتميزون بهدوء الأعصاب والمهارة ، ويتمتعون بخبرة واسعة • وقد فضل رسامنا أن يجمع لوحاته ويحملهــا مطوية الى أرض جافة على طريق الصحراء ، ولكن ذلك كان احتياطا لم يحلم أي منا باتخاذه فيما يتعلق بسلامتنا الشخصية • ولم يكن هناك ما نخشــاه لأن السائح الذي يعبر الشــلال في طريق العودة يستمتع بمنظــر عجيب ومغامرة شديدة الاثارة •

وعند أسوان ودعنا النوبة والأثيوبيين الطيبين ، ووجــدنا أنفسنا نعبر نيل مصر مرة أخرى • ولو لم نعبر هذه الأميال الخمسة من الشلال وعبرنا بدلا منها خمسمائة ميل من البحر أو الصــحراء ، فاننا لم نكن نلحظ تغييرا كاملا • لقد تركنا خلفنا نهرا حالما ، وشاطئا هادئا ، وصحراء

دائمة • وعند عودتنا دخلنا حالا في وسط منطقة خصبة ومكتظة بالسكان . والآن فاننا نرى القوارب على صفحة النهر طوال اليـوم ، والقـرى على الضفتين ، والطيور وهي تطير ، والفلاحين يعملون في الأرض ، بينما يعبر الرجال والنساء والخيول والجمال والحمير طوال الوقت ، مسار سحب المركب ، جيئة وذهابا دون توقف • وهناك دائما شيء يتحـرك ، أو شيء يدور العمل فيه • ويجرى النيل منخفضـا ، وترتفع أواني الشـادوف ذى الأعماق الثلاثة متأرجحة من الصباح الى المسـاء • ومرة ثانية يرتفع الدخان من تجمعات الأكواخ غير الظاهرة عند نهاية اليوم • ومرة أخرى نسمع الكلاب وهي تنبح من كفر الى كفر خلال ساعات الليل الساكنة • ومرة أخرى قرب غروب الشمس نرى صفوفا من البنات القادمات الى ضفه النهر وعلى رؤوسهن الجرار لكي يملأنها بالماء • وتلك البنات الأعرابيات عندما يقفن وهن يرتدين ثيابهن التي تتدلى أطرافها الى الأرض ، بينما يضعن أقدامهن في الماء ويغمسن فوهات القلل بطول أذرعهن في التيـار المتدفق ، مما يغرى الانسـان بأن يستخدم قلمه الرصاص لرسمهن في صور تخطيطية •

ويوجد في كوم أمبو معبد عظيم كان يوما ما يماثل معبد دندرة في ضخامته وربما كان أكبر منه • ونظرا لأنه مبنى على نفس المساحة الكبيرة فقد كان معبدا مزدوجا مخصصا لاثنين من الآلهـة همـا الاله حورس والاله سوبك (١) أى الصقر والتمساح • ولم يتبق منه الآن سوى أعمدة ضخمة مدفونة الى مسافة ثمانية أو عشرة أقدام من ارتفاعهـا الضخم ، وقطعة ممتازة من الاطار الذى يحيط بالأبواب ، وقطعة مكسورة من افريز منحوت ، وبعض الكتل الساقطة المحفور عليها أسـماء ملوك وملكات البطالمة •

وقد قيل انه كان يوجد هنا مدخل مزدوج ضخم ، وبهو للأعمدة . وهيكل مزدوج • وكانت كلها كاملة ولكن لم يعد الوصول اليها سـهلا • وما زالت الكتل التي تغطي سقف القاعات الثلاث التي تقع الواحدة منها خلف الأخرى ، والقليل من الأساطين ، ظاهرة خلف البهو ذى الأساطين • ولكن أحدا لا يعرف ماذا يمكن أن يكون مدفونا تحت السطح ، لأننا نعرف فقط أنه كانت توجد هنا مدينة قديمة وكفر وسيط ، قد ابتلعتهما الرمال ببطء ، وأن معبدا قديما كان معاصرا لمعبد عمدا وقائما داخل السياج •

---

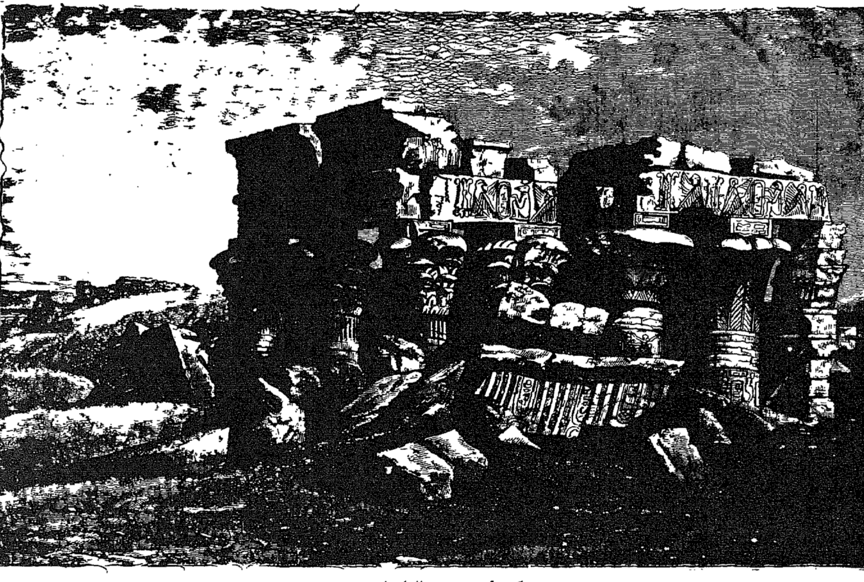
(١) « سـوبك اله شمسى ، يسمى في بردية بولاق ابن ايزيس ، وهو الذى حارب أعداء أوزيريس • وهذا تطابق تام مع حورس ، وبهذه الصفة عبد في أمبوس » •
Dic. Arch. P. PIERRET, Paris, 1875.

وكانت الرمال هنا مكومة على مدى ٢٠٠٠ سنة ، ويبلغ عمقها أربعين قدما ، ولم يجر حفرها مطلقا • ولن يتم حفرها الآن ، لأن نهر النيل يزحف على الضفة تدريجيا ويحمل معه على دفعـــات كل ما كان مدفونا تحـت رمال الصحراء • وقد تناثر نصف البوابة العظيمة ، وشلال من الكتل المنحوتة فوق المنحدر الشديد الميل من القمة حتى القاع • أما النصف الآخر فهو معلق على حافة الجرف ، ولن يظل معلقا لمدة طويلة فسرعان ما يأتى اليوم الذى سيتقوض فيه ويتحول الى أنقاض مثل النصف الآخر •

وقد فقدنا الرســـام ما بين كوم أمبو والسلسلة ليس لأنه ضــل أو سرق ، ولكن لأنه حقق الهدف الرئيسى من رحلته فكان سعيدا لاقتناص أول فرصة للعودة السريعة الى القاهرة • وقد جاءته هذه الفرصة عن طريق دوق نبيل كان يقضى شهر العسل على ظهر ســفينة بخارية فى منتصف المسافة ما بين كوم أمبو والسلسلة ، لقد كان الرسام والدوق قد تعارفا أحدهما الى الآخر منذ وقت طويل ، وسرعان ما تم ترتيب الأمر ، ففى أقل من ربع الساعة تم نقل الصورة الكبيرة وكل أمتعة الاستوديو من القمرة التى فى مؤخرة الذهبية فيلة الى القمرة التى فى مؤخرة السفينة البخارية• وسرعان ما اختفى رسامنا الذى وقع على مطعم دون سابق اعداد ، وطباخ ، ونادل ، ونصيب عادل من ضروريات الحياة ، والسعادة ترفرف عليه وذلك بعد هذه المسافة بمعدل ٢٠ ميلا فى الساعة • واذا كان الزوجان السعيدان اللذان تعبا من الرياح التى تهب من الأمام ، قد رضيا بمشاهدة المعابد ، الا أنهما تابعا تلك السفينة البخارية بعيون يملؤها الشوق الحزين ، فان الكاتبة لم تطلب شيئا أفضل من الاستمرار مع الذهبية فيلة •

وواصلنا طريقنا مع النيل الطويل ، والحياة القصيرة ، بينما كان من المؤكد أن القصة التى أوردها كتاب الدليل الذى معنا غير مشجعة • وعندما وصلنا الى السلسلة صباح يوم ١٧ مارس ، كانت الرياح الشمالية تهب ولم تنقطع منذ أول فبراير سوى يوم واحد •

وعند السلسلة أخذنا نبحث دون جدوى عن آثـار ذلك الحاجز العظيم الذى كان يسد مجرى النيل فى هذه المنطقة يوما ما ، والمجرى هنا ضيق ، وتقترب صخور الحجر الرملى على كلا الجانبين من حافة الماء • وكان هناك فى بعض الأماكن فراغ للسير ، بينما لم يوجد ذلك الفراغ فى أماكن أخرى • وكانت هناك بعض الصخور الغارقة فى مجـــــرى النهر • وقد لاحظنا فوق صخرة منها عن طريق الصدفة ، سفينة بخارية تابعة لشركة كوك وكانت قد توقفت عندها منذ يومين • ولكن اذا كانت مثـــل هذه



معبد كوم أمبو بمصر العليا

الكتلة قد سدت مجرى النهر وتسببت فى هجر النهر لمجراه عند فيلة ، فانها تكون أيضا قد غيرت كافة الأحوال الطبيعية والمناخية فى النوبة السفلى • وعلى كل حال فانه لا توجد أية علامات تدل على ذلك •

ويرشدك الأعراب هنا الى صخرة تتخذ شكل شمسية ضخمة يقولون ان بعض الملوك ربط فيها سلسلة لكى يحجز نهر النيل ، ويبدو أن هذه الأسطورة المشكوك فى صحتها هى التى تبعث فى الذاكرة فكرة الحاجز القـــديم •

وقد اكتشفنا أن صخور الضفة الغربية غنية بالحنيات التذكارية ، والمزارات التى أقيمت كنذور ، والجبانات ، واللوحـات التاريخيـــة ، والنقوش • وهذه الأخيرة يتراوح تاريخها ما بين الأسرة السادسة والأسرة الثانية عشرة • وبعض الجبانات والفجوات التى فى جــــدران الحجرات شديدة الغرابة ، فهى مصفوفة الى جانب بعضها البعض فى صف طويل قريب من أعلى النهر ، وتكشف عن لمحات خاطفة لبعض الأشكال الجالسة ، والزخرفة الصارخة بحيث تبدو كما لو كانت صناديق خاصة مع شاغليها • وقد وجدنا فى معظمها مجموعات مشوهة من الآلهة (١) المنحوتة والملونة ، وقد وجدنا فى مزار أكبر من المزارات الأخرى ثلاث فجوات ، تحتوى كل منها على ثلاثة آلهة •

والى الشمال على البعد ، تقع المقبرة العظيمة للملك حور محب آخر فراعنـة الأسرة الثامنة عشرة ، والمقاصير التذكارية لأسرة الرعامسة فى الناحية الجنوبية البعيدة من هذه السلسلة • والمقصورة الأولى عبارة عن قاعة مستطيلة على شكل بهو مسقوف محمول على أربعـة أساطين ومحفور فى خط مواز للنهر • أما الحوائط فى الداخل والخارج فهى مغطــاة بنقوش جميلة التنفيذ محفورة بطريقة غائرة • ومازال بعضـــها محتفظا بآثار الألوان • أما موكب نصر حور محب وهو عائد بعد الانتصار فى أرض كوش ، والموضــوع المشهور الذى على الحـائط الجنـوبى الذى وصفه

---

(١) « Le point de départ de la mythologie egyptienne est une *triade* ». CHAMPOLLION, *Lettres d'Egypte*, etc. XI Lettre. Paris. 1868.

وهذه الثلاثيات واضحة أكثر فى معبدى جرف حسين وكلابشة •

ماريت (١) بأنه واحد من الأشياء الجميلة فى الفن المصرى ، فهما محفوران بطريقة تجل عن الوصف ، أما مزارات أسرة الرعامسة المقامة كنذور فهى مجمعة مع بعضها فى ركن صالح للرسم ، ذى لون أخضر بسبب الشجيرات التى على حافة الماء . وهناك ثلاث فجوات جدارية مرتفعة تخص سيتى الأول ورمسيس الثانى ومرنبتاح ، كل منها على شكل الجزء الأمامى من خشبة المسرح مع أفاريز ملونة ، وأعمدة جانبية ، ومجموعات من الملوك والآلهة مازالت ألوانها لامعة . وفى غالبية النحت الموجود فى السلسلة ترى شكلين لالهين يندر رؤيتهما فى أى مكان آخر وهما سوبك الاله التمساح وحابى ـ هو اله النيل المتوج بزهرة اللوتس . وكان هذا الاله الأخير هو الاله الحارس للمنطقة . وكانت تجرى عبادته فى السلسلة حسب طقوس خاصة . وقد وجدت أناشيد تمتدحه محفورة هنا وهناك على الصخور (٢) وأكثر الجميع غرابة الهة تسمى تا ـ أور ـ تى (*) (٣) وهى المرسومة ضمن أحد الموضوعات الجانبية فى مقصورة رمسيس الثانى . وهذه الشخصية الغريبة لها جسم فرس النهر ، ووجه سيدة ترتدى باروكة مربوطة ، وثوبا رسميا له خمس شملات ، ويشبه الساتر الذى يفصل بين رئيس مجلس اللوردات وسائق المركبة .

---

(١) « L'un (paroi du sud) représente une déesse nourissant de son lait divin le roi Horus, encore enfant. L'Egypte n'a jamais, comme la Grèce, atteint l'idéal du beau ... mais en tant qu'art Egyptien, le base-relief du Spéos de Gebel-Silsileh est une des plus belles oeuvres que l'on puisse voir. Nulle part, en effet, la ligne n'est plus pure, et il règne dans ce tableau une certaine rouceur tranquille qui charme et étonne à la fois. » — *Itinéraire de la Haut Egypte. A. Mariette* : 1872, p. 246.

(٢) انظر بردية سالييه رقم ٢ وعنوانها : ترنيمة للنيل Hymne to the Nile
ترجمها ماسبيرو ـ باريس ، ١٨٦٨ .

(٣) « Cette Déesse à corps d'hippopotame debut et à mamelles pendantes, parait être une sorte de déesse nourrice. Elle semble, dans le bas temps je ne dirai pas se substituer à Maut, mais compléter le rôle de cette déesse. Elle est nommée la grande nourrice et presidait aux chambres où étaient représentées les naissances des jeunes divinités. » — *Dict. Arch.* P. PIERRET. Paris 1875.

تمثل هذه الالهة فى السماء مجموعة نجوم الدب الاكبر ـ انظر كتاب :
Guide to the first and second Egyptian rooms - S. Birch, London. 1874.

(★) الالهة « تاورت » هى التى ترعى الحوامل وتشرف على عملية الولادة وتعتنى بالطفولة ـ (المراجع) .



تاورت (فيلة) ٠



تاورت (السلسلة) ٠

ويقف خلفهـا الاله تحوت والالهـة نوت ٠ ويتسلمون هم الثلاثة البيعة من الملكة نفرتارى التى تتقدم نحوهم ومعها تقدمة مكونة من اثنين من الصلاصل ٠ وهى بوصفها فرس النهر ، متوجة بقرص الشمس وريش الطيور ٠ وقد تقابلنا مع هذه الالهة من قبل ٠ وهى ليست غريبة بوصفها تعويذة أو حجابا ٠ وقد قامت الكاتبة برسمها في جزيرة فيلة ، حيث تحتل مكانا بارزا فى واجهة المعبد ، ولكننى أظن أن رشاقة ردائها الشاذ الشكل فى السلسلة ، تثير الاحساس بالغرابة ٠

وتتركز أهمية الضفة الغربية فى منحوتاتها ونقوشها ٠ أما أهمية الضفة الشرقية فتتركز فى محاجرها ٠ وقد جدفنا حتى نقطة تقابل تقريبا مقاصـــر أسرة رمسيس ، وتسلقنا منحدرا حادا من الأطلال عند فوهة شق ضيق بين حوائط من الصخر الصلب ، يتراوح ارتفاعها ما بين أربعين الى خمســـين قدما ؛ وهذه الحوائط ناعمة ومصقولة ومتعامدة بدون انحــراف ، ولون الحجر الرملى عنبرى غامق ٠ ويبلغ عرض الممر عشرة أقدام وربما بلغ طوله أربعمائة قدم ، ويظهر بعد منتصف النهـــار من جانبين ، أحدهما فى الظل والآخر فى ضوء الشمس مع شريط ضيق من السماء الزرقاء يلمع من أعلى ، وليس له شبيه فى العالم فيما عدا المدخل الى بترا ٠

وبعد أن تبعنا هذا المدخل ، وصلنا حالا الى منطقة فسيحة يصل اتساعها الى مثل اتساع ميدان بلجريف ، تنفتح خلفه منطقة أخرى أصغر منه ومنفصلة عنه بحاجز رقيق من الصخر • وعلى حوائط هذه المدرجات الضخمة كانت علامات الازميل وثقوب الأوتاد سليمة كما لو كانت آخر الكتل قد نزعت أمس فقط ، مع أنه قد مضى ما يقرب من ألفى عام منذ تعرض المكان لآخر ضربات المطرقة ، وتردد صدى آخر أصوات العمال • ولم تصمت هذه الأصداء منذ أيام فراعنة طيبة حتى أيام البطالمة والقياصرة • لقد أخذت من هنا ومن المحاجر التى على الجانب المقابل من النهر جميع أحجار معابد الكرنك والأقصر والقرنة ومدينة هابو واسنا وادفو وأرمنت •

وعند عودتنا تسلقنا تلالا طويلة من الشظايا التى تطل على وديان من الأطلال ، ووصلنا أخيرا الى جانب النهر عن طريق سهل قديم مائل السطح ، كانت الكتل تنزلق بطوله الى أسفل نحو مكان تحميل القوارب• ولكن أغرب الأشياء بالنسبة للسلسلة هو الأسلوب الذى حفرت به المحاجر • لقد تم تقطيع الحجر الجيرى فى جميع هذه الثقوب والممرات والمدرجات الى قطع ناعمة ومستقيمة مثل التبن المكوم فى الكومة ، فتجد فى كل مكان أن الكتل مربعة الشكل ، وأن أفضل الأحجار قد نقل بينما ترك الأسوأ • وحيثما كانت الأحجار دقيقة المكونات واللون ، فقد قطعت بأفضل الوسائل الاقتصادية • وقد تركت قائمة فى المكان الذى لونت فيه باللون الأبيض أو البنى ، وخططت أفقيا بالعروق البنفسجية • ورأينا هنا وهناك الأماكن التى نقلت منها الأجزاء السفلية ، وتركت فيها الأجزاء العلوية بارزة مثل الأدوار المعلقة من منازلنا المقامة من الألواح الخشبية والتى تعود الى العصور الوسطى • واذا قورنت المبانى المرتجلة التى نقيمها بهذه المحاجر القوية الكاملة ، فانها ستظهر مثل المبانى البدائية•

وبعد أن صارعنا الرياح بشدة ، تركنا السلسلة بعد ظهر نفس اليوم • وقد أصبح أكثر من نصف حطام السفينة البخارية تحت الماء • لقد انكسر ظهرها وأخذت فى الغوص بسرعة ، وغادرها جميع أتباع كوك الذين استطاعوا التجديف الى الشاطىء ومعهم كل ما استطاعوا أن يجمعوه من الضروريات • لقد أجبر هؤلاء المنكودون على الاقامة فى خيام أعارها لهم مدير المنطقة • ولحسن حظهم وصلت فى صباح اليوم التالى ذهبيتان فى طريق عودتهما ، وحملتا الكثيرين منهم حسب قدرتهما على المساعدة فى الاعاشة • وتكفلت مركب الدوق البخارى باستقبال الباقين •

وكانت الخيام قائمة هناك ، كما انشغلت جماعة من الوطنيين تحت اشراف المدير بنقل كل ما يمكن انقاذه من الحطام .

ومع اقتراب الليل تحولت الرياح القادمة من أمامنا الى اعصار ، واستمر هذا الاعصار لمدة يوم وليلة أى ست وثلاثين ساعة (*) ، وكان النيل خلال هذه الفترة كلها يسوق التيار مثل الموجات العاتية التى تندفع الى ساحل الكورنيش عندما يهب المد والرياح من الغرب فى وقت واحد . وكنا نسمع صخبها فى ظلام الليل فنشعر بأن فيلة تهتز ، وترتعش ، وتتوتر الحبال التى تربطها ، وترتطم بالضفة باستمرار فى شكل أبعد ما يكون عن البهجة . أما أثناء النهار فقد كان المنظر غير عادى ، فلم تكن هناك سحب ولكن الجو ملبد بالرمال التى كانت أضواء الشمس الخافتة تلمع من خلالها . وأخذت بعض أشجار النخيل ذات اللون الرمادى والتى تشبه الأشباح بأعلى الضفة تتمايل كما لو كانت على وشك أن تنكسر قبل انفجار العاصفة . وكان النيل مثل العجين المختمر ، مشبعا بالرغاوى البنية اللون التى تخبط نوافذ قمرتنا بين الحين والآخر . ولم نكن نرى الضفة الأخرى من أى مكان . ولم نستطع أن نرى شيئا من على سطح السفينة . وأستطيع أن أقسم بأن الذهبية قد رست على ساحل مهجور .

وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى توقفت الرياح ، وأسرع الرجال الى مجاديفهم ، ووصلوا بنا الى ادفو عند وقت تناول الافطار . وأصبح الجو الآن مشرقا ، فكان صباحا باردا وفضيا ومشبعا بالضباب وهو صباح لم نصادف مثله فى بلاد النوبة ، حيث أسرعت الشمس باطلاق حرارتها ، ليقع الانسان تحت وطأتها سريعا . وكانت الحمير هناك على الضفة فى انتظارنا . وبلغ طول الطريق حوالى ميل خلال حقول الشعير ومزارع القطن . وظهر لنا البلد غنيا ، والناس يبتسمون . والتقينا بمجموعة منهم حضروا الى الذهبية ومعهم الخراف والحمام والدجاج وعجل صغير للبيع . وبعد أن عبرنا المياه التى خلفنا على قنطرة مقامة من جذوع النخيل ، وصلنا الآن الى القرية الجاثمة فوق تلال المدينة القديمة . وفى نفس الوقت أخذت صروح المعبد تزداد ضخامة فى كل لحظة ، وترتفع فى الضوء خلال السماء الزرقاء الناعمة .

(*) كان المفروض ان تسمى الاشياء بأسمائها فهذا الذى تتحدث عنه الكاتبة عاصفة رملية وليس اعصارا ، فمصر ليست من البلاد التى تتعرض للأعاصير المدمرة التى تجتاح كثيراً من البلدان فى أوربا والأمريكتين وتدمر كل شىء فى طريقها - (المترجم) .

وبعد أن مضينا خلال الحوارى التى تنتشر على جانبيها الأكواخ ، وصلنا الى فضاء واسع ومجموعة من درجات السلم غير المصقولة التى تقع أمام المعبد . وفى نهاية هذه الدرجات أصبحنا نقف على مستوى أرض القرية الحديثة . وعند قاعها شاهدنا الأرضية المبلطة التى تكشف عن مستوى سطح المدينة القديمة ، وفوق هذا المستوى تبرز البوابة التى ظهر جزء منها ضخما من على البعد . لقد وجدنا الآن أن هذه الأبراج الهائلة لا ترتفع الى حوالى ٧٥ قدما فقط ، ولكنها تغوص أيضا لمسافة لا تقل عن ٤٠ قدما تحت أقدامنا .

ومنذ عشر سنوات مضت لم يكن هناك شيء ظاهر من المعبد العظيم سوى قمم هذه الأبراج . وكان البناء بعيدا عن الرؤية كما لو كانت الأرض قد انشقت وابتلعته ، وقد غصت أفنيته بأطلال كريهة ، وامتلأت الحجرات بالمنحوتات المدفونة تحت أربعين قدما من الطين . أما السقف فقد كان متاهة من الأكواخ المتلاصقة المكدسة بالكائنات البشرية . والدجاج والكلاب والأبقار والحمير والهوام الطفيلية . وبناء على الجهود التى لا تكل والتى قام بها مارييت ، تم تنظيف هذه الاسطبلات التى تشبه اسطبلات أوجياس (*) منذ حوالى ثلاثين عاما مضت ، وقد كتب هو نفسه عن هذه المهمة قائلا : « لقد هدمت المنازل الأربعة والستين التى زحمت السقف ، وكذلك ثمانية وعشرين منزلا آخر كانت قريبة من الحائط الخارجى للمعبد . وعندما يتم اقامة حائط لعزل المعبد كله عن العشوائيات الحالية التى تحيط به ، سيبدأ العمل فى اعادة معبد ادفو الى حالته الأولى » (١) .

ولم يتم بعد بناء هذا الحائط ، ولكن تمت ازالة وتنظيف تل العشوائيات الذى كان يحيط بالمبنى الذى يقف الآن حرا فى وسط فناء عميق مفتوح ، وبعض جوانبه متعامدة فى بعض الأماكن مثل صخور محاجر السلسلة . وفى وسط هذه الحفرة يقف المبنى الضخم أمامنا فى ضوء الشمس عموديا وكاملا مثل اله خارج من المقبرة ، وتأثيره شديد عند النظر اليه لأول مرة .

(*) أوجياس Augeas هو ملك اليس فى الأساطير اليونانية ، وقد قام هرقل بتنظيف اسطبلاته القذرة — (المترجم) .

(١) خطاب مسيو مارييت الى الفايكونت روجيه E. De Rougé عن مجلة Révue Archéologique المجلد الثانى ، ص ٢٣ سنة ١٨٦٠ .

ونرى من خلال المدخل الضخم الذى يصل ارتفاعه الى خمسين قدما، ومضات فناء ضخم ومشهد مكون من مداخل أحدها خلف الآخر ٠ وعندما مضينا الى أسفل رأينا فى كل خطوة مسـاحات أكبر من هذه القـاعات المظلمة والبعيـدة ، وفى نفس الوقت كانت البوابـات المغطاة بالنقوش الضخمة ترتفع أكثر فأكثر، وتبدو وكأنها تزاحم السماء ٠ وينظر الحارس الذى يبلغ طوله ستة أقدام وبوصتين ، نحونا مكشرا عن أسنانه ، منتظرا البقشيش ٠ وبالطبع كان لابد من وجود حارس هنا ، كما تؤدى نفس الغرض أيضـــا بوابة قوية لا يستطيع أن يمر منها الزوار أو الأعراب المتطفلون دون أن يراهم أحد ٠

ومن يدخل هذه البوابة يعبر عتبة الماضى ، ويترك ألفى عام خلفه٠ ولكن لم يتغير شيء فى هذه القاعات الضخمة ، فكل ارضية مبلطة ، وكل أسطون ، وكل مدرج سلالم ، مازال كما هو فى مكانه ٠ أما السقف الذى لم يفقد منه الا القليل من الأحجار التى فوق الهيكل فليس سليما فقط ، بل أيضا تم اصلاحه بشكل جيد ٠ وما زالت النقوش الهيروغليفية بنفس الوضوح وفى الوضع الذى كانت عليه يوم حفرها ٠ واذا كان قد أضير أسطون أو وجه اله برأس بشرى هنا أو هناك ، فليست هذه الا عيـوبا نادرا ما يلحظها الانسان ، ولا تفسد التأثير العظيم للمبنى بوجه عام ٠ وقد عبرنا هذا الفناء العظيم فى ضوء الصباح الكامل ٠ ويوجد فى صفوف الأساطين التى على الجانبين ظل ، ولكن بهو الأساطين الذى خلفه ، مظلم كما لو كان فى الليل ، بصرف النظر عن بقعة من الشمس ذات اللون الأزرق الغامق تخترق فتحة مربعة فى السقف ٠ وتماثلها بقعة مساوية لها من الضوء الساقط على الأرضية السفلية ٠ ونمر بعد ذلك عبر قاعة من الأســاطين وممرين مســتعرضين ، وهيكل جانبى ، وسـلسلة من الحجرات الجانبية المظلمة وهيكل كبير ٠

وهناك خارج هذه المبانى كلها ويحيط بالمعبد من ثلاث جهات ، ممر خارجى مفتوح نحو السماء ، ويحده حائط عظيم يبلغ ارتفاعه أربعين قدما كاملة ٠ واذا قلت ان المدخل الأمامى مع البرجين والمدخل المتوسط يبلغ عرضهما معا ٢٥٠ قدما وارتفاعها ١٢٥ قدما ، فان الفناء الأول يزيد طوله عن ١٦٠ قدما ويبلغ عرضه ١٤٠ قدما ، وأن المبنى بكامله يبلغ طوله ٤٥٠ قدما ، وهو يغطى منطقة تبلغ مساحتها ٨٠٫٠٠٠ قدم مربع ٠

لقد ذكرت الحقائق التى لا تتجاوز تقديم فكرة عن ضخامة المبنى للقـارىء العادى ٠ أما تناسق النسب ، والحجم المذهل وقوة الأجزاء ،

وكمال التنفيذ ، ونقاء المادة التى آخذت منها الأحجار ،ولونها العنبرى ، فاننى أعجز عن وصفها ٠

ويمكن أن نسمى معبدى ادفو ودندرة بأنهما توءمان ؛ لأنهما ينتميان الى نفس الفترة الزمنية٠ لقد تم بناؤهما تقريبا حسب نفس التخطيط (١) وهما أيضــا متعلقان باحســاس دينى واحد ، لأن أسطورتى حورس (٢) وحتحور (٣) متداخلتان ، والواحدة منهما تكمل الأخرى ، ولذلك فاننا نجد فى نقوش معبد ادفو تنويها مســتمرا عن تراث دنــدرة والعكس صحيح٠ وكلا معبدى ادفو ودندرة غنى بالنقوش ، ولكن المساحة الحائطية المخصصة لها فى معبــد ادفو أكبر حجما ، وكذلك الثروة الادبيــة لهذا المعبد أعظم من تلك التى فى معبد دندرة ٠ وقد ظهر لى أيضا أن المساحات الجدارية بمعبد ادفو أكثر ازدحاما بالنقوش عن مثيلتها بمعبد دندرة ذلك أن كل حائط ، وكل سقف ، وكل أسطون ، وكل اطار يحيط بالأبواب ، وكل ممر وحجرة جانبية مهما كانت مظلمة ، وكل مدرج سلالم ، وكل مدخــل ، والحائط الخارجى للمعبد ، والجانب الداخلى لحائط الدائرة الضخم ، والبوابات الضخمة من قمتها حتى قاعدتها ، هذه جميعها ليست فقط مغطاة بالنقوش والكتابات الهيروغليفية ، بل أيضا مزدحمة بها ٠ ولا نجد من بينها أية موضوعات ضخمة عن المعارك ، كما هو الحال فى (أبو سنبل) ، ولا سردا للأحداث البطولية مثل قصيدة بنتاؤور ٠ لقد استبعدت هذه النوعية من النقوش مع الملوك الفراعنــة ، وحلت محلها لوحات الطقوس الدينية وحوارات الآلهة والملوك ٠ وهذه هى الموضوعات المحفوظة على العمــائر البطلمية ، وهى متصلة ببعضها فى دندرة واسنا وكذلك فى ادفو ٠ ولكن يوجد فى ادفو نقوش تدور حول سمات مختلفة أكثر من أى معبد آخر فى مصر ٠ وهذه المعلومات الدنيوية ليست ذات

(١) معبد ادفو هو الأصل ، ومعبد دندرة نسخة منه ٠ ولما حاد معبد دندرة عن النموذج الأصلى اصبغ التنفيذ رديئا ٠

(٢) *Horus* : — « Dieu adoré dans plusieure nomes re la basse Egypte. Le personnage d'Horus se rattache sous des noms différents, à deux generations divines. Sous le nom de Haroeris il est né de Seb et Nout, et par consequent Frère d'Osiris, dont il est le fils sous un autre nom. Horus, armé d'un dard avec lequel il transperce les ennemis d'Osiris, est appelé Horus le Justicier. » — *Dict. Arch.* P. Pierret, article « Horus. »

(٣) *Hathor* : « Elle est comue Neith, Maut, et Nout, la personnification de l'espace dans lequel se meut le soleil, dont Horus symbolise le lever : aussi son nom, Hat-hor, signifie-t-il litteralement, *l'habitation d'Horus.* » — *Ibid.* article « *Hathor* ».

قيمة • وتوجد هنا قوائم جغرافيــة للأقاليم النوبية والمصرية بمدنها الرئيسية ، ومنتجاتها ، وآلهتها الحارسة ، وقوائم بالأقاليم والأمراء الذين يدفعون الجزية ، وقوائم بالمعابد والأراضى الموقوفة عليها ، وقوائم بالترع ، والموانىء ، والبحيرات ، وتقاويم تبين الأعياد وأوقات الصوم ، وقوائم فلكية ، وأنساب وأخبار الآلهة ، وقوائم عن كهنة وكاهنات كل من معبدى ادفو ودندرة بأسمائهم ، وقوائم أخرى تتعلق بالمنشدين والموظفين المساعدين ، وقوائم بالتبرعات ، والأناشيد ، والأدعية ، ومثل هذه التفاصيل المتعلقة بالأساطير الدينية بحيث يمكن تكوين كتاب عن الأساطير المصرية من النقوش الموجودة فى معبد إدفو وحده (١) • وقد نشر منها الكثير ، ولكن يظهر بين الحين والآخر عالم مصريات مغامر مثل مسيو نافيل أو مسيو دى روجيه فيقدم لنا دراسة متعمقة عن ادفو ، والمناجم • ويعود الينا ومعه مثل هذه الصخور الثمينة بالكمية التى يستطيع أن يحملها • وهكذا ألقيت الأضواء على بعض التفاصيل البارزة ذات الأهمية • وهناك على سبيل المثال نقش يسجل بالضبط فى أى شهر وفى أى يوم وفى أية ساعة ولدت ايزيس ابنها حورس ، ونقش آخر يذكر كل ما يتعلق بالقوارب المقدسة • ونحن نعرف الآن أن ادفو بها اثنان من القوارب أحدهما يسمى حور ـ حات أو حورس الأول والآخر عا ـ مافيك أو الفيروزى العظيم • ويبدو أن هذين القاربين لم يكونا مخصصين فقط للحمل فى المواكب ولكن أيضا للاستخدام الطبيعى فوق الماء • وهناك نص آخر من أكثر النصوص غرابة يخطرنا بأن حتحور دندرة تقوم بزيارة سنوية الى حورس أو (حور ـ حات) الموجود فى ادفو ، وتقضى معه بضعة أيام فى معبده ، وقد نقشت مراسم هذه الرحلة بالتفصيل • لقد سافرت الالهة فى مركبها التى تسمى نيب ـ مر ـ تى ، أى سيدة البحيرة • وخرج حورس كمضيف مهذب للقائها فى قاربه حور ـ حات • ثم شكل الالهان مع أتباعهما مركبا واحدة • وهكذا وصلا الى ادفو حيث استمتعت الالهة بالاحتفالات المتعاقبة (٢) •

---

(١) انظر مقالا بعنوان Rapport sur une mission en Egypte كتبة الفيكونت دى روجيه E. De Rougè نشر بمجلة Révue Arch Nouvelle série ـ المجلد العاشر ، ص ٦٢ •

(٢) انظر مقالا كتبه دى روجيه وعنوانه Textes Geographique du Temple d'Edfou نشر بمجلة Révue Arch. ـ المجلد الثانى عشر ـ ص ٢٠٩ •

وأود أن أعرف ما اذا كان حورس قد عاد في جميع هذه الزيارات ، وما اذا كانت الآلهة مثل الأباطرة المحدثين يقضون أوقاتا مرحة فيما بينهم ؟

وهناك أسئلة أخرى تطرح نفسها ، تثير الألم أحيانا ، وتثير السخرية أحيانا أخرى ، وذلك عندما يتنقل الانسان من غرفة الى غرفة ومن قاعة الى قاعة ، وكلها مغطاة بالنقوش المنحوتة التى تمثل أشكالا غريبة وأساطير أشد غرابة • ماذا عن هذه الآلهة ذات الأنساب المتداخلة ، والعلاقات المتبادلة المعقدة ، والتى تتزوج وتصير أباء وأمهات ، وتتبادل الزيارات ، وتسافر أحيانا الى أقطار بعيدة (١) ؟ وماذا عن هؤلاء الذين خدموا هذه الآلهة فى المعابد ، والذين ألبسوها الأثواب وخلعوها عنها ، والذين أقاموا الاحتفالات بأعياد ميلادها ، وجمعوها فى مواكب مهيبة ، واستنزفوا حياة ملايين النساس فى اقامة هذه الصروح والمنحوتات من الحجارة تشريفا لها ؟ اننا نعرف الآن الطقوس التفصيلية التى كانت تعبد بها هذه الآلهة ، والجواهر التى كانت تتزين بها ، والتراتيل التى كانت ترتل فى مديحها • ونعرف الجوهر التعبيرى والفلسفى للخرافات الشمسية التى وضع نظرياتها أشخاص مغامرون محاطون بالغموض • ونحن متأكدون تماما أن المعنى الخفى لهذه الأساطير قد ضاع فى الأيام الأخيرة لهذه الديانة (٢) ، وأن الآلهة كانت مقبولة لذاتها وليس لما كانت ترمز اليه ، وماذا اذن عن عابديها ؟ هل كانوا يؤمنون حقا بكل هذه الأشياء ، أو أن بعضا منهم كان يتعذب بالشك فى هذه الآلهة ؟ وهل كانت شكوكهم فى تلك الأيام تتعجب كيف يستطيع اثنان من عابدى التماثيل الفرعونية Hierogrammetes أن ينظر كل منهما فى وجه الآخر ، دون أن ينفجر فى الضحك ؟

وقد ذكر لنا الحارس أنه كانت توجد ٢٤٢ درجة تقود الى قمة كل من برجى البوابة • وقد أحصينا ٢٢٤ منها وتغاضينا عن الدرجات الباقية • كان المسار الصاعد طويلا ، ولكن بالرغم من كثرة عدد الدرجات الا أن المنظر من القمة كان يستحق مشقة الصعود • كانت الحجرات التى

---

(١) انظر كتاب البروفيسور رفيوت وعنوانه : Seconde Memoire sur les Blemmyes المنشور سنة ١٨٨٨ ، وذلك لمعرفة كيف أن تماثيل ايزيس وغيرها من الآلهة كانت تنتقل مرة كل عام من معبد فيلة للقيام برحلة الى اثيوبيا •

(٢) انظر الملحق الثالث لهذا الكتاب وعنوانه : العقيدة الدينية عند قدماء المصريين Religious Belief of the Ancient Egyptians.

في البرجين واسعة ولها نوافذ مائلة مثل فوهات صناديق البريد الضخمة الموضوعة على مسافات متساوية بطول المسار . وكانت تظهر من هذه النوافذ صوارى الأعلام والبيارق . وكان البرجان متصلين عن طريق شرفة واسعة ، وتمتلىء الحواجز العليا للبرجين بتوقيعات الأسماء المكتوبة حديثا والتى دونها الجنود الفرنسيون سنة ١٧٩٩ كتذكارات ، ولسوء الحظ فان أفاريز هذين البرجين العظيمين غير موجودة ، ولكن الارتفاع الكلى يبلغ ١٢٥ قدما بدونها . وعندما ينظر الانسان من أعلاها الى قلب المدينة ــ مثلما ينظر من منارة الجامع الكبير في دمشق ــ فانه سيشاهد مئات من الأكواخ المبنية من الطين والمسقوفة بسعف النخيل ، ومئات من الأفنية الصغيرة تقع متزاحمة تحت الأقدام . وقد كان الفلاح يعيش فى فنائه نهارا ، الا أنه يستخدم كوخه للنوم ليلا . وكنا ننظر الى أسفل كالشيطان الأعرج فنشاهد الأنشطة المعتادة لعالم خال من السقوف ، فنرى الناس يتحركون جيئة وذهابا غير شاعرين بالعيون الغريبة التى تراقبهم من أعلى . كان الرجال يتسكعون ، ويدخنون ، ويرقدون فى الأركان الظليلة ، والأطفال يلعبون ، والأحداث يزحفون على أربع ، والنساء يطبخن فى أفران من الطين فى الهواء الطلق ، والأبقار والأغنام تتغذى ، والدواجن تنبش الأرض وتلتقط الحبوب ، والكلاب تستدفىء فى الشمس . وكانت الأكواخ بدائية ولا تصلح لسكن الانسان . وظهر الجامع الصغير مع قبته الوحيدة ومئذنته القصيرة صغيرا وبعيدا مثل دمية مصنوعة من الصلصال . وتقع حقول الشعير وزراعات القطن وصفوف النخيل التى تنحصر فى جانب واحد من النهر ، خلف القرية الواسعة . أما فى الجانب الآخر فتحدها الصحراء ، ويشق طريق عريض تسير فيه الناس والماشية، مساره مستقيما خلال الأرض المزروعة وعبر السهل الرملى الذى يقع خلفها . ونستطيع أن نتابع مساره لعدة أميال حيث يظهر مثل خط مرسوم بآثار الأقدام فى الصحراء . وقد ذكروا لنا أنه يتجه الى القاهرة مباشرة . أما على الضفة المقابلة فتلمع أضواء مصنع أبيض للسكر ، وتقع فيلا ريفية تخص الخديو فى مكان تظلله الأشجار الخضراء . ويمضى مجرى النيل بينهما ، وتلمع تلال طيبة من خلال ضباب أبيض مثل اللؤلؤ يلمع فى الأفق .

وفجأة يهب نسيم متقطع فى شكل نفحات مثيرا للأتربة فى دوائر حول أقدامنا . وفى نفس اللحظة تهب من الصحراء القريبة ريح متموجة ونصف شفافة من الرمل الأصفر ، ويزداد ارتفاعها فى كل لحظة ، وتبدأ فى التحرك عبر السهل فى اتجاه الشمال . وفى نفس اللحظة تقريبنا

تظهر ريح أخرى على مسافة بعيدة فى اتجاه الجنوب ، بينما تأتى ريح ثالثة متسللة فى خفية بطول الضفة الأخرى • وبينما كنا نراقب الثالثة بدأت الأولى فى قذف نوع عجيب من ريش الطيور كان يتبعها وهو يتطاير ثم يضيع فى الهواء • والآن ، فان الريح الغربية القادمة من الجنوب تتقدم فى سرعة ناعمة وهائلة مرتفعة لمسافة ٥٠٠ قدم فوق صفحة الصحراء ، حتى اذا التقت بتيار معاكس ، انكسرت فجأة الى نصفين ، وأخذ النصف السفلى فى الاضمحلال ، بينما تعلق النصف العلوى فى الهواء لحظة ، ثم انتشر وطفا ببطء مثل سحابة • وفى نفس الوقت تشكلت هنا وهناك أساطين أخرى أصغر حجما ، وأخذت تقترب قليلا ، وتتمايل ، وتتفرق ، ثم تتجمع مرة أخرى ، ثم تضمحل ثانية وتستحيل الى تراب• ثم يضعف النسيم ويضع نهاية فاصلة لهذا المنظر الغريب • وفى أقل من دقيقتين تبدد عمود الرمال وانقشع فجأة بنفس الطريقة التى أتى بها •

وهذا هو المنظر الطبيعى الذى يحيط بالمعبد • وبعد كل شىء فان المعبد يمثل المنظر الذى يصعد الانسان الى هنا لكى يشاهده • انه يرقد بعيدا تحت أقدامنا ، الفناء بأرضيته المبلطة ، والسقف المتبسط ، والمركب من أحجار ضخمة ، والحائط الدائرى بنقوشه الشاملة ، والبهو بستارته وأساطينه وقد ظهر فى الضوء الساطع مقابل الأعماق الداخلية المظلمة ، ويمثل كل أسطون شعاعا من العاج ، كما يمثل كل مربع داخل الظلام كتلة من الأبنوس ، والبناء كله كامل وصلب وفخم ، مع أنه بسيط من حيث وحدة التصميم ، ومعقد من ناحية الزخرفة ، وعظيم من حيث الكمال مما يشعر الانسان بأنه قد حل مشكلة العمارة الدينية كلها •

ولنأخذه كما هو كبناء بطلمى سليم بكل كمال قوته وتشطيبه • ولا شك فى أنه أعظم معبد موجود فى مصر • انه يعرض أمامنا — بصورة أكمل من معبد دندرة — الغرض من انشاء أجزائه المختلفة ونوعية المراسم التى صمم من أجلها • ان كل ممر،وكل حجرة تحكى قصتها بنفسها ، وحتى أسماء الحجرات المختلفة قد نقشت فوقها بطريقة حكيمة بحيث يسهل استعادة بناء التصميم الأصلى للبناء كله بالمصطلحات الهيروغليفية(١)•ولابد من التسليم بأن المبانى والأساطير البطلمية لا يمكن قبولها كنماذج للفن المصرى الخالص أو الفكر المصرى الخالص ، فالاثنان قد اختلطا بالمؤثرات

(١) لم تدون أسماء الحجرات فقط بل ايضا ابعادها بالذراع واجزاء الذراع — انظر :
Intintraire de la Haughte Egypte. A. MARIETTE BEY, 1872, p. 241.

الاغريقية ، وابتعدا كثيرا عن النموذج الفرعونى ، ولكن لا توجد لدينا عينة كاملة من الطـراز الفرعـونى • ان الرمسيوم ليس الا قطعـــة كبيرة • أما الكرنك ومدينة هابو فهما تشــكيلة من عدة معــابد وعدة طرازات • أما معبد أبيدوس فمازال نصف مدفون • ونجد بينها الكثير غير الكامل ، والكثير المحطم ، بينما نجد أن الوحيد الذى يمثل بناء كاملا هو الطراز البطلمى بالرغم من أنه عديم الأهمية وأيضا عديم القيمة •

وبينما كنا نحلم بهذه الأشياء ونحاول أن نتخيــل مظهرها ، جاء الأسطول المقدس الصغير وهو يكنس النهر هناك • وتقدم موكب حور ــ حــات لاستقبال الآلهـــة القــادمة كضيف • وكنا نتـــوقع رؤية كل الحشد اللامع وهو ينصب خارجا : الكهنة فى ثيابهم المصنوعة من جلد الفهد الأسود ، والكاهنات يحملن الصلاصل الرنانة ، والمغنون ، وعازفو القيثار ، وحاملو التقدمات والشعارات ، وكبار الموظفين خلف قارب الاله المقدس • وفى هذه اللحظة يظهر مؤذن معمم فوق الشرفة الخشبية العليا المخلعة من المئذنة الصغيرة ويؤذن لصلاة الظهر • وقد انتهت هذه الصيحة المشوبة بالأنين قبــل أن نشــاهد الرجال هنا وهنــاك وهم يدورون بين الأكواخ ويتخذون اتجاه الشرق ويصطفون فى وضع الصلاة • واستمرت النساء فى طبــخ الطعام ، وارضــاع أطفالهن • وقد شاهدت السيدات المسلمات أثناء الصلاة فى مساجد اسطنبول ، ولكننى لم أشاهدهن فى مصر •

وفى نفس الوقت شاهدنا بعض الأطفال الذين لم يعرفوا أننا ترتفع عنهم بمسافة تصــل الى خمسة وعشرين ومائة قدم فانفجروا فى صوت مرتفــع طالبين « البقشيش ! » •

والآن نهبط بعد أن ألقينا نظرة أخيرة طويلة على المعبد والمنظر الذى وراءه وذهبنا لمشاهدة معبد صغير قبيــح دفنت ثلاثة أرباعه فى صحراء مجدبة بين التلال القريبة • وهذه التلال التى تتكون كلها فى الغالب من أنقاض الطوب اللبن ، مع قطع راسخة من الحجر والفخار ، قد بنيت مثل الشعب المرجانية ، وتمثل مكان اقامة حوالى ستة أجيال ، وعندما قطعت مستقيمة كما هو الحال هنا حول المعبد الكبير كانت مادتها تشبه فطيرة البرقوق الدسمة •



الفصل الحادى والعشرون

طيبـــــة

لقد صارعنا القدر فترة طويلة حتى صعبت علينا الاستفادة بحظنا السعيد عندما حملتنا ريح الجنوب من ادفو الى الأقصر فى مدة يومين فقط . لقد عدنا لنجد أن موضع الرسوة القديم غاص بالذهبيات ، ومزخرف بالأعلام الانجليزية والأمريكية الملونة وتكاد أعلام هاتين الجنسيتين أن تقتسما النهر فيما بينهما ، وقد أحصينا من بين كل خمسة وعشرين قاربا ، اثنى عشر قاربا انجليزيا ، وتسعة قوارب أمريكية ، وقاربين ألمانيين وقاربا بلجيكيا ، وقاربا فرنسيا . ومن بين هذه القوارب جميعها كان أولاد عمومتنا الأمريكيون متعاونين ومسرعين الى المساعدة ، ومفعمين بالود مما جعلنا تسعد بلقائهم . وكان علمهم بالنسبة لى دليلا على وجود حشد كبير من الرفاق الشجعان والكرماء واللطفاء . وقد أعادت لى صحبتهم ذكريات أراض ووجوه عديدة ، واستدعت أيضا أصداء أصوات حميمة بعضها بعيد جدا ، وبعضها واحسرتاه صامت ! . وسواء أكانت هذه الأصوات على ضفاف النيل ، أم على ضفاف التيمز ، أم أعالى البحار ، أم بين أراضى المعسكرات السورية ، أو مدلاة فى فتور من شرفات المبانى الدبلوماسية المظلمة فى المدن القارية — فان قلبى لدى رؤيتهم كان يشعر بدفء العلم الأمريكى .

وعند وصولنا صعد جميع تجار الأقصر الى السطح . لقد تربصوا بنا وتبعونا حيثما ذهبنا ، بينما جلس عدد من أفضل نوعياتهم وهم رجال جادون يرتدون ثيابا سوداء طويلة وعمائم ضخمة ، فوق السطح السفلى لذهبيتنا ، وقضوا فى مكانهم هذا أسبوعين ، واذا أراد الانسان الصعود الى السطح العلوى سواء قبل الافطار فى الصباح ، أو بعد العشاء فى المساء ، فقد كنا نجدهم هناك صبورين ، وثابتى الجنان ، وعلى استعداد للقيام وأداء التحية ، وبعد ذلك يخرجون من بعض الجيوب الخفية ، حفنة من الجعـــارين ، أو حزمة من التماثيل الجنازية ، وكان بعض هؤلاء

السادة أعرابا ، وبعضهم الآخر أقباطا ، ولكنهم جميعا كانوا مهذبين ، وحججهم مقنعة ، ولكنهم كذابون .

وعندما يمارس الأقباط والأعراب نفس التجارة المشكوك فيها ، فليس من السهل ان تحدد ظلال الاختلاف في معاملاتهم . ويتميز الأقباط بالدقة كعمال ، ولكن الأعراب أقل اخلاصا كبائعين . والاثنان كلاهما يبيعان آثارا مزيفة أكثر من الآثار الأصلية . ومهما كان الطلب فانهم على استعداد للاستجابة . وبالنسبة لهم فان تمثال تحوتمس ليس ثقيلا ، وتمثال كليوباترة ليس خفيفا . وقد نفذت أعمالهم المنحوتة من خشب الجميز ، وتماثيلهم الخزفية الصغيرة ، ولوحاتهم الهيروغليفية المصنوعة من الحجر الجيرى ، بمهارة يصعب كشفها . أما عن الجعارين الأصلية التى من العصور القديمة فانها تباع بالدستة في كل موسم . ويتم نحتها وتلميعها وتثبيتها على أجسام الديوك الرومية فى شكل تعاويذ تجلب الحظ ، ويكتسبون عن طريق هذه العملية درجة كبيرة من الاحترام تثير المرح .

والى جانب عملية الانتاج تدور عملية التنقيب ، فالحفارون المتخصصون يحتلون البر الغربى . انهم يعيشون بين الجبانات ويسوقون الحمير أو يشغلون الشواديف نهارا ثم يقضون لياليهم يبحثون عن الكنوز . وتعيش بضع مئات من العائلات بهذه الطريقة الصارمة ، يسلبون جثث الموتى المصريين جريا وراء الربح القبيح .

وفى نفس الوقت يتضامن المزيفون والحفارون والبائعون بالتحالف مع بعضهم البعض لادارة تجارة صاخبة ، انهم يحاصرون الذهبية كما شرحت منذ لحظة رسوها حتى اللحظة التى تدفع فيها بعيدا عن الشاطيء . ان الولد الذى يسوق حمارك ، والمرشد الذى يقودك بين المقابر ، والفلاح نصف العارى الذى يخفض فأسه عند مرورك ويجرى بجوارك لمسافة ميل عبر السهل ، لديهم جميعا « أنتيكة » يبيعونها لك . أما الموظف المعمم الذى يحضر وفى صحبته سكرتيره وحامل غليونه ، لزيارتك بهدف التعارف ، فانه يحذرك من الخداع ، ثم يلمح الى الكنوز الأصلية التى لا يملك مفتاحها أحد غيره . والمواطن الوجيه الذى يجلس معى عند الغداء ، يحمل فى جيبه جعرانا عجيبا . وباختصار ، فان كل رجل ، وامرأة ، وطفل يعيش فى المنطقة ، يرغب فى مساومتك على شراء شيء والمساومة فى تسعة وتسعين فى المائة من الحالات عظيمة لدرجة أنها

تعرض صناعة الأقصر ، وليس غير ذلك · وبالطبع فانه من المفضل أن تنزل بين الحين والآخر ، ولكن الأفضل هو ألا تخرج الى السطح لأنك ستجد السوق عندك فى أسوأ الأحوال · ولا يظهر التاجر أفضل ما عنده الا عندما يجد أنه يتعامل مع مشتر مدرب ·

وتزدهر تجارة مصنوعات الأقصر كما هى ، مع بعض القيود غير المريحة · والتنقيب الخاص محظور ، ويعيش الحفار خائفا من أن يكتشفه الحاكم · أما المزور الذى ليس عنــده ما يجعله يخشى الحاكم فهو يعيش خائفا من أن يكتشفه السائح · أما عن البائع سواء أكان يبيع أثرا حقيقيا أم مقلدا فهو أيضا عرضة للعقاب ؛ لأنه يرتكب مخالفة ضد السلطة من جهة ، ومن ناحيــة أخرى يتكسب نقوداً باستخدام الادعاءات الكاذبة · وفى نفس الوقت فان الحاكم يعالج مثل هذه النوعية من القضايــا بقدر استطاعته ، ويبذل ما فى وسعه لتطبيق القانون على كلا جانبى النهر ·

وقد دخلت السيدة (ل) والكاتبة فى احــدى المرات ورشــة أحد المزورين · ولما كنا لا نعرف أنها قد أغلقت فقد ذهبنا الى منزل معين كانت تشغله احــدى القنصليــات فى وقت من الأوقــات · وطلبنــا السماح بالدخول ، وفتحت الباب فلاحة عجوز صماء · وبعد القليل من التردد أدخلتنا الى حجرة ضخمة خالية من الأثاث وبها ثلاث نوافذ · وقد وضعت أمام كل نافذة دكة مستطيلة تناثرت فوقها الجعارين والتعاويذ والتماثيل الجنــازية وهى تمر بكافة مراحــل تصنيعها · وقد فحصنا هذه العينات بكثير من الفضول · كان بعضها من الخشب ، وبعضها من الحجر الجيرى، وبعضها ملون جزئيا · وكانت الألوان والفرشاة موضوعة هناك ومعها المبــارد ، والمثاقب ، وأدوات أخرى صغيرة مدببة مثــل المخارز · وكان هناك نوع فاخر من الزجاج الذى يستخدمه النحاتون موضوعا فى حنية احدى النوافذ · وقد شاهدنا أيضا حجر مسن صغيرا مركبا على احدى الدكك ، وهو يعمل عن طريق دواسة ، بينما كانت هناك فى أحد الأركان قطعة ضخمة من صندوق احدى المومياوات خلف الباب عرفنا منه المصدر الذى يحصلون منه على أخشاب الجميز القديمة لعمل العينات الخشبية · وكان العمال الثلاثة المهرة المزودون بالأدوات الأوربية،منهمكين فى عملهم بهذه الحجرة قبل دخولنا اليها حيث تم اخلاؤها تماما · واستنتجنا أنهم ذهبوا لتناول الافطار ·

وفى نفس الوقت انتظرنا متــوقعين أن يقتــادونا للدخــول الى القنصل · وفى حوالى عشر دقائق وصل أعرابى يرتدى ثيابا فاخرة وهو

مقطوع الأنفاس بسبب قدومه مسرعا ، ولم نكن قد رأيناه من قبل • وكان حائرا ما بين أدبه الشرقى ، وبين رغبته فى التخلص منا ، فأخرجنا بسرعة موضحا أن أصحاب المنزل قد تبدلوا وأن الحاحنا فى السؤال قد حال دون وصولنا الى الأقصر • وسمعناه يوبخ المرأة العجوز بشدة بمجرد أن تم اغلاق الباب خلفنا • وقد قابلت هذا الأعرابى الذى يلبس الثياب الفاخرة بالقرب من منزل الحاكم بعد ذلك بيوم أو يومين ، وفى الحال اختفى فى أقرب ركن اليه •

وتحتفظ سلطات متحف بولاق بجماعة صغيرة من الحفارين المدربين الذين يعملون بصفة مستمرة فى جبانة طيبة ، ويشرف الحاكم على هؤلاء الحفارين ، وترسل كل مومياء يعثر عليها مغلقة الى متحف بولاق • ونشكر أريحية الحاكم الذى سمح لنا فى صباح أحد الأيام بحضور افتتاح احدى الجبانات ، وقد طلب حضورنــا عندما كنا على وشك تنــاول الافطار ، فركبنا القارب بنشاط • ويمكن أن تتخيل بسهولة كيف أننا تناولنــا نصف افطارنــا فى القــارب والنصف الآخر ونحن على ظهور الحمير • وأتذكر جيدا ركوبنــا مبكرين فى صباح هذا اليوم ، عبر سهل طيبــة الغربية • وكان الشــعير حديث الانبات يلمع لعدة أميــال تحت أشــعة الشمس ، وقناة المياه الصغيرة تجرى بجوار الدرب ، بينما تحوم الفراشات البيضاء فى ثنائيات جميلة • وهناك المقبرة التى على جانب الطريق وقبتها الصغيرة ، وحصير الصلاة المفروشة على أرضها، وبئرها وقلتها المكسورة ، هذه كلها كانت تغرى المار بأن يدخل لشرب الماء وأداء الصلاة • وهناك أيضــا الكرمة البرية التى كانت تمتد بطول الحائط ، وأزهار البنفسج اللامعة التى ظهرت بدون دعوة وسط الشــعير • وكانت تلال وبوابــات مدينة هــابو على يسارنــا ، بينما كانت خرائب الرمسيوم على اليمين • وكانت فسحة السهل والجبال الغربية الوردية اللون أمامنا طوال الطريق، وكانت التماثيل الضخمة متوهجة فى ضوء النهار ، وهى ترتفــع مقابل السماء الزرقاء الناعمة ، وقد اتخذت وضع الجلوس القديم وهى محطمة وبلا ملامح ، كما لو كانت حزينة على الربيع الذى تلاشى •

وقد وجدنا المقبرة الجديدة على بعد عدة مئات من الياردات خلف الرمسيوم • وكان الحفارون فى داخل الحفرة ، بينما وقف الحاكم وعدد قليل من الأعراب وهم يتطلعون • وكان القبو مسقوفا بالطوب اللبن ، ومحفورا بشكل مربع فى الصخرة السفلية • وقد وصلنا فى الميعاد لأنه سرعان ما ظهرت حواف شىء مدفون من خلال الرمال والأنقاض التى كانت

الحفر بحثا عن الموميأوات

تملأ المقبرة • وبعد أن ألقى الرجال بالمجاريف والمعاول جانبا بدءوا في رفع التراب بأيديهم ، وخرج تابوت المومياء مرسوما فوق غطائه جسد مسجى بطوله واليدان متقاطعتان على الصدر • وقد حفرت كلتا اليدين والوجه حفرا بارزا • وكان التابوت أبيض اللون من الداخل (١) وقد غطى سطحه بأساطير هيروغليفية وأشكال ملونة خشنة تمثل الآلهة الأربعة التى تقوم برعاية الموتى • أما الوجه فكان مثل اليدين ، ملونا باللون الأصفر الغامق ، ولامعا بشكل رفيع • ولكن الألوان كانت غامقة وصارخة وغطت السطح قشرة رقيقة هنا وهناك • وكان التابوت كاملا بنفس الحالة التى كان عليها عندما وضع فى المقبرة • وقد وضع صندوق خشبى عند أقدام المومياء • وتم استخراج هذا الصندوق أولا وتسلمه الحاكم الذى وضعه جانبا دون أن يفتحه ، ثم رفع تابوت المومياء ونصبه على حافة الحفرة ثم وضعه على الأرض •

وقد أصبت برعدة عندما شاهدته كما كان موضوعا عندما تركه النائحون ، ثم سحب بالأيدى لكى يتم فحصه وفك لفائفه ، وربما كسره لأنه لا يستحق أن يحتل ركنا ضمن مجموعة متحف بولاق ، لأنه بعد الانتهاء من تسجيله وتبويبه فى المتحف يأتى الناس لمشاهدة هذه الأشياء بوصفها نماذج أو عينات ، ناسين أنها كانت فى يوم ما كائنات حية مثلنا • ولكن هذه المومياء الفقيرة كانت تبدو فى صورة انسانية مفزعة ، وقد رقدت فى قاع مقبرتها فى ضوء النهار مثيرة للشفقة •

وبعد رفع التابوت الى خارج المقبرة ، وجدت بين الأنقاض كوب صغيرة من الخزف الأزرق وكرة من نفس المادة وشىء آخر صغير على شكل ثمرة الكريز • وكانت هذه الأخيرة مجوفة ، وتحتوى على مادة كانت تصدر صوتا عند تحريكها • ثم نقلت المومياء والتابوت الخشبى وهاتان اللعبتان الخزفيتان الى اسطبل قريب • وبعد أن كشف الحفارون عن شىء يشبه فوهة نفق من الطوب فى جانب المقبرة ، بدءوا فى العمل مرة أخرى

---

(١) لا شك فى أن هذا التابوت قد دفن خلال عصر الأسرة الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين وقد وصف ماريت طرازه كما يلى :

« Succèdent les caisses à fond blanc, autour de celles-ci court une légende en hiéroglyphes de toutes couleurs. Le devant du couvercle est divisé horizontalement en tableau où altirnent les représentations et les textes tracés en hiéroglyphes verdâtres. La momie elle-même est hermétiquement enfermée dans un cartonnage cousu par derrière et peint de couleurs tranchantes. » — *Notice des Monuments à Boulak*, p. 46. Paris, 1872.

بسرعة • وأظن أنه كان يجرى الآن اكتشاف عقـد آخر أو سـلسلة من العقود المحفورة فى الأرض •

وفى نفس الوقت ذهبنا بعيدا لعدة ساعات ، وشاهدنا بعض المقابر الملونة المشهورة فى هذا الجزء من جانب الجبل المرتفع المعروف باسـم الشيخ عبد القرنة • وكان الجو حارا ، والشمس تلمع فوق رؤوسنا ، والصخور تعكس الضوء والحرارة ، بينما كانت الأنقاض البيضاء اللون تلمع تحت أقدامنا • وكانت بعض القبور العالية هنـا محفورة على شكل ممرات ، وتظهر على البعـد مثل صـفوف من الفتحات التى يعيش فيها الحمـام • بينما يتغلغل بعضها الآخر فى حـواف الصـخور المنعزلة • والبعض منها يصعب الوصول اليـه ، ولكنها سـاخنة وخانقة بشـكل لا يحتمل • وقد قام بترميمها سير جاردنر ويلكنسون منذ نصف قرن ، وما زالت الأرقام موجودة فوقها • وقد ذهبنا فى هذا الصباح الى أرقام ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٥ •

وعندما كنت طفلة تأثرت بكتاب : The manners and Customs of the Ancient Egyptians وعنوانه:أساليب وعادات المصريين القدماء، وكذلك كتاب ألف ليلة وليلة The Arabian Nights ، حيث قرأت كل سطر من الطبعـة القديمة ذات الأجزاء الستة عدة مرات • وكنت أحفظ كل صورة من الصـور التى يبلغ عددها ستمائة صورة عن ظهر قلب • والآن وجدت نفسى فى وسط أصدقاء قدامى نصف منسيين • لقد كان كل موضوع من موضوعات هذه الحوائط العجيبة معروفا لى • ولم يكن هناك جديد أو غريب سوى الاطار الخارجى والألوان والرمال التى تحت الأقدام وانحدار الجبل فى الخارج • وتهيأ لى أننى قابلت جميع هؤلاء الناس اللطفاء ذوى البشرة البنية اللون منذ سنوات عديدة مضت ، ربما فى مرحلة سابقة من الوجود ، وأننى قد تمشيت معهم فى حدائقهم ، واستمعت الى موسيقى صلاصلهم ودفوفهم ، وشاركتهم فى ولائمهم • هنا الموكب الجنازى الذى أعرفه جيدا ، ومنظر المحاكمة بعد الموت حيث تقف المومياء فى حضرة أوزوريس ، وأرى قلب المومياء وهو يوزن فى الميزان • وهنا صائد الطيور القديم الذى لا أنساه وهو يجثم بين سيقان حشائش السمار ومعه سلته المليئة بالشراك الخـداعية ، وقد رفع يده الذابلة الى فمه ، بينما يتطـاير شـعره الخفيف مع النسيم • وأراه الآن وقد وضع نفسه فى جانب الفريسة ، ولكن هذا الفارق تاه عنى خلال قراءاتى فى مرحلة الشباب • وهنـاك أعرف ستوديو النحات الذى كنت

أتحسس النظر اليه في ذلك الوقت . وأرى رجاله يعملون بنشاطهم المعهود ، ولكنني عجبت لانهم لم ينتهوا بعد من تلميع سطح هذا التمثال المصنوع من الجرانيت الأحمر ، وصياد السمك الصبور الذى مازال ينتظر أن تتناول السمكة الطعم هو أيضا صديق قديم . وهناك أرى تلك الحفلة المسائية التى كنت دائما ضيفتها الخيالية . الم تنته الحفلة بعد ؟ وهل هذا القادم المتخلف عن الحضور قد وصل الآن الى ممر مجاور ام أنه لم يصل بعد ؟ وهل سيستمر الموسيقيون فى العزف حتى انتهاء المقطوعة ؟ وهل مازالت تلك السيدات مشغولات بالنظر فى طرازات الحلقان التى تضعها كل منهن فى أذنيها ؟ يبدو لى أن العالم قد توقف عن الحركة هنا خلال السنوات الخمس والثلاثين التى مضت . هل قلت خمس وثلاثين ؟ أظن أننا لابد أن نضرب هذا الرقم فى عشرة مرة ثم مرة أخرى ، وهنا نصل تماما الى الرقم الصحيح . لقد عاش هؤلاء الناس فى عصر تحوتمس وأمنحوتب . وهى فترة نظر اليها رمسيس الثانى مثلما ننظر نحن الى أيام أسرة تيودور وأسرة ستيوارت .

وبعد مشاهدة هذه المقابر المرتفعة عدنا الى الحفائر السفلية . لقد قادت الفتحة التى وجدها الحفارون وكما توقعوا ، الى قبو ثان به تابوت مومياء أخرى قد غطتها الأنقاض التى أزيلت منذ قليل . ووجدت مومياء ثالثة بعد ظهر ذلك اليوم . ومما يثير العجب أن المومياوات الثلاث كانت تخص ثلاث سيدات .

كان الحاكم يتناول غداءه ومعه المومياء الأولى فى حنايا الاسطبل التى كانت فى يوم ما مقبرة فخمة ولكن تنبعث منها الآن رائحة السماد العضوى . وكان يجلس متقاطع الساقين على سجادة صغيرة ، وأمامه سلطانية من اللبن الرائب وصينية من الفطائر غير الجذابة . ودعانى للجلوس على سجادته ، وأعطانى ملعقته ، وقام بواجبات الضيافة فى الاسطبل بسرور كما لو كان فى قصر .

وقد سألته لماذا لا يتغاضى الحفارون عن العمل فى هذه المقابر ذات الأهمية الثانوية ويبحثون عن مقابر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، التى من المفروض أنها فى انتظار من يكشف عنها فى واد معين يسمى وادى الغرب . فهز رأسه وقال ان الطريق الى وادى الغرب طويل ووعر . ولابد للرجال الذين يعملون هناك أن يعسكروا فى الموقع . ولن يكون تزويدهم بالطعام أمرا سهلا لأنه لم يسمح له فى الحقيقة الا بمبلغ يكفى أجور

خمسين حفارا فقط . ولن يكون من المفيد محاولة العمل في الوادي الغربي بما لا يقل عن مائتي حفار . وأتذكر أننا تناولنا الغداء في هذا الصباح مع (ل) ، (ب) في القاعة الثانية بالرمسيوم ، وهي القاعة التي كانت على هذا الجانب من النهر وكنا نتناول الافطار كل يوم في احدى المقابر التي في البر الغربي . ولكن هذا اللقاء ظـل محفورا في ذاكرتي دون غيره . انني أرى الجماعة السعيدة متجمعة في ظل الأعمدة الضخمة ، وقد انتشرت السجاجيد الفارسـية على الأرض غير الممهدة ، وكان الترجمان يتمشى جيئة وذهابا بملابسه التي تغرى بالتصوير ، بينما كان الأعراب ذوو البشرة البنية بملابسهم الرثة يجلسون القرفصاء على مسافة قريبة ، صـامتين ، وعيونهم جائعة وقد أمسك كل منهم بخيط يضـم جعارينه المزيفة ، وآلهته المقلدة ، أو قطع من توابيت المومياوات وعلب الكرتون الملونة للبيع . وكانت الملامح اللامعة لسطح الأرض تظهر هنا وهناك من خلال الأعمدة وقد امتدت الاطر الخشبية ذات الشـعارات التي تحيط بالأبواب ، من عمود الى آخر فوق رؤوسنا ، وقد نحتت فوق كل كتـلة خراطيش ضخمة ما زالت تلمـع بألوانها الحمـراء القرمزية والزرقاء اللازوردية . وقد تجمعت الحمير الصـابرة في أحد الأركان حول كومة صغيرة من الحشائش ، وامتدت فوقنا السماء الزرقاء بأعماقها الكثيفة . ويعتبر الرمسيوم أكثر الآثار الطيبية جمالا وقد غمرته أشعة الشمس فظهر الحجر الجيري الدافيء الذي بنى به وقد تحـول بمرور الزمن الى اللون الذهبي ، ولم يكن محدودا بالحوائط ، ولم تظلله الصروح المرتفعة ، ولكنه يرتفع شامخا . ويمر الهواء دائريا حول هذه الأعمدة البسيطة الجميلة . ولا توجد الكثير من الآثار المصرية التي يستطيع الانسان أن يتحدث ويسعد بينها ؛ ولكنه يستطيع أن يسعد بالساعة التي يقضيها في داخل الرمسيوم .

وسـواء كان رمسيس الأكبر قد دفن في هذا المكان أم لا ، فان هذه مشكلة قد تحلها الاكتشـافات المستقبلة ، ولكن الرمسيوم ومقبرة رمسيس هما شيء واحـد ، والمبنى نفسه عبارة عن بقعة لم أشـك في جاذبيتها . ومع قضاء يوم بعد يوم بين هذه الآثار ، ما بين الرسم هنـا وهناك ، والسير على الأرض خطوة خطوة وفحص كافة التفاصيل ، شعرت أخيرا بالغرابة لما يثور من الشك حول مثل هذه الشخصية الواضحة . ولا شك في أن ديودور الصقلي كان مخطئا ، لقد كنا نبحث عن الدقة فيما ذكره ديودور كما هو الحال بالنسبة لما ذكره هوميروس . ولكننا عندما فحصنا بعض الأوصاف الطبوغرافية التي ذكرها عن الرمسيوم وجدناها بالغـة الدقـة .

انه يصف مبنى (١) يصل اليه الانسان عن طريق فناءين واسعين ، والى بهو الاساطين عن طريق ثلاثة مداخل فى الفناء الثانى ، وسلسلة من الحجرات تتضمن مكتبة مقدسة ، وسقوفا ذات لون لازوردى « مرصعة بالنجوم » وحوائط مغطاة بالنقوش التى تبين أعمال وانتصارات الملك الذى أطلق عليه اسم أوسيماندياس (٢) والتى نلاحظ من بينها على وجه الخصوص مهاجمة قلعة « على مشارف نهر » ، وموكب من الأسرى المقطوعى الأيدى ، وسلسلة تضم جميع آلهة مصر الذين كان الملك يقدم اليهم القرابين ، وأخيرا فانه توجد مقابل مدخل الفناء الثانى تماثيل للملك ، أحدها مصنوع من الجرانيت ، وقد صنع فى وضع الجلوس • وهو ليس أعظم التماثيل المصرية ولكنه يحوز الاعجاب أكثر من الجميع « بسبب جمال صنعته ، وفخامة الحجر الذى صنع من مادته » •

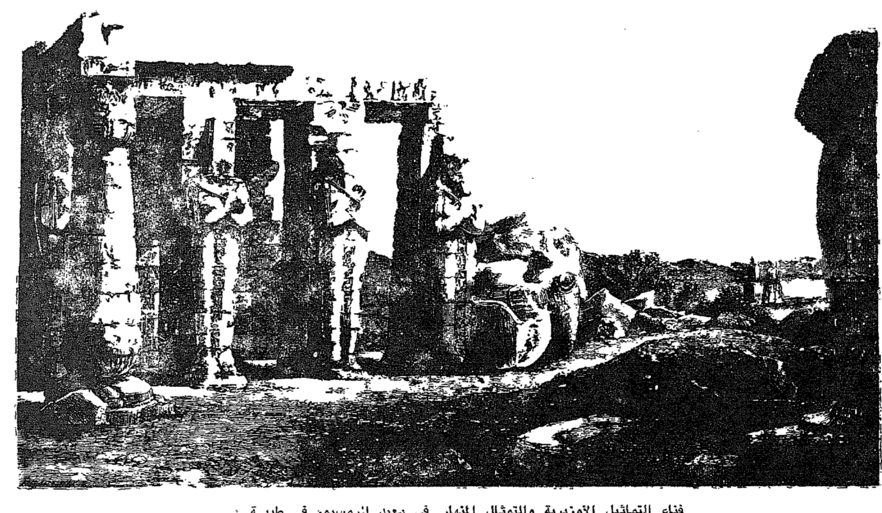
واذا وضعنا فى فكرنا أن ما بقى من الرمسيوم هو السلسلة الظهرية للبناء كله ، فاننا نستطيع أن نتمشى من بداية البناء الى نهايته ، ونظل نعرف كافة ملامحه • وسنديد ظهورنا الى الأبراج المحطمة للصرح الأمامى ، ونعبر ما كان يعتبر فناء فى يوم من الأيام ، ونترك التمثال الضخم الساقط الى يسارنا ، وندخل الى الفناء الثانى ، ونرى أمامنا المداخل الثلاثة الى بهو الأساطين ، وبقايا تمثالين آخرين ، ونسير فى الممر الرئيسى بالقاعة الكبرى ونرى فوق رؤوسنا الأطر الخشبية المحيطة بالأبواب والمطعمة بنجوم صفراء فوق أرضية ملونة باللون الأزرق البراق الذى يضاهى لون السماء ، ثم نعبر من خلال حجرة بها صفوف من النقوش، ونصل الى المكتبة التى وجد شامبليون على عارضة بابها الرأسية صورتى تحوت وساف أى سيد الخطابات ، وسيدة الكتب المقدسة (٣) وأخيرا وجدنا بين شظايا الزخارف المنحوتة الباقية صورة الملك وهو يقدم التقدمات الى قائمة مكتوبة بالهيروغليفية تشمل الآلهة وأجداده السالفين•

---

(١) انظر : Diodorus, Biblioth. Hist الكتاب الأول ـ الفصل الرابع • ويجب ان ينسب خطأ عدم الدقة الى هيكاتايوس وهو الذى يمثل السلطة التى سار خلفها ديودور •

(٢) من المحتمل أن يكون سميندس Smendes الذى ذكره مانيثون او با ـ ان ـ ديد ، الذى وجد بروجش خرطوشه فوق ناووس محفوظ بمتحف فيينا • انظر : Hist. d'Egypte ـ الفصل العاشر ـ ص ٢١٣ ، طبعة ١٨٥٩ وهناك مدع اخر لهذا التعريف وهو ملك يسمى سى ـ منتو ، وجد مارييت خراطيشه فوق بعض اللوحات الذهبية فى تانيس •

(٣) الخطاب رقم ١٦ ، ص ٢٢٥ من مجموعة : Lettres d'Egypte التى نشرت فى باريس سنة ١٨٦٨ •



فناء التماثيل الأوزيرية والتمثال المنهار فى معبد الرمسيوم فى طيبة .

ونرى طابور الأسرى وكومة الأيدى المقطوعة (١) ونكتشف تسجيلا لمعركة هو فى حقيقته صورة طبق الأصل من تسجيل المعركة الموجود فى أبى سنبل · وهذا الموضوع يشبه اللوحة الأصلية النوبية ، ولكنه مازال محتفظا ببعض الألوان · ويظهر الأعداء بجلودهم البيضاء وشعورهم الخفيفة ، وقد ارتدوا نفس الثياب السورية ، ويظهر النهر هنا بلون أكثر خضرة من مثيله المرسوم فى أبى سنبل ، كما أنه مرسوم بنفس الطريقة فى شكل خط متعرج (زجزاج) · ويظهر الملك بمفرده فى عجلته الحربية وهو يطلق السهام المتتالية ضد العدو الهارب · ونرى الأعداء يقفزون فى النهر ويسبحون لانقاذ حياتهم · لقد غرق بعضهم بينما عبر البعض الاخر النهر سالمين ، حيث نالوا مساعدة رفقائهم الواقفين على الضفة الأخرى · وقد تم انقاذ رئيس ذى شعر أحمر وقد نكس جنوده رأسه الى أسفل لكى يفرغوا من فمه الماء الذى ابتلعه · والنهر هو نهر العاصى والمدينة هى أيضا مدينة قادش وكذلك فان الملك هو رمسيس الثانى والأحداث هى نفس أحداث قصيدة بنتاؤور ·

والنقطة التى لا يمكن اغفالها فى هذه القصة هى تمثال سينيت الضخم « أضخم التماثيل المصرية » (٢) أما الحصار والنهر وطوابير الأسرى فانها موجودة فى مكان آخر · ولكن لا يوجد تمثال بهذه الصفات فى أى مكان آخر · وهذا التمثال أضخم من التمثالين الموجودين فى السهل · ويبلغ عرضهما عند الكتفين ١٨ قدما ، و٣ بوصات · أما هذا التمثال فان عرضه عند الكتفين يبلغ ٢٢ قدما ، و٤ بوصات · والتمثالان

---

(١) انظر خطاب شمبليون رقم ١٤ ·

(٢) كان تمثال الرمسيوم الجالس هو بلا شك أضخم تمثال كامل فى مصر عندما زار تيودور الصقلى وادى النيل ذلك لأن تمثال تانيس الضخم الواقف كان قد تحطم بمعرفة شاشانق الثالث لأغراض تتعلق بالمبانى وذلك قبل زيارة تيودور بزمن طويل · أما تفوق تمثال تانيس على تمثال الرمسيوم من حيث الارتفاع والضخامة فهو يرتكز بلا شك على حجم الاجزاء التى اكتشفها مستر بترى أثناء حفائره سنة ١٨٨٤ · وكان تمثال تانيس طبقا لحساباته الحذرة يبلغ ارتفاعه ٩٠٠ بوصة أى ٧٠ قدما أو ما يتراوح بين ٧٥ ، ٨٠ قدما · وعلى ذلك ، يقول مستر بترى : « يجب أن نضيف ارتفاع التاج الذى يبلغ تقريبا ١٤½ قدم · ويجب أيضا أن نضيف الى ذلك قاعدة التمثال التى كانت اقل سمكا حيث بلغ سمكها ٢٧ بوصة فقط ، وعلى ذلك فان الكتلة كلها كان ارتفاعها يبلغ حوالى ١١٠٠ بوصة اى حوالى ٩٢ قدما · وعلى ذلك وكما هو معروف فان هذا التمثال هو أكبر تمثال فرعونى » · وقد حسب مستر بترى وزن التمثال فوجده حوالى ٩٠٠ طن أى بزيادة ١٠٠ طن عن وزن تمثال الرمسيوم · ولا شك فى أنه كان يقف على قاعدة مناسبة ، وبذلك فان ارتفاعه مع القاعدة التى لا يقل ارتفاعها عن ١٨ أو ٢٠ قدما يبلغ حوالى ١٢٠ قدما فوق مستوى سطح السهل · انظر كتاب : تانيس ــ الجزء الأول ــ الفصل الثانى ، ص ص ٢٢ ــ ٢٣ (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثالثة) ·

يجلسان بارتفاع يبلغ حوالى خمسين قدما بدون القاعدتين • ومازال ارتفاع رأس هذا التمثال يزيد عنهما بعشرة أقدام • ويقول تيودور ان « طول قدمه يزيد على سبعة أذرع » علما بأن الذراع الاغريقى يزيد طوله قليلا عن ١٨ بوصة • ويبلغ طول قدم تمثال رمسيس الساقط حوالى ١١ قدما وعرضه أربعة أقدام ، وعشر بوصات • وهذا هو أيضا التمثال الطيبى الوحيد المنحوت من حجر أسوان السينى (الجرانيتى) الأحمر (١) •

ولا يشك أحد فى أن هذا التمثال كان قبل تخريبه واحدا من عجائب الانجازات المصرية • ولابد أنه كان فى كافة تفاصيله تكرارا لتماثيل أبى سنبل ؛ ولكنه تفوق عليها من حيث تشطيب النحت وكمال الانجاز •

وكذلك فان لون الحجر نفسه أكثر جمالا بالمقارنة مع مسلات الكرنك الشهيرة ، وهو أقرب ومادته أصلب لدرجة أن صانعى الجعارين فى الأقصر يستخدمون شظاياه كما يستخدم نحاتونا الماس لسن أدواتهم التى يستخدمونها فى التقطيع • ويبلغ الوزن الكلى للمشتملات الصلبة حوالى ٨٨٧ طنا • فكيف نقلت هذه الكتلة المذهلة من أسوان ؟ وكيف رفعت ؟ وكيف أسقطت ؟ هذه كلها مشكلات ضاع حولها قدر كبير من التخمين الواسع المدى • ويؤكد السياح أن علامات الأوتاد التى استخدمها محطمو التمثال ظاهرة بوضوح • وقام آخرون بفحص الأطراف المكسورة وأعلنوا أن العين الثاقبة لا تستطيع أن تكتشف علامات الأوتاد أو أية علامات أخرى تدل على استخدام العنف • ولم نجد أيا من هذه العلامات أو الرموز • ولم نسأل أنفسنا أبدا ، كيف أو متى حدث التخريب الذى كان كافيا لاسقاط التمثال الضخم •

وحيث ان الانسان لا يستطيع أن يصعد ويقيس هذه الأجزاء الهائلة فان التمثال الساقط بوصفه حطاما أكثر اثارة للعجب مما لو كان سليما• وهنا درنا حول وسط التمثال ، وعدنا مرة أخرى خلف الرأس الضخم والكتفين لكى نتسلقها مثل تسلق الصخرة • وهناك بين أكوام من الأنقاض التى يصعب ادراكها نرى قدما ضخمة ، ونرى بالقرب من الرأس جزءا من الجذع الضخم مع النصفين العلويين من الفخذين الكبيرين تغطيهما النقبة القصيرة ذات الثنيات • وكذلك فان غطاء الرأس مخطط أيضا • وتتميز هذه الخطوط فى كليهما باللون الأصفر الرقيق الذى

---

(١) يمتلك المتحف البريطانى أيضا رأس تمثال جرانيتى وهو المعروف على المستوى الشعبى باسم ممنون الصغير ، ويبلغ ارتفاعه ٢٤ قدما قبل أن يكسره الفرنسيون •

كان يغطيها فى الاصل · ولكى نحكم على الطريقة التى تم بها هذا التلوين نقول ان التمثال قد غطى بألوان خفيفة وليست ثقيلة · ونجد أن هذه التغطية بالنظر الى الأماكن التى بقيت فوقها ، ناعمة وجيدة التشطيب مثــل تقطيع الجواهر الثمينــة · وحتى أرضية الخرطوش الرائع على النصف العلوى من الذراع قد جرى تلميعها بشكل محكم · وأخيرا فان القاعدة الضخمة ترقد فى الحفرة التى حفرتها أثناء سقوطها وقد نقشت عليها الألقاب الرنانة للملك رمسيس محبوب آمون · ونظرا لأن ديودور لم يعرف شيئا عن رمسيس أو أسلوبه فانه يفسر النقش حسب أسلوبه الخيــالى :

« أنا أوسيماندیس ملك الملوك · اذا أراد أحــد أن يعرف مقدار عظمتى ، وأين أقيم فعليه أن يبحث عنى فى أعمالى » ·

وتواجه قطع الحائط والبوابة العظيمة المحطمة التى ما زالت قائمة فى الرمسيوم ، الشمال الغربى والجنــوبى الغربى ، ويلى ذلك أن معظم نقوش السطح ذات الأهمية (المحفورة حفرا غائرا جدا) قد نقشت مع مراعاة الضوء بحيث لا تظهر بعد منتصف النهار · ولم أنجح فى تمييز شكل واحد من أشكال هذه اللوحة الاحتفالية التى على الحائط الجنوبى للصالة الكبرى ، ويظهر فيها المصريون وهم يستخدمون غطاء من الدروع، وسلما متدرج المراحل لمهاجمة قلعة سورية ، الا خلال زيارتى الأخيرة عندما حضرت مبكرة فى الصباح لعمل رسـم تخطيطى معين فى ضــوء معين (١) · أما النقوش الجدارية التى فى القــاعة الثانية فهى مرسومة حسب مقيــاس أكبر وأكثر سمكا ويمكن مشاهدتها فى أية ســاعة من ساعات النهار · ونرى الاله تحوت هنا وهو يكتب اسـم رمسيس على ثمرة شجرة اللبخ التى تشبه البيضة ، ومراكب كهنة حليقى الرؤوس يحملون على أكتافهم القوارب المقدسة للآلهة المختلفة ، وقد وضــع فى وسط كل قارب عرش تحمله جنيات مجنحة تشبه ملائكة الشاروبيم · وقد ظهرت بوضوح الستائر التى فوق هذه العروش ، والحلقات التى تمر منها القضبان الحاملة للقوارب وكافة أثاثات وزخارف القــارب · وأحسست هنا بأننى قد حظيت فى لمحة خاطفة بمشاهدة تلك العروش

---

(١) انظر الرسم المطبوع من حفر على الخشب فى كتاب سير ج· ويلكنسون وعنوانه :
أساليب وعادات المصريين القدماء Manners and Customs of the Ancient Egyptians ـ المجلد الأول ـ طبعة سنة ١٨٧١ ·

الأصلية التى جلس عليها موسى لكى يدرس التراث الدينى المصرى القديم، وفيما بعد صنع تابوت العهد على مثالها مع تغيير طفيف (*) ٠

وتلى الكرنك فى الأهمية المجموعة الضخمة من المبانى المعروفة بالاسم الشامل : مدينة هابو ٠ واذا حاولنا وصف هذه المبانى فاننا سنقوم بعمل ميئوس منه تماما مثل وصف الكرنك ٠ ومثل هذه المحاولة تخرج فى جميع الأحوال عن حدود هذه الصفحات التى خصصنا العديد منها لموضوعات أخرى مشابهة ٠ لأن المعابد مثل الجبال لا يوجد منها اثنان متشابهان ولكنها جميعها تبدو متشابهة عند وصفها لأنه من الصعب الكتابة عنها دون الاحساس بالملل ، ولذلك فاننى سأكتفى بتدوين بعض النقاط المهمة٠وأحيل هؤلاء الذين يريدون تفاصيل أشمل الى حكاية مدينة هابو المستفيضة كما أوردها موراى فى كتابه Hand Book of Egypt وبالنسبة لاسم مدينة هابو ، فان الجزء الأول منه هو الاسم العربى الذى يطلق على بلدة كبيرة (مدينة) أما الجزء الثانى (هابو) أو حابو أو تابو الذى ينطق بطرق مختلفة فهو يعنى بدون شك الاسم القديم لتلك المدينة المشهورة التى أسماها الاغريق : طيبة ٠ وهو اسم له اشتقاقات كثيرة (١) ولكن الدارسين لم يقتنعوا بها (*) ٠

وتتكون أطلال مدينة هابو من معبد صغير أنشأته الملكة هاتوهبسو Hatohepsu (**) من الأسرة الثامنة عشرة ومعبد آخر ضخم بناه

(★) جنح الخيال كثيرا بمؤلفة هذا الكتاب فى مواضع كثيرة منه مما دفعها الى العديد من الاستنتاجات والتشبيهات غير الدقيقة ومنها هذا الادعاء الذى تدعيه على النبى موسى ، ذلك لأن تابوت العهد قد صنع ليس حسب نموذج فرعونى ، ولكن تنفيذا لأمر الهى أملى عليه بالوحى كافة التفاصيل ٠ انظر فى ذلك الاصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج الذى أمر الله فيه موسى بصنع التابوت حسب الأوصاف التى وردت فى هذا الاصحاح الذى يبدأ بالآية الأولى القائلة : « وكلم الله موسى قائلا » ـ (المترجم) ٠

(١) من بين هذه الاشتقاقات الاسم أبوت بمعنى مسكن أو مأوى آمون والاسم تا ـ يو ـ آبو ، ومعناه تل ، والاسم تا ـ ابى ومعناه الرأس أو العاصمة ٠٠ الخ ، انظر كتاب ٠ Recherches sur le nom Egyptien de Thebes. للعالم شاباس نشر سنة ١٦٨٢ وكذلك مقالا عنوانه .Textes Géographiques d'Edfu للعالم ج٠ دى روجيه نشر فى سلسلة :

Revue Arch. Nouvelle Série ـ المجلد الثانى عشر ـ السنة ١٨٦٥ ٠٠٠ الخ ٠٠

(★) هابو تحريف لاسم حابو نسبة للمهندس الشهير أمنحتب بن حابو الذى عاش فى أيام الملك أمنحتب الثالث وقام ببناء معبده الجنازى الذى يتقدمه تمثالا ممنون ـ (المراجع) ٠

(★★) المقصود بها الملكة حتشبسوت ـ (المراجع) ٠

كلـه الملك رمسيس الثـالث من الأسرة العشرين · ومبنى غريب ومثير استخدم جزء منه كقصر وجزء اخر كقلعه وهو مشهور باسم الجناح ·

ويتوج حوائط هذا الجناح وحوائط القاعة الأمامية التى تقود الى المعبد الصغير ورُكن من الحائط الاصلى للدائرة ، حسب النموذج المصرى ـ شرفات فى السور على شكل دروع للدفـاع تماما مثل شرفات القـلاع الحيثية والأمورية التى تظهر فى اللوحة المحفورة فى أبى سنبل وغيره من الاماكن · وعندما تقترب الى مدينة هابو من أى اتجاه ، فان هذه الدروع الحجرية تصدم العين بوصفها من الملامح الجديدة والمثيرة · وعلاوة على ذلك فانها على قدر علمى ، هى العينة الوحيدة للشرفات الدفاعية المصرية التى نجت من التخريب · وقد بنيت تلك الشرفات التى على حائط الدائرة على أيام رمسيس الخامس ، أما تلك التى على حائط الجناح فقد بنيت على أيام رمسيس الثالث · أما الأخيرة التى على حائط القاعة الأماميـة فهى تعود الى أيام الاحتلال الرومانى ·

واذا نظرنا الى الجانب التاريخى فان المعبد والجناح اللذين بمدينة هابو وبردية هاريس العظيمة (١) تنتسب كلها الى عصر رمسيس الثالث

---

(١) وصف الدكتور بيرش بردية هاريس العظيمة بأنها « واحدة من أفخم وافضل ما اكتشف فى مصر من الكتابات التى حفظت من الضياع ، ويصل طولها الى ١٢٣ قدما ، وعرضها ١٦¾ بوصة · وقد وجدت ضمن برديات أخرى فى مقبرة خلف مدينة هابو ، وقد اشتراها الراحل ا· س· هاريس بالاسكندرية وتم فضها وتقسـيمها فيما بعد الى تسـع وسبعين ورقة . وحفظت فى صندوق من الكرتون ، وفيما عدا بعض الأجزاء الصغيرة الناقصة فى الورقة الأولى فان النص كامل تماما » · وتتضمن البردية خطابا للملك رمسيس الثالث يعدد فيه الفوائد التى استفادتها مصر من ادارته لها وتخليصه اياها من السيطرة الأجنبية · وتسجل ايضا العطايا الضخمة التى وهبها للمعابد المصرية مثل معبد آمون فى طيبة ومعبد أتوم فى هليوبوليس ومعبد بتاح فى منف ·· الخ · « والجزء الأخير موجه الى ضباط الجيش الذى يتكون بعضه من مرتزقة قادمين من سردينيا وليبيا ، والى شـعب مصر فى السنة الثانية والثلاثين من حكمه ، وهو نوع من احاديث المديح أو الوصايا السياسية مثل ذلك الحديث الخاص بالامبراطور أغسطس الذى اكتشف فى انكيرا Ancyra أما البردية نفسها فانها تتكون من الاقسام التالية التى سبق ثلاثة منها الزخارف الملونة التى تملأ صفحات كبيرة : ـ مقدمة ـ العطايا المقدمة الى الهة طيبة ـ العطايا المقدمة الى الهة هليوبوليس ـ العطايا المقدمة الى الهة منف ـ العطايا المقدمة الى آلهة الشـمال والجنوب ـ ملخص للعطايا ـ الحديث التاريخى والخاتمة · وقد تحدث الملك بنفسـه عن القائمة دون استثناء · انظر Introduction to Annals of Rameses III نشرها بيرش فى مجلة : Records of the Past ـ المجلد السادس ـ ص ٢١ ، سنة ١٨٧٦ ·

مثلما ينتسب أبو سنبل والرمسيوم وقصيدة بنتاؤور الى أيام رمسيس الثانى ، فالحروب العظيمة والانتصارات العظيمة والمدائح العظيمة التى نظمت فى بطولة الملك والقوائم الضخمة التى تشتمل على الأعداء الذين ذبحوا وأسروا ، وقوائم جرد محتويات العطايا المسلوبة والثمينة التى قدمها الملك المنتصر الى الآلهة المصرية ، تغطى الحوائط المنقوشة وتملأ الصفحات المكتوبة فى كلتا الحالتين • واذا قارنا بين مجموعتى البراهين فسنجد أن كلا الأسلوبين قد أظهر بلاغة أسلوب الكتابة الشرقى الذى يجعلنا بالنسبة للملك رمسيس الثالث ، نتعـامل مع ملك لامع جرىء وناجح مثل رمسيس الثانى (١) •

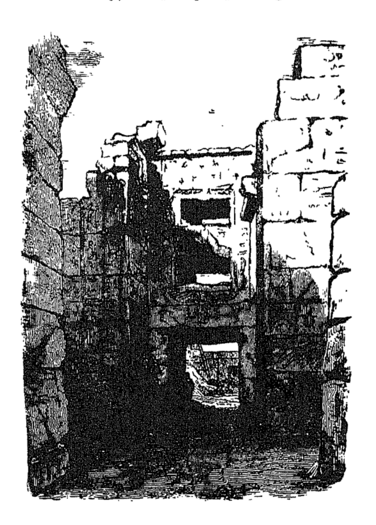
وربما استخدمت قبل عصر هذا الفرعون معابد معينة لاقامة الملك ، ومن المحتمل تصديق ذلك بالنسبة لمعابد معينة مثل القرنة وأبيدوس ، حيث يتضمن تخطيط كل منهما الى جانب القاعات المعتادة ، حجرات جانبية وهيكلا وعددا من الحجرات التى لا نعرف مجالات استخداماتها • ومن المحتمل أيضا أن يكون الملوك السابقون قد سكنوا فى مساكن مبنية من

---

(١) كان رمسيس الثالث أحد الملوك المشهورين فى تاريخ مصر ، وقد سبقت جلوسه على العرش فترة من الاضطرابات السياسية وسيطرة الأجانب على مصر وكان والد ست نخت قد نجح حقا فى طرد الغزاة الأجانب واعادة أسرة ملوك طيبة الوطنيـة وهى الأسرة الثانية والعشرون حسب ترتيب مانيثون ، ولكن رمسيس كانت أمامه مهمة صعبة خاصة وأنه استدعى للجلوس على العرش فى سن مبكرة ••• وكانت المهمة الأولى أمام رمسيس فى استعادة الحكومة المدنية وتنظيم الجيش • وفى العـام الخامس من حكمه هزم الماكسيين Maxyes والليبيين فى موقعـة عظيمة عندما قاموا بغزو مصر تحت قيادة خمسة من الرؤساء • وفى نفس السنة كان عليه أيضا أن يرث الساتو Satu أو الأجانب الذين هاجموا مصر من الشرق • ويبدو أن شعوب الغرب البحرية قد غزت فلسطين والساحل السورى فى العام الثامن من حكمه • وبعد الاستيلاء على قرقميش تقدم لغزو مصر تحالف مكون من البولوساتا Pulusata والتيكارو Tekkarv والصقاليـة Sakalusa والدانيين Tana·· أو Danai والأوسكيين ·sci • ومن المحتمـل أن يكونوا قد وصلوا الى بوابة الفرع الشرقى من النيل • ولكن رمسيس جمع جيشا فى طها Taha شمال فلسطين وعاد للدفاع عن النيل • وقد أوقع هزيمة شنعاء بالحلفاء الغربيين بمعاونة قواته المرتزقة ، ثم عاد بالأسرى الى طيبة • وفى السنة الحادية عشرة من حـكمه قام الماكسيون والليبيون بغزو مصر مرة ثانية لكى ينالوا هزيمة ثانية • ومنـذ تلك الفترة عاشت البلاد فى حالة من الهدوء ••• ومازال المعبد الضخم فى مدينة هابو ، وقصوره وخزينته باقية شاهدة على عظمته • واذا كانت حياته العادية هى حياة أى ملك مصرى عادى لقد كان يعيش كما هو معروف فى ميدان القتال مثلما يعيش فى القصر • ولا شك فى أن الخيانة العظمى قد أقلقته فى أيامه الأخيرة ولا نعرف الكيفية التى مات بهـا ، لكنه تنحى بعد حكم دام واحدا وثلاثين عاما وعدة شهور ، وترك العرش لابنـه حـوالى سنة ١٢٠٠ ق•م• انظر Remarks upon the cover of the Granite Sarcophagus of Ramses III • بقلم س• بيرش ـ نشر فى كامبردج سنة ١٨٧٦ •

الطوب اللبن وأشغال الخشب المحفور مثلما نرى فى النقوش الجدارية فى العديد من المقابر .

والحقيقة أن المبنى الوحيد الذى نستطيع القول بأنه كان قصرا ملكيا والذى ظلت بعض آثاره باقية حتى يومنا الحاضر ، هو الذى أقامه رمسيس الثالث ، أى هذا الجناح الصغير فى مدينة هابو .



مدخل القصر فى مدينة هابو .

وربما لم يكن هذا المبنى قصرا ، وربما كان مجرد بوابة حصينة . ولكن بالرغم من ضآلة حجم الحجرات ، الا أنها مضاءة ، كما أن الرسم التخطيطى للجناح كله من الطراز المعتاد . وهو يتكون كما نراه الآن من مبنيين متصلين عن طريق أجنحة متعرجة مع برج مركزى . ويقف المبنيان والبرج فى مواجهة بعضهما البعض على شكل الأطراف الثلاثة للزاوية الحادة . وتضم هذه المعالم فناء على شكل مستطيل يقود الى الفناء المقدس عن طريق ممر تحت البرج المركزى،وهو حسب وضعه الحالى يتضمن ثمانى

حجرات فقط وبالذات ثلاث حجرات فى كل مبنى ، كل منها فوق الأخرى وحجرتان فوق البوابة (١) ٠

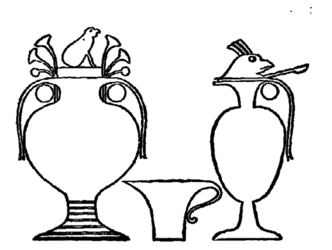
وهذه الابراج الثلاثة متصلة عن طريق ممرات ملتوية فى الأجنحة الموصلة بينها ٠ ونجد أن نافذتين من النوافذ التى فى الجناحين تزينهما شرفات محمولة على ركائز ، تمثل كل ركيزة منها رأس وكتفى أسير جاثم على قدميه فى وضع مزراب منحوت على شكل آدمى ٠ وهذه الرؤوس والملابس التى لهؤلاء الأسرى تبدو كما هى فى حالة من البربرية ولكنها ذات لون لامع ٠

أما البرج المركزى فهو كامل ٠ وقد صعدت الكاتبة الى الحجرة الأولى التى كان سقفها ملونا بطريقة ممتازة وصعبة تماثل تقليد الموزاييك ٠ والحجرة العليا يصعب الوصول اليها ، الا اذا توفر متسلق جيد ٠ وقد وجد صديقنا ف٠و٠س٠ الذى شق طريقه اليها منذ عام أو عامين بعض النقوش المثيرة التى على الجدران وهى تمثل كؤوسا وزهريات يبدو أنها جزء من قائمة محتويات مصورة تختص بالأوانى المنزلية ٠ ويوجـد هنا ثلاثة منها (لا تشبه أية آنية مرسومة فى مؤلفات ويلكنسون أو روسيلليني) أخذناها عن الرسم التخطيطى الذى رسمه فى الموقع ٠ وتلاحظ أن غطاء الزهرية الصغيرة ينفتح بواسطة ذراع بارز مثل ملعقة، يضغط عليها الانسان بالاصبع الابهام مثل غطاء كوب البيرة الألمانى الذى يستخدم فى الوقت الحـــالى ٠

أما الزخارف الخارجية للمبنيين فانها ذات أهمية خاصة ، ذلك لأن الموضوعات السفلية تاريخية ٠ أما تلك التى فى الطوابق العليا فانها من الحياة اليومية أو رمزية ، وتصنف ضمن أعظم النقوش المصرية البارزة المشهورة ٠ وقد ظل العلماء يظنون أنها تمثل رمسيس الثالث بين زوجاته، سعيدا وسط الاماء اللائى كن فى انتظاره ٠ ونرى الملك فى احدى المجموعات

---

(١) هناك سبب للاعتقاد بأن هذا الجناح ليس الا جزءا من المبنى وتمتد الأساسات التى تجعل من المحتمل أن المبنى كله كان مربعا بعرض الواجهـة ٠ وكانت به حجـرات أخرى ربما كانت مبنية من الخشب أو الطين بالاضافة الى تلك التى وجدناها الآن ٠ وقد يقلل ذلك من مميزات التصميم ٠ ولابد انه كان مزخرفا فى الأصل ، ويشكل مع كمال شرفاته وزخرفته مجموعة تثير البهجة ، على خلاف مفاهيمنا عن الفن المصرى ـ انظر : History of Architecture تأليف J. Fergusson ـ الكتاب الأول ـ الفصل الرابع ص ١١٨ ـ لندن سنة ١٨٦٥ ٠



مميزا دائما بالخراطيش الخاصة به وهو يجلس مستريحا فى نوع من الكراسى التى يمكن طيها ، وقد وضع خوذته على رأسه ووضع القدمين وهما داخل صندله على موطئ للقدمين ، مثلما يعود المقاتل من المعركة ويستريح من عناء القتال • وكان يمسك فى يده اليسرى شيئا مستديرا يشبه الفاكهة ، بينما يربت بيده اليمنى على ذقن فتاة ترتدى حلقا فى أذنيها ، وقلادة فى عنقها وترفع احدى أزهار اللوتس نحو أنفه • وفى موضوع آخر أشد تشويها نراهما يلعبان لعبة الضامة وهذا الموضوع الشهير الذى لا يمكن رؤيته الا عندما يدخل الضوء من الجانب ، نادرا ما يكون واضحا ، ناهيك عن المساعدة التى توفرها القطع التى أوردها ويلكنسون واللوحات التى أوردها روسيلليني • وليس ذلك لأن النقوش قد طمست ولكن لأن الكتل الضخمة التى تحملها قد رفعت من مكانها ، ومن المحتمل أنها ألقيت بشدة فوق رؤوس الأعداء خلال احدى مرات الحصار التى تحمل الأطلال آثارها الواضحة (١) • أما عن صورة السيدة

---

(١) ظلت مدينة هابو موجودة حتى الفتح العربى • وكان يسكنها الاقباط من أحفاد البنائين الذين انشأوها • ولابد أنهم هربوا أمام عمرو بن العاص وجيشه • وهجروا المكان • ولا نعرف ما اذا كان الحصار قد حدث وقت الفتح العربى أو أثناء حملة قمبيز ولكن بصرف النظر عن زمن حدوثه فالواضح أنها سقطت أثناء الحصار • ويوجه مؤلف كتاب : دليل موراى — الانتباه الى حقيقة أن العوارض الرأسية للمدخل الذى يقود الى المعبد الاصغر والمصنوعة من الجرانيت ، قد كسرت بالضبط عند المكان الذى كان يوضع فيه القضيب عبر الباب •

تعليق للمراجع : لم يحارب عمرو بن العاص وجيشه أقباط مصر ، وانما حارب الرومان ولم يصل عمرو بن العاص الى الاقصر عند فتح مصر •

فقد بقى منها جزء صغير بجوار الذراع واليد التى تمسك النرد • وقد اختفت المنضـدة ، وظهـرت صورة الملك بدون ساقين ، وكذلك فانه بالرغم من ضياع المنضدة ، الا أن الكتلة التى فوقها مباشرة تتضمن القطع المستخدمة فى اللعب تلك التى مازالت ظاهرة من أسفل اذا استخدم الناظر اليها نظارة • ويورد روسيلليني ثلاثة أو أربعة موضوعات أخرى من نفس النوعية تتضمن مجموعة ثانية من لاعبى الضامة كانوا جميعاً ظاهرين ، فى الوقت الذى قام فيه بالزيارة وقد بحثت الكاتبة عنهم بدون طائل •

والمفروض أن هذه اللوحات تمثل الحياة العائلية للملك رمسيس الثالث وتؤكد الطابع المنزلى للجناح • ويطلق عليها الأعراب الذين يبيعون الجعارين ويسكنون الأطلال ، وأيضا الأولاد الذين يسوقون الحمير فى الأقصر اسم : حريم السلطان • ويحذر العلم الحديث من ازالة أية صورة من هذه الصور لأنها تطلق العنان للخيال الذى يبعث البهجة والسرور •

ويبدو أن الملك وهو يحمل اسم رامسينيتوس Rhampsinitus وهو بطل كل أسطورة قديمة أوردها هيرودوت ، حيث ذكر أن الملك أثناء حياته نزل الى الهاوية وهناك لعب الضامة مع الالهة ديميتر Demeter التى كسب منها فوطة ذهبية • ويقول هيرودوت ان المصريين أقاموا عيدا تذكاريا لهذه المغامرة وعودته الى الأرض ، وكانوا يحتفلون به على أيام هيرودوت (١) • وكما ذكر بلوتارخ نجد أن ايزيس قد حلت محل ديميتر • واذا استعرضنا هاتين الروايتين فى ضوء قطعة معينة من التراث الذى يتحدث عما ينعم به الميت السعيد من وعود « القدرة على تحويل نفسه بارادته لممارسة لعبة الضامة والاسترخاء فى جناح » • فاننا نجد أن الدكتور بيرش ذكر أن هذا المنظر كله قد يكون ذا طابع تذكارى ، ويمثل أحد المواقف التى تحدث فى أرض ظلال الموت (٢) •

---

(١) هيرودوت – الكتاب الثانى ، القصل ١٢٢ •

(٢) « A Medinet Habou, dans son palais, il s'est fait représenter jouant aux dames avec des femmes qui d'apr&s certaines copies sémblent porter sur la tête les fleurs symboliques de l'Epypte supérieurs et inféraieure comme les deésses du monde supérieur et inférieur. ou du ciel et de la terre. Cette dualité des deésses, qui est indiquée dans les scènes religieuses et les textes sacrés par la réunion de Satis et Anoucis, Pasht et Bast, Isis et Nephthys, etc., me fait penser que les tableaux de Medinet Habou peuvent avoir été considérés dans les legendes populai =

وتأتى بعد هذه المجموعات من الحريم نقوش بارزة ضخمة ذات طابع دينى وعسكرى • فالملك كالعادة يضرب أسراه فى حضرة الآلهة • ويظهر شخص رفيع كالشبح فى وضع الاعداد للذبح ، بينما يمشى البطل الغاضب عبر الحائط « مثل بعل » (١) وهو يهبط من أعالى السموات ، وأطرافه تمنح القوة الضرورية للانتصار وهو يمسك الجمهور الغفير بيده اليمنى ، بينما تطول يده اليسرى كالسهم هؤلاء الذين يفرون أمامه • وسيفه حاد مثل سيف أبيه منتو (٢) •

وتحت هذه المجموعات العظيمة تجرى أفاريز منقوشة بأشـــكال أشخاص راكعين يمثلون الرؤساء المهزومين الذين نرى بينهم قادة ليبيين وصقليين وسردينيين واتروسكيين •وجميع الرؤوس التى فى هذه الأفاريز تمثل صورا نصفية نتعرف منها الى القائد الليبى وهو بدون لحية وشفتاه رقيقتان وأنفه معقوف وجبهته مسحوبة للخلف ويرتدى غطاء رأس محكما له دلاية تتدلى عند الأذن • أما ملامح القائد السردينى (٣) فهى لا تقل عن الآسيوى ، وكان يرتدى الخوذة السردينية المعروفة التى تعلوها الـكرة والقضيبان المعدنيان • أما الشكل الجانبى لوجه القائد الصقلبى فهو يماثل السردينى ، وهو يرتدى غطاء للرأس يشبه الطاقية الفارسية الحديثة •

= res comme offrant aup yeux l'allégorie de la scène du jeu de dames entre le roi et la desésse Isis, dont Hérodote a fait la Déméter egypiienne, comme il a fait d'Osiris le Dionysus du même peuple », — *Le Roi Rhamrsinite et le eu des Dames, par* S. BIRCH, Revue *Arch* ; *Nouvelle Série,* vol xii., p. 58. Paris : 1865.

(١) بعل مثل سوتيخ اله تمت استعارته من الأساطير الفينيقيـة • ويبدو ان عبادة بعل قد عرفت فى مصر خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة • أما الاله الاخر الذى ورد ذكره هنا وهو منتو أو مونت فهو من الآلهة التى ترمز للشمس والتى كانت تعبد فى طيبة • وكان يعبد ايضا فى هيرمونثيس اى أرمنت الحالية ، وهى مدينة حديثة لها بعض الاهمية ، ومازال اسمها متطابقا مع اسم برمنتو المستخدم فى العصور القديمة • وكان منتو هو اله الحرب عند المصريين مثلما كان بعل هو اله الحرب عند الفينيقيين •

(٢) عن احد نقوش مدينة هابو التى نقلها شاباس • انظر كتاب : Antiquité Historique الفصل الرابع ، ص ٢٣٨ طبعـة ١٨٧٣ •

(٣) هناك حقيقة جديرة بالتسجيل (وهى حقيقة أظن أن أحـدا لم يلحظهـا من قبل) وهى انه عندما كان القادة الآسيويون والأفريقيون يظهرون بين صور هذه الافاريز فانهم يوصفون فى النقوش الهيروغليفية المصاحبـة لهم بأنهم « الليبى الخسىء » أو « الكوشى الخسىء » أو « الماشواش الخسىء » وهكذا • أما القـادة الأوربيون فانهم بالرغم من رسم صورهم بنفس الأسلوب الا ان القـائد منهم كان يوصف بأنه « عظيم سردينيـا » أو « عظيم صقليـة » أو « عـظيم اتروريا » •• الخ • فهل يدل ذلك على أن قوتهم العسكرية كانت أشد من قوة المصريين أقرب جيرانهم ؟

أما عن النوعيات الاثنية (الجنسيه) فان هذه الرؤوس ذات قيمة كبيرة . فلم يعد المستوطنون الأجانب يظهرون منذ رحيلهم من الشواطىء الغربيه لآسيا الصغرى ، ويظهر هؤلاء الاوربيون بطابع الملامح الآسيويه ، هذا الطابع الذى اختفى الان كلية ٠

وهناك شعوب أوربيه أخرى موجودة فى أماكن أخرى فى مدينة هابو هذه ، فهناك البلاسيون من الجزر اليونانية ، والأوسكانز من مدينة بومبى والداونيون من المقاطعات التى بين تارنتوم وبروندوزيوم وكل فى ملابسه الوطنية ٠ ومن هؤلاء جميعا ينفرد البلاسيون بالشبه مع الشكل الأوربى الحديث ٠ وتوجد على الحائط الشرقى من بوابة الجناح فى اتجاه المعبد ، صورة بارزة ضخمة للملك رمسيس الثالث وهو يقود طابورا مقيدا من الأسرى فى حضرة آمون رع ٠ ومن بين النقوش التى فى حالة جيدة يوجد عدد من أشكال البلاسيين الذين يظهر بعضهم بملامح الاغريق الكلاسيكية وهم ذوو أشكال وسيمة ، ويشبه غطـــاء رؤوسهم قبعة شاكو Shako القديمة التى كان يرتديها جنود المشاة ٠ ويرتدى بعض الرجال تمائم على شكل أقراص فى وسطها ثقب تخرج منه الذقن التى تجعلها معلقة حول العنق ٠

واذا اتجهنا نحو اليسار فسنجد تمثالا جالسا رائعا للاله خونسو من البازلت الأخضر ٠ والى اليمين رفيقه التمثال الساقط ٠ ونمر أسفل البوابة ، ونعبر فراغا من تلال الطوب المهجورة ونرى أمامنا خرائب البرج الأول لمعبـد خيـم العظيـم ٠ وبمجرد أن نعبر عتبة هذا البرج ندخل فى سلسلة من الأفنية العظيمة ٠ والنقوش الهيروغليفية هنا ضخمة وأعمق من أى نقش آخر موجود فىمصر كلها ٠ وقد لونت بعين خبيرة قوية التأثير٠ وقد ذهلنا لروعة الألوان الزرقاء غير العادية ، واللمعان الغريب الذى تشعه أضواء معينة ٠ لقد فحصتها على وجه الخصوص ووجدت أن تأثيرها ناتج عن ظلال دقيقة نظرا لتدرج الألوان التى تظهر بها لأول وهلة ، حيث اكتشفنا أنها درجات لونية مسطحة بسيطة ٠ وعلى سبيل المثال ففى بعض سيقان النباتات نجد أن الألوان الأساسية تبدأ عند قمة الورقة بالأزرق الخالص وتتدرج حتى تصل الى درجة من الأخضر الزمردى عند القاع (١) ٠

---

(١) ان زرقة سقف صف الأعمدة العظيمة فى القاعة الكبرى Hypaethral واضحة جدا بسبب لمعان ونقاء درجة اللون . بينما تظهر هذه الزخارف المثيرة التى على العمود والطبقة الحجرية التى فوقه ، جلية على العمود الثانى الذى على يمين الداخل الى هذا البهو ، مثل عينة مثيرة للزخرفة باللون الأصفر على أرضية ذهبيـة اللون ٠

أما الخوائط الداخلية لهذا الفناء الضخم والوجه الخارجي للحائط الذى في الشمال الشرقي فهي مغطاة بالنقوش المحددة بمعنى أنها محفورة في حلية غائرة النقش ، ولذلك فان الاشكال بالرغم من أنها دائرية الا أنها ظلت على نفس مستوى السطح العام • وفى هذه اللوحات يحيا العالم القديم مرة أخرى فنرى رمسيس الثالث وأولاده ونبلاءه وجيوشه وأعداءه وهم يلعبون مرة أخرى أدوارهم في مسرحية الحياة والموت القصيرة • وهنا نشاهد المعارك الكبرى أثناء خوضها ، والانتصارات العظمى أثناء تحقيقها ، وعمليات الذبح أثناء احصائها ، والأسرى وهم يجرجرون سلاسلهم خلف العجلة الحربية للملك المنتصر ، وانتصارات الملك وذبائحه التى يقدمها للآلهة • ونرى حروبا أكثر وذبائح أكثر في أماكن أخرى • وهناك ثورة في ليبيا ، وغارات على الحدود الآسيوية ، وغزاة قادمون في سفنهم من جزر البحر الكبير • وقد رفع الشعار الملكي وتجمعت الجيوش ووزعت الأسلحة • ومرة أخرى يذهب الملك تتبعه زهرة الفرسان المصريين • ان فرسانه أبطال • أما مشاته فهم مثل الأسود التى تزأر فى الجبال • أما الملك نفسه فانه يبعث بالشرر مثل « الاله منتو في أوج غضبه » • ويقع على العدو بمثل سرعة الشهاب ، وهنا نجد الأعداء المزدحمين في الشاحنات التى تجرها الثيران وهم يطلبون الأمان فى الهرب • وهناك نجد سفنهم غارقة وجنودهم مذبوحين أو غرقى أو مأسورين ، أو سلطت عليهم النيران حتى « لا يعودوا مرة أخرى لبذر البذور أو حصاد المحصول على وجه الأرض » •

يقول الفرعون : « انظر لقد استوليت على حدودهم وجعلتها حدودا لى ! لقد دمرت مدنهم ، وأحرقت محاصيلهم ودهست رجالهم تحت قدمى • افرحى يا مصر ! ارفعى صوتك الى السماء ! انظرى ! اننى أحكم جميع أراضى البرابرة ، أنا رمسيس الثالث • ملك مصر العليا والسفلى » (١) •

وقد ربطت الصور بعضها الى بعض بواسطة نص يتضمن التعليقات • أما القصة فقد كتبت فى مكان آخر • ويبلغ ارتفاع النقش الهيروغليفى ارتفاع الواجهة الشرقية للحائط الشمالى الضخم للبوابة الثانية وهو الحائط الذى يغطيه النقش • وهذه البوابة تقسم القاعة التى تحتلها تماثيل

---

(١) عن نقوش مدينة هابو ، انظر : Antiquité Historique ، الفصل الخامس ، باريس سنة ١٨٧٦ •

أوزوريس والقاعة الكبرى الثانية ، لكي يواجه النقش الداخلين الى المعبد ، ويسبق اللوحات • وأظن أنه حتى قصيدة بنتاؤور لا تصل الى قدرته على التأثير ، وكذلك فان مزامير داود أيضا ليست أكثر منه حماسة (١) •

وقد نصبت الكاتبة خيمتها فى مدخل البوابة الأولى ، واستطاعت بذلك أن ترسم الركن الشمالى الغربى من الفناء بما فيه البرج بالنقوش والتماثيل الضخمة التى تمثل الاله أوزوريس • وتمثل الصورة المرفقة الرسم الذى رسمته الكاتبة •

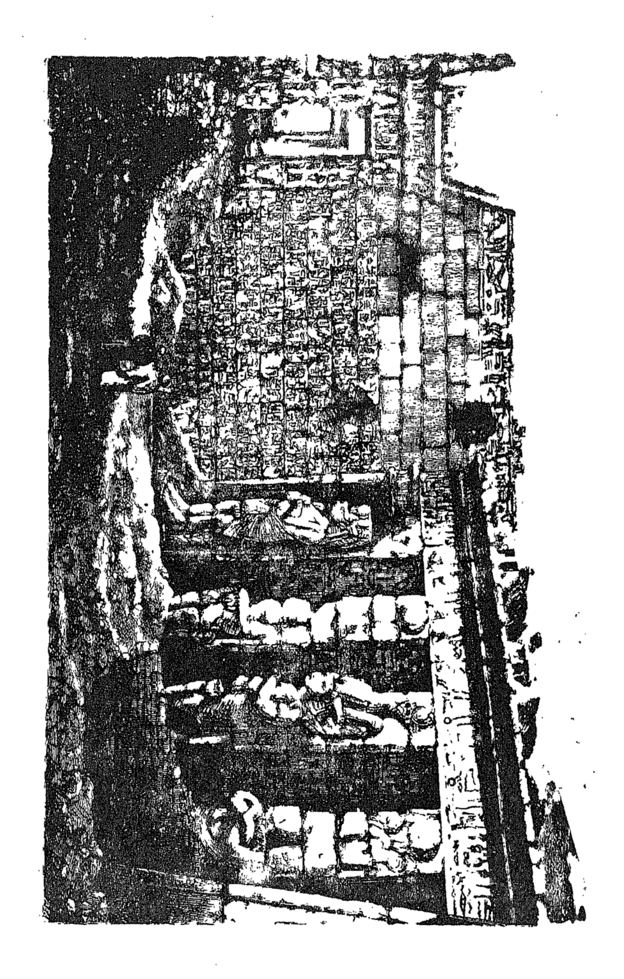
لقد شوهت سقف صف الأعمدة الذى الى اليمين ، خرائب الطوب اللبن التى تعود الى العصور الوسطى • ومازالت النقوش الهيروغليفية المحفورة بطول الأطر التى تحيط بالأبواب ، وبطول جوانب الأعمدة حتى أسفلها ، لامعة اللون • وقد وصلت التماثيل الضخمة الى حالة سيئة نظرا لمرور ثلاثة آلاف عام حافلة بسوء الاستخدام • وينظر الانسان من خلال المدخل المنقوش المقابل ، عبر القاعة الكبرى ، ويشاهد لمحة من قاعة الأعمدة المحطمة خلفها •

وعندما كانت الكاتبة تعمل فى ظل البوابة الأولى ، جلس راوية من الأعراب عند هذا المدخل المقابل وأخذ يسلى الأولاد الذين يسوقون الحمير والبحارة • وبعد أن دفعوا له قليلا من التبغ وعدة قروش من العملة النحاسية ، استمر فى رواياته عدة ساعات • وارتفع صوت غنائه حينا بعد حين حتى أصبح صراخا متهدجا • وكان رجلا عجوزا كثير الشكوى متغضن الوجه وشديد الفقر والبؤس • ولكنه كان يحفظ عن ظهر قلب قصص ألف ليلة وليلة ومئات من القصص الأخرى •

وكان من رأى ماريت أن معبد مدينة هابو الذى أقيم على جانب مقابر طيبة العظيمة يشبه الرمسيوم،من حيث انه أثر جنازى أقامه رمسيس الثالث فى حياته تخليدا لذكره • أما هذه التماثيل الضخمة المحطمة فانها تمثل الملك فى شكل أوزوريس وهى ضخمة فى الحقيقة مع أن التماثيل

---

(١) قام مسيو شاباس فى كتابه L'Antiquité Historique بترجمة هذا التسجيل الكامل ، فى الفصل الخامس ، ص ٢٤٦ وما بعدها • وكذلك تمت ترجمته فى كتاب روسيللينى Monumenti Storici • وقد قام بتصويره كل من مسيو هامو شميدت وستيور بيتا بطريقة تثير الاعجاب •



الجنازية ذات حجم صغير فى العادة • وهى ليست الا صرحا تذكاريا ، وتكفى وحدها لبيان سمة البناء •

ولا شك فى أن تلك السمة هى نفسها سمة معبد أمنحتب (*) الصغير المعروف باسم : دير المدينة ، ومعبد حتشبسوت المعروف باسم الدير البحرى ومعبد القرنة وتقريبا كل المعالم المهمة التى أقيمت على جانب النهر • وقد تبقى من معبد أمنحتب الصغير بعض الكتل المنقوشة والأساسات المحطمة وآخر التماثيل ذات الأحجام المختلفة التى بقيت من الشـــارع وكذلك التمثالان المشهوران فى السهل (١) أما معبد الدير البحرى الذى بنى فى شرفات على جانب الجبل وكان يتم الوصول اليه يوما ما باستخدام طريق عظيم الكباش فما زال أثره ظاهرا حتى اليوم • وكان من الممكن لو لم يتعرض للتخريب أن يصبح أهم معبد فى الجانب الغربى للنهر • وقد ظهر الغرض من اقامة هذا البناء وهو تخصيصه للالهة حتحور مع حقيقة أن ريند قد قام بالتعرف على قبر الملكة حتشبسوت منذ خمسـة

(★) يقصد الملك أمنحتب الثالث ــ (المراجع) •

(١) ان الحديث عن وصف هذين التمثالين اللذين يعتبران من أفضل الآثار المصرية ، وتلوينهما ونقشهما وتصويرهما ، يحتاج الى أكثر من مرجع • أما وجهاهما اللذان بلا ملامح ووصفهما وما يحيط بهما ، فهذه الأمور كلها معروفة مثل الأهرام حتى بالنسبة لهؤلاء الذين لا يعرفون شيئا عن مصر • ونحن نعرف أنهما يمثلان أمنحتب الثالث ، وأن التمثال الموجود فى الطرف الشمالى قد انشطر الى نصفين عند الوسط أثناء زلزال سنة ٢٧ ق•م وقد قيل انهما يصدران صوتا فى الساعة الأولى من النهار مما جعل الأقدمين يظنون أن التمثالين يصدران الصوت عن طريق حدوث معجزة • وكان الاغريق يعتقدون أنهما يمثلان ابن تيثونوس وأودرا المشهور فى الأساطير والذى أطلق عليه اسم ممنون • وعلى الرغم من هذا فان المصريين أنفسهم يقولون ان التمثالين يمثلان أمنحوتب الثـالث • وقـد جاء الولاة والقناصل والأباطرة والأميرات للاستماع الى صـوت ممنون • ومن بين الزوار المشهورين الذين سافروا لهذا الغرض استرابون وجرمانيكوس وهادريان والامبراطورة سابينا • وقد انقسمت الآراء حول سبب هذا الصوت • ولا شك أنه يوجد فراغ مجوف داخل عرش هذا التمثال كما هو واضح بالنسبة لكل من فحصه من الخلف • وقد فحصه سير ج• ويلكنسون وعبر عن اعتقاده بأن الصوت الموسيقى كان قطعة من شعوذة الكهنة ، وهو رأى يأخذ به أغلبية المؤرخين • ويتفق كاتب مقـال نشر بمجلة Quarterly Review ، العـدد رقم ٢٧٦ ، ابريل ١٨٧٥ مع سير د• بروستر فى نسبة الصـوت الى خلخلة الهواء من خلال شقوق الحجر الناتجة عن تغير الحرارة الفجائى بسبب شروق الشمس • والتمثال الذى يشبه زميله التمثال الآخر كان كتلة واحدة أصليـة ضخمة من الصخر الرملى • وقد جرى اصلاحه بالحجر الرملى خلال حكم الامبراطور الرومانى سبتميوس سفيروس •

وعشرين عاما مضت بوصفه أحد المقابر المحفورة في جانب الصخرة بالقرب من المكان الذى ينتهى اليه المعبد بالوصول مقابل الصخرة ٠

أما عن معبد القرنة فهو على الأقل صرح تذكارى مثل كاتدرائية ميدتشى فى فلورنسا أو سوبرجا فى تورينو ، وقد بدأ بناءه الملك سيتى الأول تذكارا لأبيه رمسيس الأول مؤسس الاسرة التاسعة عشرة ٠ وعلى كل حال فقد مات سيتى قبل استكمال العمل ٠ وهنا أكمل ابنه وخليفته رمسيس الثانى التخطيط العام ، وأكمل الجزء المخصص لجده ، وأضاف النقوش المحفورة اليه احياء لذكرى سيتى الأول ٠ وفيما بعد ترك مرنبتاح ابن رمسيس الثانى وخليفته خرطوشيه على أحد المداخل ٠ وباختصار فان المبنى كله يعتبر أثرا عائليا ويتضمن معرضا لصور الأسرة النصفية ، ونجد هنا أن جميع الأشخاص الذين تظهر أسماؤهم على أعمدة مقاصير عائلة رمسيس فى السلسلة قد رسمت أشخاصهم فى شكلها الصحيح . حيث نرى الملك رمسيس الأول فى احدى اللوحات ميتا ومؤلها (١) ومربوطا وموضوعا فى الضريح ومتوجا مثل أوزوريس، حيث يقدم له سيتى الأول فروض العبادة ٠ ويقف خلف سيتى ملكته تويا Tuaa (توى) أم رمسيس الثانى ٠

وفى مواضع أخرى نرى سيتى الأول الذى مات حينذاك يصير الها ويتلقى العبادة من رمسيس الثانى الذى يسكب النبيذ على تمثال أبيه ٠ وهناك شبه رباط عائلى يربط بين جميع هذه الرؤوس الوسيمة ٠ وهم جميعا يشتركون فى هذا الطراز الدانتى Dantesque type الذى يميز الصور النصفية لرمسيس الثانى فى شبابه ٠ ونجد أن ملامح رمسيس الثانى وسيتى الأول مضغوطة وصارمة الى حد ما مثل صور الأيام القديمة ٠

---

(١) كان تأليه الموتى لا يجرى حسب المفهوم الرومانى أو حسب ما يجرى فى العصر الحديث من اعلان قداسة أحد القديسين ، لأن المصريين اعتقدوا بأن الميت الصالح تنضم أو تتحد روحه بالاله أوزوريس القاضى الكريم واله العالم السفلى ٠ وعلى ذلك فانهم من خلال عبادتهم للأسلاف لا يعظمون الموتى الخالدين فقط ولكنهم يعظمون الميت فى شخص أوزوريس ويعظمون أوزوريس فى شخص الميت ٠

ومما هو جدير بالذكر انه بالرغم من هذا فان التأليه المتتابع لأشخاص الملك سيتى الأول والملك رمسيس الأول قد حدث باعتبار كل منهما مثل القديس الشفيع أو كما يسميه المصريون القدماء (الاله الحارس للمعبد) ٠

ويرسم وحده باللحية الدبية والمقلوبة الغريبة الشكل مثل قرن الوعل الجبلى المعكوس ، وهى السمة الغريبة للألوهية ٠

أما المنظر الجانبي لوجه الملكة تويا (توي) الذي يشبه كثيرا بعض الصور النصفية للملكة اليزابيث (*) فهو حاد الزوايا ولذلك فانه لا يثير الاعجاب • ولكن هذه التفاصيل الغليظة بالنسبة لوجه رمسيس الثاني المعروف تختفي ، ويبلغ جمال الجنس ذروته • ولا نجد مميزات فناني النهضة المصرية بمثل هذه العظمة في رسم الأشكال الجانبية للوجوه أكثر مما يبدو في هذه السلسلة المثيرة للاهتمام •

وعندما وصلنا الى ما يمكن تسميته بالجزء الأثرى من البناء ، وجدنا عددا من القاعات والحجرات التي لا نعرف شيئا عن استخداماتها • ويقول معظم الكتاب انها كانت تمثل المسكن الخاص بالملك • ويذهب البعض الى أبعد من ذلك فيعطي اسم المعبد لكافة هذه المعالم الجنازية • ومن المحتمل أن تكون هذه المعابد الغربية قد أقيمت مترابطة بالرغم من أنها ليست متصلة اتصالا مباشرا مع المقابر الملكية في وادي باب الملوك المجاور •

والآن،فان كل مقبرة مصرية ذات أهمية تتميز بغرفة خارجية أو هيكل للنذور ، وقد غطيت جدرانها بالزخارف التي تفوق الوصف • وأحيانا تغطيها مناظر الموتى على الأرض ، وفي مواضع أخرى مغامرات روح الميت بعد الموت • وهنا وفي مواسم معينة يتم التعويض عن الأحياء بتقديم القرابين • ويبدو أنه لم يكن هناك كاهن مخصص للقيام بهذه الخدمات الصغيرة • وقد تحضر العائلة بكاملها لتقديم بواكير حديقتها ، وأفضل دواجنها ، والفطائر المصنوعة في المنزل ، والخبز وباقات أزهار اللوتس • ويقومون بتكويمها على المذبح بأيديهم ، ثم يقوم الابن الأكبر نائبا عن الآخرين بحرق البخور ، وسكب النبيذ • ويظهر هذا المنظر دائما على الآثار في كل فترة زمنية (١) وهذه الهياكل الخاصة بالنذور غير موجودة

(★) تقصد الكاتبة الملكة اليزابيث الأولى وليست الملكة الحالية اليزابيث الثانية — (المترجم) •

(١) يوجد بين اللوحات الجنازية بمتحف بولاق مجموعة من النقوش البارزة تمثل وصول عائلة من النائحين عند قبر سلفهم المتوفى • ويجلس تمثال الميت عند الطرف العلوي • وقد حمل النائحون التقدمات ، فهذا طفل صغير يحمل حملا ، بينما يحمل طفل آخر أوزة ، ويقف أحد الكتبة في انتظار تسجيل الهدايا • وتخلد اللوحة الجنازية اسم شخص يدعى بسماتيك — نفر — سام ، الذي يظهر من النص الهيروغليفي أنه أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين • أما الرشاقة الطبيعية وخاصة الحنان الدافق اللذان عولج بهما هذا الافريز الصغير ، فقد جعلاه أعلى من مستوى الفن المصري العادي • ويمكن مقارنته بالآثار التي اكتشفت مؤخرا في الطريق الاليوزي في أثينا •

جائرة في وادى باب الملوك • ان القـــابر الملكية تتكون فقط من ممرات أسطوانية وعقود مقببة لدفن الموتى،وقد سدت مداخلها الى الأبد بمجرد وضع النواويس • ومن هنا يمكن استنتاج أن كل معبد تذكارى قد لعب بالنسبة لمقبرة الاله الحارس ، ذلك الدور الذى يلعبه الهيكل الخارجى الملحق بمقبرة الميت • ولا ننسى أنه كان هناك منذ وقت مبكر يعود الى أيام ملوك الأهرام هيكل للنذور ملحق بكل هرم يمكن ملاحظة آثاره على الجانب الشرقى فى أى وقت ، كما كان هناك أيضا كهنة الأهرام كما تعرف من النقوش الجنازية التى لا تحصى •

وقد يتطلب مثل هذا الهيكل الضخم احتفالا رسميا كبيرا • ولا شك فى أن كل ملك ميت ومؤله كان يتبعه طابور من الكهنة ، وصلواته اليومية، ومواكبه الاحتفالية ، والأضحية التى يجرى تقديمها • وكل ذلك يتطلب مرة أخرى اعاشة وحسابات اضافية ، أظن أنها كانت تشغل أى عدد من القاعات والحجرات الاضافية • ومازالت هذه النقوش باقية على حوائط هذه الحجرات الخربة • وهى كلها فى الحقيقة ذات طابع جنازى ومرتبط بتقديم الأضاحى • ويجب أن نتذكر أن لدينا هنا معبدا مخصصا لملكين ، ويخدمه كهنة ينتمون الى مدرستين مزدوجتين (١) والنقوش الجدارية بمعبد القرنة رائعة الجمال خاصة تلك التى أنجزت على أيام سيتى الأول • وحيث انها حفظت سليمة بالصدفة ، فان السطح أملس ، والتنفيذ لامع مثل نقوش العاج الفاخرة التى تنتمى الى العصور الوسطى ، وعلى سبيل المثال فاننا نرى خلف عمود مكسور قد انحنى أمام الحائط الجنوبى الغربى للهيكل (٢) مقدمة قارب مقدس على شكل رأس كبش ، وهو سليم وفائق الرقة ، وقد جرى تشكيل رأس الكبش ببساطة وبدون ملحوظات ويندر القول بأنه قد اندثرت كل النقوش الموجودة ، لأن هذه القطعة ستكون وحدها كافية لكى تضع فن النحت الزخرفى لمصر القديمة فى مكانة لا يتفوق عليه فيها الا النحت الاغريقى •

ويقع معبد القرنة فى الطرف الشمالى البعيد من مجموعة طيبة عند مدخل ذلك الوادى المشهور الذى يسميه الأعراب باب الملوك ، بينما

(١) « Une dignité tout à fait particulier est celle que les inscriptions hiéroglyphiques de'signent par le titre « prophète de la pyramide de tel pharaon. » Il parait qu'après sa mort chaque roi était vénért par un culte special, » Histoire d'Egypte : Brugsch. 2nd ed. chap. V. p. 35. Leipzig. 1875.

(٢) يوجد شباك غريب فى طرف هـذا الهيـكل ، به اخـدودان يثبت فيهمـا المصراعان ، وثقبان يتزلق فيهما القضيب الذى يغلق النافذة •

يسميه السياح وادى مقابر الملوك • ويمكن وصف هذا الوادى بأنه وهدة متفرعة إلى فرعين ينتهيان إلى ما يشبه الزقاق • وتنتهى أطرافها فى جميع الجوانب بحواف من الحجر الجيرى • وهى تدور خلف الصخور التى تواجه الأقصر والكرنك وتتخذ مسارا موازيا لنهر النيل • وتنتشر المقابر فى هذه السلسلة من الصخور على شكل ثقوب على كلا الجانبين • وقد دفن الكهنة والنبلاء الذين ينتمون الى العديد من الأسرات صفا فوق صف على الجانب الذى يلى النهر ، ورقد خلف مقابرهم فى الوادى الصامت المفعم بالأسرار الملوك فى أضرحتهم الأبدية •

ويرسو معظم السياح عند الكرنك لمدة يوم أو يومين ومن هناك يبدءون جولتهم الى باب الملوك ، ويخسرون بذلك واحدة من أجمل الجولات فى ضواحى طيبة • لقد بدأت السيدة (ل) والكاتبة جولتهما من الأقصر فى صباح أحد الأيام بعد شروق الشمس بحوالى ساعة ، وعبرتا النهر عند النقطة المعتادة ، ثم ركبتا حمارين بطول الضفة فى اتجاه الشمال • وقد صار النيل فى جانب وحقول القمح فى الجانب الآخر • وفى مسار مثل هذه المسيرة الراكبة يكتشف الانسان أكثر بقاع طيبة خصوبة • لقد تحولت كل بوصة من الأرض الصالحة للزراعة الى حكاية • وقد أخذت المحاصيل تنمو فى قوة ، وأخذت أعواد الشعير تتماوج فى موجة كاسحة من مدينة هابو الى نقطة تقع فى منتصف المسافة بين معبدى الرمسيوم والقرنة • وتأتى بعد ذلك زراعات التبغ والقطن والقنب وبذر الكتان والذرة والعدس فى حقول متجاورة غنية بالمحاصيل ، بحيث يظهر القطر كما لو كان كله أرضا مقسمة إلى حصص زراعية تمتد الى أميال عديدة • وفى المناطق التى جمع فيها محصول الأرز ظهرت مجموعات من الأكواخ المؤقتة فى الأراضى الفضاء التى بين الحقول لأن الفلاحين اعتادوا الخروج من قراهم المزدحمة فى « ألطف فصول السنة » لكى يعيشوا وسط المحاصيل التى يقومون الآن بحراستها والتى سرعان ما يحصدونها • أما حوائط هذه الأكواخ فانها مجرد أسوار من قش القمح الهندى مع حزم من نفس القش موضوعة عبر القمة لعمل السقف • وتنتشر هذه الأكواخ الريفية فى كل مكان • ونرى هنا بعض الرجال يقومون بتشغيل الشادوف على ضفة النهر ، والنساء يغزلن فى الشمس ، والأطفال يلعبون ، والكلاب تنبح ، وطيور القنبر تحلق فى الجو وتغنى فوق رؤوسنا ، وهناك فى مواجهة قواعد الصخور حيث تنتهى الأرض المزروعة وتبدأ المقابر ، يفيض نهر هادىء تنمو على حافته أشجار النخيل • ومنذ شهور قليلة مضت كان من المحتمل أن تخدعنا هذه المياه الخرافية ولكننا نعرف الآن أن هذا هو السراب •

ومع الاتجاه نحو اليســـار ، قصدنا بقعة تنحسر عندها الجبال وتنخفض ، ويمتد فوق السهل اسفين مثل أخدود من الصحراء الرملية ، وعلى حافة هذا الأخدود توجد مجموعة من أشجار الجميز والنخيل • ويلمع خلال الأغصان صف من الأعمدة الصفراء القديمة التي تحمل اطارا خشبيا منقوشا • وتستكين قرية صغيرة قريبة ، ونرى فوق المنحدر الصحراوى البعيد ، الذى فى وسط المدافن العربية المهجورة ، مسجدا صغيرا ذا قبة وحيدة صغيرة تلمع بلونها الأبيض فى ضوء الشمس ، هذه هى القرنة • وتوجد هنا عين ماء ، وتقوم بعض الفتيات بسحب الماء من البئر القريبة من المعبد • وتقوم الحمير التى نركبها بارواء عطشها من الحوض المخصص لسقى الماشية ، وهو عبارة عن تابوت مكسور كان يحمل فى يوم من الأيام مومياء أحد الملوك • وهناك ساقية تديرها بقرتان لونهما أحمر ولهما وجهان مثل وجه الالهة حتحور • أما الرجل الكهل الذى يسوقهما فانه يجلس وسط العجلة ذات التروس ويدور معها ببطء كما لو كان يجرى تحنيطه • والآن نترك خلفنا البئر والأشجار والمعبد ذا الملامح الاغريقية ، ونتير وجوهنا فى اتجاه الغرب ، متجهين نحو فتحة هناك وسط الصخور مرصعة بفوهات المقابر الخالية • ومن السهل رؤية أننا ندخل الآن فوق ما كان حوضا للسيول فى يوم من الأيام ، وكانت المياه المندفعة من التلال تنتشر هنا على هيئة مروحة فوق منحدر الصحراء ، وتغطى الأرض بالصخور المتدحرجة ، وتحرثها فتحولها الى مئات من القنوات المتعرجة ، ويقع طريقنا اليوم فوق حوض السيول المذكور •

وتقف الصخور الموحشة مثل جنـود الحراسـة على الجانبين الأيمن والأيسر للوادى ، بينما يدخل الانسان من مدخل الوادى ، وتتخذ أشكالا غريبة مثل المسلات والكباش • بعضها متآكل عند القاعدة ، وترتفع الى أعلى مثل الأهرام المهجورة ، وتذكرنا بالمقابر التى فى طريق أبيان ، وكلما ضاق الوادى ، ازداد ارتفـاع حوائط الحجر الجيرى ، وسطع المسار المكون من الطباشير تحت أقدامنا ، ولمعت أكوام من الشظايا المرتعشة ، وتلألأت عند قواعد الصخور • أما الصخور فكانت تشع حرارتها البيضاء اللون • وأخـــذ الجـو يخفق مثـل البخار الغازى ، بينما الشمس فوق رؤوسنا • ولم يكن هناك نفس يتردد ، ولم يكن هناك أيضا ظل بعرض اصبع واحد على كلا الجانبين ، وكنا نشبه الذين يركبون فى فوهة فرن مشتعل • وفى نفس الوقت أخذنا نبحث بلا جدوى عن أية علامة تدل على وجود حياة • ولا تنمو هنا أية ورقة من أوراق النبات منذ بداية الخليقة • ولا يسكن هذه الصخور أى مخلوق تتردد أنفاسه • كل المنطقة موحشة ،

ويبدو هذا الخراب كما لو كان الانسان يحلم بأنه في عالم محاط بالنيران المتساقطة من السماء • وعندما مضينا لمسافة أطول ونحن نتبع مسار حوض السيول ، وصلنا الى مكان انحرفت فيه الحمير عن المسار الرئيسي واتخذت مسارا اجباريا يشق سورا من الحجر الجيري الصلب • وكان هذا المكان في يوم ما مجرد تجويف في الصخور ولكنه محجوب من الجانب الآخر بحاجز طبيعي من الصخور • وهنا يرقد واد آخر يقود الى مدرج منعزل بين الجبال • ولابد أن أول فرعون اختار موضع دفنه بين هذه الطرق المخفية هو الذي شق المسار ومهد الطريق الذي نسير فيه الآن • وهذا المســـــار هو باب الملوك ، وهو اسم المكان ولا شك في أنه كان معروفا به عند قدماء المصريين • ويظهر من خلال البوابة جبل ضخم •

ان مصر هي بلد الجبال الغريبة الشكل ، وهنا نرى جبلا يمثل على نطاق واسع كل ملامح هرم زوسر في سقارة ، فهو مربع الشكل ، ويرتفع طبقة فوق طبقة في تدرجات من الصخور الأسطوانية التي تفصلها عن بعضها منحدرات من الأنقاض ، وينتهي الى قمة خشنة مربعة الجوانب ترتفع حوالي ١٨٠٠ قدم فوق مستوى سطح السهل •

والآن وبعد أن جعلنا هذا الجبل أمامنا دائما ، فقد اتبعنا تعرجات الوادي الثاني وهو أكثر ضيقا وجفافا وبروزا من الوادي الأول • وربما كانت الحرارة هي التي جعلتنا نظن أن الطريق أطول من طوله الحقيقي بينما هو لا يتجاوز عدة أميال • ولكن هذا الطول كسر رتابة الطريق • ويتفرع منه واديان عميقان صغيران ، أحدهما الى اليمين والآخر الى اليسار ، وتوجد في كل منهما عند قاعدة الصخور فتحات مربعة تنتشر هنا وهناك مثل مداخل السراديب ، حيث تجد نصفها غائصا تحت السطح ، بما يوحي بأنه يضرب في جوف الأرض ، وفي اللحظة التالية وجدنا أن طريقنا ينتهي فجأة في متاهة متداعية موحشة مثل محجر متهالك ، وقد أوصدته من جميع الجهات حواف معلقة تظهر عند قواعدها مداخل غائرة في الصخر في نقاط مختلفة •

ومنذ اللحظة الأولى التي ظهرت فيها تأكدت أننا سنجد مقابر الملوك في هذا الجبل الهرمي الشكل ، لدرجة أنني وجدت صعوبة في تصديق المرشد وهو يؤكد لنا أن هذه السراديب هي الأماكن التي جئنا لمشاهدتها وأن الجبل لا يحتوي على أية مقابر ، فتسلقنا منحدرا حادا ووجدنا أنفسنا على عتبة المقبرة رقم ١٧ • وقال المرشد : « هذه هي مقبرة بلزوني » • وكما نعلم فان مقبرة بلزوني هي مقبرة سيتي الأول •

كم أشعر بالخجل وأنا أقول اننا تناولنا غداءنا فى ظل هذا المدخل الوقور ، واسترحنا واحسسنا بالانشراح قبل ان نهبط الى المقبرة المقبضة التى غاصت درجات سلالمها وممراتها فى الظلام السفلى كما لو كانت تقود الى أرض أمون مباشرة ٠

والمقابر التى فى باب الملوك لا تشبه المقابر التى فى الصخور المواجهة لمدينة الأقصر كما لو كان ملوك طيبة ينتمون الى جنس ومذهب يختلفان عن جنس ومذهب النبلاء ٠ كان هؤلاء الكتبة والوجهاء المبجلون يصورون مع زوجاتهم وعائلاتهم ، وأصدقائهم وأتباعهم العديدين فى أوضاع بهيجة ٠ انهم يعشقون مسرات هذه الحياة ، ولابد أنهم حملوا معهم متعلقاتهم والمعدات التى تسعدهم الى الأرض التى وراء القبر ، ولذلك قاموا بزخرفة حوائط مقابرهم بصور تمثل الطريقة التى عاشوا بها حيـــاتهم ، وتوقعوا أن المومياء وهى تقضى فترة الانتظـار الطويل وحيدة ، لابد وأن تجد الراحة فى هذه المواضع الظليلة التى تفيض بالذكريات ٠ أما الملوك فانهم على النقيض من ذلك فقد غطوا كل قدم من قصـــور اقامتهم بمناظر من الحياة الآتيــة ٠ فهناك جولات الروح بعـد انفصالهـا عن الجســد ، والأهوال والمخاطر التى تحاصرها فى رحلتها عبر هاديس ، والشياطين التى تصـارعها ، والاتهامات التى ترد عليهـــا ، والتحولات التى تطرأ عليها ٠ وهذه كلهـا تمثل موضـوعات لمناظر عديدة لا تحصى ٠ ولم نجد لمناظر صيد السمك والطيـــور والولائم وحفلات التسلية التى رأيناها فى اليـــوم الســابق فى هــذه الممرات التى وراء الرمســـيوم ، أثرا فى مقابر باب الملوك ٠ لقد وجدنا هنا بدلا من الغناء وعزف الصلاصل ، صلوات وابتهالات ، وبدلا من القوارب النيلية التى تثير البهجة ، وحفلات تناول الشراب ، ومطاردة الغزلان والوعول ، نجد الآن صياح البحار الذى ينقل فى قاربه الأرواح عبر النهر الموصل الى مقر الموتى ، وحوض النار التطهرية ، والنزاع مع آلهة الجحيم ٠ وهكذا نرى أن التناقض بين الاثنين حاد وغريب ، كما لو أن الأرستقراطية المنغمسة فى الملذات الحسية كانت تحت حكم ملوك شديدى التمسك بالدين ٠ والمقابر التى تحتوى على هذه الموضوعات ذات طابع دنيوى ، بينما مقابر ملوكهم عبـارة عن مزامير وثنيــــة ٠

وعندما تهبط الى احدى هذه المقابر العظيمة فانك تدلى بنفسك الى العالم السفلى ، وتسير فى ممر الظلال ٠ وبعد أن عبرنا العتبة ، نظرنا الى أعلى متوقعين أن نقرأ هذه الكلمات الرهيبة التى تحذر جميع الداخلين

من أن يتركوا الآمال خلفهم . لقد وجدنا الممر ينحدر أمام أقدامنا ، وضوء النهار يتلاشى خلفنا . وفي نهاية الممر يظهر سلم من الدرجات نرى عند قاعدته ممرا آخر ينحدر الى أعماق الظلام الشامل . وقد غطيت الحوائط التى على الجانبين بأعمدة من النصوص الهيروغليفية التى تتخللها أشكال تنذر بالشر نصفها الهى ونصفها الآخر شيطانى . لقد كانت الحيات الضخمة تتلوى بجانبنا بطول الجدران ، بينما تتقدم الأرواح الحارسة ذات الطلعة المتوعدة وهي تلوح بسيوف من اللهب . وتنفتح فوق رؤوسنا سماء غريبة . سماء تسافر فيها النجوم فوق قوارب عبر بحار الفضاء . وتشرق الشمس من اتجاه الشرق تحت حراسة الساعات والشهور وعلامات دائرة البروج ، وتغرب في اتجاه الغرب . ونعبر نصف الكرة الذى يحتوي على الليل الدائم . ونستمر فى جولتنا بينما يضمحل آخر وميض لضوء النهار على البعد . ونجد مجموعة أخرى من السلالم تقود الى مجموعة متتابعة من الممرات والقاعات بعضها صغير والبعض الآخر كبير ، وبعضها مقبب والبعض الآخر محمول على أعمدة . وهنا تنفتح حفرة عميقة نصف ممتلئة بالأنقاض . بينما تنفتح هناك مجموعة من حجرات ناقصة التشطيب تركها العمال . وكلما تقدمنا أكثر ، صارت الأرض المحيطة بنا أكثر وحشة . وكانت الحوائط تعج بأشياء قبيحة وشريرة منها الثعابين والخفافيش ، والتماسيح ، بعضها له رؤوس وأرجل بشرية ، وبعضها ينفث النار ، وبعضها مسلح بالرماح والسهام ، وكلها تتبع الأشرار وتعذبهم . وهؤلاء الأشرار ذوو الحظ السيء الذين مزقت صدورهم وأخرجت منها قلوبهم ، وضعوا في مراجل تغلي وقد علقوا منكسى الرؤوس وتحتهم بحار من اللهب ، كما نشبت الرماح فى أجسامهم ، وضربت أعناقهم ، ودفعوا فى مجموعات بدون رؤوس الى مناطق يلقون فيها عذابا أشد وطأة . وقد رأينا فى الضوء الخافت والمتقلب لبعض الشموع هذه الأهوال المرسومة وهى تكشف عن بعض ملامح الحقيقة الفظيعة وهى تبدأ عند مرورنا فى النور ، ثم تغرق خلفنا فى الظلام . وهذا الظلام وحده مثير للخوف ، والجو كله خانق ، والمكان مرعب ومسكون بالكوابيس .

وفى موضع آخر نأتى الى مناظر أقل رعبا ، فنرى الشمس تنبثق من نصف الكرة السفلى ، والموتى الصالحين يزرعون ويحصدون فى الحقول السماوية ، ويجمعون ثمارا علوية ويستحمون فى مياه الحقيقة ، وتستريح المومياء الملكية فى مقبرتها ، بينما تتلقى التماثيل الجنازية

للملك التعظيم والتكريم بما يقدم اليها من تقدمات من البخور واللحوم وسكائب النبيذ (١) . وفى النهار يصل الملك وقد أصبح نقيا ومبررا الى آخر مرحلة فى رحلته الروحية . وترحب به الآلهة فى حضرة أوزوريس وتستقبله فى المقر المقدس (٢) . وبعد أن خرجنا لحظة فى الضوء المبهر أخذنا نفسا طويلا من الهواء النقى عبر ياردات قليلة من الأرض غير الممهدة، ووصلنا الى مدخل حفرية أخرى . ودخلنا مرة أخرى فى ظـــلام تحت الأرض . وأخذنا نكرر هذه التجربة الغريبة للمرتين الثالثة والرابعة . انها تشبه رقاد الحمى الذى تقلقه الأحلام المخيفة وتقطعه نوبات الاستيقاظ المؤقتة .

ان المقابر متشابهة بشكل عام ، ولكن بعضها أطول من البعض الآخر (٣) وبعضها أعلى من البعض الآخر . ونجد فى بعضها أن الهبوط

---

(١) يقف كل تمثال من هذه التماثيل الجنازية فوق قاعدة أو منصة قائما ، واحدى قدميه متقدمة للأمام كما لو كان سائرا ، بينمـا تمسـك اليـد اليمنى بعـلامة العنخ رمز الحياة ، وتمسك اليد اليسرى بعكاز . والموقف هنا يشبه موقف التمثال الخشبى الذى فى متحف بولاق . ومن المناظر التى تستحق المشاهدة أن التماثيل تقف منعزلة وليس لها مساند خلفية على عكس حالة تلك التماثيل الأخرى المنحوتة فى الحجر أو الجرانيت . ولا شك فى أن هذه السلسلة الغريبة من التماثيل الجنازية تمثـل هؤلاء الذين كانوا فى الحقيقة موضوعين فى القبر ، وان الطقوس الممثلة هنا كانت فى الحقيقة تجرى أمامهم قبل اغلاق باب المقبرة . وقد أحضر بلزونى أحد هذه التماثيل الخشبيـة من نفس هذه المقبرة الى انجلترا وهو موجود الآن بالمتحف البريطانى (رقم ٨٥٤ ـ الصالون الأوسط) والخشب المصنوع منه هذا التمثال تالف ولذلك فهو موضوع داخل صندوق من الزجاج . أما اللوحات التى تمثل الطقوس المذكورة عاليـه فقـد نشرت نسـخة منهـا فى كتـاب روسيلليني Mon. del Culto وهى اللوحات من رقم ٦٠ الى رقم ٦٣ .

(٢) يوجد فى هذه المقبرة نقش مثير للانتباه يمثل غضب رع ودمار الجنس البشرى . وقد ترجمه مسيو نافيل فى الجزء الأول من المجلد الرابع من كتابه الذى نشر فى سلسلة Translations of the Biblical Arch. Society وهـذه هى الأسـطورة الوحيـدة التى تحمل تشابها عائليا مع سجل فيضان تشالديا (مدينة سومرية فيما بين النهرين) والفيضان هنا فيضان من الدم البشرى . ويغطى النقش حوائط حجرة صغيرة معروفة باسم حجرة المقبرة .

(٣) أطول مقبرة فى الوادى هى مقبرة سيتى الأول ويبلغ طولها حتى النقـطة التى تغلقهـا عندها الصخور الساقطة ٤٧٠ قدما ، بينما يبلغ عمق انحدارها حوالى ١٨٠ قدما . ويبلغ طول مقبرة رمسيس الثالث (رقم ١١) ٤٠ قدما ، بينما يبلغ انحدارها ٣١ قدما فقط . أما بقية المقابر فيتراوح طولها ما بين ٣٥٠ الى ١٥٠ قدما ، واقصرها محفورة الى مسافة ٦٥ قدما فقط . =

متدرج ، بينما هو في البعض الآخر حاد ومفاجيء • وهناك بعض المعالم المشتركة بينها جميعا مثل الحية الضخمة (١) والجعل (٢) والخفاش (٣) والتمساح (٤) وهذه المعالم واضحة على الجدران بصفة دائمة • وكذلك نرى باستمرار منظر المحاكمة والصـــورة المعروفة للأجناس البشرية الأربعة • وبعض المقابر تختلف من حيث الرسم التخطيطي والزخرفة(٥) • وأكثرها غرابة مقبرة رمسيس الثالث بالرغم من أنها لا تضارع مقبرة سيتى الأول فى الجمال •

وهنا صممت الزخارف فى معظمها على سطح غير منحوت مغطى بالجص الأبيض • والرسومات فى الغالب غير مختلفة ، أما الألوان فهى متكاملة من حيث الخشونة والبهرجة • فاللون الأصفر متوفر ، واللونان الأحمر والأزرق يذكراننا بالكتب المصورة والملونة التى عرفناها فى طفولتنا • ومن الصعب حقا أن نفهم كيف كان منشيء مدينة هابو الذى توفر له أحسن فن مصرى فى حينه ، راضيا بمثل هذه الزخارف الجدارية •

ومازال رمسيس الثالث هو الذى يتمتع بفكرة عظيمة عن دخول العالم الآخر بهذه الفخامة وحوله خدامه • ونرى فى سلسلة من الحجرات الصغيرة المؤدية الى حجرات كبيرة والتى تنفتح على الممر الأول ، رسومات كافة الأثاث المنزلى ، وكافة الألواح والأسلحة وثروة الملك وخزائنه • ونرى فوق حوائط احدى هذه الحجرات الطباخين والخبازين وهم يجهزون

= وقد زرنا مقبرة فى الأساسيف تتجاوز أبعادها أبعـاد اية مقبرة أخـرى من مقـابر الملوك • وهذه المقبرة المذهلة التى تتكون من متاهة ضخمة من القاعات والممرات والسلالم والحفر والحجرات تبلغ مساحتها ٢٣٨٠٩ قدما مربعـا • وهى تخص بيت آمون وهو كاهن لا نعرف العصر الذى عاش فيه •

(١) هى الحية أبو فيس وفي لغة قدماء المصريين أباب أى حية الظلام الضخمة التى لابد بأن ينتصر عليها الاله رع بعد أن يغرب فى الغرب ، وقيل أن يشرق مرة أخـرى فى الشرق •

(٢) خبير الاله الجعران •

(٣) رمز الظلام •

(٤) التمساح يمثله الاله سوبك وهذا الاله يطلق عليه فى احدى البرديات الموجودة فى متحف بولاق اسم : ابن ايزيس ويصـارع اعداء أوزوريس • وهو هنـا يصارع الحية لصالح الاله رع •

(٥) ان المقبرة رقم (٢) فى أول وهده صغيرة الى يسـارك وانت تصـعد الوادى ، تحمل خراطيش رمسيس الثانى وقد زحفت الكاتبة بقدر ما سمحت حالة المقبرة ، ولكن الممر كان لا يسمح بالمرور بعد الثلاثين او الأربعين ياردة الأولى •

الغداء الملكى • وقد ظهرت فى حجرات أخرى عروش فخمة وسفن مذهبة ذات أشرعة ملونة بلونين ، وزهريات ذهبية وفضية ، ومجزون ضخم من الأسلحة والدروع ، وأكوام من الأخشاب الثمينة وجلود الفهد الأسود ، والفواكه ، والطيور ، والسلال الغريبة ، وكافة هذه الأدوات التى تمثل الترف الشخصى مثلما كان الفرعون يستمتع بها فى قصره • ونرى هنا أيضا القيثارتين الشهيرتين وهما مشوهتان؛ولكنهما مازالتا تكتسحان الأوتار باللمسة القديمة القوية التى خففت دائما من ثقل ساعات الحزن التى كان يعيشها الملك • وهاتان الصورتان الحماسيتان اللتان لا شك فى أنهما من الصور النصفية (١) تعوضان فقر بقية الصور •

وما زالت التوابيت الفارغة تحتل أماكنها القديمة (٢) فقد رأينا واحدا منها فى الغرفة رقم (٢) (الخاصة بالملك رمسيس الرابع) وتاووسا آخر فى رقم (٩) (رمسيس السادس) • والأول منهما عبارة عن كتلة ضخمة من الجرانيت الأسود ، وهو مقاوب ولكنه سليم تقريبا • أما الثانى فقد هشمه الباحثون عن الكنوز •

كانت معظم مقابر باب الملوك مفتوحة فى أيام البطالمة ، وعلى ذلك فقد كانت جموع الزوار القدامى الذين تركوا كالعادة رسومهم التافهة على الجدران ، يزوروتها مع غيرها من مناظر وعجائب طيبة مثلما يحدث.

---

(١) كانت هاتان القيثارتان عندما شاهدهما سير ج• ويلكنسون لأول مرة فى حالة جيدة لدرجة أنه نكر أن احداهما على الأقل ، ان لم تكن كلتاهما ، ظاهرة • والقيثارتان عظيمتان ومطليتان ومزخرفتان بتماثيل نصفية للملك • واحدى هاتين القيثارتين بها أحد عشر وترا وفى الأخرى أربعة عشر وترا •

(٢) تابوت سيتى الأول الذى أحضره بلزونى الى انجلترا موجود فى متحف سير ج• سون Sir J. Soane وهو منحوت من كتلة واحدة من المرمر الفاخر ومغطى بنقوش هيروغليفية غائرة ، وعدة مئات من الاشكال والأوصاف الكثيرة لمسار الشمس خلال ساعات الليل • انظر مقالا بعنوان : Le sarchopfage de Seti 1 بقلم P. Pierre بمجلة Revue Arch. المجلد الحادى والعشرين ، ص ٢٨٥ ، سنة ١٨٧٥ •

أما تابوت رمسيس الثالث فهو موجود بمتحف فيتز ويليام Fitz-William . فى كمبردج • أما غطاؤه فهو موجود ضمن المجموعة المصرية بمتحف اللوفر. انظر : Remarks on the Sarcophag us of Rameses III. بقلم S. Birch ، الناشر جامعة كمبردج سنة ١٨٧٦ ، وانظر أيضا : Notice Sommaire de Monuments Egyptiens du Louvre. بقلم E. De Rougé ، ص ٥١ ، باريس ، سنة ١٨٧٣ •

الآن ، ولا نعرف بالضبط متى وبفعل من انتهكت حرمه هذه المقابر ؟! ولا نشك فى أن الفرس قد سلبوا بعضها ، كما أن المصريين أنفسهم قد سلبوا بعضها الآخر قبل قمبيز بوقت طويل • ولم يكن الملوك سالمين فى مقابرهم حتى فى أيام الرعامسة بالرغم من ترتيب حراسة خاصة تقوم بدوريات دائمة فى « الوادى العظيم » • وفى عصر رمسيس التاسع الذى توجد مقبرته هنا تحت رقم (٦) ، يبدو أنه كانت ثمة عصابة منظمة ليس فقط من اللصوص ولكن أيضا من هؤلاء الذين كانوا يتسلمون البضائع المسروقة ويعيشون على الأسلاب التى من هذا النوع • وتبين بردية معاصرة (١) كيف كانت المومياوات الملكية توجد ملقاة فى السراديب وقد سرقت جميع مجوهراتها الذهبية والفضية مع الكنوز التى كانت مصاحبة لها فى مقابرها • وفى موضع آخر نرى ملكا وزوجته الملكة وقد نقلت مومياء كل منهما ؛ لكى تحل أربطتها ويجرى العبث بمحتوياتها فى وقت الفراغ • وقد سجلت هذه المعلومات الغريبة فى شكل تقرير دونه حاكم طيبة الغربية الذى قام ومعه ضباط وقضاة آخرون بالتفتيش على مقابر « الملوك السابقين » خلال حكم رمسيس الرابع •

ولم تكتشف أية مقبرة سليمة فى وادى باب الملوك • حتى مقبرة سيتى الأول دخلها اللصوص خلسة قبل أن يكتشفها بلزونى بعصـــور طويلة ، وقد وجد فى داخلها تماثيل من الخشب والصينى ومومياء ثور ، ولكنه لم يجد شيئا قيما فيما عدا التابوت الذى كان فارغا • ولا شك فى أن

---

(١) هذه البردية موجودة بالمتحف البريطانى وتسمى بردية ابوت • وقد ترجمها مسيو شاباس ضمن سلسلة Mélanges Egyptologiques ــ الكتاب الثالث ، باريس وشالون سنة ١٨٧٠ ــ وهى تسجل قائمة بالمقابر الملكية التى قامت بالتفتيش عليهـا لجنة مصرية فى شهر أثير (فى سنة غير معروفة) خلال حكم رمسيس الرابع وتذكر ضمن المقابر التى زارتها اللجنة « التمثال الجنازى للمـلك ان ـ عا ، الواقع فى شـــمال معبد امنحتب الذى فى الشرقة • وقد كسر ظهر التمثال فى المـكان الذى كانت اللوحة موضوعة فيه أمام الأثر بحيث كان تمثال الملك يقف فوق اللوحة بينما يقف كلبه الذى يسـمى باحوكا بين ساقيه ، تم فحصه فى هذا اليوم ووجد سـليما » • وكان هـذا هو تقرير كاتب هذه البردية منذ ٣٠٠٠ سنة مضت • وبعد ذلك يأتى دور احدى عجـائب الكشوف الحديثة • كان مسيو مارييت منذ عدة سنوات يقوم بالحفر فى هذا الجـزء من المقبرة التى تسمى الأساسيف التى تقع فى شمال خرائب معبد امنحتب فاكتشف بقايا مقبرة هذا الملك واللوحة المكسورة التى تحمل على صفحتها وبكامل طولها حفرا بارزا للملك ان ـ عا ، أو (انتف ـ عا) وأمامه ثلاثة كلاب والكلب الرابع بين ساقيه • وكان اسم الكلب باحوكا محفورا فوق ظهره باللغة الهيروغليفية ، انظر Tablet of Anteffa II تأليف S. Birch الجزء الأول من المجلد الرابع ، ص ١٧٢ •

الكهنة كانوا متورطين فى تدنيس هذه المقدسات التى كانت معاصرة لهم • لقد كانت هناك أسماء سبعة من الكهنة وثمانية من كتبة الشئون الدينية ضمن أسماء المتهمين التى أوردتها البردية المشار اليها آنفا وعددهم تسعة وثلاثون متهما •

وكانت تجارة متعلقات الموتى المسروقة من الأشغال التى تدر ايرادا وفيرا فى طيبة • وقد تأكدنا أن الفراعنة العظام الذين دفنوا فى وادى مقابر الملوك(١) قد ذهبوا الى قصورهم المظلمة المجهزة للحياة الأخرى(٢)

---

(١) تبين المجوهرات الجميلة التى وجدت على مومياء الملكة عا ـ حتب ، كيف كان يجرى تزيين جثث الموتى من الأسرة المالكة وكم كانت تدر سرقة مقابرهم من ايرادات • وقد صورت هذه المجوهرات وطبعت صورها بعد توصيفها حتى صارت معروفة لهؤلاء الذين لم يشاهدوها فى متحف بولاق ، وقد حدث هذا الاكتشاف فى ظروف مثيرة للشك فالمومياء (كانت فى داخل التابوت الداخلى فقط) قد وجدها حفارو مارييت فى الرمل على بعد عدة أقدام تحت السطح بالقرب من سفح التـل المعـروف باسم (ذراع أبو النجا) • ما بين القرنة ومدخل وادى الملوك ، وعندما نتذكر أن التابوت الخارجى لمومياء هذه الملكة قد وجد سنة ١٨٨١ فى المقبرة المشهورة بالدير البحرى حيث اكتشف العديد من الملوك والرفات « فى ضربة واحدة » وعندما يضاف الى ذلك حقيقة أن الفأس الرسـمية للأمير كامس ومجموعة من الصدريات الجميلة وغيرها من الأشياء ذات القيمة قد وجدت فى طيات اللفائف الخارجية لهذه الملكة فانه يبدو لى أن سر دفنها بدون مقبرة يحتاج الى تفسير بسيط • وأنا مقتنعة بأن مومياء الملكة عا ـ حوتب ، قد نقلها الى هناك من أعماق القبو المذكور الأعراب الذين كانوا يعرفون لسنوات طويلة سر هذا المـكان المستخـدم لاخفاء الكنوز ، وأنها قد دفنت فى الرمال بشكل مؤقت حتى تحين فرصة مناسـبة لنقلها الى الأقصر • وعلاوة على ذلك فانه لم توجد أية مجوهرات فوق المومياوات الملكية فى مقبرة الدير البحرى ، لأنها قد أخذت منذ زمن طويل وبيعت ، ولذلك فان المجوهرات التى وجدت مع مومياء عا ـ حتب تمثـل التصفية الأخـيرة وقـد جمعـت من مجموعـة من توابيت المومياوات الملكية الأخرى • وأظن أن وجود الفأس الرسمية للأمير كامس بينها لا يدل على أن الأمير كامس كان زوجا للملكة عا ـ حتب ولكنه كان ضمن الذين نقلت موميا واتهم الى هذه المقبرة التاريخية • والدليل العملى على أنه كان زوجها يتمثـل فى حقيقة أن الأساور التى حول رسغيها ، والتاج الذى فوق رأسها والحلى التى فوق صدرها كانت منقوشة أو مطعمة بخراطيش هذا الأمير • (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •

(٢) هناك رسم غريب موجود فى احدى البرديات بمتحف اللوفر يمثل أولا الموكب الجنازى للمدعو نيب ـ سيت المتوفى وثانيا داخل التابوت بما فيه المومياء والتقدمات وأثاث المقبرة ، جميعها مرسومة وملونة باسهاب شديد • ونرى ضمن الأشياء المرسومة هنا مشعاين وثلاث زهريات وصندوق ومرآة وزجاجة للكحل وصندلا وعصا وعلبة مرهم وزجاجة عطر وجرة للاغتسال • « هذه الأشياء الخاصة بالتجميل (لأنه ربما كان الصندوق يحتوى على ملابس) قد وضعت فى المقبرة لليوم الذى تستيقظ فيه الجثة حسب المعتقد =

وعندما يفكر الانسان في المجوهرات والاثاث والزهريات والمراهم والملابس والأسلحة والوثائق الثمينة التى كانت مدفونة فى هذه المقابر مع المومياوات الملكيــة التى كشفت عنها الحفائر ، نجد أنه من الأمور المثيرة أن تفلت مومياء ملكة واحدة بينما تقع جميع المومياوات الملكية الأخرى فى أيدى اللصـــوص ·

ومن بين جميع المقابر التى فى وادى الملوك اكتشفت مقبرة واحدة تخص الملك رمسيس الثالث وقد كان من أغنى الفراعنة (١) وكان متذوقا ممتازا للفنون لا يشك أحد فى أصالة ذوقه · ولذلك فاننا ربما نتأكد من أن مقبرته كانت مؤثثة بكافة أنواع الأشياء الجميلة والثمينة ·

ما الذى ندفعه الآن فى مقابل أن نجد بعض هذه الزهريات الذهبية والفضية المزخرفة ؟ وهذه العروش والأرائك المنجدة مثل الوسائد ، وهذه الأقواس وجعبــة السهام ، والقمصــان الرجالى المرسومة بعناية فوق جدران الحجرات الجانبية التى فى القاعة الأولى ! وأنا لا أشك فى أن عينــات جميع هذه الأشــياء كانت مدفونــة مع الملك وتركت مجهزة لاستخدامه الشخصى · لقد مات وهو يعتقد أن روحه (الكا) ستستمتع وتستخدم هذه الكنوز ، وأنها ستعود بعد دورات طويلة من الاختبار ، وتسكن مرة أخرى فى جسدها المومياء · كان يؤمن بأنه سيقوم مثل القيام من النوم ويحل أربطته ويأكل وينتعش ، ويرتدى صــندله وملابســه المعطرة ويمسك عصاه بيده ويمضى فى نور النهار الأبدى ، أيها الروح المسكين الذى يتجول فى الفضــاء بدون جســد ! أين هى الآن لحومك المطبوخة ، وملابسك التى تتغير باستمرار ، وعطورك ودهاناتك الثمينة ؟

= الشائع ، ولذلك كان القبر مجهزا مثل مساكن الأحياء » · هذه الفقرة مترجمــة من كتاب : Catalogue des Manuscrits Egyptiens des Louvre المنشور فى باريس سنة ١٨٧٥ ـ ص ٨٠ ، وقد ظهر تخطيط مقبرة نيب ـ سيت أيضا فى هذه البردية كما ظهرت روح المتوفى كطائر له رأس انسان وهو يحوم فوق المومياء · وهناك ناووس فاخر بمتحف بولاق (رقم ٨٤) مزخرف بطريقة مشابهة حيث يبين المومياء فى التابوت وقد زارتها أو اتصلت بها الروح · وعندى فى المجموعة التى أمتلكهــا بردية جنازية بها رسم زخرفى على وجه واحد يتعرض لنفس الموضوع ، بينما تحمل على الوجه الآخر رسما هندسيا للأثر الذى على مقبرة المتوفى ·

(١) كان الملك رمسينيتوس (رمسيس الثالث) يملك ، كمــا يقــال ، ثروة طائلة من الفضة لدرجة أن أحدا من الأمراء أو الملوك الذين خلفوه ، لم يتفوق عليه أو حتى يتساوى معه فى امتلاك مثل هذه الثروة · انظر : هيرودوت ـ الكتاب الثانى ـ الفصل ١٢١ ·

أين هو ذلك الجسد الذى كنت تحرص عليه يوما ما ٠ من المستحيل العودة اليه بدون البعث (١) ٠ ان الانسان يتخيل تنهداتك الضعيفة خلال هذه القاعات المهجورة عندما يخلد كل شيء الى السكون وينتشر ضوء القمر فى أرجاء الوادى ٠

كانت حياتنا فى طيبة مكونة من التناقضات ٠ كان بزوغ الصباح بين المعابد ، يليه الظهر الذى ينقضى فى اقتناص الآثار ، وقضاء النهار فى التأمل بين المقابر ثم ينتهى بحفل عشاء على سطح ذهبية بعض الأصدقاء ، أو الاستماع الى الموسيقى فى القنصلية البريطانية ٠ وقد نالت السيدة (ل) والكاتبة نصيبهما من اقتناص الآثار ، سواء فى الأقصر أو غيرها ، ولكن فى الأقصر بشكل أساسى ٠ وأستطيع القول بأن حياتنا هنا كانت ملاحقة طويلة لمسرات الصيد ٠ والحقيقة أن اللعبة كانت ممنوعة ولكننا مع ذلك استمتعنا بها لأنها كانت غير قانونية ٠ وربما استمتعنا بها أكثر ٠

وكانت هناك همسات تدور فى ذلك الوقت حول مقبرة كانت قد اكتشفت فى الجانب الغربى ، وهى مقبرة بديعة غنية بكافة أنواع الكنوز ٠ وبالطبع فان أحدا لم يشاهد هذه الكنوز ، ولا أحد يعرف من الذى وجدها ، وكذلك لا يعرف أحد المكان الذى أخفيت فيه ٠ ولكن كان هناك ظل من شك يدور حول بعض الأعراب ، ونظرة ذات معنى نحو بعض الزوار ، ورائحة انتباه يقظ نحو موظفى الحكومة الذين تآمروا فى هذا الموضوع ٠ وقد أدت هذه الاشاعات شيئا فشيئا الى مقارنات محددة ٠ وقد ألقيت التلميحات على بردية معينة ٠ لقد أبلغت م ٠ ب ٠ التى تثرثر حول المومياوات أن هناك مومياء فوق سطح ذهبية أمريكية ترسو بشكل برىء بالقرب من الكرنك ٠ والآن فان السيدة (ل) والكاتبة لم ترغب

---

(١) انه مستحيل من وجهة النظر المصرية « أن لا يضيع الجسم أو يفسد » ، هذا الموضوع محل عناية شديدة ولهذا الغرض كانت العديد من الاحجبة والتعاويذ تجهز مع ترتيبات سحرية معينة ، وتقدس بصلوات معينة ، أى حتى تقدمات واضاحى صغيرة توزع على اجزاء مختلفة من المومياء ٠ لقد كان خلود الجسم من خلال بعض الأساليب السرية ، ضروريا كمسار للروح ٠ وفى فترة تالية أصبح النمو أو التعويض الطبيعى للجسد مطلوبا بنفس قوة التمسك بالحياة او مسار الروح الى المناطق العليا ٠ انظر :Introduction to the Funeral Ritual تاليف : S. Birch فى الجزء الخامس من Bunsen's Egypt – لندن – سنة ١٨٦٧ م

أى منهما فى أن تمتلك شـيئا مصريا قديما • أما البرديـة فانها تبعث الرغبة فى امتلاكها • وفى لحظة معينة أبدينا الرغبة فى مشاهدتها • ومن تلك اللحظة فان كل واحد من خاطفى المومياوات اعتبرنا فريسته المشروعة • ومع تسللنا من وكر الى آخر شاهدنا جميع البضائع المسروقة فى طيبة • وكان بعض هذه الأشياء غريبا ومثيرا للاهتمام • لقد عرضت علينا فى أحد المنازل زهريتان من البرونز أحيطت كل منهما بمجموعة من النقوش الهيروغليفية المحفورة بشكل رقيق والتى تدور حول الحافة • وكذلك حامل مصنوع من القش الذى تصنع منه السلال وملون بلونين ، ويشـبه تماما ذلك الحامل المصور فى الجزء الأول من كتاب سير ج • ويلكنسون (١) عن الأصـل الموجود بمتحف برلين • ورأينا الكثير من قطع توابيت المومياوات والنحت الجدارى والموائد التى كانت فى المقابر • وفى احدى المرات وجدنا أنفسنا فى حضرة احدى المومياوات !

لقد كانت جميع هذه المنازل مقابر • وفى هذا المنزل وضعت المومياء فى فجوة فى نهاية ممر طويل محفور فى الصخر وربما كان هو نفس المكان الذى احتله فى يوم من الأيام المستأجر الأصلى • والمومياء تنتمى الى نفس الفترة التى تنتمى اليها تلك التى رأيناها مدفونة تحت اشراف الحاكم • وكانت محاطـة بنفس نوعيـة التغليف الملون بعدة ألوان على أرضية بيضـاء • ولن أنسى هذا المنظر الغريب : القبو المظـلم والمترب والأعراب بمشاعلهم ، والمومياء بلفائفها الصارخة الألوان ترقد على سجادة قديمة تحت أقدامنـا •

وفى نفس الوقت حاولنا بدون جدوى أن نرى البردية التى نشتاق اليها • وبعـد هبوط الليـل طرق أعرابى من لصوص المقـابر طرقـة أو طرقتين ، وتحدث حديثا غامضا مع الترجمان ، ولكنه لم يصل الى الهدف • لقد عرضها فى البداية مع مومياء لقاء مبلغ ١٠٠ جنيه استرلينى • ولما وجد أننا لن نشترى برديته التى لم نرها ، ولا مومياءه مقابل أى ثمن ألح فى المسـاومة وتردد لمدة يـوم أو اثنين محاولا أن يلعب معنا ضـد منافس أو منافسين غير معروفين واختفى فى النهاية • ووجدنا أن هؤلاء المنافسين هما م • ، ب • لقد اشتريا المومياء والبردية معا بمبلغ ضخم ولكنهما لم يستطيعا احتمال رائحة العطر المنبعث من المومـيـاء المصريـة القديمة فأغرقا الراحل العزيز عند نهاية الأسبوع ؟!! • وهناك مساومون

---

(١) عنوان الكتاب : The Ancient Egyptians • الجزء الأول ، الفصل الثانى ، الصورة رقم ٩٢ ، لندن ، سنة ١٨٧١ •

آخرون أقل حساسية. وعلى كل حال فقد سمعنا عن خمس عشرة مومياء هربت خفية خلال هذا الشتاء من جمارك الاسكندرية بمعرفة وكيل واحد . والحقيقة أن السياح الذين يستخدمون نهر النيل لديهم رغبة متزايدة فى حيازة المومياوات . ولسوء الحظ فان السعر يرتفع مع زيادة الطلب . وبالرغم من أن المنجم لم يستنزف الا أن حيازة مومياء فى هذه الأيام ليست فقط ممنوعة ولكنها أيضا رفاهية مكلفة .

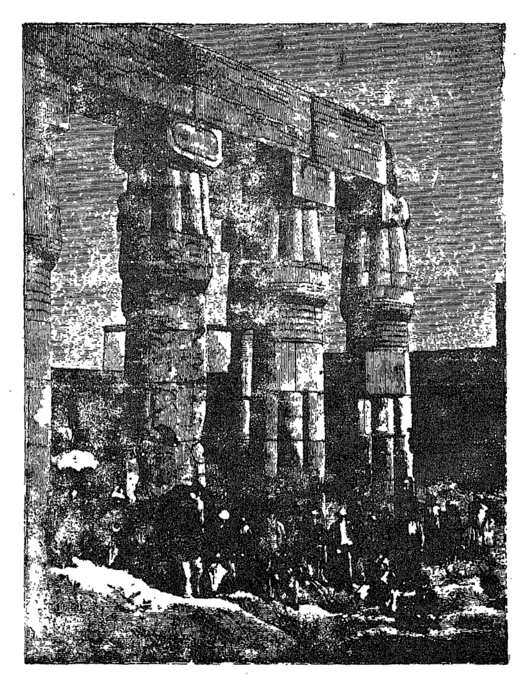
ان قناصل انجلترا وأمريكا وفرنسا بالأقصر من العرب. أما قنصل روسيا فهو قبطى . أما قنصل النمسا فهو أمريكى أو كان أمريكيا . وقد أرانا القنصل الفرنسى المبنى القديم المتداعى الذى يسمى « المنزل الفرنسى » (١) وهو بناء بدائى من سعف النخيل والطوب المجفف فى الشمس . وقد أقيم جزء منه مقابل معبد الأقصر والجزء الآخر فوق معبد الأقصر ، الا أنه له مكانته فى التاريخ لأنه فى سنة ١٨٢٩ أقام به شامبليون وروسلليني معا للقيام بعملهما خلال جزء من فترة اقامتهما الطويلة فى طيبة .

ويحكى روسيلليني كيف أنهما اعتادا الجلوس أثناء الليل لكى يقتسما ثمار عمل اليوم . فكان شامبليون ينسخ ما يمكن أن يكون مفيدا لقواعد اللغة المصرية القديمة ، بينما ينسخ روسيلليني الكلمات الجديدة التى تشكل أساس القاموس الذى كان يقوم بتأليفه . وأقام هناك أيضا ضباط البحرية الذين أرسلتهم فرنسا سنة ١٨٣١ لنقل المسلة القائمة الآن فى ميدان الكونكورد . وهناك أيضا أقامت الليدى داف جوردون خلال مواسم الشتاء الأخيرة من حياتها تكتب هذه الحروف البهيجة التى أسعدت العالم . ولم يكن من السهل الوصول الى الحجرات التى عاشت فيها أولا ،

---

(١) اكتسحت هذا المنزل الفرنسى الان ، المنازل العربية الحديثة التى زحمت أطلال معبد الأقصر . وقد رسمت صورة له من نفس البقعة التى يقع فيها ، واحتل هذا الرسم صفحة كاملة فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب . وبالرغم من أن المنظر قد تغير الآن كلية فان هذه الصورة قد أعيد طبعها فى الطبعة الثانية الحالية بوصفها تذكارا للماضى وقطعة من التاريخ القريب * وقد استطعت عن طريقها وبأسلوب المقارنة أن أحظى بعطف صاحب جريدة Illustrated London News فقدمت له صورة محفورة لقسم من صف الأعمدة الذى يحيط بالهيكل الذى بنى فوقه المنزل الفرنسى القديم . واذا لم أكن مخطئة فان هذه الأعمدة الخاصة تربط الجانب الغربى للفناء الذى يعبره الانسان الى درجات السلم الذى يؤدى الى حجرات الليدى داف جوردون . (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) .

المنزل الفرنسى فى الأقصر ٠



بهو اساطين امنحوتب الثالث بالأقصر ٠

والشرفة التى نالت فيها هذه المتعة ، وذلك بسبب الحالة السيئة التى وصلت اليها درجات السلالم ٠ ولكننا رأينا الحجرات التى عاشت فيها مؤخرا ٠ ومازالت أريكتها وسجادتها وكرسيها الذى يمكن طيه ، كلها موجودة هناك ٠ وكانت الجدران مزينة ببعض الصور القليلة الرخيصة ، وزوج من الشمعدانات المصنوعة من القصدير ، والحجرات كلها عارية وغير مريحة ٠

وسألنا عما اذا كانت هذه حالتها عندما كانت السيدة تعيش فيها ، فأجاب القنصل العربى بأنها كان لديها « منضدة وبعض الكتب » ويبدو

أنه هو نفسه كان يعانى من آخر مراحل مرض السل الرئوى فهو يتحدث ويتحرك مثل شخص فى نهاية حياته • لقد صـــدمنا بوحشة المكان حتى ذهبنا الى الشباك الذى يطل على نهر النيل والسهل الغـــربى من طيبة فوجدنا أنه يعوض فرش الغرفة ويبدل فقرها الى فخامة •

وكانت الشمس على وشك الغروب ، واستطعنا أن نميز تلال وبوابات مدينة هابو وموقع الرمسيوم • وكانت الصخور الكبيرة التى يعلوها جبل باب الملوك الهرمى الشكل ، تبدو ذات لون قرمزى فى مواجهـــة السماء ذات اللون الأزرق الذى لاتشوبه شائبة • أما الممر الذى يقود الى وادى مقابر الملوك فقد ظهر مثل ندبة بيضاء ساخنة تدور بطول وجه الصخور • أما النهر فكان يعكس درجات لون السماء اللازودية • وظننت أننى أستطيع أن أرضى بقضاء العديد من فصول الشتاء فى مثل هذا المسكن غير المريح مادمت سأشاهد دائما هذا المنظر العجيب بجمال نوره ولونه وفضـــائه وتاريخـــه وســـحره الذى ليسـت له حـــدود ، أمام نوافذى (١) • وهناك منزل تاريخى آخر هو ذلك الذى بناه ســير ج • ويلكنسون بين مقابر الشيخ عبد القرنة • وقد عاش هنا عندما كان يجمع مادة كتـــابه Manners and Customs of the Ancient Egyptians.

وهنا أيضا أقام لبسيوس ورفاقه الفنانون عندما كانوا يعملون فى البر الغربى • ولم يكن للعلم الا القليل من التأثير على العقول المحلية ، فلا أحد يتذكر الآن شامبليون أو روسيللينى أو السير ج• ويلكنسون ، ولكن كل عربى فى الأقصر يحتفظ بذكرى الليدى داف جوردون فى أعماق قلبه ، ويتحدث عنها بالخير •

وكان المنزل الفرنسى قد بنى فوق سطح الهيكل الذى فى الطرف الجنوبى من المعبد • أما فى الطرف الشمالى فقـد بنى منزل مصطفى أغا أكرم وأرق القناصل الانجليز ، بين صف الأساطين الضخمة المنحوتة من الحجر الرملى • وكان مصطفى أغا قد سافر الى أوزبا وهو يتكلم اللغات الايطالية والانجليزية والفرنسية بطلاقة • وكان ابنه الأكبر حاكما للأقصر ، أما الأصغر « أحمد الصغير » الذى سعدت الليدى جوردون بتعليمه ، فقد قضى عامين فى انجلترا ضيفا على لورد دى Lord D • وأصـــبح وجيها انجليزيا مثقفا •

كانت القنصلية الانجليزية تلعب الدور القيادى فى جـولة الترفيه التى تدور حول الأقصر • وكان مصطفى أغا يقوم بالترفيـــه عن جميع الذهبيـــات الانجليزية التى كانت تسعده • وقد دعينا الى العـــديد من

---

(١) منح محمد على هذا المنزل للفرنسيين وظل ملكا لهم حتى هدمه مسيو ماربيت منذ ثلاث سنوات (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) •

الحفلات في القنصلية وتعشينا مع مصطفى أغا في منزله الذى فى الضاحية فى المساء السابق على يوم رحيلنا من الاقصر ٠

وكانت الساعة المحددة هى الثامنة والنصف ٠ فوصلنا وسط نباح الكلاب الكثير ، واستقبلنا مضيفنا فى صـــالة ضـــخمة واسعة محاطة بديوان من الأرائك ٠ وانتظرنا هنا حتى الاعلان عن العشـــاء ، وحينئذ اقتادونا الى غرفة مؤدية الى غرفة أخرى أكبر منها حيث وجدنا فى انتظارنا اثنين من الخـــدم المعممين الحفاة كان أحدهما يحمل حوضا وابريقا من النحاس بينما حمل الآخر ملء ذراعه من المناشف التركية ٠

وعندئذ تقدم كل منا بدوره ورفـع يديه فوق الحوض لكى يصب عليهما الماء وتسلم منشفة خاصـــة به حيث طلب الى كل منا أن يحتفظ بمنشفته لكى يستخدمها على المائدة ٠ وكانت الغرفة تنفتح على حجرة طعام رائعة الاضاءة ذات حجم متوسط ، فى وسطها منضدة نحاسية مستديرة ذات حافة عمـودية محفورة مثـل صينية ضخمة ٠ وقد وضع لكل فرد كـــرسى وكتلة ضـخمة من الخبز وملعقة خشـــبية وقدحان وباقة من الأزهار ٠ ولم توضع أطباق أو سكاكين أو شوك ٠

وكانت الحفلة مكونة من الزوجين السعيدين ومدير مكتب تلغراف الأقصر والسيدة (ل) والكاتبة وأحمد ومضيفنا ٠ وقال مصطفى أغا وهو يرشدنا الى أماكن جلوسنا : « كلنا عرب فى هذه الليلة لأننا سنشرب ماء النيل ونأكل بأصابعنا » ٠

وشربنا ماء النيل ، وأكلنا بأصابعنا للمرة الأولى فى حياتنا ٠ والحقيقة أننا اكتشفنا فائدة هذه الأصابع ٠ وكان الغذاء فاخرا ، وأقول ـ مع احترامى لرئيس طهاتنا وكافة رؤساء طهاة أصدقائنا العديدين على نهر النيل ـ ان ذلك العشاء كان أحسن عشاء تناولته خارج أوربا ٠ كانت جميع الأصناف ساخنـــة وأخذ السفرجيـــة يقدمونها بسرعة وهم يرتدون ملابس تثير الاعجاب ٠ كما كانت نوعية الأصناف من أفضل النوعيات ٠ واليك قائمة بالأصناف التى قدمت لنا بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٨٧٤ :

شوربة تركية بيضاء ـ سمك مقلى ـ وكانت الأطباق الرئيسية هى : حمام مسلوق ـ سبانخ وأرز ـ والمشويات : ضلمة مشـــوية ـ ثم طبق رئيسى مكون من كباب من لحم الضأن ـ وكبة من كلاوى الضأن ـ وأرز بالطماطم ـ وكفتة ٠ ثم أدخلت مشويات جديدة عبـــارة عن ديك رومى بصلصة خيار ٠ ثم قدم طبق رئيسى عبارة عن أرز مفلفل بالزبدة والملح والفلفل ٠ وقدمت الحلوى فكانت مكونة من مشمش محفوظ ، وكنافة ، وأرز باللبن ، وجيلى باللون القشر ٠

وقد وضعت هذه الأطباق في وسط المائدة واحدا بعد الآخر • وكان يتم تغييرها بسرعة • وقد غمس كل منا ملعقته في الشوربة ثم جذب قطع السمك أو لحم الضأن بأصابعه • ولما لم تكن هناك أطباق فقد استخدمنا أرغفة الخبز كأطباق • وأخـــذ مصطفى كمضيف يقظ يقطع الخبز بين الحين والآخر ثم يعطيه للضيوف فردا فردا • ان تناول الطعام بالأصابع في مأدبة فخمة ، والانحناء مع هذه الأصابع بمهارة ، علم له أصـــول • ولكنني لا أظن أن ذلك سينسيني الطريقة العجيبة التي هجم بها مضيفنا على الديك الرومي وظفر به • وكان الديك عبارة عن كتلة صلبـة تزن حوالى عشرين رطلا ومحمرا تحميرا كاملا • لقد قام مضيفنا نصف قيام وشمر أسورة القميص ووازن معصمه ثم دفع اصبعيه الســـبابة والابهام في عمق صدر الديك واستخرج شريحة طويلة صلبة الألياف ينبعث منها الدخان ثم أودعها في طبق الكاتبة ، ثم أدار الديك حول المائدة وســـط ضحكات الحاضرين • وقام كل منهم بمعاقبته كل في دوره • أما طبق الأرز المتبل الذى قدم بعد ذلك فهو دائما الطبق الأخير الذى يقدم في العشاء المصرى أو التركى • وبعد ذلك تم تغيير ملاعقنا ، ووضعت الحلوى فوق المائدة • وكانت المشروبات خلال كل ذلك لا تتعدى الماء القراح وشوربة الأرز والليمونادة • وأخذ بعض الموسيقيين الوطنيين يعزفون في غـرفة الاستراحة أثناء تناول الطعام • وعندما نهضنا عن المائدة غسلنا أيدينا بنفس الطريقة السابقة •

وعدنا الآن الى القاعة الكبرى • ولما كنا غير مدربين على فن وأسرار جلسة القرفصاء فقد تكورنا بقدر مانستطيع فوق الأرائك • وقد أرشد مصطفى أغا الكاتبة الى المقعد الذى في الركن عند الطرف العلوى للحجرة حيث قال ان أميرة ويلز قد جلست فيه عندما تناولت سموها العشاء مع سمو أمير ويلز عنده في العـام الماضي • وبعد ذلك قدمت لنـــا الغلايين والقهوة • أخذ الرجال يدخنون الجوزة والسجائر ، بينما قدمت لنـــا شيشة ضخمة بأنابيب طويلة لينة ، ومباسم عنبرية اللون • وتناولـت السيدة (ل) غليون الأميرة وأخذت تدخن التبغ بمهارة طوال المساء ، ورويدا رويدا وصل المحافظ ثم قاضي الأقصر ثم القنصل البروسي وابنه ثم ثلاثة أو أربعة من التجار الذين يرتدون الثيــاب الحريرية والعمائم الكبيرة • وفي نفس الوقت أخذت الفرقة الموسيقية المكونة من عازفين للكمان وعازف للرق وطبلة ، تعزف على فترات متقطعة عند الطرف البعيد من القاعة •

وأخذت الغلايين والقهوة والليمونادة تمر بصفة مستمرة . واستمرت التسلية بالطريقة التى تجـرى بهـا حسب عادة مواطنى الأقصر ، مع استعراضات الراقصات .

لقد شاهدنا تلك الراقصات فى حفلين موسيقيين سابقين وأعجبنا بهن فى المرة الثالثة كما فى الأولى . كن يرتدين سراويل تركية فضفاضة ، وعباءات مفتوحة من الطراز المبهرج ، وكمية كبيرة من المجوهرات . وكانت الراقصة الأولى امرأة لطيفة وجميلة الى حد ما . ولكن كانت ضمن الفرقة راقصة نوبية سميكة الشفتين بحيث لانكتشف فيها أية جاذبيـة . ان استعراضات الراقصات غير رشيقة وكلها ايحاءات . وتحتاج منا الى اعادة وصفها هنا . لقد رأيناهن مرة واحدة وهن يرقصـن رقصـا طبيعيا ، ثم أخذن يتمايلن قليلا الى الشمال والى اليمين وهن يطرقن الصاجـات ويدرن ثم يدرن ويبالغن فى الانحناء بطول الغرفة بين حين وآخر . وقد قيل لنا ان هذا الرقص غير معروف الأصل . وكن يغنين بين آونة وأخرى . ولكن أصواتهن كانت غليظة واللحن نشاز .

وكان ضمن الفرقة دائما عازف من المواطنين سمعنا عنه عدة مرات ولم نكل من الاستمتاع بمهارته . وكان هو قائد هذه الفرقة الصغيرة وهو رجل عجوز يعزف على الربابة . ولا نستطيع اخفاء أنه لا توجد آلة أخرى ليس لها دور فى المستقبل أكثر من الربابة . الا أن المواطن الكهل جعلها تصدر موسيقى رائعة الجمال . كانت نغماته الصولو تتكون من أصوات نائحة وتغييرات مرتجلة مطرزة بجمل موسيقية صعبة ، وأحيانا متكررة أكثر من اللازم . وكان يبدأ دائما برزانة ثم يسخن تدريجيا حتى يبدو فى النهاية وقد نسى كل شىء فيما عدا سعادته بما يقدمه من العزف . ويستطيع الانسان فى تلك اللحظات أن يـرى أنه كان ينسـج بعض الرومانسية فى أفكاره ثم يترجمها الى أصوات . وبينما كانت الأوتار تنبض تحت أصابعـه ، كان يغمره الحماس . وفى أكثـر من مرة وهو يمطرنا بنغماته الحادة كان يصـف لوعة العاطفة المتأججة ، وكنت حينـذاك أرى وجهه يتغير ويده ترتعش .

وبالرغم من أننا سمعناه مرات كثيرة ، ودعوناه أكثر من مرة ضمن أصدقائنا المدعوين للغداء الا أننى آسف لأننى أنسى اسم هذا الفنان العظيم الصـادق . وعموما ، فانه يلقى الترحيب فى طيبـة ويستدعى كثيرا الى أرمنت واسـنا وقنـا وجرجا وغيرها من المدن الكبيرة لكى يعزف فى الحفلات الخاصة .

وعندما كنا فى الأقصر ذهبنا فى صباح أحد أيام الأحد الى الكنيسة القبطيـة وهى مبنى كبير فى الطرف الشمالى من القرية ، وهنا تجد أن الكنيسة والمدارس ومقر الأسقف مجتمعة تحت سقف واحد ، ومحاطة بفناء ، ذلك لأن الأقصر بها أحـد الكراسى الأسـقفية الاثنى عشر التى تنقسم اليها كنيسة مصر القبطية ·

أما الكنيسة التى أعيد بناؤها فى السنوات الأخيرة فهى مبنية من الطوب الأحمر ، وبها محراب صغير (شرقية) جهة الشرق · وفى الطرف الغربى ردهة للسيدات منفصلة خلف ستار · أما الجناح الأوسط فربما بلغ عرضه ثلاثين قدما · أما الأجنحة الجانبية اذا صح اطلاق هذه التسمية عليها فهى مزدحمة بأعمدة حجرية كثيرة تسند عقودا دائرية · وقد أخذت هذه الأعمدة من الكرنك وقدمها الخديو هدية للكنيسة · وهذه الأساطين ذات تيجان تمثل براعم اللوتس ، ويبلغ ارتفاعها حوالى خمسة عشر قدما · ويوجد فى الطرف العلوى من الصحن أمام المحـراب بحوالى ثمانيـة عشر أو عشرين قدما ، حجاب رائع الجمال مرصـع بأخشاب الأرز والأبنوس وأخشاب الأثاث والعاج وعرق اللؤلؤ ، ويعتبر هذا الحجاب مفخـرة للكنيسة · ومن خلال الفتحة التى فى الوسط ينظر الانسان مباشرة الى المحراب الصغير (الهيكل) ذى السقف الذى يشبه عربة البضاعة والذى يحتوى على مائدة صغيرة وقنديل معلق ، وهو مظلم مثل هيكل أحد المعابد المصرية القديمة · أما الحامل الذى يوضـع فوقه الكتب التى تقـرأ فى الكنيسة (المنجلية) فهو يشبه كرسى مكتب بلا مساند ويواجه جمهـور المصلين · أما خلف الحجاب فيوجد كرسى الأسـقف وقد بنيت معظـم الكنائس القبطيـة حسب هـذا التصميم الذى يمـاثل تقريبـا تخطيط الكاتدرائية الأولى للقديس بطرس فى روما ، ولكنها تختلف جذريا فى عدد المحاريب حيث يصل عددها الى خمسة محاريب فى بعض الكنائس · أما الردهة فتحتوى على حوض يسمى حوض الغطاس حيث يغطس الرجال أثناء الاحتفال بعيد الغطاس تذكارا لعماد السـيد المسيح · وقد اقتادنا تادرس الصغير ابن القنصل البروسى الى الكنيسة فدخلناها فى حوالى الساعة الحادية عشرة وشاهدنا نهـاية القداس الذى كان يدور حينذاك منذ بداية النهار · وكانت الردهة مزدحمة بالنساء والأطفال بينما ازدحمت الأجنحة الجانبية بالرجال من النوعية الفقيرة · وقد تجمع عدد قليل من الأقباط الذين ارتدوا الملابس الفاخرة بالقـرب من الحجـاب وأخذوا يستمعون الى شماس يلبس رداء أسود كان يقف على المنجلية وبيده اليسرى شمعة مضاءة · وكان الكاهن الذى يلبس الملابس البيضاء المطرزة بصليب

بالطلى أحمر على الصدر والظهر يجثو على عقبيه عند مدخل الصحن . أما الأسقف وكان يرتدى ملابس سوداء بما فيها العمامة فقد كان يجلس متجها بظهره جهة الجمهور .

وعندما دخلنا اتجهت الينا جميع الأنظار ، وتوقف القارىء وانتصب الكاهن وحتى الأسقف نظر حوله . وفى الحال حضر اثنان من الشمامسة خدام الهيكل وقد حمل كل منهما كرسيين من الخيزران ، وأبعدا جميع الذين كانوا يقفون بالقرب منا ، ثم أجلسانا فى صف عبر وسط الكنيسة . وبعد انتهاء هذه المقاطعة استؤنفت القراءة .

وقد لاحظنا الآن أن كل كلمة تقرأ بالقبطية كانت تترجم شفهيا الى العربية بمعرفة شاب يرتدى رداء كهنوتيا يقف أمام الحجاب فى مواجهة الجمهور . ولم يكن فى يده كتاب ولكنه استمر فى الترجمة بطلاقة متتبعا صوت القارىء ، وقد قيل لنا ان ذلك لا يحدث الا عند قراءة الانجيل والصلاة الربانية . أما باقى القداس فانه يستمر بدون ترجمة ، وان اللغة القبطية بوصفها لغة غير مستعملة فى الحيـــاة اليومية ، غير مفهومة لدى جماهير النـــاس .

وبعد انتهاء قراءة الانجيل تقهقر الشماس ثم تقدم الكاهن وأعطى اشارة لتلاميذ المدرسة الذين حضروا جـــريا من كافة أنحاء الكنيســـة وانضموا الى المرتلين فى موقع الانشاد بصوت مرتفع . وقد تهيأ لنا أن هذه الترنيمة هى خاتمة الجزء الأول من القداس .

وكان الجزء الثانى هو خاتمة صلاة القداس . وتقدم الكاهن الى باب الهيكل ونظر نحو الجمهور ، وبسط يديه ثم اعتلى عتبة المحراب وبدأ فى ترديد ما يبدو أنه ابتهالات ثم كشف عن القرابين المقدسة التى كانت حتى الآن مغطاة بمنديلين زرقاوين من القطن ، واســـتدار وهز المنديلين أمام الجمهور ، ثم قدس الخبز والخمر ورفع قربانة الحمل أمام الجمهور ، وبدأ بمناولة نفسه أولا من الخبز والخمر .. وكان هناك جرس صغير يدق أثناء التكريس ثم مرة أخرى أثنـــاء توزيع القربان . وفى نفس الوقت وقف الناس فى وقار وقد أحنوا رؤوسهم ، ولكن أحـدا لم يركع أثنـــاء الخدمة . وبعد ذلك غسل الكاهن القائم بالخدمة يديه فى حوض نحاسى وجاء الشماس الذى هو نفسه ناظر المدرسة ودار حول الكنيسة حاملا طبقا به قطع صغيرة من القربان ثم وزعها على جميع الحاضرين ، وتبعـه أحد شمامسة الخدمة فى الهيكل ومعه طبق يجمع فيه العطاء من الحاضرين .

وحسبنا الآن أن الخدمة قد انتهت ولكن بقى أربعة أطفال صغار ذوى لون بنى معمدين وفى انتظار البركة الختامية ، وكان هؤلاء الأقباط الأربعة الصغار قد حملوا الى الكنيسة بمعرفة أربعة من شمامسة الهيكل وتبعهم أربعة آباء قلقين • وغمغم الكاهن بصلاة قصيرة للبركة ورسم الأطفال بالصليب الذى غمسه فى ماء الحوض الذى غسل فيه يديه من قبل ثم شرب الماء ومسح الحوض بقطعة من القربان ، وأكل القربان ، وصرف الأربعة المعمدين الصغار بعد أن باركهم فى سرعة (*) •

وأخيرا ، فان الأسقف الذى لم يشترك فى خدمة القداس ولا فى التناول ، نزل عن كرسيه ووقف أمام المذبح لكى يبارك الجمهور • وهنا اصطف جميع الرجال والأطفال فى صف واحد بين الحجاب والمحراب فى جانب واحد ، ثم انصرفوا من الجانب الآخر بعد أن وضع الأسقف يده على رأس كل واحد منهم أثناء مروره • وعندما كانوا يتلكأون كان الأسقف يصفق بيديه متعجلا ويقوم ناظر المدرسة بالاشارة اليهم طالبا سرعة المرور • وبعد انتهاء مرور الجميع (تلاحظ أن النساء والبنات قد مررن ولم ينلن نصيبا من هذه البركة) خلع الكاهن ملابس الخدمة البيضاء ووضعها فى كومة فوق المذبح • وقام الشماس بتوزيع سلة من القربان على الفقراء ، وسار الأسقف نحو آخر الصحن ، وكان أثناء سيره يأكل قربانة ويوزع قطعا منها هنا وهناك على الأقباط الذين كانوا يرتدون ملابس فاخرة • وهكذا انتهت هذه الخدمة المثيرة والغريبة التى وصفتها منذ قليل للسبب الذى تمثله ربما مع بعض التغيير ، وهو أنها أقدم عبادة مسيحية تجرى ممارستها فى مصر منذ فجر التاريخ (١) •

(*) قدمت الكاتبة هنا لمحات غير دقيقة وأوصافا للكنيسة وصلوات القداس بها بعض التجاوزات ويبدو أن أحدا لم يشرح لها ـ (المترجم) •

(١) الأقباط هم المسيحيون من مذهب اليعاقبة الذى ينادى بالطبيعة الواحدة للمسيح • وقد رفض الغربيون مذهبهم هذا وأدانوه فى مجمع خلقدونية الذى انعقد فى عصر الامبراطور مرقيان • وقد أطلقت عليهم تسمية يعاقبة التى يشتهرون بها نسبة الى يعقوب البرادعى وهو سورى كان يعتبر المبشر الرئيسى بمفاهيم الطبيعة الواحدة • أما نظام الكهنوت فى الكنيسة القبطية فيتكون من البابا ، ثم رئيس أساقفة اثيوبيا والأساقفة والقمامصة والقسوس والشمامسة والرهبان • ومازال مذهب اليعاقبة هو العقيدة التى يتبعها الاثيوبيون • انظر كتاب E. W. Lane وعنوانه : The Modern Egyptians ـ الملحق رقم ١ ، ص ٥٣٦ ، لندن ، سنة ١٨٦٠ •

تعليق للمترجم : تشير الكاتبة الى الأقباط فى هذه الحاشية بل وفى جميع المواقف التى تخصهم فى هذا الكتاب ، باعتبارهم خارجين على الدين وهو مذهب الطبيعتين الذى =

وقبل ذهابنا طلبنا الاذن بالنظر فى الكتب التى كانت تقرأ أثناء الخدمة ، وكانت كلها قديمة ومستهلكة وكان أفضلها حالا هو الكتاب الذى يجمع أسفار العهـــد الجديد ، وكان مكتوبا على الرق بالحبر الأحمـــر والأسود ، ولاشك أن القبطى مثل اليونانى محافظ ولا يقبل الابتكار ٠ ولفتت انتباهنا بعض الحروف القبطية لأنها تشبه الحروف الهيروغليفية المعروفة (*) ٠

وعندما كنا نفحص الكتب أرسل الأسقف خادمه يدعونا لزيارته - وتبعنا الرجل فصعدنا معه درجات سلم خشبى خارجى يقع فى أحد أركان الفناء ٠ وأدخلنا الى حجرة كبيرة يقع جزء منها فوق سطح الكنيسة ٠ وهنا وجدنا الأسقف ٠ كان وسيما وممتلىء الجسم قليلا ووقورا وله عينـــان ناعمتان بلون بنى ، ولحية ذات لون رمادى تقريبا ٠ وقد جلس متربعا على أريكة وهو يدخن نارجيلته ٠ وقد وضعت قارورتان أو ثلاثة من الصينى الشرقى باللونين الأزرق والأبيض فوق منضدة فى وسط الحجرة ٠ وكانت النوافذ الكبيرة التى بدون ستائر تطل على الكرنك ٠ وأخذت العصـافير الدورية تدخل وتخرج منها مع هبوب الرياح ٠

وقد استقبلنا الأسقف بحفاوة ، وبدأ اللقـــاء كالعادة بتقديم التبغ والقهوة ٠ وقد تضمنت المحـادثة التى تلت ذلك الأسئلة التى كنا نقوم بتوجيهها والاجابات التى كان يقـدمها من جانبه ٠ لقـد سألنا عن حدود ايبارشيته وعرفنا أنها تمتد من أسوان فى الجنوب حتى قنا فى الشمال ٠ وقال ان ايرادها يحصل بكامله من أوقاف الأراضى الزراعية ، وقدر عدد

= نادى به الغربيون فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥٠ م ٠ ونوضح هنا أن الطبيعتين همـا الالهية (اللاهوت) والانسانية (الناسوت) منفصلتين فى شخص المسيح الولحد بينما الطبيعتان متحدتان فى طبيعة واحدة فى شخص المسيح الواحد لدى اليعاقبة ، لأنه لا انقسام فى المسيح الاله المتأنس ٠ وقد ترتب على النزاع الذى جرى فى مجمع خلقيدونية انفصال الغربيين عن الكنيسة الواحدة وظهور مذهب الكاثوليك الذى خرج منه فى بداية العصور الحديثة كافة المذاهب البروتستانتية ، بينما ظلت الكنائس الشرقية على الايمان الخاص بالطبيعة الواحدة للمسيح وهو الايمـان الأورثوذكسى وظلت مصر ممثـلة فى كنيسـة الاسكندرية القبطية الارثوذكسية تقود العالم المسيحى حسب الفكر المسلم من رسـل المسيح وتبعتها فى ذلك بقية الكنائس الأورثوذكسية فى الشرق ومن بقى عليه فى الغرب - (المترجم) ٠

(*) الحروف القبطية ما هى الا حروف يونانية مضاف اليها ثمانية حـروف ديموطيقية - (المراجع) ٠

الأقباط في الأقصر بألفي قبطي وهي نسبة تبلغ ثلث عدد السكان · وقد بنيت الكنيسة وتمت زخرفتها في عهد سلفه ، أما هو فقد جلس على كرسي الاسقفية منذ فترة لاتتجاوز أربع سنوات ثم تحدثنـــا عن الخدمة التي شاهدناها منذ لحظة وعن الكتب التي اطلعنا عليها · وأطلعته على كتاب الصلوات الخاص بي ففحصه باستغراب شديد · فشرحت له الاختلافات المدونة في الملحوظات المكتوبة بالحبر الأسود والعناوين المكتوبة بالحبر الأحمر ، كما أشرت الى الأجزاء التي تؤدى في شكل ترانيم ، ولكنه كان أكثر اهتماما بالغلاف الخارجي عنـــه بمضمون الكتـــاب ، ونقر عليه مرة أو مرتين لكي يعـــرف ما اذا كان مصنوعا من الجلد أو الخشب أما عن الأركان المطلية بماء الذهب والابزيم فلم يشك في أنها جميعها مصنوعة من الذهب ·

ثم تحول الموضوع للحديث عن اللغة القبطية فسأله الرجل الكسول عما اذا كان يعتقد أن هذه اللغة هي نفسها لغة المصريين القدماء · فأجاب عن ذلك قائلا :

« لا شك في ذلك · وماذا يمكن أن تكون غير ذلك ؟ » ·

وهنا ذكر الرجل الكسول أنه بعد أن اطلع على بعض كتب الكنيسة فان اللغة القبطية تبدو له بوصفها شكلا محرفا من أشكال اللغة اليونانية البيزنطية · فهز الأسقف رأسه وقال :

« ان اللغة القبطية لغة منفصلة مستقلة · وقد أضيفت الى الأبجدية القبطية من اليونانية ثمانية حروف عند دخول المسيحية الى مصر · ومنذئذ دخلت العديد من الكلمات اليونانية الى مفردات اللغة القبطية ، ولكن ظلت اللغة القبطية كما هي ، نقية وخالصة وليس بينها وبين اللغة اليونانية أية صلة جذرية » (١) ·

---

(١) كان الأسقف محقا في معظم حديثه فاللغة القبطية هي اللغة المصرية القديمة (بمعنى أنها اللغة المصرية المتأخرة والمحرفة) وهي مكتوبة بالحروف اليونانية بدلا من الهيروغليفية وذلك لأن التحرر من الكتابة المصرية القديمة كان ضـمن اولويات اغراض الكنيسة المصرية المبكرة في مصر بعد التحرر من صور وتماثيل الالهة القديمة · ولما كان من الصعب اقتلاع جذور وابادة لغة أمة عظيمة فقد اهتم الاباء المسيحيون بان يلبسوها ثوبا جديدا بحيث تختفي منها كافة الرموز القديمة ويتم نسيانها · وفي عصر القديس كليمنت الاسكندري (٢١١ ميلادية) بطل استخدام أسلوب الكتابة الهيروغليفية ولم =

وكان هذا أطول حديث استمعنا اليه · وقد أدلى به الينا مع بعض التأكيد ·

ثم سألته عما اذا كانت اللغة القبطية لغة ميتة (أى غير مستخدمة فى شئون الحياة اليومية) فأجاب بأن العديد من الكلمات القبطية مثل أسماء الشهور وبعض الأعياد ، ما زالت مستخدمة حتى اليوم·ولم يكن ذلك هو ما أقصده بالضبط ولذلك أعدت صياغة السؤال وسألته عما اذا كانت هناك بعض عبارات من القبطية مازالت موجودة بين الفلاحين · فتوقف برهة قبل أن يجيب قائلا : « هذا سؤال يصعب الرد عليه بشكل دقيق ولكننى أظن أنك قد تجدين فى بعض القرى البعيدة رجلا عجوزا يعيش هنا أو هناك يستطيع أن يفهم اللغة القبطية الى حد ما » ·

= يضيع سر قراءة الهيروغليفية حتى زمن سقوط الامبراطورية الرومانية الشرقية وقد تحدثنا فى احدى حواشى هذا الكتاب من قبل عن الكيفية التى اكتشف بها شامبليون مفتاح اللغة الهيروغليفية · ويقول شامبليون عن العلاقة بين اللغة القبطية واللغة المصرية القديمة :

« La langue égyptienne antique né différait en rien de la langue appélee vulgairement coupte ou Cophte ... Les mots égyptien écrits en caractères hieroglyphiques sur les monuments les plus anciens de Thèbes, et en caractéres Grecs dans les livres coptes, ne different en general que par l'absence de certaines voyelles médiales omises, selon la méthode orientale, dans l'orthographe primitive. » Grammaire Egyptienne, p. 18.

وبالرغم من ان الاسقف كان مصيبا تماما فى قوله بأن اللغة القبطية واللغة المصرية القديمة هما لغة واحدة ، وأن القبطية كانت لغة مستقلة ، وليست لها علاقة باللغة اليونانية الا انه مخطىء تماما فى هذا الجزء الثانى من التوضيح وهو المتعلق بالحروف الابجدية فقد ذكر ان هناك ثمانية حروف من الابجدية اليونانية أضيفت الى الابجدية القبطية عند دخول المسيحية الى مصر فلم تكن هناك لغة قبطية سابقة على هذا التاريخ فالابجدية القبطية هى الأبجدية اليونانية كما فرضها على مصر آباء الكنيسة اليونانية المبكرة ، وأن هذه الأبجدية كانت غير كافية لنقل جميع أصوات اللسان المصرى ولذلك تمت استعارة ثمانية حروف من اللغة الديموطيقية لاستكمال النقص ·

تعليق من المترجم : كانت اللغة اليونانية هى لغة الادب والعلوم وظلت محتفظة بمكانتها هذه حتى فى العصر الرومانى ، وقد كتب اباء الكنيسة القبطية الاوائل أمثال القديسين كليمنت وأوريجانوس واثناسيوس الرسولى مؤلفاتهم باليونانية التى كانت مستخدمة الى جانب اللغة القبطية التى استعار الاقباط لكتابتها الابجدية اليونانية التى كانت معروفة ومستخدمة فى مصر منذ فتح الاسكندر الاكبر وقيام اسرة البطالمة الذين يعودون الى أصل يونانى مع اضافة الحروف الثمانية من الديموطيقية ، وهى حقيقة لا يمكن أن يخطىء فيها الاسقف · ولا شك أن الأقباط فعلوا ذلك بمحض ارادتهم ولم يفرضها عليهم احد لانهم كانوا على دراية باليونانية الى جانب لغتهم المصرية ـ (المترجم) ·

وأظن أن هذه اجابة مهمة على سؤال مهم .

وبعد ان جلسنا حوالى نصف الساعة ، وقفنا للرحيل ، فشد الأسقف على أيدينا فردا فردا ، وقد صحبنا الى قمة السلم وهو أمر كنا نحاول منعه .

وكانت هذه مقابلة سارة ، فقد قيل لنا ان الأقباط يتصرفون بخشونة وأنهم شديدو التعصب ، لدرجة أنهم لا يكرهون الشخص المسلم بقدر كراهيتهم لأتباع الطوائف المسيحية .

وبالرغم مما نعرفه عن ذلك الا أننا لم نر شيئا منه ، بل على العكس وجدنا سلوكيات عديدة تنم عن الأدب من الأقباط الذين حضرنا معهم خدمة القداس . وأظن أن أى سائح يأتى الى مصر لايمكن أن يتجاهل حضور القداس فى احدى الكنائس القبطية ، لأن الكنيسة القبطية الآن هى المكان الوحيد الذى يستطيع الانسان أن يستمع فيه الى آخر تعبيرات ذلك الجنس البعيد الذى جعلنا زخارف مقابره على معرفة تامة به . اننا نعرف أنه قد دخلت تغييرات كثيرة على هذه اللغة منذ كانت هى اللغة التى تحدث بها رمسيس الأكبر وكتب بها بنتاؤور . ونعرف أن أقباط اليوم يشبهون المصريين الذين عاشوا فى عصور الفراعنة الى حد ما ، ربما بمثل التشابه الموجود بين الانجليز الذين عاشوا عصر ماكولى وهؤلاء الذين عاشوا عصر تشوسر . ولكن اللسان المصرى القديم غير مستخدم حاليا ، ولذلك كنا مشتاقين لسماع تلك الأصداء الأخيرة لهذه اللغة القديمة عندما كان يتلوها أحفاد هؤلاء المصريين الذين لا يشك أحد فى انتسابهم اليهم . وأتوقع فى خلال الخمسين عاما القادمة أو نحو ذلك أن تحل اللغة العربية محل القبطية فى تلاوة قداسات هذه الكنيسة . وحينذاك سيضيع تقليد النطق بها . وقد قيل ان الأقباط أنفسهم أخذوا يفحصون العقيدة السائدة . وربما يحدث فى الوقت الذى يقوم فيه أحفادنا بالاحتفال بمرور ألفى عام على ظهور المسيحية أن يكون الأقباط واللغة القبطية قد اندثرا معا من مصر (*) .

(*) لو كان العمر قد امتد بالكاتبة الى اليوم لشاهدت الامتداد الحالى للأقباط وكنيستهم الأرثوذكسية ولغتهم القبطية الى بلاد آسيا وافريقيا وبلاد المهجر فى الامريكتين واستراليا واوربا . ولابد أن الاقباط فى انجلترا كانوا سيوجهون لها الدعوة لحضور مناسبة الاحتفال بمرور ألفى عام على ظهور المسيحية بالكنيسة القبطية الموجودة حاليا فى لندن — (المترجم) .

وبعد ذلك بيوم أو يومين انحدرنا الى الكرنك ، وبقينا هناك حتى نهاية الأسبوع • وفى الأحد التالى استأنفنا رحلتنا الى الشمال •

واذا لم يكن عالم الأدب مشروطا وأن الكتاب الحالى غير محـــدود بعنصرى الزمن والمساحة ، فقد كنت أرحب باضافة فصـل آخر هنا عن الكرنك • ولكن الكتابة عن الكرنك بانصـــاف ، ستحتاج ليس فقط الى فصل بل الى مجلد • ولذلك فما دمنا قد ذكرنا شيئا عن أول انطباع تركه فينا هذا التيه من العجائب فاننى لن أضيف شيئا آخر •

الفصل الثاني والعشرون

أبيدوس والقاهرة

ومرت الأسابيع الأخيرة من رحلتنا النيلية مثل يوم صيف طويل يقود الى الكسل ، فقد أصبحت الأحداث قليلة ، وقد تفوقنا على زملائنا السائحين من حيث طول الفترة التي قضيناها • وحتى ركاب الذهبية باجستونز الأوفياء مضى على رحيلهم الى الشمال فترة طويلة ، وكانت فيلة هي آخر ذهبية لهذا العام•ولم يتبق أمامنا من مناظر النيل العظيمة الا مشاهدة أبيدوس وبنى حسن • ولم يعد لدينا الكثير من القوة للقيام بالرحـــلات الصغيرة والنزهات اليوميـــة واستطلاعات الطريق ، ذلك لأن درجات الحرارة كانت ترتفــع كل يوم ، كما أخذ مستوى نهر النيـــل ينخفض تدريجيا • وكنا على وشك الموت لو لم نشعر بتأثيرات ربيع مصر التي تتمخض عن اشاعة روح الكسل •

ان المواطنين يدعونه الربيع ، أما بالنسبة لخيالنا نحن الذين نعيش في الشمال فهو عبارة عن فصول الربيع والصيف والخريف مجتمعة معا في فصل واحد • ولن يستطيع تكوين مفهوم عن عظمة الأجواء والغنى الغزير للتربة في هذا الفصـــل ، الا هؤلاء الذين تباطأوا في الرحيـــل بالنسبة للآخرين • وتجد الآن هدوءا شاملا لم تشهده صفحة الأرض من قبل • وبدأت خضرة أشجار النخيل التي كانت يانعة في الشتاء ، تتلاشى بسرعة • وأخذت المحاصيل في النضج ، وبدأ الحمام يتزاوج ، وقد جاء وقت غناء الطيور ، وأصبحت الرياح التي تهب كل يوم كافية لأن تجعل الذهبية تسير في طريقها بشكل مستقيم ، وتحول دون خفقان الشراع • لقد ارتفعت درجـــة الحرارة ولكنها ظلت عند المستوى الذي يســتطيع الانسان أن يستمتع به • وكان الرجال يجدفون ليلا ، وينامون نهارا تحت الأرائك المستطيلة ، أو يغنون الأغاني القديمة ، أو يقصون الحكايات فيما بينهم بصوت خفيض ، أما بخصوص الغطاء الرقيق من الدخان الذي يتعانق فوق القرى،فانه يوحي للانسان بأن تلك المجموعات من الأكواخ

الطينية قد هجرها سكانها · لأننا لم نعد نشاهد كائنا بشريا يتجول على الضفتين بعد سطوع الشمس · وكانت كل جاموسة تقف فى المياه الضحلة التى تصل الى عنقها ، بينما كانت الحمير تتزاحم معا حيثما وجدت الظل · وقد تخلت الكلاب عن النباح ورقدت نائمة تحت ظل الجدران ·

لقد تغير وجه البلد وكذلك النيل ، عن المرة الأولى التى عبرنا فيها من قبل ، ذلك لأن الأرض التى كانت قد تحولت الى ساحة مربعة مثل رقعة الشطرنج الضخمة وتخللتها آلاف القنوات الصغيرة ، قد أصبحت الآن بحرا واحدا يموج بسنابل القمح الصفراء · أما النهر فقد تحول الى متاهة من الضفاف الرملية التى كان بعضها صغيرا والبعض الآخر كبيرا ، والبعض الأخير على وشك أن يطل برأسه فوق سطح الماء · وكان بعضها بالغ الطول بحيث يشق النهر على امتداد ميل أو أكثر · لقد قضى الريس حسن نصف حياته على مقدمة السفينة باحثا عن الأماكن الضحلة من النهر لكى يستخدم فى عبورها العصى الطويلة التى تدفع الى قاع النهر · وعندما كنا نعبر هذه المساحات الرملية المستقيمة كنا نراها كما لو كانت جزءا من قناة السويس · وكذلك كان انحدار الضفتين يماثل ضعف انحدارهما عندما أخذنا طريقنا فى اتجاه الجنوب · أما حقول العدس التى كانت قد أزهرت على المنحدر الذى يلى حافة الماء فقد تباعدت الآن الى قمة الحافة الجبلية الشديدة الانحدار ذات اللون البنى التى يمتد عند قاعدتها مسطح رطب مزروع بالبطيخ ، وقد امتد فوق سقف صغير من سعف النخيل لحمايتها من الشمس ·

وفى نفس الوقت الذى أصبح فيه مستوى النهر منخفضا مع ارتفاع الضفتين ، لم نستطع لسوء الحظ أن نستمتع بهبات النسيم الخفيفة التى أخذت تحرك أعواد الشعير بين حين وآخر · وأخذ الترمومتر (المعلق فى أشد أركان الصالون برودة) يزحف الى أعلى متجاوزا درجة ٩٩ فهرنهيت ، ولكنه لم ينجح فى الوصول الى درجة ١٠٠ ، وعلى كل حال فقد كنا ونحن نعيش فى جو نصف مظلم ونوافذ مغلقة مع أشرعة مبللة ، قمنا بنشرها على جوانب الذهبية ، ومناشف مبللة معلقة داخل قمراتنا ، نجد أن درجة ٩٩ دافئة بما يكفى للاحساس بالسعادة · وكنا نغمر السطح العلوى بالمياه عدة مرات يوميا ، ومع ذلك كان من الصعب منع ألواح الخشب من البروز · وفى نفس الوقت كرست السيدة (ل) والرجل الكسول أوقات فراغهما للقضاء على الذباب باستخدام مناشف

مبللة ورش الأرضيات • وفى خلال هذه الفترة كلها كنا نتقدم ببطء لأن الرجال لا يستطيعون التجديف نهارا • وبينما كانت الشواطىء الرملية الغارقة تهددنا بأخطارها أثناء الليل فلم يعد فى وسعنا الا التقدم لعدة أميال خلال الفترة ما بين غروب الشمس وشروقها باستخدام العصى الطويلة التى تدفع الى قاع النهر • وكنا بين الحين والآخر نأتى الى مساحة خالية من العوائق ، كما أننا كنا فى بعض الأحيان نتقابل مع النسيم الجنوبى الرقيق لمدة ساعة أو ساعتين ولكن هذه اللمحات من الحظ السعيد كانت قليلة ومتباعدة •

وفى مثل هذه الظروف والأجواء ، وجدنا أنفسنا على بعد ستة أميال من دندرة ولكن حتى السيدة (ل) لم تقع تحت اغراء ركوب الحمير لقطع هذه الأميال الستة تحت حرارة شمس ذلك اليوم • أما الكاتبة فأمرت بنصب خيمة الرسم وقامت بزيارة أخيرة للمعبد الذى كان يظهر كئيبا وضخما ووحيدا على بعد أميال وسط حقول الشعير الناضجة •

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة أصبحنا فى دائرة معبد أبيدوس • وكان علينا أن نتخذ طريقنا الى البلينا وهى احدى النقاط المعروفة التى تبين حدود أبيدوس • ولكن لسوء حظنا وجدنا شاطئا رمليا غارقا يسد الطريق ، ولذلك رسونا عند السمطة وهى قرية تقع جنوب أبيدوس بحوالى ميلين • وهنا طلب الترجمان من الأهالى أن يحضروا لنا الحمير • وكان موسم الحصاد قد بدأ فى المنطقة المجاورة وانشغلت جميع دواب الحمل بالعمل ولذلك لم ننجح الا عند منتصف النهار فى الحصول على ثلاثة أو أربعة حمير بائسة بدأنا بها رحلتنا • واتضح لنا أن هذه الحمير لم يركبها أحد من قبل ، ولذلك قضينا معها فترة مفعمة بالخوف • وكان الحمار الذى أركبه يجمح مرة كل خمس دقائق • أما حمار السيدة (ل) فقد كان يزمجر كالجمل ويكشر عن أنيابه كالكلب • أما حمار الرجل الكسول فقد كان يدق الأرض براكبه ويرقد ويتدحرج على فترات قصيرة • وبهذه الطريقة المثيرة قطعنا الأميال السبعة التى تفصل السمطة عن أبيدوس • وبعد أن سرنا بمحاذاة مزارع النخيل ، وعبرنا المجرى الجاف لاحدى الترع، خرجنا الى سهل واسع ذى سطح شبيه بسطح البحيرة ، وقد تناثرت على صفحته القرى هنا وهناك ، وغطت سطحه سنابل القمح المتموجة • هذا هو سهل ثنى القديم الذى يجرى موازيا لمجرى النيل مثل سهل طيبة ، وتحده من الجهة الغربية سلسلة من الجبال ذات القمم المسطحة • والمسافة بين النهر والجبال هنا أكبر منها فى طيبة حيث تبلغ ستة أميال كاملة بينما يتلامس المنظر مع الأفق فى الشمال والجنوب •

وكان طريقنا يقع فى البداية فى مسار مخصص لعبور الخيول عبر حقول الشعير الكثيفة ثم يهبط الى طريق البلينا وهو طريق يرتفع عبر السهل بحوالى عشرين قدما ٠ وأخذ الفلاحون يسيرون ذهابا وايابا بطول هذا الطريق ٠ وقد أقيمت بعض مجموعات الأكواخ المبنية من القش فى المساحات الفضاء التى اجتثت منها أعواد الذرة ٠ وهناك على البعد من هذا الطريق وعلى ممرات غير ظاهرة ، كانت تسير بعض قوافل الجمال التى تتماوج أعناقها ثقيلة الحركة ، وظهورها المحدبة فوق مستوى سطح القمح ، مثل السفن التى تسير بالمجاديف وتتماوج مقدماتها الضخمة فوق بحر مترقرق الأمواج ذى لون أخضر ٠ وكان الحمام يطير من قريـة الى أخرى مثل السحب العريضة ٠ وكانت القنابر تغنى وتحوم فى نطاق ضيق يشكل الخطوة الأولى فوق السهل الطينى٠ وبعد ذلك تأتى المصطبة الصناعية التى يصل عمقها الى حوالى ربع ميل حيث تقوم القرية الحديثة ٠ ومرة أخرى يرتفع حائط الحجر الجيرى الذى يحد الجرف العظيم ٠ والقرية واسعة النطاق ، والمنازل مبنية بزخارف الأرابيسك الطبيعى تحكى عن ثراء السكان ٠ وهى مزودة ببوابات ذات عقود مزخرفة بقوالب الطوب السوداء والبيضاء والحمراء ، والشبابيك ذات المشربيات ، وأبراج الحمام المبنية على شكل صفوف ، وقوالب الطوب ، مما يعطى للمكان روعة تجعله صالحا للرسـم ، بينما تغطى المنحـدر المتجه نحو الصحراء الشجيرات القصيرة وأشجار النخيل ٠ ويجرى تجميع القمح الذى حصده الفلاحون على شكل حزم ، تحت هذه الحدائق المعلقة وعلى حافة الصحراء ٠ وهنا ترقد الجمال لانزال أحمالها ، وهناك تدوس الثيران الحبوب بحوافرها ، أو تهرس أعواد القمح بواسطة آلة مثل الزحافة بها صفوف من السكاكين الدائرية (النورج) ٠ وفى نفس الوقت كانت هناك آلاف بل عشرات الآلاف من طائر الحمام (١) تطير من كومة الى كومة وتستقر فوق الحزم ، وتلتقط القمح فى وسط الأراضى المحاطة بالحزم دون أن يزعجها أحد ، وهى تختال فى مشيتها بطول حافـة الصحراء فتجر جناحيها ، وتبسط

---

(١) يحتفظ الفلاحون المصريون بأعداد هائلة من الحمام ٠ وفى هذا الصدد يقول مستر زنك ان عدد الحمام المنزلى يبلغ عدة أضعاف عدد السكان ٠ ويقترح أن يقوم السكان بتربية الخنازير للاقلال من عدد الحمام وان كانت لا تؤكل على نطاق واسع مثل الحمام ، لان الخنازير تربى وتترك فى الخرائب بأعداد كبيرة لانتاج السماد العضوى لتسـميد الأرض ٠ وقد صحح مستر أبوت خطأ هذا الحساب حيث أوضح أن الحمام يكلف ثلاثين مليون فرنك وهى قيمة الخسائر التى يسببها للمحصول بما يتجاوز الفائدة الناتجة عن استخدام زبله لتسميد التربة ٠

ريشها ، وتهدل ، وتنحنى ، وتقبل بعضها مسرعة فى أعماق الفضاء العالية • وكانت آكلات النحل تلمح مثل الزمرد عبر مسارنا ، بينما أخذت طيور الهدهد تتبختر على جانب الطريق • وبعد أن وصلنا الى منتصف المسافة عبر السهل ، أصبحنا فى وسط الحصاد • وهنا شاهدنا الحصادين ذوى اللون البنى حفاة وعراة حتى الوسط وهم يعملون بمناجلهم تماما مثل المناظر التى يظهرون فيها داخل مقبرة تى • وكانت النساء والأطفال خلفهم ، يلتقطون فى أعقاب هؤلاء الذين يربطون الحزم ، وكان الشيخ بعباءته السوداء وشبشبه الأحمر يركب حماره ذهابا وجيئة مثل بوعز(*) بين حصاديه • وبعد ربط الحزم كانت الجمال تحملها فى اتجاه المساكن • ويحمل الجمل أربع عشرة حزمة بمعدل سبع حزم فى كل من جانبى السنام • وعلى بعد قليل كانت الثيران التى وضع النير فوق كل اثنين منها ، تحرث الأرض ، وعلى مدى يوم أو اثنين ستكون الأرض قد بذرت فيها بذور الذرة العويجة أو صبغة النيلة أو القطن وسيجرى جمعها قبل وصول الفيضان •

وفى نفس الوقت وبينما كان السهل يمتد خلفنا وتضيق المسافة بيننا وبين الجبال ، رأينا خطا من الروابى العالية غير المنتظمة الشكل وقد غطت مسافة ميلين أو أكثر بطول قواعد الصخور • وكانت الروابى تظهر على البعد كما لو كانت قد تكللت بخرائب مهيبة ، ولكن مع اقترابنا كشفت هذه الروابى عن نفسها فى هيئة قرية هى قرية العرابة المدفونة التى تقع على جزء من تلال أبيدوس • ووصلنا الآن الى نهاية السهل المزروع ، الى ذلك الخط الغريب الفاصل حيث يتوقف الفيضان وتبدأ الصحراء • أما عن الصحراء الحقيقية فلا يوجد منها هنا الا شريط ضيق•

والآن يتجه مسارنا جنوبا ، ونشق طريقنا بين المنازل حيث نلاحظ هنا كتلة محفورة ، مبنية فى حائط من الطين ، ونشاهد هناك تابوتا مكسورا من المرمر بجوار بئر جافة • والى أبعد من ذلك قليلا نجد أسطونا

(*) بوعز هو أحد وجهاء اليهود فى عصر القضاة ، وقد ورد وصف له وهو يجول بين حصادى حقله فى سفر راعوث من أسفار الكتاب المقدس • انظر : راعوث ، الاصحاح الثانى — (المترجم) •

من الجرانيت مازال قائما وسط حديقة من أشجار النخيل · والآن وقد تركنا القرية خلفنا ، نجد أنفسنا عند قاعدة جبل ضخم من النفايات التى حفرت حديثا ، فنلقى من فوق قمته نظرة على ما يشبه فوهة بركان ، ونرى معبد أبيدوس العظيم تحت أقدامنا ·

وكانت الساعة الآن حوالى الثالثة ، ولذلك فاننا وقد شاهدنا ما يمكن مشاهدته حسب ظروف الزمان — ومع ما كنا ننتظره من رحلة طويلة للعودة على ظهور الحمير خلال بلد غريب ، فقد رحلنا مرة أخرى فى حوالى الساعة السادسة · ولن أفترض أننى سأصف معبدى أبيدوس مرة أخرى ، حيث ان أحدهما شديد الدمار لدرجة تجعل من الصعب الحديث عنه · أما الآخر فهو مصمم بشكل غريب ومضمونه العام شديد الغموض حتى انه يعتبر معضلة كبرى أمام علماء الآثار · وبعد زيارة صغيرة استمرت لمدة ثلاث ساعات ، اكتفيت برسم ما رأيته بايجاز ولكن فى اعجاب · ويعتبر موقع أبيدوس بالرغم من أنه مدفون تحت التلال المحيطة به ، مكانا له أهمية تاريخية كبيرة · وكان فى وقت من الأوقات قد تخلف عن القيام بدوره فى تسجيل قصة الحضارة المصرية · وتوجد شمال هذا الموقع بقليل مدينة تسمى ثنى (١) ولا نعرف العصر الذى تنتمى اليه هذه المدينة التى تعود الى ما قبل التاريخ المصرى ، ولكننا نفرض أن سكان كيم (٢) قد أقاموا هنا أول معابدهم ، واستنبطوا أول مفاهيمهم عن الفن واهتدوا الى الحروف الأبجدية التى يحتمل أنها كانت فى البداية مجرد

---

(١) ان تانيس التى كان يطلق عليها الاغريق اسم : تينى Tini كانت عاصمة القاطعة الثامنة ·

خطاب البروفيسور ج· ماسبيرو الى المؤلفة ، ابريل سنة ١٩٧٨ :

de la ville de Teni qui à la basse époque sous la domination romaine, n'était connue que par ses teinturiers en pourpre, elle doit avoir joui d'une très grande renommée chez les anciens Egyptiens. Encore au temps du XIXeme dynastie les plus hauts fonctionnaires de sang royal étaient ristingués par le titre de 'Princes de Teni.' » — *Hist. d'Egypte. Brugsch*, vol. i. chap. v. p. 29 ; Leipzig, 1874.

NOTE TO SECOND EDITION. — « Des monuments trouvés il y a deux ans, me portent a croire que Thini était située assez loin à l'Est au village actuel de Aoulad-Yahia. »

(٢) كان الاسم القديم لمصر هو kem-khem-kam ويعنى السوداء أو الأرض السوداء نسبة الى لون التربة ·

سورة مثل الأبجدية الكسيكية . ومن هنا أيضا جاء رجل يسمى مينا (١) وهو الذى ارتفع خرطوشه منذ زمن سحيق ، على رأس القائمة الطويله التى تتضمن أسماء الفراعنة المصريين ، ولا نعرف عن مينـا الذى يرف شبحه على حافة التاريخ والتقاليد الا أنه كان أول زعيم أطلق عليه لقب ملك الوجهين أى مصر العليا والسفلى ، وقد اتجه شمالا .وأسس مدينه منف ، ولم ينتقل مقـر الحـكومة الى العاصمة الجديدة قبل مرور عدة قرون ، أما مدينة ثنى التى يفترض أنها المكان الذى دفن فيه أوزوريس فسرعان ما فقدت أهميتها السياسية ، ولكنها استمرت لفترة طويلة بمثابة المدينة المقدسة لمصر .

وفى نفس الوقت أقيمت مدينة أبيدوس بجوار ثنى ، وبالرغم من أن أبيدوس كانت مدينة لها أهميتها الا أنها لم تكن عاصمة لمصر . وقد تنقل مركز القوة من أسرة الى أخرى فاستقر حينا فى الدلتا ، وحينا آخر فى طيبة ، وحينا ثالثا فى الفنتين ، ولكنه كان موجودا يوما ما فى البقعة التى كانت بسبب موقعها المتوسـط والخصوبـة غير المحدودة للأرض المحيطة بها ، أنسب المواقع لتمثيل هذا الدور فى تاريخ مصر . ولم تعد العاصمة بعد ذلك الى البقعة التى بدأت منها : وقد كانت هذه البقعة هى المركز الذى انطلق منه المصريون العظماء للوصول الى مكانتهم العجيبة . هنا كان موطن قوتهم . ومن ذلك الحين استحقت عنوانها الذى تفخر به كموطن خالص ، فليس هناك دليل أعظم من ذلك يدل على أصل الفراعنة المصرى الأصيل أكثر من الموقع الذى احتلته عاصمتهم الأولى على خريطة مصر ، ذلك لأن أصول أية قبيـلة مستعمرة جاءت الى أى بلد وغرست نفسها فى وسط السكان الأصليين ليست محل تساؤل . ومن جهة أخرى يتضح أنه لو كانت مصر قد استعمرت على يد قوة آسيوية أو اثيوبية،فان الغرباء كان عليهم أن يؤسسوا مقرهم الأصلى بجوار البرزخ . أو من جهة

---

(١) « Mena, tel que nous le presente la tradition, est le type le plus complet du monarque égyptien. Il est à la *fois* constructeur et législateur : il fonde le grande temple de Phtah à Memphis et régle le culte des dieux. Il est guerrier, et conduit les expédition hors de ses frontières. » — *Hist. Ancienne des peuples de l'Orient*. G. Maspero. Chap. ii. p. 55 : Paris, 1876.

« N'oublions pas qu'avant Ménès l'Egypte était divisée en petits royaumes indépendants que Ménès réunit le premier sous un sceptre unique. Il n'est pas impossible que des monuments de cette antique préiode de l'histoire Egyptienne subsistent encore. » — *Itinéraire de la Haute Egypte. A. Mariette Bey*. Avant Propos, p. 40. Alexandrie, 1872.

ثالثة يكونون قد توقفوا أولا بين سهول النوبة التى تنال ريا كافيا (١) ولكن المصريين بدءوا من القلب الخصب لبـــلادهم ذاتها ، وبذلك بدءوا مشوار العظمة من داخل حدودهم ٠

وقد قامت كل من أبيدوس وثني على نفس البقعـة الصحراوية ، ولابد أنهما كانتا متصلتين في وقت من الأوقات بواسطة ضاحية متخلفة كان يسكنها العـاملون بالتحنيط والتجـار الآخرون الذين يدخل فى اختصاصهم أشغال الموت والدفن ٠ وتجد سلسـلة من الروابي المحفورة حيث كانت المعابد قائمة ٠ وهى تقف أمامنا الآن بوصفها مدينة أبيدوس المشهورة ٠ ويقودنا الى موقع المدينة سور قديم من الطوب اللبن ، وربوة صناعية صغيرة فوق مقبرة قديمة تشطرها المقبرة الكبيرة الآن الى قسمين يبعد كل منهما عن الآخر مثلما تبعد مدينة هابو عن الرمسيوم ٠

ولابد أنه كانت توجد في أبيدوس معـابد أقدم من هذين اللذين رأيناهما الآن ، وقد بنى أحدهما الملك سيتى الأول بينما بنى الآخر الملك رمسيس الثاني ٠ أو أنه من المحتمل كما في حالات كثيرة أن تكون المباني الأقدم قد أزيلت وأعيد بناؤها ٠ وسواء أكان هذا أم ذاك فان معبد سيتي الأول من ناحية زخارفه يعتبر واحدا من أجمل الآثار المصرية ٠ بينما يعتبر من ناحية تخطيطه واحدا من أعظم المعـابد تفردا ٠ ولم يتبق من الواجهة الآن الا صف من أعمدة الحجر الجيرى المربعة التى لابد وأنها كانت في يوم ما تحمل اطارا يحيط بالأبواب ، ويأتى خلفها مباشرة بهو للأساطين مكون من أربعة وعشرين أسطونا تقود الى بهو آخر ٠ مكون من ستة وثلاثين أسطونا عن طريق سـبعة مداخل ٠ ومـرة أخـرى ينفتح هذا البهو على سبعة هياكل متوازية يقع خلفها بهو آخر للأساطين ، وعدد من الحجرات الصغيرة ٠ ولذلك فان معظم المبنى يبدو متجانسا ٠ ويتصـل بهذه الكتلة وينطلق منها عن طريق عدة أبواب فى الطرف الجنوبى من البهو الكبير مزيد من القاعات والحجرات التى ترتبط ببعضها عن طريق ممرات تقود الى حجرات أكثر ، ولكنها لم ترفع عنها الرمال بعد ٠ وقد

---

(١) انظر الخطاب الافتتاحى الذى القاه البروفيسور R. Owen متضمنا تقرير اجراءات العمل للمؤتمر الدولى الثانى للمستشرقين (قسم الاجناس) الذى عقد فى لندن سنة ١٨٧٤ ٠ وكذلك الورقة التى عنوانها : الاصول الجنسية لمصر The Ethnology of Egypt فى نفس المؤتمر ـ وقد نشرت فى مجلة The Journal of the Anthropological Institute ، المجلد الرابع ، رقم ١ ، ص ٢٤٦ ، لندن ، ١٨٧٤ ٠

نقشت جميع هذه الدعائم والأساطين والقـاعات والممرات والمقاصير (١) السبع ولونت بألوان بديعة ·

وهناك تشابه عائلى بين المعابد التى تنتمى الى نفس الطراز والفترة الزمنية ، حتى ان الانسان يستطيع بعد تجربة بسيطة أن يخمن قبل أن يعبر عتبة المبنى ، كل ما يستطيع أن يشاهده من النقوش التى بالداخل· ولكن غالبا ما نجد أن كل موضوع فى معبد سيتى فى أبيدوس جديـد وغريب · وتبدو جميع الآلهة فى الهيكل الذى يجمعها كلها فى صورة تدل

---

(١) أورد مسيو ماريت فى كتابه الكبير عن حفائر أبيدوس أن هذه المقاصير السبع المقبية تماثل هياكل من الشكل المعتاد استخدامه ، وعلى وجـه الخصوص التوابيت المستطيلة ذات الأغطية المقوسة · وقد ظهرت صورة اثنين من هذه الهياكل فى اللوحة رقم ٤٩٦ فى الجزء الثانى من كتاب سير ج· ويلكنسون (الشكلان رقم ١ ، ٦) واسم الكتاب A popular account of the Ancient Egyptians ـ الجزء الثانى ـ الفصل العاشر ـ لندن سنة ١٨٧١ · ويقول أيضا عن استخدامات المعبد ومضمونه ما يلى : « وماذا تعرف عن الفكرة الأساسية التى تتصدر بناءه ؟ وما الذى جرى لها ؟ وهل كانت مقصورة على اله واحد ؟ وهل هو أوزوريس أم سبعة آلهة ؟ ومن هم هؤلاء السبعة الذين خصصت لهم الهياكل السبعة المقوسة ؟ أم أنها كانت مخصصة للآلهة التســعة الذين ورد تكرهم فى قوائم الآلهة المتفرقة فى مختلف أجزاء المعبد ؟ ··· ان الانســان يترك المعبد يائســا ليس لعدم قدرته على كشف سره مستعينـا بفحص النقوش ولكن لاكتشـاف أن سره قد حفظ بداخله ولم يودعه بانيه فى النقوش » · انظر كتـاب : Description des Fouilles d'Abydos ـ تاليف ماريت بك ـ باريس سنة ١٨٦٩ حيث يقول :

« Les sept chambres Voûtées du grand temple d'Abydos sont relatifs aux céremonies que le roi devait y célébrer successivement. Le roi se présen!at au côte droit de la porte, parcourait la salle dans tout son pourlout et sortait par le côté gauche. Des statues étaient disposées dans la chambre. Le roi ouvrait la porte ou naos où elles étaient en fermées.

Des que la statue apparaissait à ses yeux il lui offrait l'encense, il envelvait le vétemout qui la couvrait, il lui imoossait les mains, il la parfumait, il la recouvrait de son vétement, » etc. — Mariette Bey — Intéraire de la Haute Egypte : Avant propos y. 62, Alex. 1872.

نشر بالاسكندرية سنة ١٨٧٢ ، ص ٦٢ ·

ويوجد فى الطرف العلوى لكل من هذه الهياكل السبعة نوع وحـيد من الأبواب أو الفجوات مخبأ داخل نوع من الزخرفة له سمـات هندية اكثر منها مصرية · والنفق مربع وعميق وضخم بشكل غريب والسطح منبسط ، والمقصود منها جميعها ان تعطى الانطباع المطلوب عن طريق الظلال العميقة فى الأجزاء المحفورة أفضل من الحفر البارز ، وهذه الفجوات والأبواب المقلدة قد صممت لتقوم بدور الخلفيـات بالنسـبة للتماثيل ولكنها ليست بالعمق الكافى لكى تعتبر محاريب · وهناك فجوة مشـابهة محفورة فى أحد جدران الغرفة التى فى الطرف الغربى بمعبد القرنة ·

على أنها كانت تعبد معا ، كما كان لكل منها عرشه الخاص به • وتجد أن الحوائط مغطاة برسوم تبين هذه العروش ومن يجلسون عليها ، بينما يقدم الملك أمام كل عرش منها بعض مظاهر العبادة • وقد رسمت ضفدعة زرقاء ضخمة ، وكلب سلوقى ، وأوزة ذات رأسين ، ومخلوق بشرى رأسه على شكل مقياس النيل (١) وأشياء أخرى كثيرة لا أتذكرها •

ورغم أن التقدمات الملكية كانت عبارة عن البخور والعقود والصدريات ، الا أنها فى معظمها من نوعيات فريدة لم نر لها مثيلا من قبل • ونرى الملك فى احداها وهو يهدى الى ايزيس عمودا له أربعة تيجان ، وقد وضعت فوق التاج العلوى كرة أرضية واثنتان من الأفاعي الصغيرة تحيط بهما اثنتان من ريش النعام •

ويبدو الهيكل الأوسط من السبعة وقد خصص للاله خيم الذى يبدو هنا بوصفه الاله الرئيسى كما هو فى المعبد الكبير بالكرنك • وفى هذا الهيكل الرئيسى المتألق بالألوان ، والسليم من أى تخريب ، نرى صورة نصفية للملك رمسيس الثانى (٢) وهو يفتح باب احدى المقاصير بمفتاح ذهبى على شكل يد وذراع بشريتين • ويظهر كالون الباب مكونا من عدد من المزاليج المختلفة الأطوال التى يدفع كل منها بواسطة الاصبع السبابة لليد الصغيرة • وبلا شك ، فان هذا يعطى بيانا سليما عن نوعية المزاليج المستخدمة فى ذلك الوقت •

ومن فتحة ممر فى البهو الكبير بهذا المعبد اكتشف ماريت هذا النحت الثمين المعروف باسم : لوحة أبيدوس الجديدة ، ونرى فى هذه

---

(١) توجد جميع أشكال الآلهة الصغرى التى نرى صورها فى البرديات الجنازية ، ولكن يندر رؤيتها فى نقوش المعابد ، ومنها على سبيل المثال الالهة الضفدعة (حكا) التى ترمز الى الخلود • وهى الهة قديمة جدا ، وجدت صور لها فى آثار الأسرة الخامسة • أما الاله الذى له رأس الأوزة فهو الاله سب (جب) • وهو أيضا اله قديم جدا • أما مقياس النيل فهو شعار دينى يعنى الاستقرار وربما وجد فى هذه الحالة كرمز مؤله فقط •

(٢) نرى رمسيس الثانى هنا مع المزلاج الجانبى • وقد أنشأ سيتى الأول هذا المعبد ، واستمر العمل فيه عندما كان رمسيس الامير يشارك أباه الجلوس على العرش ، واستكمل على أيام رمسيس الملك بعد وفاة سيتى الأول • والمبنى معاصر فى التاريخ ومشابه فى الطراز لمعبد القرنة وهيكل بيت الوالى •

اللوحة الملكية سيتى الأول ورمسيس الثانى أحدهما يقدم البخور بينما يردد الآخر أنشودة مديح لأسماء الفراعنة الستة والسبعين ابتداء من مينا وانتهاء بسيتى نفسه (١) ·

ولسوء حظنا — بالرغم من أننا لا نستطيع الا أن نذعن لضرورة الاحتياط — وجدنا مدخل هذا الممر مقفلا ومسدودا على شكل تل · وقد ذكر لنا أعرابى عجوز يسكن فى المعبد كحارس ، أن اللوحة لا يمكن رؤيتها الآن الا بعد الحصول على تصريح خاص ·

ويبدو أننا قضينا هنا حوالى نصف الساعة ، عندما جاء المرشد ليحذرنا من اقتراب المساء · وكان علينا أن نرى الموقع والربوة الكبيرة لمدينة ثنى · وكانت الربوة تقع على بعد عشرين دقيقة بسرعة الحمير التى نركبها ، فهز المرشد رأسه ولكننا صممنا على الذهاب · واقترب الظلام ، وللمرة الأولى منذ عدة شهور حالت مظلة متجمعة من السحاب دون مشاهدة روعة الغروب · وعلى كل حال فاننا امتطينا حميرنا واتجهنا نحو الشمال ، ولو ركبنا دواب أفضل من هذه الحمير كنا قد حققنا هدفنا لأننا رأينا أن الظلام تشتد كثافته فى كل لحظة ، مما دفعنا الى التخلى عن الهدف ، وبدلا من محاولة الاستمرار فى السير الى الأمام رضينا أن نتسلق تلا مرتفعا كان يشرف على المنظر الذى فى ناحية ثنى ·

وفى ذلك الوقت أخذت السحب تتقارب فى سرعة ، وزحفت أمواج الظلال على السهل · وقد ارتفعت عن يسارنا الحدود الجبلية والغسق والمنخفضات ، بينما امتدت على اليمين ، مسطحات القمح المغلفة بالضباب ،

---

(١) ربما كان هؤلاء الفراعنة الستة والسبعون (الممثلون بخراطيشهم) امراء ولدوا لعائلات يعود اصلها الى ابيدوس ، أو حكاما حصلوا على لقب خاص بالتعظيم فى هذا المكان مقابل الاثار أو الانشاءات الدينية التى اهدوها للمدينة المقدسة · وهناك لوحة مشابهة اقيمت لنفس الأسباب وان كانت للوك اخرين ، وهى تلك التى أقامها تحوتمس الثالث فى غرفة جانبية فى المعبد بالكرنك وهى موجودة الآن بمتحف اللوفر · وتتركز القيمة العظيمة للأثر الحالى فى ترتيبه الزمنى ، علاوة على انه منفذ باسلوب رشيق وسليم تماما ·
« Comme perfection de granire, comme conservation, comme étendue, je est peu de monuments qui la deparsent. »
انظر مقال : La Nouvelle Table d'Abydos بقلم 'A. Maiette Bey
بمجلة Revue Arch. المجلد السابع — سلسلة Nouvelle série — ص ٩٨ · ويتضمن هذا المجلد من المجلة أيضا صورة اللوحة ·

أما عند أقدامنا فكانت هناك كل الروابى والمقابر المفتوحة والمقبرة الكبيرة المهجورة . وقد ارتفع خلف النخلات التى خارج حدود حافة الصحراء . وخلف شريط مظلم يحدد مكان ثنى ، تل متحدر ومنعزل يموج باللون الأرجوانى الذى تتميز به الظلال التى تنتشر عند الغسق . وكان هذا التل الذى يطلق عليه المواطنون اسم : كوم السلطان — هو الربوة التى أردنا مشاهدتها . وقد ظهر لنا ونحن نرقبه من على البعد ، ومن خلال ضوء ضعيف ، تماما مثل مخروط بركانى يبلغ ارتفاعه حوالى مائتى قدم . وهو يتكون من مجموعة من المقابر التى تتكدس احداها فوق الأخرى فى طبقات تاريخية . وكانت كل طبقة منها تمثل سجلا لحقبة تاريخية ، بينما تمثل كلها مجتمعة ، نوعا من الشعاب المرجانية الصخرية الانسانية التى بنيت ببقايا الأجيال من عصر الى عصر .

ومنذ عدة سنوات مضت ، كانت الحكومة المصرية تحفر هذا التل العجيب . وكلما تعمقت الحفائر ، ظهرت محتوياته الأقدم زمنيا . وكلما كانت المخلفات ثابتة ، كانت المحتويات ثابتة لدرجة تجعل المشاهد يظن أن مجرفة الحفار كانت تصطدم بمقابر تعود الى الأسرة الأولى ؛ وبذلك تخرج الى الضوء رفات الرجال الذين عاشوا فى عصر مينا . وقد كتب مارييت (١) يقول انه « حسب ما أورده بلوتارخ فان أثرياء المصريين جاءوا من جميع أنحاء مصر لكى يدفنوا فى أبيدوس حتى ترتاح عظامهم بجوار أوزيريس . ومن المحتمل أن تكون مقابر كوم السلطان مخصصة لهؤلاء الوجهاء الذين ذكرهم بلوتارخ . وليس هذا هو الاهتمام الوحيد المرتبط بكوم السلطان ، لأن قبر أوزيريس المشهور لا يبعد كثيرا عن هذه البقعة . وهناك من الدلائل ما يدفعنا للاعتقاد بأنه محفور فى قاعدة الصخرة التى هى بمثابة النواة لهذا التل . وعلى ذلك فان الأشخاص الذين دفنوا فى كوم السلطان يرقدون وهم أقرب ما يكونون الى القبر المقدس . والأعمال التى تجرى الآن فى هذه المنطقة لها أهمية مزدوجة أولا لأنها ربما تقود الى مقابر أكثر قدما قد تعود الى الأسرة الأولى . وثانيا أنه ربما أمكن اكتشاف المدخل غير المعروف والمخفى لمقبرة الاله » (٢) .

---

(١) انظر IntinIraire de la Haute Egypte . تأليف مارييت بك ، ص ١٤٧ ، الاسكندرية ، سنة ١٨٧٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤٨ ، لم يتحقق الأمل الذى جرى التعبير عنه هنا لأننى أظن أن مقابر الأسرة الرابعة أو الخامسة قد اكتشفت منذ وقت مبكر .

وأسفت في ذلك الحين لأنني لم أستطع أن أركب الحمار ولو حتى الى قاعدة كوم السلطان ، وأظن الآن أنني أفضل أن أتذكره ، كما شاهدته على البعد محوطا بالأسرار في ظلمة ذلك المساء الغريب ·

وكان هناك صمت ثقيل يلوح في الجو ، ولمحة حزن تعبر عن ثقل حمل العصور · وبدت الروابي المتداعية مثل بحر مخيف ، وأخذ الليل يرخي سدوله خلف حافة الصحراء · وسرعان ما زحفت نحونا من بين المقابر البعيدة ، سحابة متحركة في بطء · ومع اقترابها في حالتها الناعمة والشفافة والمتقلبة والوهمية ، اتضح أنها ليست سوى الغبار الذى أثاره قطيع كبير من الضأن · وكان راعي القطيع يظهر خلال فتحات السحابة بين حين وآخر· ثم نزلنا وانطلقنا في الطريق الواقع بين التلال والوادى · وبدت أشجار النخيل والمنازل غير واضحة في ظلمة الغسق وبرزت قافلة من الجمال وهي تتقدم بخطوات سريعة وهادئة مثل الأشباح أمام خلفية من الضباب · ومع تقدم الليل أصبح الهواء خانقا · ولم تكن هناك نجوم فلم نستطع الرؤية على مدى بارد واحدة أمامنا · وزحفنا ببطء بطول الطريق المنحدر ، وشعرنا بأننا لم نستطع أن نميز شيئا من السهل الممتد على كلا الجانبين · وفي نفس الوقت كانت الضفادع تنق غاضبة ، بينما أخذت حميرنا تتعثر في كل خطوة · وعندما اقتربنا من السمطة كانت الساعة تقترب من العاشرة · وكان الريس حسن قد شرع في ملاقاتنا ومعه الرجال والمشاعل ·

وفي صباح اليوم التالي مررنا للمرة الثانية بمدينة جرجا ومسجدها المتهدم وعمودها الذى يوشك على الانهيار ، وعند الظهيرة رسونا في مكان يدعى العسيرات حيث قمنا بزيارة أحد الوجهاء الذى يدعى أحمد أبو رطب أغا الذى كنا نحمل اليه خطابات توصية · وكان رطب أغا يمتلك أبعاديات واسعة في هذه المقاطعة المشهورة بلحوم الخيـل · وهو يعيش بأسلوب القبيلة محاطا بعشيرة كبيرة العدد من الأقارب والأتباع · ويتكون محل اقامته في العسيرات من ثلاثة أو أربعة منازل كبيرة ، وما يقرب من عشرين برجا للحمام وحديقة واسعة واسطبل وأرض للتدريب وفناء ضخم ، وقد أحيطت جميعها بحائط دائرى · ودخلنـا من بوابـة تزينها أشـــغال الأرابيسك · واستقبلنا في رواق مسقوف بأشغال المشربية ويطـل على الفناء · وأخـرج لنا ثلاثة من أفخر خيوله بألوانها الرمادية والكميت (*) والكستنائي ، لكي نستمتع بمشاهدتها · وكانت شبيهة بتلك الخيول

(*) الكميت من الخيل : ما كان لونه بين الأسود والأحمر ـ (المترجم) ·

التى أحب فالسكيز Valsquez أن يرسمها ، غليظة العنق ، وصغيرة الرأس ، وصلبة البدن ، وذات عروف متموجة ، وذيول حريرية طويلة • وقد وقفت شامخة ومشدودة دلالة على انتمائها العربى الأصيل • ولم يثر الشك فى نفوسنا حول نقاوة دمائها • وقد ظهرت لنا صلاحيتها للرسم بأغطية سروجها المطرزة بخيوط الذهب وسروجها العالية المغطاة بالقطيفة القرمزية والخضراء والزرقاء ، وركاباتها الطويلة ، وأغطية رؤوسها ذات الشراريب • وقام شقيق الأغا وأولاد أخيه بقيادتها لعرض خطواتها ، ثم جعلوها تركع للركوب فكانت تخضع لكلمة الأمر ، ثم تندفع من وضع الثبات لكى تعدو فى سرعــة • وعندما وصلت الى أقصى سرعتها توقفت قليلا وطرحت نفسها للارتكاز على مؤخرتها وتجمدت حركتها فصارت مثل خيول حجرية • وقيل لنا ان مضيفنا لديه فى اسطبلاته مائة حصان • ودارت الغلايين والقهوة وسلسلة غير نهائية من مختلف أنواع الشربات طول الوقت الذى استغرقته الزيارة • وأثناء الحديث علمنا أنه ليست فقط أجور العمال الزراعيين هى التى تدفع فى شكل كميات من القمح ، بل أيضا جزء من الضرائب التى تدفع للخديو •

وقبل رحيلنــا ذهبت السيدة (ل) والسيدة الصغيرة والكاتبــة لزيارة الحريم وتعرفن الى سيدات الضيعة ، لقد وجدناهن يقمن فى مبنى منفصــل له فناء مستقل ، ويعشن حسب الأسلوب الممل الذى اعتــادته سيدات الشرق • دون أى نوع من العمل ، كما أنه لا توجد حتى مجرد حديقة يتمشين فيها • وكانت زوجة الأغا الأساسية (أظن أنه كان يقترن بزوجتين) امرأة جميلة ذات شعر كستنائى وعينين عسليتين ناعستين ، وبشرة فاتنة • وقد استقبلتنا على العتبة ، وقادتنا الى صــالون محاط بالأرائك ، وعرفتنا بأبنائها الخمسة فى فخر • كانت الكبرى فتاة جميلة فى الثالثة عشرة من عمرها ، وكان الأصغر فتى فى الرابعة ، وقد ارتدت الأم والابنة ثيابا سوداء متشابهة مطرزة بخيوط من الفضة ، وشبشبين من القطيفة الوردية اللون فى أقدامهما ، مع الأساور والخلاخيل الفضية ، والسراويل التركيــة الطويلة ذات اللون الوردى ، وقد صففتا شــعرهما مفروقا من المنتصف ، وقد ضفر فى شكل ضفائر طويلة تتدلى على الظهر مع قطع من العملة والدلايات • بينما علق فى مؤخرة الراس حجاب من الشاش الأسود الشفاف مطرز أيضا بخيوط من الفضة • وجاءت سيدة أخرى عرفنا أنها الزوجة الثانيــة • وكانت شديدة البســاطة وترتدى زينات أكبر ويظهر أنها تحتل مكانة ثانوية فى زمرة الحريم • وربما كان هناك حوالى دستة من السيدات والبنات بينهن اثنتان لونهما أسود •

وكان أحد الأطفال مريضا طوال حياته القصيرة ، فظهر لنا وكأنه لن يعيش أكثر من ستة شهور • وقد طلبت الينا أمه المسكينة أن نصف له علاجا ولكن من الصعب أن نقنعها بأننا لا نعرف شيئا عن طبيعة مرضه، ولسنا بالمهارة التى تسمح لنا بعلاجه • وظلت تتوسل الينا ولم تقبل الرفض ، ولذلك أشفقنا عليها وأرسلنا اليها بعض الأدوية غير الضارة •

وكانت فرصتنا لملاحظة الحياة المنزلية فى مصر ضئيلة • لقد قامت السيدة (ل) بزيارة حريم نائب الخديو فى القاهرة ولكنها عادت فى كل مرة بنفس الانطباع الكئيب • وكانت معظم السيدات المصريات يشغلن أيامهن التى تمضى بأشغال التطريز وبعض لعب الأطفال الموسيقية المصنوعة فى جنيف ، والقيام بنزهة يومية فى شارع شبرا ، وتدخين الغلايين والسجائر ، وتناول الحلوى ، والتحلى بالمجوهرات ، والنميمة • وكانت بعضهن ذوات اهتمام نشيط بالسياسة • وكانت مقصورات الأوبرا الخاصة بالخديو وكبار الباشوات فى القاهرة والاسكندرية تحتلها السيدات فى كل ليلة • ولكن الحكم على نظام الحياة المنزلية لا يسرى على سيدات الأمراء والنبلاء ، وكان المفروض أن نطلع على حياة سيدات طبقة الملاك ووجهاء الطبقة الوسطى • ولم يكن لدى سيدات العسيرات هؤلاء ، مركبات مصنوعة فى لندن يجرها حصان واحد ، وليس لديهن شارع شبرا أو دار للأوبرا فلم تكن لديهن وسائل للتسلية ولا حتى وسائل للتمشية أو الترويض • وكان الوقت يمضى ثقيلا على نفوسهن ، ولم يكلفن أنفسهن الاهتمام بالأشياء التى تحيط بهن • وكانت سلالم الحريم قذرة وحجراتهن غير مرتبة ، والمظهر العام للمكان قذر ومهمل • أما عن النزيلات فانه بالرغم من طبيعتهن الطيبة ورقتهن ، الا أن وجوههن كانت تحمل الملامح التعبيرية لمن اعتدن المعاناة من الملل • وفى الأقصر قامت السيدة (ل) والكاتبة بزيارة زوجة وجيه عربى وهو ابن المحافظ السابق للمكان ، وهى سيدة من الطبقة الوسطى • وكان الزوجان شابين ومن غير الأغنياء ، ويعيشان فى منزل صغير لا يطل على أية مناظر وبدون حديقة • وقد احتلت الطيور الداجنة فناء المنزل • أما الشرفة العليا الصغيرة فقد كانت مساحتها تقل عن اثنى عشر قدما مربعا • وقد أحاطت بمنزلهما من جميع الجهات منازل أخرى ، ولكن الزوجة الشابة كانت تعيش راضية فى هذا السجن الخانق من سنة الى أخرى ، ولم تكن تخرج منه مطلقا • ولابد أنها كانت تستمتع فى طفولتها ببعض الحرية، ولكنها كفتاة متزوجة وعروس كانت سجينة مثل الطائر فى قفصه • وبالرغم من أنها ولدت فى الأقصر الا أنها لم تشاهد الكرنك مع أنه يقع

على بعد ميلين • وسألناها عما اذا كانت تود أن تزوره بصحبتنا فضحكت وهزت رأسها • لقد كانت غير قادرة حتى على الفضول •

وظهر لنا أن زوجات الفلاحين كن أسعد الزوجات فى مصر لأنهن يعملن باجتهاد ، وبالرغم من معاناتهن الفقر الا أن لديهن حرية استخدام أطرافهن (الحركة) ، ولديهن خبرة باستنشاق الهواء المنعش ، وضوء الشمس ، والحقول الواسعة ، وعندما تركنا العسيرات كانت هناك مسافة ٣٣٥ ميلا تفصل بيننا وبين القاهرة • ومنذئذ صارت الملاحة فى النيل أكثر صعوبة ، وأخذت حرارة الذهبية ترتفع لدرجة أنه حتى رش المياه ومسح الأرضية لم ينجحا فى خفض درجة الحرارة • وعندما كنا نذهب فى المساء الى قمراتنا للنوم كانت ألواح الخشب التى بطول السرير ساخنة عند لمسها باليد كما لو كانت فى مواجهة لهيب نار • وبالرغم من أن بحارتنا قد ولدوا فى هذه الأجواء الا أنهم عانوا أكثر منا • وعانت السيدة (ل) فى ذلك الوقت من ضربة شمس أصابت يديها • ورويدا رويدا تجاوزنا الأماكن التى شاهدناها عند ابحارنا جنوبا وهى أسيوط ومنفلوط وجبل (أبو فايدة) والروضة والمنيا •



ساقيــة عند اسيوط •

وبعد كل ذلك لم نشاهد مقابر بنى حسن لأنه فى اليوم الذى وصلنا فيه الى هذا الجزء من النهر كانت هنـاك عاصفة رملية شديدة ، وهى عاصفة أصابت الكاتبة نفسها بالرعب • وبعد ذلك بثلاثة أيام ركبنـا

القطار الى بيا واتجهنا الى القاهرة تاركين الذهبية فيلة لكى تتبعنا حسب ما تسمح به امكانات الرياح والطقس ٠

وكنا قد شغفنا بحياة الذهبية حتى ذلك الوقت لدرجة أننا أحسسنا في البداية بالضياع فى حجرات فنـدق شبرد الواسـعة ، كما أحسسنا بالارتبـاك في الشوارع المزدحمة ، الا أننـا أصبحنا فى القـاهرة التى وجدناها أشد روعة وأكثر جمالا من أى وقت مضى ٠ وهنا شاهدنا نفس التجـار فى سوق تونس وقد جلسوا القرفصاء على نفس السجاجيد وهم يدخنون نفس الغـلايين ٠ ووجدنا أيضـا نفس بائع الفطائر وهو مازال متربعا على كرسيه فى نفس المدخل فى الموسكى ٠ وكذلك وجدنا نفس تجار المجوهرات وهم يبيعون الأساور فى خان الخليلى ، ونفس الصيارفة وهم يجلسون خلف موائدهم الصغيرة فى أركان الشوارع ، ونفس النساء المحجبات وهن يركبن الحمير أو المركبات التى تجرهـا الخيول ، ونفس الجنازات المتعجلة ، والأفراح الصاخبة ، ونفس الصرخات الغريبة والعادات المتنوعة ، ونوعيات التجارة غير المعتادة ٠ لم يتغير شيء ٠ وسرعان ما عدنا الى حيـاة الفرجة على معـالم المدينة ، والشراء من الأسواق ٠ فاشترينـا البطاطين والحرائر والحلى الفضية وأشغال الابرة القديمة والشباشـب التركية ، وكافة أنواع الأنتيكات والأشياء الجميلة ، وأخذنا ننتقل من المساجد الاسلامية الى الكنائس القبطية القديمة النادرة ، كما كنا نكرس ساعة أو ساعتين خلال معظم فترات بعد الظهر للتجول فى متحف بولاق ٠ وكنا ننهى عمل كل يوم بالركوب فى شارع شبرا أو القيام بجولة حول حدائق الأزبكية ٠

وفى تلك الفترة كان يجرى الاحتفال بمولد النبى فى أرض فضاء واسعة على الطـريق الى مصر القـديمة ٠ وهنا وفى دائرة تحوطها حوالى عشرون أو ثلاثون خيمة مفتوحة كانت تجرى قراءة القرآن الكريم ، وحلقات الدراويش طوال الليل والنهار بدون توقف وعلى مدى أسبوعين تقريبا ٠ وبعد حلول الظلام عندما تتوهـج الخيام كلها بالثريات المضيئة ، يبـدأ الدراويش يصيحون ويقفزون ، وتشعل الألعاب النارية من منصة مضيئة فى وسط المنطقة ٠ وكان المنظر غريبا لأن القاهرة كلها اعتادت أن تذهب الى هناك على الأقدام أو فوق المركبات وذلك خلال الفترة ما بين الثامنـة ومنتصف الليل من كل مساء ٠ وكانت نساء الخديو المحجبات يحضرن فى مركباتهن الصغيرة التى يجرها حصان واحد ليتصدرن المشاهدين ٠



الفطائر التى تصنع باسم النبى ٠

وينتهى مولد النبى باحتفال استعراض الدوسة ؛ حيث يركب شيخ الطريقة السعدية حصانه فى طريق مفروش بالمريدين المنبطحين على الأرض ٠ وقد شهدت السيدة (ل) والكاتبة هذا المنظر من الخيمة التى أقامها محافظ القاهرة ، حيث كانت هناك عدة مئات من البؤساء الذين رقدوا فى الطريق متلاصقين مثل بلاطات الرصيف وأخذوا يديرون رؤوسهم وهم تحت تأثير الأفيون ، والصوم ، والصلاة ، بينما كان أفراد الموكب يسيرون فوقهم راجلين أو راكبين ٠ وبدأ الموكب وفى مقدمته حاملو البيارق ثم أحد المشايخ الذى كان يقرأ القرآن بصوت مرتفع ثم الشيخ راكبا حصانه العربى الأبيض وقد أحاط به على الجانبين عدد من الشيوخ الذين يسيرون حفاة ٠ وكان الحصان جميل المنظر وقد أخذ يخطو بصعوبة واضحة ، خطوات خفيفة وسريعة بقدر ما يستطيع فوق الطريق البشرى الذى تحت حوافره ٠ ويؤكد المسلمون أن أحدا لم يصب بجرح أو حتى

كلمة (١) خلال هذه المناسبة المقدسة ، ولكنني رأيت بعض الرجال محمولين في حالة من التشنج وظهروا كما لو كانوا في حالة لن تسمح لهم بالسير مرة أخرى (٢) ٠

ومن الصعوبة ألا نقول الا كلمات قليلة لا تكفي لوصف مكان يحتاج الى مجلد شامل ، وكذلك فمن غير المستطاع أن نتجاهل متحف بولاق ٠ والحقيقة أن تجميع هذه المجموعة من الآثار يعود في المحل الأول الى سخاء الخديو السابق وجهود ماريبت ٠ وفيما عدا محمد على الذى اكتشف في عهده معبد دندرة ، فان أحدا من الولاة السابقين لم يشغل نفسه بالاهتمام بآثار البلد ٠ أما هؤلاء الذين اهتموا بهذه النفايات التى أثقلت كاهل التربة أو رقدت مستخفية تحت رمال الصحراء ، فقد كانت لهم حرية الاستيلاء عليها ، ولم يطلب منهم أحد القيام بهذا العمل أو يمنحهم شيئا الا التصريح بالحفر « بحثا عن الأنتيكات » التى تمثل ثروة متاحفنا من الآثار المصرية والمجموعات العديدة التى يمتلكها الأفراد والتى تنتشر في كافة أنحاء أوربا ٠

وقد أنهى اسماعيل باشا هذا السلب الذى كان يجرى على نطاق واسع حيث كانت المومياوات تباع لأجل المراهم أو في مقابل الخردة ، ولكن للمرة الأولى أصبح تصدير المومياوات خروجا على القانون ، وللمرة الأولى أيضا أصبحت لمصر مجموعتها الوطنية المملوكة لها ٠

وبالرغم من أن متحف بولاق هو أصغر المتاحف العظيمة الا أن مجموعته الأثرية أغنى المجموعات في العالم من حيث التماثيل النصفية للأفراد ، واللوحات الجنازية ، والتعاويذ والمومياوات التى تمثل سكان وادى النيل القدماء ، انه بالطبع أقل غنى في التماثيل الضخمة التى تملأ

---

(١) « قيل ان هؤلاء الأشخاص والشيخ أيضا يستخدمون كلمات معينة (أى يرددون صلوات وأدعية) في اليوم الذى يسبق هذا الاستعراض حتى يستطيعوا احتمال وطأة حوافر الحصان دون أن يصابوا بالأذى وأن بعض الذين لم يستعدوا ثم جازفوا بالقاء أنفسهم تحت حوافر الحصان قد حدث في أكثر من مرة أنهم قتلوا أو أصيبوا بجروح شديدة ٠ وكان الناس يعتبرون هذا الاستعراض معجزة تتم بواسطة قوة خارقة للطبيعة وهبها الله لكل خليفة من مشايخ الطريقة السعدية » ٠ انظر كتاب ادوارد لين : Modern Egyptians الفصل الرابع والعشرين ، ص ٤٥٣ ، لندن سنة ١٨٦٠ ٠

(٢) صدر أمر الخديو الحالى (توفيق) بمنع هذا الطقس البربرى ٠ (ملحوظة مضافة الى الطبعة الثانية) ٠

قاعات العرض الكبيرة بالمتحف البريطاني ومتحف تورين ومتحف اللوفر . وقد كانت هذه التماثيل فوق الأرض وعددها قليل نسبيا الا أنها كانت تسلب منذ فترة طويلة وتصدر الى أوربا . أما تماثيل متحف بولاق فهى مستخرجة من المقابر . ان تمثال شيخ البلد المشهور والمصنوع من الخشب قد كتب عنه الكثير (١) والتمثال العظيم المصنوع من حجر الديوريت للملك خفرع بانى الهرم الثانى ، والتمثالين العظيمين الجالسين للأمير رع - حوتب والأميرة نفرت - هذه التماثيل جميعها نصفية . وهى مثل المقابر التى وجدت فيها قد تم تنفيذها فى حياة الأشخاص الذين تمثلهم . وبعد أن عبرنا عتبة البهو الكبير (٢) وجدنا أنفسنا محاطين بحشد من هذه التماثيل غير العادية التى كانت واقفة وملونة ومرتدية ملابسها وجميعها فى حالة حركة ، مثل الدخول الى غرفة مزدحمة بأحد القصور الملكية فى عصر الدولة القديمة .

والعدد الاكبر من تماثيل متحف بولاق النصفية منحوت فى الوضع الذى يعرف بالوضع الهيراطيقى ، الذى يتمثل فى خفض الذراع اليسرى وضغطها ملاصقة للجسم ، بينما تمسك اليد اليسرى بلفافة من ورق البردى . أما الساق اليمنى فهى متقدمة للأمام ، واليد اليمنى مرفوعة وهى تمسك بالعكاز . وكان ذلك يعنى بالنسبة لى معنى أعمق مما يظهر لأول نظرة بالنسبة لهذا الوضع التقليدى . وربما كان يوحى بلحظة البعث ، عندما يسير الميت للأمام وهو يمسك بنسخة كتاب الموتى الخاصة به خارجا من قبره الى نور الحياة الأبدية .

ومن أشهر التماثيل المصرية تمثالا الأمير رع - حوتب ، والأميرة نفرت ولابد أنهما أقدم التماثيل النصفية فى العالم (٣) وقد استخرجا

---

(١) انظر Egypt of the Pharaoh's and the Khedive : تاليف زنك J. B. Zincke الفصل التاسع ، ص ٧٢ ، لندن سنة ١٨٧٢ . وكذلك La sculpture Egyptienne تاليف سولدى E. Soldi ، ص ٥٧ ، باريس ١٨٦٧ ، وأيضا The Ethnology of Egypt وهو مقال بقلم البروفيسور أوين نشر بمجلة Journal of Anthropological Institute المجلد الرابع ، سنة ١٨٧٤ ، ص ٢٢٧ ، وكان أسم هذا الشخص هو رع - ام - كا .

(٢) لقد وجدنا تمثال الملكة تى فى هذا البهو الكبير .

(٣) لا يوجد دليل يبين أن تمثالى سيبا ونيسا اللذين بمتحف اللوفر يعودان الى عصر سابق على الأسرة الرابعة .



الأمير رع حوتب والأميرة نفرت ٠

من قبر يعود الى عصر الأسرة الثالثة ، وكانا معاصرين للملك سنفرو ، وهو ملك حكم مصر قبل عصر الملكين خوفو وخفرع ، بمعنى أن هذين الزوجين اللذين يجلسان أمامنا جنبا الى جنب ، رشيقان وبراقان مثلما كانا عندما انتهيا من آخر جلسة لهما أمام الفنان ٠ وقد عاشا فى عصر لم يكن قد تم فيه بناء أهرام الجيزة ، وفى تاريخ يعود الى ما بين ٦٣٠٠ الى ٤٠٠٠ عام مضت ٠ وتضع الأميرة شعرها بنفس الطريقة التى يستخدمها أهل النوبة ، وينتمى عقدها المكون من حبات من الحجر الكريم Cabochon الى طراز تحبه الراقصات اللائى يعشن فى أيامنا هذه ٠ وعينا كل من التمثالين مفتوحتان ٠ وقد صنعت مقلة العين الموضوعة داخل جفون برونزية ، من الكوارتز الأبيض المعتم مع قزحية من البلور الصخرى تطوق انسان العين المصنوع من نوع من المعدن البراق ٠ وهذه الصفة التى لا يوجد مثيل لها سوى فى مخطوط أو اثنين ، تعطى للعين نظرة تنم عن الذكاء الشديد ٠ وهناك لمحة من الضوء فى مقلة العين ، ورطوبة فوق السطح لم يصل اليها فن صناعة العيون الزجاجية فى عصرنا الحالى (١) ٠

---

(١) « Enfin nous signalerons l'importance des statues de Meydoum au point de vue ethnographique. Si la race Egyptienne était à cette époque celle dont les deux statues nous offrent le type, il faut convenir qu'elle ne ressemblait en rien à la race qui habitait le nord de l'Egypte quelques années seulement après Snefrou. » — Cat, du Musée de Boulaq. A Mariette Bey. p. 277 ; Paris, 1872. =

أما عن مجوهرات الملكا عا ــ حوتب فهى مكونة من الجعارين المحفورة ، والخواتم ، والتمائم ، وأدوات الزينة ، أما عن الزهريات فهى مصنوعة من البرونز والفضة والمرمر والصينى • أما عن الموائد التى تسكب عليها تقدمات النبيذ ، والأقمشة المنسوجة ، والفخار الأسمر الضارب الى الحمرة ، وموديلات الفنانين ، والمصابيح والقوارب الفضية والأسلحة وأوراق البردى ، والآثار والأدوات المعدة للاستخدام الشخصى التى يبلغ عددها واحدا بعد الألف والتى وضعت فى هذه المساحة ، فلن تتسع هذه الصفحات لذكرها • لا يوجد شىء فى مكان آخر يمكن مقارنته بمجموعة آثار متحف بولاق فيما عدا مجموعة بومبى التى فى نابولى ، ولكن لم تكتشف فى فيلات بومبى مثل تلك الحلى التى اكتشفت فى مقابر المصريين القدماء • ولن نبالغ فى القول ، اذا ذكرنا أنه لو عاد هؤلاء الموتى والمحنطون الى الأرض فان الكاهن سيجد جميع آلهة هيكله ، والملك وصولجانه ، والملكة وجواهر تاجها ، والكاتب ولوحته ، والجندى وأسلحته ، والعامل وأدواته ، والحلاق وأمواسه ، والفلاح وفأسه ، وربة المنزل ومكنستها ، والطفل والدمى التى يلعب بها ، والأمشاط وزجاجات الكحل والمرايا التى تستخدم فى التجميل ، ان كل أثاث المنزل موجود هنا وكذلك أثاث المقبرة • ونجد هنا أيضا أن الصنوج المكسورة قد دفنت مع الموتى تذكارا لأحزان الأحياء •

ويمثل المبنى الحالى مأوى لهذه المجموعة فى انتظار بناء صرح أكثر صلاحية • وفى نفس الوقت فانه لو لم يكن هناك شىء يغرى السائح بزيارة

= ويذكر البروفيسور أوين عن رأس هذين التمثالين أن « جمجمة الرجل بيضية الشكل ، وقد ظهرت فيها نتوءات العظمتين الجداريتين بصعوبة ، بينما ارتفعت النتوءات التى فى الجبهة فى خطوط رأسية متساوية وهى عريضة الى حد ما ، وليست محدبة • وقد ظهرت الجيوب الأمامية القريبة من الأنف • أما الجبهة فهى واسعة ولكن غير بارزة • والشفتان أكثر امتلاء مما هو معروف لدى غالبية الأوربيين ولكن الفم غير ناتىء •• أما ملامح تمثال السيدة فهى من طراز يتفق مع ملامح الزوج ولكنها تدل على جمال وتشطيب أكثر وضوحا وملون بدرجة أخف من لون تمثال الرجل ، ويكشف عن آثار ملابس أفضل وأقل تعرضا للشمس • أما نوعية البشرة فهى واضحة فى مثل تلك الأدلة التى تكشف عنها درجة التدرج اللونى بسبب التعرض للعوامل الجوية •• ان اللون الأصلى للوجوه المصرية يظهر فى حالته الحقيقية فى تمثال الأميرة الفصفى أكثر منه فى تمثال زوجها أو رفيقها » ، انظر : The Enthology of Egypt تأليف : سير أوين R. Owen نشر فى مجلة • Journal of Anthropological Institute ــ المجلد الرابع ــ لندن سنة ١٨٧٤ ، ص ٢٢٥ وما بعدها •

القاهرة فيكفى متحف بولاق وحده كمكان يستحق القيام بالرحلة من أوربا • وأول جولة يتحتم على الانســـان أن يقوم بها عندما يعود الى القاهرة ، وآخر جولة قبل أن يرحل عنها ، هى زيارة الجيزة • ولا يمكن أن تشعر بالتعب من زيارة الأهرام • وقد قضت السيدة (ل) والكاتبة هنا يومهما الأخير فى القاهرة ومعهما الزوجان السعيدان •

وتركنا القاهرة مبكرين لمقابلة أهل الريف أثناء قدومهم فوق ظهور الحمير ، وعربات الكارو المحملة بالخضروات ، والنساء المحجبات اللائى يحملن السلال فوق رؤوسهن • وكان قصر الخديو الجـديد مزدحما بعمال البناء • وكانت قوافل الجمال تحمل كتل الأحجار الجيرية للبنائين • وبعد ذلك يأتى السهل الواسع المزروع بالقمح سواء ما كان منه أصفر اللون أو أخضر اللون • والشارع الطويل المستقيم الذى تقوم على جانبيه أشجار السنط ، وخلف ذلك كله الهضـبة الصحراوية والأهرام • نصفها فى الضوء ، والنصف الآخر فى الظل ذى اللون الذى يتراوح ما بين الرمادى والأخضر فى مواجهة الأفق • ولم أستطع أن أفهم لماذا كان الهرم الثانى بالرغم من صغر حجمه وبعده ، يبدو من هذه النقطة أكبر من الهرم الأول (*) • وبعد ذلك شاهدنا الفلاحين وقد غاصوا حتى الركبة وسط الأزهار الأرجوانية المتفتحة وهم يقطعون البرسيم ثم تحمله الجمال وتمضى به بعيدا • وكانت الماعز والجاموس ترعى فى الأراضى الواسعة التى قطعت أشجارها ، ثم تأتى المقبرة التى فى منتصف المسافة وقد استكانت بين أوراق الشجر الخضراء حيث كان الرجال والخيول يشربون الماء • وسرعان ما سرنا بمحاذاة بركة محاذية للنهر ، كانت تعكس الأهرام على صفحتها مثل المرآة • وكانت القرى والشواديف والقطعان ومزارع النخيل الواسعة، وحقول القمح ، ومساحات الأراضى المحروثة والمتروكة بدون زراعة للراحة، تتوالى واحدة بعد الأخرى • ثم يظهر المنحدر الرملى مرة أخرى والحافة المنخفضة للصخرة الصفراء القديمة ، والهرم الأكبر الذى كان يشرف علينا من ناحية جانبه الظليل ويحجب عنا ضوء النهار •

ولم تدخل السيدة (ل) أو الكاتبة الى داخل الهرم الأكبر ، ولكن الرجل الكسول دخله فى هذا اليوم ، كما دخلته وصيفة السيدة (ل) فى مناسبة أخرى • وأبلغنا كلاهما أن المكان خانق من الداخل ، وردىء جدا

(*) لأنه مشيد على ربوة عالية ــ (المراجع) •

تحت القدمين ، ويسبب الاجهاد الى درجة أننا كنا في كل مرة نتجاهل الدخول ، وأنهينا الزيارة دون أن ندخله • أما الصعود فهو أكثر سهولة لأنه بالرغم من ضخامة الكتل الصخرية الا أنه لا توجد واحدة منها يصعب أن تجد فيها مكانا تضع فوقه قدميك لكى تقسم المسافة • ولولا مساعدة ثلاثة رجال من الأعراب لكان الصعود أكثر اجهادا • أما عن هؤلاء الرجال فانهم مهذبون ويقدمون العون عند الحاجة ، وهم أذكياء ويجيدون استخدام أساليب التملق أثناء قيادتهم لك من كتلة الى أخرى مستخدمين فى ذلك كافة اللغات الأوروبية •

وكنا نرد عليهم باستخدام بقية العبارة التى ذكروا نصفها الأول فكانوا يرددونها مرة أو مرتين ويحفظونها وهم فى غاية الرضا • وقد سألتهم لماذا لم ينحتوا درجات فى هذه الكتل الصخرية لاستخدامها مثل السلالم حتى تسهل تسلق الهرم • وكان الجواب جاهزا ومخلصا :

« لا يا سيدتى • انه من الغباء أن يفعل الأعراب ذلك لأنه لو حفرنا هذه الدرجات فان الخواجة سيصعد بمفرده ، ولن يحتاج الى الأعرابى لمساعدته ، وبالتالى لن يكسب الأعرابى المزيد من الدولارات ! » •

وعند وصولنا الى القمة عرضوا علينا أن يغنوا النشـــيد الأمريكى « Yankee Doudle » ولما عرفوا أننا انجليز صاحوا قائلين : « ليحفظ الله الملكة » ، وذكروا لنا أن أمير ويلز أعطى ٤٠ جنيها استرلينيا لأعراب الأهرام عندما جاء هنا مع الأميرة منذ عامين ، وقد شككنا فى ذلك • وقد قيل ان مساحة قمة الهرم الأكبر تبلغ ٣٠ قدما مربعا ، وهى ليست مسطحة كما كنت أتوقع • لقد بقيت بعض الكتل من المدماك الثانى واثنتان أو ثلاثة من التى فوقه ، وبذلك وجدنا مقاعد مريحة ، وأركانا ظليلة • وكان أكثر المناظر التى شاهدناها من القمة اثارة هو القرب المذهل من كافة مظاهر الهرم الثانى • لقد كان يرتفع بجانبنا مثل الجبل ، ولكنه قريب لدرجة أننى تهيأ لى أننى يمكن أن ألمسه اذا بسطت يدى نحوه • وقد ظهرت بوضوح تام كافة تفاصيل السطح وكل شق وبقعة ملونة بلونين فى الجص اللامع الملتصق بالقمة •

والمنظر من هذا المكان شديد الروعة ، فالأرض الزراعية منبسطة ، والجو شديد الصفاء ، والنقطة التى نقف فوقها منعزلة لدرجة أن الانسان يرى أكثر وأبعد مما يراه من فوق قمة جبل ارتفاعه عشرة أو اثنا عشر ألف قدم •



أبو الهول والأهرام

وتظهر الأرض كما لو كانت تحت أقدامنا مباشرة ، وتبـــدو المقابر العظيمة كما لو كانت مرسومة على خريطة تخطيطية • أما التأثير فهو كما أظن مثل تأثير سطح الأرض عندما تنظر اليها من داخل بالون ، ولا يمكن تكوين فكرة عامة واضحة عن الطريقة التى تم بها تجهيز هذه الجبـــانة للدفن بدون الصعود الى قمة الهرم • ونرى من هذه البقعة كيف أن كل هرم ملكى محاط بفناء مربع من المقابر الأقل حجما ، بعضها على شـــكل أهرام صغيرة ، والبعض الآخر محفور فى الصخر ، أو مبنى فوق مصاطب ضخمة مثل الأحجار التى فى سقوف المعابد •

اننا نرى كيف رقد كل من خوفو وخفرع تحت جبـــل الأحجـــار الخاص به وحوله أفراد أسرته ونبلاؤه ، كما نرى الطرق المرتفعة العظيمة التى جذبت هيرودوت نحو هذه المعجزة ، والتى استخدمت لاحضار الأحجار الضـــخمة • وعرفنـــا بوضـــوح كيف أن المكان عبـــارة عن مقبرة عظيمة مما جعلنا نعجب للأفكار التى يمكن أن تحول الأهـــرام الى مراصد فلكية ونماذج معقدة لقياس الأحجام ، انهـــا أضـــخم المقـــابر فى تاريـــخ العالم كله (١) •

---

(١) ان الكلمة الانجليزية التى تطلق على الهرم (بيراميد Pyramid) والتى ذكرت عنها الكثير من الاجتهادات اللغوية موضحة فى بردية المتحف البريطانى الهندسية بأنها مصرية خالصة وتكتب : بير ــ ام ــ أس •

وتظهر رأس (أبو الهول) وسط منخفض رملي على مسافة قليلة نحو الجنوب · ويجثم هذا المارد الخرافي الذي يبدو أنه أقدم من الأهرام مرفوع الرأس مثل كلب الحراسة الذي يتجه بأنظاره نحو الشرق الى الأبد كما لو كان ينتظر فجرا لم يبزغ نوره بعد (١) ·

وهنـاك منخفض في الرمال القريبـة يبين هذا الأثر الغريب الذي يطلق عليه خطأ اسم معبد (أبو الهول) (٢) ·

---

(١) « On sait par une stéle du musée de Boulaq quele grand Sphinx est antérieur au Rois Chéops de la 4e Dynastie. » Dic. d'Arch. Egyptienne : Article' Sphinx, P. Pierre, Paris, 1875.

[وكان من رأى مارييت وهو أيضا رأى البروفيسور ماسبيرو أن تمثال أبى الهول يعود تاريخه الى عصر « اتباع حورس » أى عصور ما قبل التاريخ عندما كان يحكم مصر عدد من الزعماء الصغار ، قبل أن يوحد مينـا الأقاليم القديمة فى مملكة واحدة · وأصبحت هذه الأقاليم نوماد أى مقاطعات تعود الى بداية التاريخ المدون ، كما صار الزعماء القدامى الطاعيين نصف مستقلين ، كما هو واضح فى سلطاتهم الكبيرة وأهميتهم الواسـعة على أيام الأسرة الثانية عشرة · (ملحوظة مضافة الى الطبعـة الثانية)] ·

وقد حلت مشكلة معنى اسم (أبو الهول) التى طال النزاع حولها ، عندما بين مسيو روجيه حسب نقش وجده فى ادفو ، أن (أبو الهول) يمثل تجسد حورس الذى اتخذ شكل أسد برأس انسان لكى يغلب ست (تيفون) وكان حورس يعبد بهذا الشـكل فى مقاطعة لينتوبوليس · وقد ورد فى لوحة متحف بولاق التى سبق ذكرها والمعروفة باسم : حجر خوفو ، أن (أبو الهول) العظيم قد عرف باسم هرم حور ـ ام ـ خو ، أو حورس الذى فى الأفق · وتعود هذه التسمية الى الاتجاه الذى يتخذه التمثال · وقـد جرت تساؤلات عن السبب الذى جعل التمثال يتجه الى الشرق · وأظن أن الاجابة ستكون : لأن حورس الذى ينتقم لأبيه أوزوريس ينظر الى الشرق منتظرا عودة أبيـه من العـالم السفلى ، لأن حورس هو الذى يحكم مصر ولذلك فقد اتخذ كل فرعون لقب حورس الحى ، الصـقر الذهبى ·· الخ ·· الخ ولذلك كانت ملامح الملك الحـاكم تتخذ دائما شكل (أبو الهول) عند التعبير عنها فى الأعمال المعمارية كما هو واضـح فى معـابد الكرنك ، ووادى السبوع ، وتانيس ·· الخ ·· الخ ·

(٢) من المؤكد أنه ليس معبدا ، وربما كان مصطبة أو هيكلا لتقديم القرابين ، انه شديد الشبه بالمقابر وقد بنى كله بأحجار شديدة اللمعـان من المرمر والجرانيت الأحمر ، نحتت فى أشكال مربعة ، ووضعت ببساطة مثل رجمة الأحجار التى فى السـهل شـمال سالزبورى بانجلترا ، والتى تعود الى عصور ما قبل التـاريخ · وهو يتكون من قاعة أمامية ، وبهو للأعمدة وثلاث حجرات رئيسية وبعض الحجرات الأصغر حجما ، وتجويف سرى وحائط · وتحتوى الحجرات على فجوات القية من الصعب افتراض أنهـا كانت مخصصة لشيء الا استقبال المومياوات ، وقد وجدت فى قاع البئر ثلاثة تماثيل للملك خفرع أحدها هو التمثال النصفى المشهور المصنوع من حجر الديوريت والموجود حاليا بمتحف بولاق · وقد ذكر مسيو دى بارى مرقال فى مقـال منشور بمجلة Revue Arch. =

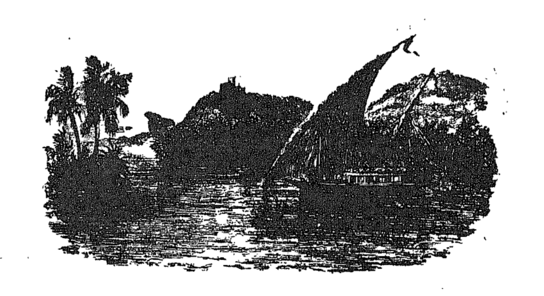
وفوق أعلى منحدر في هذه الهضبة الصحراوية ، بعيدا الى الغرب ، يقع هرم منقرع الذى لم يفقد من ارتفاعه الأصلى الا خمسة أقدام ، ولكنه يبدو من هذه المسافة كاملا تماما ٠

وهذه الأشـياء الباقيـة على الدوام فى متاهة الصـحراء ، هى أول ما وقعت عليه أعيننا ٠ والمنظر بوجـه عام يزيد فى الطـول عن العرض ، وتحده الصحراء الليبية من الجانب الغربى ، وتلال المقطم من الجانب الشرقى ٠ وعند سفح هذه التلال الصفراء التى يفصلها عنا السهل المزروع الذى عبرناه عند حضورنا ، تقع القاهرة بقبابها اللامعة التى نرى نصفها من خلال الضباب الذى ينيره ضوء الشمس ٠ ويطل على هذه المدينة العظيمة مسجد القلعة بمآذنه التى تشبه أشرعة السفن وهى تشق عنان السماء الصافية ٠ وعلى البعد فى اتجاه الشمال تقع مزارع النخيل الظليلة التى تمر عليها العين واحدة بعد الأخـرى حيث تفقد اتجاهها فى مناطق الدلتا السوداء الخصيبة ٠ أما فى الغرب والجنوب فلا توجد الا الصحراء الممتدة ٠ وتبـدأ عند موطىء أقدامنـا هنـا متاهة واسعة من الوديـان والمنحدرات ، مع أنهار وبحار من الرمال تقطعها هنا وهناك حواف حادة من الصخور ، وتلال من أحجار الأطلال ، والمقابر المفتوحة ٠ وهناك خط فضى يشق حافة هذا العـالم السـاكن ويضمحل فى اتجاه الجنوب فى الضباب المختلط بضوء الشمس الذى يلمع فى الأفق البعيد ٠

ونرى على شمال هذا الخط الفضى محاجر طرة الصخرية ، ونخيل منف الذى يشبه ريش الطيور ٠ كمـا تقع أهرام (أبو صير) وسقارة ودهشور أعلى الهضبة الصحراوية ٠ وقد ظهرت كل مصطبة من مصاطب هرم ونيفيس (زوسر) من خلال الضوء والظـل فى بساطة متناهيـة ٠ وكذلك قمة هرم دهشور العظيم التى تشبه القبة ٠ وحتى الخرابة التى بجانبه المكومة فيها قوالب الطوب والتى حسبناها صخرة سوداء مازالت موجودة وواضحة تماما ٠ ويقف بعيدا عن هذه المعالم كلها مثل برج بابل الذى لم يكتمل بناؤه ، هرم ميدوم، شاحبا وسط أضواء الظهيرة المرتجفة ٠ وكانت عيوننا تتجه الى هذه الناحية فى اتجاه الصحراء المترامية الأطراف

= (المجلد السادس والعشرين ، باريس سنة ١٨٧٣) بوضوح أن معبد (ابو الهول) ليس فى حقيقته الا تابعا من توابع الهرم الثانى ٠ ومن الممكن أن تكون الفجوات قد صممت لاستخدام الملكة واسرة الملك خفرع الذى من المفروض أن تكون مومياؤه قد دفنت فى الهرم الخاص به ٠

والتى تتخفى خلف أسرارها التى ترسل الضوء والهدوء ، الى نهر النيل عندما تسطع مرة ثانية ، ومرة ثالثة ، حتى تنصهر أخيرا عند تلك المسافة البعيدة الباهتة التى تقع بعدها طيبة وفيلة ، أبو سنبل .



الملاحق

الملحق الأول

خطاب المحترم ماك كالوم الى محرر جريدة التايمز

سيدى :

قد يهم قراءك أن يعلموا أننى وجدت فى الجانب الجنوبى من المعبد الكبير فى أبى سنبل المدخل الى حجرة ملونة منحوتة فى الصخر أبعادها ٢١ قدما ، ٢½ بوصة فى ١٤ قدما ، ٨ بوصات ، وارتفاعها ١٢ قدما حتى قمة العقد · وهى منحوتة وملونة حسب أحسن طرازات الفن المصرى فى أزهى عصوره · وتحمل الصورة النصفية للملك رمسيس الأكبر وخراطيشه وهى سليمة تماما · وتلى هذه الحجرة خرائب غرفة رئيسية ذات سقف مقبب مصنوعة من الطوب المجفف فى الشمس ومتصلة ببقايا ما يبدو أنه حائط ضخم أو بوابة يتضمن مدرج سلالم ينتهى الى مدخل مقبب يقود الى الحجرة الرئيسية التى سبق ذكرها من قبل ·

وكان مدخل الغرفة المنقوشة ومدرج السلالم والعقد المقبب، جميعها مدفونة فى الرمال والأنقاض · ويبدو أن الغرفة كانت مغطاة ومتروكة منذ زمن بعيد حيث كانت كلها لا تشوبها مخربشات السياح القدماء والمحدثين · ولم يكن مدرج السلالم قد فتح حتى يوم ١٨ عندما اكتشف واحد من وجهاء مجموعتنا عظام امرأة وطفل ومعهما جرتان لحفظ الأحشاء وجميعها مدفونة فى الرمال · ولا شك فى أن هذه كانت مدفننا تابعا · سواء أكانت هذه الغرفة المنقوشة هى الهيكل الداخلى لمعبد صغير أم جزءا من مقبرة أم مجرد مغارة صغيرة مثل المغارات المشهورة فى إبريم ، فانها ستكون محل حفائر مستقبلة لتقرير ماهيتها · ويسعدنى يا سيدى أن أكون ···· الـخ ·

أندرو ماك كالوم

كوروسكو ــ النوبة ــ ١٦ فبراير سنة ١٨٧٤

الملحق الثـــانى

مجمع آلهة قدماء المصريين

تتكون آلهة قدماء المصريين من آلهة سماوية ، وأرضية وجهنمية مع العديد من الشخصيات السفلية سواء منها ما يمثل الآلهة العظمى أو الآلهة الأخرى التابعة لها • وكانت معظم الآلهة مرتبطة بالشمس وتمثل ذلك الجرم السماوى فى مســاره من خــلال نصف الكرة الأرضية العلوى أو السماء ونصفها السفلى أى الجحيم (هاديس) وينتمى الى آلهة الدائرة العظيمة التى كانت تعبد فى طيبة وهليوبوليس ، وقد رتبت الآلهة حسب عبادتها المحلية فى مصر الى ثلاثيات محلية مثل ثالوث منف المتمثل فى الاله بتاح وزوجته مرينبتاح وابنهما نفر آتوم ، كما أنها كانت تمثل ثالوثا يضاف اليه أحيانا الالهة بست أو بوباستيس•وفى أبيدوس كان الثالوث المحلى مكونا من أوزيريس وايزيس وحورس ومعهم نفتيس • وفى طيبة كان يوجد آمون رع أو آمون وموت وخونسو ومعهم نيس • وفى الفنتين كانت توجد الآلهة نيف ، وأنوكا ، وسيتى ، وهاك ، ونجد أن أسماء الآلهة كانت فى معظمها مصرية المعنى فمثلا بتاح يعنى : الفتاح ، وآمون يعنى : الخفى ، ورع يعنى الشمس أو اليوم ، وحتحور يعنى منزل حورس • ولكن القليل منها خاصة فى العصور المتأخرة كان مرتبطا بأصول سامية مثل بعل وعشتاروت أو عشتار وخين أو كيون ، ورسبو أو رسيف • والى جانب الآلهة الرئيسية دخل الى التنظيم الدينى العديد من الآلهة السفلية أو الغريبة Parhedral كان بعضها يجسد أحيانــا القدرات ، أو الحواس ، أو غيرها من الأشياء ،وكذلك المردة أو الأرواح أو يجسد أرواح الآلهة • فى فترة تالية انقسمت الآلهة الى ثلاث رتب• الرتبة الأولى أو العليا تكونت من ثمانية آلهــة كانت مختلفة ما بين الطرازين المنفى والطيبى • كان المفروض أنهــا تحكم مصر قبل عصر الفناء • وكانت آلهة الطراز الأول فى منف هى : ١ ــ بتاح ، ٢ ــ شو ، ٣ ــ تفنوت ، ٤ ــ جــب ، ٥ ــ نــوت ، ٦ ــ أوزيريس ، ٧ ــ ايزيس وحــورس ، ٨ ــ حتحــور • أما آلهة طيبــة فكانت : ١ ــ آمون رع ، ٢ ــ منتــو ،

٣ ــ آتوم ، ٤ ــ شو وتفنوت ، ٥ ــ جب ، ٦ ــ أوزيريس ، ٧ ــ ست ونفتيس ، ٨ ــ حورس وحتحور . لقد كانت آلهة الطراز الثانى يبلغ عددها اثنى عشر الها ولكن لم يكن من بينها أسماء مصرية سوى اسم واحد فقط هو اسم هركيوليس (هرقل) وقد ورد أن الطراز الثالث كان مكونا من أوزيريس الذى يظهر منضما الى الطراز الأول . انظر كتاب Guide to the first and second Egyptian Rooms ، دليل الغرفتين المصريتين الأولى والثانية بالمتحف البريطانى تأليف : س. بيرش ــ سنة ١٨٧٤ .

وأشهر الآلهة التى ظهرت على الآثار هى بتاح وخنوم ورع وآمون رع ومين وأوزيريس ونفر آتوم أو آتوم وتحوت وجب وست وخونسو وحورس وموت ونيت وايزيس ونوت وحتحور وباست . ويمكن التعرف عليهم بالصفات الآتية :

بتاح : فى شكل مومياء ممسكة بالشعار الذى يطلق عليه البعض اسم مقياس النيل بينما يطلق عليه آخرون اسم رمز الاستقرار . وهو يسمى « أبو كل البدايات وخالق بيضة الشمس والقمر » . وهو الاله الرئيسى فى منف .

خنوم : له رأس كبش ويدعى صانع الآلهة والبشر وروح الآلهة ، وهو الاله الرئيسى فى الفنتين والشلال .

رع : له رأس صقر ومتوج بقرص الشمس وتحيط الحية بالقرص ، وهو موزع ومنظم العالم ، وكان يعبد فى مصر كلها .

آمون رع : على شكل انسان وهو متوج بغطاء للرأس ذى قمة مسطحة واثنتين من ريش الطيور فى وضع مستقيم ويلبس نقبة قصيرة . وكانت بشرته تلون أحيانا باللون الأزرق . وتوجد أشكال كثيرة من هذا الاله ولكنه يوصف بأنه ملك الآلهة . وهو الاله الرئيسى فى طيبة .

مين : له شكل مومياء انسان ويلبس رداء الرأس الذى يلبسه آمون رع ويده اليمنى مرفوعة وهى تمسك بمضرب درس الحبوب . وهو اله الانتاج والتوالد وهو الاله الرئيسى لمدينة أخميم . وقد توحد فى الاله آمون فى العصور المتأخرة وأطلق عليه اسم : آمون خيم .

أوزيريس : له شكل انسان ، في وضع المومياء ومتوج بتاج مخروطي الشكل ، ويمسك في يده مضرب درس الحبوب والعصا التي يستخدمها الرعاة ويسمى الكائن الطيب ، والسيد الذي يعلو فوق الجميع ، والسيد الأوحد ، وهو اله العالم السفلي وقاضي محكمة الموتى وممثل الشمس تحت الأفق ، ويعبده جميع المصريين القدماء . وهو الاله المحلي في أبيدوس .

نفر آتوم : له رأس انسان ومتوج بغطاء الرأس المعروف لدى قدماء المصريين « بسشنت » . **وهذا الاله يمثل الشمس الغاربة أو الشمس** التي تهبط لتنير العالم السفلي . وهو الاله المحلي في هليوبوليس .

تحوت : في شكل رجل وله رأس ابيس ويرسم في العادة ممسكا بقلم ولوح الكتابة اللذين يستخدمهما الكاتب ، وكان هو اله القمر واله حروف الكتابة وهو الاله المحلي في سيسون أو هرموبوليس .

سب (جب) : أبو الآلهة واله النباتات الأرضية . في شكل رجل على رأسه اوزة .

ست : يرمز له بحيوان رمزي له كمامة وأذنان مثل ابن آوى ، وله جسم حمار ، وذيل منتصب مثل ذيل الأسد . وكان في الأصل يشبه اله الحرب ولكنه في العصور الأخيرة صار رمزا للشر وعدوا لأوزيريس .

خونس (خونسو) : له رأس صقر ومتوج بقرص الشمس والقرنين ويصور أحيانا على شكل شاب معه كالون واقفا فوق تمساح .

حورس : يظهر على شكل حورس أرويرس أي المتوج أو حورس — حربوقراط (Harpocrates) أو حورس الطفل . وهو يصور في الشكلين الأولين على هيئة رجل له رأس الصقر ويرتدى تاج الوجهين المزدوج . أما في الشكل الأخير فيظهر كطفل معه الكالون . وهو الاله المحلي في ادفو وهي (أبوللينوبوليس ماجنا) .

موت : امرأة ترتدى رداء فضفاضا وتلبس غطاء الرأس الفرعوني المعتاد تحت تاج على شكل نسر . وكانت تعبد في طيبة .

نيت : امرأة ترتدى رداء فضفاضا وتمسك أحيانا بالقوس والسهام وهي متوجة بتاج مصر السفلي وهي تترأس على الحرب والأنوال المستخدمة في النسيج وكانت تعبد في طيبة .

ايزيس : امرأة متوجة بقرص الشمس وتجلس على عرش وأحيانا تحيط بها القرون وكانت تعبد فى أبيدوس وفيلة وقد سكنت روحها سوثيس أى نجم الكلب ·

نوت : امرأة منحنية بحيث تلمس الأرض بأصابع يديها ، وهى تمثل قبة السماء وهى أم الآلهة ·

حتحور : لها رأس بقرة ومتوجة بقرص الشمس وريش الطيور ، وهى الهة أمنتى أو العالم الآخر لدى قدماء المصريين وكانت تعبد فى دندرة ·

باستت وسخمت : يبدو أن باستت وسخمت شكلان لالهة واحدة لأن سخمت تصور فى شكل امرأة لها رأس أسد وعلى رأسها قرص الشمس والحية ، بينما باستت لها رأس قطة وتمسك بالصلاصل وهى تعبد فى بوباستس (تل بسطة) ·

الملحق الثالث

العقيدة الدينية لدى قدماء المصريين

هل كان قدماء المصريين يؤمنون باله واحد ، كانت صفاته ممثلة في آلهتهم المتعددة ؟ أم أن البناء الكلي لعقيدتهم كان معقودا على أسطورة شمسية بكافة تشعباتها المختلفة والمحتومة ؟ وهذه هي مشكلة علم المصريات العويصة وهي مشكلة لم تحل بعد · ويختلف علماء المصريات بشدة حول هذا الموضوع بحيث أصبح من المحال التوفيق بين آرائهم ، لدرجة أن وصف أى معبد يستكمل بدون العودة الى هذه المسألة المهمة · ولما كان السؤال نفسه يتصدر كل رأى يتكون عن مصر القديمة والمصريين القدماء فقد فكرت في أن أجمع هنا بعض المقتطفات المعبرة من كتابات واحد أو اثنين من كبار المؤلفين الذين تعرضوا للموضوع ·

● « تتكون ديانة المصريين القدماء من الايمان بآلهة متعددة ممثلة في سلسلة من المجموعات المحلية · وكانت فكرة عبادة اله واحد قائم بذاته موجودة في معظم مفاهيم الآلهة الرئيسية الذين قيل عنهم انهم أنجبوا آلهة أخرى ورجالا وكافة الكائنات والأشياء · وكانت الشمس هي أكبر الأشياء التي عبدوها في أشكالها المختلفة مثل الشروق ، ووسط النهار ، والغروب تحت أسماء مختلفة وكانت موحدة خاصة في طيبة مع أشكال الآلهة الأخرى مثل آمون ومنتو · أما أقدم الآلهة وهو الاله بتاح الذي كان يعبد في منف ، فقد كان هو خالق السماء والأرض والآلهة والبشر ، ولم يكن موحدا مع الشمس · وبجانب عبادة الآلهة السماوية انتشرت عبادة أوزيريس والى جانبها عبادة خصمه ست ، الشيطان المصرى ، قرين الروح ، وقاضى المستقبل ، والجحيم (هاديس) والعالو Aahlu أى الفردوس ، والاتحاد الأخير للروح مع الجسد بعد غياب قرون عديدة · والى جانب آلهة السماء ، والنور ، والعالم السفلى ، كانت هناك آلهة أخرى تجسد عناصر أو عمليات الطبيعة ، والفصول ، والأحداث » · عن كتاب : Guide to the First and Second Egyptian Rooms · المتحف البريطاني ـ تأليف س · بيرش ، سنة ١٨٧٤ ·

● « كانت هذه الديانة المختلطة بالعديد من الأساطير المعقدة قد اندمجت مع تفسيرات طبيعية متناقضة لم يتم تطبيق أى منها بشكل اجماعى • أما الذى لا نشك فيه وهو ما يظهر لنا كذلك من النصوص ويلقى قبول العالم كله ، فهو الاعتقاد فى اله واحد • أما تعدد الآلهة فهو مجرد مظهر خارجى • ان الآلهة المتعددة ليست الا توضيحا للكائن الواحد حى قدراته المختلفة • وهذا الاتجاه نحو الرمز للمعانى العظيمة برموز محسوسة ، وهو الذى انبثقت عنه اللغة الهيروغليفية ، قد أوجد تشابها فى التعبير عن الفكرة الدينية ، وهذه الفكرة قد اختفت فى العصور الأخيرة وراء رمزيات متعددة » •

عن كتاب العالم ب • بيير . Dictionnaire d'Arch. Egyptienne المنشور سنة ١٨٧٥ وقد ترجمت عن المادة التى تحت عنوان: Réligion .

● « كان اله قدماء المصريين واحدا ، وكاملا ، ومانحا للمعرفة والذكاء وأبعد ما يكون عن الغموض بحيث لا يستطيع أحد الحديث عن الغموض • انه الواحد الذى يوجد بالضرورة ، والروح الواحد الذى يعيش فى جميع الماديات ، والمولود الوحيد فى السماء والأرض الذى لم يلده أحد ، وهو أبو الآباء وأم الأمهات ، وهو دائم الوجود والكمال الذى لا يتغير ، وهو الموجود فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وهو يملأ الكون بحيث لا تستطيع أية صورة أرضية أن تعبر عن حجمه الكبير ، وهو موجود بحيث تشعر بوجوده فى كل مكان ولكنه غير محسوس فى أى مكان » •

عن كتاب العالم ج• ماسبيرو Histoire Ancienne des peuples de l'Orient • نشر فى باريس سنة ١٨٧٦ ، الفصل الأول — ص ٢٦ •

● « من سوء الحظ أننا كلما تعمقنا فى دراسة ديانة قدماء المصريين ؛ ازدادت شكوكنا حول الموقف الذى يجب أن نتخذه حيالها • لقد استمرت الحفائر منذ زمن طويل فى دندرة وادفو وكشفت لنا مصدرا خصبا للمادة العلمية •

ان هذين المعبدين بتغطيهما النصوص مثل كتابين دارت مادتهما حول الآلهة التى خصص لها المعبدان ويتحدثان أيضا عن العقيدة فى تفاصيلها العامة • ولكن لا يظهر من خلال هذين المعبدين ولا المعابد الأخرى التى عرفناها منذ فترة طويلة ، الاله الواحد • واذا كان آمون « بداية البدايات »

في طيبة ، واذا كان بتاح في منف هو « أبو جميع الكائنات ، الذي ليس له بداية ولا نهاية » فان كل اله مصرى آخر كانت تنسب له هذه الصفات الوحدانية ٠ وبمعنى آخر فاننا نجد في كل مكان آلهة لم يخلقها أحد وهى حية لا تموت ، ولا نجد في أى مكان هذا الاله الواحد غير المرئى الذي ليس له اسم أو شكل والمفروض أنه يحوم فوق القمة العليا لمجمع الآلهة المصرية ٠ وقد تم الكشف حاليا عن معبد دندرة وتم الوصول الى نهاية نقوشه المخفية ولكنها لا تتضمن أثرا لهذا الاله ٠ والنتيجة الوحيدة التى يمكن أن نتوصل اليها هي أن العالم (من وجهة نظر قدماء المصريين) كان هو نفسه الاله وأن هذا التعدد يمثل أساس ديانتهم » ٠

عن كتاب العالم ا٠ ماريت بك Itinéraire de la Haute Egypte ـ نشر في الاسكندرية سنة ١٨٧٢ ـ ص ٥٤ ٠

● « ان الشمس هي أقدم الأشياء التي عبدها المصريون القدماء كما وجدت على الآثار ٠ كانت هي الاله الذي يولد كل يوم عندما يبزغ من حضن السماء ليلا ، وكانت ولادته هي الرمز الطبيعي للوجود الأبدى للألوهية ، ولذلك أصبحت السماء هي الأم المقدسة ٠ لقد كانت على وجه الخصوص هي السماء الليلية التي تتجسد في هذه الشخصية ٠ وكانت أشعة الشمس وهي توقظ كافة مظاهر الطبيعة تعطى الحياة للكائنات الحية ٠ ومع أن ذلك كان في الأصل مجرد رمز ، الا أنه كان هو أساس العقيدة الدينية ٠ ان اله الشمس نفسه هو الذي نجده ممثلا في شكل الكائن الأعظم ٠ أما بقية اسمه المصرى رع فقد كان يضاف الى أسماء آلهة محلية معينة،مما يكشف لنا أن اسمه المعروف يمثل حقبة ثانية في تاريخ ديانات وادى النيل » ٠

عن كتاب الفايكونت ا٠ دى روجيه Notice sommaire des monuments Egyptiens d'Louvre ـ نشر في باريس سنة ١٨٧٣ ـ ص ١٢٠ ٠

وعلى ذلك فان هذه الديانة سواء أكانت ترتكز على خرافة شمسية أم على عقيدة أصيلة في الايمان باله روحى،قد أصبحت مادة ضخمة في تطوراتها الأخيرة وهو ما يتضح بجلاء لكل دارس للآثار ٠ وقد أورد مسيو ماسبيرو التعليقات التالية فيما يختص بتدهور وانحطاط العقيدة القديمة :

« وعلى مدار العصور ، أصبحت مفاهيم العقيدة غامضة ، بينما ظل مفهوم الألوهية الذى رعاه قدماء المفكرين العقائديين في مصر القديمة

واضحا هنا وهناك فى النصوص التى يعود تاريخها الى العصر اليونانى الرومانى • وتبرهن العبـارات والصفات غير الكاملة على أن المبـادىء الأساسية للديانة المصرية ظلت موجـودة • وبالنظر الى الكثير من هـذه العبارات لم يعد لدينا ما نفعله ازاء الاله القديم غير المحدود والذى لاتدركه الحواس ، ولكننـا نجـد أنفسـنا أمام اله من لحم ودم يعيش على الأرض واكتفى بأن يجعل نفسه مجرد ملك من البشر • ولم يعد هو الاله الذى لا يعرف أحد شكله أو مادته : انه الاله خنوم فى اسنا ، والاله حتحور فى دندرة ، وحورس ملك الأسرة الالهية فى ادفو • وهذا الملك لديه بلاط ووزراء وجيش وأسطول• أما ابنه الأكبر حور حات أمير كوش ووريث العرش فانه يقود الجيوش • ووزيره الأول تحوت مخترع حروف الكتابة فانه يملك فى أطراف أصابعه الجغرافيـا وفن الخطابة • وهو المؤرخ الملكى والمؤتمن على واجب تسجيل انتصارات الملك والاحتفال بها بصوت مرتفع، وعندما يشن هذا الملك حربا على جاره تيفون لا يستخدم الأسلحة الالهية التى يجب أن نعتبرها مواهب يمـكن أن يوزعهـا حسب ارادته ، وانما يسـتدعى رماة السـهام والعجـلات الحربية ويهبط النيـل فى سفينته الشراعية بصفته آخر فرعون جـديد ، ويوجـه المشاة ومرافقى المشاة ويحارب فى معارك ذات خطط موضوعة ، ويحمل المدن بواسطة العاصفة ويخضـع مصر كلها تحت قدميـه • ونرى هنـا أن المصريين فى العصر البطلمى قد أضـافوا الى اله أجـدادهم الواحـد سلسلة من الملوك والآلهة ، وأحاطوا هذه الأساطير الحديثة بحشد من التفاصيل الخيالية » •

عن كتاب : ج • ماسبيرو Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient — نشر فى باريس سنة ١٨٧٦ — الفصل الأول ص ٥٠ — ٥١ •

الملحق الرابع

تدوين التاريخ الزمني لدى المصريين القدماء

« لقد ظل تدوين تاريخ الأحداث في مصر القديمة محل نزاع لعدة قرون. فلم تكن لدى المصريين سنة دائرية ؛ ولكنهم أرخوا بسنوات حكم ملوكهم . أما المصادر الأساسية الاغريقية فكانت هي سجلات بطلميوس التي دونت في القرن الثاني بعد الميلاد وقوائم الأسرات التي أخذت عن كتاب تاريخ مانيثون وهو كاهن مصري عاش في عصر بطلميوس فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق.م) . وقد أثارت التناقضات الموجودة بين هذه القوائم والآثار ، العديد من الأفكار والأخطاء التاريخية . أما النقاط التي تحدد الأسلوب الرئيسي لمعرفة التاريخ عن طريق الآثار ، فهي غزو قمبيز لمصر سنة ٥٢٧ ق.م. ، وبداية حكم بسماتيك الأول سنة ٦٦٥ ق.م. ، وحكم طهرقا حوالي سنة ٦٩٣ ق .م. ، وحكم بوخوريس حوالي سنة ٧٢٠ ق.م. ، وتزامن حكم شاشانق الأول مع الاستيلاء على أورشليم حوالي سنة ٩٧٠ ق.م. أما المصادر الأساسية الأخرى التي تلقى الضوء على الأجزاء الأخرى من التاريخ فهي اللفائف المدونة عن ثورة سوثيس أو نجم الكلب في أيام تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني والثالث والسادس والتاسع . والفترة التي تقدر بأربعمائة عام من عصر رمسيس الثاني الى عصر ملوك الرعاة ، والألواح الجنازية للعجل أبيس في معبد السرابيوم ، وقوائم الملوك في سقارة وطيبة وأبيدوس ، والمرسوم التاريخي المدون في بردية تورين وغير ذلك من الملحوظات المتعلقة بالأحداث . ولكن لا توجد تواريخ محددة للأسرات السابقة التي يمكن الاهتداء اليها عن طريق الآثار . أما تلك التي وردت

حتى ذلك الحين فالفروض أنها لا تمنع فحص مدى صحة الانتقادات التاريخية أو اللغوية » ·

عن كتاب : العالم بيرش : Guide to the First and Second Egyptian Rooms ـ المتحف البريطاني نشر سنة ١٨٧٤ ـ ص ١٠ ·

ويكفى للدلالة على الاختلاف الواسع فى الآراء التى تدور حول هذا الموضوع ، أن نجد علماء المصريات الألمان وحدهم يختلفون فيما بينهم حول تاريخ الملك مينا (أول ملك أصيل فى الامبراطورية القديمة) الى المدى التالى :

بوخ	يضع مينا	فى سنة	٥٧٠٢	ق·م·
أنجر	يضع مينا	فى سنة	٥٦١٣	ق·م·
بروجش	يضع مينا	فى سنة	٤٤٥٥	ق·م·
لاوت	يضع مينا	فى سنة	٤١٥٧	ق·م·
لبسيوس	يضع مينا	فى سنة	٣٨٩٢	ق·م·
بنسين	يضع مينا	فى سنة	٣٦٢٣	ق·م·

وبالرغم من أن ماربيت كان يعرف الحاجة للانتباه الشديد عند قبول أو رفض أي من هذه الحسابات الا أنه يميل الى الابقاء على قوائم مانيثون التي تبين تواريخ الأسرات الأربع والثلاثين المدونة ـ كما يلي :

الدولة القديمة			الدولة الحديثة		
التاريخ (ق.م.)	العاصمة	الأسرة	التاريخ (ق.م)	العاصمة	الأسرة
٥٠٠٤	ثنيس	١	١٧٠٣	طيبة	١٨
٤٧٥١		٢	١٤٦٢		١٩
٤٤٤٩	منف	٣	١٢٨٨		٢٠
٤٢٣٥		٤	١١١٠	تانيس	٢١
٣٩٥١		٥	٩٨٠	بوباستيس	٢٢
٣٧٠٣	الفنتين	٦	٨١٠	تانيس	٢٣
٣٥٠٠	منف	٧	٧٢١	سايس	٢٤
		٨	٧١٥	أسرة اثيوبية	٢٥
٣٣٥٨	هيراكليوبوليس	٩	٦٦٥	سايس	٢٦
٣٢٤٠		١٠	٥٢٧	أسرة من الفرس	٢٧
			٤٠٥	سايس	٢٨
الدولة الوسطى			٣٩٩	منديس	٢٩
			٣٧٨	من سلبين	٣٠
٣٠٦٤	طيبة	١١	٣٤٠	أسرة من الفرس	٣١
»		١٢			
٢٨٥١		١٣		الدول التالية	
٢٣٩٨	اكسويس	١٤			
		١٥	٣٣٢	من المقدونيين	٣٢
٢٢١٤	ملوك الرعاة	١٦	٣٠٥	من الاغريق	٣٣
		١٧	٣٠	من الرومان	٣٤

وتتعارض مع هذه التواريخ ، القائمة الموجزة التى جمعها مسيو شاباس وهى تبين فلسفة ما يمكن أن نطلق عليه اسم قائمة المدرسة الوسيطة لعلم المصريات ٠ وقدمها مسيو م ٠ شاباس « ليس كمحاولة للتأريخ للأنظمة ، ولكن للمعاونة فى تبويب الفترات التى من الضرورى تحديدها بالتقريب :

مينا واقامة الدولة القديمة	٤٠٠٠ ق٠م٠
بناء الأهرام الضخمة	٣٣٠٠ «
الأسرة السادسة	٢٨٠٠ «
الأسرة الثانية عشرة	٢٤٠٠ « – ٢٠٠٠ «
غزوة الرعاة	؟ «
طرد الرعاة وبداية الدولة الحديثة	١٨٠٠ «
تحوتمس الثالث	١٧٠٠ «
سيتى الأول ورمسيس الثانى	١٥٠٠ « – ١٤٠٠ «
شاشانق غازى أورشليم	١٠٠٠ «
أسرات سايس	٧٠٠ «
قمبيز والفرس	٦٠٠ « – ٥٠٠ «
الغزو الفارسى الثانى	٤٠٠ « – ٣٠٠ « – ٢٠٠ «
البطالمة	١٠٠ «

الملحق الخامس

التاريخ المعاصر لمصر وما بين النهرين وبابل

لقد ظهرت الى النور اضافة شديدة الأهمية الى معلوماتنا عن التأريخ لتاريخ مصر المتزامن مع تاريخ فلسطين وسوريا وما بين النهرين وبابل خلال هذا العام (١٨٨٨) بالاكتشاف العظيم للألواح المسمارية التى وجـدت فى تل العمارنة بمصر · وتتكون هذه الألواح فى معظمها من خطابات ورسائل أرسلت الى أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (خو ـ ان ـ آتون) (أى أخنـاتون) من ملوك بابـل وأمراء وحـكام فلسطين وسوريا وما بين النهرين ، وقد كان بعضها معنونا الى أمنحوتب الرابع (خون ـ ان آتون) من بورنـا ـ بورياس ملك بابل الذى عاش حوالى سنة ١٤٣٠ ق·م· وهذه تعطينا تاريخ حياة أمنحوتب الرابع (أخناتون) وحكمه ، وما يترتب على ذلك من التوصل الى التاريخ التقريبى لانشـاء المدينة التى نعرفها باسـم تل العمارنة وتأسيس عبادة قرص الشمس الجديدة وهى أقدم مقارنة زمنية بين تاريخ مصر القديمة وبعض الدول المعاصرة لها ·

ومن هذه الألواح نعرف أيضا أن زوجة أمنحوتب الرابـع كانت أميرة سورية وهى ابنة دوشراتا ملك نهارينا (سميت فى الألواح باسم « أرض ميتانى ») فى أعالى الفرات · وللحصول على وصف كامل وعلمى لبعض هـذه الوثائق المكتشفة حديثـا انظـر ورقة الدكتور ارمان التى عنوانها : Der Thantafelfund von Tell Amarna التى قرئت أمام آكاديمية برلين فى الثالث من شهر مايو سنة ١٨٨٨ ·

اقرأ فى هذه السلسلة

برتراند رسل
أحلام الأعلام وقصص أخرى

ى. رادو نكايا وم. جابولتسكى
الإلكترونيات والحياة الحديثة

ألدوس هكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت. و. فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

ريموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ر. ج. فوربس و أ. ج. ديكستر هوز
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليستردل راى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الإنجليزية

لويس فارجاس
المرشد إلى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

د. قدرى حفنى وآخرون
الإنسان المصرى على الشاشة

اولج فولكف
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود : صيانتها
تصنيفها – عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

د. محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الإنسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية

د. عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
أصله وبدايته

أنور المعداوى
على محمود طه الشاعر والإنسان

بيل شول وادبنيت
القوة النفسية للأهرام

د. صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوى

فكتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل وأحاديث من المنفى

فيرنر هيزنبرج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض : ماركس والماركسيون

ف. ع. أدينكوف
فن الأدب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
أدب الأطفال « فلسفته ، فنونه ، وسائطه »

د. نعمة رحيم العزاوى
أحمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د. فاضل أحمد الطائى
أعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

د. السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى منظمات الإدارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للإنسان

د. روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

أ. سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

د. ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى

د. ليونارد تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر

د. جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

بيير البير
الصحافة

د. غبريال وهبة
دور الكوميديا الإلهية لدانتى فى الفن التشكيلى

د. رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها

د. محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير

فرانكلين ل. باومر
الفكر الأوروبى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى

د. محيى الدين أحمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج. دادلى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د. جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد

جماعة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى
حرب الفضاء

د. السيد عليوة
إدارة الصراعات الدولية

د. مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
« الشعر – الدراما – الحكاية – القصة القصيرة »

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

انطوني دي كرسبيني وكينيث مينوج
أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكي ف. س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوي
أجهزة تكييف الهواء

بيتر رداي
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

س. م. بورا
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر الإسلامية

رونالد د. سميمسون ونورمان د. اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د. أنور عبد الملك
الشارع المصري والفكر

والت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد . س. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي

الان كاسبيار
التذوق السينمائي

سامي عبد المعطي
التخطيط السياحي في مصر بين النظرية والتطبيق

فريد هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمي المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينما والتليفزيون ٢ جـ

روي روبرتسون
الهيروين والايدز وأثرهما في المجتمع

دور كاس ماكلينتوك
صور افريقية . نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة

د. محمود سري طه
الكومبيوتر في مجالات الحياة

بيتر لوري
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الأعضاء في الألف الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية أسماك الزينة

د. أحمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الإنساني

جون . ر. بورر وميلتون جرلدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ جـ

ارنولد توينبي
الفكر التاريخي عند الإغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

م. هـ كنج. وآخرون
التغذية في البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد أبو سديرة
الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ جـ

اريك موريس والان هو
الإرهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب. كوملان
الأساطير الاغريقية والرومانية

د. توماس ا. هاريس
التوافق النفسي - تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة .
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيليوجرافي روائع الآداب العالمية جـ ١

روي آرمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة

ناجاي متشيو
الثورة الاصلاحية في اليابان

برل هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل البي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

آدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الاوركسترالي

ابو القاسم الفردوسي
الشاهنامة ٢ جـ

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ جـ

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

ناجزز ، شنين بن بنج وآخرون
مختارات من الآداب الأسيوية

ناصر خسرو علوي
سفرنامة

نادين جورديمر وجريمن أوجوت وآخرون
سقوط المطر وقصص أخرى

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني ٧ جـ

جان لويس بوري وآخرون
في النقد السينمائي الفرنسي

العثمانيون في أوربا
بول كولز

موريس بير برابر
صناع الخلود

زيجمونت هبز
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلي سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الافستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكوللز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
عن النقد السينمائى الأمريكى

نفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن اوزمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج

موني براح .واخرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ ج

جابر محمد الجزار
ماستريخت

د. ابرار كريم الله
من هم التتار

ج. س. فريزر
الكاتب الحديث وعالمه ٢ ج

سوريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهندية

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
أسرار السوبر نوفا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د. بيارا جودج
الأزهر فى ألف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية ٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة ٢ ج

رادى افينيموه
افريقيا – الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلاف مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

آدم متز
الحضارة الاسلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ليفرى شاتومان
كوانتا العدد

سونداري
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دي بونو
التفكير المتجدد

وليام هـ. ماثيوز
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى وديستويفسكى ٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيلم الأمريكى

هارى ب. ناش
السحر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف نيدهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. هـ. جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير رودولف الى الشرق ٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيرين
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم افضل

فورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطيه
البرنامج النووى الاسرائيلى
والأمن القومى العربى

ليوبوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بيتر
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٣ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين
والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسان

ت. ج. جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
انطون بروكنر

ازرا ف. فوجل
المعجزة اليابانية

ونفرد هولمز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف وهارى فيلدمان
دينامية الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كنت أ. كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند وجاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

ميجيل دى ليبس
الفئران

جوسيبى دى لونا
موسولينى

الويز جرايتر
موتسارت

على عبد الرءوف البمبى
مختارات من الشعر الاسبانى

روبرت سكولز وآخرون
آفاق أدب الخيال العلمى

ب. س. ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

ن. هوارد
أشهر الرحلات الى غرب افريقيا

و. بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيمانيسانو
تاريخ أوربا الشرقية

جابرييل جارسيا ماركيز
الجنرال فى المتاهة

هنرى برجسون
الضحك

مصطفى محمود سليمان
الزلازل

م. و. ثرنج
ضمير المهندس

أ. ر. جرنى
الحيثيون

سبتينو موسكاتى
الحضارات السامية

د. ألبرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
الأدب العربى المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/١١٨١٩

ISBN — 977 — 01 — 9895 — 1

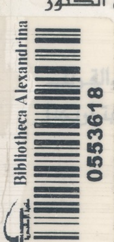
صاحبة هذا الكتاب عاشقة لمصر ...

قبل أكثر من مائة عام قدمت إميليا إدواردز إلى مصر مفعمة بشوق متدفق لرؤية آثار حضارة الفراعنة التي كانت أسرارها قد بدأت تتكشف رويدا رويدا آنذاك بعد أن توصل العلماء إلى حل شفرتها. وقد تحلت هذه السيدة بروح جسورة جذابة جعلتها لا تأبه بتقاليد العصر الفيكتوري المتزمت فلم تتردد في أن تخوض تلك الرحلة الطويلة عبر صعيد مصر وحتى أعماق النوبة في مركبة نيلية، وقد اختارت اسم الألف ميل عنوان لرحلتها حتى تشي بطولها.

وبقلمها الرشيق حفظت لنا صورة للحياة في صعيد مصر في أواخر القرن الماضي وصورت لنا آثارها الهامة.

وقد كانت هذه السيدة من مؤسسي «صندوق اكتشاف مصر» وهي جمعية علمية أثرية اهتمت بتشجيع عمليات التنقيب الأثري القائم على أسس علمية وبذا ساعدت على أن تميط اللثام عن الكثير من الصفحات المجهولة من تاريخ مصر وحفظ العديد من آثارها كما إنها ساعدت على إخراج المغامرين من ميدان التنقيب عن الكنوز المصرية.

وبعد فهذا الكتاب سياحة ممتعة في الماضي البعيد و
وسيرة صاحبته جديرة بأن تكون مصدر إلهام لنا للاهتمام
وآثارنا.



١٣٠٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب